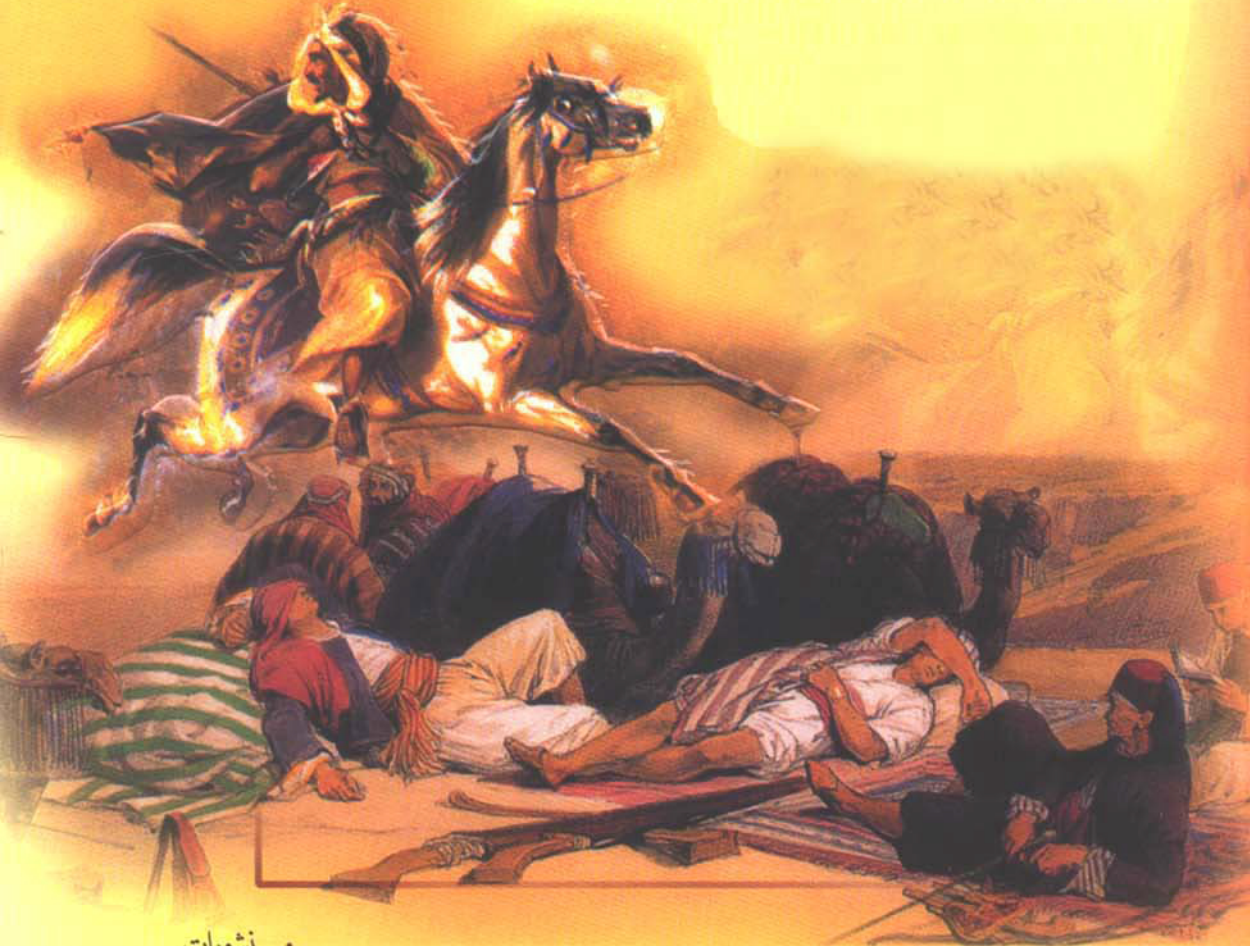


قصة العرب

موسوعة تراثية جامعة لقصص ونوادير وطرائف العرب في العصرين الجاهلي والإسلامي

إبراهيم شمس الدين

قصة العرب



منشورات

محمد علي بيضون

لتشركتب الشئنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

اعداد

إبراهيم شمس الدين

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

قِصَصُ الْعَرَبِ

مَوْسُوعَةٌ تَرَاثِيَّةٌ جَامِعَةٌ
لِقِصَصِ وَنَوَادِرِ وَطَرَايِفِ الْعَرَبِ
فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ

إِعْدَادُ

إِبْرَاهِيمَ شَمْسِ الدِّينِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

يَحْتَوِي عَلَى:

الباب الرابع : قصص الفُجَّارِ والأَذْكَاءِ والمُحَقِّقِ
والمُفْضَلِينَ

الباب الخامس : قصص الملوكِ والمُفْضَلِ والمُؤَيَّدِ
والمُجَابِّدِ والوَلَاءِ وَالْقَضَاءِ وَالْقَضَائِمِ
والمُعْبِدِ وَالْإِعْزَازِ وَالْمُحَرِّمِ

الباب السادس : قصص الفُضَاءِ وَالْمُفْضَلِ وَالْمُطَبِّبِ
والمُشْعَرِ وَالْمُكَلِّبِ

الباب السابع : قصص الجبلِ وَالْمُنْدَاعِ وَالْبِقِطَةِ
والتَّبَصُّرِ فِي الْأَرْضِ

مَنْشُورَاتُ

مُحَمَّدِ عَالِي بِيضُونِ

لِنَشْرِ كُتُبِ الشُّنَّةِ وَالْمُجْتَمَاعَةِ

دَارُ الْكُتُبِ الْعَالَمِيَّةِ

بِكَبْرُوتِ - بَيْسْتَانَ



جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدارالكتب العلمية في بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة
تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على
أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو
برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة
الناشر خطياً.

Exclusive Rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Libanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base, or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits Exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دارالكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطريف، شارع البحري، بناية ملكات
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (٩٦١ ١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Libanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Libanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3423-X



9 782745 134233

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

الباب الرابع

أولاً: قصص العقلاء والأذكياء
ثانياً: قصص الحمقى والمغفلين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أولاً: قصص العقلاء والأذكياء

قال في المستطرف^(١):

نص الله سبحانه وتعالى في مُحكم كتابه العزيز ومُنزّل خطابه الوجيه على شرف العقل، وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها، وبين بدائع مصنوعاته وشرحها، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: الآية ١٢]. ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبِل، فأقبِل ثم قال له: أدبِر، فأدبِر، فقال عزّ من قائل: «وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعزّ عليّ منك. بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب». وقال أهل المعرفة والعلم: العقل جوهر مضيء خلقه الله عزّ وجلّ في الدماغ، وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما. فأما الأول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء. وأما الثاني فهو العقل التجريبي وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة يقال إن الشيخ أكمل عقلاً وأتمّ دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة، ولهذا قيل: من بيّضت الحوادث سواد لّمته، وأخلقت التجارب لباس جدته، وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته، تصاريف أقداره وأفضيته. كان جديراً برزانة العقل ورجاحة الدراية، وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرّجه عن حدّ

(١) المستطرف ص ١٩.

الاكتساب ويصير بها راجحاً على ذوي التجارب والآداب، ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به في مُحْكَم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَمَا آتَيْنَهُهُ الْحِكْمَ صَبِيًّا ۗ﴾ [مريم: الآية ١٢]. فَمَنْ سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة، وأدركته عناية أزلية، أشرفت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية، فاتصف بالذكاء والفتنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث.

قصة سليمان بن داود وصاحبي الحرث والغنم

وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث^(١). فقال أحدهما: أن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثي فأهلكته وأكلته ولم تبق لي فيه شيئاً، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرآ على سليمان عليه السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة، فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك. فقال: غير هذا أرفق بالفريقين. فعادا إلى داود عليه السلام وقالوا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له: ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلّم الغنم إلى صاحب الحرث. - وكان الحرث كرماً قد تدلّت عناقيده في قول أكثر المفسرين - فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها ويتنفع بدها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيه وصورته، فقال له داود: القضاء كما قلت. وحكم به كما قال سليمان عليه السلام.

وفي هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ^(٢) فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۗ﴾ [٧٨] فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۗ﴾ [الأنبياء: الآيتان ٧٨، ٧٩]. فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية وألطف إلهية، وإذا

(٢) نفست: أفسدت.

(١) الحرث: الزرع.

قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه في قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوي التجارب والاكْتساب في كثير من الأسباب، ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته، فإن المشاهدة من خصائص الأجسام، فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمر متعددة منها: ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه عاراً ويورثه سوء السمعة.

وقد قيل لبعض الحكماء: بمَ يعرف عقل الرجل؟ فقال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقيل له: فإن كان غائباً، فقال: بإحدى ثلاث إما برسوله وإما بكتابه وإما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همته، فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها. وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه. فإنه رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق. وقالوا: العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه. وقال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس» وقال علي بن عبيدة، العقل ملك والخصال رعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها. فسمعه أعرابي فقال: هذا كلام يقطر عسله. وقيل: بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا. وقيل: لكل شيء غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج. واختلف الحكماء في ماهيته فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة في القلب كالنور في العين. وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور، وعمى القلب كعمى البصر. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]. وقيل: محل العقل الدماغ وهو قول أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وذهب جماعة إلى أنه في القلب كما رُوِيَ عن الشافعي رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: الآية ٤٦] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَلذِّكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾

[ق: الآية ٣٧]. أي عقل، وقالوا: التجربة مرآة العقل، ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة. قال الشاعر:

ألم تر أن العقلَ زينٌ لأهله ولكن تمامَ العقلِ طولَ التجاربِ

وقال آخر:

إذا طال عمرُ المرءِ في غيرِ آفةٍ أفادت له الأيامُ في كرها عقلا

وقال عامر بن عبد قيس: إذا عقلك^(١) عقلك عما لا يعينك فأنت عاقل. ويقال: لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس. وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان. قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقلٌ فإنه وإن كان ذا بيتٍ على الناس هين

ومن كان ذا عقلٍ أجلّ لعقله وأفضل عقلٍ من يتدين

وقالوا: العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح، والجاهل تبطره^(٢) أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح. وقيل لعلّي رضي الله عنه: صف لنا العاقل؟ قال: هو الذي يضع الشيء مواضعه. قيل: فصف لنا الجاهل؟ قال: قد فعلت. يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه.

وقال المنصور لولده: خذ عني ثنتين. لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير. وقال أردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقراية إلى المودة، والعقل إلى التجربة. وقال كسرى أنو شروان: أربعة تؤدي إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأي إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير. وقال القاسم بن محمد: من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه. وقيل: أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه. وقيل: ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد في المعيشة، والتحبب إلى الناس. وقيل: من أعجب برأي نفسه بطل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذوي

(١) عقلك: منعك، والعقال: ما يعقل به ويربط.

(٢) تبطره: من البطر، وهو التكبر عند حلول النعمة.

العقول مات عقله. وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغارًا، وأرحمهم كبارًا. وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق. وقيل: لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعامًا حتى يستمرئه، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه، وقيل: طول اللحية أمان من العقل. وسئل بعضهم: أيما أحمد في الصبا الحياء أم الخوف؟ قال: الحياء لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الخبن. وقيل: غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عويمر ازدد عقلًا تزدد من الله تعالى قريبًا» بأبي وأمي ومن لي بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلًا، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزد في الدنيا عقلًا، وتزد من الله قريبًا وعزًا». وحكى بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم. ويروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إِنَّ المكارم إِخلاقٌ مطهرةٌ	فالعقل أولها والدينُ ثانيها
والعلمُ ثالثها والحلم رابعها	والجود خامسها والعزفُ ^(١) سادها
والبر سابعها والصبر ثامنها	والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم أني من عيني محدثها	إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أصدقها	ولست أرشدُ إلا حين أعصيها

وقال بعض الحكماء: العاقل من عقله في إرشاد، ورأيه في إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد. والجاهل من جهله في إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم. ولا يكتفي في الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفته^(٢) ونظافة بزته، إذ كم من كنيف^(٣) مبيض، وجلد مفضض.

(١) العرف: سلوك مستقيم تعارف عليه الناس في تقاليدهم وعاداتهم. وهو أيضًا: الصبر والكرم والمعروف.

(٢) صلفته: من الصلف وهو الادعاء والتكبر. (٣) الكنيف: المرحاض.

قال الأصمعي: رأيت بالبصرة شيخًا له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية وهرج، وعنده دخل وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت: ما كنية سيدنا؟ فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، قال الأصمعي: فضحكت منه وعلمت قلّة عقله وكثرة جهله، ولم يدفع ذلك عنه غرارة خرجة ودخله. وقد يكون الرجل موسومًا بالعقل مرموقًا بعين الفضل، فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله.

قصة إياس بن معاوية القاضي

قيل: إن إياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة، فاتفق أن رجلًا أراد أن يحج، فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيسًا فيه جملة من الذهب، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده، فجاء إلى القاضي إياس وقصّ عليه القصة، فقال القاضي: هل أخبرت بذلك أحدًا غيري؟ قال: لا. قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلي؟ قال: لا. قال: انصرف واكتم أمرك، ثم عد إلي بعد غد. فانصرف. ثم إن القاضي دعا ذلك الرجل المستودع فقال: قد حصل عندي أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيء لها موضعًا حصينًا. فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل، فقال له القاضي إياس: امض إلى خصمك واطلب منه وديعتك، فإن جحدك فقل له: امض معي إلى القاضي إياس أتحاكم أنا وأنت عنده، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته فجاء إلى القاضي وأعلمه بذلك. ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضي طامعًا في تسليم المال، فسبّه القاضي وطرده. وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره.

من عقلاء الروم

لما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها. فقال: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكننا الغرة^(١) منهم والثوبة عليهم، وعقدوا لذلك

(١) الغرة: الفرصة والغفلة.

المشورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر. وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة والرأي غائبًا عنهم، فقالوا: من الحزم عرض الرأي عليه. فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صوابًا. فسألوه عن غلة ذلك فقال: في غد أخبركم إن شاء الله تعالى. فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا: قد وعدتنا أن نخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه، فقال: سمعًا وطاعة. وأمر بإحضار كلين عظيمين كان قد أعدهما، ثم حرض بينهما وحرص كل واحد منهما على الآخر، فتوثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلين ذئبًا كان قد أعد له لذلك، فلما أبصره تركا ما كانا عليه وتألقت قلوبهما ووثبا جميعًا على الذئب فقتلاه. فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مثلكم مع المسلمين هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج^(١) بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتآلفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه.

فطنة وذكاء رسول الله ﷺ (٢)

عن عليّ عليه السلام قال: لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وجدنا عندها رجلين رجلًا من قريب ومولى لعقبة بن أبي معيط. فأما القرشي فأفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى النبي ﷺ فقال له: كم القوم؟ فقال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم فأبى، ثم أن النبي ﷺ سأله: كم ينحرون من الجزر؟ فقال: عشرًا لكل يوم، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ألف كل جزور لمائة وتبعها».

وعن كعب بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزاة يغزوها إلا وري بغيرها» أخرجاه في الصحيحين.

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس إن الله عز وجل يعرض بالخمير سينزل فيها أمرًا فمن كان عنده منها شيء فليبعه فلينتفع به» قال: فما لبثنا إلا يسيرًا حتى قال ﷺ: «إن الله عز وجل حرم الخمر

(١) الهرج: الفتنة والاختلاط والقتل. (٢) كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٢٨.

فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء، فلا يشربه ولا يبيع فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها» انفراد بإخراجه مسلم.

وعن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحدث أحدكم في الصلاة فليأخذ بأنفه ثم لينصرف».

وأبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله! إن لي جار يؤذيني فقال: «انطلق واخرج متاعك إلى الطريق» فانطلق فأخرج متاعه فاجتمع الناس عليه، فقالوا: ما شأنك؟ قال: لي جار يؤذيني، فذكرت ذلك للنبي ﷺ: فقال: انطلق واخرج متاعك إلى الطريق، فجعلوا يقولون: اللهم العنه، اللهم اخزه، فبلغه فأتاه، فقال: ارجع إلى منزلك فوالله لا أؤذيك.

وعن زيد بن أسلم، أن رجلاً قال لحذيفة: يا حذيفة: نشكو إلى الله صحبتكم رسول الله أدركتموه ولم ندرکه، ورأيتموه ولم نره، فقال حذيفة: ونحو نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه، والله ما تدري يا ابن أخي لو أدركته كيف كنت تكون. لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق في ليلة باردة مظلمة مطيرة، وقد نزل أبو سفیان وأصحابه بالعرصة، فقال رسول الله ﷺ: «من رجل يذهب فيعلم لنا علم القوم أدخله الله الجنة» فما قام منا أحد، ثم قال: «من رجل يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيق إبراهيم يوم القيامة» فوالله ما قام منا أحد. فقال: «من رجل يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيق يوم القيامة». فوالله ما قام أحد منا. فقال أبو بكر: يا رسول الله! ابعث حذيفة. فقال رسول الله ﷺ: «يا حذيفة» فقلت: لبيك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فقال: «هل أنت ذاهب» فقلت: والله ما بي أن أقتل، ولكنني أخشى أن أؤسر. فقال: «إنك لن تؤسر» فقلت: مرني يا رسول الله بما شئت. فقال: «اذهب حتى تدخل بين ظهرائي القوم فأت قريشاً فقل: يا معشر قريش إنما يريد الناس إذا كان غداً أن يقولوا: أين قريش، أين قادة الناس، أين رؤوس الناس، فيقدمونكم، فتصلون القتال فيكون القتل بكم، ثم ائت قيساً فقل: يا معشر قيس! إنما يريد الناس إذا كان غداً أن يقولوا: أين أحلاس الخيل، أين الفرسان، فيقدمونكم فتصلون القتال فيكون القتل بكم».

فانطلقت حتى دخلت بين ظهرائي القوم، فجعلت اصطلي معهم على نيرانهم، وجعلت أبث ذلك الحديث الذي أمرني به، حتى إذا كان وجاء السحر

قام أبو سفيان فدعا اللات والعزى وأشرك، ثم قال: لينظر كل رجل من جلسه ومعى رجل منهم يصطلي على النار، فوثبت عليه فأخذت بيده مخافة أن يأخذني، فقلت: مَنْ أنت؟ فقال: أنا فلان ابن فلان. فقلت: أولى، فلما دنا الصبح نادوا: أين قريش أين رؤوس الناس؟ فقالوا: هات الذي أتيتنا به البارحة أين بنو كنانة أين الرماة فقالوا: هات الذي أتيتنا به البارحة، فتخاذلوا وبعث الله عليهم تلك الليلة الريح، فما تركت لهم بناء إلا هدمته ولا إناء إلا أكفأته، حتى لقد رأيت أبا سفيان وثب على جمل له معقول، فجعل يسحبه ولا يستطيع أن يقوم، فجئت رسول الله ﷺ، فجعلت أخبره عن أبي سفيان، فجعل يضحك حتى بدت نواجذه وجعلت أنظر إلى أنيابه.

وعن عاصم الأحول، عن الحسن أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ برجل قد قتل حميماً له، فقال له النبي ﷺ: «أأخذ الدية؟» قال: لا. قال: «أفتعفو؟». قال: لا. قال: «أذهب فاقتله». فلما جاوزه الرجل قال رسول الله ﷺ: «إن قتله فهو مثله». قال: فلحق الرجل رجل فقال له: إن رسول الله ﷺ قال: كذا، فتركه وهو يجز نسعه في عنقه.

قال ابن قتيبة لم يرد رسول الله ﷺ أنه مثله في المأثم واستيجاب النار إن قتله. وكيف يريد هذا وقد أباح الله عز وجل قتله بالقصاص، ولكن كره رسول الله ﷺ أن يقتصر واجب له العفو، فعرض تعريضاً أوهمه به أنه إن قتله كان مثله في الإثم ليعفو عنه، وكان مراده أنه يقتل نفساً كما قتل الأول نفساً، فهذا قاتل وهذا قاتل، فقد استويا في قاتل وقاتل. إلا أن الأول ظالم والآخر مقتصر.

فطنة وذكاء إبراهيم عليه السلام^(١)

عن ابن عباس قال: لما رأت سارة إبراهيم قد شغف بأم إسماعيل غارت غيرة شديدة، وحلفت لتقطعن عضواً من أعضاء هاجر، فبلغ ذلك هاجر، فلبست درعاً وجرت ذيلها، فهي أول نساء العالمين جرت الذيل، وإنما فعلت ذلك لتعفي أثرها في الطريق على سارة، فقال إبراهيم: هل لك في خير أن تعفي عنها وترضي بقضاء الله عز وجل؟ قالت: وكيف لي بما قد حلفت؟ قال: خفصتها^(٢)، فتكون

(٢) الخفض للأنث كالحثان للذكور.

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٣ - ٢٥.

سنة النساء وتبر يمينك. قالت: أفعل. فخفضتها فمضت السنة للنساء بالخفض منها.

وعن سعيد بن جبير قال، قال ابن عباس: لما شب إسماعيل تزوج امرأة من جرهم، فجاء إبراهيم فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته، فقالت: خرج بيتغي لنا، ثم سألتها عن عيشهم، فقالت: نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه، فقال: فإذا جاء زوجك فاقرني عليه السلام وقولي له: يُعَيِّرُ عتبة بابه، فلما جاء فأخبرته. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك إلحقي بأهلك.

فطنة وذكاء سليمان عليه السلام^(١)

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على أحدهما، فأخذتا يختصمان في الصبي الباقي فاختمتا إلى داود عليه الصلاة والسلام، ففضى به للكبرى منهما، فمرتاً على سليمان عليه السلام، فقال: ما أمركما؟ فقضتا عليه القصة. فقال: اتنوني بالسكين أشق الغلام بينكما، فقالت الصغرى: أتشقه؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل حظي منه لها، فقال: هو ابنك، ففضى به لها» أخرجاه في الصحيحين.

وعن عبد الله بن عمير قال: بعث سليمان عليه السلام إلى مارد من مردة الجن فأتي به، فلما كان على باب سليمان أخذ عودًا فذرعه بذراعه ورمى به وراء الحائط، فوقع بين يدي سليمان، فقال: ما هذا؟ فأخبر بما صنع المارد، قال: أتدرون ما أراد؟ قالوا: لا، قال: يقول اصنع ما شئت، فإنك تصير إلى مثل هذا من الأرض.

وعن مكحول قال أبو هريرة: بينا سليمان بن داود عليه السلام يسعى في موكبه إذ مرّ بامرأة تصيح بابنها بالدين، فوقف سليمان وقال: أن دين الله ظاهر، فأرسل إلى المرأة، فسألها، فقالت: إن زوجها سافر وله شريك، فزعم شريكه أنه مات وأوصى إن ولدت غلامًا أن أسميه بالادين، فأرسل إلى الشريك فاعترف أنه قتله، فقتله سليمان عليه السلام.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: جاء رجل إلى سليمان النبي ﷺ فقال: يا نبي الله! إن لي جيرانًا يسرقون إوزي، فنأدى: الصلاة جامعة، ثم خطبهم فقال في

(١) كتاب الأذكياء ص ٣٤.

خطبته: واحدكم يسرق إوز جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه فمسح رجل برأسه فقال سليمان: خذوه فإنه صاحبكم.

ومن المنقول عن عيسى عليه السلام: أن إبليس جاء إليه، فقال له: أأنت تزعم أنه لا يصيبك إلا ما كتب الله لك؟ قال: بلى، قال: فارم بنفسك من هذا الجبل، فإنه إن قُدر لك السلامة تسلم، فقال له: يا ملعون إن الله عز وجل أن يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربه عز وجل.

(١) لقمان الحكيم وشرب النهر

عن مكحول أن لقمان الحكيم كان عبداً نوبياً أسود، وكان قد أعطاه الله تعالى الحكمة، وكان لرجل من بني إسرائيل اشتراه بثلاثين مثقالاً ونش. يعني نصف مثقال، وكان يعمل له، وكان مولاه يلعب بالنرد يقامر عليه، وكان على بابه نهر جار، فلعب يوماً بالنرد على أن من قمر صاحبه شرب الماء الذي في النهر كله أو افتدى منه، وإن هو قمر صاحبه فعل به مثل ذلك قال: فقمر سيد لقمان، فقال له القامر: اشرب ما في النهر وإلا فافتد منه، قال: فسلني الفداء. قال: عينيك افقؤهما أو جميع ما تملك، قال: امهلي يومي هذا، قال: لك ذلك، قال: فأمسى كئيباً حزيناً إذ جاءه لقمان وقد حمل حزمة على ظهره، فسلم على سيده ثم وضع ما معه ورجع إلى سيده، وكان سيده إذا رآه عبث به ويسمع منه الكلمة الحكيمة فيعجب منه، فلما جلس إليه قال لسيده: ما لي أراك كئيباً حزيناً فأعرض عنه، فقال له: الثانية مثل ذلك فأعرض عنه، ثم قال له: الثالثة مثل ذلك فأعرض عنه، فقال له: أخبرني فلعل لك عندي فرجاً فقصر عليه القصة، فقال له لقمان: لا تغتم فإن لك عندي فرجاً، قال: وما هو؟ قال: إذا أتاك الرجل فقال لك: اشرب ما في النهر، فقل له: أشرب ما بين ضفتي النهر أو المد، فإنه سيقول لك: اشرب ما بين الضفتين، فإذا قال لك ذلك، فقل له: احبس عني المد حتى أشرب ما بين الضفتين، فإنه لا يستطيع أن يحبس عنك المد، وتكون قد خرجت مما ضمننت له، فعرف سيده أنه قد صدق، فطابت نفسه، فلما أصبح جاءه الرجل، فقال له: في لي بشرطي، قال له: نعم أشرب ما بين الضفتين أو المد، قال: لا بل ما بين الضفتين، قال: فاحبس عني المد، قال: كيف أستطيع؟ قال: فخضمه، قال: فأعتقه مولاه.

وقال لقمان لابنه يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره.

عبد الله بن عامر الأزدي وسيل العرم^(١)

ومن ذلك ما نقل عن عبد الله بن عامر الأزدي في الاحتياال للسلامة من سيل العرم: حدّثنا الضحّاك، عن ابن عباس: لقد كان لسباً في مساكنهم آية، قال: كانت لا تنقطع عنهم جنتهم شتاء ولا صيفاً، فكفروا ما أنعم الله عليهم، فأرسل عليهم سيل العرم فسلب على الردم الذي بنوه على غير شربهم جرّداً له مخاليب وأنياب من حديد، فأول من علم بذلك عبد الله بن عامر الأزدي، فانطلق نحو الردم، فرأى الجرذ يحفر بمخاليب من حديد ويقرض بأنياب من حديد، فانصرف إلى أهله فأخبر امرأته وأراها ذلك وأرسل إلى بنيه، فقال: هل ترون ما رأينا؟ قالوا: نعم. قال: فإن هذا الأمر ليس لنا إليه سبيل اضمحلت الحيل فيه، لأن الأمر لله وقد أذن في هلاكه، فأتى بهرة والجرذ يحفر ولا يكثر بالهرة، فلما رأت الهرة ذلك ولّت هاربة، فقال عبد الله: احتالوا لأنفسكم. قالوا: يا أبت كيف نحتال؟ قال: إنني محتال لكم بحيلة قال: فدعا أصغر بنيه ثم قال له: إذا جلست اليوم في المجلس، وكان الناس يجتمعون إليه ويتتهون إلى رأيه، فإذا اجتمعوا أمرت أصغركم بأمر فليغفل عنه، فإذا شتمته فليهم إليّ فليطمني ولا تتغيروا أنتم عليه، فإذا رأى الجلساء أنكم لم تتغيروا على أخيكم لم يجسر أحد منهم أن يتغير عليه، أحلف أنا عند ذلك يمينا لا كفارة لها أن لا أقيم بين أظهر قوم قام إليّ أصغر بني فلطمني، فلم يتغيروا عليه لذلك قالوا: نفعل.

فلما راح الناس إليه أمر ابنه ببعض أمره فلهى عنه، ثم أمره فلهى عنه فشتمه، فقام إليه فلطم وجهه، فعجبوا من جرأة ابنه، فنكسوا رؤوسهم وظنوا أن ولده يتغيرون عليه، فلما لم يتغير أحد منهم قام الشيخ، فحلف أن يتحول عنهم ويستبدلوا بداره، فلا يقيم بين أظهر قوم لم يتغيروا على ابنه، فقام القوم معتردين وقالوا: أما كنا ظننا أن ولدك لا يتغيرون، فذلك الذي منعنا. قال: قد سبق مني ما ترون وليس إلى غير التحويل سبيل، فعرض ضياعه على

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٧.

البيع، وكان الناس يتنافسون فيها واحتمل بثقله وعياله فتحول عنهم، فلم يلبث القوم إلا قليلاً حتى أتى الجرذ على الردم فاستأصله، فلم يفاجيء القوم ليلة بعدما هدأت العيون إذا هم بالسيل قد أقبل، فاحتمل أنعامهم وأموالهم وخرّب ديارهم.

فطنة وذكاء الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم^(١)

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

عن أنس قال: لما هاجر رسول الله ﷺ كان رسول الله يركب، وأبو بكر رديفه. وكان أبو بكر يعرف الطريق لاختلافه إلى الشام، فكان يمر بالقوم فيقولون: مَنْ هذا بين يديك يا أبا بكر؟ فيقول: هاد يهديني.

حدّثنا الحسن قال: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر من الغار لم يستقبلهما أحد يعرف أبا بكر إلا قال له: مَنْ هذا معك يا أبا بكر؟ فيقول: دليل يدلني الطريق. وصدق والله أبو بكر.

حدّثنا الحسن قال: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر الناس، فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرُ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدَ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». قال: فبكى أبوبكر فعجبنا من بكائه أن خبر رسول الله ﷺ عن عبد خير فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عن أسلم، عن أبيه قال: قدمت على عمر بن الخطاب حلال من اليمن فقسمها بين الناس، فرأى فيها حلة رديثة. فقال: كيف أصنع بهذه إذا أعطيتها أحد لم يقبلها إذا رأى هذا العيب فيها؟ قال: فأخذها فطواها فجعلها تحت مجلسه، وأخرج طرفها ووضع الحلال بين يديه، فجعل يقسم بين الناس. قال: فدخل الزبير بين العوام، وهو تلك الحال قال: فجعل ينظر إلى تلك الحلة فقال له: ما هذه الحلة؟ قال عمر: دع هذه عنك. قال: ما هيه ما هيه ما شأنها؟ قال: دعها عنك. قال: فأعطينيها. قال: إنك لا ترضاها. قال: بلى قد رضيتها. فلما توثق منه واشترط عليه أن يقبلها، ولا يردها رمى بها إليه، فلما أخذها الزبير ونظر إليها إذا

(١) كتاب الأذكياء ص ٣١ - ٤١.

هي رديئة، فقال: لا أريدها. فقال عمر: أيها قد فرغت منها، فأجازها عليه وأبى أن يقبلها منه.

وعن عمر قال له والناس يتحامون العراق وقتال الأعاجم: سر بقومك، فما قد غلبت عليه فلك ربه، فلما جمعت الغنائم غنائم جلولاء ادعى جرير أن له ربع ذلك كله، فكتب سعد إلى عمر بذلك، فكتب عمر صدق جرير قد قلت ذلك له، فإن شاء أن يكون قاتل هو وقومه على جعل فأعطوه جعله، وإن يكن إنما قاتل الله ولدينه ولحبيبه فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، فلما قدم الكتاب على سعد أخبر جرير بذلك، فقال جرير: صدق أمير المؤمنين لا حاجة لي به، بل أنا رجل من المسلمين.

وعن ابن عمر قال: بينما عمر رضي الله عنه جالس إذ رأى رجلاً، فقال: قد كنت مرة ذا فراسة وليس لي رأي إن لم يكن هذا الرجل ينظر ويقول في الكهانة شيئاً ادعوه لي، فدعوه فقال: هل كنت تنظر وتقول في الكهانة شيئاً؟ قال: نعم.

وعن عمر رضي الله عنه أنه خرج يعس المدينة بالليل، فرأى ناراً موقدة في خباء، فوقف وقال: يا أهل الضوء وكره أن يقول يا أهل النار. وهذا من غاية الذكاء.

قال لرجل عرس هل كان؟ فقال: لا أطل الله بفاك. فقال عمر: قد علمتم فلم تتعلموا. هلا قلت لا وأطل الله بفاك.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

عن أبي البخري قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فأطراه وكان بغضه، فقال له: إني ليس كما تقول وأنا فوق ما في نفسك.

وعبد الله بن سلمة قال: سمعت علياً يقول بمسكن: لا أغسل رأسي بغسل حتى آتي البصرة وأحرقها وأسوق الناس بعصاي إلى مصر قال: فأتيت أبا مسعود البدري، فأخبرته أن علياً يورد الأمور مواردها لا يحسنون يصدرونها على رجل أصلح إنما رأسه مثل الطست، إنما حوله زغيبات أو قال: شعيرات.

وعن خنيس بن المعتمر أن رجلين أتيا امرأة من قريش، فاستودعاها مائة دينار وقالوا: لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه حتى نجتمع، فلبثا حولاً، فجاء

أحدهما إليها، فقال إن صاحبي قد مات، فادفعي إليّ الدنانير، فأبت وقالت: إنكما قتلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه، فلست بدافعتها إليك، فثقل عليها بأهلها وجيرانها فلم يزلوا بها حتى دفعتها إليه، ثم لبثت حولاً فجاء الآخر، فقال ادفعي إليّ الدنانير، فقالت: إن صاحبك جاءني، فزعم أنك مت فدفعتها إليه، فاختصما إلى عمر بن الخطاب، فأراد أن يقضي عليها، فقالت: أنشدك الله أن تقضي بيننا ارفعنا إلى عليّ، فرفعهما إلى عليّ وعرف أنهما قد مكرتا بها، فقال: أليس قد قتلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه؟ قال: بلى. قال: فإن مالك عندنا، فاذهب فجيء بصاحبك حتى ندفعها إليكما.

عن عليّ أنه جيء برجل حلف، فقال: امرأته طالق ثلاثاً إن لم يطأها في شهر رمضان نهاراً، فقال تسافر بها ثم لتجامعها نهاراً.

الحسن بن علي رضي الله عنه

عن أبي الوفاء بن عقيل قال: لما جيء بابن ملجم إلى الحسن قال له: أريد أن أسارك بكلمة، فأبى الحسن وقال: إنه يريد أن يعض أذني، فقال ابن ملجم: والله لو مكنتني منها لأخذتها من صماخه.

قال ابن عقيل: انظر إلى حسن رأي هذا السيد الذي قد نزل به من المصيبة الفادحة ما يذهل الخلق وتقصيه إلى هذا الحد، وانظر إلى ذلك اللعين كيف لم يشغله حاله عن استرداد غشه.

الحسين بن علي رضي الله عنه

عن إبراهيم بن رباح الموصلي قال: يروى أن رجلاً ادعى على الحسين بن عليّ مالاً وقدمه إلى القاضي، فقال الحسين: ليحلف عليّ ما ادعى وبأخذه، فقال الرجل: والله الذي لا إله إلا هو فقال: قل والله والله والله إن هذا الذي تدعيه لك قبلي، ففعل الرجل وقام، فاختلفت رجلاه وسقط ميتاً. فقيل للحسين في ذلك، فقال: كرهت أن يمجد الله فيحلم عنه.

العباس رضي الله عنه

عن أبي رزين قال: سئل العباس أنت أكبر أم النبي ﷺ؟ فقال: هو أكبر مني وأنا ولدت قبله.

وعن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك العير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب وهو أسير في وثاقه: أنه لا يصلح لك. قال: ولم؟ قال: لأن الله تعالى إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك.

وعن مجاهد قال: بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ وجد ريحاً فقال: ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ، فاستحيا الرجل ثم قال: ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ، فإن الله لا يستحي من الحق، فقال العباس: ألا نقوم مرسلًا، ووصله عنه محمد بن مصعب القرساني، فقال عن مجاهد، عن ابن عباس. وقد جرى مثل هذه القضية عند عمر رضي الله عنه، عن الشعبي: أن عمر كان في بيت ومعه جرير بن عبد الله، فوجد عمر ريحاً فقال: عزمت على صاحب هذه الريح أن قام فتوضأ، فقال جرير: يا أمير المؤمنين أو يتوضأ القوم جميعًا. فقال عمر: رحمك الله نعم السيد كنت في الجاهلية، ونعم السيد أنت في الإسلام.

عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

عن عكرمة مولى ابن عباس أن عبد الله بن رواحة كان مضطجعاً إلى جنب امرأة، فخرج إلى الحجرة فواقع جارية له فاستنبتت المرأة فلم تره فخرجت فإذا هو على بطن الجارية، فرجعت فأخذت شفرة، فلقيها ومعها الشفرة، فقال لها: مهيم؟ فقالت: مهيم. أما أني لو وجدتك حيث كنت لو جأتك بها. قال: وأين؟ قالت: على بطن الجارية. قال: ما كنت. قالت: بلى. قال: فإن رسول الله ﷺ نهى أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جُنُب، فقالت: إقرأ، فقال:

أتانا رسول الله يتلو كتابه	كما لاح منشور من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع
بييت يجافي جنبه عن فراشه	إذا استئقلت بالكافرين المصاحف

قالت: آمنت بالله وكذبت بصري. قال: فغدوت إلى النبي ﷺ فأخبرته، فضحك حتى بدت نواجذه.

محمد بن مسلمة رضي الله عنه

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف فإنه قد أذى الله ورسوله؟» فقال له محمد بن مسلمة: أتحب أن أقتله يا رسول الله؟ قال: «نعم».

قال: أنا له يا رسول الله. فائذن لي أن أقول قال: قل، فاتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد أخذنا بالصدقة، وقد عنانا وقد مللنا منه. قال الخبيث لما سمعها: والله لتملته أو لتملن منه، وقد علمت أن أمركم سيصير إلى هذا. قال: إنا لا نستطيع أن نسلمه حتى ننظر ما يفعل، وإنا نكره بعد أن تبعناه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره، وقد جئت لتسلفني تمرًا. قال: نعم على أن ترهنوني نساءكم قال محمد: أترهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فأولادكم. قال: فيعير الناس أولادنا بأنا رهناهم بوسق أو وسقين، وربما قال: فيسب ابن أحدنا، فيقال برهن وسق أو وسقين. قال: فأي شيء ترهنوني؟ قال: نرهنك اللامة يعني السلاح. قال: نعم، فواعده أن يأتيه، فرجع محمد إلى أصحابه فأقبل وأقبل معه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرضاعة، وجاء معه برجلين آخرين، فقال: إني مستمكّن من رمته فإذا أدخلت يدي في رأسه فدونكم الرجل، فجاؤوه ليلاً فأمر أصحابه، فقاموا في ظل النخل، وأتاه محمد فناده، فقالت امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ قال: إنما هو محمد بن مسلمة، وأخي أبو نائلة، فنزل إليه ملتحفًا في ثوب واحد وينفخ منه ريح الطيب، فقال محمد: ما أحسن جسدك وأطيب ريحك. قال: إن عندي ابنة فلان وهي أعطر العرب. قال: أتأذن لي أن أشمه؟ قال: نعم. قال: فأدخل محمد يده في رأسه فشمه، ثم قال: أتأذن لي أن أشمه أصحابي؟ قال: نعم. فأدخلها في رأسه ثم شبك يده في رأسه قبضًا، ثم قال لأصحابه: دونكم عدو الله، فخرجوا عليه فقتلوه ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره.

وعن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رجل من اليهود ليقتله، فقال: يا رسول الله إني لن أستطيع ذلك. إلا أن تأذن لي. فقال رسول الله ﷺ: «إنما الحرب خدعة فاصنع ما تريد».

قال مؤلف الكتاب: قلت، وقد روينا عن الضحاك في اغتيالهم أبا رافع اليهودي ما يقارب هذه القصة، فلم نر التطويل بذكرها.

سويبط بن حرملة رضي الله عنه

عن وهب بن عبد الله بن زمعة قال: أخبرتنا أم سلمة قالت: خرج أبو بكر في تجارة إلى بصرى قبل موت رسول الله ﷺ بعام، ومعه نعيمان وسويبط بن

قصص العرب/ الجزء الثاني

حرملة، وكانا قد شهدا بدرًا، وكان نعيمان على الزاد وكان سويبط رجلًا مزاحًا، فقال النعيمان: أطعمني. قال: حتى يجيء أبو بكر. قال: أما لأغيظنك. قال: فمروا بقوم فقال لهم سويبط: أنشرون مني عبدًا لي؟ قالوا: نعم. قال: إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم إني حر، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه، فلا تفسدوا عليَّ عبي. قالوا: لا، بل نشتره منك. قال: فاشتروه بعشر قلائص. قال: ثم أتوه فوضعوا في عنقه عمامة أو حبلًا، فقال نعيمان: إن هذا يتسهزىء بكم إني حر ولست بعبد. فقالوا: أخبرنا بخبرك فانطلقوا به، فجاء أبو بكر فأخبر بذلك، فاتبع القوم فرد عليهم القلائص، وأخذ نعيمان، فلما قدموا على النبي ﷺ وأخبروه فضحك النبي ﷺ وأصحابه منه حولًا.

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

عن ربيعة بن ناخذ قال: قيل لمعاوية بن أبي سفيان: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما وثقت بأحد قط.

وقال ثعلب: نظر معاوية يوم صفين إلى إحدى جنبتي أسكره وقد مالت فلمحها فاستوت، ثم نظر إلى الجنبه الأخرى وقد مالت فلمحها فاستوت، فقال له رجل من أصحابه: أهذا كنت دبرته من زمن عثمان؟ فقال: هذا والله كنت دبرته منذ زمن عمر رضي الله عنهم.

وجاء رجل إلى حاجب معاوية فقال له: قل له على الباب أخوك لأبيك وأمك، ثم قال له: ما أعرف هذا، ثم قال: ائذن لي فدخل، فقال له: أي الأخوة أنت؟ فقال: ابن آدم وحواء. فقال يا غلام: اعطه درهمًا. فقال: تعطي أخاك لأبيك وأمك درهمًا. فقال: لو أعطيت كل أخ لي من آدم وحواء ما بلغ إليك هذا.

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

عن كعب القرظي قال: قال فتى منا لحذيفة: رأيت رسول الله؟ قال: نعم. قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض. قال حذيفة: دعاني رسول الله ﷺ ونحن بالخندق قال: اذهب فاجلس في القوم، فانظر ماذا يفعلون، فذهبت فدخلت في القوم والريح تفعل في جنود الله عز وجل ما تفعل لا تقر لهم قدرًا ولا نازًا ولا ماء، فقام أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش! لينظر كل امرئ من

يجالس، فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا فلان ابن فلان.

المغيرة بن شعبة رضي الله عنه

عن أبي الخليل قال: أخبرنا عليّ قال: كان للمغيرة رمح، فكنا إذا خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة خرج به معه، فيركزه فيمر الناس عليه فيحملونه، فقلت: لئن أتيت على النبي ﷺ لأخبرنه، فقال: إنك إن فعلت لم ترفع ضالة.

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين فكرهوه وأبغضوه. قال: فعزل عنهم. قال: فخافوا أن يرد عليهم، فقال دهقانهم: إن فعلتم ما أمركم لم يرد علينا. قالوا: أمرنا بأمرك. قال: تجمعون مائة ألف درهم حتى أذهب بها إلى عمر، وأقول إن المغيرة اختار هذا فدفعه إليّ. قال: فجمعوا له مائة ألف درهم. قال: فأتى عمر فقال إن المغيرة اختار هذا ودفعه إليّ. قال: فدعا عمر المغيرة فقال: ما يقول هذا؟ قال: كذب أصلحك الله إنما كانت مائتي ألف. قال: فما حملك على ذلك؟ قال: العيال والحاجة. قال فقال عمر للعلاج: ما تقول؟ لا والله لأصدقك أصلحك الله والله ما دفع إليّ قليلاً ولا كثيراً. قال فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا العلاج؟ قال: الخبيث كذب عليّ فأحببت أن أخزيه.

وعن مسلم بن صبيح الكوفي قال: سمعت أبي يقول: خطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان الفتى طريراً جميلاً، فأرسلت إليهما المرأة فقالت: إنكما خطبتماني ولست أجيب أحد منكما دون أن أراه وأسمع كلامه، فاحضرا إن شئتما، فحضرا فأجلستهما بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رآه المغيرة ونظر إلى جماله وشبابه وهيئته يش منها، وعلم أنها لن تؤثره عليه، فأقبل على الفتى فقال له: لقد أوتيت جمالاً وحسناً وبيانا، فهل عندك سوى ذلك؟ قال: نعم. فعدد فحاسنه ثم سكت، فقال له المغير: كيف حسابك؟ قال: ما يسقط عليّ منه شيء وإنني لأستدرك منه أدق من الخردلة. فقال له المغيرة: لكنني أضع البدرة في زاوية البيت فينفقها أهلي على ما يريدون فما أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها، فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إليّ من هذا الذي يحصي عليّ مثل صغير الخردل، فتزوجت المغيرة.

عمرو بن العاص رضي الله عنه

قال ابن الكلبي: لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى نزل على غزة، فبعث إليها علجها أن أرسل إليّ رجلاً من أصحابك أكلمه، ففكر عمرو، فقال: ما لهذا العلج أحد غيري، فقام حتى دخل على العلج فكلمه، فسمع كلاماً لم يسمع مثله قط، فقال له العلج: حدّثني هل من أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل عن هواني عندهم إذ بعثوني إليك وعرضوني لما عرضوني، فلا يدرون ما تصنع بي. قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب إذا مرّ بك فاضرب عنقه وخذ ما معه. فمرّ برجل من النصارى من غسان فعرفه، فقال يا عمرو: قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج، فرجع، فقال له الملك: ما ردك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي، فأردت أن أتيك بعشرة منهم تعطيتهم هذه العطية: فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد. قال: صدقت. أعجل بهم وبعث إلى البواب خلّ سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن قال: لا عدت لمثلها أبداً. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج فقال له: أنت هو. قال: على ما كان من غدرك.

خزيمة بن ثابت رضي الله عنه

عن الزهريّة قال: أخبرنا عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدّثه أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي فاستتبعه النبي ﷺ ليقتضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي، فيساومون الفرس لا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم للأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كانت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعت. فقام النبي ﷺ فقال: «أليس قد ابتعته منك؟» قال: لا. فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان. فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني قد بايعتك، فمن جاء من المسلمين، قال للأعرابي: ويحك إن النبي ﷺ لا يقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي. فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني قد بايعتك. فقال: خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين.

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال لخزيمة: «لم تشهد ولم تكن معنا؟»
قال: يا رسول الله أنا أصدقك بخبر السماء، أفلا أصدقك بما تقول؟

الحجاج بن غلاط رضي الله عنه

عن معمر، عن ثابت البناني قال: حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنهم قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالا، وإن لي بها أهلا، وإنني أريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئا، فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا وأصببت أموالهم، وفشا ذلك بمكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون سرورا وفرحا قال: وبلغ الخبر العباس بن عبد المطلب، فعقر وجعل لا يستطيع أن يقوم. قال معمر: وأخبرني عثمان الجزري، عن مقسم قال: فأخذ ابنا له كان يشبه برسول الله ﷺ، فقال له: قم واستلقي، فوضعه على صدره وجعل يقول: حبي قثم ذي الأنف الأشم، ثم أرسل غلاما له إلى الحجاج بن علاط فقال له: ويلك مذ جئت به، وماذا تقول؟ ما وعد الله خيرا مما جئت به. قال: فقال الحجاج بن علاط: اقرأ على أبي الفضل السلام وقل له: ليخل لي في بعض بيوته لأتية فإن الخبر على ما يسره. قال: فجاء غلامه فلما بلغ الباب قال: أبشر يا أبا الفضل. قال: فوثب العباس فرحا حتى قبل بين عينيه فأخبره ما قال الحجاج فأعتقه.

قال ثم جاء الحجاج، فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى صفية بنت حبي واتخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها وتكون زوجته، أو تلحق بأهلها، فاخترت أن يعتقها وتكون زوجته، ولكنني جئت لمالي كان ههنا أردت أن أجمعه فأذهب به، فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي أن أقول ما شئت، فأخف عني ثلاثا ثم اذكر ما بدا لك، قال: فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فدفعته إليه، ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أن قد ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يحزنك الله يا أبا الفضل لقد شق علينا الذي بلغك. قال: أجل. لا يحزنني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسوله، وجرت سهام الله في أموالهم واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، فإن

كان لك حاجة في زوجك فالحقي به. قالت: أظنك والله صادقًا، قال: فإني والله صادق والأمر على ما أخبرتك.

قال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مرّ بهم لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل. قال: لم يصبني إلا خير بحمد الله لقد أخبرني الحجاج بن علاط أن خير فتحها الله على رسوله، وجرت سهام الله فيهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه. وقد سألتني أن أخفي عنه ثلاثًا، وإنما جاء ليأخذ ما له وما كان له من شيء هلهنا ثم يذهب. فرد الله الكأبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ممن كان دخل بيته مكتتبًا حتى دخل أبو الفضل العباس، فأخبرهم الخبر، فسّر المسلمون ورد الله تعالى ما كان من كأبة أو غيظ أو حزن على المشركين.

نعيم بن مسعود رضي الله عنه

عن ابن إسحاق قال: بينما الناس على خوفهم يوم الأحزاب أتى نعيم بن مسعود رسول الله ﷺ فحدثني رجل عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: جاء نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي، مرني أمرك. فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت منا رجل واحد، فحدث عنا ما استطعت فإنما الحرب خدعة». فانطلق نعيم حتى أتى بني قريظة فقال لهم: يا معشر قريظة، وكان لهم نديمًا في الجاهلية، إني لكم نديم وصديق، قد عرفتم ذلك. قالوا: صدقت. قال: تعلمون والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة، إن البلد لبلدكم به أموالكم ونساءكم وأبناءكم، وإن قريشًا وغطفان بلادهم غيرها، وإنما جاؤوا حتى نزلوا معكم، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل فلا طاقة لكم به، فإن هم فعلوا ذلك فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرفهم تستوثقون به، ولا تبرحوا حتى تنجزوا محمد. فقالوا: لقد أشرت برأي ونصح، ثم ذهب إلى قريش فأتى أبا سفيان وأشرف قريش، فقال: يا معشر قريش، إنكم قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمد أو دينه، وإني قد جئتكم بنصيحة فاکتموا علي. فقالوا: نفعل، ما أنت عندنا بمتهم. فقال: تعلمون أن بني قريظة من يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، فبعثوا إليه: ألا يرضيك أن نأخذ لك من القوم رهنًا من أشرفهم،

فندفعهم إليك، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك حتى نخرجهم من بلادك؟ فقال: بلى، فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرًا من رجالكم، فلا تعطوهم رجلًا واحدًا فاحذروا. ثم جاء غطفان، فقال: يا معشر غطفان، قد علمتم إنني رجل منكم. قالوا: صدقت، فقال لهم كما قال لهذا الحي من قريش، فلما أصبحوا بعث إليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش: إن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر يهود إن الكراع والخف قد هلكا إنا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه، فبعثوا إليه أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم نستوثق بهم، لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمدًا. فقال أبو سفيان: قد والله حذرنا نعيم، فبعث إليهم أبو سفيان إنا لا نعطيكم رجلًا واحدًا، فإن شئتم أن تخرجوا فتقاتلوا وإن شئتم فاقعدوا، فقالت يهود: هذا والله الذي قال لنا نعيم. والله ما أراد القوم إلا أن يقاتلوا محمدًا فإن أصابوا فرصة انتهبوها وإلا مضوا إلى بلادهم وخلوا بيننا وبين الرجل، فبعثوا إليهم: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا، فأبوا، فبعث الله تعالى الريح على أبي سفيان وأصحابه وغطفان، فخذلهم الله عز وجل.

الأشعث بن قيس

عن الهيثم بن عدي قال: أخبرنا ابن عباس قال: خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على الحسن ابنه أم عمران بنت سعيد بن قيس الهمداني، فقال: فوقي أمير ذو امرأة يعني أمها. فقال: قم فوامرها، فخرج من عنده، ولقيه الأشعث بن قيس بالباب، فأخبره الخبر فقال: ما تريد إلى الحسن يفخر عليها ولا ينصفها ويسيء إليها، فيقول: ابن رسول الله وابن أمير المؤمنين، ولكن هل لك في ابن عمها فهي له وهو لها قال: ومن ذلك؟ قال: محمد بن الأشعث. قال: قد زوجته، ودخل الأشعث على أمير المؤمنين علي عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، خطبت على الحسن ابنة سعيد؟ قال: نعم. قال: فهل لك في أشرف منها بيتًا وأكرم منها حسبًا وأتم منها جمالًا وأكثر مالا. قال: ومن هي؟ قال: جعدة بنت الأشعث بن قيس. قال: قد قاولنا رجلًا. قال: ليس إلى ذلك الذي قاولته سبيل. قال: إنه قد فارقت ليؤامر أمها. فقال: قد زوجها من محمد بن الأشعث. قال: متى؟ قال: الساعة بالباب. قال: فزوج الحسن جعدة، فلما لقي سعيد الأشعث قال: يا أعور، خدعتني. قال: أنت أعور خبيث حيث تستشيرني

في ابن رسول الله ﷺ. أأست أحمق؟ ثم جاء الأشعث إلى الحسن فقال: يا أبا محمد، ألا تزور أهلك؟ فلما أراد ذلك قال: لا تمشي والله إلا على أودية قومي، فقدمت له كندة سماطين وجعلت له أريدتها بسطاً من بابه إلى باب الأشعث.

وحشي بن حرب

عن سليمان بن يسار قال: حدّثنا جعفر بن عمرو الضمري قال: خرجت مع عبيد الله بن عدي بن الخيار فقال لي: هل لك في وحشي، فجبنا حتى وقفنا عليه، فسألنا فرد السلام، وعبيد الله معتجر بعمامته ما يرى وحشي إلا عينيه ورجليه، فقال عبيد الله: يا وحشي، أتعرفني؟ فنظر إليه ثم قال: لا والله إلا أني أعلم أن عدي بن الخيار تزوج امرأة فولدت له غلاماً فاسترضعه، فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه، فكأنني نظرت إلى قدميه.

(١) فطنة كعب بن سور

الشعبي قال: جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: أشكو إليك خير أهل الدنيا إلا رجل سبقه بعمل أو عمل مثل عمله يقوم الليل حتى يصبح، ويصوم النهار حتى يمسي، ثم أخذها الحياء فقالت: أقلني يا أمير المؤمنين، فقال: جزاك الله خيراً فقد أحسنت الثناء قد أقلتك. فلما ولت قال كعب بن سور: يا أمير المؤمنين، لقد أبلغت إليك في الشكوى، فقال: ما اشتكت؟ قال: زوجها. قال: عليّ بالمرأة وزوجها، فجيء بهما، فقال لكعب: اقض بينهما. قال: أأقضي وأنت شاهد؟ قال: إنك قد فطنت ما لم أفطن إليه. قال: فإن الله يقول: ﴿فَأَنكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنَّىٰ وَتِلْكَ آيَةُ الْآيَةِ﴾ [النساء: الآية ٣] ضم ثلاثة أيام وافطر عندها يوماً، وقم ثلاث ليال وبت عندها ليلة. فقال عمر: لهذا أعجب إليّ من الأول، فرخله بدابة وبعثه قاضيّاً لأهل البصرة.

(٢) قضاء شريح

قيل: إن عدي بن أرطاة أتى شريحاً وهو في مجلس القضاء فقال لشريح: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: اسمع مني. قال: لهذا جلست مجلسي. قال: إنني رجل من أهل الشام. قال: الحبيب القريب. قال: وتزوجت امرأة من

قومي، قال: بارك الله لك بالرفاه والبنين. قال: وشرطت لأهلها أن لا أخرجها.
قال: الشرط أملك. قال: وأريد الخروج. قال: في حفظ الله. قال: اقض بيننا.
قال: قد فعلت.

فطنة إياس بن معاوية^(١)

صالح بن أحمد العجلي قال: حدّثني أبي قال: دخل على إياس بن معاوية
ثلاثة نسوة، فقال: أما واحدة فمرضع، والأخرى بكر، والثالثة ثيب، فقيل له:
بم علمت؟ قال: أما المرضع فإنها لما قعدت أمسكت ثديها بيدها، وأما البكر
فلما دخلت لم تلتفت إلى أحد، وأما الثيب فلما دخلت رمقت بعينها يمينا
وشمالاً.

ذكاء قاضي واسط^(٢)

يزيد بن هارون قال: تقلد القضاء في واسط رجل ثقة كثير الحديث، فجاء
رجل فاستودع بعض الشهود كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألف دينار، فلما حصل
الكيس عند الشاهد وطالت غيبة الرجل قدّر أنه قد هلك، فهمم بإنفاق المال، ثم
دبر وفتق الكيس من أسفله، وأخذ الدنانير، وجعل مكانها دراهم، وأعاد الخياطة
كما كانت. وقدّر أن الرجل وافى وطلب الشاهد بوديعته، فأعطاه الكيس بختمه،
فلما حصل في منزله فضّ ختمه فصادف في الكيس دراهم، فرجع إلى الشاهد،
فقال له: عافاك الله، أردد عليّ مالي فإني استودعتك دنانير والذي وجدت دراهم
مكانها، فأنكره ذلك واستعدى عليه القاضي المقدم ذكره، فأمر بإحضار الشاهد
مع خصمه، فلما حضرا سأل الحاكم: منذ كم أودعته هذا الكيس؟ قال: منذ
خمس عشرة سنة، فأخذ القاضي الدراهم وقرأ سكرها، فإذا هي دراهم إليها ما
قد ضرب منذ سنتين وثلاث ونحوها، فأمره أن يدفع الدنانير إليه، فدفعها إليه
وأسقطه وقال له: يا خائن. ونادى مناديه: ألا إن فلان ابن فلان القاضي قد
أسقط فلان ابن فلان الشاهد، فاعلموا ذلك ولا يغترون به أحد بعد اليوم، فباع
الشاهد أملاكه في واسط وخرج عنها هارباً، فلم يعلم له خبر ولا أحسن منه
أثر.

(٢) نفس المصدر ص ٦٦.

(١) كتاب الأذكاء ص ٦٥.

إياس بن معاوية وجاحد الوديعه^(١)

أبو محمد القرشي قال: استودع رجل رجلاً مالاً، ثم طلبه فجحده فخاصمه إلى إياس بن معاوية، فقال الطالب: إني دفعت المال إليه قال: ومن حضر؟ قال: دفعته في مكان كذا وكذا ولم يحضرنا أحد. قال: فأبي شيء في ذلك الموضوع؟ قال: شجرة. قال: فانطلق إلى ذلك الموضوع وانظر الشجرة، فعمل الله تعالى يوضح لك هناك ما يتبين به حَقُّك، لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت، فتذكر إذا رأيت الشجرة، فمضى الرجل، قال إياس للمطلوب: إجلس حتى يرجع خصمك، فجلس وإياس يقضي وينظر إليه ساعة ثم قال له: يا هذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكر؟ قال: لا. قال: يا عدو الله إنك لخائن. قال: أقلني أقالك الله، فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل، فقال له إياس: قد أقر لك بحقك فخذ.

حفص بن غياث وإنفاذ الحكم^(١)

ابن الليث قال: باع رجل من أهل خراسان جَمَلاً بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسي وكيل أم جعفر، فمطله بثمنها وحبسه، فطال ذلك على الرجل، فأتى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوروه، فقال: اذهب إليه فقل له: أعطني ألف درهم، وأحيل عليك بالمال الباقي، وأخرج إلى خراسان، فإذا فعل هذا فأنتني حتى أشاور عليك، ففعل الرجل، فأتى مرزبان فأعطاه ألف درهم، فرجع إلى الرجل فأخبره فقال: عد إليه فقل له إذا ركبت غداً فطريقك على القاضي، فأحضر وأوكل رجلاً بقبض المال وأخرج، فإذا جلس إلى القاضي فادع عليه بما بقي لك من المال، ففعل ذلك، فحبسه القاضي فأخرجته أم جعفر وقالت لهارون: قاضيك حبس وكيلي، فمره لا ينظر في الحكم، فأمر لها بالكتاب، وبلغ حفصاً الخبر فقال للرجل: أحضر لي شهوداً حتى أسجل لك على المجوسي قبل ورود كتاب أمير المؤمنين، فحضر، فقال للرجل: مكانك. فلما فرغ من السجل أخذ الكتاب، فقرأه وقال للخادم: اقرأ على أمير المؤمنين السلام، وأخبره أن كتابه ورد، وقد أنفذت الحكم.

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٧.

ابن أبي داود والأفشين (١)

قال أبو بكر الصولي: حدثنا أبو العيناء قال: كان الأفشين يحسد أبا دلف ويبغضه للفروسية والشجاعة، فاحتال عليه حتى شهد عليه عنده بخيانة وقتل، فأحضر السياف، فبلغ ابن أبي داود، فركب مع من حضر من عدوله، فدخل على الأفشين، ثم قال: إني رسول أمير المؤمنين إليك، وقد أمرت أن لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً حتى تحمله إليه مسلماً، ثم التفت إلى العدول فقال: أشهدوا إني قد أدت الرسالة عن أمير المؤمنين إليه، فلم يقدم الأفشين عليه وسار ابن أبي داود إلى المعتصم، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد أدت عنك رسالة لم تقلها لي ما اعتد بعمل خير منها، وإني لأرجو لك الجنة بها، ثم أخبره الخبر، فصوب رأيه ووجه من أحضر القاسم، فأطلقه ووهب له، وعتف الأفشين فيما عزم عليه.

الأعمش وأبو حصين (٢)

حدثنا أبو بكر بن عياش قال: كان الأعمش إذا صلى الفجر جاءه القراء، فقرأوا عليه، وكان أبو حصين إمامهم. فقال الأعمش يوماً: إن أبا حصين يتعلم القراءة منا لا يقوم من مجلسه كل يوم، حتى يفرغ ويتعلم بغير شكر، ثم قال لرجل ممن يقرأ عليه: إن أبا حصين يكثر أن يقرأ بالصفات في صلاة الفجر، فإذا كان غداً فاقراً على الصفات واهمز الحوت، فلما كان من الغد قرأ عليه الرجل الصفات وهمز الحوت، ولم يأخذ عليه الأعمش، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة قرأ أبو حصين بالصفات في الفجر، فلما بلغ الحوت همز، فلما فرغوا من صلاتهم ورجع الأعمش إلى مجلسه دخل عليه بعض إخوانه، فقال له الأعمش: يا أبا فلان لو صليت معنا الفجر لعلمت ما لقي الحوت من هذا المحراب، فعلم أبو الحصين ما الذي فعل به، فأمر بالأعمش فسحب حتى أخرج من المسجد قال: وكان أبو حصين عظيم القدر في قومه من بني أسد.

أبو حنيفة واللصوص (٢)

محمد بن الحسن قال: دخل اللصوص على رجل، فأخذوا متاعه واستحلفوه بالطلاق ثلاثاً أن لا يعلم أحداً قال: فأصبح الرجل وهو لا يرى اللصوص يبيعون

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٩.

(٢) نفس المصدر ص ٧٢.

متاعه وليس يقدر أن يتكلم من أجل يمينه، فجاء الرجل يشاور أبا حنيفة، فقال له أبو حنيفة: أحضرنى إمام حيك والمؤذن والمستورين منهم، فأحضره إياهم فقال لهم أبو حنيفة: هل تحبون أن يرد الله على هذا متاعه؟ قالوا: نعم. قال: فاجمعوا كل ذي فجر عندكم وكل منهم فادخلوهم في دار أو في مسجد، ثم أخرجوا واحداً واحداً، فقولوا: هذا لصك، فإن كان ليس بلصه، وإن كان لصه فليسكت، فإذا سكت فاقبضوا عليه، ففعلوا ما أمرهم به أبو حنيفة، فرد الله عليه جميع ما سرق منه.

(١) أبو حنيفة ورجل من الطالبين

حسين الأشقر قال: كان بالكوفة رجل من الطالبين من خيارهم، فمرّ بأبي حنيفة، فقال له: أين تريد؟ قال: أريد ابن أبي ليلى قال: فإذا رجعت أحب أن أراك، وكانوا يتبركون بدعائه، فمضى إلى ابن أبي ليلى ثلاثة أيام، وإذا رجع مرّ بأبي حنيفة، فدعاه وسلم عليه فقال له أبو حنيفة: ما جاء بك ثلاثة أيام إلى ابن أبي ليلى، فقال شيء كتمته الناس، فأملت أن يكون لي عنده فرج. فقال أبو حنيفة: قل ما ماهو. قال: إني رجل موسر وليس لي من الدنيا إلا ابن كلما زوجته امرأة طلقها، وإن اشتريت له جارية أعتقها قال: فما لي ما عندي في هذا شيء، فقال أبو حنيفة: اقعد عندي حتى أخرجك من ذلك، ففقر إلى ما حضر عنده فتغذى عنده، ثم قال له: ادخل أنت وابنك إلى السوق فأبي جارية أعجبتك ونالت يدك ثمنها، فاشترها لنفسك لا تشتريها له، ثم زوجها منه، فإن طلقها رجعت إليك، وإن أعتقها لم يجز عتقه، وإن ولدت ثبت نسبه إليك قال: وهذا جائز؟ قال: نعم هو كما قلت، فمر الرجل إلى ابن أبي ليلى فأخبره فقال: هو كما قال لك.

(٢) شربة ماء بخمسة دراهم

يحيى بن جعفر قال: سمعت أبا حنيفة يقول: احتجت إلى ماء بالبادية، فجاءني أعرابي ومعه قربة من ماء، فأبى أن يبيعيها إلا بخمسة دراهم، فدفعت إليه خمسة دراهم وقبضت القربة، ثم قلت: يا أعرابي، ما رأيك في السوق؟ فقال:

(٢) نفس المصدر ص ٧٤.

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٣.

هات. فأعطيته سويقاً ملتوتاً بالزيت، فجعل يأكل حتى امتلأ، ثم عطش، فقال: شربة. قلت: بخمسة دراهم، فلم أنقصه من خمسة دراهم على قدح من ماء، فاسترددت الخمسة وبقي معي الماء.

أبو حنيفة وطالب القضاء (١)

عبد المحسن بن علي قال: ذكر أبو حنيفة وفطنته، فقال: استودع رجل من الحجاج رجلاً بالكوفة وديعة، فحج ثم رجع، فطلب وديعته، فأنكر المستودع وجعل يحلف له، فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة يشاوره، فقال: لا تعلم أحدًا بجحوده. قال: وكان المستودع يجالس أبا حنيفة، فخلا به وقال له: إن هؤلاء قد بعثوا يستشيروني في رجل يصلح للقضاء، فهل تنشط؟ فتمانع الرجل قليلاً، وأقبل أبو حنيفة يرغبه فانصرف على ذلك وهو طمع، ثم جاء صاحب الوديعة، فقال له أبو حنيفة: اذهب إليه وقل له: أحسبك نسيته أودعتك في وقت كذا والعلامة كذا. قال: فذهب الرجل فقال له، فدفعت إليه الوديعة، فلما رجع المستودع قال أبو حنيفة: إني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أجل من هذا.

المهر الغالي (١)

قال ابن الوليد: كان في جوار أبي حنيفة فتى يعتني مجلس أبي حنيفة ويكثر الجلوس عنده، فقال يوماً لأبي حنيفة: إني أريد التزويج إلى فلان من أهل الكوفة، وقد خطبت إليهم، وقد طلبوا مني من المهر فوق وسعي وطاقتي، وقد تعلقت نفسي بالتزويج، فقال أبو حنيفة: فاستخر الله تعالى وأعطهم ما يطلبونه منك فأجابهم إلى ما طلبوه فلما عقدوا النكاح بينهم وبينه جاء إلى أبي حنيفة، فقال له: إني قد سألتهم أن يأخذوا مني البعض وليس في وسعي الكل، وقد أبوا أن يحملوها إلا بعد وفاء الدين كله، فماذا ترى؟ قال: احتل وافترض حتى تدخل بأهلك، فإن الأمر يكون أسهل عليك من تشدد هؤلاء القوم، ففعل ذلك وأقرضه أبو حنيفة فيمن أقرضه، فلما دخل بأهله وحملت إليه قال أبو حنيفة: ما عليك أن تظهر أنك تريد الخروج عن هذا البلد إلى موضع بعيد، وإنك تريد أن تسافر

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٤.

بأهلك معك، فاكتري الرجل جملين وجاء بهما وأظهر أنه يريد الخروج إلى خراسان في طلب المعاش، وأنه يريد حمل أهله معه، فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤوا إلى أبي حنيفة ليسأله ويستعينوه في ذلك، فقال لهم أبو حنيفة: له أن يخرجها إلى حيث شاء. قالوا له: ما يمكننا أن ندعها تخرج. فقال لهم أبو حنيفة: فارضوه بأن تردوا عليه ما أخذتموه منه، فأجابوه إلى ذلك. فقال أبو حنيفة للفتى: إن القوم قد سمحوا أن يردوا عليك ما أخذوه منك من المهر وبرؤك منه، فقال له الفتى: وأنا أريد منهم شيئاً آخر فوق ذلك، فقال أبو حنيفة: أيما أحب إليك أن ترضى بهذا الذي بذلوه لك، وإلا أقرت المرأة لرجل يدين لا يمكنك أن تحملها ولا تسافر بها حتى تقضي ما عليها من الدين قال، فقال الرجل: الله الله لا يسمعوا بهذا، فلا آخذ منهم شيئاً، فأجاب إلى الجلوس وأخذ ما بذلوه من المهر.

قيمه عشرة آلاف درهم (١)

أحمد بن الدقاق قال: بلغني أن رجلاً من أصحاب أبي حنيفة أراد أن يتزوج، فقال أهل المرأة: نسأل عنه أبا حنيفة، فأوصاه أبو حنيفة، فقال: إذا دخلت عليّ فضع يدك على ذكرك، ففعل ذلك، فلما سأله عنه قال: قد رأيت في يده ما قيمته عشرة آلاف درهم.

أبو يوسف والرشيد (٢)

عن عليّ بن المحسن التنوخي، عن أبيه قال: حدثني أبي قال: كان عند الرشيد جارية من جواريه وبحضرته عقد جوهر، فأخذ يقبله ففقده فاتهمها، فسألها عن ذلك، فأنكرت فحلف بالطلاق والعتاق والحج لتصدقته، فأقامت على الإنكار وهو متهم لها، وخاف أن يكون قد حنث في يمينه، فاستدعى أبا يوسف وقصّ عليه القصة، فقال أبو يوسف: تخليني مع الجارية وخدام معنا حتى أخرج من يمينك، ففعل ذلك. فقال لها أبو يوسف: إذا سألك أمير المؤمنين عن العقد فانكريه، فإذا أعاد عليك السؤال فقولني قد أخذته، فإذا أعاد عليك الثالثة فانكري، وخرج. فقال للخدام: لا تقل لأمر المؤمنين ما جرى. وقال للرشيدي: سلها يا أمير المؤمنين ثلاث دفعات متواليات عن العقد، فإنها تصدقك، فدخل الرشيد فسألها،

(٢) نفس المصدر ص ٧٦.

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٥.

فأنكرت أول مرة، وسألها الثانية، فقالت: نعم قد أخذته، فقال: أي شيء تقولين؟ فقالت: والله ما أخذته ولكن هكذا قال لي أبو يوسف، فخرج إليه فقال: ما هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد خرجت من يمينك لأنها أخبرتك أنها قد أخذته، وأخبرتك أنها لم تأخذه، فلا يخلو أن تكون صادقة في أحد القولين، وقد خرجت أنت من يمينك فسراً ووصل أبا يوسف، فلما كان بعد مدة وجد العقد.

(١) الإمام الشافعي والرشيد

عن الحسن بن الصباح قال: لما أن قدم الشافعي إلى بغداد، وأوقف عقد الرشيد للأمين والمأمون على العهد. قال: فبكر الناس ليهنوا الرشيد، فجلسوا في دار العامة ينتظرون الإذن، فجعل الناس يقولون: كيف ندعو لهما فإننا إذا فعلنا ذلك كان دعاء على الخليفة، وإن لم ندعو لهما كان تقصيراً قال: فدخل الشافعي، فجلس فقيل له في ذلك، فقال: الله الموفق، فلما أذن دخل الناس، فكان أول متكلم الشافعي فقال:

لا قَضْرَا عَنْهَا وَلَا بَلَّغْنَهَا حَتَّى يَطْوَلَ عَلَى يَدَيْكَ طَوْلُهَا

(٢) أبو العيناء والمتوكل

عن محمد بن يحيى قال: حدّثنا أبو العيناء قال: قال المتوكل قد أردتكم لمجالستي، فقلت: لا أطيق ذلك ولا أقول هذا جهلاً بما لي في هذا المجلس من الشرف، ولكنني محجوب والمحجوب تختلف إشارته، ويخفى عليه الإيماء، ويجوز أن يتكلم بكلام غضبان، ووجهك راضٍ، وبكلام راضٍ ووجهك غضبان، ومتى لم أُمَيِّزْ هَذَيْنِ هَلَكْتُ. قال: صدقت، ولكن تلمزنا. فقلت: لزوم الفرض الواجب، فوصلني بعشرة آلاف درهم.

قال: وَرُوِيَ أَنَّ الْمَتَوَكَّلَ قَالَ: أَشْتَهِي أَنْ أَنْادِمَ أَبَا الْعَيْنَاءِ لَوْلَا أَنَّهُ ضَرِيرٌ. فَقَالَ أَبُو الْعَيْنَاءِ: إِنْ عَفَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ رُؤْيَةِ الْهَلَالِ وَنَقْشِ الْخَوَاتِمِ، فَإِنِّي أَصْلِحُ.

وبلغنا عن أبي العيناء أنه شكّا تأخر رزقه إلى عبد الله بن سليمان، فقال: ألم يكن كتبنا لك إلى فلان فما فعل في أمرك؟ قال: جرنى على شوك المطل. قال:

(٢) نفس المصدر ص ٨٠.

(١) كتاب الأذكياء ص ٧٧.

أنت اخترته. قال: وما عليّ وقد اختار موسى قومه سبعين رجلاً فما كان فيهم رشيد فأخذتهم الرجفة، واختار رسول الله ﷺ ابن أبي سرح كاتباً فلحق بالكفار مرتداً، واختار عليّ أبا موسى، فحكم عليه.

شكا بعض الوزراء كثرة الأشغال، فقال أبو العيناء: لأراني الله يوم فراغك. وقيل لأبي العيناء: بقي من يلقي؟ قال: نعم في البئر، وسأل أبو العيناء عن حماد بن زيد بن درهم، وعن حماد بن سلمة بن دينار فقال: بينهما في القدر ما بين أبوابهما في الصرف.

ابن جرير الطبري والأيمان^(١)

قال غلام لابن المزوق البغدادي: كان مولاي مكرماً لي، فاشترى جارية وزوجنيها فأحببتها حباً شديداً، وأبغضتني بغضاً شديداً عظيماً، وكانت تنافرنني دائماً وأحتملها إلى أن أضجرتني يوماً، فقلت لها: أنت طالق ثلاثاً إن خاطبتيني بشيء إلا خاطبتك بمثله، فقد أفسدك احتمالي لك، فقالت لي في الحال: أنت طالق ثلاثاً بتاتاً قال: فأبلست ولم أدر ما أجيبها به خوفاً أن أقول لها مثل ما قالت، فتصير بذلك طالقاً مني، فأرشدت إلى أبي جعفر الطبري، فأخبرته بما جرى، فقال: أقم معها بعد أن تقول لها أنت طالق ثلاثاً إن أنا طلقتك، فتكون قد خاطبتها به فوفيت بيمينك ولم تطلقها ولا تعاود الأيمان.

ذو النون والأمانة^(٢)

حدثنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر الرازي قال: سمعت يوسف بن الحسين يقول: قيل لي: إن ذا النون يعرف اسم الله الأعظم، فدخلت مصر وخدمته سنة، ثم قلت: يا أستاذي إني قد خدمتك وقد وجب حقي عليك، وقيل لي: إنك تعرف اسم الله الأعظم، وقد عرفتنني ولا تجد له موضعاً مثلي، فأحب أن تعلمني إياه قال: فسكت عني ذو النون ولم يجبني وكأنه أوماً إليّ أنه يخبرني قال: فتركني بعد ذلك ستة أشهر، ثم أخرج لي من بيته طبقاً ومكبة مشدوداً في منديل، وكان ذو النون يسكن الجيزة، فقال: تعرف فلاناً صديقنا من الفسطاط؟ قلت: نعم. قال: فأحب أن تؤدي هذا إليه. قال: فأخذت الطبق وهو

(٢) نفس المصدر ص ٨٢.

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٠.

مشدود وجعلت أمشي طول الطريق، وأنا متفكر فيه مثل ذي النون يوجه إلى فلان بهدية ترى أي شيء هي فلم أصبر إلى أن بلغت الجسر، فحللت المنديل ورفعت المكبة، فإذا فأرة قفزت من الطبق ومرت... قال: فاغظت غيظًا شديدًا وقلت: ذو النون يسخر بي ويوجه مع مثلي فأرة، فرجعت على ذلك الغيظ، فلما أن رأيته عرف ما في وجهي، فقال: يا أحمق، إنما جربناك اثمنتك على فأرة، فخننتني أفأنتمك على اسم الله الأعظم؟ مرّ عني، فلا أراك.

(١) أولاد نزار والأفعى الجرهمي

حدثنا علي بن المغيرة قال: لما حضرت نزار بن معد الوفاة قسم ماله بين بنيه وهم أربعة: مضر وربيعة وإياد وأنمار، فقال: يا بني، هذه القبة الحمراء وهي من آدم وما أشبهها من المال لمضر، فسمي مضر الحمراء. وهذا الخباء الأسود وما أشبهه من المال لربيعة فأخذ خيالًا دهمًا فسمي ربيعة الفرس. وهذه الخادمة وما أشبهها من المال لإياد، وكانت الخادمة شمطاء، فأخذ إياد البلق. وهذه البكرة والمجلس لأنمار يجلس فيه، فأخذ أنمار ما صار له. وقال لهم: إن أشكل الأمر عليكم في ذلك واختلقتم في القسمة، فعليكم بالأفعى الجرهمي، فاختلفوا فتوجهوا إلى الأفعى، فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلاء قد رعى، فقال: إن البعير الذي رعى هذا لأعور فقال ربيعة: وهو أزور، وقال إياد: وهو أبتري، وقال أنمار: وهو شرود، فلم يسيروا إلا قليلاً حتى لقيهم رجل توضع به راحلته، فسألهم عن البعير فقال مضر: هو أعور؟ قال: نعم. قال ربيعة: هو أزور؟ قال: نعم. قال إياد: هو أبتري؟ قال: نعم. قال أنمار: هو شرود؟ قال: نعم. هذه والله صفة بعيري دلوني عليه، فحلفوا له أنهم ما رأوه. فلزمهم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته، فساروا حتى قدموا على نجران، فنزلوا بالأفعى الجرهمي، فنادى صاحب البعير أصحاب بعيري وصفوا لي صفته، ثم قالوا: لم نره. فقال الجرهمي: كيف وصفتموه ولم تروه، فقال مضر: رأيته يرعى جانبًا ويدع جانبًا، فعرفت أنه أعور. وقال ربيعة: رأيته إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر، فعرفت أنه أفسدها بشدة وطئته لازوراره. وقال إياد: عرفت بتره باجتماع بعره ولو كان ذيبًا لمصع بعره به، وقال أنمار: عرفت أنه شرود أنه كان يرعى في المكان الملتف نبتة، ثم

يجوز إلى مكان آخر أرق منه وأخبث. فقال الشيخ: ليسوا بأصحاب بعيرك، فاطلبه. ثم سألهم من هم؟ فأخبروه فرحب بهم وقال: تحتاجون إليّ وأنتم كما أرى؟ فدعا لهم بطعام فأكل وأكلوا وشرب وشربوا، فقال مضر: لم أر كاليوم خسرًا أجود لولا أنها على قبر. وقال ربيعة: لم أر كاليوم لحماً أطيب لولا أنه ربي بلبن كلبة. وقال إياد: لم كاليوم رجلاً سرياً لولا أنه ليس لأبيه الذي يدعى له. وقال أنمار: لم أر كاليوم كلاماً أنفع من حاجتنا. فلما سمع صاحبهم كلامهم، فقال: ما هؤلاء إلا شياطين، فسأل أمه فأخبرته أنها كانت تحت ملك ولا يولد له ولد، فكرهت أن يذهب الملك فأسكنت رجلاً نزل بهم من نفسها، فوطئها، وقال للقهرمان: الخمر التي شربناها ما أمرها؟ قال: من حبة غرستها على قبر أبيك، وسأل الراعي عن اللحم ما أمره؟ فقال: شاة أرضعناها من لبن كلبة ولم يكن ولد في الغنم شيء غيرها. فأتاهم فقال: قصبوا قصتكم، فقصوا عليه ما وصى به أبوهوم وما كان من اختلافهم، فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر فصارت له الدنانير والإبل وهن حمر فسميت مضر الحمراء، وما أشبه الخباء الأسود من دابة ومال فهو لربيعة فصارت له الخيل وهي دهم فسمي ربيعة الفرس، وما أشبه الخادم وكانت شمطاء من مال فيه بلق، فهو لإياد، فصارت له الماشية البالق من الخيل والبقر. وقضى لأنمار بالدرهم والأرض فساروا من عنده على ذلك.

أحيل من عمرو بن معديكرب (١)

عن الشعبي قال: خرج عمرو بن معديكرب يوماً حتى انتهى إلى حي، فإذا بفرس مشدودة ورمح مركوز، وإذا صاحبه في وهدة يقضي حاجته، فقلت له: خذ حذرك فإني قاتلك. قال: ومن أنت؟ قلت: عمرو بن معديكرب. قال: يا أبا ثور ما أنصفتني أنت على ظهر فرسك وأنا في بئر، فاعطني عهداً أنك لا تقتلني حتى أركب فرسي وأخذ حذري، فأعطيته عهداً أن لا أقتله حتى يركب فرسه ويأخذ حذره، فخرج من الموضع الذي كان فيه حتى احتبى بسيفه وجلس، فقلت له: ما هذا؟ قال: ما أنا براكب فرسي ولا مقاتلك، فإن كنت نكثت عهداً، فأنت أعلم، فتركته ومضيت، فهذا أحيل من رأيت.

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٤.

رسالة تحذير (١)

عن أبي حاتم الأصمعي قال: حدثنا شيخ من بني العنبرة قال: أسرت بني شيبان رجلاً من بني العنبر، فقال لهم: أرسل إلى أهلي ليفدونني. قالوا: ولا تكلم الرسول إلا بين أيدينا، فجاؤه برسول فقال له: ائت قومي فقل لهم: إن الشجر قد أورق، وإن النساء قد اشتكت، ثم قال له: أتعقل؟ قال: نعم أعقل. قال: فما هذا وأشار بيده؟ قال: هذا الليل. قال: أراك تعقل انطلق، فقل لأهلي عروا جملي الأصهب، واركبوا ناقتي الحمراء، وسلوا حارثة عن أمري. فاتاهم الرسول فأرسلوا إلى حارثة فقص عليهم الرسول القصة، فلما خلا معهم قال: أما قوله إن الشجر قد أورق، فإنه يريد أن القوم قد تسلحوا. وقوله: أن النساء قد اشتكت، فإنه يريد أنها قد اتخذت الشكل للغزو وهي الأسقية. وقوله: هذا الليل، يريد يأتوكم مثل الليل أو في الليل. وقوله: عروا جملي الأصهب يريد ارتحلوا عن الصمان. وقوله: اركبوا ناقتي يريد اركبوا الدهناء، فلما قال لهم ذلك تحملوا من مكانهم، فاتاهم القوم فلم يجدوا منهم أحد.

حوار شعري (٢)

ابن الأعرابي عن بعض مشايخه: أن رجلاً من بني تميم كانت له ابنة جميلة وكان غيوراً فابتنى لها في داره صومعه، وجعلها فيها، وزوجها من أكفائه من بني عمها، وإن فتى من كنانة مرّ بالصومعة، فنظر إليها ونظرت إليه، فاشتد وجد كل واحد منهما بصاحبه ولم يمكنه الوصول إليها، وأنه افتعل بيتاً من الشُّغْرِ ودعا غلاماً من الحي، فعلمه البيت وقال له: ادخل هذه الدار وأنشد كأنك لاعب، ولا ترفع رأسك ولا تصوبه ولا تومئ في ذلك إلى أحد، ففعل الغلام ما أمر به، وكان زوج الجارية قد أزمع على سفر بعد يوم أو يومين، فأنشد الغلام يقول:

لَحَى اللهُ مَنْ يُلْحِي عَلَى الْحَبِّ أَهْلَهُ وَمَنْ يَمْنَعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

قال: فسمعت الجارية ففهمت، فقالت:

أَلَا إِنَّمَا بَيْنَ التَّفْرِقِ لَيْلَةٌ وَتُعْطَى نَفُوسَ الْعَاشِقِينَ مَنَاهَا

قال: فسمعت الأم ففهمت، فأنشأت تقول:

ألا إنما تعنون ناقة رخليكم فمن كان ذا ثوقٍ لديه رعاها
قال، فسمع الأب، فأنشأ يقول:

فإننا سنرعاها ونوثق قنيدها ونطرذ عنها الوخش حين أتاها
فسمع الزوج ففهم، فأنشأ يقول:

سمعتُ الذي قُلتُم فيها أنا مُطلِّقٌ فتأتكم مهجورةً لبلآها
قال: فطلقها الزوج وخطبها ذلك الفتى وأرغبهم في المهر فتزوجها.

قسمة ضيف ثقيل (١)

حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي قال: قدم إعرابي من أهل البادية على رجل من أهل الحضر قال: فأنزله وكان عنده دجاج كثير وله امرأة وابنان وابتنان منها، قال: فقلت لامرأتي اشوي لي دجاجة وقدميها لنا نتغدى بها، فلما حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامرأتي وابنائي وابتنائي والأعرابي، قال: فدفعنا إليه الدجاجة، فقلنا اقسما بيننا نريد بذلك أن نضحك منه قال: لا أحسن القسمة، فإن رضيتم بقسمتي قسمت بينكم قلنا: فإننا نرضى. قال: فأخذ رأس الدجاجة، فقطعه، ثم ناولينه، وقال: الرأس للرئيس، ثم قطع الجناحين قال: والجناحان للابنين، ثم قطع الساقين فقال: والساقان للابنتين، ثم قطع الزمكي وقال: العجز للعجوز، ثم قال: الزور للزائر، فأخذ الدجاجة بأسرها، فلما كان من الغد قلت لامرأتي: اشوي لنا خمس دجاجات، فلما حضر الغداء قلنا: اقسم بيننا قال: أظنكم وجدتم من قسمتي أمس. قلنا: لا. لم نجد، فاقسم بيننا، فقال: شفعا أو وترًا قلنا: وترًا. قال: نعم. أنت وامراتك ودجاجة ثلاثة ورمي بدجاجة، ثم قال: وابناك ودجاجة ثلاثة ورمي الثانية، ثم قال: وابنتاك ودجاجة ثلاثة، ثم قال: وأنا ودجاجتان ثلاثة، فأخذ الدجاجتين، فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه قال: ما تنظرون لعلكم كرهتم قسمتي. الوتر ما تجيء إلا هكذا، قلنا: فاقسمها شفعا. قال: فقبضهن إليه ثم قال: أنت وابناك ودجاجة أربعة، ورمي إليه بدجاجة، والعجوز

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٦.

وابنتاها ودجاجة أربعة ورمى إليهن بدجاجة، ثم قال: وأنا ثلاث دجاجات أربعة وضم إليه ثلاث دجاجات، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: الحمد لله أنت فهمتها لي.

أين التين؟^(١)

مهدي بن سابق قال: أقبل أعرابي يريد رجلاً وبين يدي الرجل طبق تين، فلما أبصر الأعرابي غطى التين بكسائه، والأعرابي يلاحظه، فجلس بين يديه، فقال له الرجل: هل تحسن من القرآن شيئاً؟ قال: نعم. قال: فاقرأ. فقرأ: ﴿وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَاللُّؤْلُؤُ سَبِينِ ﴿٢﴾﴾ [التين: الآيتان ١، ٢]. قال الرجل: فأين التين؟ قال: التين تحت كسائك.

زياد ورجل من الخوارج^(٢)

عن عبد الملك بن عمير قال: أخذ زياد رجلاً من الخوارج، فأقلت منه، فأخذ خاله، فقال: إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك قال أرأيت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي قال: نعم قال: فأنا أتيك بكتاب من العزيز الرحيم، وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى عليهما السلام: ﴿أَمْ لَمْ يَبْتَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا نَزُرُ وَزْرَةً وَزْرَةً أَفَرَى ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: الآيات ٣٦ - ٣٨] قال زياد: خلوا سبيله هذا رجل لقن حجته.

من غلب الجاحظ^(٢)

قال يموت بن المزرع: قال لنا الجاحظ: ما غلبني أحد قط إلا رجل وامرأة، فأما الرجل، فإني كنت مجتازاً في بعض الطرق، فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الهامة طويل اللحية متزر بمتزر، وبيده مشط يسقي به شقه ويمشطها به، فقلت في نفسي: رجل قصير بطين ألحى، فاستزرتيه، فقلت: أيها الشيخ! قد قلت فيك شعراً، فترك المشط من يده وقال: قل، فقلت:

كَأَنَّكَ صَغُورَةٌ فِي أَصْلِ حُشٍّ أَصَابَ الْحَشَّ طَشٌّ بَعْدَ رَشٍّ

فقال لي: اسمع جواب ما قلت، فقلت: هات، فقال:

كَأَنَّكَ كِنْدَرٌ فِي دَنْبِ كَبْشٍ يُدَلِّدُ هَكَذَا وَالْكَبْشُ يَمْشِي

(٢) نفس المصدر ص ١٢٦.

(١) كتاب الأذكياء ص ٨٧.

وأما المرأة، فكانت مجتازًا ببعض الطرقات، فإذا أنا بامرأتين، وكنت راكبًا على حمارة، فضرطت الحمارة، فقالت: إحداهما للأخرى: وي حمارة الشيخ تضرط، فغاظني قولها فاحتدت ثم قلت لها: إنه ما حملتني أنثى قط إلا وضرطت، فضربت بيدها على كتف الأخرى وقالت: كانت أم هذا منه تسعة أشهر على جهد جهيد.

مَنْ يَتَمَنَّى أَكْثَرَ (١)

عن الأصمعي قال: قال الوليد بن عبد الملك لبديح: خذ بنا في المنى، فوالله لأغلبنك، قال: لا تغبني. قال: بلى لأفعلن، وقال: فستعلم. قال الوليد: فإني أريد أتمنى ضعف ما تتمنى أنت فهات. قال: فإني أتمنى سبعين كفلًا من العذاب، ويلعنتي الله لعنًا كثيرًا، فقال: غلبتني قبحك الله.

سعيد بن العاص ومولى له (١)

مرض مولى لسعيد بن العاص، ولم يكن له مَنْ يخدمه ويقوم بأمره، فبعث إلى سعيد بن العاص، فلما أتاه قال له: ليس لي وارث غيرك، وهلهنا ثلاثون ألف درهم مدفونة، فإذا أنا مت فخذها، فقال سعيد حين خرج من عنده: ما أرانا إلا قد أسأنا إلى مولانا وقصرنا في تعاهده، فتعاهده كل التعاهد ووكل به مَنْ يخدمه، فلما مات اشترى له كفنًا بثلاثمائة درهم وشهد جنازته، فلما رجع إلى البيت حفر البيت كله، فلم يجد شيئًا، وجاء صاحب الكفن يطالب بثمان الكفن، فقال: لقد هممت أن أنبش عليه وأسلمه كفته.

الحجاج ورجل (١)

أتى الحجاج برجل ليقته ويده لقمة، فقال: والله لا أكلتها حتى أقتلك. قال: أو خير من ذلك تطعمنيها ولا تقتلني، فتكون قد بررت في يمينك ومننت عليّ، فقال: ادن مني، فأطعمه إياها وخلاه.

عمرو بن العاص ورجل (١)

عن عمرو بن العاص أنه منع أصحابه ما كان يصل إليهم، فقام إليه رجل، فقال: أيها الأمير أتخذ جندًا من حجارة لا تأكل ولا تشرب، فقال له عمرو:

(١) كتاب الأذكياء ص ١٢٧.

اخساً أيها الكلب، فقال له الرجل: أنا من جنديك، فإذا كنت كلباً، فأنت أمير الكلاب وقائدها.

خطبة من بئر جلولاء^(١)

قال المتوكل يوماً لجلسائه: أتدرون ما الذي نقم المسلمون من عثمان؟ قالوا: لا. قال: أشياء منها أنه قام أبو بكر دون مقام الرسول بمرقاة، ثم ومقام عمر دون مقام أبي بكر بمرقاة، فصعد عثمان ذروة المنبر فقال عباد: ما أحد أعظم منه عليك يا أمير المؤمنين من عثمان. قال: وكيف؟ وملك. قال: لأنه صعد ذروة المنبر، فلو أنه كلما قام خليفة نزل عن تقدمه كنت أنت تخطبنا من بئر جلولاء، فضحك المتوكل ومَن حوله.

مَن أخجل الصاحب بن عباد^(٢)

قال الصاحب بن عباد: ما أخجلني غير ثلاثة، منهم أبو الحسين البهديني، فإنه كان في نفر من جلسائي، فقلت له، وقد أكثر من أكل المشمش: لا تأكله، فإنه يلطخ المعدة. فقال: ما يعجبني ما يطب الناس على مائدته. وآخر قال لي، وقد جئت من دار السلطان، وأنا ضجر من أمر عرض لي: من أين أقبلت؟ فقلت: من لعنة الله، فقال: رد الله غربتك، فأحسن عليّ إساءة الأدب. وصبي مستحسن داعبته فقلت: ليتك تحتي، فقال: مع ثلاثة آخر. يعني في رفع جنازتي، فأخجلني.

زوال محنة^(٣)

قال أبو الحسن علي بن هشام بن عبيد الله الكعب، المعروف أبوه بأبي قيراط قال: سمعت حامد بن العباس يقول: ربما انتفع الإنسان في نكبته بالرجل الصغير أكثر من منفعته بالرجل الكبير، فمن ذلك أن إسماعيل بن بلبل لما حبسني جعلني في يد بواب كان يخدمه، فكان رجلاً حراً، فأحسننت إليه وبررته، وكان ذلك البواب يدخل إلى مجلس الخاصة، ولا ينكر عليه لسابق خدمته، فجاءني في بعض الليالي، وقال: قد حرر الوزير علي بن الفرات، وقال: ما يكسر المال على

(٢) نفس المصدر ص ١٢٨.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٢٧.

(٣) نفس المصدر ص ١٢٩.

حامد غيرك، ولا بد من الجد في مطالبته بباقي مصادرتة، وسيدعو بك الوزير غدًا إلى حضرته ويهددك، فشغل ذلك قلبي، فقلت له: فهل عندك من رأي؟ فقال: أكتب رقعة إلى رجل من معامليك تعرف شححه، والتمس منه لعيالك ألف درهم يقرضك إياها، واسأله أن يجيبك على ظهر الرقعة لترجع إليك لتخرجها، فإنه لشححه يردك بعذر احتفظ بالرقعة، فإذا طالبك أخرجتها إليه، وقلت له: قد أفضت حالي إلى هذا، فأخرجتها على غير مواطئة، فلعل ذلك ينفعك، ففعلت ما قال، وجاءني الجواب بالرد كما حسبنا، فلما كان من الغد أخرجني الوزير وطالبيني، فأخرجت الرقعة، فقرأها فلان واستحى وكان ذلك سبب خفة أمري وزوال محتتي.

كُلْ لَا وَاشْرَبْ لَا^(١)

قال عيسى بن محمد الطوماري: سمعت أبا عمر محمد بن يوسف القاضي يقول: اعتل أبي علة شهورًا، فانتبه ذات ليلة فدعا بي وبأختي وقال لنا: رأيت في النوم كأن قائلًا يقول: كُلْ لَا، واشرب لا، فإنك تبرأ، فلم ندر تفسيره. وكان بباب الشام رجل يعرف بأبي علي الخياط، حسن المعرفة بعبارة الرؤية، فجننا به، فقص عليه المنام، فقال: ما أعرف تفسيره، ولكنني أقرأ كل ليلة نصف القرآن، فأخولني الليلة حتى أقرأ رسمي وأنفكر، فلما كان من الغد جاءنا، فقال: مررت على هذه الآية: ﴿لَا شَرْفِيَّةَ وَلَا غَرِيْبَةَ﴾ [الثور: الآية ٣٥] فنظرت إلى «لا». وهي تردد فيها. اسقوه زيتًا وأطعموه زيتًا، ففعلنا وكانت سبب عافيته.

هو في الكوز^(١)

الأصمعي قال: رأيت رجلًا قاعدًا على قصر أوس في الطاعون، يعد الموتى في كوز، فعد أول يوم عشرين ومائة ألف، فلما كان في اليوم الثاني عد خمسين ومائة ألف، فمر قوم بميتهم وهو يعد، فلما رجعوا إذا عند الكوز غيره، فسألوه عنه، فقالوا لهم: هو في الكوز.

أبو عثمان الخالدي ومخنث^(١)

أبو عثمان الخالدي قال: عملت قصيدة أمدح سيف الدولة أبا الحسن بن حمدان، وعرضتها على جماعة أتعرف ما عندهم فيها، إذ حضر مخنث وأنا

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣٠.

أقرؤها، فلما انتهيت إلى قولي:

وَأَنْكَرَتْ شَيْبَةً فِي الرَّأْسِ وَاحِدَةً فَعَادَ يَسْخِطُهَا مَا كَانَ يُرْضِيهَا

قال: هذا غلط، قلت: ما هو؟ قال: تقول للأمير في الرأس واحدة. ألا

قلت: في الرأس طالعة أو لائحة، فعجبت من فطنته وجودة خاطره.

أنا ابن آدم^(١)

روى سعيد بن يحيى الأموي عن أبيه قال: كان فتيان من قريش يرمون، فرمى منهم من ولد أبي بكر وطلحة فقرطس، فقال: أنا ابن القرنين، فرمى آخر من ولد أبي بكر وطلحة فقرطس، فقال: أنا ابن القرنين، فرمى آخر من ولد عثمان فقرطس، فقال: أنا ابن الشهيد، ورمى رجل من الموالي فقرطس، فقال: أنا ابن من سجدت له الملائكة. فقالوا له: من هو؟ فقال: آدم.

فطنة أبي بكر الرازي^(٢)

قال محمد بن علي الأمين: حدثنا بعض الأطباء الثقات أن غلاماً من بغداد قدم الري، فلحقه في طريقه أنه كان ينفث الدم، فاستدعى أبا بكر الرازي الطبيب المشهور بالحذق، فأراه ما ينفث ووصف له ما يجد، فنظر إلى نبضه وقارورته، واستوصف حاله، فلم يقدّم له دليل على سل ولا قرحة، ولم يعرف العلة، فاستنظر العليل لينظر في حاله، فاشتد الأمر على المريض، وقال: هذا يأس لي من الحياة لحذق المتطبب وجهله بالعلة، فزاد ألمه، ففكر الرازي، ثم عاد إليه، فسأله عن المياه التي شرب. فقال من صهاريج ومسقفات، فثبت في نفس الرازي بحدة خاطره وجودة ذكائه أن علقه كانت في الماء، وقد حصلت في معدته، وذلك الدم من فعلها. فقال: إذا كان في غد عالجتك، ولكن بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعوني فيك بما أمرهم. قال: نعم، فانصرف الرازي، فجمع مركنين كبيرين من طحلب، فأحضرهما في غد معه، فأراه إياهما قال: ابلع جميع ما في هذين المركنين، فبلع شيئاً يسيراً، ثم وقف. قال: ابلع. قال: لا أستطيع، فقال للغلمان: خذوه فاقيموه، ففعلوا به ذلك وطرحوه على قفاه وفتحوا فاه، فأقبل الرازي يدس الطحلب في حلقه ويكبسه كبساً شديداً ويطالبه ببلعه ويتهدده بأن

(٢) نفس المصدر ص ١٥٤.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣١.

يضرب إلى أن بلعه كارهاً أحد المركنين بأسره، والرجل يستغيث ويقول: الساعة قذف، فزاد الرازي فيما يكبسه في حلقة، فذرعه القيء، فتأمل الرازي ما قذف فإذا فيه علقه، وإذا هي لما وصل إليها الطحلب قربت إليه بالطبع وتركت موضعها، فالتفت على الطحلب، ونهض العليل معافى.

ذكاء طيب (١)

علي بن الحسن الصيدلاني قال: كان عندنا غلام حدث من أولاد النبا. فلحقه وجع في معدته شديد بلا سبب يعرفه، فكانت تضرب عليه أكثر الأوقات ضرباً عظيماً حتى يكاد يتلف، وقلّ أكله، ونحل جسمه، فحمل إلى الأهواز، فعولج بكل شيء، فلم ينجع فيه، ورد إلى بيته وقد ينس منه، فجاز بعض الأطباء فعرف حاله، فقال للعليل: اشرح لي حالك من زمن الصحة، فشرح إلى أن قال: دخلت بستاناً فكان في بيت البقر رمان كثير للبيع، فأكلت منه كثيراً. قال: كيف كنت تأكله؟ قال: كنت أعض رأس الرمانة بمني، وأرمي به وأكسرها قطعاً وأكل، فقال الطيب: غداً أعالجك بإذن الله تعالى، فلما كان الغد جاء بقدر أسفيداج قد طبخها من لحم جرو سمين، فقال للعليل: كل هذا. قال العليل: ما هو؟ قال: إذا أكلت عرفتك، فأكل العليل، فقال له: امتلىء منه فامتلاً، ثم قال له: أتدري أي شيء أكلت؟ قال: لا. قال: لحم كلب، فاندفع يقذف، فتأمل القذف إلى أن طرح العليل شيئاً أسود كالنواة يتحرك، فأخذه الطيب وقال: ارفع رأسك، فقد برأت، فرفع رأسه فسقاه شيئاً يقطع الغثيان، وصب على وجهه ماء ورد، ثم أراه الذي وقع فإذا هو قراداً، فقال: إن الموضع الذي كان فيه الرمان كان فيه قردان من البقر، وأنه حصلت منهم واحدة في رأس إحدى الرمانات التي اقتلعت رؤوسها بفتيك، فنزل القرد إلى حلقك وعلق بمعدتك يمتصها، وعلمت أن القراد^(٢) تهش إلى لحم الكلب، فإن لم يصح الظن لم يضرك ما أكلت، فصح، فلا تدخل فمك شيئاً لا تدري ما فيه، والله الموفق.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٤.

(٢) القراد: نوع من الحشرات. الواحد منها على قدر حجم الذبابة تلتصق بجلد البقر لتمتص الدم.

(١) الغم هو الدواء

قال أبو إدريس الخولاني: سمعت محمد بن إدريس الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن، وقيل له قال: لا تعدو العاقل إحدى خصلتين: إما أن يهتم لآخرته ومعاده أو الدنيا ومعاشه، والشحم مع الهم لا ينعقد، فإذا خلا من المعنيين صار في حد البهائم، فانهقد الشحم، ثم قال: كان ملك في الزمان الأول وكان مثقلًا كثير الشحم لا ينتفع بنفسه، فجمع المتطبين وقال: احتالوا إليّ بحيلة يخف عني لحمي هذا. قليلاً. قال: فما قدروا له على شيء. قال: فبعث له رجل عاقل أديب متطبب فارّه، فبعث إليه وأشخصه فقال له: عالجنى ولك الغنى. قال: أصلح الله الملك أنا متطبب منجم دعني حتى أنظر الليلة في طالعك. أي دواء يوافق طالعك فأسقيك، قال: فغدا عليه، فقال: أيها الملك، الأمان قال: لك الأمان. قال: رأيت طالعك يدل على أن الباقي من عمرك شهر، فإن أحببت عالجتك، وإن أردت بيان ذلك، فاحبسني عندك، فإن كان لقولي حقيقة فخلّ عني، وإلا فاستقص مني، قال: فحبسه قال: ثم رفع الملك الملاهي واحتجب عن الناس، وخلا وحده مهتمًا كلما انسلخ يوم ازداد غمًا حتى هزل وخفّ لحمه ومضى لذلك ثمان وعشرون يومًا، فبعث إليه وأخرجه، فقال: ما ترى. قال: أعز الله الملك. أنا أهون على الله عزّ وجلّ من أن أعلم الغيب، والله ما أعرف عمري، فكيف أعرف عمرك. إنه لم يكن عندي دواء إلا الغم، فلم أقدر أن أجلب إليك الغم إلا بهذه العلة، فأذاب شحم الكلبي، فأجازه وأحسن إليه.

(٢) القطيعي الطبيب

أبو الحسن بن الحسن بن محمد الصالحي الكاتب قال: رأيت بمصر طبيبًا كان بها مشهورًا يعرف بالقطيعي، وقال: إنه يكسب في كل شهر ألف دينار من جرايات يجريها عليه قوم من رؤساء العسكر، ومن السلطان، ومما يأخذه من العامة قال: وكان له دار قد جعلها شبه المرستان من جملة داره يأوي إليها الضعفاء والمرضى فيداويهم ويقوم بأغذيتهم وأدويتهم وخدمتهم، وينفق أكثر كسبه في ذلك، فاتفق أن بعض فتيان الرؤساء بمصر أسكت. قال: فجعل إليه أهل الطب،

(٢) نفس المصدر ص ١٥٦.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٥.

وفيهم القطيعي، فأجمعوا على موته إلا القطيعي، وعمل أهله على غسله ودفنه، فقال القطيعي: أعالجه وليس يلحقه أكثر من الموت الذي قد أجمع هؤلاء عليه، فخلاه أهله معه، فقال: هات غلامًا جلدًا ومقارع، فأتي بذلك، فأمر به، فمدّ وضربه عشر مقارع أشد الضرب ثم مسّ جسده، ثم ضربه عشرًا آخر، ثم جسّ مجسه، ثم ضربه عشر آخر، ثم جسّ مجسه، وقال: أياكون للميت نبض؟ قالوا: لا. قال: فجسّوا نبض هذا فجسّوه، فأجمعوا أنه نبض متحرك، فضربه عشر مقارع آخر، ثم جسّوه فجسّوه، فقالوا: قد زاد نبضه، فضربه عشرًا آخر، فتقلب فضربه عشرًا فتأوه، فضربه عشرًا فصاح، فقطع عنه الضرب، فجلس العليل يتأوه، فقال له: ما تجد؟ قال: أنا جائع. فقال: أطعموه، فجاؤوا بما أكله، فرجعت قوته وقمنا، وقد برأ. فقال له الأطباء: من أين لك هذا؟ قال: كنت مسافرًا في قافلة فيها أعراب يخفروننا، فسقط منهم فارس عن فرسه، فأسكت، فقالوا: قد مات؟ قال: فعمد شيخ منهم فضربه ضربًا شديدًا عظيمًا، وما رفع الضرب عنه حتى أفاق، فعلمت أن الضرب جلب إليه حرارة أزال سكتته، فقست عليه أمر هذا العليل.

(١) الجراد الشافي

قال أبو منصور ابن مارية، وكان من رؤساء البصرة قال: أخبرني شيوخنا قال: كان بعض أهلنا قد استسقى وأيسوا من حياته، فحمل إلى بغداد وشاوروا الأطباء فيه، فوصفوا له أدوية كبار، فعرفوا أنه قد تناولها، فلم تنفع فأيسوا من حياته، وقالوا: لا حيلة لنا في برئه، فسمع العليل، فقال: دعوني الآن أتزود من الدنيا وأكل ما أشتهي ولا تقتلونني بالحمية، فقالوا: كل ما تريد، فكان يجلس بباب الدار، فمهما اجتاز به اشتراه وأكله، فمرّ به رجل يبيع جرادًا مطبوخًا، فاشتري منه عشرة أرطال، فأكلها بأسرها، فانحل طبعه، فقام في ثلاثة أيام أكثر من ثلاثمائة مجلس، وكاد يتلف، ثم انقطع القيام وقد زال كل ما كان في جوفه وثابت قوته، قبراً وخرج يتصرف في حوائجه، فرآه بعض الأطباء فعجب من أمره وسأله عن الخبر فعرفه، فقال: ليس من شأن الجراد أن يفعل هذا الفعل، ولا بد أن يكون في الجراد الذي فعل هذا خاصية، فأحب أن تدلني على صاحب هذا الجراد

الذي باعه لك، فما زالا في طلبه حتى علما به، فرآه الطبيب فقال له: ممن اشتريت هذا الجراد؟ فقال: ما اشتريته أنا أصيده، وأجمع منه شيئاً كثيراً وأطبخه وأبيعه. قال: فمن أين تصطاده؟ فذكر له مكاناً على فراسخ يسيرة من بغداد، فقال له الطبيب: أعطيك ديناراً وتجيء معي إلى الموضع الذي اصطدت منه الجراد. قال: نعم، فخرجا وعاد الطبيب من الغد ومعه من الجراد شيء ومعه حشيشة، فقالوا له: ما هذا؟ قال: صادفت الجراد الذي يصيده هذا الرجل يرعى في صحراء جميع نباتها حشيشة يقال لها: مازريون وهي من دواء الاستسقاء، فإذا دفع إلى العليل منها وزن درهم أسهله إسهالاً عظيماً لا يؤمن أن ينضبط والعلاج بها خطر، ولذلك ما يكاد يصفها الأطباء، فلما وقع الجراد على هذه الحشيشة ونضجت في معدته، ثم طبخ الجراد ضعف فعلها بطبختين، فاعتدلت بمقدار ما أبرأت هذا.

القاضي حسين والفتاة العليلة^(١)

قال أبو بكر الجفاني: دخلت يوماً على القاضي حسين بن أبي عمر وهو مهموم حزين، فقلت: لا يغم الله قاضي القضاة أبداً. ومن يزيد المائي حتى إذا مات يغم عليه قاضي القضاة هذا الغم كله، فقال: ويحك مثلك يقول هذا في رجل أوحده في صناعته قد مات ولا خلف له يقاربه في حذقه وهل فخر البلد إلا أن يكون رؤساء الصناعات وحذاق أهل العلوم فيه، فإذا مضى رجل لا مثل له في صناعة لا بد للناس منها، فهلا يدل هذا الأمر على نقصان العلم وانحطاط البلدان، ثم أخذ يعدد فضائله، والأشياء الظريفة التي عالج بها، والعلل الصعبة التي زالت بتدبيره، فذكر من ذلك أشياء كثيرة. ومنها: أنه قال لقد أخبرني من مدة مديدة رجل من جلة هذا البلد أنه كان حدث بابتة له علة ظريفة فكتمتها عنه، اطلع عليها فكتمتها هو مدة، ثم انتهت أمرها إلى الموت، قال: فقلت: لا يسعني كتم هذا أكثر من هذا. قال: وكانت العلة أن فرج الصبية كان يضرب عليها ضرباً عظيماً لا تكاد تنام منه الليل ولا تهدأ بالنهار، وتصرخ من ذلك أعظم صراخ، ويجري في خلال ذلك منه دم يسير كماء اللحم، وليس هناك جرح يظهر ولا ورم كثير، فلما خفت المأتم ثم أحضرت يزيد فشاروته، فقال: أتأذن لي في الكلام وتبسط عذري

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٧.

فيه؟ فقلت: نعم، فقال: إنه لا يمكنني أن أصف شيئاً دون أن أشاهد الموضوع وأفتشه بيدي، وأسأل المرأة عن أسباب لعلها كانت الجالبة للعلة. قال: فلعظم الصورة وبلوغها حد التلف أمكنه من ذلك، فأطال مساءلتها وحديثها بما ليس من جنس العلة بعد أن حبس الموضوع حتى عرف بقعة الألم حتى كدت أن أثب به ثم تصبرت ورجعت إلى ما أعرفه من ستره، فصبرت على مضض إلى أن قال: تأمر من يمسكها، ففعلت ثم أدخل يده في الموضوع دخولاً شديداً، فصاحت الصبية وأغمي عليها وانبعث الدم، فأخرج في يده حيواناً أقل من الخنفساء فرمى به، فجلست الابنة في الحال واستترت وقالت: يا أبت استرني فقد عوفيت، قال: فأخذ الحيوان في يده وخرج من الموضوع، فلحقته وأجلسته وقلت: أخبرني ما هذا؟ قال: إن تلك المسألة التي لم أشك أنك أنكرتها إنما كنت لأطلب شيئاً أستدل به على العلة إلى أن قالت لي إن يوماً من الأيام جلست في بيت دولاب البقر من بستان لكم، ثم حدثت العلة بها من غير سبب تعرفه من بعد ذلك اليوم، فتخيلت أنه قد دبّ إلى فرجها من القردان، وكلما امتصّ من موضعه ولد الضربان، وأنه إذا شبع نقط من الفرج الذي يمتصّ منه إلى خارج الفرج هذه النقطة اليسيرة من الدم، فقلت: أدخل يدي وأفتش، فأدخلت يدي، فوجدت القراد، فأخرجته وهو هذا الحيوان، وقد كبر وتغيّرت صورته لكثرة ما يمتصّ من الدم على طول الأيام قال: فتأملت الحيوان، فإذا هو قراد قال: برئت الصبية. قال: فقال لي أبو الحسن القاضي: هل ببغداد اليوم من له صناعة مثل هذا؟ فكيف لا أغتمّ بمن هذا بعض حذقه.

الرشيد وجبريل بن بختيشوع^(١)

قال جبريل بن بختيشوع: كنت مع الرشيد بالرقعة ومعه محمد والمأمون، وكان رجلاً كثير الأكل والشرب، فأكل يوماً أشياء خلط فيها، ودخل المستراح فغشي عليه، فأخرج وقوي الأمر حتى لم يشكوا في موته، فأحضرت وجسيت عرقه، فوجدت نبضاً خفيفاً، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاء وحرارة الدم، فقلت: الصواب أن يحتجم الساعة، فقال كوثر الخادم: لما لم تقدر من أمر الخليفة يا ابن الفاعلة تقول: احجموا رجلاً ميتاً لا تقبل قولك ولا كرامة. فقال

(١) كتاب الأذكاء ص ١٥٨.

المأمون: الأمر قد وقع وليس يضر أن تحجمه، فأحضر الحجام وتقدمت إلى جماعة من الغلمان بإمساكه ومض الحجام المحاجم، فأحمرّ المكان ففرحت، ثم قلت: أشرطه فشرطه، فخرج الدم فسجدت شكراً، فكلما خرج الدم أصفر لونه إلى أن تكلم وقال: أين أنا؟ أنا جائع فغديناه وعوفي، فسأل صاحب الحرس عن غلته، فعرفه أنها ألف درهم في كل سنة وسأل صاحبه، فعرفه أنها خمسمائة ألف، فقال: يا جبريل كم عليك؟ قلت: خمسون ألفاً. قال: ما أنصفناك إذ غلات هؤلاء وهم يحرسوني كذلك وغلثك كما ذكرت، فأمر بإقطاعه ألف ألف درهم.

ابن نوح الطيب (١)

قال أبو الحسن المهدي القزويني: كان عندنا طبيب يقال له ابن نوح، فلحقتني سكتة، فلم يشك أهلي في موتي وغسلوني وكفونوني وحملوني على الجنازة، فمرت الجنازة عليه ونساء خلفي يصرخن، فقال لهم: إن صاحبكم حي فدعوني أعالجه، فصاحوا عليه، فقال لهم الناس: دعوه يعالجه، فإن عاش وإلا فلا ضرر عليكم، فقالوا: نخاف أن تصير فضيحة، فقال: علي أن لا تصير فضيحة، قالوا: فإن صرنا؟ قال: حكم السلطان في أمري، وإن برأ فأني شيء لي؟ قالوا: ما شئت. قال: ديتة. قالوا: لا نملك ذلك، فرضي منهم بمال أجابه الورثة إليه، وحملني فأدخلني الحمام وعالجني، وأفقت في الساعة الرابعة والعشرين من ذلك الوقت، ووقعت البشائر، ودفع إليه المال، فقلت للطبيب بعد ذلك: من أين عرفت هذا؟ فقال: رأيت رجلك في الكفن منتصباً وأرجل الموت منبسطة ولا يجوز انتصابها، فعلمت أنك حي، وخمنت أنك أسكت وجربت عليك، فصحت تجرّبتني.

ناكح الحمار (١)

قال أبو أحمد الحارثي: كان طبيب نصراني يقال له موسى بن سنان قد أتني برجل متفخ الذكر لا يقدر أن يبول، وهو يستغيث ويصيح، فسأله عن علته، فذكر أنه لم يبول منذ أيام، ورأى ذكره منتفخاً، فنظر في حاله، فلم يجد شيئاً يوجب عسر البول ولا حصاة، فتركه عنده يوماً يسأله، فقال له: حدثني أدخلت ذكرك في

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٩.

شيء لم تجر عادة الناس به، فلحقك هذا، فسكت الرجل واستحي، فلم يزل الطبيب يبسطه ويشطره له الكتمان إلى أن قال: نكحت حمارًا ذكرًا، فقال الطبيب: هاتوا مطرقة وغلماً، فجاؤوه، فأمسكوا الرجل، وجعل ذكره على سندان حداد وطرقه بالمطرقة مرة واحدة وجيعة، فبرزت شعيرة، وذلك أنه خمن أن شعيرة من جاعرة الحمار قد دخلت في ثقب الذكر، فلما طرقها خرجت.

جارية تتمطى (١)

قال أبو القاسم الجهني: أن حظية لبعض الخلفاء أظنه الرشيد قامت لتتمطى، فلما تمطت جاءت لترد يدها فلم تقدر وبقيتا حافتين، فصاحت وآلمها ذلك، وبلغ الخليفة فدخل وشاهد من أمرها ما ألقه وشاوور الأطباء، فكل قال شيئاً واستعمله فلم ينجح، وبقيت الجارية على تلك الصورة أياماً والخليفة قلق بها، فجاءه أحد الأطباء، فقال: يا أمير المؤمنين، لا دواء لها إلا أن يدخل إليها رجل غريب، فيخلو بها ويمرخها ومروخاً يعرفه، فأجاب الخليفة إلى ذلك طلباً لعافيتها، فأحضر الطبيب رجلاً وأخرج من كفه دهنًا وقال: أريد أن تأمر يا أمير المؤمنين بتعريتها حتى أمرخ جميع أعضائها بهذا الدهن، فشق ذلك عليه، ثم أمر أن يفعل ذلك ووضع في نفسه قتل الرجل، وقال للخادم: خذ فادخله عليها بعد أن تعريها، فعريت الجارية وأقيمت، فلما دخل الرجل وقرب منها سعى إليها، وأوماً إلى فرجها ليتمسه، فغطت الجارية فرجها بيدها ولشدة ما داخلها من الحياء والجزع حمي بدننها بانتشار الحرارة الغريزية، فعاونتها على ما أرادت من تغطية فرجها واستعمال بدننها في ذلك، فلما غطت فرجها قال لها الرجل: قد برأت، فلا تحركي يديك، فأخذه الخادم وجاء به إلى الرشيد، وأخبره الخبر، فقال له الرشيد: كيف تعمل بمن شاهد فرج حرمتنا، فجذب الطبيب بيده لحية الرجل، فإذا هي ملصقة، فانقلعت، فإذا الشخص جارية، وقال: يا أمير المؤمنين، ما كنت لأبدي حرمتك للرجال، ولكن خشيت أني أكشف لك الخبر، فيتصل بالجارية، فتبطل الحيلة لأنني أردت أن أدخل إلى قلبها فزعاً شديداً بحمي طبعها، ويقودها إلى الحمل على يديها وتحريكها وإعانة الحرارة الغريزية على ذلك، فلم يقع لي غير هذا؟ فأخبرتكم به، فأجزل الخليفة جائزته وأصرفه. قال أبو القاسم: ولهذا

(١) كتاب الأذكياء ص ١٥٩.

استعملت الأطباء في علاج اللقوة الضعيفة الصفة الشديدة على غفلة من ضد الجانب الملقو ليدخل قلب المصفوع ما يحميه، فيحول وجهه ضرورة بالطبع إلى حيث صفع، فترجع لقوته.

(١) الطبيات الثلاث

الصلت بن محمد الجحدري قال: حدّثنا بشر بن الفضل قال: خرجنا حجاجًا، فمررنا بمياه من مياه العرب، فوصف لنا فيه ثلاث أخوات بالجمال وقيل لنا: إنهن يتطيبين ويعالجن، فأحببنا أن نراهن، فعمدنا إلى صاحب لنا، فحككنا ساق بعود حتى أدميناه، ثم رفعناه على أيدينا وقلنا: هذا سليم فهل من راق، فخرجت أصغرهن، فإذا جارية كالشمس الطالعة، فجاءت حتى وقفت عليه، فقالت: ليس سليم. قلنا: وكيف؟ قالت: لأنه خدشه عود بالت عليه حية ذكر، والدليل أنه إذا طلعت عليه الشمس مات، فلما طلعت الشمس مات. فعجبنا من ذلك.

(٢) نباهة صبي

إن عبد الملك بن مروان قال لرأس الجالوت، أو لابن رأس الجالوت: ما عندكم من الفراسة في الصبيان؟ قال: ما عندنا فيهم شيء لأنهم يخلقون خلقًا بعد خلق غير أنا نرمقهم، فإن سمعنا منهم من يقول في لعبه: من يكون معي رأيناه ذا همة وحنو وصدق فيه، وإن سمعناه يقول: مع من أكون كرهناها منه، فكان أول ما علم من ابن الزبير أنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان، وهو صبي، فمرّ رجل، فصاح عليهم، ففرّوا ومشى ابن الزبير القهقري وقال: يا صبيان، اجعلوني أميركم وشدوا بنا عليه. ومرّ به عمر بن الخطاب، وهو صبي يلعب مع الصبيان، ففرّوا ووقف، فقال له: ما لك لم تفر مع أصحابك؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم أجرم، فأخاف، ولم تكن الطريق ضيقة، فأوسع لك.

(٢) يحتمي بعمر بن الخطاب

قال سنان بن مسلمة وكان أميرًا على البحرين: كنا أغيلمة بالمدينة في أصول النخل نلتقط البلح الذي يسمونه الخلال، فخرج إلينا عمر بن الخطاب، فتفرّق

الغلمان وثبت مكاني، فلما غشيني قلت يا أمير المؤمنين: إنما هذا ما ألقى الريح، قال: أرني أنظر، فإنه لا يخفى عليّ، قال: فنظر في حجري، فقال: صدقت. فقلت: يا أمير المؤمنين، ترى هؤلاء الغلمان، والله لئن انطلقت لأغاروا عليّ، فانتزعوا ما في يدي، قال: فمشى معي حتى بلغني مأمني.

(١) المأمون ومؤدبه

قال أبو محمد الترمذي: كنت أؤدب المأمون وهو في حجر سعيد الجوهري. قال: فأتيته يوماً وهو داخل، فوجهت إليه بعض خدامه يعلمه بمكاني، فأبطأ عليّ ثم وجهت آخر، فأبطأ فقلت لسعيد: إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأخر. قال: أجل، ومع هذا إنه إذا فارقك تعزم على خدمه ولقوا منه أذى شديداً، فقومه بالأدب، فلما خرج أمرت بحمله، فضربته سبع درر. قال: فإنه ليدلك عينيه من البكاء إذ قيل جعفر بن يحيى قد أقبل، فأخذ مندبلاً، فمسح عينيه من البكاء، وجمع ثيابه وقام إلى فرشه فقعد عليه متربعا، ثم قال: ليدخل، فقمت عن المجلس وخفت أن يشكوني إليه فألقى منه ما أكره. قال: فأقبل بوجهه وحدته حتى أضحكه وضحك إليه، فلما همّ بالحركة دعا بدابته ودعا غلمانها، فسعوا بين يديه، ثم سأل عني، فجئت فقال: خذ علي بقية حزني، فقلت: أيها الأمير، أطال الله بقاءك. لقد خفت أن تشكوني إلى جعفر بن يحيى، ولو فعلت ذلك لتنكر لي، فقال: تراني يا أبا محمد كنت أطلع الرشيد على هذا، فكيف بجعفر بن يحيى حتى أطلعه إنني أحتاج إلى أدب إذن، يغفر الله لك بعد ظنك ووجيب قلبك خذ في أمرك فقد خطر ببالك ما لا تراه أبداً لو عدت في كل يوم مائة مرة.

(٢) الصبي والحمار

قال الصولي، قال الجاحظ، قال ثمامة: دخلت إلى صديق لي أعوده وتركت حماري على الباب، ولم يكن معي غلام، ثم خرجت، وإذا فوقه صبي، فقلت: أتركب حماري بغير إذني؟ قال: خفت أن يذهب، فحفظته لك. قلت: لو ذهب كان أحب إليّ من بقائه. قال: فإن كان هذا رأيك في الحمار، فاعمل على أنه قد ذهب وهبه لي، واربح شكري، فلم أر ما أقول.

ذاك الفعل من أبي (١)

قال رجل من أهل الشام: قدمت المدينة، فقصدت منزل إبراهيم بن برهة، فإذا بنية له صغيرة تلعب بالطين، فقلت لها: ما فعل أبوك؟ قالت: وقد إلى بعض الأجواد، فما لنا به علم منذ مدة، فقلت: انحري لنا ناقة، فإننا أضيافك. قالت: والله ما عندنا قلت: فشاة قالت: والله ما عندنا. قلت: فدجاجة. قالت: والله ما عندنا. قلت فبيضة، قالت: والله ما عندنا. قلت: فباطل ما قال أبوك:

كَمْ نَاقَةٌ قَدْ وَجَّاتٍ مَنَحَرَهَا بِمَسْتَهَلِّ الشُّؤْبُوبِ أَوْ جَمَلٍ

قالت: فذاك الفعل من أبي هو الذي أصارنا إلى أن ليس عندنا شيء.

المعتصم والفتح بن خاقان (١)

قيل: إن المعتصم ركب إلى خاقان يعوده، والفتح صبي يومئذ، فقال له المعتصم: أيما أحسن دار أمير المؤمنين أو دار أبيك؟ قال: إذا كان أمير المؤمنين في دار أبي أحسن، فأراه فصًا في يده، فقال: هل رأيت يا فتح أحسن من هذا الفص؟ فقال: نعم اليد التي هو فيها.

صبر امرأة (٢)

قال الأصمعي: مات ابن لأعرابية، فما زالت تبكي حتى خدد الدمع خدها، ثم استرجعت، فقالت: اللهم إنك قد علمت فرط حب الوالدين لولدهما، فلذلك لم تأمرهما ببره، وعرفت قدر عقوق الولد لوالديه، فمن أجل ذلك حضضته على طاعتها. اللهم إن ولدي كان من البار بوالديه على ما يكون الوالدان بولدهما، فأجزه مني بذلك صلاة ورحمة، ولقه سرورًا ونصرة، فقال لها أعرابي: نعم ما دعوت له. لولا أنك شبيته من الجزع بما لا يجدي. فقالت: إذا وقعت الضرورات لم يعجر عليها حكم المكتسبات، وجزعي على ابني غير ممكن في الطاقة صرفه، ولا في القدرة منعه، ولي عذري بفضلته، فقد قال عز وجل: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ عَلَيْهِ بَيْعٌ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٧٣].

(٢) نفس المصدر ص ١٨٨.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨١.

إني وإياك في الجنة^(١)

قال أبو الحسن المدائني: دخل عمران بن حطان يوماً على امرأته. وكان عمران قبيحاً ذميماً قصيراً، وقد تزينت، وكانت امرأة حسناء، فلما نظر إليها ازدادت في عينه جمالاً وحسناً، فلم يتمالك أن يديم النظر إليها، فقالت: ما شأنك؟ قال: لقد أصبحت والله جميلة. فقالت: أبشر فإني وإياك في الجنة. قال: ومن أين علمت ذلك؟ قالت: لأنك أعطيت مثلي فشكرت، وابتليت سلامته بمثلك فصبرت، والصابر والشاكر في الجنة.

عمران بن حطان وأبو الطيب الطبري^(١)

كان عمران بن حطان أحد الخوارج، وهو القاتل يمدح عبد الرحمن بن ملجم على قتله علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وأرضاه بمنه وكرمه:

يا ضربةً من تقي ما أراد بها إلا ليلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الأرض أقبزهم لم يخلطوا دينهم بغيا وعدوانا

فبلغت هذه الآيات القاضي أبا الطيب الطبري، فقال مجيباً له على الفوز:

إني لأبرأ مما أنت قائله على ابن ملجم الملعون بهتانا
إني لأذكره يوماً فألعنه ديننا وألعنُ عمرانا وحطانا
عليك ثم عليه الدهر متصلاً لعائن الله أسراراً وأعلانا
فأنتم من كلاب النار جاء به نصّ الشريعة تبياناً وبرهاناً

أشار أبو الطيب إلى قول النبي ﷺ: «الخوارج كلاب النار».

كثير عزة والعجوز^(٢)

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: حدثني أبو المشيع قال: خرج كثير يلتمس عزة، ومعه شينة فيها ماء، فأخذه العطش، فتناول الشينة، فإذا هي عظم، ما فيها شيء من الماء، فرفعت له نار فأمها فإذا بقربها مظلة بفنائها عجوز، فقالت

(٢) نفس المصدر ص ١٨٩.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨٨.

له: مَنْ أنت؟ قال: أنا كثير. قالت: قد كنت أتمنى ملاقاتك، فالحمد لله الذي أرايك. قال: وما الذي تلتمسينه مني؟ قالت: ألسن القائل:

إذا ما أتينا خلة كي نزيلها أبينا وقلنا الحاجبية أول
سنوليك عرفاً إن أردتِ وصالنا ونحن لتلك الحاجبية أوصل
قال: بلى. قالت: أفلا قلت كما قال سيدك جميل:

يا رب عارضة علينا وضلها بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها في القول بعد تأمل حبي بثينة عن وصالك شاعلي
لو كان في قلبي كقدر قلامه فضلاً لغيرك ما أتتك رسائلي

قلت: دعي هذا واسقيني. قالت: والله لا أسقيك شيئاً. قلت: ويحك إن العطش قد أضرّ بي. قالت: ثكلت بثينة إن طعمت أن عندي قطرة ماء، فكان جهده أن ركض راحلته ومضى يطلب الماء، فما بلغه حتى أضحى النهار وكاد يقتله العطش.

ذو الرمة والجارية السوداء (١)

قال: دخل ذو الرمة الكوفة فينا هو يسير في شوارعها على نجيب له إذ رأى جارية سوداء واقفة على باب دار، فاستحسنها ووقعت بقلبه، فدنا إليها، فقال: يا جارية، اسقني ماء، فأخرجت إليه كوزاً، فشرب فأراد أن يمازحها ويستدعي كلامها، فقال: يا جارية، ما أحر ماءك، فقالت: لو شئت لأقبلت على عيوب شعرك وتركت حر مائي وبرده، فقال لها: وأي شعري له عيب؟ فقالت: ألسن ذا الرمة؟ قال: بلى. قالت:

فأنت الذي شبّهت عنز بقفرة لها ذنّب فوق استها أم سالم
جعلت لها قرنين فوق جبينها وطنسين مسودين مثل المحاجم
وساقين إن يستمكن منك يتركا بجلدك يا غيلان مثل المائم
أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا أنت أم أم سالم؟

(١) كتاب الأذكياء ص ١٨٩.

قال: نشدتك بالله ألا أخذت راحلتي وما عليها ولم تظهرني هذا، ونزل راحلته، فدفعها إليها، فذهب ليمضي، فدفعتها إليه وضمنت له ألا تذكر لأحد ما جرى.

الحجاج وأم البنين بنت عبد العزيز^(١)

قال زهير بن حسن مولى الربيع بن يونس: قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك فصلّى عنده ركعتين، وركب الوليد، فمشى الحجاج بين يديه، فقال له الوليد: اركب يا أبا محمد. فقال: يا أمير المؤمنين، دعني أستكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عن الجهاد زمناً طويلاً، فعزم عليه الوليد أن يركب ودخل، فركب مع الوليد، فبينما هو يتحدث ويقول: ما فعلت بأهل العراق وفعلت، أقبلت جارية فنادت الوليد ثم انصرفت، فقال الوليد: يا أبا محمد، أتدري ما قالت الجارية؟ قال: لا. قال: قالت: أرسلتني إليك أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أن مجالستك هذا الأعرابي وهو في سلاحه وأنت في غلاله غرر، فأرسلت إليها أنه الحجاج بن يوسف فراعها ذلك، وقالت: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إليّ من أن يخلو بك الحجاج، وقد قتل أحباء الله له وأهل طاعته ظلماً وعدواناً. فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، إنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة لا تطلعهن على سرّك، ولا تستعملهن بأكثر من وثبهن، ولا تكشرن مجالستهم صغاراً وذلائم، ثم نهض فخرج، ودخل الوليد على أم البنين، فأخبرها بمقالته، فقالت: إني أحب أن تأمره بالتسليم عليّ فسيبلغك بالذي يكون بيني وبينه، فغدا الحجاج على الوليد، فقال الوليد: ائت أم البنين، فقال: أعفني يا أمير المؤمنين. قال: فلتفعلن فأتاها، فحجبتة طويلاً، ثم أذنت له، ثم قالت له: يا حجاج، أنت تفتخر على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث. أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خلقه عليه ما ابتلاك بقتل ابن ذات النطاقين ابن حواري رسول الله ﷺ، وابن الأشعث فلعمري لقد استعلى عليك حتى عجعجت ووالى عليك الهرار حتى عويت، فلولا أن أمير المؤمنين نادى في أهل اليمن، وأنت في أضيق من القرن، فأظلتك رماحهم وعلاك كفاحهم لكنت مأسوراً قد أخذ الذي فيه عينك وعلى هذا، فإن نساء أمير المؤمنين قد نفضن العطر عن غدائرهن وبعنه في

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٠.

أعطية أوليائه وأما ما أشرت على أمير المؤمنين من قطع لذاته وبلوغ أوطاره من نسائه، فإن يكن إنما ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين، فغير مجيبك إلى ذلك، وإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به أمك البظراء عنك من ضعف الغريزية وقبح المنظر في الخلق والخلق، يا لكع، فما أحقه أن يقتدي بقولك قاتل الله الذي يقول:

أَسَدٌ عَلِيٌّ فِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَخَاءُ تَنْفِرٍ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةٍ فِي الْوَعَا أَوْ قَدْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرِ

ثم أمرت جارية لها، فأخرجته، فلما دخل على الوليد قال: ما كنت فيه يا أبا محمد، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إليّ من ظهرها. قال: إنها بنت عبد العزيز.

محمد بن عبد الله وجارية شاعرة^(١)

قال ابن السكيت عزم محمد بن عبد الله بن طاهر على الحج، فخرجت إليه جارية شاعرة، فبكت لما رأت آلة السفر، فقال محمد بن عبد الله:

دَمْعَةٌ كَاللَّوْلُؤِ الرَّطْبِ بِ عَالَى الْخَدِّ الْأَسِيلِ
هَطَلْتُ فِي سَاعَةِ الْبَاءِ بَيْنَ مِنَ الطَّرْفِ الْكَحِيلِ

ثم قال أجيزي فقالت:

حِينَ هَمَّ الْقَمَرُ الْبَا هِرُّ عَنَّا بِالْأَقْوَلِ
إِنَّمَا يُفْضَحُ الْعَشُّ آقُ فِي وَثْتِ الرَّحِيلِ

الرشيد والجارية^(١)

قال أيوب الوزان، قال المفضل: دخلت على الرشيد، وبين يديه طبق ورد، وعنده جارية مليحة شاعرة أدبية قد أهديت إليه، فقال: يا مفضل، قل في هذا الورد شيئاً تشبهها به، فأنشأت أقول:

كَأَنَّهُ خَدٌّ مَرْمُوقٌ بِقَبْلِهِ فَمِ الْحَبِيبِ وَقَدْ أَبْدَى بِهِ حَجَلًا

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩١.

فقلت الجارية:

كَأَنَّهُ لَوْ خُدِّي حِينَ يَذْفَعُنِي كَفَّ الرَّشِيدَ لِأَمْرِ يُوجِبُ الْعُسْلَا

فقال: يا مفضل، قم، فاخرج، فإن هذه الماجنة قد هيّجتنا، فقمتم وأرخت الستور.

الرشيد والصبية السائلة^(١)

قال الأصمعي: لما قدم الرشيد البصرة يريد الخروج إلى مكة، فخرجت معه، فلما صرنا بضرية إذا أنا على شفير الوادي بصبية قدامها قصعة لها، وإذا هي تقول:

طَحَنْنَا طَوَاجِنُ الْأَعْوَامِ وَرَمَثْنَا نَوَائِبُ الْأَيَّامِ
فَأَتَيْنَاكُمْ لِمَذْأَكْفَا لَقَضَالَاتٍ زَادِكُمْ وَالطَّعَامِ
فَاطْلُبُوا الْأَجْرَ وَالْمَثُوبَةَ فِينَا أَيُّهَا الزَّائِرُونَ بَيْتَ الْحَرَامِ
مَنْ رَأَى رَأَى فَقَدْ رَأَى وَرَخْلِي فَارْحَمُوا غَرْبَتِي وَذُلَّ مَقَامِي

قال: فرجعت إلى أمير المؤمنين، فقلت: صبية على شفير الوادي، وأنشدته ما قالت، فعجب، فقلت: يا أمير المؤمنين، أفأتيك بها؟ قال: لا. بل نحن نذهب إليها. قال الأصمعي: فوقف عليها أمير المؤمنين، فقلت لها: أنشديه ما كنت تقولينه، فأنشدته ولم تهبه، فقال: يا مسرور املا قصعتها دنانير، قال: فملاها حتى فاظت يمينًا وشمالًا.

ابن الشيطمي والجارية من ولد الحسين^(٢)

ابن الشيطمي قال: حججت في سنة قحطة جدبة، فبينما أنا أطوف بالكعبة، إذ أبصرت جارية من أحسن الناس قداً وقواماً وخلقاً وهي متعلقة بأستار الكعبة تقول: إلهي وسيدي. ها أنا أمتك الغريبة وسائلتك الفقيرة حيث لا يخفى عليك بكائي، ولا يستتر عنك سوء حالي. قد هتكت الحاجة حجابي وكشفت الفاقة نقابي، فكشفت وجهًا رقيقًا عند الذل، وذليلاً عند المسألة. طال وعزتك ما حجه عنه ماء الغناء وصانه ماء الحياء. قد جمدت عني كف المرزوقين، وضافت بي

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩١.

(٢) نفس المصدر ص ١٩٢.

صدود المخلوقين، فمن حرمني لم ألمه، ومن وصلني وكلته إلى مكافأتك ورحمتك، وأنت أرحم الراحمين. قال: فدنوت منها فبررتها، ثم قلت لها: مَنْ أنت؟ وممن أنت؟ فقالت: إليك عني. من قل ماله، وذهب رجاله كيف يكون حاله. ثم أنشأت تقول:

بعضُ بَنَاتِ الرُّجَالِ أبرزها	الدَّهْرُ لَمَّا قَد تَرَى وأخرجها
أبرزها من جَلِيلِ نِعْمَتِهَا	فابْتَرَزَهَا مَلِكُهَا وأحوجها
وطالما كَانَتِ العُيُونُ إِذَا	مَا خَرَجْتَ تَسْتَشْفِهُ هُودَجَهَا
إِنْ كَانَ قَد سَاءَهَا وَأَحْز	نَهَا فَطالما سَرَّهَا وَأَبْهَجَهَا
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ مَعْسِرَةِ	قَد ضَمِنَ اللهُ أَنْ يَفْرَجَهَا

قال: فسألت عنها، فأخبرت أنها من ولد الحسين بن عليّ رضوان الله عليهم

أجمعين.

جميل وبثينة^(١)

قيل: إن كثير عزة لقي جميلاً، فقال له: متى عهدك ببثينة؟ قال: ما لي بها عهد منذ عام أول، وهي تغسل ثوباً بوادي الدوم، فقال له كثير: تحب أن أعهدا لك الليلة؟ قال: نعم. فأقبل راجعاً إلى بثينة، فقال له أبوها يا فلان: ما ردك، أما كنت عندنا قبيل؟ قال: بلى، ولكن حضرتني أبيات قلتها في عزة قال: وما هي؟ قلت:

فقلتُ لها يا عَزَّ ارسل صاحبي	على بابِ داري والرَّسول موكلاً
أما تذكِرينَ العَهْدَ يَوْمَ لقيتكم	بأسفل وادي الدَّوم والثوب يُغسَلُ

فقالت بثينة: أخساً. فقال أبوها: ما هاجك يا بثينة؟ قالت: كلب لا يزال يأتينا من وراء الجبل بالليل وأنصاف النهار. قال: فرجع إليه، فقال: قد وعدتكم من وراء هذا الجبل بالليل وأنصاف النهار، فألقها إذا شئت.

موعد غرامي^(٢)

ومن هذا الفن حُكِيَّ أن أعرابياً بعث غلاماً له إلى امرأة يواعدها موضعاً يأتيها فيه، فذهب الغلام وأبلغها الرسالة، فكرهت المرأة أن تقر للغلام بما بينهما،

(٢) نفس المصدر ص ١٩٣.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٢.

فقالت: والله لئن أخذتك لأعركنّ أذنك عركة تبكي منها، وتستند إلى تلك الشجرة ويغشى عليك إلى وقت العتمة، فلم يعرف الغلام معنى هذا الكلام، وانصرف إلى صاحبه وحكى له، فعلم أنها واعدته تحت الشجرة وقت العتمة.

بلاغة جارية (١)

قال الأصمعي: كنت عند أمير المؤمنين الرشيد إذ دخل رجل ومعه جارية للبيع، فتأملها الرشيد، ثم قال: خذ جاريتك، فلولا كلف في وجهها وخنس في أنفها لاشتريتها، فانطلق بها، فلما بلغت الستر قالت: يا أمير المؤمنين، ارددني إليك أنشدك بيتين حضرائي، فردها فأنشأت تقول:

ما سلمَ الطَّبِيُّ على حُسْنِهِ كَلَّا وَلَا الْبَدْرُ الَّذِي يُوصَفُ
الطَّبِيُّ فِيهِ خَنَسٌ بَيْنَ وَالْبَدْرُ فِيهِ كَلْفٌ يُغْرِفُ

فأعجبه بلاغتها فاشتراها وقرب منزلها، وكانت أحظى جواريه عنده.

اصعد حتى ترى الدنيا (٢)

قال الجاحظ: رأيت بالعسكر امرأة طويلة القامة جدًا، ونحن على طعام، فأردت أن أمازحها، فقلت: انزلي حتى تأكلي معنا. قالت: وأنت، فاصعد حتى ترى الدنيا.

هل أقبل الحجر الأسود (٢)

قال الجاحظ: رأيت جارية بسوق النخاسين ببغداد ينادى عليها وعلى خدها خال، فدعوت بها وجعلت أقلبها، فقلت لها: ما اسمك؟ قالت: مكة. فقلت: الله أكبر قرب الحج أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود؟ قالت له: إليك عني ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿لَنْ تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التحل: الآية ٧].

الخيزران والمهدي (٣)

قال هارون بن عبد الملك بن المأمون: لما عرضت الخيزران على المهدي قال لها: والله يا جارية إنك لعلى غاية المتمنى، ولكنك خمسة الساقين، فقالت:

(٢) نفس المصدر ص ١٩٤.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٣.

(٣) نفس المصدر ص ١٩٥.

يا أمير المؤمنين، إنك أحوج ما يكون إليهما لا تراهما، فقال: اشتروها، فحظيت عنده، فأولدها موسى وهارون.

المهدي وجاريتة الحسناء^(١)

حكى أبو بكر الصولي: أن المهدي اشترى جارية فاشتد شغفه بها، وكانت به أشغف، وكانت تتجافاه كثيرًا، فدس إليها من عرف ما في نفسها، فقالت: أخاف أن يملني ويدعني فأموت، فأنا أمتع نفسي بعض لذتها منه لأعيش، فقال المهدي:

ظَفَرَتْ بِالْقَلْبِ مَنِّي	عَادَةٌ مِثْلُ الْهِلَالِ
كُلَّمَا صَحَّ لَهَا	أَوْ ذِي جَاءَتْ بِأَغْتِيَالِ
لَا تَحِبُّ الْهَجْرَ مَنِّي	وَالْتِنَائِي عَنِّ وَصَالِي
بَلْ لِمَأْمَنِيهَا عَلَيَّ	حَبِّي لَهَا خَوْفَ الْمَلَالِ

حيلة ناجحة^(١)

حدّثنا رجل من تغلب قال: كان فينا رجل له ابنة شابة، وكان له ابن أخ يهواها وتهواها، فمكثنا كذلك دهرًا، ثم أن الجارية خطبها بعض الأشراف فأرغب في المهر، فأنعم أبو الجارية، واجتمع القوم للخطبة، فقالت الجارية لأمها: يا أماه: ما يمنع أن يزوجني من ابن عمي؟ قالت: أمر كان مقضيًا. قالت: والله ما أحسن رياه صغيرًا، ثم تدعوه كبيرًا، ثم قالت لها: يا أماه، إنني والله حامل، فاكتمي إن شئت أو نوحني، فأرسلت الأم إلى الأب، فأخبرته الخبر، فقال: اكتمي هذا الأمر، ثم خرج إلى القوم، فقال: يا هؤلاء إنني كنت أحببتكم، وأنه قد حدث أمر رجوت أن يكون فيه الأجر وأنا أشهدكم أنني قد زوجت ابنتي فلانة من ابن أخي فلان، فلما انقضى ذلك قال الشيخ: ادخلوها عليه، فقالت الجارية: هي بالرحمن كافرة إن دخل عليها من سنة أو تبين حملها. قال: فما دخل عليها إلا بعد حول، فعلم أبوها أنها احتالت عليه.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٩٥.

نكره منك ما تكره منّا^(١)

قال الصولي، قال العتبي: رأيت امرأة أعجبتني صورتها، فقلت: ألك بعل؟ قالت: لا. قلت: أفرغبين في التزويج؟ قالت: نعم. ولكن لي خصلة أظنك لا ترضاها. قلت: وما هي؟ قالت: بياض برأسي. قال: فثنت عنان فرسي وسرت قليلاً، فنادتني أقسمت عليك لتقفن، ثم أتت موضع خال، فكشفت عن شعر كأنه العناقيد السوناي، فقالت: والله ما بلغت العشرين، ولكنني عرفتكم أنا نكره منك ما تكره منّا. قال: فخرجت وسرت وأنا أقول:

فَجَعَلْتُ أَطْلُبُ وَضَلَّهَا بِتَمَلُّقٍ وَالشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بِأَنْ لَا تَفْعَلِي

وافق شن طبقة^(٢)

قال الشرقي بن قطامي: كان شن من دعاة العرب، فقال: والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلي، فأزوجها، فسار حتى لقي رجلاً يريد قرية يريدتها شن، فصحبه، فلما انطلقا قال له شن: أتحملي أم أحملك؟ فقال الرجل: يا جاهل، كيف يحمل الراكب الراكب، فسارا حتى رأيا زرعاً قد استحصد فقال شن: أترى هذا الزرع قد أكل أم لا؟ فقال: يا جاهل، أما تراه قائماً. فمراً بجنابة فقال: أترى صاحبها حياً أو ميتاً؟ فقال: ما رأيت أجهل منك. أتراهم حملوا إلى القبور حياً. ثم سار به الرجل إلى منزله، وكانت له ابنة تسمى طبقة، فقص عليها القصة، فقالت: أما قوله أتحملي أم أحملك، فأراد تحدّثني أم أحدثك حتى نقطع طريقنا، وأما قوله أترى هذا الزرع قد أكل أم لا، فأراد بآعه أهله فأكلوا ثمّنه أم لا، وأما قوله في الميت، فإنه أراد أترك عقباً يحيا به ذكره أم لا، فخرج الرجل فحادثه، ثم أخبره بقول ابنته، فخطبها إليه فزوجه إياها، فحملها إلى أهله، فلما عرفوا عقلها ودعاهها. قالوا: وافق شن طبقة.

بانث وهي في الحياة^(٣)

قال أبو بكر بن الأزهري: حدّثني بعض إخواني أن رجلاً كان بالأهواز، وكان له ثروة ونعمة وأهل، فسار إلى البصرة مرة، فتزوج بها، فكان يأتي تلك المرأة في

(٢) نفس المصدر ص ١٩٦.

(١) كتاب الأذكى ص ١٩٥.

(٣) نفس المصدر ص ١٩٧.

السنة مرة أو مرتين، وكان للبصرية عم يكاتبه، فوقع كتاب منه في يد الأهوازية، فعلمت الحال، فكتبت إليه: من حميه البصري بأن امرأتك قد ماتت، فالحق، فقرأه ثم أخذ في إصلاح أمره ليخرج، فقالت الأهوازية: إني أراك مشغول القلب، وأظن أن لك بالبصرة امرأة، فقال: معاذ الله، فقالت: لا أقنع بقولك دون يمينك، فتحلف بطلاق كل امرأة لك غائبة أو حاضرة، فحلف لها ظنًا أن تلك قد ماتت، فقالت له: لا حاجة لك في الخروج، فإن تلك بانت وهي في الحياة.

يسترزق من بيوت الجيران^(١)

خاصمت امرأة زوجها في تضييقه عليها وعلى نفسه، فقالت: والله ما يقيم الفأر في بيتك إلا لحب الوطن، وإلا فهو يسترزق من بيوت الجيران.

الأدرع والغولة^(٢)

قال: حدّثني أبو القاسم عبد الله بن محمد الكاتب قال: حدّثني بعض الأشراف بالكوفة أنه كان بها رجل حسني يعرف بالأدرع، شديد القلب جدًّا. قال: وكان في خرائب الكوفة شيء يظهر للمجتازين فيه نار يطول تارة ويقصر أخرى، يقولون هو غولة يفزع منه الناس، فخرج الأدرع ليلة راكبًا في بعض شأنه. قال لي الأدرع، فاعترض لي السواد والنار، فطال الشخص في وجهي، فأنكرته ثم رجعت إلى نفسي، فقلت: أما شيطان وغولة فهوس، وليس إلا إنسانًا، فذكرت الله تعالى وصلّيت على نبيه ﷺ، وجمعت عنان الفرس وقرعته بالمقرعة وطرحته على الشخص، فازداد طوله وعظم الضوء فيه، فنفر الفرس، فقرعته فطرح نفسه عليه، فقصر الشخص حتى عاد على قدر قامة، فلما كاد الفرس يخالطه ولّى هاربًا، فحركت خلفه، فانتهى إلى خربة، فدخلها، فدخلت خلفه، فإذا هو قد نزل سردابًا فيها، فنزلت عن فرسي وشدّته، ونزلت وسيفي مجرد، فحين حصلت في السرداب أحسست بحركة الشخص يريد الفرار مني، فطرح نفسي عليه، فوقعت يدي على بدن إنسان، فقبضت عليه فأخرجته، فإذا هي جارية سوداء، فقلت: أي شيء أنت وإلا قتلتك الساعة؟ قالت: قبل كل شيء أنت إنسي أم جنّي، فما رأيت أقوى قلبًا منك قط؟ فقلت: أي شيء أنت؟ قالت: أمة لآل فلان قوم بالكوفة

(٢) نفس المصدر ص ٢٠١.

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٠.

أبقت منهم سنين، فتغربت في هذه الخبرة، فولد لي الفكر أن أحتال بهذه الحيلة وأوهم الناس أنني غولة حتى لا يقرب الموضوع أحد، وأتعرّض ليلاً للأحداث، وربما رمى أحدهم منديلاً أو إزاراً، فأخذه فأبيعه نهاراً وأقتات به أياماً، قلت: فما هذا الشخص الذي يطول ويقصر، والنار التي تظهر؟ قالت: كساء معي طويل أسود، فأخرجته من السرداب وقضبان مهندبة أدخل بعضها في بعض في الكساء، وأرفعه فيطول، فإذا أردت تقصيره رفعت من الأنايب واحدة واحدة فيقصر، والنار فتيلة شمع معي في يدي لا أخرج إلا رأسها مقدار ما يضيء الكساء، وأرنتي الشمعة والكساء والأنايب، ثم قالت: قد جازت هذه الحيلة نيتاً وعشرين سنة، واعترضت فرسان الكوفة وشجعانها، وكل أحد، فما أقدم أحد عليّ غيرك، ولا رأيت أشد قلباً منك، فحملها الأدرع إلى الكوفة، فردها إلى مواليتها، فكانت تحدث بهذا الحديث، ولم ير بعد ذلك أثر غولة، فعلم أن الحديث حق.

يسار الكواعب^(١)

قال المبرد: كان يسار الكواعب عبداً لأناس من بني الحرث بن سعد بن قضاة، وكان راعياً في إبلهم، فبعث ببعض نسائهم، وكان أسود، فخدعته امرأة منهم، وأرته أنها قد قبلته وواعدهت ليوم، فعلم به بعض أصحابه من الرعاة، فنهاه عنها، وقال له: يا يسار! كل من لحم الجوار، وأشرب من لبن العِشَار، ودع عنك بنات الأحرار، فقال له يسار: إني إذا جئتها زحكت أراد ضحكت ولاعبتني. فأتاها في اليوم الذي واعدته فيه، فقالت: مكانك حتى أطيبك، فعمدت إليه، فجدعت أنفه وأذنه، فرجع إلى صاحبه الذي كان نهاه، فأنكره، فقال: مَنْ أنت ويملك؟ قال: يسار. قال: فيسار كان لا أنف له ولا أذنين؟ قال: أفما ترى ويحك وبيض العينين، فذهبت مثلاً وسمي يسار الكواعب ممن ذكره جرير حين تزوج الفرزدق إحدى نساء بني شيبان، وزاد في مهرها، فغيره جرير بذلك فقال:

وإني لأخشى إن خطبت اليهمو عليك الذي لاقى يسار الكواعب

(١) الأذكياء ص ٢٠٢.

ثانياً - قصص الحمقى والمغفلين

أسماء الأحمق

الأحمق، الرقيع، المائق، الأزبق، الهجهاجه، الهلباجة، الخطل، الخرف، الملعغ، الماج، المسلوس، المأفون، المأفوك، الأعفك، الفقاقة، الهجأة، الألق، الخوعم الألفت الوطيء، الباحر، الهجرع، المجع، الأنوك، الهينك، الأهوج، الهينق، الأخرق، الداك، الهداك، الهبنقع، المدله، الدهول، الجعبس، الأوره، الهوف، المعضل، القدم، الهتور، عياياء، طباقاء. فإذا كان يتجه لشيء في أسماء كثيرة وقريب هذه الأسماء على أحمق، وقيل: لو لم يكن من فضيلة الأحمق إلا كثرة أسمائه لكفى. قال ابن الأعرابي: الرقيع هو الذي يحتاج أن يرقع من حمقه. وسئل بعض الأعراب، ما الفرق بين الأحمق والمائق؟ فقال: الأحمق مثل المائح على رأس البئر، والمائق هو مثل المائح الذي هو أسفل البئر، فبينهما من الجودة في حماقة ما بين هذين. والعرب تقول: أحمق ما يتوجه إلى ما يحسن أن يأتي الغائط. والأخرق هو الذي يخرق الأشياء ولا يحسن لها مأتى.

ومن أسماء النساء ذوات الحمق: الورهاء، الخرقاء، الدفنس، الخذعل، الهوجاء، القرثع، الداكعة، الرطيئة.

قال في المستطرف^(١): قال ابن الأعرابي^(٢)؛ الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأي، فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر

(١) المستطرف ص ٢٢.

(٢) ابن الأعرابي: هو محمد بن زياد أبو عبد الله راوية وعلامة باللغة من أهل الكوفة، لم ير في علم الشعر أغزر منه وهو ربيب المفضل بن محمد صاحب المفضليات. له تصانيف كثيرة. توفي سنة ٢٣١ هـ.

من الأمور. والحق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت. قال الشاعر:

لكلّ داءٍ دواءٌ يُستطبّ به إلا الحماقاة أعيث من يُداويها

والحمق مذموم. قال رسول الله ﷺ: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل» ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ، فمن أفرط طول لحيته قلّ دماغه، ومَن قلّ دماغه قلّ عقله، ومَن قلّ عقله فهو أحمق. وأما صفته من حيث الأفعال فتترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه، والعجب^(١) وكثرة الكلام وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات والخلو من العلم، والعجلة والخفة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء، إن استغنى بطر وإن افتقر قنط، وإن قال أفحش، وإن سئل بخل، وإن سأل ألخ، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك قهقه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق. قال عيسى عليه السلام: «عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهم، وعالجت الأحمق فأعيانى» والسكوت عند الأحمق جوابه. ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال: حجر على حجره.

وحكي أن أحمقين اصطحبا في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعالى نتمن على الله فإن الطريق تقطع بالحديث. فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أنفع بلبنها ولحمها وصوفها. وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئاً. قال: ويحك أهدا من حق الصحبة وحرمة العشرة. فتصايحا وتخاصما، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق، ثم تراضيا من أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما، فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل، فحدثاه بحديثهما، فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، قال: صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء، وأعشبت الأرض، فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال: يا

(١) العجب: الاغترار بالنفس.

رب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم أن يدعو عليه، فأوحى الله إليه: لا تدع عليه فإني أجازي العباد على قدر عقولهم. ويقال: فلان ذو حرق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه. وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته فقال:

وما هو جبي يا هند إلا سجيّة^(١)

أجر لها ذيلي بحسن الخلائق

ولو شئت خادعت الفتى عن قلوّصه^(٢)

ولاطمت في البطحاء من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح، والأحمق المؤذي هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

مَنْ ضَرَبَ الْمِثْلَ بِحَمَقِهِ^(٣)

هينقة

«هينقة» واسمه يزيد بن ثروان ويقال: ابن مروان أحد بني قيس بن ثعلبة، ومن حمقه أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف وقال: أخشى أن أضلّ نفسي ففعلت ذلك لأعرفها به، فحوّلت القلادة ذات ليلة من عنقه لعنق أخيه فلما أصبح قال: يا أخي أنت أنا فمن أنا؟

وأضلّ بعيرًا فجعل ينادي من وجده فهو له، فقيل له: فلم تنشده؟ قال: فأين حلاوة الوجدان؟ وفي رواية: مَنْ وجده فله عشرة، فقيل له: لم فعلت هذا؟ قال: للوجدان حلاوة في القلب.

واختصمت طفاوة وبنو راسب في رجل ادعى كل فريق أنه في عرافتهم، فقال هينقة: حكمه أن يلقي في الماء فإن طفا فهو من طفاوة وإن رسب فهو من راسب، فقال الرجل إن كان الحكم هذا فقد زهدت في الديوان. وكان إذا رعى

(١) السجية: الطبع.

(٢) قلوّصه: القلوّص: الناقة، والطارق: الآتي ليلاً.

(٣) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي ص ٤١ - ٥١.

غَنَمًا جعل يختار المراعي للسمنان وينحي المهازِيل ويقول: لا أصلح ما أفسده الله.

أبو غبشان

«أبو غبشان» وهو من خزاعة كان يلي الكعبة، فاجتمع مع قصي بن كلاب بالطائف على الشرب، فلما سكر اشترى منه قصي ولاية البيت بزق خمر، وأخذ منه مفاتيحه وسار بها إلى مكة، وقال: يا معشر قريش هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل، ردّها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم. وأفاق أبو غبشان فندم فقليل: (أندم من أبي غبشان) وأخسر من أبي غبشان، وأحمق من أبي غبشان، قال بعضهم:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت بزق خمر فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها بالخمير وانقرضت عن المقام وضلّ البيت والنادي
ثم جاءت خزاعة فغالبا قصيًا فغلبهم.

شيخ مهو

ومنهم «شيخ مهو» وهي قبيلة من عبد القيس واسمه عبد الله بن بيدرة وكانت إياد تعير بالفسو، فقام رجل منهم بعكاظ ومعه بردًا حبرة فنأدى: ألا إنني من إياد فمن يشتري مني عار الفسو ببردي هذين، فقام عبد الله بن بيدرة فقال: أنا، واتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، واشهد الأيادي عليه أهل القبائل وانصرف عبد الله إلى قومه فقال: جئتكم بعار الأبد، فلزم العار بذلك عبد القيس.

عجل بن لجيم

«عجل بن لجيم» بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. من حمقه أنه قيل له: ما سميت فرسك؟ فقام إليه ففقا إحدى عينيه وقال: سميته الأعور.

قال العنزى:

رمتني بنو عجل بداء أبيهم
وأي امرئ في الناس أحمق من عجل
ألبس أبوهم عار عين جواده
فصارت به الأمثال تضرب بالجهل

حمزة بن بيض

ومنهم «حمزة بن بيض». عن أبي طالب عمر بن إبراهيم أنه قال: دعا حمزة بن بيض حجامًا وكان الحجام ثقيلاً كثير الكلام، فلما أرفه المشاريط قال له: الساعة توجعني، قال: لا، قال: فانصرف اليوم، قال: لا تفعل فإنك محتاج إلى إخراج الدم وذلك بين في وجهك وهي سنة نبوية، قال: انصرف وعد إلي غدًا، قال: لست تدري ما يحدث إلى غد والمشاريط حادة وإنما هي لحظة، قال: إن كان كما تقول فاعطني فردة بيضة من خصيتك تكون في يدي رهينة إن أوجعتني أوجعتك، فقام الحجام وقال: أرى أن تدع الحجامه في هذا العام، وانصرف.

عن محمد بن العلاء الكاتب أنه قال: قال حمزة بن بيض لغلام له: أي يوم صلينا الجمعة في الرصافة؟ ففكر الغلام ساعة ثم قال: يوم الثلاثاء، وقيل لحمزة بن بيض: كم تشرب من النبيذ؟ قال: أكثر من رطلين شيء.

أبو أسيد

ومنهم «أبو أسيد». عن محمد بن رجاء قال: قال أبو أسيد وحدث بحديث: كان ذلك في خلافة المهدي قبل موت المنصور وقال: مَرَّ على أبي أسيد بعيران فقال قوم كانوا حوله: ما أفرهما؟ فقال أبو أسيد: أحدهما أفره من الآخر، قالوا: أيهما أفره؟ قال: القدامى أفره من الأول. وعزى أبا أسيد رجل عن مصيبته فقال له: رزقنا الله مكافأتك. وعن محمد بن عبد المطلب قال: قال أبو أسيد ونظر إلى رجل نائم: قم، فكم تنام كأنك بعير ناد. وقيل لأبي أسيد: حدثنا عن ابن عمر، فقال: كان يحف شاربه حتى يبدو بياض إبطيه.

جحا

ومنهم «جحا» ويكنى أبا الغصن، وقد روي عنه ما يدل على فطنة وذكاء، إلا أن الغالب عليه التغفيل، وقد قيل: إن بعض من كان يعاديه وضع له حكايات والله أعلم. عن مكى بن إبراهيم أنه يقول: رأيت جحا رجلاً كيساً ظريفاً وهذا الذي يقال عنه مكذوب عليه، وكان له جيران مخشون يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه. وعن أبي بكر الكلبي أنه قال: خرجت من البصرة فلما قدمت الكوفة، إذا أنا بشيخ جالس في الشمس، فقلت: يا شيخ أين منزل الحكم؟ فقال لي: وراءك،

فرجعت إلى خلفي، فقال: يا سبحان الله! أقول لك وراءك وترجع إلى خلفك. أخبرني عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: الآية ٧٩] قال: بين أيديهم، فقلت: أبو من؟ قال: أبو الغصن، فقلت: الاسم؟ قال: جحا. وقد رُوِيَتْ لنا هذه الحكاية على غير هذه الصفة. وعن عباد بن صهيب قال: قدمت الكوفة لأسمع من إسماعيل بن خالد، فمررت بشيخ جالس فقلت: يا شيخ، كيف أمر إلى منزل إسماعيل بن خالد؟ فقال: إلى ورائك، فقلت: أرجع؟ فقال: أقول لك وراءك وترجع! فقلت: أليس ورائي خلفي؟ قال: لا. ثم قال: حدّثني عكرمة عن ابن عباس (وكان وراءهم) أي بين أيديهم، قال: قلت بالله من أنت يا شيخ؟ قال: أنا جحا، قال المصنف: وجمهور ما يُروى عن جحا، تغفيل نذكره كما سمعناه.

عن أبي الحسن، قال رجل لجحا: سمعت من داركم صراخًا، قال: سقط قميصي من فوق، قال: وإذا سقط من فوق؟ قال: يا أحمق لو كنت فيه أليس كنت قد وقعت معه؟

وحكى أبو منصور الثعالبي في كتاب «غرر النوادر» قال: تأذى أبو الغصن جحا بالريح مرة فقال يخاطبها: ليس يعرفك إلا سليمان بن داود الذي حبسك حتى أكلت خراك.

وخرج يومًا من الحمام في يوم بارد، فضربته الريح فمسّ خصيتيه، فإذا إحدى بيضتيه قد تقلّصت، فرجع إلى الحمام وجعل يفتش الناس، فقالوا: ما لك؟ فقال: قد سرقت إحدى بيضتي، ثم إنه دفيء وحمى، فرجعت البيضة، فلما وجدها سجد شكرًا لله، قال: كل شيء لا تأخذه اليد لا يفقد.

ومات جار له، فأرسل إلى الحفّار ليحفر له، فجرى بينهما لججاج في أجرة الحفر، فمضى جحا إلى السوق واشترى خشبة بدرهمين وجاء بها، فسئل عنها فقال: إن الحفّار لا يحفر بأقل من خمسة دراهم، وقد اشترينا هذه الخشبة بدرهمين لنصلبه عليها ونربح ثلاثة دراهم ويستريح من ضغطة القبر ومسألة منكر ونكير.

وحكى أن جحا تبخّر يومًا فاحترقت ثيابه فغضب وقال: والله لا تبخّرت إلا عريانًا.

وهبت يوماً ريح شديدة فأقبل الناس يدعون الله ويتوبون، فصاح جحا يا قوم، لا تعجلوا بالتوبة وإنما هي زوبعة وتسكن.

وذكر أنه اجتمع على باب دار أبي جحا تراب كثير من هدم وغيره، فقال أبوه: الآن يلزمني الجيران برمي هذا التراب واحتاج إلى مؤنة وما هو بالذي يصلح لضرب اللبن فما أدري ما أعمل به، فقال له جحا: إذا ذهب عنك هذا المقدار فليت شعري أي شيء تحسن، فقال أبوه: فعلمنا أنت ما تصنع به فقال: يحفر له آبار ونكبسه فيها.

واشترى يوماً دقيقاً وحمله على حمال فهرب بالدقيق، فلما كان بعد أيام رآه جحا فاستتر منه، فقيل له: ما لك فعلت كذا؟ فقال: أخاف أن يطلب مني كراه.

ووجهه أبوه ليشتري رأساً مشوياً، فاشتراه وجلس في الطريق، فأكل عينيه وأذنيه ولسانه ودماغه، وحمل باقيه إلى أبيه، فقال: ويحك ما هذا؟ فقال: هو الرأس الذي طلبته. قال: فأين عيناه؟ قال: كان أعمى. قال: فأين أذناه؟ قال: كان أصم. قال: فأين لسانه؟ قال: كان أخرس. قال: فأين دماغه؟ قال: فكان أقرع. قال: ويحك، رده وخذ بدله، قال: باعه صاحبه بالبراءة من كل عيب.

وحُكِيَ أن جحا دفن دراهم في صحراء وجعل علامتها سحابة تظلها. ومات أبوه فقيل له: اذهب واشتر الكفن، فقال: أخاف أن أشتري الكفن فتفوتني الصلاة عليه.

وحُكِيَ أن المهدي أحضره ليمزح معه، فدعا بالنطع والسيف، فلما أقعد في النطع، قال للسياف: انظر لا تصب محاجمي فإني قد احتجمت.

ورأوه يوماً في السوق يعدوا فقالوا: ما شأنك؟ قال: هل مرت بكم جارية رجل مخضوب اللحية؟

واجتاز يوماً بباب الجامع فقال: ما هذا؟ فقيل: مسجد الجامع، فقال: رحم الله جامعاً ما أحسن ما بنى مسجده.

ومرّ بقوم وفي كمّه خوخ، فقال: من أخبرني بما في كمي فله أكبر خوخة، فقالوا: خوخ، قال ما قال لكم هذا إلا من أمة زانية.

وسمع قائلًا يقول: ما أحسن القمر، فقال: أي والله خاصة في الليل.

وقال له رجل: أتحسن الحساب بإصبعك؟ قال: نعم، قال: خذ جريبين حنطة، فعقد الخنصر والبنصر، فقال له: خذ جريبين شعيراً فعقد السبابة والإبهام وأقام الوسطى فقال الرجل: لم أقمت الوسطى، قال: لئلا يختلط الحنطة بالشعير.

ومر يوماً بصبيان يلعبون ببازي ميت، فاشتراه منهم بدرهم وحمله إلى البيت، فقالت أمه: ويحك ما تصنع به وهو ميت؟ فقال لها: أسكتي فلو كان حيًا ما طمعت في شرائه بمائة درهم.

وخرج أبوه مرة إلى مكة فقال له عند وداعه: بالله لا تطل غيبتك واجتهد أن تكون عندنا في العيد لأجل الأضحية.

مزبد

ومنهم «مزبد». قال أبو زيد: قيل لمزبد إن فلاناً الحفار قد مات، فقال: أبعده الله، من حفر حفرة سوء وقع فيها.

وقال مزبد لرجل: أيسرك أن تعطى ألف درهم وتسقط من فوق البيت؟ قال: لا، قال مزبد: وددت أنها لي وأسقط من فوق الثريا، فقال له الرجل: ويملك فإذا سقطت مت، قال: وما يدريك! لعلي سقطت في التبانين أو على فرش زبيدة، وقيل له: أيسرك أن تكون هذه الجبة لك؟ قال: نعم وأضرب عشرين سوطاً، قالوا: ولم تقول هذا؟ قال: لأنه لا يكون شيء إلا بشيء.

أزهر الحمار

ومنهم «أزهر الحمار» كان جالساً بين يدي الأمير عمرو بن الليث يوماً يأكل بطيخاً فقال له عمرو: كيف طعمه يا أزهر أحلو هو؟ قال: ما أكلت (الخرا) قط؟

وقدم على الأمير عمرو رسول من عند السلطان، فأحضر مائدته، فقال لأزهر: جملنا بسكوتك اليوم، فسكت طويلاً ثم لم يصبر فقال: بنيت في القرية برجاً ارتفاعه ألف خطوة، فأوماً إليه حاجبه أن اسكت، فقال له الرسول: في عرض كم؟ قال: في عرض خطوة، فقال له الرسول: ما كان ارتفاعه ألف خطوة لا يكفي عرضه خطوة! قال: أردت أن أزيد فيه فمنعني هذا الواقف.

وقدم رسول آخر فقيل لأزهر: لا تتكلم اليوم وتجمل لهذا الرسول، فسكت ساعة فعطس الرسول فأراد أزهر أن يشتمه فيقول: يرحمك الله فقال: صبحك الله،

فقال الأمير: أليس قد قدمت إليك أن لا تتكلم! فقال: أردت أن لا يرجع الرسول إلى بغداد فيقول: إن هؤلاء لا يعرفون العربية.

وقال له الطبيب: خذ رمانتين فاعصرهما بشحهما واشرب ماءهما، فعمد إلى رمانتين وقطعة شحم ودقهما في موضع واحد وعصرهما وأخذ ماءهما فشربه.

جامع الصيدلاني

ومنهم «أبو محمد جامع الصيدلاني». قال علي بن معاذ: كتبت إلى جامع الصيدلاني كتابًا فكتب جوابه وجعل عنوانه، إلى الذي كتب إليّ. وجاء إليه قوم في أمر حائط فقالوا: يا أبا محمد منذ كم تعرف هذا الحائط؟ فقال: أعرفه منذ كان وهو صغير لفلان.

وقيل له يومًا: كم سنة تعد؟ فقال: إحدى وسبعين سنة، قيل له: فمن تذكر من ولد العباس؟ قال: إيتاخ.

وركب زورقًا فأعطى الملاح قطعة فاستزاده، فقال: مسخني الله ذو أربع قوائم مثلك إن زدتك شيئًا.

ومضى إلى السوق ليشتري لابنه نعلًا، فقيل له: كم سنة؟ فقال: ما أدري ولكنه ولد أول ما جاء العنب الداراني، ومحمد ابني، استودعه الله، أكبر منه بشهرين ونصف سنة.

وكانت له بنت فقيل له: كم سنّها؟ فقال: ما أدري إلا أنها ولدت أيام البراغيث.

وانبثق كنيف لجامع الصيدلاني، فقال لغلامه: بادر وأحضر من يصلحه حتى نتغدى به قبل أن يتعشى بنا. وحجّ ابنه في بعض السنين فقال له: يا بني أنت تعلم أنني لا أصبر عنك، فأجهد نفسك أن لا تضخي إلا عندنا، فإنك تعلم أن أمك لا تأكل شيئًا في العيد حتى تجيء من الصلاة.

الجصاص

ومنهم «أبو عبد الله الجصاص». حكى عنه أنه كان يومًا يأكل مع الوزير، فلما فرغ من الأكل قال: الحمد لله الذي لا يحلف بأعظم منه، ونظر يومًا في المصحف وجعل يقول: رخيص والله، وهذا من فضل ربي، آكل وأتمتع بدرهم،

وإذا في المصحف ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: الآية ٣] فصحف (ذرههم) فظن أنه درهم.

ودخل ابن الجصاص يوماً على ابن الفرات الوزير الخاقاني وفي يده بطيخة كافور، فأراد أن يعطيها الوزير ويبصق في دجلة، فبصق في وجه الوزير ورمى البطيخة في دجلة، فارتاع الوزير وانزعج ابن الجصاص وتحير وقال: والله العظيم لقد أخطأت وغلطت أردت أن أبصق في وجهك وأرمي البطيخة في دجلة فقال له الوزير: كذلك فعلت يا جاهل. فغلط في الفعل وأخطأ في الاعتذار.

ونظر يوماً في المرأة فقال: اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه وسودها يوم تسود وجوه.

وقال يوماً أشتهي بغلة مثل بغلة النبي ﷺ حتى أسميها دلدل.

وقال يوماً: خريت على يدي، فلو غسلتها ألف مرة لم تنظف حتى أغسلها مرتين.

ونظر يوماً في المرأة فقال لإنسان عنده: ترى لحيثي طالت؟ فقال له: المرأة في يدك، فقال: صدقت، ولكن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب.

وكسر يوماً لوزاً فطارت لوزة فقال: لا إله إلا الله، كل شيء يهرب من الموت حتى البهائم.

وأهدى إلى العباس بن الأحنف الوزير نبأً وكتب إليه «تفيلت»^(١) أن تبقى فأهديتك النبأ» فكتب في جوابه «ما تفيلت يا أبا عبد الله ولكن تبقرت»^(٢). وكان ابن الجصاص يسبح كل يوم فيقول: نعوذ بالله من نعمه، ونتوب إليه من إحسانه، ونستقيه من عافيته، ونسأله عوائق الأمور حسبي الله وأنبيأؤه والملائكة الكرام. ومن دعائه اللهم ادخلنا في بركة القصور على قبورهم والبيع والشغور الكنائس، سبحان الله قبل الله سبحان الله بعد الله.

وأناه غلامه يوماً بفرخ فقال: انظروا إلى هذا الفرخ ما أشبهه بأمه، ثم قال: أمه ذكر أم أنثى؟

واعتلّ مرة فقيل له: كيف تجدك؟ فقال: الدنيا كلها محمولة.

(٢) أي لم تصبح فيلاً ولكنك أصبحت بقرة.

(١) يريد (تفألت).

وذكر محمد بن أحمد الترمذي قال: كنت عند الزجاج أعزبه بأمه وعنده الخلق من الرؤساء والكتاب، إذ أقبل ابن الجصاص فدخل ضاحكًا وهو يقول: الحمد لله قد سرني والله يا أبا إسحق، فدهش الزجاج ومن حضر، وقيل له: يا هذا، كيف سرّك ما غمّه وغمّنا؟ فقال: ويحك، بلغني أنه هو الذي مات، فلما صح عندي أنها هي التي ماتت سرّني ذلك، فضحك الناس جميعًا.

وكتب ابن الجصاص إلى وكيل له يحمل إليه مائة من قطنًا فحملها، فلما حلجها خرج منها ربع الوزن، فكتب إلى الوكيل لم يحصل من هذا القطن إلا خمسة وعشرون مثًا فلا تزرع بعد هذا إلا قطنًا محلوجًا وشيئًا من الصوف أيضًا. ودخل يومًا بستانًا فثار به المرار، فطلب بصلًا بخل ليطفئ المرار، ولم يكن عند البستاني فقال له: لِمَ لم تزرع لنا بصلًا بخل.

وكان يومًا خلف الإمام فقال الإمام: ولا الضالين، فقال ابن الجصاص: أي لعمرى.

وكان إذا سبح يقول: حسبي الله وحدي.

وقال يومًا: ينبغي للإنسان أن يصير إلى المقابر ليغتاط، أراد يسير ليتعظ. وقال يومًا: كان الفأر يؤذينا في سقفونا، فوصف لي إنسان دواء فما سمعت لهم حسوه، وأراد حسًا.

وذكر يومًا ثلاثة أصناف من الثياب ثم قال: إذا لبست واحدًا من هؤلاء فما أبالي بغيرها.

وقال يومًا: كان الهواء البارحة باردًا، إلا أنني لم أجده.

وقدمت له هريسة من نعامة فاستطابها فقال: كيف لو أكلتها بقرية؟ أراد سكباجًا. ومرض فقيل له: لعلك تناولت شيئًا ضارًا؟ فقال: لا والله ما أكلت إلا مزورة بفرخ فروج.

وذكر بين يديه رجل فقال: أخبرتني أمه أنه ولد أبوه وله ثمانون سنة.

وقدمت إليه اسفيداجة فقال لمن حوله: كلوا فهذه أم القرى.

وقال يومًا: قمت البارحة إلى المستراح وقد انطفأ القنديل، فما زلت أتلمظ المقعدة حتى وجدتها.

ودخل يوماً على مريض فجلس عنده، فشكا إليه الكتف فقال: والله ما أغفل من وجع كتفي هذين، وضرب يديه على ركبتيه.

وقد نقل عن ابن الجصاص ما يدل على أنه كان يقصد التطابع لا أنه كان بهذه المثابة. عن عليّ بن أبي عليّ التنوخي عن أبيه قال: اجتمعت ببغداد سنة ست وخمسين وثلاثمائة مع أبي عليّ بن أبي عبد الله بن الجصاص فرأيته شيخاً حسناً طيب المحاضرة، فسألته عن الحكايات التي تنسب إلى أبيه، مثل قوله خلف الإمام حين قرأنا ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الْفَاتِحَة: الآية ٧] فقال: أي لعمرى بدلاً عن آمين، ومثل قوله: أراد أن يقبل رأس الوزير فقيل له: أفيه ذهب؟ فقال: لو كان في رأس الوزير خرا لقبّلته، ومثل قوله وقد وصف مصحفًا بالعتق فقال: كسروي! فقال: أما أي لعمرى ونحو هذا فكذب، وما كان فيه ملامة تخرجه إلى هذا وما كان إلا من أدهى الناس، ولكنه يطلق بحضرة الوزراء قريباً مما يحكى عنه لسلامة طبع كان فيه، ولأنه كان يحب أن يصوّر نفسه عندهم بصورة الأبله ليأمنه الوزراء لكثرة خلواته بالخلفاء فيسلم عليهم. وأنا أحدثك عنه حديثاً حدثنا به تعلم معه أنه كان في غاية الحزم، فإنه حدّثني فقال: إن أبا الحسن بن الفرات لما ولي الوزارة قصدني قصداً قبيحاً، فأنفذ العمال إلى ضياعي وأمر بقبض معاملاتي وبسط لسانه بثليبي وتنقصني في مجلسه، فدخلت يوماً داره فسمعت حاجبه يقول وقد وليت: أي بيت مال يمشي على وجه الأرض ليس له من يأخذه؟ فقلت: إن هذا من كلام صاحبه وإني مسلوب، وكان عندي في ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار عيناً وجواهر، سوى ما يحتويه عليه ملكي. فسهرت ليلتي أفكر في أمري معه، فوقع لي الرأي في الثلث الأخير، فركبت إلى داره في الحال فوجدت الأبواب مغلقة فطرقتها، فقال البوابون: من هذا؟ قلت: أين الجصاص؟ فقالوا: ليس هذا وقت وصول، والوزير نائم، فقلت: عرفوا الحجاب إنني حضرت في مهم، فعرفوهم فخرج إليّ أحدهم فقال: إنه إلى ساعة ينتبه فيجلس، فقلت: الأمر أهم من ذلك، فنتبه وعزّفه عني، فدخل وأبطأ ساعة ثم خرج وأدخلني إلى دار حتى انتهيت إلى مرقدته وهو جالس على سرير له وحواليه نحو خمسين فراشاً وغلمان كأنهم حفظة وهو مرتاع قد ظنّ أن حادثة حدثت وأني جئته برسالة الخليفة وهو متوقع لما أورده، فقام فرفعني وقال: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟ هل حدثت حادثة أو معك من الخليفة رسالة؟ قلت: خير ما حدثت حادثة ولا معي رسالة ولا جئت إلا

في أمر يخصني ويخص الوزير ولم تصلح المفاوضة فيه إلا على خلوة، فسكن وقال لمن حوله: انصرفوا. فمضوا وقال: هات، قلت: أيها الوزير إنك قد قصدتني أقبح قصد وشرعت في هلاكي وإزالة نعمتي، وفي إزالتها خروج نفسي وليس عن النفس عوض، ولعمري إني أسأت في خدمتك وقد كان في هذا التقويم بلاغ وجد عندي، وقد اجتهدت في إصلاحك بكل ما قدرت عليه، وأبيت إلا الإقامة على إيدائي، وليس شيء أضعف في الدنيا من السنور، وإذا عوينت في دكان البقال وظفر صاحبها بها ولزها إلى زاوية ليخنقها وثبت عليه فخدشت وجهه وبدنه ومزقت ثيابه وطلبت الحياة بكل ما يمكنها، وقد وجدت نفسي معك في هذه الصورة ولست أضعف من السنور بطشًا، وقد جعلت هذا الكلام عذرًا بيّنًا فإن نزلت تحت حكمي في الصلح وإلا فعلي وعلى، وحلفت أيمانًا مغلظة لأقصدن الخليفة الساعة ولأحوّلن إليه من خزائني ألفي ألف دينار عيّنًا وورقًا ولا أصبح إلا وهي عنده، وأنت تعلم قدرتي عليها، وأقول خذ هذا المال وسلّم ابن الفرات إلى فلان واستوزره، واذكر له أقرب من يقع في نفسي أنه يجيب إلى تقليده ممن له وجه مقبول ولسان عذب وخط حسن، ولا أعتمد إلا على بعض كتابك فإنه لا يفرق بينك وبينهم إذا رأى المال حاضرًا، فيسلّمك في الحال ويراني المتقلد بعين من أخذه وهو صغير فجعله وزيرًا وغرم عليه هذا المال الكثير فيخدمني ويتدبر برأيي وأسلمك إليه فيفرغ عليك العذاب حتى يأخذ ألفي ألف الدينار منك بأسرها، وأنت تعلم أن حالك تفي بهذا ولكنك تفتقر بعدها ويرجع المال إليّ ولا يذهب مني شيء، وأكون قد أهلكت عدوي، وشفيت غيظي، واسترجعت مالي، وصفت نعمتي، وزاد محلي بصرفي وزيرًا وتقليدي وزيرًا، فلما سمع هذا الكلام سقط في يده وقال: يا عدو الله أو تستحل هذا؟ قلت: لست عدو الله، بل عدو الله من استحل مني هذا الذي أخرجني إلى الفكر في مثل هذا، ولم لا أستحل مكروه من أراد هلاكي وزوال نعمتي؟ فقال: أو إيش؟ فقلت: أو تحلف الساعة بما استحلّك به من الإيمان المغلظة أنك تكون لي لا علي في صغير أمري وكبيره، ولا تنقص لي رسمًا ولا تغير لي معامل ولا تدسس علي المكاره ولا تشر لي في سوء أبدًا ظاهرًا ولا باطنًا، فقال: وتحلف أنت أيضًا لي بمثل هذا اليمين على جميل النية وحسن الطاعة والمؤازرة؟ فقلت: افعل، فقال: لعنك الله فما أنت إلا إبليس والله لقد سحرتني، واستدعى دواة وعملنا نسخة يمين فأحلفته أولاً بها ثم حلفت له،

فلما أردت القيام قال: يا أبا عبد الله لقد عظمت في نفسي وخففت ثقلًا عني، والله ما كان المقتدر يفرق بين كفاءتي وبين أخس كتابي مع المال الحاضر، فليكن ما جرى مطويًا فقلت: سبحان الله. فقال: إذا كان غداً فصر إلى المجلس لتر ما أعاملك به، فنهضت فقال: يا غلمان بأسركم بين يدي أبي عبد الله، فخرج بين يدي نحو مائتي غلام وعدت إلى داري، ولما طلع الفجر واسترحت جثته في المجلس فعرفني الذين كانوا بحضرته وعرفهم ما جرى من التفريط التام وعاملني بما شاهده الحاضرون، وأمر بإنشاء الكتب إلى عمال النواحي باعزازي وإعزاز وكلاتي وعمالي وصيانة أسبابي وضياعي، فشكرت الله وقمت، فقال: يا غلمان بين يديه فخرج الحجاب يجردون سيوفهم بين يدي والناس يعجبون، ولم يعلم أحد سبب ذلك فما حدثت بذلك إلا بعد القبض عليه. قال لي أبو علي: هل هذا فعل من يحكى عنه تلك الحكايات؟ قلت: لا. وقد حكى التنوخي أن ابن الجصاص صودر في أيام المقتدر فارتفعت مصادراته سوى ما بقي له من الظاهر وكانت ستة آلاف ألف دينار.

قال التنوخي: وحدثني أبو محمد عبد الله بن أحمد بن مكرم قال: حدثني بعض شيوخنا قال: كنا بحضرة أبي عمرو القاضي فجرى ذكر ابن الجصاص وغفلته فقال أبو عمرو: معاذ الله ما هو كما يقال عنه، ولقد كنت عنده منذ أيام وفي صحن داره سرادق مضروب فجلسنا بالقرب منه نتحدث فإذا بصيرير نعل من خلق السرادق فقال: يا غلام جثني بصاحب هذا النعل، فأخرجت إليه جارية سوداء فقال: ما كنت تصنعين ههنا، قالت: جئت إلى الخادم أعرفه أني قد فرغت من الطبخ وأستأذن في تقديمه، فقال: انصر في لشأنك، فعلمت أنه أراد يعرفني بذلك الوطاء أن وطء جارية سوداء مبتذلة وأنها ليست من حرمه، فهل يكون هذا من التغفيل؟ عن أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي عن أبيه قال: حدثني أبو القاسم الجهني قال: كنت بحضرة أبي الحسن بن الفرات وابن الجصاص حاضر فذكروا ما يعتقد^(١) الناس لأولادهم، فقال ابن الفرات: ما أجل ما يعتقد الناس لأعقابهم؟ فقال: من حضر الضياع، وقال بعضهم: العقار، وقال بعضهم: العقار الصامت، وقال بعضهم: الجواهر الخفيف الثمين فإن بني

(١) أي ما يكتنيه لأولادهم من الضياع والأموال.

أمية سئلوا أي الأموال كانت أنفع لكم في نكبتكم؟ فقالوا: الجوهر الخفيف المثلث كنا نبيعه فلا نطالب بمعرفته والواحدة منه أخف من ثمنها، وابن الجصاص ساكت فقال له ابن الفرات: ما تقول أنت يا أبا عبد الله؟ فقال: أجل ما يعتقدونه الناس لأولادهم الضياع والأخوان، فإنهم إن اعتقدوا لهم ضياعاً أو عقاراً أو صامتاً من غير إخوان ضاع ذلك وتمحق، وأحدث الوزير بحديث جرى منذ مديدة يعلم منه صدق قلبي، فقال له ابن الفرات: ما هو؟ فقال: الناس يعرفون أن أبا الحسن كان رجلاً مشتهراً بالجوهر يعتقدونه لنفسه وأولاده وجواريه فكنت جالساً يوماً في داري فجاءني بوابي فقال: بالبواب امرأة تستأذن، فأذنت لها، فدخلت فقالت لي: تخلي لي مجلسك، فأخيلته، فقالت لي: أنا فلانة جارية أبي الحسن، فعرفتها وبكيت لما شاهدتها عليه ودعوت غلماني ليحضروا لي شيئاً أغير به حالها فقالت: لا تدع أحداً فإنني أضنك دعوتهم لتغير حالي وأنا في غنية وكفاية ولم أقصدك لذلك ولكن لحاجة هي أهم من هذا، فقلت: ما هي؟ فقالت: تعلم أن أبا الحسن لم يكن يعتقد لنا إلا الجوهر، فلما جرى وتشتتنا وزال عنا ما كنا فيه، كان عندي جوهر قد سلمه إلي ووهبه لي ولابنته مني فلانة وهي معي هلهنا فخشيت أن أظهره بمصر فيؤخذ مني، فتجهزت للخروج وخرجت مستخفية وابتني معي فسلم الله تعالى ووصلنا هذا البلد وجميع ما لنا سالم، فأخرجت من الجوهر شيئاً قيمته خمسة آلاف دينار وسرت به إلى السوق فبلغ ألفي دينار، فقلت: هاتوا فلما أحضروا المال قالوا: أين صاحب المتاع؟ قلت: أنا هي، قالوا: ليس محللك أن يكون هذا لك وأنت لصة، فعلقوا بي ليحملوني إلى صاحب الشرطة فخشيت أن أقع فأعرف فيؤخذ الجوهر وأطلب أنا بمال، فرشوت القوم دنانير كانت معي وتركت الجوهر عليهم وأقبلت، فما نمت ليلتي غمماً مما جرى عليّ من خشية الفقر، لأن مالي هذا سبيله، فأنا غنية فقيرة فلم أدر ما أفعل، فذكرت ما بيننا وبينك فجتتك، والذي أريد منك جاهك وبذله لي حتى تخلص لي حق وما أخذ مني وتبيع الباقي وتخلص لي ثمنه وتشتري لي ولابنتي به عقاراً نقتات من غلته. قال: فقلت: من أخذ منك الجوهر؟ قالت: فلان، فأنفذت إليه فاستخيلت به وقلت: هذه امرأة من داري وإنما أنفذت المتاع لأعرف قيمته ولثلا يراني الناس أبيع شيئاً بدون قيمته فلم تعرضتم لها؟ فقالوا: ما علمنا ذلك، ورسومنا كما تعلم لا نبيع شيئاً إلا بمعرفة، ولما طالبناها بذلك اضطربت فخشينا أن تكون لصة، فقلت له: أريد الجوهر

الساعة، فجاء به، فلما رأته عرفته، وكنت أنا اشتريته لأبي الحسن بخمسة آلاف دينار، فأخذته منه وصرفته، وأقامت المرأة في داري وتلطفت لها في بيع الجواهر بأوفى ثمن، فخصها منه أكثر من خمسة آلاف دينار، فابتعت لها بذلك ضياعاً ومسكناً فهي تعيش في ذلك وولدها إلى الآن. فنظرت فإذا الجواهر لما كان معها بلا صديق حجر، بل كان سبباً لمكروه، ولما وجدت صديقاً يعينها حصل لها منه هذا المال الحليل فالصديق أفضل من العقد، فقال ابن القرات: أجدت يا أبا عبد الله.

التي نقضت غزلها

قال مقاتل بن سليمان: هي امرأة من قريش تسمى «ريطة» بنت عمرو بن كعب كانت إذا غزلت نقضته، قال ابن السائب: اسمها رايطة، وقال أبو بكر بن الأنباري: اسمها ريطة بنت عمرو المرية ولقبها الجعرا وهي من أهل مكة وكانت معروفة عند المخاطبين فعرفوها بصنعتها ولم يكن لها نظير في فعلها وكانت متناهية الحمق تغزل الغزل من القطن أو الصوف فتحكمه ثم تأمر خادمها بنقصه، قال بعضهم: كانت تغزل هي وجواربها ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن.

دغة

«دغة» بنت مغنج، ومغنج هو ربيعة بن عجل، واسم دغة ماوية ودغة لقب، وكانت قد تزوجت صغيرة في بني العنبر فحبلت، فلما جاءها المخاض ظنت أنها أحدثت فقالت لضرتها: يا هنتاه هل يفتح الجعر فاه؟ قالت: نعم ويدعو أباه، فمضت ضررتها فأخذت الولد، فبنو العنبر تنسب إليها فسموا بنو الجعر لذلك. ورأت يافوخ ولدها يضطرب فشقته بسكين وأخرجت دماغه، وقالت: أخرجت هذه المادة من دماغه ليسكن وجعه. وذكر عنها أنها كانت حسنة الثغر فولدت غلاماً، وكان أبوه يقبله ويقول وا بأبي دردرك، فظنت أن الدردر أعجب إليه، فحطمت أسنانها، فلما قال: وا بأبي دردرك، قالت: يا شيخ كلنا ذو دردر، فقال: أعيتني باشر فكيف بدردر (والأشر التحزيز في أطراف أسنان الأحداث والدردر مغارز الأسنان) فضرب المثل بحمق دغة.

ريطة

«ريطة» بنت عامر بن نمير كانت تعلم رأس أولادها بالقزح لتعرف أولادها من أولاد غيرها.

حماقة عيسى بن صالح^(١)

قال محمد بن زياد: كان عيسى بن صالح بن علي يحمق وكان له ابن يقال له عبد الله من عقلاء الناس فتولى عيسى جند (قنسرين) فاستخلف ابنه على العمل، قال ابنه: فأتاني رسوله في بعض الليل يأمرني بالحضور في وقت مبكر لا يحضر فيه إلا لأمر مهم، فتوهمت أن كتابًا ورد من الخليفة في بعض الأشياء التي يحتاج فيها إلى حضوري وحضور الناس، فلبست السواد وتقدمت بالبعثة إلى وجوه القواد وركبت إلى داره، فلما دخلتها سألت الحجاب هل ورد كتاب من الخليفة أو حدث أمر؟ فقالوا: لم يكن من هذا شيء، فصرت من الدار إلى موضع تخلف الحجاب عنه فسألت الخدام أيضًا، فقالوا: مثل مقالة الحجاب، فصرت إلى الموضع الذي هو فيه، فقال لي: ادخل يا بني، فدخلت فوجدته على فراشه، فقال: علمت يا بني إني سهرت الليلة في أمر أنا مفكر فيه إلى الساعة، قلت: أصلح الله الأمير، ما هو؟ قال: اشتهيت أن يصيرني الله من الحور العين ويجعل في الجنة زوجي يوسف النبي فطال في ذلك فكري، قلت: أصلح الله الأمير، فالله عز وجل قد جعلك رجلًا فأرجو أن يدخلك الجنة ويزوجك من الحور العين، فإذا وقع هذا في فكرك فهلأ اشتهيت محمدًا ﷺ أن يكون زوجك فإنه أحق بالقرابة والنسب وهو سيد الأولين والآخرين في أعلى عليين؟ فقال: يا بني لا تظن أنني لم أفكر في هذا فقد فكّرت فيه ولكن كرهت أن أغيظ السيدة عائشة.

رسالة مستعجلة^(٢)

المدائني قال: جاء رجل من أشراف الناس إلى بغداد، فأراد أن يكتب إلى أبيه كتابًا يخبره، فلم يجد أحدًا يعرفه فانحدر بالكتاب إلى أبيه وقال: كرهت أن يبطيء عليك خبري ولم أجد أحدًا يجيء بالكتاب فجتت أنا به ودفعه إليه.

خطبة للمهلب^(٣)

وبلغنا أن المهلب ولى بعض الأعراب كورة بخراسان وعزل واليها فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس اقصدوا لما أمركم الله به، فإنه

(٢) نفس المصدر ص ٩٣.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ٩٢.

(٣) نفس المصدر ص ٩٤.

رغبكم في الآخرة الباقية وزهدكم في الدنيا الفانية، فرغبتم في هذه وزهدتم في تلك، فيوشك أن تفوتكم الفانية ولا تحصل لكم الباقية فتكونوا كما قال الله تعالى: (لا ماءك أبقيت ولا حرك أنقيت)^(١) واعتبروا بالمغرور الذي عزل عنكم سعى وجمع فصار ذلك كله إلى علي رغم أنفه وصار كما قال الله سبحانه وتعالى:

أبشري أم خالد رب ساع لقاعد

ثم نزل عن المنبر.

خطبة الجمعة^(٢)

قيل: إن يزيد بن المهلب ولي إعرابياً على بعض كور خراسان فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر وقال: الحمد لله ثم ارتج عليه فقال: أيها الناس إياكم والدنيا فإنكم لم تجدوها إلا كما قال الله تعالى:

وما الدنيا بباقية لحي وما حي على الدنيا بباقي

فقال: كاتبه أصلح الله الأمير هذا شعر، قال: فالدنيا باقية على أحد؟ قال: لا، قال: فيبقى عليها أحد؟ قال: لا، قال: فما كلفتك إذن؟

استقللتها^(٣)

وبلغنا أن بعض العرب خطب في عمل وليه فقال في خطبته: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أشهر، فليل له: في ستة أيام، فقال: والله أردت أن أقولها ولكن استقللتها.

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب^(٣)

أبو بكر النقاش قال: كتب كاتب منصور بن النعمان إليه من البصرة أنه أصاب لُصاً فكره الإقدام على قطعه دون الاستطلاع على أمره، وأنه خياط، فكتب إليه: اقطع رجله ودع يده، فقال: إن الله أمر بغير ذلك، فكتب إليه: أنفذ ما أمرتك به، فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

(١) مثل معروف ذكره الميداني في مجمع الأمثال.

(٢) أخبار الحمقى والمغفلين، ص ٩٤. (٣) نفس المصدر ص ٩٥.

مقوم الناقة

قال المدائني: كان عبد الله بن أبي ثور والي المدينة فخطبهم فقال: أيها الناس اتقوا الله وارجوا التوبة، فإنه أهلك قوم صالح في ناقة قيمتها خمسمائة درهم. فسموه مقوم الناقة وعزله الزبير.

حماقة قباذ

وعن جرير بن المقفع عن وزير كسرى قال: كان قباذ أحمق، كان يأتي البستان فيشم الريحان في منبته ويقول: لا أقلعه رحمة له.

حماقة نصر بن مقبل

عن نصر بن مقبل - وكان عامل الرشيد على الرقة أنه أمر بجلد شاة الحد، فقالوا: إنها بهيمة، قال: الحدود لا تعطل وإن عطلتها فبئس الوالي أنا، فاتتهى خبره إلى الرشيد فلما وقف بين يديه قال: مَنْ أنت؟ قال: مولى لبني كلاب، فضحك الرشيد وقال: كيف بصرك بالحكم؟ قال: الناس والبهايم عندي واحد في الحق، ولو وجب الحق على بهيمة وكانت أمي أو أختي لحددتها ولم تأخذني في الله لومة لائم، فأمر الرشيد أن لا يستعان به.

الموت خير للجاهل من الحياة

حضر بعض حكماء الهند مع وزير ملكهم وكان الوزير ركيكاً فقال للحكيم: ما العلم الأكبر؟ قال: الطب، قال: فأني أعرف من الطب أكثره، قال: فما دواء المبرسم أيها الوزير؟ قال: دواؤه الموت حتى تقل حرارة صدره، ثم يعالج بالأدوية الباردة ليعود حيًا، قال: ومن يحييه بعد الموت؟ قال: هذا علم آخر وجد في كتاب النجوم ولم أنظر في شيء منه إلا في باب الحياة فأني وجدت في كتاب النجوم أن الحياة للإنسان خير من الموت، فقال الحكيم: أيها الوزير الموت على كل حال خير للجاهل من الحياة.

حسبة ذكية

عرض أبو خندف دوابه فأصاب فيها واحدة عجفاء مهزولة فقال: هاتوا الطباخ، فبطحه وضربه خمسين مقرعة وقال له: ما لهذه الدابة على هذه الحال؟ قال: يا سيدي أنا طباخ ما علمي بأمر الدواب، قال: بالله أنت طباخ! فلم لم تقل

لي، اذهب الآن فإذا كان غداً أضرب السائس ستين مقرعة يفضل عشرون فطب نفساً.

ثلاثة وهم رجل واحد^(١)

وروى أبو الحسن محمد بن هلال الصابي قال: خرج قوم من الديلم إلى أقطاعهم فظفروا باللص المعروف بالعراقي فحملوه إلى الوزير أبي عبد الله المهلبى فتقدم بإحضار أبي الحسين أحمد بن محمد القزويني الكاتب وكان ينظر في شرطة بغداد، فقال له المهلبى: هذا اللص العيار العراقي الذي عجزتم عن أخذه فخذوه واكتب خطك بتسليمه، فقال: السمع والطاعة إلى ما يأمر به الوزير، ولكنك تقول ثلاثة وهذا واحد فكيف اكتب خطي بتسليم ثلاثة؟ فقال: يا هذا، هذا العدد صفة لهذا الواحد فكتب يقول: أحمد بن محمد القزويني الكاتب تسلمت من حضرة الوزير اللص العيار العراقي ثلاثة وهم واحد رجل، وكتب بخطه في التاريخ. فضحك الوزير وقال لنصراني: هناك قد صحح القزويني مذهبكم في تسليم هذا اللص.

ضربة^(٢)

صعد بعض الولاة المنير فخطب فقال: إن أكرمتوني أكرمتكم وإن أهتموني ليكونن أهون علي من ضرطتي هذه، وضرط ضربة.

زن من الثاني^(٢)

جاز بعض الأمراء المغفلين على بيع الثلج فقال: أرني ما عندك، فكسر له قطعة وناوله، فقال: أريد أبرد من هذا، فكسر له من الجانب الآخر، فقال: كيف سعر هذا؟ فقال: رطل بدرهم ومن الأول رطل ونصف بدرهم، فقال: زن من الثاني.

أبو دلامة وعافية^(٣)

عن ابن الأعرابي قال: خاصم أبو دلامة رجلاً إلى عافية فقال:
لقد خاصمتني غواة الرجال وخصمتهم سنة وافية

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ٩٨.

(٢) نفس المصدر ص ٩٩.

(٣) نفس المصدر ص ١٠١.

فما أدحض الله لي حجة وما خيب الله لي قافيه
فمن كنت من جوره خائفاً فلست أخافك يا عافيه

فقال له عافية: لأشكونك لأمير المؤمنين، قال: لم تشكوني؟ قال: لأنك هجوتني. قال: والله لئن شكوتني إليه ليعزلنك، قال: لم؟ قال: لأنك لا تعرف الهجو من المدح. (عافية هذا هو ابن زيد القاضي ولاه المهدي القضاء على بغداد).

المثني على نفسه (١)

حدّث عبد الرحمن بن مسهر قال: ولأبي القاضي أبو يوسف القضاء (بجبل) وبلغني أن الرشيد منحدر إلى البصرة فسألت أهل جبل أن يشنوا علي فوعدوني أن يفعلوا ذلك وتفترقوا، فلما آيسوني من أنفسهم سرحت لحيتي وخرجت فوقفت له، فوافى وأبو يوسف في الحراقة، فقلت: يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضي جبل، قد عدل فينا وفعل وصنع، وجعلت أثني على نفسي، فرآني أبو يوسف فطأ رأسه وضحك، فقال هارون: ممّ تضحك؟ فقال: إن المثني على نفسه هو القاضي، فضحك هارون حتى فحص برجليه وقال: هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله، فعزلي.

الأمير آخر الجمعة

عن علي بن هشام أنه قال: كان للحجاج قاض بالبصرة من أهل الشام يقال له: أبو حمير، فحضرت الجمعة فمضى يريدها، فلقيه رجل من العراق فقال له: يا أبا حمير فأين تذهب؟ قال: إلى الجمعة، فقال: ما بلغك أن الأمير قد آخر الجمعة اليوم؟ فانصرف راجعاً إلى بيته، فلما كان من الغد قال له الحجاج: أين كنت يا أبا حمير لم تحضر معنا الجمعة؟ قال: لقيني بعض أهل العراق فأخبرني أن الأمير آخر الجمعة فانصرفت، فضحك الحجاج وقال: يا أبا حمير أما علمت أن الجمعة لا تؤخر.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٠١.

صاحب الشرطة ينظر في الدماء

قال ابن خلف: قال بعض الرواة، تقدم رجلان إلى أبي العطوف قاضي حران فقال أحدهما: أصلح الله القاضي، هذا ذبح ديكًا لي فخذ لي بحقي، فقال لهما القاضي: عليكما بصاحب الشرطة فإنه ينظر في الدماء.

حبس صاحب الحق

قال أبو الفضل الربيعي: حدثنا أبي قال: سألت المأمون رجلًا من أهل حمص عن قضاتهم، قال: يا أمير المؤمنين، إن قاضينا لا يفهم وإذا فهم وهم، قال: ويحك كيف هذا؟ قال: قدم عليه رجل رجلًا فاذعى عليه أربعة وعشرين درهمًا، فأقر له الآخر، فقال: أعطه، قال: أصلح الله القاضي، إن لي حمارًا اكتسب عليه كل يوم أربعة دراهم، أنفق على الحمار درهمًا وعلي درهمًا وأدفع له درهمين، حتى إذا اجتمع ماله غاب عني فلم أره فأنفقتها، وما أعرف وجهًا إلا أن يحبسها القاضي اثنا عشر يومًا حتى أجمع له إياها، فحبس صاحب الحق حتى جمع ماله، فضحك المأمون وعزله.

استحلف جاره

وعن أبي بكر الهذلي قال: كان ثمامة بن عبد الله بن أنس على القضاء بالبصرة قبل بلال بن أبي بردة وكان مخلطًا، فاستدعت امرأة إلى ثمامة على رجل أودعته شيئًا ولم يكن لها بينة، فأراد استحلافه لها، فقالت: إنه رجل سوء فيحلف ويذهب حقي، ولكن استحلف إسحق بن سويد فإنه جاره، فأرسل إلى إسحق واستحلفه.

قاضي تاهرت

حكى أبو الخير الخياط عن بعض أصحابه قال: دخلت (تاهرت) فإذا فيها قاضٍ من أهلها وقد أتى رجل جنى جنابة ليس لها في كتاب الله حد منصوص ولا في السنة، فأحضر الفقهاء فقال: إن هذا الرجل جنى جنابة وليس لها في كتاب الله حكم معروف فما ترون؟ فقالوا بأجمعهم: الأمر لك، قال: فإني رأيت أن أضرب المصحف بعضه ببعض ثلاث مرات، ثم أفتحه فما خرج من شيء عملت به، قالوا له: وفقت ففعل بالمصحف ما ذكره، ثم فتح فخرج قوله تعالى: ﴿سَيَسْئَلُ عَلَىٰ التُّرُورِ﴾ [القلم: الآية ١٦] فقطع أنف الرجل وخلقى سييله.

كاتب أحقق (١)

وعن الحسين بن السميدع الإنطاكي قال: كان عندنا بإنطاكية عامل من حلب وكان له كاتب أحقق، فغرق في البحر (شلنديتان) من مراكب المسلمين التي يقصد بها العدو، فكتب ذلك الكاتب عن صاحبه إلى العامل بحلب بخيرهما: بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم أيها الأمير أعزه الله تعالى إن شلنديتين أعني مركبين قد صفا من جانب البحر أي غرقا من شدة أمواجه فهلك من فيهما أي تلفوا، قال: فكتب إليه أمير حلب: بسم الله الرحمن الرحيم، ورد كتابك أي وصل وفهمناه أي قرأناه أدب كاتبك أي اصفعه واستبدل به أي اعزله فإنه مائق أي أحقق والسلام أي انقضى الكتاب.

صام الناس يوم الفطر

عن أبي علي النميري قال: تراءينا هلال شوال، فأتينا سوار بن عبد الله لنشهد عنده، فقال حاجبه: أنتم مجانين، الأمير لم يختضب بعد ولم يتهياً ولئن وقعت عينه عليكم ليضربنكم مائتين، انطلقوا، فانصرفنا وصام الناس يوم الفطر.

شهادة أحقق

عن أبي بكر النقاض قال: قيل لعبد الله بن مسعود القاضي: تجيز شهادة العفيف التقي الأحقق؟ قال: لا وسأريكم هذا، ادع يا غلام أبا الورد حاجبي، - وكان أحقق - فلما أتاه قال: اخرج فانظر ما الريح، فخرج ثم رجع فقال: شمال يشوبها جنوب، فقال: كيف ترون أتروني أجيز شهادة مثل هذا؟

تعزية

عن عبد الله بن إبراهيم الموصللي قال: نابت الحجاج في صديق له مصيبة ورسول لعبد الملك شامي عنده، فقال الحجاج: ليت إنساناً يعزيني بأبيات، فقال الشامي: أقول؟ قال: قل، فقال:

(وكل خليل سوف يفارق خليله، يموت أو يصاب أو يقع من فوق البيت أو يقع البيت عليه أو يقع في بئر أو يكون شيئاً لا نعرفه) فقال الحجاج: قد سلطنتني عن مصيبتني بأعظم منها في أمير المؤمنين إذ وجه مثلك لرسولاً.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٠٥.

رسالة إلى طيب

كتب بعضهم إلى طيب: بسم الله الرحمن الرحيم، ويالك يا يوحنا وامتع بك، قد شربت الدواء خمسين مقعدًا، المنغص والتقطيع يقتل بطني والعينين والرأس، فلا تؤخر باحتباسك عني فسوف تعلم أنني سأموت وتبقى بلا أنا، فعلت موفقًا إن شاء الله.

نسي علقته

كتب بعضهم إلى صديق له: بسم الله الرحمن الرحيم، وجعلني الله فداءك، لولا علة نسيته لسرت إليك حتى أعرفك بنفسي والسلام.

لم يحدث إلا كل خير

كتب رجل من البصرة إلى أبيه: كتبت إليك يا أبت نحن كما يسرك الله عونته وقوته، لم يحدث علينا بعدك إلا كل خير، إلا أن حائطًا لنا وقع على أمي وأخي الصغير وأختي والجارية والحمار والديك والشاة ولم يفلت غيري.

لا تردني فأحرد

كتب بعض ولد الملوك إلى بعض: استوهب الله المكاره فيك برحمته، أنا وحق جدي رسول الله الذي لا إله إلا هو، أحبك أشد من جدي المتوكل، فقد بلغني أنه قد جاءك من النبيذ شيء كثير كثير شطرًا، وأنا أحبه شديد شديد شطرًا آخر، وبحياتي عليك إلا بعثت إليّ دستجة أو خمس دبات أو ستة أو سبعة أو أكثر جياذ بالغة ولأ فتلات خماسيات ولا تردني فأحرد موفقًا إن شاء الله.

أما أنا فأذهب^(١)

قال الجاحظ: أخبرني أبو العنيس قال: كان رجل طويل اللحية أحرق جارنا، وكان أقام بمسجد المحلة يعمره ويؤذن فيه ويصلي، وكان يعتمد السور الطوال ويصلي بها، فصلّى ليلة بهم العشاء فطول، فضجوا منه، وقالوا: اعتزل مسجدا حتى نقيم غيرك فإنك تطول في صلاتك وخلفك الضعيف وذو الحاجة، فقال: لا أطول بعد ذلك، فتركوه، فلما كان من الغد أقام وتقدم فكبر وقرأ

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١١٢.

«الحمد»، ثم فكر طويلاً وصاح فيهم، إيش تقولون في عبس؟ فلم يكلمه أحد إلا شيخ أطول لحية منه وأقل عقلاً، فإنه قال: كَيْسَة مَرَّ فِيهَا. وقرأ إمام في صلاته (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر، فتم ميقات ربه خمسين ليلة) ف جذب به رجل وقال: ما تحسن تقرأ، ما تحسن تحسب. وتقدم إمام فصلّى فلما قرأ «الحمد» افتتح بسورة يوسف، فانصرف القوم وتركوه، فلما أحس بانصرافهم قال سبحان الله! ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية ١] فرجعوا فصلّوا معه وقرأ إمام في صلاته ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: الآية ١] فلما بلغ قوله فأين تذهبون، ارتجّ عليه وجعل يردد حتى كادت تطلع الشمس، وكان خلفه رجل معه جراب ف ضرب به رأس الإمام وقال: أما أنا فأذهب، وهؤلاء لا أدري إلى أين يذهبون.

أعرابي أحرق

عن أبي عثمان المازني أنه قال: قدم أعرابي على بعض أقاربه بالبصرة، فدفعوا له ثوباً ليقطع منه قميصاً، فدفع الثوب إلى الخياط فقدر عليه ثم خرق منه، قال: لم خرقت ثوبي؟ قال: لا يجوز خياطته إلا بتخريقه، وكان مع الأعرابي هراوة من أرزن فشجّ بها الخياط، فرمى بالثوب وهرب، فتبعه الأعرابي وأنشد يقول:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله	فيما مضى من سالف الأحقاب
مَنْ فعل عالج جثته ليخيط لي	ثوباً فخرقه كفعل مصاب
فعلوته بهراوة كانت معي	فسعى وأدبر هارياً للباب
أيشق ثوبي ثم يقعد آمنًا	كلا ومنزل سورة الأحزاب

الكريم لا يرجع بهبته

وعن الأصمعي أنه قال: مررت بأعرابي يصلّي بالناس فصلّيت معه، فقرأ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [القمر: إذا تَلَّهَا] [الشَّمْسِ: الآيتان ١، ٢] كلمة بلغت متنهاها لن يدخل النار ولن يراها رجل نهى النفس عن هواها، فقلت له: ليس هذا من كتاب الله، قال: فعلمني فعلته الفاتحة والإخلاص، ثم مررت بعد أيام، فإذا هو يقرأ الفاتحة وحدها، فقلت له: ما للسورة الأخرى؟ قال: وهبتها لابن عم لي، والكريم لا يرجع في هبته.

فانظر ما تعطيني^(١)

قال عن الأصمعي: كنت في البادية فإذا بأعرابي تقدم فقال: الله أكبر (سبح اسم ربك الأعلى، الذي أخرج المرعى، أخرج منها تيساً أحوى ينزو على المعزى) ثم قام في الثانية فقال: (وثب الذئب على الشاة الوسطى وسوف يأخذها تارة أخرى. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى إلا بلى إلا بلى) فلما فرغ قال: اللهم لك عفرت جيبني وإليك مددت يميني فانظر ماذا تعطيني.

يا أعداء الله^(١)

وعن أبي الزناد قال: جاء أعرابي إلى المدينة فجالس أهل الفقه ثم تركهم، ثم جالس أصحاب النحو فسمعهم يقولون نكرة ومعرفة، فقال: يا أعداء الله يا زنادقة.

القوم لم يرحلوا^(١)

وعن العلاء بن سعيد قال: قعد طائي وطائية في الشمس، فقالت له امرأته: والله لئن ترحل الحي غداً لأتبعن قماشهم وأصوافهم ثم لأنفسه ولأغسلنه ولأغزلنه، ثم لأبعثنه إلى بعض الأمصار فيباع وأشتري بثمنه بكرًا فأرتحل عليه مع الحي إذا ترحلوا، قال الزوج: أفترارك الآن تاركتني وابني بالعراء؟ قالت: أي والله، قال: كلا والله، وما زال الكلام بينهما حتى قام يضربها، فأقبلت أمها فقالت: ما شأنكم، وصرخت: يا آل فلانة أفتضرب ابنتي على كد يديها ورزق رزقها الله، فاجتمع الحي فقالوا: ما شأنكم؟ فأخبروهم بالخبر! فقالوا: ويلكم، القوم لم يرحلوا وقد تعجلتم الخصومة.

امرأتي طالق لوجهك تعالى^(٢)

عن الأصمعي قال: خرج قوم من قريش إلى أرضهم وخرج معهم رجل من بني غفار، فأصابهم ريح عاصف يشوا معها من الحياة ثم سلموا، فأعتق كل رجل منهم مملوكًا، فقال ذلك الأعرابي: اللهم لا مملوك لي أعتقه ولكن امرأتي طالق لوجهك ثلاثًا.

(٢) نفس المصدر ص ١١٥.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١١٤.

لا شكراً^(١)

كان رجل من الأعراب يعمل في معمل للذهب فلم يصب شيئاً، فأنشأ يقول:

يا رب قدر لي في حماسي وفي طلاب الرزق بالتماس
صفراء تجلو كل النعاس

فضربته عقرب صفراء سهوته طول الليلة وجعل يقول: يا رب الذنب لي إذ لم أبين لكم ما أريده، اللهم لك الحمد والشكر، فقيل له: ما تصنع أما سمعت قول الله تعالى: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧] فوثب جزعاً وقال: لا شكراً لا شكراً.

صلاة الشتاء^(١)

قال الأصمعي: رأيت أعرابياً يصلي في الشتاء قاعداً ويقول:

إليك اعتذاري من صلاتي قاعداً على غير ظهر موميًا نحو قبلي
فما لي ببرد الماء يا رب طاقة ورجلاي لا تقوى على طي ركبتي
ولكنني أقضيه يا رب جاهداً وأقضيكه إن عشت في وجه صيفتي
وإن أنا لم أفعل فأنت محكم إلهي في صفعي وفي نتف لحيتي

عابت غنياً

وقيل: إن محمد بن علي عليه السلام رأى في الطواف أعرابياً عليه ثياب رثة وهو شاخص نحو الكعبة لا يصنع شيئاً، ثم دنا من الأستار فتعلق بها ورفع رأسه إلى السماء وأنشأ يقول:

أما تستحي مني وقد قمت شاخصاً أنا جيء يا ربي وأنت عليم
فإن تكسني يا رب خفاً وفروة أصلي صلاتي دائماً وأصوم
وإن تكن الأخرى على حال ما أرى فمن ذا على ترك الصلاة يلوم
أترزق أولاد العلوج وقد طغوا وتترك شيخاً والداه تميم

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١١٥.

فدعا به وخلع عليه فروة وعمامة وأعطاه عشرة آلاف درهم وحمله على فرس، فلما كان العام الثاني جاء الحج وعليه كسوة جميلة وحال مستقيم، فقال له أعرابي: رأيتك في العام الماضي بأسوأ حال وأراك الآن ذا بزة حسنة وجمال، فقال: إني عاتبت كريماً فأغنيت.

ما أرى المطلوب غيري

صلى بعض الأعراب خلف بعض الأئمة في الصف الأول وكان اسم الأعرابي (مجرماً) فقرأ الإمام: والمرسلات... إلى قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [المُرْسَلَات: الآية ١٦] فتأخر البدوي إلى الصف الآخر فقال: ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المُرْسَلَات: الآية ١٧] فرجع إلى الصف الأوسط فقال: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [المُرْسَلَات: الآية ١٨] فولى هارباً وهو يقول: ما أرى المطلوب غيري.

صلاة أعرابي

وكان أعرابي يصلي، فأخذ قوم يمدحونه ويصفونه بالصلاح، فقطع صلاته وقال: مع هذا إني صائم!

أعرابي يقوم بالليل

وتذاكر قوم قيام الليل وعندهم إعرابي، فقالوا له: أتقوم بالليل؟ قال: أي والله، قالوا: فما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنام.

استك^(١)

عن سلمة قال: كان عند المهدي مؤدب يؤدب الرشيد فدعاه يوماً المهدي وهو يستاك فقال: كيف تأمر من السواك؟ قال: استك يا أمير المؤمنين، فقال المهدي: إنا لله، ثم قال: التمسوا من هو أفهم من هذا، قالوا: رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة قدم من البادية قريباً فلما قدم على الرشيد قال له: يا علي، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: كيف تأمر من السواك؟ قال: سك يا أمير المؤمنين، قال: أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٢١.

مَنْ خَتَنَكَ (١)

عن الوليد أنه قال لرجل: ما شأنك؟ فقال الرجل: شيخ نايفي، فقال عمر بن عبد العزيز: إن أمير المؤمنين يقول لك ما شأنك؟ فقال: ختني ظلمي، فقال الوليد: ومَنْ خَتَنَكَ؟ فنكس الأعرابي رأسه وقال: ما سؤال أمير المؤمنين عن هذا؟ فقال عمر: إنما أراد أمير المؤمنين مَنْ خَتَنَكَ؟ فقال: هذا وأشار إلى رجل معه.

أنت في الخرا إلى الحلق

وقع نحوي في كنيف فصاح به الكناس أنت في الحياة قال: ابغ لي سلماً وثيقاً وأمسه إمساكاً رقيقاً ولا بأس علي، فقال له: لو كنت تركت الفضول يوماً لتركته الساعة وأنت في الخرا إلى الحلق.

من طرائف النحاة (٢)

وقف نحوي على زجاج فقال: بكم هاتان القنيتان اللتان فيهما نكتتان خضراوتان؟ فقال الزجاج: (مدهامتان فبأي آلاء ربكما تكذبان).

وعن أبي زيد النحوي قال: وقفت على قصاب وعنده بطون، فقلت: بكم البطنان؟ فقال: بدرهمان يا ثقيلان.

وعن أحمد بن محمد الجوهري قال: سمعت أبا زيد النحوي، قال: وقفت على قصاب وقد أخرج بطنين سمينين فعلقهما، فقلت: بكم البطنان؟ فقال: بمصفعان يا مضرطان. ففررت لئلا يسمع الناس فيضحكون.

قال: حدّثنا أبو حمزة المؤدب قال: حدّثنا أحمد بن محمد القزويني - وكان شاعراً - أنه دخل سوق النخاسين بالكوفة فقعد إلى نخاس فقال: يا نخاس اطلب لي حماراً لا بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر، إن أقللت علفه صبر وإن أكثرت علفه شكر، لا يدخل تحت البواري ولا يزاحم بي السواري، إذا خلا في الطريق تدفق وإذا أكثر الزحام ترفق، فقال له النخاس بعد أن نظر إليه ساعة: دعني، إذا مسخ الله القاضي حماراً اشتريته لك.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٢١. (٢) نفس المصدر ص ١٢٦.

حدّثنا بعض أصحابنا قال: قلت لبقال عندك بسر فرسًا؟ قال: عندي قرعة.

وعن إسحق بن محمد الكوفي قال: جاء أبو علقمة إلى عمر الطبيب فقال: أكلت دعلجًا فأصابني في بطني سجع، فقال: خذ غلوص وخلوص، فقال أبو علقمة: وما هذا؟ قال: وما الذي قلت أنت؟ كلمني بما أفهم، قال: أكلت زبدًا في سكرجة فأصابني نفخ في بطني، فقال: خذ صعترًا.

ودخل أبو علقمة النحوي على أعين الطبيب، فقال امتع الله بك، إني أكلت من لحوم هذه الجوزم فطئست طسأة^(١) فأصابني وجع من الوالبة إلى ذات العنق، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الحلب والشراسيف فهل عندك دواء؟ قال: نعم خذ حرقفًا وسلقفًا وسرقفًا فزهرقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه، فقال أبو علقمة: لم أفهم عنك هذا، فقال: أفهمتكم كما أفهمتني.

قال: حدّثنا أبو عثمان عن أبي حمزة المؤدب قال: دخل أبو علقمة النحوي سوق الجرارين بالكوفة، فوقف على جرار فقال: أجد عندك جرة لا فقءاء ولا دبءاء ولا مطربلة الجوانب، ولتكن نجوية خضراء نضراء قد خفّ محملها وأتعبت صانعها قد مستها النار بألسنتها، إن نقرتها طنت وإن أصابتها الريح رنت؟ فرفع الجرار رأسه إليه ثم قال له: النطس بكور الجروان أحر وجكى، ولدقس باني والطبر لري شك لك بك، ثم صاح الجرار يا غلام شرح ثم درب وإلى الوالي فقرب، يا أيها الناس من بلي بمثل ما نحن فيه؟ وأنشد لثعلب:

إن شئت أن تصبح بين الوري ما بين شتام ومغتاب
فكن عبوسًا حين تلقاهم وكلم الناس بإعراب

مادح سيف الدولة

عن أبي الحسن علي بن منصور الحلبي قال: كنت أحضر مجلس سيف الدولة فحضرته وقد انصرف من غزو عدو له ظفر به، فدخل الشعراء ليهتئوه فدخل رجل وأنشده:

وكانوا كفأر وشوسوا خلف حائط وكنت كسنور عليهم تسلقا

(١) طسيء: أي أتخم وأكل فوق طاقته.

فأمر سيف الدولة بإخراجه، فقام على الباب يبكي، فأخبر سيف الدولة بيكاته فأمر برده فقال: مالك تبكي؟ فقال: (قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه فلما خاب أملي وقابلني بالهوان ذلت نفسي فبكيت) فقال له سيف الدولة: ويحك من يكون له مثل هذا النثر يكون له ذلك النظم! فكم أملت؟ قال: خمس مائة درهم فأمر له بألف درهم.

أمك طالق

عن الصولي، قال: كان لمحمد بن الحسن ابن فقال له: إني قد قلت شعراً، قال: أنشديه، قال: فإن أجدت تهب لي جارية أو غلاماً؟ قال: أجمعهما لك فأنشده:

إن الديار طيفا هيجن حزناً قد عفا
أبكينني لشقاوتي وجعلن رأسي كالقفا

فقال: يا بني، والله ما تستاهل جارية ولا غلاماً، ولكن أمك مني طالق ثلاثاً إذا ولدت مثلك.

حماقة سيفويه (١)

عن محمد بن العباس بن حيوية قال: قيل لسيفويه: قد أدركت الناس فلم لم تحدث؟ قال: اكتبوا حدّثنا شريك عن مغيرة عن إبراهيم بن عبد الله مثله سواء، قالوا له: مثل إيش؟ قال: كذا سمعنا وكذا نحدث.

عن ابن خلف قال: جاء يوماً رجل من عرس، فسأله سيفويه ما أكل؟ فأقبل يصف له، فقال: ليت ما في بطنك في حلقي.

وقال ابن خلف: قال عبد العزيز القاصر: ليت إن الله لم يكن خلقني وإني الساعة أعور، فحكيت ذلك لابن غياث، فقال: بش ما قال، ووددت والله الذي لا إله إلا هو، إن الله لم يكن خلقني وإني الساعة أعمى مقطوع اليدين والرجلين.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٣١.

وروى أبو العباس بن مشروح قال: كان سيفويه اشترى لمنزله دقيقًا بالغداة وراح عشاء يطلب الطعام، فقالوا: لم نخبز، لم يكن عندنا حطبًا، قال: كنتم تخبزونه فطيرًا.

وحكى أبو منصور الثعالبي أن رجلًا سأل سيفويه عن الغسلين في كتاب الله تعالى فقال: على الخبير سقطت، سألت عنه شيخًا فقيهاً من أهل الحجاز فما كان عنده قليل ولا كثير.

وقف سيفويه راكبًا على حمار في المقابر، فنفر حماره عند قبر منها، فقال: ينبغي أن يكون صاحب هذا القبر بيطارًا.

وقرأ سيفويه (ثم في سلسلة ذرعها تسعون ذراعًا^(١)) فقليل له: قد زدت عشرين، فقال: هذه خلقت لبغاء ووصيف، فأما أنتم فيكفيكم شريط بدانق ونصف. وقرأ قارئ بين يديه: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: الآية ٢٧] فقال: ماذا لقي القوم والله من أجل صلاتهم بالليل.

وقرأ القارئ ﴿كَأَنَّ الْيَأْقُوثَ وَالْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ [الرحمن: الآية ٥٨] فقال: هؤلاء خلاف نساكم الفجار.

قيل لسيفويه: إن اشتهى أهل الجنة عصيدة كيف يعملون؟ قال: يبعث الله لهم أنهار دبس ودقيق وأرز، ويقال: اعملوا وكلوا واعذرونا.

من هذا عجبت

عن محمد بن الجهم أنه قال: سمعت الفراء يقول: كان عندنا رجل يفسر القرآن برأيه فقليل له: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ ۝١﴾ [الماعون: الآية ١] فقال: رجل سوء والله فقليل: ﴿فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون: الآية ٢] فسكت طويلًا، ثم قال: من هذا عجبت.

اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف

عن عبد الرحمن بن محمد الحنفي قال: قال أبو كعب القاص في قصصه: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف كذا وكذا، فقالوا له: فإن يوسف لم يأكله الذئب، قال: فهو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.

(١) صحتها «ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه» سورة الحاقة الآية ٣٢.

مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَشْهَدَ خَاتِمَةَ السُّورَةِ

عن العلاء بن صالح قال: كان عبد الأعلى بن عمر قاصًّا، فقصَّ يوماً، فلما كاد مجلسه ينقضي قال: إن ناسًا يزعمون إنني لا أقرأ من القرآن شيئاً وإنني لا أقرأ منه الكثير بحمد الله، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية 1]، فارتجَّ عليه فقال: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَشْهَدَ خَاتِمَةَ السُّورَةِ فليحضرنا إلى مجلس فلان.

بلبل عليهم عيشهم

حكى أبو محمد التميمي أن أبا الحسن السماك الواعظ دخل عليهم يوماً وهم يتكلمون في أبيبيل، فقال: في أي شيء أنتم؟ فقالوا: نحن في ألف أبيبيل هل هو ألف وصل أو ألف قطع؟ قال: لا ألف وصل ولا ألف قطع، وإنما هو ألف سخط، ألا ترون أنه بلبل عليهم عيشهم! فضحك القوم من ذلك.

قاص أحمق

قال الجاحظ: سمعت قاصًّا أحمق وهو يقصُّ حديث موسى وفرعون وهو يقول: لما صار فرعون في وسط البحر في الطريق اليابس قال الله للبحر انطبق، فما زال حتى علاه الماء، فجعل فرعون يضرب مثل الجاموس نعوذ بالله من ذلك الضراط. قال: وسمعت قاصًّا بالكوفة يقول: والله لو أن يهودياً مات وهو يحب عليًّا ثم دخل النار ما ضره حرها.

اقتلوا الشيطان عطشاً

قال بعض القصاص: يا معشر الناس إن الشيطان إذا سمي على الطعام والشراب لم يقربه، فكلوا خبز الأرز المالح ولا تسموا، فياكل معكم ثم اشربوا الماء وسموا حتى تقتلوه عطشاً.

لا تسألوا عن أشياء

سئل بعض الوعاظ لِمَ لم تنصرف (أشياء) فلم يفهم ما قيل له، ثم سكت ساعة فقال: تسأل سؤال الملحدين لأن الله يقول: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾^(١)

(١) ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ سَخِرْتُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: الآية ١٠١].

[المائدة: الآية ١٠١]. قال بعض الأسيخ: إنه كتب في رقعة إلى بعض القصاص يسأله الدعاء لامرأة حامل، فقرأ الرقعة ثم قلبها وفي ظهرها صفة دواء قد كتبه طبيب وفيه «قنبيل» و«خشيرك» و«افتيمون» ونحو هذا، فظنها كلمات يسأل بها، فدعا وجعل يقول: يا رب قنبيل، يا رب خشيرك ويا رب افتيمون إلى أن نهى ما ذكر.

المزابلي وابن الزكوري^(١)

عن علي بن المحسن التنوخي قال: كان عندنا بجبل اللكام رجل يسمى أبو عبد الله المزابلي يدخل البلد بالليل فيتتبع المزابيل فيأخذ ما يجده ويغسله ويقتاته ولا يعرف قوتًا غيره، أو يتوغل في الجبل فيأكل من الثمرات المباحات، وكان صالحًا مجتهدًا إلا أنه كان قليل العقل، وكان بإنطاكية موسى الزكوري صاحب المجون، وكان له جار يغشى المزابيل، فجرى بين موسى الزكوري وجاره شر، فشكاه إلى المزابلي فلعنه في دعائه فكان الناس يقصدونه في كل جمعة فيتكلم عليهم ويدعو، فلما سمعوه يلعن ابن الزكوري جاء الناس إلى داره لقتله فهرب ونهبت داره، فطلبه العامة فاستتر فلما طال استتاره قال: إني سأحتال على المزابلي بحيلة أتخلص بها فأعينوني، فقالوا له ما تريد؟ قال: أعطوني ثوبًا جديدًا وشيئًا من مسك ونازًا وغلماثًا يؤنسوني الليلة في هذا الجبل، قال: فأعطيته ذلك، فلما كان نصف الليل صعد فوق الكهف الذي يأوي فيه المزابلي فبخر بالند ونفخ المسك فدخلت الرائحة إلى كهف أبي عبد الله المزابلي، فلما اشتم المزابلي تلك الرائحة وسمع الصوت قال: مالك عافاك الله ومَن أنت؟ قال: أنا جبرائيل أرسلني ربي، فلم يشك المزابلي في صدق القول وأجهش بالبكاء والدعاء، فقال: يا جبرائيل ومَن أنا حتى يرسلك الله إليّ؟ فقال: الرحمن يقرئك السلام ويقول لك موسى الزكوري غدًا رفيقك في الجنة، فصعق أبو عبد الله فتركه موسى فرجع، فلما كان من لعد كان يوم الجمعة أقبل المزابلي يخبر الناس برسالة جبرائيل ويقول: تمسحوا بابن الزكوري واسألوه أن يجعلني في حل واطلبوه لي، فأقبل العامة إلى دار ابن الزكوري يطلبونه ويستحلونه.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٣٥.

يبدل الله سنانهم خشبات

عن أبي النقاش عن شيخ له قال: كنت في جامع واسط ورجلان يحدثان في حديث جهنم، فقال أحدهما: بلغني أن الله عز وجل يعظم خلق الكافر حتى يكون ضرسه مثل أحد، فقال له الآخر: ليس هذا أمره، وإلى جانبهما شيخ متأله كثير الصلاة فالتفت إليهما فقال: لا تنكروا هذا، إن الله على كل شيء قدير، وتصديق ما كنتم فيه كتاب الله، قالوا: وما ذلك يا عم؟ قال: قوله تعالى: (فأولئك يبدل الله سنانهم خشبات) فهو ما يبدل السن خشبة إلا وهو قادر على أن يجعله مثل أحد.

تواضع

عن محمد المخرمي قال: كنا في مجلس فشممت رائحة أنكرتها، فنظرت فإذا رجل قد وضع في شاربه عذرة^(١)، فقلت له: ما هذا؟ قال: تواضعا لربي عز وجل.

طول اللحية لا يخلف

عن أبي عثمان الجاحظ قال: أخبرني يحيى بن جعفر قال: كان لي جار من أهل فارس وكان بلحية ما رأيت أطول منها قط، وكان طول الليل يبكي، فأنبهني ذات ليلة بكاءه ونحيبه وهو يشهق ويضرب على رأسه وصدره ويردد آية من كتاب الله تعالى، فلما رأيت ما نزل به قلت: لأسمعن هذه الآية التي قتلت هذا وأذهب نومي، فتسمعت عليه فإذا الآية ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيزِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢] فعلمت أن طول اللحية لا يخلف.

دعاء

قال الجاحظ: رأيت أبا محمد السيرافي: وكان طويل اللحية يدعو ربه وقد رفع يديه إلى السماء وهو يقول: يا منقذ الموتى ومنجي الغرقى وقابل التوبات وراحم العثرات، أنت تجد من ترحمه غيري وأنا لا أجد من يعذبني سواك.

(١) العذرة: الغائط، أردأ ما يخرج من الطعام.

دعاء آخر

قال الجاحظ: رأيت أبا سعيد البصري يدعو ربه، وكان طويل اللحية أحمر، وهو يقول: يا ربه، يا سيده، يا مولاه، يا جبرائيل، يا إسرافيل، يا ميكائيل، يا كعب الأحبار يا أويس القرني بحق محمد وجرجيس عليك، ارحص أمتك على الدقيق.

دعاء آخر

عن بشر بن عبد الوهاب قال: كان يجلس إلى عمود في دمشق رجل جميل الهيئة فرأيته يوماً وقد سجد ويقول في سجوده: سجد لك خضرتي وحمرتي وصفرتي وبياضي وسوادي، خاشعاً ضارعاً خاضعاً ماضاً لبظر أمه ومن أنا عندك الزاني ابن الزانية حتى لا تغفر له؟

لا أدخل بين الأنبياء

قال بعض معارفنا إنه حضر في بعض البلاد عند متزهّد، وحضر جماعة يتبركون به، منهم قاضي البلد، فجرى ذكر لوط عليه السلام فقال المتزهّد: عليه لعنة الله، فقيل له: ويحك هذا نبيّ، فقال: ما علمت، ثم التفت إلى القاضي فقال: خذ علي التوبة مما قلت، فتاب، ثم أفاضوا في الحديث فجرى ذكر فرعون فقالوا له: ما تقول فيه؟ فقال: أنا الآن تبت فلا أدخل بين الأنبياء.

فطنة معلم^(١)

قال الجاحظ: حدّثنا محمد بن خلف قال: قال بعض المجان مررت ببعض دور الملوك، فإذا أنا بمعلم خلف ستر قائم على أربعة ينيح نبح الكلاب، فنظرت إليه فإذا صبي خرج من خلف الستر، فقبض عليه المعلم، فقلت للمعلم: عرفني خبرك، قال: نعم هذا صبي يبغض التأديب ويفرّ ويدخل إلى الداخل ولا يخرج، وإذ طلبته بكى، وله كلب يلعب به فأنبج له فيظن أنني كلبه ويخرج إلي فأخذه.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٤١.

أبلغ من العصا^(١)

قال الجاحظ: قلت لبعض المعلمين ما لي لا أرى لك عصا؟ قال: لا أحتاج إليها إنما أقول لمن يرفع صوته أمه زانية فيرفعون أصواتهم وهذا أبلغ من العصاة وأسلم.

معلم مريض^(١)

قال غلام للصبيان: هل لكم أن يفلتنا الشيخ اليوم؟ قالوا: نعم، قال: تعالوا لنشهد عليه أنه مريض، فجاء واحد منهم فقال: أراك ضعيفًا جدًا وأظنك ستحم، فلو مضيت إلى منزلك واسترحت، فقال لأحدهم: يا فلان يزعم فلان أنني عليل فقال: صدق الله وهل يخفى هذا على جميع الغلمان إن سألتهم أخبروك، فسألهم فشهدوا، فقال لهم: انصرفوا اليوم وتعالوا غدًا.

معلم أبله

قيل: إن معلمًا جاء إلى الجاحظ فقال: أنت الذي صنعت كتاب المعلمين تعييبهم؟ قال: نعم، قال: وذكرت فيه بعض المعلمين جاء إلى الصياد وقال: إيش تصطاد طريًا أم مالحًا؟ قال: نعم، قال: ذلك أبله ولو كان فيه ذكاء كان يقف فينظر إن خرج طري علم أو خرج مالح علم.

أدخل سورة في سورة

قال الجاحظ: مررت بمعلم وقد كتب لغلام - وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه، يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك، فيكيدوا لك كيدًا وأكد كيدًا فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا - فقلت له: ويحك فقد أدخلت سورة في سورة، قال: نعم، إذا كان أبوه يدخل شهرًا في شهر، فأنا أيضًا أدخل سورة في سورة فلا آخذ شيئًا ولا ابنه يتعلم شيئًا.

جمل يعرض أذن نفسه

قال الجاحظ: ومررت بمعلم صبيان وهو جالس وحده وليس عنده صبيانه فقلت له: ما فعل صبيانك؟ قال: ذهبوا يتصافعون، فقلت: اذهب وانظر إليهم،

(١) أخبار الحمقى والمغفلين.

فقال: إن كان ولا بد، فغظ رأسك لثلا يحسبوك أنا فيصفعوك حتى تعمي. ورأيت معلماً قد جاءه غلامان قد تعلق كل واحد منهما بالآخر، فقال: يا معلم هذا عض أذني، فقال: ما عضضتها وإنما عضّ أذن نفسه، فقال: يا ابن الخبيثة جمل حتى يعضّ أذن نفسه؟

معلم يشتم الصبيان

قال أبو العنيس: كان ببغداد معلم يشتم الصبيان، فدخلت عليه وشيخ معي، فقلنا: لا يحل لك، فقال: ما أشتم إلا من يستحق الشتم، فاحضروا حتى تسمعوا ما أنا فيه، فحضرنا يوماً فقراً صبي - عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون - فقال: ليس هؤلاء ملائكة ولا أعراب ولا أكراد فضحكنا حتى بال أحدنا في سراويله.

بينه وبينهم شرط

قال بعضهم: مررت بمعلم الصبيان، يضربونه وينتفون لحيته، فتقدمت لأخلصه فمنعني وقال: دعهم، بيني وبينهم شرط، إن سبقتهم إلى الكتاب ضربتهم وإن سبقوني ضربوني، واليوم غلبني النوم فتأخرت ولكن وحياتك إلا بكرت غداً من نصف الليل وتنظر فعلي بهم، فالتفت إليه صبي وقال: أنا أبات الليلة ههنا حتى تجيء وأصفعك.

منقذ ذكي

عن أبي الفتح محمد بن أحمد الحريمي قال: كان عندنا بخراسان إنسان قروي فكان له عجل، فدخل داره وأدخل رأسه في جب الماء ليشرب، فبقي رأسه في الجب فجعل يعالج رأسه ليخرجه من الجب فلم يقدر، فاستحضر معلم القرية فقال: قد وقعت واقعة، قال: فما هي؟ فأحضره وأراه العجل فقال: أنا أخلصك أعطني سكيناً فذبح العجل فوق رأسه في الجب وأخذ حجرًا وكسر الجب، فقال القروي: بارك الله فيك قتلت العجل وكسرت الجب.

مَنْ عَيَّرَ عَيْرٌ

عن أبي العيناء قال: قال لي الجاحظ، كان لنا جار مغفل جداً وكان طويل اللحية فقالت له امرأته: مَنْ حمقك طالت لحيتك، فقال: مَنْ عَيَّرَ عَيْرٌ.

أخبرتها بعيوبي كلها

عن إسماعيل بن زياد قال: نشزت على الأعمش امرأته، وكان يأتيه رجل يقال له: «أبو البلاد» فصيح يتكلم بالعربية يطلب منه الحديث، فقال له: يا أبا البلاد: إن امرأتي قد نشزت عليّ وغمّمتني، فأدخل عليها وأخبرها بمكاني من الناس وموضعي عندهم، فدخل عليها فقال: إن الله قد أحسن قسمك، هذا شيخنا وسيدنا، وعنه نأخذ ديننا وحلالنا وحرامنا، لا يغرك عموشة عينيه ولا خموشة ساقيه، فغضب الأعمش عليه وقال: أعمى الله قلبك، قد أخبرتها بعيوبي كلها، أخرج من بيتي، فأخرجه.

الأحنف والشاب

عن محمد بن سلام قال: قال الشعبي: كان شاب يجلس إلى الأحنف، فأعجبه ما رأى من صمته إلى أن قال له ذات يوم: أود أن تكون على شرف هذا المسجد وأن لك مائة ألف درهم، فقال له: يا ابن أخي، والله إن مائة الألف لمحروص عليها، ولكنني قد كبرت وما أقدر على القيام على هذه الشرفة، وقام الفتى، فلما ولّى قال الأحنف:

وكأين ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

أبو الشوارب

عن محمد بن الحسن بن زياد عن بعض ولد أبي الشوارب - وكان أحمق - أن أباه أمره بتغيير حب فقيرته من خارج، فقال له أبوه: ما هذا الفعل؟ قال: إذا شئت أن تقلبه فقلبه. وحكى أن هذا المذكور قد احتلم ليلة في وقت بارد، وكره أن ينغمس في الماء البارد وطلب شيئاً يسخن فيه الماء فلم يجد، فنزع ثوبه وعبر النهر سباحة حتى استعار شيئاً يسخن فيه الماء ورجع سباحة ثم سخن فيه واغتسل.

رواد مسجد حمص

عن معمر أنه قال: دخلت مسجد حمص فإذا أنا بقوم لهم رواد، فظننت فيهم الخير فجلست إليهم، فإذا هم ينتقصون عليّ بن أبي طالب ويقعون فيه،

فقمتم من عندهم، فإذا شيخ يصلي ظننت فيه الخير فجلست إليه، فلما أحس بي وسلم قلت: يا عبد الله ما ترى هؤلاء القوم ينتقصون علياً ويشتمونه، وجعلت أحدثه بمناقبه وأنه زوج بنت رسول الله ﷺ وأبو الحسنين وابن عم الرسول، فقال: يا عبد الله، ما لقي الناس من الناس، ولو أن أحدًا نجا من الناس، لنجا منهم أبو محمد رحمه الله، هوذا يشتم وحده، قلت: ومن أبو محمد؟ قال الحجاج بن يوسف وجعل يبكي، فقمتم عنه وقلت: لا يحل لي أن أبيت في هذه البلدة، فخرجت من يومي.

يفضلون الكباشي على معبد

قال: وفي هذا المعنى قال ابن الماجشون: كان لي صديق مدني فقدته مدة ثم رأيته، فسألته عن حاله فقال: كنت بالكوفة، فقلت: كيف أقمت بها وهم يسبون أبا بكر وعمر؟ فقال: يا أخي قد رأيت منهم أعجب من ذا، قلت: ما هو؟ قال: يفضلون الكباشي على معبد في الغناء، فسمع المهدي بذلك فضحك حتى استلقى.

ما علمت أنك حمار

وعن علي بن مهدي قال: مرّ طبيب بأبي واسع فشكا إليه ريحاً في بطنه، فقال له: خذ الصعتر. فقال: يا غلام دواة وقرطاس، وقال: قلت ماذا أصلحك الله؟ قلت: كَفُ صعتر ومكوك شعير، فقال: لم لَمْ تذكر الشعير أولاً؟ قال: ما علمت أنك حمار إلا الساعة.

بصير بالبراذين

عن ابن خلف قال: كان رجل يعرف بالمسكي يدعي البصر بالبراذين، فنظر يوماً إلى برذون واقف، قد بلع رأس اللجام، فقال: العجب كيف لا يزرعه القيء، أنا لو أدخلت أصبعي في حلقي لما بقي في جوفي شيء، قال: قلت الآن علمت أنك بصير بالبراذين.

يموت إن شاء الله

عن أبي حصين قال: عاد رجل عليلاً فعزاهم فيه، فقالوا له: إنه لم يموت، فقال: يموت إن شاء الله.

متى يحرم على الصائم الطعام؟

عن أبي بكر بن مروان قال: كان يجلس إلى أبي حنيفة رجل يطيل الصمت، فأعجب ذلك أبو حنيفة وأراد أن يبسطه، فقال له: يا فتى، ما لك لا تخوض فيما نخوض فيه؟ فقال الفتى: متى يحرم على الصائم الطعام؟ فقال أبو حنيفة: أنت رجل أعرف بنفسك.

متى يفطر الصائم؟

عن طاهر الزهري قال: كان رجل يجلس إلى أبي يوسف فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف: ألا تتكلم؟ قال: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غابت الشمس، قال: فإن لم تغب إلى نصف الليل؟ فضحك أبو يوسف وقال: أصبت في صمتك وأخطأت أنا في استدعائي لنطقك، ثم قال:

عجبت لازراء العيي بنفسه وصممت الذي كان بالصمت أعلما
وفي الصمت ستر للعيي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

أنا أفطر عن أمي

عن المرزبان قال: قال أبو عثمان البصري: كان إخوة ثلاثة، أبو قطفية والطبلي وأبو كلير، وهم ولد غياث بن أسيد، فأما أحدهم فكان يحج عن حمزة بن عبد المطلب ويقول: استشهد قبل أن يحج، والآخر يضحى عن أبي بكر وعمر ويقول: غلطا في ترك الأضحية، والآخر يفطر عن عائشة أيام التشريق، ويقول: غلطت في صوم أيام العيد، فمن صام عن أبيه فأنا أفطر عن أمي عائشة.

عالم بالأنساب

وعن ثمامة بن أشرس قال: شهدت رجلاً وقد قدم خصماً له إلى بعض الولاة فقال: أصلحك الله، أنا رافضي ناصبي، وخصمي جهمي مشبه مجسم قدرني، يشتم الحجاج بن الزبير الذي هدم الكعبة على علي بن أبي سفيان ويلعن معاوية بن أبي طالب؛ فقال له الوالي: ما أدري مم أتعجب، من علمك بالأنساب أم من معرفتك بالألقاب، قال: أصلحك الله، ما خرجت من الكتاب حتى تعلمت هذا كله.

أسوأ الناس حالاً

عن محمد بن المبرد، عن الحسن بن رجاء، أن الرشيد لما غضب على ثمامة دفعه إلى سلام الأبرش، وأمره أن يضيق عليه، وأن يدخله بيتاً ويطين عليه ويترك فيه ثقباً، ففعل دون ذلك، وكان يدس إليه الطعام، فجلس سلام عشية وهو يقرأ في المصحف، فقراً: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المُرْسَلَات: الآية ١٥] فقال ثمامة: إنما هو (المكذبين)، وجعل يشرح ويقول، المكذبون هم الرسل، والمكذبين هم الكفار، فقال: قد قيل لي إنك زنديق ولم أقبل، ثم ضيق عليه أشد الضيق، قال: ثم رضي الرشيد عن ثمامة فجالسه، فقال: أخبروني عن أسوأ الناس حالاً، فقال كل واحد شيئاً، قال ثمامة وبلغ القول إلي، فقلت: يا أمير المؤمنين، عاقل يجري عليه حكم جاهل فتبينت الغضب في وجهه فقلت: يا أمير المؤمنين ما أحسبني وقعت بحيث أردت، قال: لا والله، فانشرح، فحدثته بحديث سلام، فضحك حتى استلقى وقال: صدقت، والله لقد كنت أسوأ الناس حالاً.

قياس لا يصح

وعن ابن المرزبان، قال: أخبرني بعض الأدباء قال: قال رجل من العراق لرجل من الشام في كلام جرى بينهما: حلق الله لحيتك، قال: بمكة إن شاء الله. كذلك قال بعض الأدباء، قال: سئل خطيب أي أفضل معاوية أم عيسى ابن مريم؟ فقال: لا إله إلا الله أتقيس كاتب الوحي بنبيّ النصارى...

إقرار

وعن ابن المرزبان، قال: دعا رجل من الأشراف بمكة فقال: اللهم إن كنت ما تعرفني فأنا فلان ابن فلان، وأني مررت بعبدك فلان وهو يقول شيئاً فيه فحش، فرفته فانبطح يفحص برجليه ميتاً، اللهم قد أقررت لك الآن فاغفر لي كما تريد.

ليس ههنا موضع إن شاء الله

خرج رجل إلى السوق يشتري حمازاً، فلقيه صديق له فسأله، فقال: إلى السوق لأشتري حمازاً، فقال: قل إن شاء الله، فقال: ليس ههنا موضع إن شاء الله، الدراهم في كمي، والحمار في السوق، فبينما هو يطلب الحمار سرت منه الدراهم فرجع خائباً، فلقيه صديقه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: سرت الدراهم إن شاء الله، فقال له صديقه: ليس ههنا موضع إن شاء الله.

من تمد

عن الهذيل، أنه قال: كان عندنا بالمدينة لحام، فجاءته عجوز فقالت: أعطني بدرهم لحمًا وطيبه لي وأخبرني باسمك حتى أدعو لك، فأعطاها شر لحم وقال: اسمي (من تمد)، فلما أفطرت العجوز جعلت تمد اللحم فلا تقدر عليه، فجعلت تقول لعن الله (من تمد) فتلعن نفسها. وحكى أن قصابًا كان ينادي على اللحم، سري تعالوا على أربعة.

ذكاء مفرط

عن محمد الداري قال: كان عندنا رجل بدارًا وكان فيه غفلة، فخرج من دارًا ومعه عشرة أحمر، فركب واحدًا وعدّها، فإذا هي تسعة، فنزل وعدّها فإذا هي عشرة، فلا زال كذلك مرارًا، فقال: أنا أمشي وأربح حمارًا خير من أن أركب ويذهب مني حمار، فرأيته يمشي حتى كاد يتلف إلى أن بلغ قريته.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تقتل الحمير

عن أبي سعيد الحربي قال: كان إبراهيم بن الخصيب أحمق وكان له حمار، وكان بالعشي إذا علق الناس المخالي أخذ مخللة حماره فقرأ عليها: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية ١] وعلقها عليه فارغة وقال: لعن الله من يرى أن مكوك شعير خير من ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فما زال حتى نفق الحمار، فقال: والله ما ظننت أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تقتل الحمير، هي والله للناس أقتل لا قرأتها ما عشت.

فتوى

عن أبي إسحاق الجوني قال: كان لنا جار نحاس يقال له عباس، قد أتى عليه خمس وثمانون سنة؛ قال: فسألته امرأة عن مسألة فقالت له: زوجي طلقني ثلاثًا، فقال: أرضي أبوك وأمك؟ قالت: لا، قال: فإذا يجوز العود حتى يرضى أبوك وأمك، قالت: قد سألت أبا إسحاق فقال لي: قد طلقته، فقال: وما يدري أبا إسحاق، أنا أبصر منه وأعلم منه وأكبر منه، أنا ألقيت على أبا إسحاق مسألة فلم يخرج منها.

سمكة لذيدة

عن المروزي قال: اشترى أبو عبد الحميد سمكة فنام إلى أن تستوي فجيء بالسمكة فأكلتها امرأته مع نساء، ثم مسحت شفتيه وأطراف أصابعه منها، فانتبه فدعا بالغداء وقال: هاتوا السمكة، فقالت له امرأته: يا مخبل أَلَسْتَ قد أكلتها ونمت ولم تغسل يديك؟ فشم يده فوجد ريح السمك فغسل يده وقال: ما رأيت سمكة أمراً من هذه، قد جعت فهينوا لي الغداء.

ما شبعت

عن يحيى بن معين قال: اشترى غندر سمكاً فقال لأهله: أصلحوه، ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده به، فلما انتبه قال: قدّموا السمك، قالوا: قد أكلت، قال: صدقتم ولكنني ما شبعت.

نزلت في عهد عمر

دخل على حاتم العقبلي شيخ من أهل الري، فقال: أنت الذي تروي أن النبي ﷺ أمر بقراءة فاتحة الكتاب خلف الإمام؟ قال: قد صح الحديث عن النبي ﷺ في ذلك، فقال له: كذبت، إن فاتحة الكتاب لم تكن في عهد رسول الله ﷺ، إنما نزلت في عهد عمر بن الخطاب.

أعظم من المصيبتين

قال المدائني: سمع أسماء بن خارجة نادبة فقال:

فمن للمنابر والخافقات والجرد بعد إمام العرب
ومن للطعان وغداة الهياج ومن يمنع البيض عند الهرب
ومن للعفاة وفك العتاة و من يفرج الكرب عند الكرب

فقال أسماء: إنها لتندب رجلاً شريفاً فمن هو؟ فقيل له: إنه فلان البقال ابن وردان الحائك، فقال: هذه أعظم من المصيبتين.

كلبان

عن المدائني: لقي رجل رجلاً ومعه كلبان، فقال: هب لي أحدهما، فقال: أيهما تريد؟ فإن الأسود أحب إلي من الأبيض، قال: فهب لي الأبيض، قال: الأبيض أحب إلي من كليهما.

ثلث القرآن

عن عبد الرحمن بن داود قال: لقي تاجر تاجرًا فقال له: ما اسمك ولا تطول، فقال: (أبو عبد منزل القطر عليكم من السماء تنزيلاً الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) فقال: مرحباً بك يا ثلث القرآن.

أتعلم السفر

وقال: أخبرني بعض أصحابنا، قال: أراد ناجية الخروج إلى بغداد، فوضع سلماً وجعل يصعد وينزل، فقيل له: ما تصنع؟ قال: أتعلم السفر.

قال: ودخل الماء إلى كعبه فصاح الغرق، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن آخذ بالوثيقة. وعنه، دخل على أبي يعقوب وهو يجود بنفسه، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فقال:

أمثلي يروع بالنائباً ت ويخشى حوادث صرف الزمن
أذلني الله ذل الحمم ار وأدخلني حرّ أمي إذن

ارفق به

قال: وأخبرني بعض أهل الأدب قال: أراد رجل أن يختن ابنه فقال للحجام: ارفق به، فإنه ما اختن قط.

أنسى كل يوم

قال الحاكم: سمعت أبا الحسن بن عمر يقول: بعث داراً لي، فكنت كلما أذنت بباب المسجد أنسى أنني بعثتها فأصلي وأرجع إليها وأفتح الباب وأدخل، فيصحن بي النساء يا رجل اتق الله فينا، فأقول: اعذرني، فإنني ولدت في هذه الدار، وأنسى كل يوم، إلى أن أتى على ذلك مدة.

نصيحة

عن أبي الحسن الدامغاني - حاجب معز الدولة - قال: كنت في دهليز معز الدولة، فصاح صائح، نصيحة، فاستدعيته وقلت: ما نصيحتك! قال: لا أذكرها إلا للأمير، فدخلت فعرفته، فقال: هاته، فأحضرته بين يديه فقال: ما عندك! قال: أنا رجل صياد بناحية المدائن، وكنت أصيد فعلقت شبكتي بأسفل جرف، فاجتهدت في تخليصها فتعذر ذلك عليّ حتى نزلت وغصت في الماء، فإذا هي

معلّقة بعروة حديد، فحفرت فإذا قمقم مملوء مالا فرددته مكانه وناديت لأعرف الأمير، قال الدمغاني: فأنحدرت معه في الوقت إلى المدائن العتيقة وقصدنا الجرف فوجدنا القمقم وقلعناه، وسعيت بنفسي في تتبع الموضع فتقدمت إلى الصياد استقصاء الحفر، فوجدنا سبعة قماقم آخر مملوءة مالا، فحملنا الجميع إلى معز الدولة فسّر به فأمر للصيد بعشرة آلاف درهم فامتنع من قبولها وقال: الذي أريده غيرها، قال: ما هو! قال: تجعل لي صيد تلك الناحية وتمنع كل أحد غيري من الصيد، فضحك الأمير وعجب من جهله وحمقه: وأمر له بما سأل.

نهرب من شهر رمضان

عن المدائني عن عمرو بن الحسن قال: خرج أهل بيت من اليمن من منازلهم حتى صاروا إلى شعب من الجبل، فاختفوا فيه وقالوا: نهرب من شهر رمضان لا يدخل علينا.

تفصيل

قال أبو علي الداراني: كان الطالقاني من أصحاب أبي حنيفة، وكان شديد الغفلة، فقال يوماً لابن عقيل: كيف مذهبكم في المرة هل يجوز أن يزوجه ابنها! قال له ابن عقيل: في ذلك تفصيل، إن كانت بكرًا جاز، وإن كانت ثيبًا لا يجوز، فقال: ما سمعت هذا التفصيل قط.

فوس طائر

كان بواسط رجل من المعدلين، إلى جانب داره إصطبل، فقال له أهله: إنا نغسل الثياب في السطح فيطير بعضها إلى الإصطبل فلا يردونه علينا، فقال: وأنتم إذا طار لهم شيء فلا تردوه، قالوا: أي شيء يطير من أرض الإصطبل إلى سطحنا! قال: أي شيء طار مثل لجام ومقود وفرس وغيره.

دجاجة تعرف الطريق

قيل: إن رجلاً من (السندية) وهي على ستة فراسخ من بغداد، جاز بدجاج ليبيعه قريبًا من دجلة ببغداد، فأفلتت دجاجة، فطلبها فلم تقع بيده، فقال لها: اذهبي إلى القرية حتى أبيع الباقي، ثم جاء وباع البواقي ورجع إلى القرية وجعل

يتفقد الدجاجة فلم يرها، فقال لزوجته: أين الدجاجة الرقطاء! فقالت: لا أدري، فقال: تركتها من بغداد لترجع إليكم فما جاءت.

يصح الوقف

عن إبراهيم بن دينار قال: كان رجل يقول إنه فقيه يكتئب أبا الغوث وفيه تغفيل، فقلت له: ما تقول فيمن نذر صوم عاشوراء فاتفق عاشوراء في رمضان هل يجزئه عنها! قال الخرقى: فقد نصّ على أنه يجزئه، فقلت: ما تقول فيمن طلق امرأته، ثم وقفها، هل يفترق في هذا الوقف إلى حكم حاكم، قال: أما مذهب أبي حنيفة فيفتقر إلى حكم حاكم، وأما مذهبنا مذهب الشافعي فيصح الوقف.

حيلة

عن الصقلاطي: أن رجلاً كان عندهم بالجانب الغربي له غلام، فبعثه إلى قرية ليأتيه منها بغنم، فبعثوا معه من الحملان عشرة، وكتبوا معه بعددها رقعة، فجاء الغلام بتسعة، فقال له سيده: كم سلموا إليك! قال: عشرة، قال: هذه تسعة، قال: عدها، فجعل يعدها، يقول واحد، اثنين، ثلاثة إلى أن قال تسعة، فقال الغلام: والله ما أدري ما تقول، وما هي إلا عشرة، فقال: ويحك إنني أعدّها، قال: ما هي إلا عشرة وإلا فتدخل إلى الدار عشرة من الرجال وتمسك كل واحد حملاً، قال: افعل؛ فأدخلوا عشرة ومسك كل رجل حملاً وبقي واحد، فقال له السيد: هذا ما معه شيء، فقال: هذا مدير، كان يدخل ويأخذ في الأول.

مَن طلق مَن؟

عن أبي الفضل أحمد الهمذاني قال: جاءت امرأة إلى القاضي وذكرت أن زوجها طلقها، فقال القاضي: لك بينة! فقالت: نعم جار لنا، قال: فأحضرتة، فقال القاضي: أسمعت طلاق هذه المرأة! فقال: يا سيدي خرجت إلى السوق فاشتريت لحماً وخبزاً ودبساً وزعفراناً، فقال له القاضي: ما سألتك عن هذا، هل سمعت طلاق هذه المرأة! قال: ثم تركته في البيت وعدت فاشتريت حطباً وخلاً، فقال: دع هذا عنك، فقال: ما أحسن الحديث من أوله، ثم قال: جلت في الدار جولة فسمعت زعقاتهم وسمعت الطلاق الثلاث، فما أدري أي طلقته أم هو طلقها.

تـذـيـر

عن علي بن المحسن عن أبيه قال: بلغنا أن رجلاً أسرع في ماله فبقي منه خمسة آلاف دينار، فقال: أشتهي أن يفنى بسرعة حتى أنظر أيش أعمل بعده، فقال له بعض أصحابه: تبتاع زجاجاً بمائة دينار وتبقيه، وتنفق خمسمائة دينار في أجور المغنيات في يوم واحد مع الفاكهة والطعام، فإذا قارب الشراب أن يفنى أطلقت فأرتين بين الزجاج وأطلقت خلفهما سنوراً فيتعادون في الزجاج فيتكسر ونهب نحن الباقي، فقال: هذا جيد فعمل ذلك وجعل يشرب فحين سكر أطلق الفأرتين والسنور وتكسر الزجاج وهو يضحك فقام الرفقاء وجمعوا الزجاج المكسر وباعوه، قال الذي أشار عليه: فمضيت إليه بعد فإذا هو قد باع قماش بيته وأنفقه، ونقض داره وباع سقوفها حتى لم يبق إلا الدهليز وهو نائم فيه على قطن متغط بقطن، فقلت: ما هذا! قال: ما تراه، فقلت: بقيت في نفسك حسرة! قال: نعم، أريد أرى المغنية، فأعطيته ثياباً فلبسها، فرحنا إليها فدخل عليها فأكرمه وسألته عن خبره فحدثها بالحال، فقالت: قم لثلاث تجيء ستي فتراك وليس معك شيء فتحرد علي لم أدخلتك، فأخرج حتى أكلمك من فوق، فخرج وجلس ينتظر أن تخاطبه من الطاقة، فسكبت عليه مرقة سكباج فصيرته فضيحة، فبكى وقال: يا فلان لا تبلغ من أمري هذا، أشهد الله وأشهد أني تائب، قلت: أيش ينفعك التوبة الآن، ورددته وأخذت ثيابي، وبقيت ثلاث سنين لا أعرف له خبراً، فبينما أنا في باب الطاق يوماً إذ رأيت غلاماً خلف راكب، فلما رأيته قال فلان: فعلمت أنه صاحبي وأن حاله قد صلحت، فقبلت فخذه، فقال: قد صنع الله وله الحمد البيت، فتبعته فإذا بالدار الأولى قد رمها وجعل فيها أسباباً، وأدخلني حجرة أعدها له وفيها فرش حسان وأربعة غلمان، وجاء بفاكهة متوسطة وطعام نظيف، إلا أنه قليل، فأكلنا ومد ستارة فإذا بغناء طيب فلما طابت نفسه قال: يا فلان تذكر أيامنا الأول! قلت: نعم، قال أنا الآن في نعمة متوسطة، وما وهب لي من العقل والعلم بأبناء الزمان أحب إلي من تلك النعمة، تذكر يوم عاملتني المغنية بما عاملتني به؟ فقلت: من أين لك هذا المال! قال: مات خادم لأبي وابن عم لي بمصر في يوم واحد، فخلقا لي ثلاثين ألف دينار فحملت ووصلت إلي وأنا بين القطن كما رأيت فعمرت الدار واشترت ما فيها بخمسة آلاف دينار، وجعلت خمسة آلاف تحت الأرض للحوادث، واشترت عقاراً بعشرة آلاف وأمري يمشي، وأنا في طلبك منذ سنة

لترى رجوع حالي، ومن دوام صلاح حالي أن لا أعاشرك، أخرجوه يا غلمان، قال: فجروا برجلي وأخرجوني، وكنت ألقاه بعد في الطريق فإذا رأني ضحك.

البصرة في دارك

دخل ربيعة بن عقيل اليربوعي على معاوية قال: يا أمير المؤمنين أعني على بناء داري، فقال: أين دارك؟ قال: بالبصرة وهي أكثر من فرسخين في فرسخين، فقال له: فدارك في البصرة أم البصرة في دارك!

لا تقطعوا اللطم

ضاع لرجل ولد، فجاؤوا بالنوائح ولطموا عليه، وبقوا على ذلك أيامًا، فصعد أبوه يومًا الغرفة فرآه جالسًا في زاوية من زواياها، فقال: يا بني أنت بالحياة، أما ترى ما نحن فيه! قال: قد علمت، ولكن ههنا بيض قد قعدت مثل القرقة عليه، ما يمكنني أن أبرح، أريد فريخات، أنا أحبهم، فاطلع أبوه إلى أهله فقال: قد وجدت ابني حيًا ولكن لا تقطعوا اللطم عليه، ألطموا كما كنتم.

عادة سيئة

قال بعضهم: دخلت الكوفة فرأيت صبيًا قائمًا عند شق حائط ومعه خبز وهو يكسر اللقمة ويتركها في شق الحائط ويأكلها، فبينما أنا أنظر إليه إذ أقبل أبوه فرأى ما يفعل فقال: إيش تصنع! قال: يا أبت هؤلاء قد طبخوا سكباجة ويأتي النسيم بريحتها فأكل خبزي، فلطمه أبوه وقال: تتعود من صغرك أن لا تأكل خبزًا إلا بأدام.

أمصه وأرمي تفله

مرض بعض المغفلين فدخل عليه طبيب فسأله عن حاله، فقال: قد اشتهيت الثلج، فقال: الثلج يزيد في رطوبتك فينقص من قوتك، فقال: أنا أمصه وأرمي تفله.

حب مُفْرِط

حكى عبد الله النوفلي قال: قال مدني إني أحب رسول الله ﷺ حبًا لم يحبه أحد قط، قيل: وما بلغ من حبك له؟ قال: وددت أن عمه أبا طالب أسلم ويسر النبي بذلك وأموت كافرًا بدله.

نية حسنة

قال: ذهب بصر عمرو بن هذاب فدخل عليه إبراهيم بن مجاشع فقام بين يديه فقال: يا أبا أسيد لا تجزعن من ذهاب عينيك وإن كانتا كريمتان عليك، فإنك لو رأيت ثوابهما في ميزانك تمنيت أن يكون الله قد قطع يديك ورجليك ودق ظهرك وأدمى ظلفك، قال: فصاح به القوم وضحك بعضهم، فقال عمرو: معناه صحيح ونيته حسنة وإن كان قد أخطأ في اللفظ.

ما سمعت منهما شيئاً

وقال: ضرب أبو النجم في ليلة ضرطتين، فخاف أن تكون امرأته قد سمعته، فقال: أسمعيت شيئاً؟ قالت: لا ما سمعت منهما شيئاً، فقال: لعنك الله فمن أعلمك أنهما اثنتان؟

علم

قال بعضهم: رأيت رجلاً محمومًا مصدعًا يأكل التمر ويجمع النوى، فقلت: ويحك، أنت بهذه الحال وتأكل التمر؟ فقال: يا مولاي عندي شاة ترضع وما لها نوى فأنا أكل هذا التمر مع كراهيتي له لأطعمها النوى، فقلت: أطعمها التمر والنوى، قال: أو يجوز ذلك! قلت: نعم، قال: والله لقد فرجت عني، لا إله إلا الله ما أحسن العلم.

اللجام لي

أجريت خيل فطلع منها فرس سابق فجعل رجل يشب من الفرح ويكبر، فقال له رجل إلى جانبه: أهذا الفرس لك؟ قال: لا ولكن اللجام لي.

تعزية

دخل بعض المغفلين على رجل يعزیه بأخ له فقال: أعظم الله أجرك ورحم أخاك وأعانه على ما يرد عليه من مسألة يأجوج ومأجوج، فضحك من حضر وقالوا له: ويحك ويأجوج ومأجوج يسائلان الناس؟ فقال: لعن الله إبليس، أردت أن أقول هاروت وماروت.

مزين

وعظ بعض القصاص فقال: إذا كان يوم القيامة خرج من النار رأس عظيم، من صفته كذا وكذا، وفي المجلس رجل يمين من الخوف فقال له: ما الذي بك

أتنكر قدرة الله؟ قال: لا بل إنني رجل مزين فلو كلفت حلق هذه الرأس كيف كنت أعمل.

قناعة

سمع بعض المغفلين أن صوم يوم عاشوراء يعدل صوم سنة، فصام إلى الظهر وأكل، وقال: يكفيني ستة أشهر.

خرى الأسد في سروالي

اعترض الأسد قافلة فرآه رجل منهم فخرّ إلى الأرض فركبه الأسد، فشذّ القوم بأجمعهم على الأسد واستنقذوه، فقالوا له: ما حالك؟ قال: لا بأس عليّ ولكن خرى الأسد في سروالي.

متاع قائم ومتاع مسترخ

قال المأمون لمحمد بن العباس: ما حال غلتنا بالأهواز وسعرها؟ قال: أما متاع أمير المؤمنين فقائم على سوقه، وأما متاع أم جعفر فمسترخ، فقال أغرب: لعنك الله.

أبو رافع لا يكذب في نومه ولا يقظة^(١)

حكى أن امرأة أبي رافع^(٢) رآته في نومها بعد موته، فقال لها: أتعرفين فلاناً الصيرفي^(٣)؟ قالت له: نعم، قال: فإن لي عليه مائتي دينار.

فلما انتبهت عدت إلى الصيرفي فأخبرته، وسألته عن المائتي الدينار! فقال: رحم الله أبا رافع، والله ما جرث بيني وبينه معاملة قط!

فأقبلت إلى مسجد المدينة فوجدت مشايخ من آل أبي رافع، كلهم مقبول القول، جائز الشهادة، فقصّت عليهم الرؤيا، وأخبرتهم خبرها مع الصيرفي، وإنكاره لما ادّعه أبو رافع.

(١) العقد الفريد: ٤ - ٢٠٤.

(٢) أبو رافع: مولى رسول الله ﷺ. وآل أبي رافع من فضلاء أهل المدينة وخيارهم، مع بله فيهم وعي شديد.

(٣) الصيرفي: صراف الدراهم.

قالوا: ما كان أبو رافع ليكذب في نوم ولا يقظة! قَرَّبِي صَاحِبِكَ إِلَى السُّلْطَانِ، وَنَحْنُ نَشْهَدُ لَكَ عَلَيْهِ.

فلما علم الصيرفي عَزَمَ القوم على الشهادة لها! وعلم أنهم إن شهدوا عليه لم يبرح حتى يؤديها، قال لهم: إن رأيتم أن تُصْلِحُوا بَيْنِي وَبَيْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ عَلَى مَا تَرَوْنَ فَافْعَلُوا، قالوا: نعم، وَالصَّلْحُ خَيْرٌ، وَنَعَمْ الصَّلْحُ الشَّطْرُ، فَأَذِّبْهَا مِائَةَ دِينَارٍ مِنَ الْمِائَتِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: أَفْعَلْ، وَلَكِنْ أَكْتُبُوا بَيْنِي وَبَيْنَهَا كِتَابًا يَكُونُ وَثِيقَةً لِي، قالوا: وكيف تكون هذه الوثيقة؟ قال: تكتبون لي عليها أنها قَبَضْتُ مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ صَلْحًا عَنْ مِائَتِي الدِّينَارِ الَّتِي أَدَعَاها أَبُو رَافِعٍ فِي نَوْمِهَا، وَأَنَّهَا قَدْ أُبْرَأْتَنِي مِنْهَا، وَشَرَطْتُ عَلَى نَفْسِهَا أَلَّا تَرَى أَبَا رَافِعٍ فِي نَوْمِهَا مَرَّةً أُخْرَى، فَيَدْعِي عَلَيَّ بِغَيْرِ هَذِهِ الْمِائَتِي الدِّينَارِ؛ فَتَجِيءُ بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ يَشْهَدَانِ عَلَيَّ لَهَا. فَلَمَّا سَمِعُوا الْوِثِيقَةَ انْتَبَهَ الْقَوْمُ لَأَنْفُسِهِمْ، وَقَالُوا: قَبِّحْكَ اللَّهُ، وَقَبِّحْ مَا جِئْتَ بِهِ!

أَهْلِكَ أَغْلَمَ بِكَ! (١)

كان لأبي الأسود (٢) الدُّوْلِيُّ دُكَّانٌ (٣) إِلَى صَدْرِ الْجَبَلِ يَجْلِسُ فِيهِ وَحْدَهُ، وَيَضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَائِدَةً، وَيَدْعُو إِلَيْهَا كُلَّ مَنْ يَمُرُّ بِهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْلِسَ، فَيَنْصَرِفُونَ عَنْهُ.

فَمَرَّ بِهِ صَبِيٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الْأَسْوَدِ: هَلُمَّ إِلَى الْغَدَاءِ يَا فَتَى! فَاتَى إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزِرْ مَوْضِعًا يَجْلِسُ فِيهِ، فَتَنَاولَ الْمَائِدَةَ فَوَضَعَهَا فِي الْأَرْضِ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا الْأَسْوَدِ، إِنْ كَانَ لَكَ فِي الْغَدَاءِ حَاجَةٌ فَانْزِلْ، وَأَقْبِلْ الْفَتَى يَأْكُلْ، حَتَّى أَتَى عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْمَائِدَةِ، وَسَقَطَتْ آخِرُ الطَّعَامِ مِنْ يَدِهِ لِقَمَّةً عَلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَهَا، وَقَالَ: لَا أَدْعُهَا لِلشَّيَاطِينِ! فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ: وَاللَّهِ مَا تَدْعُهَا لِلْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فَكَيْفَ تَدْعُهَا لِلشَّيَاطِينِ؟ ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: لُقْمَانُ. فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ: أَهْلِكَ كَانُوا أَعْلَمَ زَمَانِهِمْ إِذْ سَمَّوكَ بِهَذَا الْاسْمِ؛ وَلَمْ يَعُدْ إِلَى مَا كَانَ يَصْنَعُ!

(١) ذيل زهر الآداب: ١٦٧.

(٢) هو: ظالم بن عمرو، وأبو الأسود كنيته، وكان قد أدرك حياة النبي، وسافر إلى البصرة على عهد عمر، واستعمله علي بن أبي طالب على البصرة وكان شيعيًا، وهو أول من وضع العربية، توفي سنة ٦٩ هـ.

(٣) الدكان: الدكة المبنية للجلوس عليها.

المقَادِيرُ تصِيرُ العَيَّ حَظِيْبًا^(١)

وُصِفَ عِنْدَ الحِجَاجِ^(٢) رَجُلٌ بِالْجَهْلِ؛ وَكَانَتْ لَهُ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: لَأُخْتَبِرْتُهُ! ثُمَّ قَالَ لَهُ حِينَ دَخَلَ عَلَيْهِ: أَعْصَامِي أَنْتَ أَمْ عِظَامِي^(٣)؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا عِصَامِي وَعِظَامِي، فَقَالَ الحِجَاجُ: هَذَا أَفْضَلُ النَّاسِ، وَقَضَى حَاجَتَهُ وَزَادَهُ، وَمَكَثَ عِنْدَهُ مُدَّةً.

ثُمَّ بَاحَتْهُ فَوْجِدُهُ أَجْهَلَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهُ: تَصَدَّقْنِي وَإِلَّا قَتَلْتُكَ، قَالَ لَهُ: قُلْ مَا بَدَأَ لَكَ وَأَصْدَقَكَ! قَالَ: كَيْفَ أَجَبْتَنِي بِمَا أَجَبْتَ لَمَّا سَأَلْتُكَ عَمَّا سَأَلْتُ؟ قَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَمْ أَعْلَمْ: أَعْصَامِي خَيْرٌ أَمْ عِظَامِي! فَخَشِيتُ أَنْ أَقُولَ أَحَدَهُمَا فَأُخْطِئَ، فَقُلْتُ: أَقُولُ كِلَيْهِمَا، فَإِنْ ضَرَّنِي أَحَدُهُمَا نَفَعَنِي الْآخَرُ؛ فَقَالَ لَهُ الحِجَاجُ عِنْدَ ذَلِكَ: المِقَادِيرُ تصِيرُ العَيَّ حَظِيْبًا!

لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^(٤)

أَخَذَ الحِجَاجُ لِيصًا أَعْرَابِيًّا؛ فَضْرِبَهُ سَبْعِمِائَةَ سَوْتٍ، فَكَلِمًا قَرَعَهُ بِسَوْتٍ قَالَ: اللَّهُمَّ شُكْرًا! فَأَتَاهُ ابْنُ عَمِّ لَهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا دَعَا الحِجَاجُ إِلَى التَّمَادِي فِي ضَرْبِكَ إِلَّا كَثْرَةً شُكْرِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: آيَةُ ٧]؛ فَقَالَ: أَهَذَا هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَأَنْشَأَ الأَعْرَابِيُّ يَقُولُ:

يَا رَبِّ لَا شُكْرَ فَلَ تَزِدْنِي أَسْرَفْتُ فِي شُكْرِكَ فَاعْفُ عَنِي
بَاعِدْ ثَوَابَ الشَّاكِرِينَ مِنِّي
فَبَلِّغْ قَوْلَهُ الحِجَاجَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ.

يَوْمَ الحِسَابِ^(٥)

قَالَ أَحَدُ الرِّوَاةِ: كَانَ فِي زَمَنِ المَهْدِيِّ^(٦) رَجُلٌ صُوفِيٌّ؛ يَرْكَبُ قَصْبَةً فِي كُلِّ

(١) مجمع الأمثال: ٢ - ٢٦٠.

(٢) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي: قائد خطيب، ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام، وهو مشهور بشدته، توفي سنة ٩٥ هـ.

(٣) يريد: أشرفت بنفسك أم تفتخر بأبائك الذين صاروا عظامًا.

(٤) عيون الأخبار: ٢ - ٥٧. (٥) العقد الفريد: ٤ - ١٩٨.

(٦) محمد بن عبد الله من خلفاء الدولة العباسية في العراق، ولي بعد وفاة أبيه وقام في الخلافة عشر سنين ومات سنة ١٦٩ هـ.

قصص العرب / الجزء الثاني

جمعة يومين: الاثنين والخميس، فإذا ركب في هذين اليومين لمعلم على صبيانه حُكْم ولا طاعة، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان.

شاهدته يوماً وقد صعد تلاً؛ فنادى بأعلى صوته: ما فعل النبيون والمرسلون؟ أليسوا في أعلى عليين؟ فقالوا: بلى! قال: هاتوا أبا بكر الصديق؛ فأخذ غلام فأجلس بين يديه، فقال: جزاك الله خيراً أبا بكرٍ عن الرعيّة، فقد عدلتُ وقُمتُ بالقِسْط، وخلفت محمداً - عليه السلام - في حُسن الخلافة، ووصلت حبلُ الدّين بعد حَلِّ وتنازع، وفرغت منه إلى أوثق عروة وأحسن ثقة، اذهبوا به إلى أعلى عليين!

ثم نادى: هاتوا عُمَر، فأجلس بين يديه غلام، فقال: جزاك الله خيراً يا أبا حفص عن الإسلام، قد فتحت الفتوح، ووسّعت الفَيء، وسَلَكْتَ سبيل الصالحين، وعدلت في الرعيّة، اذهبوا به إلى أعلى عليين بحذاء أبي بكر.

ثم قال: هاتوا عثمان؛ فأتي بغلام فأجلس بين يديه، فقال له: خَلَطْتَ فِي تِلْكَ السَّنِينَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠٢]. ثم قال: اذهبوا به إلى صاحبيه في أعلى عليين.

ثم نادى: هاتوا عليّ بن أبي طالب، فأجلس بين يديه غلام؛ فقال له: جزاك الله عن الأمة خيراً أبا الحسن فأنت الوصي، ووليّ النبي، بسَطْتَ العَدْل، وزهدت في الدنيا، واعتزلت الفَيء، فلم تَخْمِش فيه بناب ولا ظفر، وأنت أبو الذُرِّيَّة المباركة، وزوج الزكية الطاهرة، اذهبوا به إلى أعلى عليين.

ثم قال: هاتوا معاوية، فأجلس بين يديه غلام؛ فقال له: أنت القاتل عمار بن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، وأنت الذي جعل الخلافة مُلْكًا، واستأثرع بالفَيء، وحكم بالهوى، وبَطَرَ بالنعمة، وأنت أولُ مَنْ غَيَّرَ سَنَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ونَقَضَ أحكامه، وقام بالبغي؛ اذهبوا به فأوقفوه مع الظلمة.

ثم قال: هاتوا يزيد؛ فأجلس بين يديه غلام؛ فقال له: أنت الذي قتلت أهل الحرّة^(١)، وأبخت المدينة ثلاثة أيام، وانتهكت حرم رسول الله ﷺ،

(١) موضع بظاهر المدينة بها كانت وقعت الهرة أيام يزيد.

وَأَوَيْتَ الْمُلْحِدِينَ، وَبُؤْتِ بِاللَعْنَةِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وتمثلت بشعرِ الجاهلية:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ شَهْدُوا جَزَعِ الْخَزْرَجِ^(١) مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ^(٢)
وَقَتَلَتْ حُسَيْنًا، وحملت بناتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ سبايا على حَقَائِبِ^(٣) الإِبِلِ،
اذهبوا به إلى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ!

ولم يزل يذكر واليًا بعد والٍ حتى بلغ إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: هاتوا عمر، فَأَتَيْتِ بَغْلَامَ، فأجلس بين يديه، فقال: جزاك الله خيرًا عن الإسلام؛ فقد أحييت العَدْلَ بعد موته، وَأَلَنْتِ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ؛ وقام بك عمودُ الدِّينِ على ساق بعد شقاقٍ ونِفَاقٍ، اذهبوا به فَأَلْحِقُوهُ بِالصَّدِيقِينَ، ثم ذكر مَنْ كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بني العباس، فسكت، فقليل له: هذا أبو العباس أمير المؤمنين، قال: فبلغ أمرنا إلى بني العباس! ارفعوا حساب هؤلاء جملة، واقذفوا بهم في النار جميعًا!

إِنْ أَعْطَوْا مِنْهَا رَضُوا^(٤)

ركب محمد بن سليمان^(٥) يومًا بالبصرة وسوار القاضي يُسَايِرُهُ فِي جِنَازَةِ ابْنِ عَمِّ لَه، فاعترضه مجنونٌ يُعْرِفُ بِرَأْسِ النَّعْجَةِ، فقال له: يا محمد؛ أَمِنَ الْعَدْلُ أَنْ تَكُونَ نَجِلْتِكَ^(٦) فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَأَنَا أَطْلُبُ نِصْفَ دِرْهَمٍ فَلَا أَفْدُرُ عَلَيْهِ؟

ثم التفت إلى سوار فقال: إِنْ كَانَ هَذَا عَدْلًا فَأَنَا أَكْفُرُ بِهِ؟ فَاسْرِعْ إِلَيْهِ غُلْمَانُ مُحَمَّدٍ؛ فَكَفَّهُمْ عَنْهُ، وَأَمْرٌ لَهُ بِمِائَةِ دِرْهَمٍ!

(١) الخزرج: إحدى قبيلتي الأنصار.

(٢) الأسل: الرماح.

(٣) الحقيبة: الرفادة في مؤخر القتب، وكل ما شد في مؤخر رجل أو قتب فقد احتقب.

(٤) المسعودي: ٢ - ٢٦٣.

(٥) محمد بن سليمان بن علي العباسي: أمير البصرة وليها في أيام المهدي، واستمر إلى أن توفي فيها، وكان غنيًا نبيلًا سمت نفسه إلى الخلافة؛ وصدده عن الجهر بطلها ما كانت عليه من القوة أيام المهدي والرشيد، توفي سنة ١٧٣ هـ.

(٦) النحلة: العطية.

فلما انصرف محمد وسوار معه اعترضه رأس النعجة فقال: لقد كرم الله منصبك^(١)، وشرف أبوتك، وحسن وجهك، وعظم قدرك، وأرجو أن يكون ذلك لخير يريده الله بك!

فدنا منه سوار فقال: يا خبيث؛ ما كان هذا قولك في البداءة! فقال له: سألتك بحق الله وبحق الأمير إلا ما أخبرتني في أي سورة هذه الآية: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ [التوبة: الآية ٥٨]؟ قال: في «براءة» قال: صدقت؛ فبرىء الله ورسوله منك! فضحك محمد بن سليمان حتى كاد يسقط عن دابته!

ما اختار غير عبد الله بن طاهر^(٢)

شكا اليزيدي^(٣) إلى المأمون خلة^(٤) أصابته ودينًا لحقه، فقال: ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت به ما تريد؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن الأمر قد ضاق عليّ، وإن غرمائي قد أزهقوني، قال: فرم لنفسك أمرًا تنل به نفعًا.

فقال: لك منادمون، فيهم ما إن حرّكته نلت منه ما أحب، فأطلق لي الحيلة فيهم، قال: قل ما بدا لك؛ قال: فإذا حضروا وحضرت فمُر فلانًا الخادم أن يوصل إليك رُفعتي، فإذا قرأتها فأزسل إليّ: دخولك في هذا الوقت متعذر؛ ولكن اختر لنفسك من أحببت.

فلما علم اليزيدي بجلوس المأمون، واجتماع ندمائه إليه، وتيقن أنهم في سرورهم أتى الباب فدفع إلى ذلك الخادم رقعة قد كتبها، فأوصلها إلى المأمون فقرأها، فإذا فيها:

يا خير إخواني وأصحابي هذا الطُقَيْليّ لدى الباب
خُبِرَ أن القومَ في لَذَّةٍ يصبُّو إليها كلُّ أوابٍ
فصيروني واحدًا منكم أو أخرجوا لي بعض أترابي

(١) المنصب: الأصل.

(٢) اليزيدي: يحيى بن المبارك بن المغيرة من علماء العربية والأدب، اتصل بالرشيد فعهد إليه في

تأديب المأمون فعاش إلى أيام خلافته، توفي سنة ٢٠٢ هـ.

(٤) الخلة: الحاجة والفقير.

فقرأها المأمون على مَنْ حَضَرَهُ؛ فقالوا: ما ينبغي أن يدخل هذا الطفيلي على مثل هذه الحالة؛ فأرسل إليه المأمون: دخولك في هذا الوقت متعذر، فاختر لنفسك مَنْ أحببت تنادمه.

فقال: ما أرى اختيارًا غير عبد الله بن طاهر، فقال له المأمون: قد وقع اختياره عليك؛ فيسز إليه. قال: يا أمير المؤمنين؛ فما أكون شريك الطفيلي! قال: ما يمكن ردّ أبي محمد عن أمرين، فإن أحببت أن تخرج وإلا فافتد نفسك!

فقال: يا أمير المؤمنين؛ له عليّ عشرة إلاف درهم! قال: لا أحسب ذلك يُقْنِعُهُ منك ومن مُجالستك؛ قال: فلم يزل يزيد عشرة عشرة، والمأمون يقول له: لا أَرْضَى له بذلك، حتى بلغ مائة ألف، فقال له المأمون: فَعَجَّلْهَا له؛ فكتب له بها إلى وكيله، ووجه معه رسولاً، فأرسل إليه المأمون: قبضْ هذه في مثل هذه الحال أصلح لك من منادمته على مثل حاله، وأنفع عاقبة.

أترى الله يُعْطِيكَ وَيَنْسَانِي^(١)

خرج الرشيد إلى الحج فلما كان بظَاهِرِ الكوفة إذ أبصر بهلولاً^(٢) المجنون على قصبية، وخلفه الصُّبَيَّان وهو يَغْدُو، فقال: مَنْ هذا؟ فقيل له: بهلول المجنون، فقال: كنت أَشْتَهِي أن أراه، فاذعوه مِنْ غير تَرْوِيع فَذَهَبُوا إليه وقالوا: أَحْبَبَ أمير المؤمنين؛ فلم يجب، فذهب إليه الرشيد، وقال: السلام عليك يا بهلول، فقال: عليك السلام يا أمير المؤمنين، فقال: دَعْوَتُكَ لاشْتِياقي إليك، فقال بهلول: لكتني لم أَشْتَقْ إليك! فقال الرشيد: عَظَنِي يا بهلول، فقال: وِمْ أَعْظُكَ؟ هذي قصورهم وهذي قُبُورهم! فقال الرشيد: زدني فقد أحسنتُ فقال يا أمير المؤمنين: مَنْ رزقه الله مالاً وجمالاً، فعفت في جماله، وواسى في ماله كُتِبَ في ديوان الأبرار، فظن الرشيد أنه يريد شيئاً؛ فقال: قد أمرنا لك أن تَقْضِي دَيْنَكَ، فقال: لا، يا أمير المؤمنين، لا يُقْضَى الدَّيْنُ بَدِين، ازْدُدِ الحق على أهله، وأقض دين نفسك من نَفْسِكَ، قال: فإننا قد أمرنا أن يُجْرِي عليك. فقال: يا أمير المؤمنين؛ أترى الله يُعْطِيكَ وَيَنْسَانِي! ثم ولّى هارباً.

(١) عقلاء المجانين: ٦٩.

(٢) هو بهلول بن عمرو، كان من عقلاء المجانين، ولد ونشأ بالكوفة واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه، وله كلام مليح، ونوادر وأشعار، توفي سنة ١٩٠.

أبو ذَلْفٍ وَجَعِيفِرَانَ الْمَوْسَوِي (١)

قال علي بن يوسف: كنتُ عند أبي ذَلْفٍ (٢) القاسم بن عيسى العجلي، فاستأذَنَ عليه حاجِبُه لجَعِيفِرَانَ (٣) الموسوس، فقال له: أي شيء أصنع بموسوس؟ قد قضينا حقوقَ العقلاء، وبقي علينا حقوقُ المجانين! فقلت له: جُعِلْتُ فداء الأمير، موسوس أفضلُ من كثيرٍ من العقلاء، وإن له لسانًا يُتَقَى، وقولًا ماثورًا يَبْقَى. فالله الله أن تَحْجَبَهُ! فليس عليك منه أذى ولا ثقل؟ فأذِنَ له. فلما مَثَلَ بين يديه قال:

يا أكرمَ العَالَمِ مَوْجُودًا	ويا أعزَّ الناسِ مَفْقُودًا
لما سألتُ الناسَ عن واحدٍ	أصبحَ في الأُمَّةِ مَحْمُودًا
قالوا جميعًا: إنه قاسمٌ	أشَبَّهَ آباءَ له صِيْدًا (٤)
لو عَبَدُوا شيئًا سِوَى رَبِّهِمْ	أصبحتَ في الأُمَّةِ مَعْبُودًا
لا زلتَ في نَعْمَى وفي غِبْطَةٍ	مُكْرَمًا في الناسِ مَعْدُودًا

فأمر له بِكِسْوَةٍ وبألف درهم فلما جِيءَ بالدراهم أخذ منها عشرة وقال: تأمر القَهْرمان (٥) أن يُعْطِيَنِي الباقي مُفَرَّقًا كلما جئتُ؛ لثلاث تَضِيْعَ مني، فقال للقهرمان: أعطه المال، وكلما جاءك فأعْطِه ما شاء حتى يَفْرُقَ الموتَ بيننا، فبكى عند ذلك جَعِيفِرَانَ وتَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ وقال:

يَمُوتُ هذا الذي أَرَاهُ	وكل شيء له نَفَادُ
لو غيرُ ذي العرشِ دام شيءٌ	لدام ذَا المُفْضِلِ الجِوَادُ

ثم خرج. فقال أبو ذَلْفٍ: أنت كنتَ أعلم به مني.

(١) الأغاني: ٨ - ٦٤.

(٢) أبو ذلف: هو أحد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده، كان كريمًا سريًا جوادًا ممدحًا شجاعًا.

مقدمًا ذا وقائع مشهورة، وصنائع ماثورة. وله مشاركة في الغناء، توفي سنة ٢٢٦ هـ.

(٣) ولد جعيفران ببغداد ونشأ بها، ثم سكن سر من رأى، وكان أديبًا شاعرًا مطبوعًا، وغلبت عليه

المرارة السوداء فاختلط في أوقاته، ثم كان إذا أفاق تاب إليه عقله وطبعه فقال الشعر الجيد.

(٤) الأصيد: الملك، ورافع رأسه كبيرًا.

(٥) القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على ما تحت يده، وهو من أمناء الملك وخاصته.

قال: وَعَبَّرَ^(١) عني مدة ثم لقيني، وقال: يا أبا الحسن؛ ما فعل أميرنا وسيدنا؟ وكيف حاله؟ فقلت: بخير وعلى غاية الشوق إليك. فقال: أنا والله يا أخي أشوق. ولكنني أعرف أهل العسكر وشرفهم وإلحاحهم؛ والله ما أراهم يتركونه من المسألة ولا يتركه كرمه أن يخليهم من العطية حتى يخرج فقيرًا. فقلت: دع هذا عنك وزرّه؛ فإن كثرة السؤال لا تضرُّ بماله. فقال: وكيف؟ أهو أيسر من الخليفة؟ قلت: لا. قال: والله لو تبدل^(٢) لهم الخليفة كما يتبدل أبو دلف وأطمعهم في ما كما يُطمعهم لأفقره في يومين، ولكن اسمع ما قلته في وقتي هذا. فقلت: هاته يا أبا الفضل! فأنشأ يقول:

أبا حسنٍ بَلَعْنَ قاسمًا	بأنى لم أجفُه عن قِلا ^(٣)
ولا عن مَلالٍ لِإثيانيهِ	ولا عن صدودٍ ولا عَنّا
ولكن تَعَفُّتُ عن ماله	وأضْفَيْتُهُ ^(٤) مِدحتي والثنا
أبو دلف سيدٌ ماجدٌ	سنيّ العطية رحبُ الفنا
كريم إذا انتابه المغتفُو	ن عمّهم بجزيلِ الحبا ^(٥)

قال: فأبلغتها أبا دلف، وحدثته بالحديث الذي جرى. فقال لي: قد لقيته منذ أيام، فلما رأيته وقفْتُ له وسلّمت عليه وتحفّيتُ^(٦) به؛ فقال لي: سِرَّ أيُّها الأمير على بركة الله، ثم قال لي:

يا معدّي الجود على الأموال	ويا كريمَ النفس في الفعالِ
قد صُنْتَنِي عن ذلّة السؤال	بجودك الموفّي على الآمالِ
صانك ذو العزة والجلالِ	من غيرِ الأيام والليالي

قال: ولم يزل يختلِفُ إلى أبي دلف ويبرّه حتى افترقا.

أعجب ما رأيت من المجانين^(٧)

حدث المبرد^(٨) قال: قال لي المازني: بلغني أنك تنصرف من مجلسنا إلى

(١) غير: مكث وذهب ضد.

(٢) الابتذال: ضد الصيانة.

(٣) القلا: البغض.

(٤) أضفيتها مدحتي: أخلصتها له.

(٥) الحبا: العطاء.

(٦) تحفى به: بالغ في إكرامه.

(٧) معجم الأديباء: ١٩ - ١١٦.

(٨) هو محمد بن يزيد، المعروف بالمبرد إمام العربية في زمنه ببغداد وأحد أئمة الأدب والأخبار.

مواضع المجانين والمعالجين^(١) فما معنى ذلك؟ فقلت: أعزك الله تعالى؛ إن لهم طرائف من الكلام! قال: فأخبرني بأعجب ما رأيت من المجانين! فقلت: صرت يوماً إليهم فمررت على شيخ منهم، وهو جالس على حصير قصب، فجاوزته إلى غيره، فقال: سبحان الله! أين السلام؟ من المجنون؟ أنا أم أنت؟ فاستحييت منه، وقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حُسنَ الرَّدِّ، على أنا نصرفُ سوءَ أدبِك إلى أحسنِ جهاته من العذر، لأنه كان يقال: إن للداخل على القوم دهشةً، اجلس - أعزك الله - عندنا، وأوماً إلى موضع من الحصر، فجلستُ إلى ناحية منه، فقال لي - وقد رأى معي مخبرتي: أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما: أصحاب الحديث الأغاث، أو الأدباء أصحاب النحو والشعر؟ قلت: الأدباء! قال: أتعرفُ أبا عثمانَ المازني؟ قلت: نعم! قال: أتعرف الذي يقول فيه القائل:

وفتّى من مازنٍ أستاذ أهل البصرة
أُمُّهُ مَعْرِفَةٌ وأبوه نَكْرَةٌ

فقلت: لا أعرفه، فقال: أتعرفُ غُلامًا له قد نبغ في هذا العصر، له ذهنٌ وحفظٌ وقد برز في النحو، يعرف بالمُبْرَد؟ فقلت: أنا والله الخبير به! قال: فهل أنشدك شيئًا من شعره؟ قلت: لا أحسبه يُخسِنُ قول الشعر! فقال: يا سبحان الله! أليس هو القائل:

حَبْدًا ماء العناقيد بریقِ العَانيات
بهما ينبثُ لَحْمِي ودَمِي أيّ نبات

قلت: قد سمعته ينشد هذا في مجلس أنس؛ فقال: يا سبحان الله! ألا يستحي أن ينشد مثل هذا الشعر حول الكعبة؟ ثم قال: ألم تسمع ما يقولون في نسبه؟ قلت: يقولون: إنه من الأزْد أزدشنوءة، ثم من ثُمالة! قال: أتعرفُ القائل في ذلك:

سألنا عن ثُمالة كل حي فقال القائلون: وما ثُمالة؟

= مولده ببغداد وتوفي بها سنة ٢٨٦ هـ.

(١) المدخولين في عقولهم، والمتعاطين للعلاج.

فقلت: محمد بن يزيد منهم فقالوا: زدّتنا بهم جهالة!
فقال لي المبرّد: خلّ قومي فقومي مغشّر فيهم ندأله!

فقلت: أعرفه! هذا عبد الصمد بن المعدّل يقولها فيه! فقال: كذب فيما ادّعاه! هذا كلام رجل لا نسب له، يريد أن يُثبّت له بهذا الشعر نسبا، فقلت له: أنت أعلم! فقال: يا هذا، قد غلبت خفة روحك على قلبي، وقد أخرت ما كان يجب تقديمه، ما الكنية؟ أصلحك الله! فقلت: أبو العباس، قال: فما الاسم؟ قلت: محمد، قال: فالأب؟ قلت: يزيد. قال: قبّحك الله! أحوجتني إلى الاعتذار بما قدمت ذكره، ثم وثب وبسط يده فصافحني، فرأيت القيد في رجله، فأمنتُ غائلته، فقال: يا أبا العباس، صنّ نفسك من الدخول في هذه المواضع؛ فليس يتهيأ في كل وقت أن تصادف مثلي على مثل حالي، ثم قال: أنت المبرّد! أنت المبرّد! وجعل يصفق، وانقلبت عيناه، واحمرّت وتغيّرت حالته، فبادرت مسرعا خوف أن تبتدر إليّ منه بادرة؛ وقبلتُ منه والله نُضحّه، ولم أعاوذ بعدها إلى تلك المواضع أبدا!

مَجْنُونٌ أَدِيبٌ (١)

قال أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب^(٢): كان ببغداد فتى يُجنُّ سنّة أشهر، فاستقبلني يوماً ببعض السكك فقال: ثعلب! قلت: نعم، قال: فأنشدني، فأنشدته:

وإذا مررت بقبره فاعقر به كُوم^(٣) الهجان وكلّ طزف^(٤) سابح
وانضخ جوانب قبره بدمائها فكذا يكون أخا دم وذبائح

فضحك ثم سكت ساعة؛ وقال: ألا قال:

أذهب بي إن لم يكن لكما عقد رر على تُزب قبره فاعقراني
وانضحا من دمي عليه فقد كا ن دمي من نداه لو تعلمان

(١) عقلاء المجانين: ١٣٥، نهاية الأرب: ٣ - ٢١٣.

(٢) أحمد بن يحيى إمام الكوفيين في النحو واللغة كان راوية للشعر مشهورا بالحفظ وصدق اللهجة، ثقة حجة، توفي سنة ٢٩١ هـ.

(٣) الكوم: القطعة من الإبل. (٤) الطرف: الكريم من الخيل.

ثم رأني يوماً بعد ذلك فتأملتني، وقال: ثعلب! قلت: نعم؛ قال: أنشدني،
فأنشدته:

أَعَارَ الْجَوْدُ^(١) نَائِلَهُ إِذَا مَا مَالُهُ نَفَّدا
وإنَّ أَسَدًا شَكَا جُبْنًا أَعَارَ فَوَّادَهُ الْأَسَدَا

فضحك وقال: ألا قال:

عَلِمَ الْجَوْدُ النَّدَى حَتَّى إِذَا مَا حَكَاهُ عِلْمَ الْبَأْسِ الْأَسَدِ
فَلَهُ الْجَوْدُ مُقِرًّا بِالنَّدَى وَلَهُ اللَّيْثُ مُقِرًّا بِالْجَلْدِ

غَنَى وَغَفْلَةٌ^(٢)

كان بمصر شريف من وُلد العباس يعرف بأبي جعفر؛ شبيهه بابن الجصاص
في الغفلة والجد والتعمه.

قال أبو القاسم بن محمد التنوخي: بعثني أبي إليه من قرية تعرف بتلا
يستقرضه عشرة أَرادب قمحًا وثلاثين زوج بقر، وكتب معي بذلك رقعة، فأتيتُ
إليه وسلمت عليه، ودفعت إليه الرقعة؛ فقال: ذكرتُ أباك، فهو صاحبي
وصديقي وخليطي! وأين هو الآن؟ قلت: بقرية تلا - أعزُّ الله سيدي الشريف!
قال: نعم! حفظه الله! هو بالفُسْطاط معنا، وقد انقطع عنا كذا! ما كنت أظنه إلا
غائبًا!

قلت: لا سيدي هو بتلا! قال: فما لك ما قلت لي؟ فما كان سبيله أن
يؤنسني برقعة من قبله؟ قلت: يا سيدي، قد دفعت إليك رُقْعته! قال: وأين هي؟
قلت: تحت البساط! فأخذها وقرأها، وقال: قل لي الآن، أكان لك أخٌ أعرفه حاد
الذهن يحسن النحو والعروض والشعر؛ فما فعلَ الله به؟ قلت: أنا هو - أعزك الله!
قال: كبرتُ كذا! وعهدي بك تأتيني معه؛ قلت: نعم! أيد الله الشريف!

قال: وما الذي جئت فيه؟ قلت له: والدي بعثني إليك برقعة يسألك فيها
قرض عشرة أَرادب قمحًا وثلاثين زوج بقر. قال: وهو الآن بالفُسْطاط؟! قلت: لا
يا سيدي هو بتلا! قال: نعم! وإنما ذاك الفتى أخوك؟ قلت: لا! أنا هو.

(٢) ذيل زهر الآداب: ٢٢٢.

(١) الجود: المطر الغزير.

فصار يراجعني في الكلام وقد ضجرتُ من شدة غَفْلَتِهِ، وكثرة نسيانه لما أقول له، حتى أقبل كاتبه أبو الحسين، فقال له: سأل هذا الفتى ما يريد؟ فسألني فعرفته فأخبره، فقال له: نفذ له حاجته. فوقع لي الكتاب بما أَرَادَ، وقال: تَلَقَّاني للقبض بالديوان، فشكرت الشريف ونهضت! فقال: اصبر يا بني فقد حضر طعامنا؛ وقدم الطعام، وفيه طعام غير جيد، فرفع يده، وقال: مثل مطبخي يكون فيه مثل هذا! عليّ بالطباخ! فأتى، فقال له: ما هذا العمل! فقال: يا سيدي؛ إنما أنا صانع، وعلى قدر ما أعطى أعمل! وقد سألت المُنْفِق أن يشتري لي ما أحتاج إليه فتأخر عني، فعملتُ على غير تمكّن؛ فجاء التقصير كما ترى.

فقال: عليّ بالمُنْفِق فأحضر، فقال: مالي قليل؟ قال: لا، يا سيدي إنما أنفق ما أعطى، وقد سألت الجِهْبِدَ^(١) أن يدفع لي فتأخر عني؛ فقال: عليّ بالجِهْبِدِ! فأتى به. فقال: مالك لم تدفع للمُنْفِق شيئاً؟ قال: لم يوقّع لي الكاتب! فقال للكاتب: لِمَ لَمْ تدفع إليه شيئاً؟ فتلغثم في الكلام، ولم يكن عنده جواب؛ فقال للكاتب: قف ههنا، فوقف، ووقف خلفه الجِهْبِدُ، ووقف خلف الجِهْبِدِ المنفق، وخلف المنفق الطباخ، وقال: ليصنع كلُّ واحد منكم بمن يليه بأكثر ما يقدر عليه فتصافعوا.

قال: فخرجت وأنا متعجب من غباوته وغفلته!

حذاء أبي القاسم^(٢)

كان في بغداد رجلٌ اسمه أبو القاسم الطنبُوري، وكان له مَدَاسٌ^(٣)، وهو يلبسه سبع سنين، وكان كلما تقطع منه موضع جعل مكانه رقعةً إلى أن صار في غاية الثقل، وصار الناس يضرِبون به المثل.

فأتفق أنه دخل يوماً سوق الزجاج، فقال له سِمَسَارٌ^(٤): يا أبا القاسم، قد قدِم إلينا اليوم تاجر من حلب، ومعه جنلٌ مُدْهَبٌ قد كسد، فاشتريه منه، وأنا أبيع لك بعد هذه المدة؛ فتكسب به المثل مثلين! فمضى واشترى بسنتين ديناراً.

(١) الجِهْبِد: النقاد الخبير، ويريد القائم بالإنفاق وحفظ الأموال.

(٢) مجاني الأدب: ٣ - ٢٣٢.

(٣) المداس كسحاب: الذي يلبس في الرجل.

(٤) السمسار: المتوسط بين البائع والمشتري.

ثم إنه دخل إلى سوق العطارين؛ فصادفه سِمَسَارٌ آخَرُ، وقال له: يا أبا القاسم، قد قَدِمَ إلينا اليوم من نَصِيبين^(١) تاجرٌ، ومعه ماءٌ وَزِدٌ، وَلِعَجَلَةِ سفره، يمكن أن تشتريه منه رخيصةً، وأنا أبيعك لك فيما بعد، بأقرب مدة؛ فتكسبُ به المثلَ ومثلين!

فمضى أبو القاسم، واشتراه أيضًا بستين دينارًا أخرى، وملاً به الزجاج المذهب وحمله، وجاء به فوضعه على رَفٍ من رفوف بيته في الصُّدْر!

ثم إن أبا القاسم دخل الحمام يغتسل؛ فقال له بعض أصدقائه: يا أبا القاسم؛ أشتي أن تغيّر مداسك هذا! فإنه في غاية الشناعة! وأنت ذو مال بحمد الله! فقال له أبو القاسم: الحقُّ معك؛ فالسَّمْعُ والطاعة.

ثم إنه خرج من الحمام، ولبس ثيابه، فرأى بجانب مداسه مداسًا آخرَ جديدًا؛ فظنَّ أن الرجلَ من كرمه اشتراه له؛ فلبسه، ومضى إلى بيته!
وكان ذلك المَدَّاسُ الجديدُ للقاضي، وقد جاء في ذلك اليوم إلى الحَمَّامِ، ووضع مَدَّاسَه هناك، ودخل يَسْتَحِمُّ!

فلما خرج فتش عن مداسه؛ فلم يَجِدْهُ؛ فقال: أمَّنَ لبس حذائي لم يترك عوضه شيئًا؟ ففتشوا؛ فلم يجدوا سوى مداس أبي القاسم! فَعَرَفُوهُ؛ لأنه كان يُضْرَبُ به المثل!

فأرسل القاضي خَدَمَه، فكَبَسُوا^(٢) بيته، فوجدوا مداسَ القاضي عنده؛ فأحضره القاضي، وضربه تأديبًا له، وحبسه مدة، وغرمه بعض المال وأطلقه!

فخرج أبو القاسم من الحبس، وأخذ حذاءه، وهو غضبان عليه، ومضى إلى دجلة، فألقاه فيها؛ فغاص في الماء!

فأتى بعض الصيادين ورمى شَبَكته، فطلع فيها! فلما رآه الصياد عرفه، وظنَّ أنه وقع منه في دجلة! فحمله وأتى به بيت أبي القاسم؛ فلم يجده! فنظر فرأى نافذة إلى صدر البيت، فرماه منها إلى البيت، فسقط على الرف الذي فيه الزجاج، فوقع، وتكسَّرَ الزجاج وتبدَّد ماءُ الورد!

(٢) كبس داره: هجم عليها واحتاط بها.

(١) قاعدة ديار ربيعة.

فجاء أبو القاسم ونظر إلى ذلك فعرف الأمر، فلطم وجهه، وصاح يبكي، وقال: وافقرأه! أفقرني هذا المداس الملعون!

ثم إنه قام ليخفر له في الليل حفرة، ويدفنه فيها، ويرتاح منه؛ فسمع الجيران حس الحفر؛ فظنوا أن أحدًا ينقب عليهم؛ فرفعوا الأمر إلى الحاكم؛ فأرسل إليه، وأحضره، وقال له: كيف تستجّل أن تنقب على جيرانك حائطهم! وحبسه، ولم يُطلقه، حتى غرم بعض المال!

ثم خرج من السجن ومضى وهو خزان^(١) من المداس، وحمله إلى كنيف الخان، ورماه فيه، فسدّ قسبة الكنيف؛ ففاض وضجر الناس من الرائحة الكريهة! وبحوثا عن السبب؛ فوجدوا مداسًا فتأملوه؛ فإذا هو مداس أبي القاسم! فحملوه إلى الوالي، وأخبروه بما وقع؛ فأحضره الوالي، ووبخه وحبسه، وقال له: عليك تصليح الكنيف! فغرم جُملة مال، وأخذ منه الوالي مقدار ما غرم تأديًا له وأطلقه.

فخرج أبو القاسم والمداس معه، وقال - وهو مغتاض منه: والله ما عدتُ أفارقُ هذا المداس!

ثم إنه غسله وجعله على سطح بيته حتى يجف؛ فرآه كلب؛ فظنه رمة^(٢) فحملة وعبر به إلى سطح آخر؛ فسقط من الكلب على رأس رجل، فألمه وجرحه جرحًا بليغًا، فنظروا وفتشوا لمن المداس، فعرفوا أنه لأبي القاسم!

فرفعوا الأمر إلى الحاكم؛ فألزمه بالعوض، والقيام بلوازم المجروح مدة مرضه! فنفد عند ذلك جميع ما كان له، ولم يبق عنده شيء!

ثم إن أبا القاسم أخذ المداس، ومضى به إلى القاضي، وقال له: أريد من مولانا القاضي أن يكتب بيني وبين هذا المداس مبارأة شرعية على أنه ليس مني ولست منه! وأن كلاً منا برىء من صاحبه، وأنه مهما يفعله هذا المداس لا أؤاخذ أنا به! وأخبره بجميع ما جرى عليه منه!

فضحك القاضي منه ووصله ومضى!

(٢) الرمة بالكسر: العظام البالية.

(١) حردان: عضبان.

من طرائف الحمقى والمغفلين (١)

قيل لمغفل: قد سرق حمارك فقال: الحمد لله الذي ما كنت عليه.

نظر رجل في الجب فرأى وجهه فعاد إلى أمه فقال: في الجب لص، فجاءت الأم فاطلعت فقالت: أي والله ومعه فاجرة.

ذكر رجل بين يدي رجل فقال: إنه رجل سوء، قيل له: من أين علمت؟ قال أفسد بعض أهلي، قيل: ومن أفسد؟ قال: أمي صانها الله.

سئل بعضهم عن مولده فقال: ولدت رأس الهلال للنصف من رمضان بعد العيد بثلاثة أيام، احسبوا الآن كيف شتم.

كتب بعضهم إلى أبيه: كتابي إليك يوم الجمعة، عشية الأربعاء لأربعين ليلة خلت من جمادى الأوسط، وأعمك أني مرضت مرضة لو كان غيري كان قد مات، فقال أبوه: أمك طالق ثلاثاً، لو مت لما كلمتك أبداً.

دعا بعض المغفلين فقال: اللهم ارزقني خمسة آلاف درهم حتى أتصدق منها بألفي درهم وإن لم تصدقني فادفع إلي ثلاثة آلاف درهم واحبس الباقي، فإن تصدقت وإلا فتصدق بها على من شئت.

خرج بعض المغفلين من منزله ومعه صبي عليه قميص أحمر، فحمله على عاتقه، ثم نسيه، فجعل يقول لكل من رآه: رأيت صبيًا عليه قميص أحمر؟ فقال له إنسان: لعلة الذي على عاتقك؟ فرفع رأسه ولطم الصبي وقال: يا خبيث ألم أقل لك إذا كنت معي لا تفارقني.

نظر بعض المغفلين إلى منارة الجامع فقال: ما كان أطول هؤلاء الذين عمروا هذه! فقال آخر: اسكت ما أجهلك، ترى أنه في الدنيا أحد طول هذه؟ وإنما بنوها على الأرض ثم رفعوها.

قال: ورأيت رجلاً طويل اللحية على حمار يضربه، فقلت: ارفق به، فقال: إذا لم يقدر يمشي فلم صار حمارًا.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٧٠.

تفاخر مصري ويمني، فقال المصري: هلكت والله اليمن إذ لم يكن منها رسول الله ﷺ ولا يدخل الجنة أهلها، فقال اليمني: فابن المهلب وأولاده يحاربون عليها حتى يدخلوها بالسيف.

كان بعض المغفلين يقول: اللهم اغفر لي من دنوبي ما تعلم وما لا تعلم. قدم رجل من الحمقى فسأله رجل متى قدمت! قال: غداً، قال: لو قدمت اليوم سألتك عن إنسان، فمتى تخرج؟ قال: أمس، قال: لو أدركتك كتبت معك كتاباً.

كان لبعض الأدباء ابن أحمق، وكان مع ذلك كثير الكلام، فقال له أبوه ذات يوم: يا بني لو اختصرت كلامك إذ كنت لست تأتي بالصواب! قال: نعم، فاتاه يوماً فقال: من أين أقبلت يا بني؟ قال: من (سوق) قال: لا تختصرها هنا، زد الألف واللام، قال: من (سوقال) قال: قدم الألف واللام، قال: من (ألف لام سوق) قال: وما عليك لو قلت: (السوق) فوالله ما أردت في اختصارك إلا تطويلاً. وقال هذا الولد يوماً لأبيه: يا أبت اقطع لي جباعة، المال: وما جباعة في الثياب؟ قال: ألسنت قلت لي اختصر كلامك، يعني جبة ودراعة.

اشترى بعض المغفلين نصف دار فقال يوماً: قد عزمت على بيع نصف الدار الذي لي وأشتري بثمانه النصف الآخر حتى تصير الدار كلها لي.

كتب بعض المغفلين إلى رجل يعزیه بابتته: بلغني مصيبتك وما هي بمصيبة، وقد جاء بالخبر عن النبي ﷺ أنه قال: مَنْ تُوفيت له بنت كان له من الأجر ذهب والله عني، ومَنْ توفيت له ابنتان كان له من الأجر مثل الذي ذهب عني مرتين، وبعد فقد ماتت عائشة بنت النبي ﷺ فمن ابتك البظراء حتى لا تموت.

كان محمد بن أبي سعيد سليم الجاني، وقد سمع من أبي الحسين الطيوري يسأل بعض مَنْ يعرف الأدب أن يعلمه شيئاً من العربية، فقال: إذا دخلت على أحد فقل: أنعم الله صباحك، فربما كان يدخل على أحد آخر النهار فيقول: أنعم الله صباحك فيضحك.

حكى أفضى القضاة الماوردي قال: كنت جالساً في مجلس مقبلاً على تدريس أصحابي، فدخل علينا شيخ قد ناهز الثمانين - أو جاوزها - فقال لي: قد قصدتك في مسألة اخترتك لها، فقلت: وما هي! وظننته يسأل عن حادثة حدثت

له، فقال: أيها الشيخ أخبرني عن نجم إيليس ونجم آدم ما هما، فإن هذين لا يسأل عنهما لعظم شأنهما إلا علماء الدين، قال: فعجبت منه وعجب من في المجلس من سؤاله، وبدر جماعة بالإنكار عليه والاستخفاف به، فكففتهم عنه وقلت: هذا لا يفتن مما ظهر من حاله إلا بجواب مثله، فأقبلت عليه وقلت: يا هذا إن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة موالدهم، فإن ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله، فقال: جزاك الله خيرًا وانصرف مسرورًا، فلما كان بعد أيام عاد وقال: ما وجدت إلى وقتي هذا من يعرف مولد هذين.

قيل للفضل بن عبد الله: مالك لا تتزوج؟ قال: إني دفع لي أبي جارية ولأخي، فقيل: ويحك دفع إليك وإلى أخيك جارية واحدة؟ قال: وأيش تتعجب من هذا، هو ذا جارنا فلان له جارتان.

قال أبو العنيس: اجتزت في بعض الطريق لحاجة، فإذا امرأة عرضت لي فقالت: هل لك أن أزوجك جارية فيجيثك منها ابن؟ قلت: نعم، قالت: وتدخله الكتاب فينصرف فيلعب فيصعد إلى السطح فيقع فيموت، وصرخت ويلاه ولطمت، ففزعت وقلت هذه مجنونة وهربت من بين يديها، فرأيت شيخًا على باب، فقال: ما لك يا حبيبي؟ فقصصت عليه القصة، فلما انتهيت إلى موضع لطمها استعظم ذلك وقال: لا بد للنساء من البكاء إذا مات لهن ميت، فإذا هو أحق منها وأجهل.

قال رجل آخر: رأيت البارحة أباك في المنام وثيابه وسخة، فقال: قد كفتته أمس في أربعة أثواب جدد، وما ينبغي أن تكون قد اتسخت ثيابه. وقيل لبعض أهل الموصل: كم بينكم وبين موضع كذا؟ قال: ثلاثة أميال ذاهب وميلين جاي.

قال ثمامة لحاجبه: عجل الفراغ مما أمرتك به فقد قصر النهار، فقال: أي والله يا سيدي والليل أيضًا قد قصر.

دعا بعض المغفلين فقال: اللهم اغفر لأمي وأختي وامراتي، فقيل له: لم تركت ذكر أبيك؟ قال: لأنه مات وأنا صبي لم أدركه.

قال عبد الله بن محمد: قلت لرجل مرة كم في هذا الشهر من يوم؟ فنظر إلي وقال: لست أنا والله من هذا البلد.

قال أبو العباس: سألت رجلاً طويل اللحية فقلت: إيش اليوم؟ فقال: والله ما أدري فإني لست من هذا البلد، أنا من دير العاقول.

انكسرت خشبة في سقف بعضهم، فمضى يشتري عوضها، فقيل: كم تريد طولها؟ فقال: سبعة في ثمانية.

قال بعضهم: ولد لي غلام الليلة فسميته باسم خالته.

أصيب بعضهم بمصيبة فقيل له: عظم الله أجرك، فقال: سمع الله لمن حمده.

قال الجاحظ: دخلت الكوفة، فبينما أطوف في طرقاتها رأيت شيخاً ذا هيبة جالساً على باب داره ومن جانب الدار صياح، فقلت له: يا عم، ما هذا الصياح؟ فقال: هذا رجل افتصد، فبلغ موضع، شاذروانة فمات، يريد شريانه.

قال الحجاج بن هارون لصديق يحبه: أنا والله لك مائق، يريد وامق.

شهد رجل عند والٍ فقال: سمعت بأذني (وأشار إلى عينية) ورأيت بعيني (وأشار إلى أدنيه) بأنه جاء إلى رجل فتلبب بعنقه (وأشار إلى صدره) وما زال يضرب خاصرته (وأشار إلى فكه) فقال له الوالي: أحسبك قد قرأت «كتاب خلق الإنسان»، قال: نعم، قرأته على الأصمعي.

قيل لبعض المغفلين: سأل عنك فلان، فقال: يسأل الله عنه وملائكته.

دخل بعض المغفلين إلى بعض القضاة فجلس بين يديه فقال: أعدمني الله القاضي، مات فلان والذي ما خلفوا بعدي سواهم وهو ذا يظلموني إخوتي، نسياتي تسعة وهم واحد وكل يوم يجعلون عمامتي في عنق القاضي يجرونه إلي، فقال القاضي: ليس الممتحن غيري.

وقال أبو العنيس: صحبني رجل في سفينة فقلت له: ممن الرجل؟ فقال من أولاد الشام، ممن كان جدي من أصدقاء المنصور علي بن أبي سالم شاعر الأنبار، وكان من الذين بايعوا تحت الشجرة مع أبي سالم بن يسار في وقعة الفاروق، أباد قتل الحجاج بن يونس بالنهروان على شاطئ الفرات مع أبي السرايا، قال أبو الهنيس: فلم أدر على أي شيء أحسده، على معرفته بالأنساب، أم على بصره بأيام الناس، أم حفظه للسير.

عزى رجل رجلاً بابنه فقال له في الجواب: رزقنا الله مكافأتك.

قال الحسن بن يسار: قلت لبعضهم أن فلاناً ليس يعدك شيئاً، فقال: والله لو كنت أنا أنا، وأنا ابن من أنا منه، لكنك أنا أنا وأنا ابن من أنا منه فكيف وأنا وأنا ابن من أنا منه.

سمع بعض الحمقى قوماً يتذكرون الموت وأهواله فقال: لو لم يكن في الموت إلا أنك لا تقدر أن تتنفس لكفى.

قال ثمامة لخادمه: اذهب إلى السوق واحمل كذا وكذا، فقال: يا سيدي أنا ناقة، وليس في ركبتي دماغ، فقال ثمامة: ولا في رأسك.

ورؤي أعمى يمشي في الطريق ويقول: يا منشيء السحاب بلا مثال.

دخل رجل على المعتضد فقال: يا أمير المؤمنين، إن فلاناً العامل ظلمي، قال: ومن فلان؟ قال: والله لا أدري اسمه ولكن في خده الأيمن خال أو تولول أو أثر لظمة أو أثر حرق نار أو أثر مسمار أو في خده الأيسر، وكان له مرة غلام يقال له جرير أو نجم إلا أن في اسمه طاء أو لام، فضحك المعتضد، وقال: كأنه موسوس؟ قال: سلني عما شئت حتى أجيبك، قال: كم أصبغ لك؟ قال: ثلاثة أرجل فأمر بإخراجه، فقال: ما أقول لبنتي إذا دخلت وقد فتحت حجرها لأطرح فيه الجوز يوم العيد؟ فأمر المعتضد أن يحمل معه إلى منزله طعام وجائزة.

دخل بعضهم إلى المستراح فأراد أن يحل لباسه فحل أزاره وخرى في لباسه.

حكى أن جماعة من أهل حمص تذاكروا في حديث الأعضاء ومنافعها فقالوا: الأذن للشم والشم للفم للأكل واللسان للكلام فما فائدة الأذنين! فلم يتوجه لهم في ذلك شيء، فأجمعوا على قصد بعض القضاة ليسألوه، فمضوا فوجدوه في شغل، فجلسوا على باب داره، وإذا هناك خياط فتل خيوطاً ووضعها على أذنه، فقالوا: قد أتانا الله بما جئنا نسأل القاضي عنه، وإنما خلقت للخيوط، وانصرفوا مسرورين مما استفادوه.

قال الجاحظ: مررت بحمص فمرّ عزز يتبعه جمل، فقال لرجل معه: هذا الجمل من هذا العنز؟ فقال له: لا ولكنه يتيم في حجرها.

عرض هشام بن عبد الملك الجند فأتاه رجل حمصي بفرس، كلما قدمه نفر، فقال هشام: ما هذا؟ قال الحمصي: يا سيدي هو جيد، لكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر.

اجتاز أهل حمص بشيخ لهم، لم يكن فيهم أعقل منه ولا أكمل مع ابنين له معروفين عندهم بالعقل والكمال، فأوفدهم إلى الرشيد لمظلمة كانت بهم، فلما وردوا الباب وأذن لهم دخل الشيخ فقال: السلام عليك يا أبا موسى، فعلم أنه أحقق وأمره بالجلوس، ثم قال: أحسبك قد طلبت العلم وجالست العلماء؟ قال: نعم يا أبا موسى، قال: من جالست من العلماء؟ قال: أبي، قال: وما كان يقول في عذاب القبر، قال: كان يكرهه، فضحك الرشيد ومن حضر ثم قال: يا شيخ من حفر البحار فيما سمعت؟ فسكت الشيخ، فقال أحد ولديه، قد حفرها موسى حين طرق له، قال: فأين طينها؟ فقال الولد الثاني: الجبال، ففرح الشيخ بحسن جواب ولديه، وقال: والله ما علمتهما، ما هو إلا إلهام من الله تعالى وله الحمد.

وفد على الرشيد ثلاثة من حمص، فدخل أحدهم فرأى غلامًا على رأسه فظنه جارية، فقال: السلام عليك يا أبا الجارية، فصفع وأخرج، فدخل الثاني فقال: السلام عليك يا أبا الغلام، فصفع وأخرج، فدخل الثالث فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له: كيف صحبت هذين الأحمقين؟ قال: يا أمير المؤمنين لا تتعجب منهم فإنهم لما رأوك بهذا الزي ورأوا لحيتك طويلة قدروا أنك أبو فلان، فقال الرشيد: أخرجوه، قبح الله بلدة هؤلاء خيارهم.

قال بعضهم: رأيت رجلًا ألقى قائمًا في حلقة قاص يقص مقتل عثمان بن عفان، فلما فرغ قال الألقى: أعيذك بالله ما أحسن ما تروي كلام منصور بن عمار.

قال الجاحظ: مررت بمنجد في (قنطرة بردان) طويل اللحية وامرأة تطالبه بشيء لها عنده وهو يقول: رحمك الله، متاعك جاءني يحتاج إلى حشو كثير وأنت من العجلة تمشين على أربع.

قال أبو حاتم: سأل رجل أبا عبيدة عن اسم رجل فقال: ما أعرف اسمه فقال له بعض أصحابه: أنا أعرف الناس به، اسمه خراش أو خدش أو رياش أو شيء آخر.

خرج عبادة ذات يوم يريد السوق، فنظر في بعض طرقه إلى شيخ طويل اللحية كلما، أراد أن يتكلم بادرته لحيته، فمرة يدسها في جيبه ومرة يجعلها تحت ركبته فقال له عبادة: يا شيخ لم تترك لحيتك هكذا؟ قال: فتريد أن أنتفها حتى تكون مثل لحيتك! قال عبادة: فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا ۝٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ۝١٠﴾ [الشَّمْس: الآيتان ٩، ١٠] وقال ﷺ: - «أحفوا الشارب واعفوا اللحي» - ومعنى عفو اللحي أن يزال أثرها، فقال الشيخ: صدق الله ورسوله، سأجعلها كما أمر الله ورسوله، فحلق لحيته وجلس في دكانه، فكان كل مَنْ رآه وسأله عن خبره قرأ عليه الآية وروى له الحديث.

قيل لمريض: كيف نجدك! فقال: أنا علة، قيل: وما معنى علة؟ قال: أليس يقال للصحيح ليس به علة؟ قالوا: نعم، قال: أنا كما قيل، أنا علة.

قيل لرجل: عندك مال وليس لك إلا والدة عجوز، أن مت ورثت مالك وأفسدته، فقال: إنها لا ترثني، قيل: وكيف؟ قال: أبي طلقها قبل أن يموت.

قال أبو الأسود لابنه: يا بني إن ابن عمك يريد أن يتزوج ويجب أن تكون أنت الخاطب فتحفظ خطبة، فبقي الغلام يومين وليتين يدرس خطبة، فلما كان في الثالث قال أبوه: ما فعلت؟ قال: قد حفظتها قال: وما هي؟ قال: اسمع الحمد لله، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الفلاح؛ فقال له أبوه: أمسك لا تقم الصلاة فإني على غير وضوء.

أسلم رجل ولده إلى الكتاب، فلما كان بعد حين قال له والده: تعلمت شيئاً من الحساب؟ قال: نعم، قال: فخذ خمسين وخمسين كم تعد؟ قال: أربعين، قال: يا مشؤوم، ثلاث خمسينات ما يحصل معك منها خمسين؟ ثم حبسه عن الكتاب وقال: لا أفلحت.

مرض صديق لحامد بن العباس فأراد أن ينفذ ابنه إليه ليعوده فأوصاه وقال: يا بني إذا دخلت فاجلس في أرفع المواضع، وقل للمريض: ما تشكو؟ فإذا قال: كذا وكذا، فقل له: سليم إن شاء الله، وقل مَنْ يجيئك من الأطباء، فإذا قال: فلان فقل: ميمون، وقل: ما غداؤك؟ فإذا قال: كذا وكذا فقل: طعام محمود، فذهب فدخل على العليل وكان بين يديه منارة، فجلس عليها لارتفاعها فوَقعت

على صدر العليل فأوجعته، ثم قال للمريض: ما تشكو فقال: أشكو علة الموت، فقال سليم: إن شاء الله، فمن يجيئك من الأطباء؟ قال: ملك الموت، قال مبارك ميمون، فما غداؤك؟ قال: سم الموت، قال: طعام طيب محمود.

تقدم رجل إلى معلم ابنه فسأله أن لا يعلمه سوى النحو والفقه، فعلمه مسألتين من النوعين (ضرب زيد عمرًا) ارتفع زيد بفعله وانتصب عمرو بوقوع الفعل عليه، والأخرى من الفقه (رجل مات وخلف أبويه فلأمه الثلث ولأبيه الباقي) فقال له: أفهمت؟ قال: نعم، فلما انصرف إلى البيت قال له أبوه: ما تقول في (ضرب عبد الله زيدًا)؟ قال: أقول ارتفع بفعله وما بقي للأب.

كان لبعض التجار المياسير ابن أبله، فقضي أن صار الأب إلى حانوته يومًا فوجد اللصوص قد أخذوا صندوقًا له كان فيه صامت كثير وأسباب جميلة، فجلس الرجل والناس يعزونه ويدعون له بالخلف، فبينما هم كذلك إذ أقبل ابنه، فلما قرب من حانوت أبيه ورأى الناس سأل عن الخبر، فقالوا: دخل اللصوص حانوت أبيك وأخذوا الصندوق الذي كان فيه ما كان، فضحك وقهقه وقال: لا بأس ما فاتنا شيء، فظن الناس أنه خبأه أو يعرف خبره، فأسرعوا إلى أبيه فبشروه بأن ابنه قال: كذا، فقال له أبوه: ما الخبر وأي شيء عندك في هذا الأمر؟ قالوا: مفتاح الصندوق عندي فلا يقدر أن يفتحوه، فقال أبوه: عجبت والله أن يكون عندك فرح.

قال بعضهم: دخلت على نصر الرصيفي في منزله، فإذا ابنه يصايحه في شيء وقد ارتفعت أصواتهما، فقلت: ما هذا؟ فقال: هذا يزعم أن علي بن أبي طالب هاشمي فقلت أنا: بل علوي، فاحكم بيننا فقلت أنا: هو علوي، ألا ترى إلى اسمه (علي)، فقال لي: ابصق في وجهه؟ فقلت: كلا كما يستحق ذلك.

كان بسجستان شيخ يتعاطى النحو، وكان له ابن فقال لابنه: إذا أردت أن تتكلم بشيء فاعرضه على عقلك، وفكر فيه بجهدك، حتى تقومه ثم أخرج الكلمة مقومة، فبينما هما جالسان في بعض الأيام في الشتاء والنار تتقد وقعت شرارة في جبة خز كانت على الأب وهو غافل والابن يراه، فسكت ساعة يفكر ثم قال: يا أبت أريد أن أقول شيئًا فتأذن لي فيه؟ قال أبوه: إن حقًا فتكلم، قال أراه حقًا، فقال قل: قال إنني أرى شيئًا أحمر قال: وما هو؟ قال: شرارة وقعت في جبتك،

فنظر الأب إلى جيبته وقد احترق منها قطعة، فقال للابن: لم لم تعلمني سريعاً؟ قال: فكّرت فيه كما أمرتني، ثم قومت الكلام وتكلمت فيه، فحلف أبوه بالطلاق أن لا يتكلم بالنحو أبداً.

دق رجل باب دار نحوي فقال: من ذا؟ فقال: أنا الذي أبو عمرو الجصاص عقد طاق باب هذه الدار، فقال النحوي: ما ترى لك في صلة الذي شيئاً، فانصرف راشداً.

جاءت امرأة إلى جارة لها تستعير منها إزاراً لتمضي في حاجة وترده من ساعتها فقالت: قد غزلت من إزاري عشرة أساتير، فاصبري حتى أتم غزله وأسلمه إلى الحائك ويفرغ منه وأعطيك إياه ولا تمرري بمسماً فإنه جديد وقالت امرأة لأخرى: اليوم مشيت إلى قبر أحمد فدخل في رجلي مسماً، فقالت لها: وكان الخف الجديد في رجلك؟ قالت: لا، قالت لها: فاحمدي الله.

قال بعضهم: مررت بسوق وقد اجتمع فيه قوم على رجل يضربونه، فقلت: ما ذنب هذا؟ قالوا: شتم معاوية بن أبي سفيان، صديق النبي ﷺ ومن صلى معه أربعين سنة على طهر واحد، وكان من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان، وسمى خال المؤمنين لأنه كان أخاً حواء من أمها وأبيها.

قال بعضهم: مررت على قوم قد اجتمعوا على رجل يضربونه، فتقدمت إلى شيخ كان يجيد قتله، فقلت: يا شيخ ما قصة هذا؟ قال: لا تكونن منهم، هذا رافضي يقول: نصف القرآن مخلوق ونصفه لا، وليس في القوم خير من النبي ﷺ وبعده الخضر، فبادرني الضحك فرددته مخافة الضرب وقلت: يا شيخ زده فإنك ماجور.

قال: ومررت بقوم قد اجتمعوا على رجل يضربونه، فقلت: لرجل يجيد ضربه: ما حال هذا؟ قال: والله ما أدري ما حاله، ولكنني رأيتهم يضربونه فضربته معهم لله عزّ وجلّ وطلباً للثواب.

قال بعضهم: رأيت رجلاً يبيع الرمان في الأسواق ويطعمه أهل سوقه، ويسألونه عن مسائل تقع لهم في الفقه وهو يكتئب أبا جعفر، فجاءته امرأة فقالت: يا أبا جعفر، مريم بنت عمران كانت نبيّة؟ قال: لا يا غافلة، قالت: وإيش كانت؟ قال: من الملائكة.

قال الجاحظ: دخلت واسط فبكرت يوم الجمعة إلى الجامع، فقعدت، فرأيت على رجل لحية لم أر أكبر منها، وإذا هو يقول لآخر: إلزم السنة حتى تدخل الجنة، فقال له الآخر: وما السنة؟ قال: حب أبو بكر بن عفان وعثمان الفاروق وعمر الصديق وعلي بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان؟ قال: ومن معاوية بن أبي سفيان! قال: رجل صالح من حملة العرش وكاتب النبي ﷺ وختنه على ابنته عائشة.

قال بعضهم: مررت على قوم اجتمعوا على رجل يضربونه، فقلت لشيخ منهم: ما ذنب هذا؟ قال: يسب أصحاب الكهف، قلت: ومن أصحاب الكهف؟ قال: لست مؤمناً، قلت: بلى ولكني أحب الفائدة. قال أبو بكر وعمر ومعاوية بن أبي سفيان، ومعاوية هذا رجل من جملة سرادق العرش، فقلت له: يعجبني معرفتك بالأنساب والمذاهب، فقال: نعم خذ العلم عن أهله، فقال واحد منهم لآخر: أبو بكر أفضل أم عمر، قال: لا بل عمر، قال: وكيف علمت؟ قال: لأنه لما مات أبو بكر جاء عمر إلى جنازته، ولما مات عمر لم يجيء أبو بكر لجنازته.

مرض بعض المغفلين فأتي بطبيب فقال الطبيب: إذا كان غداً فاحفظوا البول حتى أجيء وأنظره، فلما خرج الطبيب من عنده بقي لا يبول إلى الغد، فلما جاء الطبيب قال له المريض: يا عبد الله قد كادت مثائتي تنشق من إحباسي البول فلماذا تأخرت، فقال: إنما أمرتك أن تحفظ البول في إناء، فلما كان الغد جاء الطبيب فإذا هو قد أخذ برنية خضراء، فقال الطبيب: ما هذا، أخطأت ألم يكن في الدنيا شيء من الزجاج كنت تأخذ في قارورة أو في قدح، فلما كان من الغد، أخذ البول في قدح من الخشب فعرضه عليه، فقال له: أنت في حرج، ألا نظرت إلى هذا الماء فاصدقني في أمري هل يخاف علي من هذه العلة؟ قال: أما إذ حلفتني فلا بد أن أقول: أنا خائف أن تموت من هذا العقل لا من هذه العلة.

دخل بعض الحمقى من الأطباء على عليل، فشكا إليه العليل ما يجد فقال: خذ مثل رأس الفأرة كلنجبين وصب عليه مقدار محجمة ماء واضربه حتى يصير مثل المخاط واشربه، فقال العليل: قم لعنك الله، فقد قدرت إلى كل دواء في الأرض. كان طبيب أحرق قد أعطى رجلاً من جيرانه شربة فأقامته قياماً حتى مات منه، فجاء الطبيب يتعرف خبره فوجده قد مات فقال: لا إله إلا الله من شربة ما كان أقواها، لو عاش ما كان يحتاج إلى أن يشرب الدواء سنة أخرى.

سرت ثياب رجل من الحمام فخرج عرياناً وعلى باب الحمام طيب أحمر، فقال له: ما قصتك؟ فقال: سرت ثيابي قال: بادر واقتصد تخف عنك حرارة الغم.

أصيب بعضهم بأمه فقعد يبكي ويقول: يا أمي أماتني الله قبلك، أمي زانية إن لم تدخل الجنة، لا دخلتها امرأة أبداً.

مات ولد لرجل فقيل له: ادع فلاناً يغسله، فقال: لا أريد، لأن بيني وبينه عداوة فيعتف بابني في الغسل حتى يقتله.

اجتمع رجلان في طريق الحج، فقال أحدهما للآخر: كم قد حججت؟ قال: مع هذه التي نحن فيها واحده.

ماتت جارية لرجل فلما دفنها قال: لقد كنت تقومين بحقوقى، فلا كافئتك، اشهدوا على أنها حرة.

وقفت سائلة على باب قوم، فقال لها رجل اذهبي يا زانية، فقالت: إذا لم تعطني فلم تسبني؟ قال: والله ما أردت بهذا إلا الخير، أردت أن تؤخري وأثم.

حكى أن بعض المغفلين اشترى بقطعة شيرجاً في غضارة، فامتلات الغضارة، فقال البقال: قد بقي لك من الشيرج في أي شيء تأخذه، فقلب الغضارة وقال في هذه وأشار إلى كعبها، فطرح البقال الباقي في ذلك الكعب، فأخذه الرجل ومضى، فلقيه رجل فقال: بكم اشتريت هذا الشيرج؟ فقال: بقطعة، فقال هذا القدر فقط؟ فقلها وقال: هذا أيضاً.

كان لرجل على رجل أربعة دراهم، فجاء يوماً يقتضيه فقال: غداً أعطيك، فقال: لا أذهب حتى تحلف لي أنك تعطينها غداً، فحلف له إنك إن جئت (لا تذهب إلا وهي معك) وأشهد عليه بذلك ومضى، فجاء من الغد فقال له: ما عندي شيء، وإنما حلفت إنك لا ترجع إلا وهي معك أعني (لحيثك) فأشهد عليه بهذا القول وذهب سريعاً إلى الحمام وحلق لحيته وجاء إليه، وما برح حتى أخذ دراهمه.

وقال قوم لغلام: املا بيت الماء، فنقل ماء كثيراً وأبطأ عليهم، فقالوا: ما هذا الإبطاء، فصعدوا إليه فإذا به يقلب الماء في بيت الماء، فقال: كلتموني أن املا هذا وما أظنه يمتلىء في شهر.

حكى لي بعض أصدقائنا قال: كان عندنا رجل أتهم بسرقة، فأخذ وجرت له قصة، فجاءني بعد أيام فقال لي: عندك الخبر، مضيت إلى المنجم فأعطيته قطعة فحسب لي وقال، والله إنك بريء مما اتهمت به وإنك ما سرقت شيئاً.

رأى بعضهم جنازة قد أقبلت فقال: ربي وربك الله لا إله إلا الله، فقال آخر: أخطأت، إذا رأيت جنازة فقل: اللهم البسنا العافية، فتشاجرا في ذلك فاحتكما إلى آخر فقال: إذا رأيتم جنازة فقولوا: «سبحان الله من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته».

قال منجم لرجل من أهل طرسوس: ما نجمك؟ قال: (التيس)، فضحك الحاضرون وقالوا: ليس في النجوم والكواكب تيس، قال: بلى، قد قيل لي وأنا صبي منذ عشرين سنة نجمك (الجدي) فلا شك أنه قد صار تيساً منذ ذلك الوقت.

كان لبعض الكتّاب غلام، فأمسى السيد عند بعض أصدقائه، فقال للغلام: اذهب إلى البيت هات شمعة، فقال: يا سيدي أنا لا أجسر أذهب وحدي في هذا الوقت، فأحب أن تقوم معي حتى أحمل الشمعة وأجيء معك.

وقال رجل لغلام: هات نازاً وأشعلها، قال: يا مولاي لأي شيء تريد النار؟ قال: أريد أتخذ عصيدة، فقال: يا مولاي لقمني حتى أجيء بالعجلة.

لَكَمْ رَجُلٌ رَجُلًا فَصَاحُ: أدميتني، فلم ير دمًا فقال: أين الدم؟ فقال: أنا أرعف من داخل.

وقع رجلان على قافلة فيها ستون رجلاً، فأخذوا مالهم وثيابهم، فقيل لبعضهم: كيف غلبكم رجلان وأنتم ستون؟ فقال: أحاط بنا واحد وسلبنا الآخر كيف نعمل؟

كلم رجل رجلاً بشيء يغضبه فقال: أتقول لي هذا وأنا رجل من (الأنصار)؟ قال له: النصارى واليهود عندنا في الحق سواء.

عن ابن الرومي قال: قال طبيب لتلميذه: إذا دخلت إلى مريض فانظر إلى أثر ما عنده من طعام أو شراب، فانه عما لا يصلح من ذلك، فدخل الغلام يوماً على مريض فنظر إلى حداجة جمل في الدار فقال للمريض: أنا والله لا أصف لك

دواء، قال: ولم؟ قال: لأنك قد أكلت جملاً، قال: لا والله ما أكلت جملاً قط، فقال: هذه الحداجة من أين؟

عن إبراهيم بن القعقاع: انتبه قوم ليلة في رمضان وقت السحور فقالوا لأحدهم: انظر هل تسمع أذاناً؟ فأبطأ عنهم ساعة ثم رجع فقال: اشربوا، فإني لم أسمع أذاناً إلا من مكان بعيد.

كتب رجل من آل أبي رافع على خاتمه أنا فلان ابن فلان رحم الله من قال آمين.

مرض رجل مرة، فلما اشتد به المرض أمر بجمع العيدان والطنابير والمزامير إلى بيته، فأنكروا عليه ذلك فقال: إنما فعلت ذلك لأنني سمعت أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه شيء من آلات الملاهي والفجور، فإن كان ملك الموت من الملائكة دفعته عني بهذه الأشياء.

غضب رجل رجلاً شيئاً وتصدق به، فقبل له في ذلك، فقال: أخذي إياه سيئة، وصدقتي به عشر حسنات، فمضت واحدة وبقيت لي تسعة.

سئلت امرأة عن حرفة زوجها فقالت: متولي إخراج المساكين من المسجد الجامع، وقد أرجعت له المقصورة.

قيل لبعضهم: كل، قال: ما بي أكل، لأنني أكلت قليل أرز فأكثرته منه.

جاء قوم إلى رجل من الوجوه يسألونه كيفنا لجارية له ماتت فقال: ما عندي شيء فتعودون، قالوا: فتملحها إلى أن يتيسر عندك شيء.

سئل بعض المشايخ المغفلين، أتذكر إن حج الناس في رمضان؟ ففكر ساعة ثم قال: بلى أظن مرتين أو ثلاثة.

قيل لمغفل: كيف دملك سكن وجعه؟ قال: والله ما أرى أسألوا أمي.

قال بعض الناس لمملوكه: أخرج وانظر هل السماء مصحبة أو مغممة، فخرج ثم عاد فقال: والله ما تركني المطر أنظر هل هي مغممة أم لا.

قال بعضهم لآخر وكان أحرق: المستشار مؤتمن، وأني أريد أن أغسل ثيابي غداً، أفترى تطلع الشمس أم لا.

جاء رجل إلى أبي حكيم الفقيه وأنا حاضر، ومع الرجل ابنته ليزوجها من رجل، فقال له الشيخ: أبكر ابنتك أم ثيب؟ فقال: والله يا سيدي ما هي لا بكر ولا ثيب، ولكنها واسطة، فقال الشيخ: فأيش هي، عوان بين ذلك؟ فضحك الجماعة وذلك الوالد لا يدري.

عن أبي محمد بن معروف قال: كان يلزمني فتى نصراني حسن الخط مليح الشعر، إلا أنه كان سوداويًا، فحكم لنفسه أنه يموت في اليوم الفلاني، فجاء ذلك اليوم وهو صحيح، فخاصم امرأته وترقى الشر بينهما إلى أن أخذ عمود الهاون ودق به رأسها فماتت، فجزع جزعًا شديدًا فقال: قد علمت أنه يوم قطع علي ولا بد أن أموت فيه، والساعة يجيء أصحاب الشرطة فيأخذوني فيقتلونني، فأنا أقتل نفسي عزيزًا أحب إلي، فأخذ سكينًا فشقّ بها بطنه، فأدركته حلاوة الحياة، فلم يتمكن من تخريقها فسقطت السكين، فقال هذا ليس بشيء، فصعد إلى السطح فرمى نفسه إلى الأرض فلم يمّت واندقت عظامه، فجاء صاحب الشرطة فأخذه، فلما كان آخر الليل مات.

عن أبي الحسن علي بن نظيف المتكلم قال: كان يحضر معنا ببغداد شيخ، فحدّثنا أنه دخل على بعض من كان يعرفه بالتشيع قال: فوجدته وبين يديه سنور وهو يمسحها ويحك بين عينيها ورأسها، وعيناها تدمعان كما جرت عادة السنانير، وهو يبكي بكاء شديدًا، فقلت له: لم تبكي؟ فقال: ويحك ما ترى هذه السنور تبكي كلما مسحتها، هذه أُمي لا شك، وإنما تبكي حسرة من رؤيتها إلي، قال: فأخذ يخاطبها بخطاب من عنده ظانًا أنها تفهم عنه وجعلت السنور تصيح قليلًا قليلًا، فقلت له: فهي تفهم عنك ما تخاطبها به؟ قال: نعم، فقلت له: أنفهم أنت عنها خطابها؟ قال: لا، قلت: فأنت إذن الممسوخ وهي الإنسان.

قال الجاحظ: مررت يومًا بقطان في الكرخ في دكانه وعليه لحية طويلة وقميص جديد غليظ، وكان يومًا صائفًا شديد الحر فتعجبت منه، فقال لي: ما وقوفك أعزك الله؟ قلت: أتعجب من صبرك على هذا القميص الجديد في هذا الحر الشديد! قال: صدقت أعزك الله، عندي غزل كثير، وعزمي أن أسلم منه إلى الحائك قميصًا خلقًا أتخفف به طول هذه الصيفية، فقلت: الصواب ما رأيت.

وقال: دخلت يومًا على بعض إخواني من التجار أعوده وكان طويل اللحية، فقلت له: ما أكلت؟ فقال: شؤوا لي خاسرة وأكلت، (يعني خائرة).

وقال: أخبرت عن الأصمعي قال: عرض الرشيد خيل مصر فما مرّ به فرس إلا وعليه سمة (نتاج الفخر الجنيدي)، فقال: ويلكم من هذا الجنيدي الذي له كل هذا التاج؟ وأمر بإشخاصه، فكتب إلى عامل مصر فأشخصه، فلما دخل عليه نظر إليه من أول الدار، فإذا عليه لحية قد أخذت لسرته طولاً ولأباطه عرضاً، وإذا هو مستعجل في مشيه ينظر إلى أعطافه، فلما رآه قال أحرق ورب الكعبة، فلما دنا منه قال: يا جنيدي من أين لك هذا الخيل؟ قال: من رزق الله وأفضاله، فلما رآه هالكا قال: ما أحسن لحيتك يا جنيدي، قال: اقبلها يا أمير المؤمنين خلعة لك، والخيل معك فبها فداهما الله، فإن قدرك عندي أعظم القدور وكرامتك عندي عزيزة جداً، فصاح به أغرب عليك لعنة الله، ثم قال: أخرجوه، فقد أسمعني كل مكروه لعن الله هذا وخيله معه.

قال ابن قتيبة: حدث جار لأبي حية النميري قال: كان لأبي حية سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق، وكان يسميه «لعاب المنية» قال: فأشرفت عليه ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيت في داره وقد سمع حساً وهو يقول: أيها المغتر بنا والمجترى علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل، لعاب المنية الذي سمعت به، مشهورة ضربته لا تخاف نبوته، أخرج بالعمو عنك لا أدخل بالعقوبة عليك؛ إني والله أن أدع قيساً تملأ الفضاء خيلاً ورجلاً، يا سبحان الله ما أكثرها وأطيبها، ثم فتح الباب فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفاني حرباً.

قال الفضل: ابن مرزوق: أتدرون لأي شيء كثر مالي؟ قالوا: لا، قال: لأنني سميت نفسي بيني وبين الله محمد، وإذا كان اسمي عند الله محمداً فما أبالي ما قال الناس.

عن المزرودي قال: اشتري أحمد الجوهري كساء أبيضاً طبرياً بأربعمائة درهم، وهو عند الناس فيما تراه عيونهم (قوهي) يساوي مائة درهم، قال: إذا علم الله أنه طبري فما علي من الناس.

قال الجاحظ: كان أبو خزيمة يكتني (أبا جاريتين) فقلت له يوماً: كيف اكتنيت بهذه الكنية وأنت فقير لا تملك جاريتين: أفتبيعهما الساعة بدينار وتكتني أي كنية شئت؟ قال: لا والله ولا بالدنيا وما فيها.

وقال عن ثمامة بن أشرس قال: كان رجل يقوم كل يوم فيأتي دالية لقوم، فلا يزال يمشي مع رجال الدالية على ذلك الجزع ذاهبًا وجائئًا في شدة البرد والحر حتى إذا أمسى نزل إلى النهر فتوضأ وصلى وقال: اللهم اجعل لي من هذا فرجًا ومخرجًا ثم انصرف إلى البيت، فكان كذلك حتى مات.

قال: وحدثني يزيد مولى إسحاق بن عيسى قال: كنا في منزل صاحب لنا إذ خرج واحد منا ليقيل في البيت الآخر، فلم يلبث ساعة حتى سمعناه يصيح أواه، فنزلنا بأجمعنا إليه فزعين وقلنا: ما لك ما لك؟ وإذا هو على شقه الأيسر وهو قابض بيده على خصيته، فقلنا له: لم صحت؟ قال: إذا غمرت خصيتي اشتكيتها وإذا اشتكيتها صحت، فقلنا: لا تغمزها، قال: نعم إن شاء الله، جزاكم الله خيرًا.

قال: وحدثني ثمامة، قال: مررت يومًا وإذا شيخ أصفر كأنه جراداة وزنجي يحجمه قد مصّ دمه حتى كاد يستفرغه، فقلت: يا شيخ لم تحتجم؟ قال: لمكان هذا الصفار الذي بي.

كان لرجل من أصدقائنا غلام، فأعطاه قطعًا ليشتري بها شيئًا، وكان فيها قطعة رديئة، فقال له: يا سيدي هذه ما يأخذها الرجل، فقال: اجتهد أن تصرفها كيف اتفق، فلما اشترى وجاء قال: وقد صرفتها، قال: كيف فعلت؟ قال: تركته يرن الذهب وتغفلته فرميتها في ميزانه.

حكى لي بعض إخواننا أن رجلًا أتى مفسر المنامات فقال: رأيت كأن معي رجلين ونحن نمضي إلى فلان في حاجة، فقال له: أنتعرف الرجلين؟ قال: أعرف أحدهما ومنزله في باب البصرة، فأريد أسأل صاحبي عن ذلك الرجل الآخر.

سمع رجل في زماننا قومًا يتكلمون في القرآن، ويقول بعضهم: ليس بقديم، فقال: ما أبله هؤلاء قد تكلم الله بالقرآن منذ خمسمائة سنة فكيف لا يكون قديمًا.

اشترى رجل في زماننا من بقال رطلين دبسًا، فأعطاه طاسًا ليجمعه فيها، فغرف بالطاسة من التغار وترك صنجة الرطلين، فلما رآها ترجح صب من الدبس ثم أعادها إلى الميزان، فرجحت فجعل يصب ثم يعيدها وهي ترجح، فقال لصاحبها: ما أرى يبقى لك شيء فقال له صاحبها: هذه الطاسة فيها ثلاثة أرطال فإن أردت أن تستوي الميزان فاكسر من جانب الطاسة، وإلا ما تستوي.

قرأت بخط بعض المغفلين وقد نظر في كتاب ثم كتب عليه: «نظرت في هذا الكتاب والأقوات رخيصة، والكاراة السميد تساوي دينارًا ودانقًا، والخشكار بثمانية عشر قيراطًا، فالله تعالى يديم ذلك».

وكتب آخر على كتاب: «نظر فيه فلان ابن فلان وأنا من ولد داود ابن عيسى ابن موسى وموسى هو أخو السفاح».

حدّثني بعض إخواني أنه كان بتكريت وأن رجلاً اشترى من خباز مائتين وعشرين رطلاً من الخبز بدينار، ثم كان يأخذ كل يوم شيئاً إلى أن تحاسبا يوماً، فقال: قد أخذت مائة وعشرين رطلاً وبقي لك مائة وعشرين، فقال له: اندر هذه بهذه واعطني الدينار، فجعل الرجل يستغيث ويقول: كيف أعمل بهذا؟ فيقول: أليس لك عندي مائة وعشرين وولي عندك مائة وعشرين؟ فيقول: بلى، فيقول: اندر هذه بهذه واعطني الدينار، فاجتمع الناس عليهم على ذلك إلى أن رفعت قصتهم إلى الأمير.

رجع بعض القريشيين إلى امرأته وكانت قريشية وقد حلقت شعرها، وكانت أحسن النساء شعراً. فقال: ما خطبك؟ فقالت: أردت أن أغلق الباب فلمحني رجل ورأسه مكشوف فحلقتة، وما كنت لأدع شعراً رآه من ليس لي بمحرم. ومثل هذا بلغني عن بعض القصاص أنه قال لأصحابه: احلقوا اللحي التي تنبت في مواقف الشيطان.

حدّثني بعض العلماء أن رجلاً مغفلاً نظر في المصحف فقال: قد وجدت فيه غلطتين فأصلحوها، قالوا: وما هي؟ قال: (كل بناء وعواص) هذا غلط إنما يجب أن يكون - كل بناء وجصاص - والأخرى (والتين والزيتون) إنما هي - والجبن والزيتون -.

حدّثني بعض الأصدقاء أن رجلاً وقف بباب داره يوم الجمعة والمطر يأتي سيلاً، فقال لرجل من المازين: يا أخي هوذا الذي يجيء مطر؟ فقال له: أما ترى؟ فقال: أردت أن أقلّد غيري في انقطاعي عن الجمعة ولا أعمل بعلمي.

وروى أبو بكر الصولي عن إسحاق قال: كنا عند المعتصم، فعرضت عليه جارية، فقال: كيف ترونها؟ فقال واحد من الحاضرين: امرأتي طالق إن كان الله عزّ وجلّ خلق مثلها، وقال الآخر: امرأتي طالق إن كنت رأيت مثلها، وقال

الثالث: امرأتي طالق وسكت، فقال المعتصم: إن كان ماذا؟ فقال إذا كان لا شيء، فضحك المعتصم حتى استلقى وقال: ويحك ما حملك على هذا؟ قال: يا سيدي هذان الأحمقان طلقا لعة، وأنا طلقت بلا علة.

قيل لبعض البله وكان يتحرى من الغيبة: ما تقول في إبليس؟ فقال: أسمع الكلام عليه كثيرًا والله أعلم بسريره.

حكى لي بعض الإخوان أن بعض المغفلين كان يقود حمارًا، فقال بعض الأذكياء لرفيق له: يمكنني أن آخذ هذا الحمار ولا يعلم هذا المغفل، قال: كيف تعمل ومقوده بيده؟ فتقدم فحل المقود وتركه في رأس نفسه وقال لرفيقه: خذ الحمار واذهب، فأخذه، ومشى ذلك الرجل خلف المغفل والمقود في رأسه ساعة، ثم وقف فجذبه فما مشى، فالتفت فرآه، فقال: أين الحمار؟ فقال: أنا هو، قال: وكيف هذا؟ قال: كنت عاقًا لوالدتي فمسخت حمارًا، ولي هذه المدة في خدمتك، والآن قد رضيت عني أمي فعدت آدميًا، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكيف كنت أستخدمك وأنت آدمي! قال: قد كان ذلك، قال: فاذهب في دعة الله، فذهب ومضى المغفل إلى بيته فقال لزوجته: أعندك الخبر؟ كان الأمر كذا وكذا، وكنا نستخدم آدميًا ولا ندرى فيماذا نكفر وبماذا نتوب؟ فقالت: تصدق بما يمكن، قال: فبقي أيامًا، ثم قالت له: إنما شغلك المكاراة فاذهب واشتر حمارًا لتعمل عليه، فخرج إلى السوق فوجد حماره ينادي عليه، فتقدم وجعل فمه في أذنه وقال: يا مدبر عدت إلى عقوق أمك.

ماتت قرية لأبي منصور بن الفرج، وكان رئيسًا فاجتمع الناس على اختلاف طبقاتهم لقضاء حقه، وخرجت الجنازة وجعل النساء يلطنن ويقلن واستأه واستأه، على ما جرت به العادة، فأنكر زوج المرأة هذا وقال: لا ست إلا الله وصاح عليهن، فضحك الناس وصار المقام هزلًا بعد الحزن.

دخل على موسى بن عبد الملك يومًا صاحب خزانة السلاح فقال له: قد تقدم أمير المؤمنين - يعني المتوكل - ليبتاع ألف رمح طول كل رمح أربعة عشر ذراعًا، فقال: هذا الطول فكم يكون العرض؟ فضحك الناس ولم يفتن لما غلط فيه.

قال المبرد: قرأ ابن رباح بحضرة المنتصر «كتاب الصدقات» فقال: في كل ثلاثين بقرة تبيع، فقال المنتصر: ما التبيع؟ فقال أحمد بن الخصيب: البقرة وزوجها.

سمع أحمد بن الخصيب مغنية تغني:

إن العيون التي في طرفها مرض قتلنا ثم لم يحيين قتلانا

فقال: هذا الشعر لأبي.

كان سهل بن بشر ممن ارتفع في الدول الدبلوماسية وكان رقيقاً، فشم فراشاً فرد عليه، فقام يعدو خلفه فوقعت عمامته، فأخذها سهل وما زال يعضها ويخرقها ويقول: اشتفيت والله ثم عاد إلى مكانه.

شهد رجل عند بعض القضاة على رجل، فقال المشهود عليه: أيها القاضي تقبل شهادته ومعه عشرون ألف دينار ولم يحج إلى بيت الله الحرام؟ فقال: بلى حججت، قال: فاسأله عن زمزم، فقال: حججت قبل أن تحفر زمزم فلم أرها.

قال أبو الحسن بن هلال الصابي: أحضر إنسان بناء لمشاهدة حائط في داره قد عاب، فاتفق أن أمه تغسل الثياب فأخرج إلى البناء تراباً من تراب ذلك الحائط في طشت وقال: ما يمكن أنك اليوم تدخل فهذا من ترابه فانظر إليه واعرف ما يريد، فقال: أنا أرجع إليك غداً، فضحك منه وانصرف. قال وكان في جوارنا فقيه يعرف بالكشغلي من الشافعيين، تقدم في العلم حتى صار في رتبة أبي حامد الإسفراييني وقعد بعد موته مكانه، قال: فأهديت إليه عمامة عريضة قصيرة من خراسان، فقلت له: أيها الشيخ، اقطعها والفقها ليمكنك التعمم بها، فلما كان من الغد رأيتها على رأسه أقبح منظر، فتأملتها وإذا به قد قطعها عرضاً ولفقها، فصار عرضها أربعة عشر شبراً وطولها نصف ما كان، فتعجبت منه ولم أراجع.

أخبرني عيسى اللحام قال: جاءني رجل له منظر ليشتري مني إلية، فأخرجت له إلية صغيرة، فقال لي: أتهدأ بي؟ هذه إلية وأنا أريد إلية الضان، فقلت له: ليس للبقرة إلية، فقال: حدث بهذا غيري ولا تستبهنني، فطالعت له غيرها فأعجبته ورضي بها.

وقع جرف في بعض السنين فقال بعض المغفلين: مات في هذه السنة من لم يمت قط.

الباب الخامس

قصص الملوك والخلفاء والوزراء
والحجاب والولادة
قصص القضاة والقصاص
قصص العبيد والإماء والخدم

قصص الملوك والخلفاء والوزراء والحجّاب والوُلاة

في ذكر الوزراء

قال في المستطرف^(١): قال الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ﴾ [طه: الآية ٢٩]. فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة، فقال: ﴿أَشَدُّ بِهِمْ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾ [طه: الآيتان ٣١، ٣٢] دلّت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحموده، ثم قال: ﴿كَيْ تُسِحَّكَ كَثِيْرًا (٣٣) وَتَذَكَّرَكَ كَثِيْرًا (٣٤)﴾ [طه: الآيتان ٣٣، ٣٤] دلّت هذه الآية على أن يصحبه العلماء والصالحين أهل الخبرة والمعرفة، تنتظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأفره^(٢) الخيل إلى السوط، وأحد السفار إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم إلى الوزير.

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله. وقال وهب بن منبه: قال موسى لفرعون: آمن ولك الجنة ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان، فشاوره في ذلك، فقال له هامان: بينما أنت إله تُعبد إذ صرت تُعْبُد، فأنف واستكبر، وكان من أمره ما كان. وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالاً، ولبئس القرناء شر قرين لشر

(٢) أفره الخيل: أحسنها قواماً ونشاطاً.

(١) المستطرف: ص ١٠٢ - ١٠٣.

خدين^(١)، وأشرف منازل الأدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة، وفي الأمثال: نعم الظهير الوزير. وأولى ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله في انتخاب الوزراء واستنقاء الجلساء ومحاذئة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله، وبهذه خلال^(٢) يجمل في الخلق ذكره، وترسخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقربنه، وكان يقال حلية الملوك وزيتهم وزراؤهم.

وفي كتاب كليلة ودمنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان، وقال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، وفي كل صحيفة: ارحم المسكين واخش الموت، واذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه، ومثل الملك الخير والوزير سوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافي فيه التمساح، فلا يستطيع المرء دخوله، وإن كان سابحًا وإلى الماء محتاجًا، ومثل السلطان كممثل الطبيب، ومثل الرعية مثل المرضى، ومثل الوزير كممثل السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير. وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحدًا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه، فإذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل، فيقتله الملك، فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون صدوقًا في لسانه عدلًا في دينه مأمونًا في أخلاقه بصيرًا بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضًا من أهل الأمانة والبصيرة، وليحذر الملك أن يولي الوزارة لثيمًا، فاللثيم إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل.

ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والأدب، فوجد عنده رجلًا ذميًا كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشداً:

يا ملكًا طاعتهُ لازمه وحبّه مفترضٌ واجبُ
إن الذي شرفّت من أجله يزعم هذا أنّه كاذب

وأشار إلى الذمي، فأسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله، فلم يجد بداً من أن يقول هو صادق، فاعترف بالإسلام.

(٢) خلال: الصفات.

(١) الخدين: الصديق.

كان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره: إذا رأيتني غضبان، فادفع إليّ رقعة بعد رقعة، وكان في الأولى أنك لست بإله، وأنك ستموت، وتعود إلى التراب، فيأكل بعضك بعضاً، وفي الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، وفي الثالثة: اقض بين الناس بحكم الله، فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك.

ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزمة الملوك في أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا: لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير، وإذا أحبك الوزير، فم لا تخش الأمير، ومثل السلطان كالدار والوزير بابها، فمن أتى الدار من بابها ولج^(١) ومن أتاها من غير بابها انزعج. وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرأة من البصر، فكما أن من لم ينظر في المرأة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها. ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤوفاً بهم.

واعلم أنه ليس للوزير أن يكتف عن السلطان نصيحة، وإن استقلها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرأة لا تترك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقاها من الصدأ. كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، ونقاء قلبه.

في ذكر الحجاب

قال في المستطرف^(٢): قيل: لا شيء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب. وقيل: إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. وقال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال لحاجبه: من بالباب؟ فقال: رجل أناخ ناقته الآن، يزعم أنه بلال مؤذن رسول الله ﷺ، فأذن له أن يدخل، فلما دخل قال: حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من ولي شيئاً من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجه الله عنه يوم القيامة»، فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك، فما رأي على بابك بعد ذلك حاجب.

(٢) المستطرف: ص ١٠٤.

(١) ولج: دخل.

وكان خالد بن عبد الله القشيري يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسي فلا تحجبني عني أحدًا. فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه أحد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئًا. وكانت العجم تقول: لا شيء أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك، ولا شيء أهيب لرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته.

وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها، قيل: فما الذي هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنيا ثم لا يؤذن له. ووقف عبد الله بن العباس العلوي على باب المأمون يومًا، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبولنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه، ثم تمثل بهذا البيت:

وما عن رضى كان الحمار مطيتي ولكن من يمشي سيرضى بما ركب

ثم انصرف، فبلغ ذلك المأمون، فضرب الحاجب ضربًا شديدًا وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب.

قال الشاعر:

رأيت أناسًا يسرعون تبادرًا إذا فتح البواب بابك أصبعا
ونحن جلوس ساكتون رزانة وحلمًا إلى أن يفتح الباب أجمعا

ووقف رجل خراساني بباب أبي دلف العجلي^(١) حينًا فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف في وصولها إليه وفيها:

إذا كان الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم
فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريم قليل مالٍ ولم يعذر تعلل بالحجاب
وأبواب الملوك محجبات فلا تستنكرن حجاب بابي

(١) هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل من بني عجل بن لجيم، أمير الكرخ وسيد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان، قلده الرشيد أعمال الجبل، ثم كان من قادة جيش المأمون، وأخبار أدبه وشجاعته كثيرة، وللشعراء فيه مدائح كثيرة، وله مؤلفات كثيرة منها: «سياسة الملوك» و«البراة والصيد». وهو من العلماء بصناعة الغناء، توفي ببغداد سنة ٢٢٦ هـ.

ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم:

سأهجركم حتى يلين حجابكم
خذوا حذرکم من صفوة الدهر إنها
على أنه لا بدّ سوف يلينُ
وإن لم تكن خانت فسوف تخونُ
وقال آخر:

ماذا على بواب داركم الذي
لو ردنا ردًا جميلًا عنكمُ
لم يعطنا إذنا ولا يُستأذنُ
أو كان يدفع بالتي هي أحسنُ
وقال آخر:

أمرت بالتسهيل في الإذن لي
فلن تراني بعدها عائداً
ولم ير الحاجب أن يأذنا
ولن تراه بعد مستأذنا
وقال آخر:

ولقد رأيت بباب دارك جفوةً
ما بال دارك حين تدخل جنةً
فيها لحسن صنيعك التكدير^(١)
وبباب دارك منكرٌ ونكيرُ
وقال آخر:

إذا جئت ألقى عند بابك حاجبًا
ومن عجبٍ مغناك جنةً قاصدٍ
محيّاه من فرط الجهالة حالكُ
وحاجبها من دون رضوان مالكُ
وقال آخر:

سأترك بابًا أنت تملك إذنه
فلو كنت بواب الجنان تركتها
ولو كنت أعمى عن جميع المسالكِ
وحولت رجلي مسرعًا نحو مالكِ
وقال آخر:

ماذا يفيدك أن تكون محجّبًا
ما أنت إلّا في الحصار معي فلا
والعبد بالباب الكريم يلوذ^(٢)
تتعب فكلّ محاصرٍ مأخوذُ
وقال أبو تمام:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه
على ما أرى حتى يلين قليلا

(٢) يلوذ: يحمي.

(١) التكدير: تعكير المودة.

فما خاب من لم يآته متعمداً ولا فاز من قد نال منه وصولاً
إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً وجدنا إلى ترك المجيء سبيلاً

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب: قل له إن الكرى قد خطب إلى نفسي وإنما هي هجعة وأهب، فخرج الحاجب، فقال له الرجل: ما الذي قال لك؟ قال: قال كلاماً لا أفهمه وهو يريد أن لا يأذن لك.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة إذنه وبذل طعامه. وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة^(١) والمسألة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسألته»، وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه، فقال:

سأصبر إن جفوت فكم صبرنا لمثلك من أميرٍ أو وزير
رجوناهم فلما أخلفونا تمادت فيهم غير الدهور
فبتنا بالسلامة وهي غنمٌ وياتوا في المحابس والقبور
ولمّا لم نئل منهم سروراً رأينا فيهم كل السرور
وأشددوا في ذلك أيضاً:

قل للذين تحجبوا عن راغبٍ بمنازلٍ من دونها الحجاب
إن حال عن لقياكم بوابكم فالله ليس لبابه بواب

معاوية وسعد بن مالك

واستأذن سعد بن مالك على معاوية، فحجبه، فهتف بالبكاء، فأتى الناس وفيهم كعب^(٢) فقال: وما يبكيك يا سعد؟ فقال: وما لي لا أبكي وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة؟ فقال كعب: لا

(١) الخلة: الفقر.

(٢) هو كعب بن جعيل بن قمبر بن عجرة التغلبي، شاعر تغلب في عصره، مخضرم عرف في الجاهلية والإسلام، وكان لا ينزل بقوم إلا أكرموه وضربوا له قبة أدركه الأخطل في صباه وهاجاه، وكان في زمن معاوية وشهد معه «صفين» قال المرزباني هو شاعر معاوية بن أبي سفيان توفي حوالي سنة ٥٥ هـ.

تبك، فإن في الجئّة قصرًا من ذهب يقال له عدن أهله الصديقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله.

واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لثيم، فحجبه فقال:

في كلّ يومٍ لي ببابك وقفَةٌ أطوي إليك سائر الأبوابِ
وإذا حضرت رغبت عنك فإنه ذنبٌ عقوبتُهُ على البوابِ

في ذكر الولاية

قال الله تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: الآية ٢٦].

جاء في التفسير أن من اتبع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذي في قلبك محبة خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الذي أصاب سليمان بن داود عليهما السلام أن ناسًا من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نساءه عليه، تحاكموا إليه مع غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحدًا.

وَرُوِيَ عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة عنت عليها، وإن أعطيتها من مسألة وكلت إليها».

وقال معقل بن يسار رضي الله عنه، سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة».

وفي الحديث: «مَنْ ولى من أمور المسلمين شيئًا ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته، فليتبوا^(١) مقعده من النار». وروِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة، فأبى، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقف على جسر جهنم، فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه، ثم يأمر الله تعالى بالعظام،

(١) فليتبوا: فليأخذ وليقم.

فترجع إلى أماكنها، فإن كان الله مطيعاً أخذ بيده، وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان الله عاصياً انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفاً، فقال عمر رضي الله عنه سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع قال: نعم.

وكان سلمان وأبو ذر حاضرين، فقال سلمان: أي والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفاً في واد يلهب التهابة، فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. من يأخذها بما فيها، فقال سلمان أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض.

وروى أبو داود في السنن قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي عريف على الماء، وإنني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده، فقال النبي ﷺ «العراف في النار».

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الإمام الجائر». وقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة، فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة».

وقال الحسن البصري إن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله، فقال يا رسول الله خر لي فقال: «اقعد في بيتك». وقال أبو هريرة رضي الله عنه ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جيء به يوم القيامة مغلولاً، أنجاه عمله أو أهلكه.

وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال سليمان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه فجار في حكمه، فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه.

وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيرون إليه في ألواحهم فلم ينظر إليهما، وقال: هذا حكم لا أتولى حكماً أبداً. وقال أبو بكر بن أبي مريم: حج قوم، فمات صاحب لهم بأرض فلاة، فلم يجدوا ماء، فأتاهم رجل فقالوا له: دلنا على الماء. فقال: احلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يمينا أنه لم يكن صرافاً ولا مكاساً^(١) ولا عريفاً، ويروى ولا عرافاً، ولا بريداً، وأنا أدلكم على

(١) المكاس: من المكوس وهي الضرائب والمكاس أي من جباة الضرائب.

الماء، فحلقوا له ثلاثاً وثلاثين يمينا كما تقدم، فحلقوا له، فأعانهم على غسله، ثم قالوا له: تقدم فصلّ عليه، فقال: لا، حتى تحلقوا لي ثلاثاً وثلاثين يمينا كما تقدم، فحلقوا له فصلّى عليه، ثم التفتوا فلم يجدوا أحداً، فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام. وقال أبو ذر رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إني أحل لك ما أحب لنفسي، وإني أراك ضعيفاً، فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم».

الوزير المخلص

حُكي أن ملكاً من ملوك الفرس يقال له أردشير، وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير، وكان ذا بأس شديد، وقد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع، وأن هذه البنت بكر ذات خدر، فسير أردشير من يخطبها من أيها، فامتنع من إجابته، ولم يرض بذلك، فعظم ذلك على أردشير، وأقسم بالإيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت، وليقتلنه هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أخبث مثلة، فسار إليه أردشير في جيوشه، فقاتله، فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسناً وجمالاً وقدراً واعتدالاً، فبهت أردشير من رؤيته إياها، فقالت له: أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية، وأن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرنى في جملة الأسارى وأتى بي في هذا القصر، فلما رأني ابنته التي أرسلت تخطبها أحببني، وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي، فتركني لها، فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك، فقال أردشير: وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة.

ثم إنه تأمل الجارية فراها فائقة في الجمال، فمالت نفسه إليها، فأخذها للتسري، وقال: هذه أجنبية من الملك ولا أحنت في يميني بأخذها، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها، فحملت منه، فلما ظهر عليها الحمل، اتفق أنها تحدثت معه يوماً، وقد رأته منشرح الصدر، فقالت له: أنت غلبت أبي وأنا غلبتك، فقال لها: ومن أبوك؟ فقالت له: هو ملك بحر الأردن، وأنا ابنته التي خطبتها منه، وأنني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك في بطني، فلا

يتهيأ لك قتلي، فعمم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها، وخرج من عندها مغضبًا، وعول على قتلها.

ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قويًا على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا، وأنه لا يقبل فيها شفاعه شافع، فقال: أيها الملك إن الرأي هو الذي خطر لك والمصلحة هي التي رأيتها أنت، وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأي الملك وحتته^(١) في يمينه لأجل شهوة النفس، ثم قال: أيها الملك إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها، وهي أولى بالستر، ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق، فقال له الملك: نعم ما رأيت خذها غرقها.

فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيل إلى أن طرح شيئًا في البحر أوهم من كان معه أنها الجارية، ثم إنه أخفاها عنده، فلما أصبح جاء إلى الملك، فأخبره أنه غرقها، فشكره على ما فعل، ثم إن الوزير ناول الملك حقًا مختومًا وقال: أيها الملك إنني نظرت مولدي، فرأيت أجلي قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم، وإن لي أولادًا وعندي مال قد ادخرته من نعمتك، فخذها إذا أنا مت إن رأيت، وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فإنه إرثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء ما اكتسبته منه إلا هذا الجوهر، فقال له الملك: يطول الرب في عمرك ومالك لك ولأولادك سواء كنت حيًا أو ميتًا، فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة فأخذها الملك وأودعه عنده في صندوق.

ثم مضت أشهر الجارية، فوضعت ولدًا ذكرًا جميلًا حسن الخلقة مثل فلقة القمر، فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته، فرأى أنه إن اخترع له اسمًا وسماه به، وظهر لوالده بعد ذلك، فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك، فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك، وبور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر، وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية، وهو يوهم أنه

(١) الحنث باليمين: أي لم يف بها.

مملوك له اسمه شاه بور، إلى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد، وقد طعن في السن وأقعده الهرم، فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: قد هرم جسمي وضعفت قوتي وإني أرى أنني ميت لا محالة، وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضي له به.

فقال الوزير: لو شاء الله أن يكون للملك ولد، وكان قد ولي بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها، فقال الملك: لقد ندمت على تغريقها. ولو كنت أبقيتها حتى تضع، فلعل حملها يكون ذكرًا، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا، قال: أيها الملك إنها عندي حية ولقد ولدت ووضعت ولدًا ذكرًا من أحسن الغلمان خَلَقًا وَخُلُقًا، فقال الملك: أحق ما تقول؟ فأقسم الوزير أن نعم، ثم قال: أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوّة الأب وفي الوالد روحانية تشهد ببنوّة الابن، لا يكاد ذلك ينخرم^(١) أبدًا، وإنني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلامًا في سنه وهيبته ولباسه، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو. وإني أعطي كل واحد منهم صولجانًا وكرة وأمّهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم وشمائلهم، فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو.

فقال الملك: نعم التدبير الذي قلت، فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك، فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور، فإنه كان إذا ضربها، وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم، فأخذها ولا تأخذها الهيبة منه، فلاحظ أردشير ذلك منه مرارًا، فقال: أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور، فقال له: صدقت أنت ابني حقًا، ثم ضمه إليه وقبّله بين عينيه، فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والدًا بحضرة الملك، فتحقق الصدق في ذلك، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها، فقَبِلت يد الملك، فرضي عنها.

فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى إحضار الحُق المختوم، فأمر الملك بإحضاره، ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحته فإذا فيه ذكر

(١) ينخرم: يخرق يبطل.

الوزير وأنتيابه مقطوعة مصانته فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك، وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك، فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة، قال: فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة، وشدة مناصحته، فزاده سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به، ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصح جسمه، ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة، ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى.

قصص القضاة والقصاص

في ذكر القضاة

قال في المستطرف^(١): قال الله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [ص: الآية ٢٦]. وقال تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: الآية ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَكَمَ بَيْنَ اثْنَيْنِ تَحَاكَمَا إِلَيْهِ وَارْتَضِيَاهُ، فَلَمْ يَقْضِ بَيْنَهُمَا بِالْحَقِّ، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ» وعن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما، فسلم عليه، فلم يرد عليه، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وجد^(٢) علي خليفة رسول الله ﷺ، فكلم عبد الرحمن أبا بكر، فقال: أتاني، وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سائلي عنهما وعا قالا وقلت.

وادعى رجل على علي عند عمر رضي الله عنهما وعلي جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك، فتناظرا، وانصرف الرجل، ورجع علي إلى مجلسه، فتبين لعمر التغير في وجه علي، فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيرا، أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنتني بحضرة خصمي. هلا قلت يا علي قم، فاجلس مع خصمك، فأخذ عمر برأس علي رضي الله عنهما، فقبله بين عينيه، ثم قال: بأبي أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور.

(٢) وجد: غضب وحقد.

(١) المستطرف: ص ١٠٩.

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: القاضي كالغريق في البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحاً.

وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء، فأبى، فحلف ليضربنه بالسياط، وليسجننه، فضربه حتى انتفخ وجهه أبي حنيفة ورأسه من الضرب، فقال: الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليّ من الضرب بمقامع الحديد في الآخرة.

وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزاً، فكتبنا إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فكتب إلينا، لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي، ثم فتح، فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلّة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خان الأمير وكاتباه وقاضي الأرض داهن في القضاء
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماء
وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن إرم.

عن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله مع القاضي ما لم يجز، فإذا جار برىء الله منه ولزمه الشيطان».

وقال محمد بن حريث: بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة، واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك فقبض.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «القضاة جسور للناس يمزون على ظهورهم يوم القيامة».

وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضياً، لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضياً.

وقيل: أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، كان أمير البصرة وقاضياً فيها وكان يقول: إن الرجلين يتقدمان إليّ فأجد

أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له. وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار، فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيى: لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بينة، فأراد أن يحلف المأمون فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة: إني تناولتك من جهة القدرة ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطاءه.

وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل، فقال أبو يوسف: قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع، يا غلام اتنني بعمر بن عمرو بن أبي عمرو النحاس فإنه إن قدم عليّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين، ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة، فقال له: لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي، فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم.

وقال العكلي يمدح بعض القضاة:

رُفِضَتْ وَعَطَلَتْ الْحُكُومَةَ قَبْلَهُ فِي آخِرِينَ وَمَلَّهَا رَوَاضِهَا
حَتَّى إِذَا مَا قَامَ أَلْفَ بَيْنِهَا بِالْحَقِّ حَتَّى جَمَعَتْ أَوْفَاضِهَا^(١)
وَفِي ضِدِّ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

أَبْكَى وَأَنْدَبَ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ إِذْ صَرَتْ تَقَعُدُ مَقْعِدَ الْحُكَمَاءِ
إِنَّ الْحَوَادِثَ مَا عَلِمْتَ كَبِيرَةً وَأَرَأَاكَ بَعْضَ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ

وتقدمت امرأة إلى قاضي، فقال لها: جامعك شهودك، فسكتت فقال كاتبه: أن القاضي يقول لك جاء شهودك معك، قالت: نعم، هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيثك حتى غطت على لُبِّك ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك. وقيل: المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف

(١) أوفاضها: الفرق من الناس. والأخلاق من قبائل شتى.

الأحكام، قاضي منى وقاضي كسكر وقاضي أيدج، وهو الذي قال فيه أبو إسحق الصابي:

يا ربَّ علجٍ أعلج^(١) مثل البعير الأهوج
رأيتَه مَطْلَعًا من خلف بابٍ مرتج^(٢)
وخلفه عذِيبَةٌ^(٣) تذهب طورًا وتجي
فقلت مَنْ هذا ترى فقليل قاضي أيدج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري:

رأيت رأسًا كدبه ولحيةً كالمذبه^(٤)
فقلت مَنْ أنت قل لي فقال قاضي شلبه

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبي فأذعت عنده ففضى لها فقال هذيل الأشجعي:

فُتن الشعبي لما رفع الطرف إليها
فتنته ببنان كيف رؤيا معصمها^(٥)
ومشت مشيًا رويدًا ثم هزّت منكبيها
ففضى جورًا على الخصم ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي ف ضرب الأشجعي ثلاثين سوطًا.

وحكى ابن أبي ليلى قال: انصرف الشعبي يومًا من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول:

فتن الشعبي لما

(١) علج: الغليظ الأحمق والكافر.

(٢) مرتج: مقفل.

(٣) عذبية: وهي مصغر عذبة العمامة والعذبة طرف الشيء.

(٤) المذبة: المروحة التي يطرد بها الذباب.

(٥) ورد عجز هذا البيت:

«كيف لو رأى معصمها»

وهو غير مستقيم الوزن.

وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقتها الشعبي وقال:

رفع الطرف إليها

ثم قال أبعده الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق، وأنشد بعضهم في أمين الحكم:

تتماوتن إذا مشيت تخشعًا حتى تصيب وديعةً ليتيم

في ذكر القصاص والمتصوفة

رُوِيَ عن خباب بن الأرت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا». ورُوِيَ أن كعبًا كان يقص، فلما سمع الحديث ترك القصص. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتنة، وقال ابن المبارك: سألت الثوري، من الناس؟ قال العلماء، قلت: فمن الأشراف؟ قال: المتقون، قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قلت: فمن الغوغاء؟ قال: القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام، قلت: فمن السفهاء؟ قال: الظلمة.

قيل: وهب رجل لقاص خاتماً بلا فص، فقال: وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف. وقال قيس بن جبير النهشلي: الصعقة التي عند القصاص من الشيطان. وقيل لعائشة رضي الله عنها: إن أقوامًا إذا سمعوا القرآن صعقوا، فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال.

وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن، فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط، فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا، فهو كما قالوا. وكان بمرور قاص يبكي بمواعظه، فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كفه طنبورًا صغيرًا فيحركه ويقول: مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة. وقال بعضهم: قلت لصوفي بعني جبتك، فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة، فقال: أكلة رقصه.

ووعظ عيسى عليه السلام بني إسرائيل، فأقبلوا يمزقون الثياب، فقال: ما ذنب الثياب، أقبلوا على القلوب فعاتبوها.

في ذكر العبيد والإماء والخدم

قال في المستطرف^(١): عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة شهيدٌ وعبدٌ أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده».

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (رفعه) «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين». وكان زيد بن حارثة خادمًا لخديجة رضي الله تعالى عنها، اشترى لها بسوق عكاظ، فوهبته لرسول الله ﷺ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول الله ﷺ إن رضي بذلك فعلت، فسئل زيد فقال: ذل الرق مع صحابة رسول الله ﷺ أحب إليّ من عز الحرية مع مفارقتة. فقال رسول الله ﷺ: إذا اختارنا اخترناه، فأعتقه وزوجه أم أيمن، وبعدها زينب بنت جحش.

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقبل غلامي وجاريتي وفتاتي وفتاتي.

وعن ابن مسعود الأنصاري قال: ضربت غلامًا لي فسمعت من خلفي صوتًا: «اعلم يا أبا مسعود إن الله أقدر عليك منك عليك». فالتفت فإذا هو النبي ﷺ، فقلت يا رسول الله: هو حر لوجه الله تعالى، فقال: أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار.

(١) المستطرف: ص ٣٤٧ - ٣٤٨.

رُوِيَ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم تعفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت، فلما كانت الثالثة قال له: أعفو عنه كل يوم سبعين مرة. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: حدّثني أبو القاسم نبيّ التوبة ﷺ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ جَلَدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَدًّا».

وقيل: أراد رجل بيع جاريتته فبكت، فقال لها: مالك؟ فقالت: لو ملكت منك ما ملكت مني ما أخرجتك من يدي، فأعتقها وتزوجها.

وقال أبو اليقظان: إن قريشاً لم تكن ترغب في أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم، عليّ بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وذلك أن عمر رضي الله تعالى عنه أتى بنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيات، فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال ينادي عليهن بالسوق، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمه شديدة على وجهه فصاح: واعمره، وشكا إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرّة، فقال عليّ رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر». إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن، فقومهن وأعطاهن أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن علي ومحمد بن أبي بكر وعبد الله بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة، وقيل: استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة وكان ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدى:

نهيتكموا أن تحملوا فوق خيلكم	هجيتنا لكم يوم الرهان فيدرك ^(١)
فتعشر كفاه ويسقط سوطه	ويخدر ساقاه فما يتحرك
وهل يستوي المرآن هذا ابن حرّة	وهذا ابن أخرى ظهرها مشترك ^(٢)

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلي، ولكن كما قال ابن المعمر هذه الأبيات:

فما أنكحونا طائعين بناتهم	ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما زادنا فيها السباء مذلة	ولا كلّفت خبزاً ولا طبخت قدرا

(١) هجيتنا: اللثيم، أو مَنْ كانت أمه غير عربية وأبوه عربي.

(٢) مشترك: أي يشترك فيه عدة رجال «زانية».

وكم قد ترى فينا من ابن سبية
 ويأخذ ريان الطعان بكفّه
 إذا لقي الأبطال يطعنهم شزراً^(١)
 فيوردها بيضاً ويصدرها حمراً^(٢)
 فقَبِلَ رأسه وعينه وقال: أحسنت يا بني ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

وَرُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بئس المال في آخر الزمان المماليك». وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمن امرأة على سر ولا تطأ خادمًا تريدها للخدمة. ووصف بعضهم عبدًا فقال: يأكل فارها^(٣) ويعمل كارهاً ويغض قومًا ويحب نومًا. وقيل لبعضهم: ألك غلام؟ فقال:

وما لي غلامٌ فأدعوه به
 سوى من أبوه أخو عمتي
 وقال أكنم:

الحرُّ حرٌّ وإن مسّه الضرُّ
 والعبدُ عبدٌ وإن ألبسته الدرُّ
 ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة
 فقال:

إذا لم يكن في منزل المرء حرّة
 فلا يتخذ منهم حرّ قعيده
 رأى خللاً فيما تولى الولايد
 فهنّ لعمر الله بئس القعائد

هذا طيب وهذا حفار

كان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله يوماً يشتري له عنبًا وتينًا، فأبطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضي حاجتين، فمرض الرجل، فأمر الغلام أن يأتيه بطيب، فغاب ثم جاء بالطيب ومعه رجل آخر، فسأله عنه فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضي حاجتين في حاجة، فجتتك بالطيب، فإن شفاك الله تعالى، وإلا حفر لك هذا قبرك، فهذا طيب وهذا حفار.

(١) شزراً: مغضبًا وهو ينظر بطرف عينيه. (٢) ريان الطعان: أي الرمح المرن.

(٣) فارهاً: أي هو شديد الأكل.

عمرو الأعجمي والعبد الأسود

قيل: كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند، فكتب إلى موسى الهادي أن رجلاً من أشرف أهل الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلاماً أسود فرباه وتبناه، فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاته فراودها عن نفسها، فأجابته، فدخل مولاه يوماً على غفلة منه من حيث لا يعلم، فإذا هو على صدر مولاته، فعمد إليه فجب ذكّره وتركه يتشطح في دمه، ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برىء من علته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه ويدبر عليه أمراً يكون فيه شفاء غليله، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يوماً عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عالٍ، فنصبهما هناك وجعل يعللهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه، فرفع رأسه فرأى في شاهق مع الغلام فقال: ويلك عرّضت ابني للموت، قال: أجل والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذكرك مثل ما جببتي لأرمين بهما، فقال: الله الله يا ولدي في تربيتي لك، قال: دع عذا عنك، فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمح بها في شربة ماء، فجعل يكرر عليه ويتضرّع له، وهو لا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه، فيدليهما من ذلك الشاهق، فقال أبوهما: ويلك، فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أمرت، ثم أسرع وأخذ مدة فجب نفسه وهو يراه، فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من ذلك الشاهق فتقطّعا، وقال: إن جبك لنفسك ثأري، وقتل أولادك زيادة فيه، فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام، وقال: ما سمعت بمثل هذا قط، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود.

قصص متفرقة

عبد الملك بن مروان وملك الروم^(١)

عن ابن أخي الأصمعي، عن عمه قال: وجه عبد الملك بن مروان عامر الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمر له، فاستكثر الشعبي فقال له: من أهل بيت الملك أنت؟ قال: لا، فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمله رقعة لطيفة وقال:

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٢.

إذا رجعت إلى صاحبك، فأبلغته جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا، فادفع إليه هذه الرقعة، فلما صار الشعبي إلى عبد الملك ذكر ما احتاج إلى ذكره ونهض من عنده، فلما خرج ذكر الرقعة، فرجع فقال: يا أمير المؤمنين، إنه حملني إليك رقعة نسيتهما حتى خرجت، وكانت في آخر ما حملني فدفعتها إليه ونهض، فقرأها عبد الملك قال: فأمر برده، فقال: أعلمت ما في هذه الرقعة؟ قال فيها: عجبت من العرب كيف ملكت غير هذا. أفتدري لم كتب إليّ بمثل هذا؟ فقال: لا. فقال: حسدني عليك، فأراد أن يغريني بقتلك، فقال الشعبي: لو كان رآك يا أمير المؤمنين ما استكثرني، فبلغ ذلك ملك الروم، ففكر في عبد الملك، فقال: لله أبوه والله ما أردت إلا ذلك.

السفاح وعبد الله بن حسين^(١)

عن سعيد الباهلي عن أبيه قال: حدثني من حضر مجلس السفاح وهو أحسد ما كان لبني هاشم والشيعَة ووجوه الناس، فدخل عبد الله بن حسين بن حسن ومعه مصحف، فقال: يا أمير المؤمنين، أعطنا حقنا الذي جعله الله لنا في هذا المصحف، فأشفق الناس أن يجعل السفاح بشيء إليه ولا يريدون ذلك في شيخ بني هاشم أو يعيا لجوابه، فيكون ذلك نقصًا عليه وعارًا، فأقبل إليه غير مغضب ولا منزعج فقال: إن جدك عليًا كان خيرًا مني وأعدل ولي هذا الأمر فأعطى جديك الحسن والحسين، وكانا خيرًا منك شيئًا، وكان الواجب أن أعطيك مثله، فإن كنت فعلت فقد أنصفتك، وإن كنت زدتك فما هذا جزائي منك، فما رد عبد الله إليه جوابًا وانصرف والناس يعجبون من جوابه له.

السفاح ورجل من آل أبي طالب^(٢)

عن ابن الأعرابي قال: أول خطبة خطبها السفاح في قرية يقال لها العباسية، فلما صار إلى موضع الشهادة من الخطبة قام رجل من آل أبي طالب في عنقه مصحف، فقال: أذكرك الله الذي ذكرته ألا أنصفتني من خصمي وحكمت بيني وبينه بما في هذا المصحف، فقال له: ومن ظلمك؟ قال: أبو بكر الذي منع فاطمة فدكًا. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. من؟ قال: عمر. قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: نعم. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: من؟ قال:

(٢) نفس المصدر ص ٤٣.

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٢.

عثمان. قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: نعم. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: مَنْ؟ قال: علي. قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: فأسكت الرجل وجعل يلتفت إلى ورائه يطلب مخلصًا، فقال له: والله الذي لا إله إلا هو لولا أنه أول مقام قمته، ثم لم أكن تقدمت إليك في هذا قبل لأخذت الذي فيه عيناك أقعد وأقبل على الخطبة.

المنصور وابن هرمة^(١)

قال إسماعيل بن محمد قال: دخل ابن هرمة علي أبي جعفر، فأنشده فقال: سل حاجتك. قال: تكتب إلي عاملك بالمدينة متى وجدني سكران لا يحدني. قال: هذا حد ولا سبيل إلى إبطاله. قال: ما لي حاجة غير ذلك. قال: اكتب إلي عاملنا بالمدينة مَنْ أتاك بابن هرمة وهو سكران، فاجلده ثمانين واجلد الذي جاء به مائة. قال: فكان الشرطة يمرّون به وهو سكران، فيقولون: مَنْ يشتري ثمانين بمائة، فيمرون ويتركونه

المنصور والخائنة^(١)

جلس المنصور في إحدى قباب مدينته، فرأى رجلًا ملهوفًا مهمومًا يجول في الطرقات، فأرسل مَنْ أتاه به، فسأله عن حاله، فأخبره الرجل أنه خرج في تجارة فأفاد مالًا وأنه رجع بالمال إلى منزله، فدفعه إلى أهله، فذكرت امرأته أن المال سرق من بيتها ولم تر نقبًا ولا تسليقًا، فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة. قال: أفبكرٌ هي تزوجتها؟ قال: لا. قال: فلها ولد من سواك؟ قال: لا. قال: فشابة هي أم مسنة؟ قال: بل حديثة، فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذه له حادّ الرائحة، غريب النوع، فدفعها إليه وقال له: تطيب من هذا الطيب، فإنه يذهب همك، فلما خرج الرجل من عند المنصور قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن مرّ بكم فشمتم منه رائحة هذا الطيب وأشمهم منه، فليأتني به. وخرج الرجل بالطيب، فدفعه إلى امرأته وقال لها: وهبه لي أمير المؤمنين، فلما شمته بعثت إلى رجل كانت تحبه، وقد كانت دفعت المال إليه، فقالت له: تطيب من هذا الطيب، فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي، فتطيب منه الرجل ومرّ مجتازًا ببعض أبواب المدينة،

(١) كتاب الأذكىء ص ٤٣.

فشمّ الموكل بالباب رائحة الطيب منه، فأخذه فأتى به المنصور، فقال له المنصور: من أين استفدت هذا الطيب فإن رائحته غريبة معجبة؟ قال: اشتريته. قال أخبرنا ممن اشتريته، فتلجج الرجل وخلط كلامه فدعا المنصور صاحب شرطته، فقال له: خذ هذا الرجل إليك، فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء، وإن امتنع فاضربه ألف سوط من غير مؤامرة. فلما خرج من عنده دعا صاحب شرطته، فقال: هؤل عليه وجزده ولا تقدمن بضربه حتى تؤامرني، فخرج صاحب شرطته فلما جرده وسجنه أذعن برد الدنانير وأحضرها بهيئتها، فأعلم المنصور بذلك، فدعا صاحب الدنانير، فقال له: رأيتك إن رددت عليك الدنانير بهيئتها أتحكمني في امرأتك؟ قال: نعم. قال: فهذه دنانيرك، وقد طلقت المرأة عليك وخبره خبرها.

مكيذة المنصور (١)

عن مبارك الطبري قال: سمعت أبا عبيد الله يقول: خلا أبو جعفر يوماً مع يزيد بن أبي أسيد، فقال: يا يزيد، ما ترى في قتل أبي مسلم؟ فقال: أرى أن تقتله وتقرب إلى الله بدنة، فوالله لا يصفو ملكك ولا تهناً بعيش ما بقي، فنفر مني نفرة ظننت أنه سيأتي علي، ثم قال: قطع الله لسانك وأشمت بك عدوك أتشير عليّ بقتل أنصر الناس لنا، وأنقلهم على عدونا. أما والله لولا حظي لما سلف منك، وإن أعدها هفوة من هفواتك لضربت عنقك قم لا أقام الله رجلك. قال: فقممت وقد أظلم بصري، وتمنيت أن تسيخ الأرض بي، فلما كان بعد قتله قال لي: يا يزيد: أتذكر يوم شاورتك؟ قلت: نعم. قال: فوالله لقد كان ذلك رأياً وما لا أشك فيه، ولكن خشيت أن يظهر منك فتفسد مكيدتي.

المهدي وشريك بن عبد الله (٢)

عن علي بن صالح قال: كنت عند المهدي ودخل عليه شريك بن عبد الله القاضي، فأراد أن يبخره، فقام الخادم بالعود الذي يلهمي به، فوضعه في حجر شريك، فقال شريك: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أخذه صاحب العسس البارحة، فأحببت أن يكون كسره على يد القاضي، فقال: جزاك الله خيراً يا أمير

(٢) نفس المصدر ص ٤٥.

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٤.

المؤمنين. فكسره، ثم أفاضوا في حديث حتى نسي الأمر، ثم قال المهدي لشريك: ما تقول في رجل أمر وكيلاً له أن يأتي بشيء بعينه، فأتى بغيره فتلف ذلك الشيء؟ فقال: يضمن يا أمير المؤمنين، فقال للخدام: اضمن ما تلف بقضيته.

المهدي ونعل رسول الله ﷺ^(١)

عن حسن الوصيف قال: قعد المهدي قعوداً عاماً للناس، فدخل رجل، وفي يده نعل ملفوفة في منديل، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك، فقال: هاتها فدفعتها إليه، فقبل باطنها ووضعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم، فلما أخذها وانصرف قال لجلسائه: أترون أنني لم أعلم أن رسول الله ﷺ لم يرها فضلاً عن أن يكون لبسها، ولو كذبناه قال للناس: أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله ﷺ، فردّها علي وكان من يصدقه أكثر ممن يدفع خبره، إذ كان من شأن العامة ميلها إلى أشكالها والنصرة للضعيف على القوي، وإن كان ظالمًا اشترينا لسانه وقبلنا هديته وصدقنا قوله، ورأينا الذي فعلنا أنجح وأرجح.

المأمون وابن أبي حفصة الشاعر^(١)

قال المبرد: حدّثني عمارة بن عقيل، قال ابن أبي حفصة الشاعر: أعلمت أن أمير المؤمنين يعني المأمون لا يبصر الشعر، فقلت: من ذا يكون أفرس منه وأنا لننشد أول البيت فيسبق آخره من غير أن يكون سمعه. قال: فإني أنشدته بيتاً أجدت فيه، فلم أره تحرك له، وهذا البيت فاسمعه:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغلياً

فقلت له: ما زدته على أن جعلته عجوزاً في محرابها في يدها مسبحة، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولاً عنها، وهو المطوق لها. ألا قلت كما قال عمك جرير لعبد العزيز بن الوليد؟

فلا هو في الدنيا مُضَيِّعٌ نَصِيْبُهُ ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٥.

المعتضد بالله والقاسم بن عبيد الله^(١)

عن أبي عبد الله محمد بن حمدون قال لي المعتضد بالله ليلة وقد قدم له عشاء: لقمي، وكان الذي قدم له فراريج ودراريج، فلقمته من صدر فروج، فقال: لا. لقمي من فخذ، فلقمته لقمًا، ثم قال: هات من الدراريج، فلقمته من أفخاذها، فقال: ويلك. هو ذا تتنادر عليّ هات من صدورها، فقلت: يا مولاي ركبت القياس، فضحك فقلت: إلى كم أضحكك ولا تضحكني؟ قال: فشيئ المطرح وخذ ما تحته. قال: فشلت، فإذا دينار واحد فقلت: أخذها؟ قال: نعم، فقلت: بالله هوذا تتنادر أنت الساعة على خليفة يجيز نديمه بدينار، فقال: ويلك لا أجد لك في بيت المال حقًا أكثر من هذا، ولا تسمح نفسي أن أعطيك من مالي شيئًا، ولكن هوذا أحتال لك بحيلة تأخذ فيها خمسة آلاف دينار، فقبلت يده، فقال: إذا كان غد وجاءني القاسم يعني ابن عبيد الله، فهوذا أسارك خبر تقع عيني عليه سرارًا طويلًا التفت فيه إليك كالمغضب وانظر أنت إليه في خلال ذلك كالمخالس لي نظر المترائي له، فإذا انقطع السرار، فاخرج ولا تبرح من الدهليز أو يخرج، فإذا خرجت خاطبك بخطاب جميل وأخذك إلى دعوته، ويسألك عن حالك، فأشك الفقر والخلة وقلة حظك مني وثقل ظهرك بالدين والعيال وخذ ما يعطيك، واطلب كل ما تقع عينك عليه، فإنه لا يمنحك حتى تستوفي الخمسة آلاف دينار، فإذا أخذتها، فيسألك عما جرى بيننا، فاصدقه وإياك أن تكذبه وعرفه أن ذاك حيلة مني عليه حتى وصل إليك هذا، وحذّته بالحديث كله على شرحه، وليكن إخبارك إياه بذلك بعد امتناع شديد وإحلاف منه بالطلاق والعتاق أن تصدقه، وبعد أن تخرج من داره كل ما يعطيك إياه تجعله في بيتك.

فلما كان الغد حضر القاسم، فحين رآه ابتدأ يسارني وجرت القصة على ما وضعني عليه، فخرجت فإذا القاسم في الدهليز ينتظرني، فقال: يا أبا محمد، ما هذا الجفاء لا تجيئني ولا تزورني ولا تسألني حاجة؟ فاعتذرت إليه باتصال الخدمة علي، فقال: ما يقنعني إلا أن تزورني اليوم وتفرج، فقلت: أنا خادم الوزير، فأخذني إلى طيارة وجعل يسألني عن حالي وأخباري وأشكو إليه الخلة والإضاقة والدين والبنات وجفاء الخليفة وإمساك يده ويتوجع ويقول: يا هذا ما لي لك ولن

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٦.

نضيق عليك ما يتسع على أن نجاوزك نعمة حصلت لي. لو عرفتني لعاوتك على إزالة هذا كله عنك، فشكرته وبلغنا داره، فصعد ولم ينظر في شيء، وقال: هذا يوم أحتاج أن أختص فيه بالسرور بأبي محمد فلا يقطعني أحد عنه وأمر كتّابه بالتشاغل بالأعمال وخلا بي في دار الخلوة، وجعل يحدثني ويبسطني وقدمت الفاكهة، فجعل يلقمني بيده وجاء الطعام، فكان هذا سبيله، فلما جلس للشرب وقع لي بثلاثة آلاف دينار، فأخذتها للوقت وأحضر ثياباً وطيباً ومركوباً، فأخذت ذلك كله، وكان بين يدي صينية فضة فيها مغسل فضة وخرداي بلور وكوز وقدر بلور، فأمر بحمله إلى طيارتي، وأقبلت كلما رأيت شيئاً حسناً له قيمة وافرة طلبته، وحمل إلي فرشاً نفيساً وقال هذا للبنات، فلما تقوّض أهل المجلس خلا بي، وقال: يا أبا محمد، أنت عالم بحقوق أبي عليك ومودتي لك، فقلت: أنا خادم الوزير، فقال: أريد أن أسألك عن شيء وتحلف لي أنك تصدقني عنه، فقلت: السمع والطاعة فأحلفني بالله وبالطلاق والعتاق على الصدق، ثم قال لي: بأي شيء سارك الخليفة اليوم في أمري؟ فصدقته عن كل ما جرى حرفاً بحرف، فقال: فرجت عني ولكون هذا هكذا مع سلامة نيته أسهل عليّ فشكرته وانصرفت إلى بيتي، فلما كان من الغد باكرت المعتضد بالله، فقال: هات حديثك فسقته عليه، فقال: احفظ الدنانير ولا يقع لك إنني أعمل مثلها بسرعة.

المعتضد بالله والغلام الأسود^(١)

عن أبي القاسم عليّ بن المحسن، عن أبيه قال: بلغني أن المعتضد بالله كان يوماً جالساً في بيت يُبنى له يشاهد الصنّاع، فرأى في جملةهم غلاماً أسود، منكر الخلقة، شديد المزح يصعد على السلالم مرقاتين مرقاتين، ويحمل ضعف ما يحملونه، فأنكر أمره فأحضره وسأله عن سبب ذلك، فلجلجل، فقال لابن حمدون وكان حاضراً: أي شيء يقع لك في أمره؟ فقال: ومن هذا حتى صرفت فكرك إليه ولعله لا عيال له، فهو خالي القلب. قال: ويحك قد خمنت في أمره تخميناً ما أحسبه باطلاً إما أن يكون معه دنانير قد ظفر بها دفعة من غير وجهها أو يكون لُصاً يتستر بالعمل في الطين، فلاحاه ابن حمدون في ذلك، فقال: عليّ بالأسود فأحضر، وقال مقارع فضربه نحو مائة مقرعة وقرره وحلف إن لم يصدقه ضرب

(١) كتاب الأذكىء ص ٤٧.

عنقه وأحضر السيف والنطع، فقال الأسود: لي الأمان. فقال: لك الأمان إلا ما يجب عليك فيه من حد، فلم يفهم ما قال له، وظن أنه قد أمنه فقال: إني كنت أعمل في أتاتين الآجر سنين وكنت منذ شهور هناك جالسًا فاجتاز بي رجل في وسطه هميان فتبعته فجاء إلى بعض الأتاتين فجلس وهو لا يعلم مكاني فحلل هميان وأخرج منه دينارًا فتأملته فإذا كله دنانير فثاروته وكففته وسددت فاه وأخذت هميان، وحملته على كتفي وطرحته في نقرة الأتون وطيتته، فلما كان بعد ذلك أخرجت عظامه، فطرحتها في دجلة والدنانير معي يقوي بها قلبي، فأمر المعتضد من أحضر الدنانير من منزله، وإذا على هميان مكتوب لفلان بن فلان، فنودي في البلدة باسمه، فجاءت امرأة قالت: هذا زوجي ولي منه هذا الطفل خرج في وقت كذا ومعه هميان فيه ألف دينار، فغاب إلى الآن، فسلم الدنانير إليها، وأمرها أن تعتد، وضرب عنق الأسود وأمر أن تحمل جثته إلى الأتون.

المعتضد بالله والصياد^(١)

قال المحسن: وبلغنا عن المعتضد بالله أن خادمًا من خدمه جاء يومًا فأخبره أنه كان قائمًا على شاطئ الدجلة في دار الخليفة، فرأى صيادًا وقد طرح شبكته، فثقلت بشيء، فجذبها فأخرجها فإذا فيها جراب، وأنه قدره مالا فأخذه وفتحه، فإذا فيه آجر وبين الآجر كف مخضوبة بحناء. قال: فأحضر الجراب والكف والآجر، فهال المعتضد ذلك، وقال: قل للصياد يعاود طرح الشبكة فوق الموضع وأسفله وما قاربه، قال: ففعل فخرج جراب آخر فيه رجل قال: فطلبوا فلم يخرج شيء آخر، فاغتم المعتضد فقال معي في البلد من يقتل إنسانًا ويقطع أعضائه ويفرقه ولا أعرف به ما هذا ملك. قال: وأقام يومه كله ما طعم طعامًا، فلما كان من الغد أحضر ثقة له، وأعطاه الجراب فارغًا وقال له: طف به على كل من يعمل الجرب ببغداد، فإذا عرفه منهم رجل، فسله على من باعه، فإذا ذلك عليه، فسل المشتري من اشتراه منه ولا تقر على خبره أحدًا. قال: فغاب الرجل وجاءه بعد ثلاثة أيام، فزعم أنه لم يزل يتطلب في الدباغين، وأصحاب الجرب إلى أن عرف صانعه، وسأل عنه فذكر أنه باعه على عطار بسوق بحبي، وأنه مضى إلى العطار وعرضه عليه، فقال: ويحك. كيف وقع هذا الجراب في يدك؟ فقلت: أو تعرفه؟

(١) كتاب الأذكياء ص ٤٨.

قال: نعم. اشترى مني فلان الهاشمي منذ ثلاثة أيام عشرة جرب لا أدري لأي شيء أرادها وهذا منها. فقلت له: ومن فلان الهاشمي، فقال: رجل من ولد علي بن ربيعة من ولد المهدي يقال له: فلان عظيم، إلا أنه شر الناس وأظلمهم وأفسدهم لحرم المسلمين وأشدهم تشوقاً إلى مكائدهم، وليس في الدنيا من ينهي خبره إلى المعتضد خوفاً من شره ولفرط تمكنه من الدولة والمال، ولم يزل يحدثني وأنا أسمع أحاديث له قبيحة إلى أن قال: فحسبك أنه كان يعيش منذ سنين فلانة المغنية جارية فلانة المغنية، وكانت كالدينار المنقوش وكالقمر الطالع في غاية حسن الغناء فساوم مولاتها فيها، فلم تقاربه، فلما كان منذ أيام بلغه أن سيدتها تريد بيعها على مشتر قد حضر بذلك فيها ألوف دنائير، فوجه إليها لا أقل من أن تنفذها إلي لتودعني، فأنفذتها إليه بعد أن أنفذ إليها جذرها لثلاثة أيام، فلما انقضت الأيام الثلاثة غصبها عليها وغيبها عنها، فما يعرف لها خبر وادعى أنها هربت من داره. وقالت الجيران: أنه قتلها وقال قوم: لا، بل هي عنده، وقد أقامت سيدتها عليها المأتم وجاءت وصاحت على بابه وسوّدت وجهها، فلم ينفعها شيء، فلما سمع المعتضد سجد شكراً لله تعالى على انكشاف الأمر له، وبعث في الحال من كبس على الهاشمي وأحضر المغنية، وأخرج اليد والرجل إلى الهاشمي، فلما رآهما امتقع لونه وأيقن بالهلاك واعترف، فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاتها من بيت المال وصرفها، ثم حبس الهاشمي، فيقال: إنه قتله. ويقال: مات في الحبس.

المعتضد بالله والقمار^(١)

قال عبد الله محمد بن أحمد بن حمدون قال: كنت قد حلفت وعاهدت الله أن لا أعقد مالا من القمار وأنه لا يقع في يدي منه شيء إلا صرفته في ثمن شمع يحترق، أو نبيذ يشرب، أو جذر مغنية، فجلست يوماً لأعب المعتضد، فقمرته بسبعين ألف درهم، فنهض المعتضد يصلي قبل العصر ركعتان من قبل أن يأمر لي بها، فجلست أفكر وأندم على ما حلفت عليه، وقلت: كم أشتري من هذه السبعين ألف شمعاً وشراباً وكم أجذر وما كانت هذه العجلة في اليمين، ولو لم أكن حلفت كنت الآن قد اشتريت بها ضيعة، وكانت اليمين بالطلاق والعتاق

(١) كتاب الأذكاء ص ٤٩.

وصدقة الملك، فلما سلم من السجود قال لي: في أي شيء تفكرت؟ فقلت: خير، فقال: بحياتي أصدقني، فصدقته، فقال: وعندك أني أريد أن أعطيك سبعين ألفاً في القمار، فقلت: أفتصغر؟ قال: نعم. قد صغرت. قم ولا تفكر في هذا. قال: ودخل في صلاة الفرض، فلحقني الغم أعظم من الأول وندمت على فوت المال، وجعلت ألوم نفسي لِمَ صدقته، فلما فرغ من صلاته قال لي: يا أبا عبد الله، بحياتي أصدقني عن هذا الفكر الثاني، فصدقته، فقال: أما القمار فقد قلت إنني صغرت، ولكنني أهب لك سبعين ألفاً من مالي ولا يكون عليّ إثم في دفعها إليك، ولا عليك إثم في أخذها، وتخرج من يمينك فتشتري بها ضيعة حلالاً، فقَبِلت يده وأخذت المال فاعتقدت به ضيعة، والله أعلم.

يحيى البرمكي والتجارة الرابعة^(١)

قال ابن الموصلي: حدّثني أبي قال: أتيت يحيى بن خالد بن برمك، فشكوت إليه ضيقة اليد، فقال: ويحك وما أصنع بك ليس عندنا في هذا الوقت شيء، ولكن عليك ههنا أمر أدلك عليه، فتكن فيه رجلاً قد جاءني خليفة صاحب مصر يسألني أن أستهدي صاحبه شيئاً وقد آبيت ذلك فألح علي، وقد بلغني إنك قد أعطيت بجارتك فلانة آلاف دنانير، فهوذا أستهديه إياها وأخبره إنها قد أعجبتني وإياك أن تنقصها من ثلاثين ألف دينار وانظر كيف يكون. قال: فوالله ما شعرت إلا بالرجل قد أتاني فساومني الجارية، فقلت: لا أنقصها من ثلاثين ألف دينار، فلم يزل يساومني حتى بذل لي عشرين ألف دينار، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها، فبعتها وقبضت العشرين ألفاً، ثم صرت إلى يحيى بن خالد، فقال لي: كيف صنعت في بيعك الجارية؟ فأخبرته فقلت: والله ما ملكت نفسي إن أجبت إلى العشرين ألفاً حين سمعتها. فقال: إنك لخسيس وهذا خليفة صاحب فارس قد جاءني في مثل هذا، فخذ جارتك، فإذا ساومك، فلا تنقصها من خمسين ألف دينار، فإنه لا بد أن يشتريها منك بذلك. قال: فجاءني الرجل فاستمت عليه خمسين ألف دينار، فلم يزل يساومني حتى أعطاني ثلاثين ألف دينار، فضعف قلبي على ردها ولم أصدق بها، فأوجبتها له بها، ثم صرت إلى يحيى بن خالد، فقال لي: بكم بعث الجارية؟ فأخبرته، فقال لي: ويحك. ألم

(١) كتاب الأذكياء ص ٥١.

تؤدبك الأولى عن الثانية؟ قلت: ضعفت والله عن رد شيء لم أطمع فيه. فقال: هذه جاريتك فخذها إليك. قال: فقلت: جارية أهدت بها خمسين ألف دينار ثم أملكها. أشهدك أنها حرة وإني قد تزوجتها.

الفضل بن الربيع وزير الرشيد^(١)

عن الرشيد أنه رأى يوماً في داره حزمة خيزران فقال لوزيره الفضل بن الربيع: ما هذه؟ فقال: عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يرد أن يقول الخيزران لموافقته اسم أم الرشيد. وقال الفضل: إياكم ومخاطبة الملوك بما يقتضي الجواب، فإنهم إن أجابوكم شق عليهم وإن لم يجيبوكم شق عليكم. قال ثعلب: قلت للحسن بن سهل وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله ليس في السرف خير، فقال: بل ليس في الخير سرف. فرد اللفظ واستوفى المعنى.

أمان أبي الحسن بن الفرات^(١)

أبو علي بن مقلة قال: كنت أكتب لأبي الحسن بن الفرات أخدم بين يديه، فأول شيء برزق عشرة دنانير في كل شهر وهو يخلف أخاه في ديوان السواد، ثم زادت حاله فرقاني إلى ثلاثين ديناراً في كل شهر، فكنت كذلك معه إلى أن تقلد الوزارة الأولى، فحصل رزقي خمسمائة دينار في كل شهر، ثم أمر بقبض ما في دور المخالفين الذين بايعوا ابن المعتز، وكانت أمتعتهم تقبض وتحمل إليه فيراها وينفذها إلى خزانة المقتردر. فجاؤوه يوماً بصندوقين، فقالوا له: هذان وجدناهما في دار ابن المعتز، فقال: أفعلتم ما فيهما؟ قالوا: نعم جرائد من بايعه من الناس بأسمائهم وأنسابهم، فقال: لا تفتح. ثم قال: يا غلمان هاتوا ناراً، فجاء الفراشون بفحم وأمرهم فأججوا النار، وأقبل عليّ وعلى من كان حاضرًا، فقال: والله لو رأيت من هذين الصندوقين ورقة واحدة لظنّ كل من له فيها اسم أبي قد عرفته، فتفسد نيات العالم كلهم عليّ وعلى الخليفة وما هذا رأي حرقوهما، قال: فطرحا بأفقالهما في النار، فلما احترقا بحضورته أقبل عليّ، فقال: يا أبا علي قد أمنت كل من جنى وباع ابن المعتز، وأمرني الخليفة بأمانة، فاكتب للناس الأمان مني ولا يلمس منك أحد أماناً كائناً من كان إلا كتبه له وجثني به لأوقع فيه، فقد أفردتك لهذا العمل. ثم قال لمن حضر: أشيعوا ما قلته حتى يأنس المستترون بأبي

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٢.

علي ويكاتبونه في طلب الأمان، فشكرناه. ودعت الجماعة له وشاع الخبر وكتبت الأمانات، فكتب في ذلك مائة ألف أو نحوها.

عطر الرجال^(١)

عن ابن المحسن عن أبيه قال: سمعت أبا القاسم الحسن بن علي بن مقلة يقول: كان أبو علي بن مقلة يوماً يأكل، فلما رفعت المائدة وغسل يده رأى على ثوبه نقطة صفراء من الحلوى التي كان يأكلها، ففتح الدواة واستمد منها نقطة على الصفرة حتى لم يبق لها أثر، وقال: ذاك أثر شهوة، وهذا أثر صناعتي، ثم أنشد:

إنما الزعفرانُ عطرُ العذارى ومِدادُ الدواةِ عطرُ الرجال

الملك والجاسوس^(١)

وذكر أن ملكاً كانت أسراره تظهر كثيراً إلى عدوه فيبطل تدييره على العدو، فبلغ ذلك منه، فشكا إلى أحد نصحائه وقال له: إن جماعة يطلعون على أسرار لي لا بد من إظهارها لهم ولست أدري أيهم يظهرها، وأكره أن أنال البريء منهم بما يستحق الخائن، فدعا بكتاب فكتب فيه أخباراً من أخبار المملكة، وجعلها كذباً كلها ثم دعا برجل، رجل، كل واحد دون صاحبه ممن كان يفشي الملك إليه سره، فقال للملك: أخبر كل واحد منهم بخبر على حدة لا يظهر عليه سائر أصحابه، وأمر كل واحد بستر ما أسررت إليه، واكتب على كل خبر اسم صاحبه، فلم يلبث أن أظهر الخونة ما أفشي إليهم، وانكتمت أخبار الناصحين، فعرف الملك من يفشي سره فحذره.

عضد الدولة والعقد^(٢)

قيل: إن رجلاً قدم إلى بغداد للحج، وكان معه عقد من الحب يساوي ألف دينار، فاجتهد في بيعه، فلم ينفق، فجاء إلى عطار موصوف بالخير، فأودعه إياه، ثم حج وعاد، فأتاه بهدية، فقال له العطار: من أنت وما هذا؟ فقال: أنا صاحب العقد الذي أودعتك، فما كلمه حتى رفسه رفسة رماه عن دكانه، وقال: تدعي عليّ مثل هذه الدعوى، فاجتمع الناس وقالوا للحاجي: ويملك هذا رجل خير ما لحقت من تدعي عليه إلا هذا، فتحيّر الحاجي وتردد إليه فما زاده إلا شتماً

(٢) نفس المصدر ص ٥٤.

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٣.

وضرباً، فقيل له: لو ذهبت إلى عضد الدولة، فله في هذه الأشياء فراسة، فكتب قصته وجعلها على قصبة ورفعها لعضد الدولة، فصاح به فجاء، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة، فقال: اذهب إلى العطار غداً، واقعد على دكانه، فإن منعك فاقعد على دكان تقابله، من الصباح إلى المغرب ولا تكلمه، وافعل هكذا ثلاثة أيام، فإني أمرت عليك في اليوم الرابع وأقف وأسلم عليك، فلا تقم لي ولا تزدي على رد السلام وجواب ما أسألك عنه، فإذا انصرفت فأعد عليه ذكر العقد، ثم أعلمني ما يقول لك فإن أعطاكه فجيء به إليّ.

قال: فجاء إلى دكان العطار ليجلس فمنعه، فجلس بمقابله ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع اجتاز عضد الدولة في موكبه العظيم، فلما رأى الخراساني وقف وقال: سلام عليكم. فقال الخراساني ولم يتحرك: وعليك السلام، فقال: يا أخي تقدم فلا تأتي إلينا ولا تعرض حوائجك علينا، فقال: كما اتفق ولم يشبهه الكلام وعضد الدولة يسأله ويستخفي وقد وقف ووقف العسكر كله، والعطار قد أغمي عليه من الخوف، فلما انصرف التفت العطار إلى الحاجي فقال: ويحك متى أودعتني هذا العقد، وفي أي شيء كان ملفوفاً، فذكرني لعلي أذكره، فقال: من صفته كذا وكذا، فقام وفتش، ثم نقض جرة عنده فوضع العقد، فقال: قد كنت نسيت، ولو لم تذكرني الحال ما ذكرت. فأخذ العقد ثم قال: وأي فائدة لي في أن أعلم عضد الدولة، ثم قال في نفسه: لعله يريد أن يشتريه فذهب إليه فأعلمه، فبعث به مع الحاجب إلى دكان العطار، فعلق العقد في عنق العطار وصلبه بباب الدكان ونودي عليه: هذا جزاء من استودع فجحد. فلما ذهب النهار أخذ الحاجب العقد فسلمه إلى الحاجي وقال: اذهب.

عضد الدولة والمتلصلص (١)

وعن عضد الدولة أنه كان في بعض أمرائه شاب تركي، وكان يقف عند روزنة ينظر إلى امرأة فيها، فقالت المرأة لزوجها: قد حرم عليّ هذا التركي أن أتطلع في الروزنة، فإنه طول النهار ينظر إليها وليس فيها أحد، فلا يشك الناس أن لي معه حديثاً، وما أدري كيف أصنع. فقال زوجها: اكتبني إليه رقعة وقولي فيها: لا معنى لوقوفك فتعال إليّ بعد العشاء. إذا غفل الناس في الظلمة، فإني

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٥.

خلف الباب، ثم قام وحفر حفرة طويلة خلف الباب ووقف له، فلما جاء التركي فتح له الباب، فدخل، فدفعه الرجل فوق في الحفرة وطمّوا عليه، وبقي أيامًا لا يدري ما خبره، فسأل عنه عضد الدولة فقيل له: ما لنا فيه خبر، فما زال يعمل فكره إلى أن بعث يطلب مؤذن المسجد المجاور لتلك الدار، فأخذه أخذًا عنيفًا في الظاهر، ثم قال له: هذه مائة دينار خذها وامثل ما أمرك إذا رجعت إلى مسجدك فأذن الليلة واقعد في المسجد، فأول من يدخل عليك ويسألك عن سبب إنفاذي إليك، فأعلمني به، فقال: نعم. ففعل ذلك، فكان أول من دخل ذلك الشيخ، فقال له: قلبي إليك ولأي شيء أراد منك عضد الدولة؟ فقال: ما أراد مني شيئًا وما كان إلا الخبر، فلما أصبح أخبر عضد الدولة بالحال، فبعث إلى الشيخ فأحضره، ثم قال له: ما فعل التركي؟ فقال: أصدقت. لي امرأة ستيرة مستحسنة كان يراصدها ويقف تحت روزنتها، فضجّت من خوف الفضيحة بوقوفه، ففعلت به كذا وكذا، فقال: اذهب في دعة الله، فما سمع الناس ولا قلنا.

عضد الدولة وقطاع الطريق^(١)

ذكر محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه أنه بلغ إلى عضد الدولة خبر قوم من الأكراد يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شاقة، فلا يقدر عليهم، فاستدعى أحد التجار ودفع إليه بغلاً عليه صندوقان فيهما حلوى قد شيبت بالسم، وأكثر طيبها، وترك في الظروف الفاخرة وأعطاه دنانير، وأمره أن يسير مع القافلة، ويظهر أن هذه هدية لإحدى نساء أمراء الأطراف. ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة، فنزل القوم وأخذوا الأمتعة والأموال وانفرد أحدهم بالبغل وصعد به مع جماعتهم إلى الجبل، وبقي المسافرون عراة، فلما فتح الصندوقين وجد الحلوى يضوع طيبها، ويدهش منظرها ويعجب ريحها، وعلم أنه لا يمكنه الاستبداد بها، فدعا أصحابه، فرأوا ما لم يروه أبدًا قبل ذلك، فأمعنوا في الأكل عقيب مجاعة، فانقلبوا فهلكوا عن آخرهم، فبادر التجار إلى أخذ أموالهم وأمتعتهم وسلاحهم، واستردوا المأخوذ عن آخره، فلم أسمع بأعجب من هذه المكيدة، محت أثر العاتين وحصدت شوكة المفسدين.

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٥.

عضد الدولة وسارق المال^(١)

قيل: إن بعض التجار قدم من خراسان ليحج، فتأهب للحج وبقي معه من ماله ألف دينار لا يحتاج إليها، فقال: إن حملتها خاطرت بها، وإن أودعتها خفت جحد المودع، فمضى إلى الصحراء، فرأى شجرة خروع، فحفر تحتها ودفنها ولم يره أحد، ثم خرج إلى الحج وعاد، فحفر المكان فلم يجد شيئاً، فجعل يبكي ويلطم وجهه، فإذا سئل عن حاله قال: الأرض سرقت مالي، فلما كثر ذلك منه قيل له: لو قصدت عضد الدولة، فإن له فطنة، فقال: أو يعلم الغيب؟ فقيل له: لا بأس بقصده. فأخبره بقصته، فجمع الأطباء وقال لهم: هل داويتم في هذه السنة أحدًا بعروق الخروع؟ فقال أحدهم: أنا داويت قلاتًا وهو من خواصك. فقال: عليّ به فجاه، فقال له: هل تداويت في هذه السنة بعروق الخروع؟ قال: نعم. قال: من جاءك به؟ قال: فلان الفراش قال: عليّ به، فلما جاء قال: من أين أخذت عروق الخروع؟ فقال: من المكان الفلاني، فقال: اذهب بهذا معك فأره المكان الذي أخذت منه. فذهب معه بصاحب المال إلى تلك الشجرة، وقال: من هذه الشجرة أخذت فقال الرجل: هلهنا والله تركت مالي، فرجع إلى عضد الدولة فأخبره، فقال للفراش: هلم بالمال، فتلكأ فأوعده فأحضر المال.

عضد الدولة والاسلامي^(١)

روى أبو الحسن بن هلال بن المحسن الصابي قال: حكى الاسلامي الشاعر قال: دخلت على عضد الدولة، فمدحته فأجزل عطيتي من الثياب والدنانير وبين يديه حسام خرواني فرأني ألحظه، فرمى به إليّ وقال: خذه. فقلت: وكل خير عندنا من عنده. فقال عضد الدولة: ذاك أبوك فبقيت متحير لا أدري ما أراد، فجئت أستاذي فشرحت له الحال، فقال: ويحك قد أخطأت عظيمة، لأن هذه الكلمة لأبي نواس يصف كلبًا حيث يقول:

أَتَعَتْ كَلْبًا أَهْلَهُ فِي كَدِّهِ قَدْ سَعُدْتُ جُدُودَهُمْ بِجَدِّهِ
وَكُلُّ خَيْرٍ عِنْدَهُ مِنْ عِنْدِهِ

(١) كتاب الأذكىء ص ٥٦.

قال: فعدت متوشحًا بكساء فوقفت بين يدي الملك فقال: ما بك؟ فقلت حممت الساعة. فقال: هل تعرف سبب حماك؟ قلت: نظرت في ديوان أبي نواس، فقال: لا تخف لا بأس عليك من هذه الحمى. فسجدت بين يديه وانصرفت.

جلال الدولة وسارق البطيخ^(١)

روى أبو الحسن بن هلال بن المحسن الصابي في تاريخه قال: حدثني بعض التجار وقال: كنت في المعسكر، واتفق أن ركب السلطان جلال الدولة يومًا إلى الصيد على عادته، فلقه سوادي يبكي فقال: ما لك؟ فقال: لقيني ثلاثة غلمان أخذوا حمل بطيخ كان معي وهو بضاعتي. فقال: امضِ إلى المعسكر فهناك قبة حمراء، فاقعد عندها ولا تبرح إلى آخر النهار، فأنا أرجع وأعطيك ما يغنيك، فلما عاد السلطان، قال لبعض شرائه: قد اشتريت بطيخًا ففتش العسكر وخيمهم على شيء منه، ففعل وأحضر البطيخ، فقال: عند من رأيتموه؟ فقيل: في خيمة فلان الحاجب، فقال: أحضروه. فقال له: من أين هذا البطيخ؟ فقال: الغلمان جاؤوا به. فقال: أريدهم الساعة، فمضى وقد أحس بالشر، فهرب الغلمان خوفًا من أن يقتلوا وعاد فقال: قد هربوا لما علموا بطلب السلطان لهم. فقال: أحضروا السوادي، فأحضر فقال له: هذا بطيخك الذي أخذ منك؟ قال: نعم. قال: فخذ هذا الحاجب مملوك لي وقد سلمته إليك ووهبته لك حتى يحضر الذين أخذوا منك البطيخ، ووالله لئن أخليتني لأضربن رقبتك. فأخذ السوادي بيد الحاجب فأخرجه، فاشترى الحاجب نفسه بثلاثمائة دينار، فعاد السوادي إلى السلطان وقال: يا سلطان قد بعث المملوك الذي وهبته لي بثلاثمائة دينار، فقال: قد رضيت بذلك؟ قال: نعم. قال: اقبضها وامضِ مصاحبًا السلامة.

عمر بن عبد العزيز وأحد ولاته^(١)

قال الأصمعي: وفد فلان بن أبي بردة على عمر بن عبد العزيز وهو بحاضرة، فلزم سارية من المسجد يصلي إليها بحسن الركوع والخشوع وعمر بن عبد العزيز ينظر إليه، فقال عمر للعلاء بن المغيرة وكان خصيصًا لعمر: إن يكن سرّ هذا كعلائته، فهو فعل أهل العراق غير مدافع عن فضل. فقال له العلاء بن

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٧.

المغيرة: أنا آتيك يا أمير المؤمنين بخبره، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء، فقال له: اشفع صلاتك فإن لي حاجة، فلما سلم من صلاته قال له العلاء: تعرف منزلي وموضعي من أمير المؤمنين، فإني إن أشرت عليه أن يوليكَ العراق ما تجعل لي؟ قال: عمالتي سنة، وكان مبلغها عشرين ومائة ألف، قال: فاكتب لي على ذلك خطًا، فقام من وقته فكتب له خطًا بذلك، فحمل ذلك الخط إلى عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وكان واليًا على الكوفة: أما بعد؛ فإن بلائًا غرنا بالله فكدنا نغترّ به، ثم سبكناه فوجدناه خبيثًا كله.

المنصور ومعن بن زائدة^(١)

عن غياث بن إبراهيم أن معن بن زائدة دخل على أبي جعفر أمير المؤمنين، فقارب في خطوه، فقال له أبو جعفر: كبرت سنك يا معن، فقال: في طاعتك يا أمير المؤمنين. قال: وإنك لجلد. قال: على أعدائك، قال: وإن فيك لبقية، قال: هي لك.

المأمون وعبد الله بن طاهر^(١)

الفضل الربيعي قال: حدّثني أبي قال: قال المأمون لعبد الله بن طاهر: أيما أطيب مجلسي أو منزلك؟ قال: ما عدلت به يا أمير المؤمنين. قال: ليس لي إلى هذا، إنما ذهبت إلى الموافقة في العيش واللذة، قال: منزلي يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذلك؟ قال: لأنني فيه مالك وأنا ههنا مملوك.

ابن طولون والقياس الصحيح^(١)

عن محمد بن عبد الملك الهمداني أن أحمد بن طولون جلس يومًا في منزله له يأكل، فرأى سائلًا في ثوب خَلِق^(٢) فوضع يده في رغيه ودجاجة وفرخ وقطع لحم وقطعة فالودج، وأمر بعض الغلمان بمناولته، فرجع الغلام وذكر أنه ما هس له، فقال ابن طولون للغلام: جئني به، فمثل به بين يديه، فاستنطقه فأحسن الجواب ولم يضطرب من هيئته، فقال له: أحضرنى الكتب التي معك وأصدقني عن بعث بك، فقد صحّ عندي أنك صاحب خير، واستحضر السياط فاعترف له

(٢) ثوب خلق: أي ثوب بالٍ ممزق.

(١) كتاب الأذكياء ص ٥٩.

بذلك فقال بعض من حضر: هذا والله السحر، فقال أحمد: ما هو بسحر، ولكنه قياس صحيح رأيت سوء حال هذا، فوجهت إليه بطعام يسر إلى أكله الشبعان، فما هس له ولا مد يده فأحضرتة فتلقاني بقوة جأش، فلما رأيت رثاثة حاله وقوة جناه علمت أنه صاحب خبر.

ابن طولون والحمال^(١)

رأى ابن طولون يوماً حملاً يحمل صندوقاً وهو يضطرب تحته، فقال: لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنقه وأنا أرى عنقه بارزة، وما هذا إلا من خوف ما يحمل، فأمر بحط الصندوق، فوجد فيه جارية قد قتلت وقطعت، فقال: أصدقني عن حالها، فقال: أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة. فضرب الحمال مائتي ضرب بعصا، وأمر بقتل الأربعة.

علم الكسائي^(٢)

قال سهل بن محمد السجستاني: وفد علينا عامل من أهل الكوفة لم أر في عمال السلطان بالبصرة أبرع منه، فدخلت مسلماً عليه، فقال يا سجستاني: من أعلمكم بالبصرة؟ قال: الزيادي أعلمنا بعلم الأصمعي، والمازني أعلمنا بالنحو، وهلال الرأي أفقهننا، والشاذكوني أعلمنا بالحديث، وأنا رحمك الله أنسب إلى علم القرآن، وابن الكلبي من أكتبنا للشروط، قال: فقال لكاتبه: إذا كان غد فاجمعهم إليّ، قال: فجمعنا قال: أيكم المازني؟ قال: أبو عثمان: ها أنذا يرحمك الله، قال: هل يجزىء في الظهاري عتق عبد أعور، فقال المازني: لست صاحب فقه، أنا صاحب عريية، فقال: يا زيادي كيف تكتب بين بعل وامرأة خالعهما زوجها على الثلث من صداقها^(٣) قال: ليس هذا من علمي هذا من علم هلال الرأي، قال: يا هلال: كم أسند ابن عون عن الحسن؟ قال: ليس هذا من علمي هذا من علم الشاذكوني، قال: يا شاذكوني من قرأ ألا إنهم يثنون صدورهم، قال: ليس هذا من علمي هذا من علم أبي حاتم. فقال: يا أبا حاتم كيف تكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين تصف فيه خصاصة أهل البصرة، وما أصابهم في الثمرة، وتسألهم

(٢) نفس المصدر ص ٦٠.

(١) كتاب الأذكىء ص ٥٩.

(٣) صداقها: مهرها أي ما كان من حقوق للزوجة بذمة زوجها.

النظر بالبصرة؟ قال: لست رحمك الله صاحب بدعة وكتابة أنا صاحب قرآن. قال: ما أقيح بالرجل يتعاطى بالعلم خمسين سنة لا يعرف إلا فتًا واحدًا حتى إذا سئل من غيره لم يجبل فيه، ولم يمر. لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سئل عن هذا كله لأجاب.

الواثقي واللصوص^(١)

قال الحسين بن الحسن بن أحمد بن يحيى الواثقي: كان جدي يتقلد شرطة بغداد للمكتفي بالله، فعمل اللصوص في أيامه عملة عظيمة، فاجتمع التجار يتظلموا إلى المكتفي بالله، فألزمه بإحضار اللصوص أو غرامة المال، فتحير حتى كان يركب وحده ويطوف بالليل والنهار إلى أن اجتاز يومًا في زقاق خال في بعض أطراف بغداد، فدخله فوجد فيه منكرًا ووجد فيه زقاقًا لا ينفذ، فدخله فرأى على بعض أبواب دور الزقاق شوك سمكة كبيرة، وعظم الصلب وتقدير ذاك أن تكون السمكة فيها مائة وعشرون رطلًا، فقال لواحد من أصحاب المسالخ: ويحك ما ترى عظام هذه السمكة كم تقدر ثمنها؟ قال: دينار، فقال: أهل هذا الزقاق^(٢) لا تحمل أحوالهم شراء مثل هذه السمكة لأنه زقاق بين الاحتلال إلى جانب الصحراء لا ينزله من معه شيء يخافه، أو له مال ينفق منه مثل هذه النفقة، وما هي إلا بلية يجب أن يكشف عنها، فاستبعد الرجل هذا، وقال: هذا فكر بعيد، فقال: اطلبوا امرأة من الدرب أكلتها، فدق بابًا غير الباب الذي عليه الشوك واستسقى ماءً، فخرجت عجوز ضعيفة، فما زال يطلب شربة بعد شربة وهي تسقيهم، والواثقي في خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله، وهي تخبره غير عارفة بعواقب ذلك إلى أن قال لها: فهذه الدار من يسكنها وأوماً إلى التي عليها عظام السمك؟ فقالت: والله ما ندري على الحقيقة من سكانها إلا أن فيها خمسة شباب أعفار، كأنهم تجار قد نزلوا منذ شهر لا نراهم يخرجون نهارًا إلا كل مدة طويلة، وأنا نرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعًا، وهم طول النهار يجتمعون فيأكلون ويشربون ويلعبون بالشطرنج والنرد، ولهم صبي يخدمهم، وإذا كان الليل انصرفوا إلى دار لهم في الكرخ. ويدعون الصبي في الدار يحفظها، فإذا كان سحرًا بليل جاؤوا ونحن نيام لا نعقل بهم وقت مجيئهم، قال: فقطع الوالي استقساء الماء ودخلت

(٢) الزقاق: الطريق الضيق.

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٠.

العجوز، وقال للرجل: هذه صفة لصوص أم لا؟ فقال: توكلوا بحوالي الدار ودعوني على بابها. قال: وأنفذ في الحال واستدعى عشرة من الرجال، وأدخلهم إلى سطوح الجيران، ودق هو الباب، فجاء الصبي ففتح فدخل والرجال معه، فما فاتهم من القوم أحد، وحملهم إلى مجلس الشرطة وقرره، فكانوا هم أصحاب الخيانة بعينها، ودلوا على باقي أصحابهم فتبعهم الوثاقي، وكان يفتخر بهذه القصة.

ابن النسوي والأكل الحلال^(١)

قيل إن رجلاً من جيران ابن النسوي كان يصلي بالناس دخل على ابن النسوي في شفاعته، وبين يديه صحن فيه قطائف فقال له ابن النسوي: كُلْ. فامتنع، فقال: كأنني بك وأنت تقول من أين لابن النسوي شيء حلال، ولكن كُلْ، فما أكلت قط أحل من هذا. فقال بحكم المداعبة: من أين لك شيء لا يكون فيه شبهة؟ فقال: إن أخبرتك تأكل؟ قال: نعم، فقال: كنت منذ ليل في مثل هذا الوقت، فإذا الباب يدق، فقالت الجارية: مَنْ؟ فقالت: امرأة تستأذن، فأذن لها، فدخلت، فأكبّت على قدمي تقبلها، فقلت: ما حاجتك؟ قالت: لي زوج ولي منه ابنتان لواحدة اثنتا عشرة سنة وللأخرى أربع عشرة سنة، وقد تزوج عليّ وما يقربني والأولاد يطلبونه، فيضيق صدري لأجلهم، وأريد أن يجعل ليلة لي ولتلك ليلة، فقلت لها: صناعته؟ فقالت: خباز، قلت: وأين دكانه؟ قالت: بالكرخ، ويعرف بفلان ابن فلان. فقلت: وأنت بنت مَنْ؟ فقالت: بنت فلان، قلت: فما اسم بناتك؟ قالت: فلانة وفلانة... قلت: أنا أُرده إليك إن شاء الله تعالى، فقالت: هذه شقة قد غزلتها أنا وابتتاي، وأنت في حل منها. قلت: خذي شقتك وانصرفي. فمضت فبعثت إليه اثنتين وقلت: أحضره ولا تزعجاه. فأحضره وقد طار عقله، فقلت: لا بأس عليك إنما استدعيتك لأعطيك كراء طعام وعمالته تقيمه خبزاً للرحالة، فسكن روعه وقال: ما أريد له عماله. قلت: بلى، صديق مخسر عدو مبيّن. أنت مني وإلّئي. كيف هي زوجتك فلانة تلك بنت عمي، وكيف بناتها فلانة وفلانة؟ فقال: بكل خير، قلت: الله الله لا أحتاج أن أوصيك بها لا تضيق صدرها فقبل يدي، فقلت: امضِ إلى دكانك وإن كان لك حاجة

(١) كتاب الأذكياء ص ٦٢.

فالموضع بحكمك فانصرف. فلما كان في هذه الليلة جاءت المرأة فدخلت، وهذا الصحن معها، وأقسمت عليّ بالله أن لا أردّها، وقالت: قد جمعت شملي وشمل أولادي، وهذا والله من ثمن غزلي، فبالله لا ترده، فقبلته، فهل هو حلال؟ فقال: والله ما في الدنيا أحل من هذا. قال: فكل، فأكل.

في قصور بني أمية^(١)

قال محمد بن أحمد المكي: حدّثني أبي قال: دخلتُ إلى عَلَوَيْهِ^(٢) أعوده في علّةٍ اعتلّها ثم عوفي منها. فجرى حديثُ المأمون فقال: كذت - علم الله - أذهبُ دفعة ذات يوم وأنا معه، لولا أن الله تعالى سلّمني ووهب لي حلمه. فقلت: كيف كان السببُ في ذلك؟ فقال: كنتُ معه لما خرج إلى الشام، فدخلنا دمشق فطُفْنَا فيها، وجعل يطوفُ على قصور بني أمية ويتبعُ آثارهم، فدخل صحناً من صُحُونهم، فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله، وفيه بزكّة ماء فيها سمك، وبين يديها بستانٌ على زواياه أربعُ سرّوات^(٣) كأنها قُصّت بمقراض من التفافها، أحسنُ ما رأيتُ من السرّوات قداً وقَدْرًا.

فاستحسن ذلك وعزم على الصبوح، وقال: هاتوا لي الساعةَ طعاماً خفيفاً، فأتى به بين ماء وورد، فأكل ودعاً بشراب، وأقبل عليّ وقال: غنّني ونشطني، فكأن الله عزّ وجلّ أنساني الغناء كله إلا هذا الصوت:

لو كان حولي بنو أمية لم تنطق رجالاً أراهم نطقوا

فنظر إليّ مغضباً، وقال: عليك وعلى بني أمية لعنة الله! ويلك! أقلتُ لك سُؤني أو سرّني! ألم يكن لك وقتٌ تذكرُ فيه بني أمية إلا هذا الوقت؟ تُعرض بي!

فتحيّلتُ^(٤) عليه، وعلمتُ أنني قد غلظت فقلت: أتلومني على أن أذكر بني أمية! هذا مولاكم زرياب^(٥) عندهم يركب في مائتي غلام مملوك له ويملك

(١) الأغاني: ١٠ - ١٢٤.

(٢) هو علي بن عبد الله بن سيف، ويكنى علوية أبا حسن، كان مغنياً حاذقاً، ومؤدباً حسناً. وضارياً متقدماً جمع خفة روح، وطيب مجالسة، وملاحة نوادر، علمه إبراهيم الموصلي وعنى به جدًا، فبرع، وعنى لمحمد الأمين، وعاش إلى أيام المتوكل.

(٣) السرو: شجر واحدته سروة. (٤) التحيل: الاحتيال.

(٥) هو علي بن نافع، نابغة الموسيقى في زمنه، رحل إلى الأندلس وذاغت شهرته هناك، وفضله =

ثلاثمائة ألف دينار وهبها له سوى الخيل والضّياع والرقيق. وأنا عندكم أموت جوّعاً؟ فقال: أولم يكن لك شيء تُذكرني به نفسك غير هذا؟ فقلت: هكذا حَضَرني حين ذكرته. فقال: اغدِلْ عن هذا وغنني. فأنساني الله كلَّ شيء أحسنه إلا هذا الصوت.

الْحَيْنُ^(١) ساق إلى دِمَشق ولم أكن أَرْضَى دِمَشقَ لأهلنا بَلَدًا فرماني بِالْقَدَحِ فأخطأني فانكسر القدح. وقال: قم عني إلى لعنة الله وحرِّ سَقْر. وقام فركب.

فكانت والله تلك الحال آخر عهدي به حتى مرض ومات. ثم قال لي: يا أبا جعفر، كم تراني أحسنُ أغنِّي؟ ثلاثة آلاف صوت، أربعة آلاف صوت، خمسة آلاف صوت، أنا والله أغنِّي أكثر من ذلك. ذهب - علم الله - كلُّه، حتى كأني لم أعرف غير ما غنَّيت. ولقد ظننتُ أنه لو كانت لي ألف رُوح ما بحث منه واحدة منها، ولكنه كان رجلاً حليماً، وكان في العُمُر بقية!

في دار الفضل بن الربيع^(٢)

قال أحمد بن يحيى المكي: دَعاني الفضل^(٣) بن الربيع ودعا عَلَوِيه ومُخَارِقًا، وذلك في أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه، إلا أن حاله كانت ناقصة مُتَضَعِّعة؛ فلما اجتمعنا عنده كتب إلى إسحاق^(٤) الموصلي يسأله أن يصير إليه ويُعلمه الحال في اجتماعنا عنده. فكتب إليهم: لا تنتظروني بالأكل، فقد أكلتُ وأنا أصير إليكم بعد ساعة.

فأكلنا وجلسنا نشرب حتى قَرُبَ العصر، ثم وافى إسحاقُ فجلس، وجاء غلامُه بِقَطْرَمِيز^(٥) نبيذ، فوضعه ناحية، وأمر صاحبَ الشراب بِإِسْقَائِهِ منه، وكان

= عبد الرحمن بن الحكم على ما عدها، وأقام بقرطبة إلى أن مات سنة ٢٣٠ هـ.

(١) الحين: الهلاك. (٢) الأغاني: ٥ - ٣٠٦.

(٣) كان الفضل بن الربيع وزيراً للرشيد بعد زوال دولة البرامكة، وبعد موت الرشيد استوزر للأمين، ووقف معه ضد المأمون، وبعد قتل الأمين تشفع طاهر بن الحسين للفضل عند المأمون فرضي عنه؛ ومات سنة ٢٠٨ هـ.

(٤) إسحاق الموصلي: من أشهر ندماء الخلفاء تفرد بصناعة الغناء وكان عالماً باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ورواية الشعر وحافظاً للأخبار. توفي سنة ٢٣٥ هـ.

(٥) القطرميز: قلة كبيرة من الزجاج.

عَلَوَيْهِ يُغْنِي الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ فِي لَحْنِ اقْتِرَاحِهِ الْفَضْلُ عَلَيْهِ وَأَعْجَبَهُ، وَهُوَ:

فَإِنْ تَعَجَّبِي أَوْ تُبْصِرِي الدَّهْرَ طَمْنِي^(١) بِأَخْدَائِهِ طَمَّ الْمَقْصَصِ بِالْجَلْمِ^(٢)
فَقَدْ أَتْرَكَ الْأَضْيَافَ تَنْدَى رِحَالِهِمْ وَأَكْرَمُهُمْ بِالْمَحْضِ وَالتَّامِكِ السِّنْمِ^(٣)

فقال له إسحق: أخطأت يا أبا الحسن في أداء هذا الصوت؛ وأنا أصلحه

لك.

فَجَرَنَ عَلَوَيْهِ وَاغْتَاظَ، وَقَامَتْ قِيَامَتُهُ. ثُمَّ أَقْبَلَ إِسْحَاقُ عَلَى عَلَوَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا حَبِيبِي، مَا أَرَدْتُ الْوَضْعَ^(٤) مِنْكَ بِمَا قُلْتَهُ لَكَ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ تَهْدِيكَ وَتَقْوِيمَكَ، لِأَنَّكَ مَنْسُوبُ الصَّوَابِ وَالْخَطَأِ إِلَى أَبِي وَإِلَيَّ، فَإِنْ كَرِهْتَ ذَلِكَ تَرَكْتُكَ؛ وَقُلْتُ لَكَ: أَحْسَنْتَ وَأَجْمَلْتَ. فَقَالَ لَهُ عَلَوَيْهِ: وَاللَّهِ مَا هَذَا أَرَدْتُ، وَلَا أَرَدْتُ إِلَّا مَا لَا تَتْرُكُهُ أَبَدًا مِنْ سَوْءِ عِشْرَتِكَ! أَخْبَرَنِي عَنْكَ حِينَ تَجِيءُ هَذَا الْوَقْتُ لَمَّا دَعَاكَ الْأَمِيرُ وَعَرَفَكَ أَنَّهُ قَدْ نَشِطَ لِلْإِصْطِبَاحِ: مَا حَمَلَكَ عَلَى التَّرْفَعِ عَنْ مُبَاكَرَتِهِ^(٥) وَخِذْمَتِهِ مَعَ صَنَائِعِهِ عِنْدَكَ؟ وَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ إِلَّا الْخَلِيفَةُ! ثُمَّ تَجِيئُهُ وَمَعَكَ قَطْرَمِيمُ نَبِيذُ تَرْفَعًا عَنْ شِرَابِهِ، كَمَا تَرْفَعْتَ عَنْ طَعَامِهِ وَمُجَالَسَتِهِ إِلَّا كَمَا تَشْتَهِي وَحِينَ تَنْشَطُ، كَمَا تَفْعَلُ الْأَكْفَاءَ^(٦)، بَلْ تَزِيدُ عَلَى فِعْلِ الْأَكْفَاءِ. ثُمَّ تَعْمِدُ إِلَى صَوْتٍ قَدْ اشْتَهَاهُ وَاقْتِرَاحَهُ، وَسَمِعَهُ جَمِيعٌ مِنْ حَضْرٍ، فَمَا عَابَهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَتَعْيَبَهُ لَيْتَمَ تَنْغِيضُكَ إِيَّاهُ لَدَنَتَهُ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى أَوْ أَخُوهُ جَعْفَرُ دَعَاكَ إِلَى مِثْلِ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ الْأَمِيرُ، بَلْ بَعْضُ أَتْبَاعِهِمْ؛ لِبَادَرْتِ وَبَاكَرْتِ؛ وَمَا تَأَخَّرْتُ وَلَا اعْتَذَرْتُ. فَأَمَسَكَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ عَنِ الْجَوَابِ إِعْجَابًا بِمَا خَاطَبَ بِهِ عَلَوَيْهِ إِسْحَاقَ.

فقال له إسحق: أمّا ما ذكرته من تأخري عنه إلى الوقت الذي حضرت فيه، فهو يعلم أنني لا أتأخر عنه إلا بعائتي قاطع، إن وثق بذلك مني، وإلا ذكرت له الحجة سرًا من حيث لا يكون لك ولا لغيرك فيه مدخل. وأما ترفعي عنه فكيف أترقع عنه وأنا أنتسب إلى صنائعه، وأستمنحه وأعيش من فضله مذ كنت؟ وهذا

(١) طمني: غمرني.

(٢) الجلم: الذي يجز به الشعر والصوف. والمقصص: الشيء الذي يقص.

(٣) المحض: اللبن الخالص بلا رغو. والتامك: العظيم السنام من الإبل، ومثله السنم.

(٤) الوضع: الضعة.

(٥) باكره: أتاه بكرة: غدوة.

(٦) الأكفاء: النظراء المتماثلون.

تَضْرِبُ^(١) لا أبالي به منك، وأما حملي النبيذ معي فإن لي في النبيذ شَرْطًا من طَعْمِهِ وريحه؛ وإن لم أجد له لم أقدر على الشرب، وتنخّص عليّ يومئذ، وإنما حملته لیتَم نشاطي ويُنْتَفَع بي، وأما طغني على ما اختاره فإني لم أطعن على اختياره، وإنما أردتُ تقويَمَك؛ ولست والله تراني متتبعًا لك بعد هذا اليوم، ولا مَقْوَمًا شيئًا من خَطِيئِكَ، وأنا أَعْتِي له - أعزّه الله - هذا الصوت فيعلم وتعلم؛ ويعلم من حضر أنك أخطأت فيه وقصرت. وأما البرامكة وملازمتي لهم فأشهر من أن أجدّه، وإني لحقيق فيه بالمعذرة، وأخرى أن أشكرهم على صنيعهم، وبأن أذيعه وأنشره؛ وذلك - والله - أقل ما يستحقونه مني.

ثم أقبل على الفضل - وقد غاظه مدحُه لهم - فقال: اسمع مني شيئًا أخبرك به مما فعلوه، ليس هو بكبير صنائعهم عندي ولا عند أبي قبلي، فإن وجدت لي عذرًا وإلا فلم: كنت في ابتداء أمرى نازلًا مع أبي في داره، فكان لا يزال يجري بين غلّمانني وغلّمانه وجواربي وجواربه الخصومة؛ كما تجري بين هذه الطبقات فيشكونهم إليه؛ فأبّين الضجر والتنكر في وجهه، فاستأجرت دارًا بقربه؛ وانتقلت إليها أنا وغلّمانني وجواربي، وكانت دارًا واسعة، فلم أرض ما معي من الآلة لها، ولا لمن يدخل إليّ من إخواني أن يروا مثله عندي.

ففكرت في ذلك، وكيف أضنع؛ وزاد فكري حتى خَطَر بقلبي قُبْح الأحدثة من نزول مثلي في دار بأجرة، وأني لا آمن في وقت أن يستأذن عليّ صاحب داري، وعندي من احتشم منه^(٢) ولا يعلم حالي فيقال: صاحب دارك، أو يوجه في وقت فيطلب أجرة الدار، وعندي من احتشم منه؛ فضاقت بذلك صدري ضيقًا شديدًا حتى جاوز الحد.

فأمرتُ غلامني بأن يسرّج لي جمارًا كان عندي، لأمضي إلى الصحراء أتفرّج فيها مما دخل على قلبي، فأسرّجه وركبته برداء ونعل، فأفضى بي المسير وأنا مفكر لا أميز الطريق التي أسلك فيها، حتى هجم بي على باب يحيى بن خالد، فتوالت غلّمانه إليّ، وقالوا: إلى أين؟ فقلت: إلى الوزير. فدخلوا فاستأذنوا لي، وخرج الحاجب فأمرني بالدخول؛ وبقيت حجلًا، قد وقعت في أمرين فاضحين: إن دخلت إليه برداء ونعل؛ وأعلمته أنني قصدته في تلك الحال

(٢) احتشم منه: استحيا.

(١) التضريب: الإغراء بين القوم.

كان سوء أدب، وإن قلتُ له كنتُ مجتازًا، ولم أقصِدْكَ فجعلتُكَ طريقًا كان قبيحًا.

ثم عزمْتُ فدخلتُ؛ فلما رأني تبسّم وقال: ما هذا الرّبي يا أبا محمد! قد علمنا أنّك جعلتنا طريقًا، فقلت: لا والله يا سيدي، ولكنني أضدّقتُك. قال: هات. فأخبرته القصّة من أولها إلى آخرها، فقال: هذا حق مستور؛ أفهذا شغل قلبك؟ قلتُ: إي والله! وزاد فقال: لا تشغل قلب بهذا. يا غلام. ردّوا حمارة، وهاتوا له خِلعةً. فجاءوني بخِلعة تامّة من ثيابه فلبسْتُها، ودعا بالطعام فأكلت، ووَضَعَ النبيذ فشربت وشرب فغثيته، ودعا في وسط ذلك بدوابة ورُقعة، وكتب أربع رقاع ظننتُ بعضها توقيعًا لي بجائزة؛ فإذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع إليه الرقاع وسارّه بشيء، فزاد طمعي في الجائزة، ومضى الرجلُ وجلسنا نشرب، وأنا أنتظر شيئًا فلا أراه إلى العتمة^(١)، ثم أتكا يحيى فنام. فقممت وأنا منكسر خائب، فخرجت وقدم لي حماري.

فلما تجاوزتُ الدار قال لي غلامي: إلى أين تمضي؟ قلت: إلى البيت. قال: قد والله بيعت دارك، وأشهد على صاحبها، وابتاع الدربُ كلّه ووَزِنَ ثمنه، والمشتري جالسٌ على بابك ينتظرُك ليعرّفك، وأظنه اشترى ذلك للسلطان، لأنني رأيتُ الأمر في استعجاله أمرًا سلطانيًا، فوقعْتُ من ذلك فيما لم يكن في حسابي، وجئتُ وأنا لا أدري ما أعمل، فلما نزلتُ على باب داري إذا أنا بالوكيل الذي سارّه يحيى قد قام إليّ. فقال لي: ادخل - أيدك الله - دارك حتى أدخل لمخاطبتك في أمر احتاج إليك فيه، فطابت نفسي بذلك، ودخلتُ، ودخل إليّ فأقرأني توقيع يحيى: «يُطلَقُ لأبي محمد إسحق مائة ألف درهم يُبتاع له بها داره وجميع ما يجاورها ويلاصقها». والتوقيع الثاني إلى ابنه الفضل: «قد أمرتُ لأبي محمد إسحق بمائة ألف درهم يُبتاع له بها داره، فأطلق إليه مثلها لينفقها على إصلاح الدار كما يريد وبنائها على ما يشتهي». والتوقيع الثالث إلى جعفر: «قد أمرتُ لأبي محمد إسحق بمائة ألف درهم يُبتاع له بها منزل يسكنه، وأمر له أخوك بدفع مائة ألف درهم ينفقها على بنائها وممرمتها على ما يريد، فأطلق له أنت مائة ألف درهم يُبتاع بها فرشًا لمنزله». والتوقيع الرابع إلى محمد: «قد أمرتُ لأبي محمد

(١) العتمة: وقت صلاة العشاء.

إسحق أنا وأخواك بثلاثمائة ألف درهم لمنزلي يبتاعه ونفقة ينفقها عليه، وفرش يتبدله^(١)، فمز له أنت بمائة ألف درهم يصرفها في سائر نفقته». وقال الوكيل: قد حملت المال واشتريت كل شيء جاورك بسبعين ألف درهم، وهذه كُتِبَ الابتاعات باسمي والإقرار لك، وهذا المال بُورِكَ لك فيه فاقضه.

فقبضته وأصبحت أحسن حالاً من أبي في منزلي وفرشي وألتي، ولا والله ما هذا بأكبر شيء فعلوه لي أفلام على شكر هؤلاء!

فبكى الفضل بن الربيع وكل من حضر. وقالوا: لا والله لا تلام على شكر هؤلاء. ثم قال الفضل: بحياتي عن الصوت، ولا تبخل على أبي الحسن بأن تقومه له! فقال: أفعل. وغناه فتبين علونه أنه كما قال: فقام فقبل رأسه، وقال: أنت أستاذنا وابن أستاذنا وأولى بتقويمنا واحتمالنا من كل أحد، وردّه^(٢) إسحق مرات حتى استوى لعلونه.

المعتصم في يوم العيد^(٣)

قال حمدون بن إسماعيل النديم: حضر العيد، فعبى المعتصم^(٤) بالله خيله تعبئة لم يُسمع بمثلهما، ولم ير لأحد من ولد العباس شبيه بها، وأمر بالطريق فُمسح^(٥) من باب قصره إلى المصلى، ثم قسم ذلك على القواد، وأعطى كل واحد منهم مصافه^(٦).

فلما كان قبل الفطر بيوم حضر القواد وأصحابهم في أجمل زبي وأحسن هيئة، فلزموا مصافهم منذ وقت الظهر، إلى أن ركب المعتصم بالله إلى المصلى، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي بعد الحرسي^(٧) بحذاء مسجد الخوارزمي، وإبراهيم واقف وأصحابه في المصاف.

(١) الابتذال: ضد الصيانة.

(٢) ردّه: أعاده، مثل ردّه.

(٣) المحاسن والمساوىء: ١٦٤.

(٤) هو أبو إسحق محمد بن هارون الرشيد، ولقب بالمعتصم بالله في اليوم الذي دعي له بالخلافة سنة ٢١٨ هـ، وكان شجاعاً مقداماً شديد البأس محباً للعمارة، منصرفاً إلى الجيش، وتوفي سنة ٢٢٧ هـ.

(٥) يقال: مسح الأرض، أي ذرعها.

(٦) المصاف: موضع الصف، وجمعه مصاف.

(٧) الحرسي: واحد حرس السلطان.

فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتبوا في المصاف بالمصير إلى المصلّى على التعبية التي حدّها، ولبس ثيابه، وجلس على كرسي ينتظر مُضَيّ القواد. فلما انقضى أمرهم تقدّم إلى الرّجالة في المسير بين يديه، فتقدم منهم سبعة آلاف ناشب من الموالي، كلُّ ثلاثمائة منهم في زيّ مخالف لزيّ الباقين، وأربعة آلاف من المغاربة، وأمر الشيعة فكانوا وراءه بالأعمدة، وعدّتهم أربعة آلاف، وركبت لا أدري منزلتي أين هي، ولا أعرف مرتبتي، ولم أعلم أين أسير من الموكب؟

فلما وضع رجله في الركاب، واستوى على سزجه التفت إليّ، وقال: يا حمدون، كُنْ أنتَ خَلْفِي، فلزمتُ مؤخَّرَ ذابّته، فلما خرج من باب القصر تلقّاه القواد وأصحابُ المصاف: يخرجُ الرجل من مصافه، فإذا قرب نزل وسلّم عليه بالخلافة، فيأمره بالركوب ويمضي، حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي فنزل وسلّم عليه بالخلافة فردّ عليه السلام، فقال: كيف أنتَ يا إبراهيم؟ وكيف حالُك؟ وكيف كنتَ في أيامك! اركب فركب فلما جاوزه التفت إليّ وقال: يا حمدون، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: تذكر؟ قلت: إي والله يا سيدي! وأمسك.

فنظرتُ فيما قال فلم أجدني أذكر شيئاً في ذلك الموضع مما يشبه ما كتأ فيه! فنغص عليّ يومي، وما رأيت من حسنه وسروره بالمرتبة التي أهلني بها، وقلت: الخلفاء لا يعاملون بالكذب، ولا يجوزُ أن يسألني عند انصرافي عن هذا الأمر، فلا يكونُ له عندي جواب ولا حقيقة! وتخوّفت أن ينالني منه مكروه، فلم أزل واجماً في طريقي إلى وقت انصرافه، ثم أجمعتُ على مغالطته إن أمكنتني، وإعمال الحيلة في التخلّص إن يسألنني.

فلما استقرّ في مجلسه، وبُسط السّماط^(١)، وجلس القواد على مراتبهم للطعام أقبلتُ أخدم وأختلف، ليست لي همّة غير ما كان قد قاله لي، لا أغفلُ عن ذلك، حتى انقضى أمرُ السّماط، ورفع الستر، ونهض أمير المؤمنين، ودخل الحجرة، ومضى إلى المرقد، فلم ألبث أن جاء الخادم وقال: أجب أمير المؤمنين، فمضيتُ.

(١) السماط: ما يمد عليه الطعام.

فلما دخلتُ ضحك إليّ، وقال: يا حمدون رأيتَ؟ قلت: نعم يا سيدي قد رأيتُ! فالحمدُ لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأزانيه؛ فما رأيتُ ولا سمعتُ لأحدٍ من الخلفاء والملوك بأجلٍ منه ولا أبهى ولا أحسن؟ قال: ويحك! رأيتُ إبراهيم بن المهدي؟ قلت: نعم يا سيدي! قال: رأيتُ سلامه عليّ وردي عليه، ونزوله إليّ؟ قلت: نعم! فقال: إنه لما كان من أمره ما كان - يعني الخلافة - قَسَمَ الطريقَ في يوم عيدٍ من منزله إلى المصلّى كقسمتي إياه في هذا اليوم بين قواده، فوقع موضعي منه الموضع الذي كان به هذا اليوم، فلما حاذاني نزلتُ فسَلَمَت عليه، فردّ عليّ مثل ما رددتُ حرفًا حرفًا على ما قال لي.

فدعوتُ له، وانفرج عني ما كنتُ فيه، وتخلّى عني الغمُّ والكُزْب. ثم قال: يا حمدون؛ إني لم أكل شيئًا، وأنا أنتظر أن تأكل معي، فامضِ إلى حجرة الندماء؛ فإنك تجدُ إبراهيم هنالك، فاجلس إليه وعاتبه وضاحكه، وأجر له هذا الحديث، وقل له: إنك رأيتَه في ذلك اليوم فَعَل بي فِعْلي به في هذا اليوم؛ وانظر إلى وجهه وكلامه، وما يكون منه فعرفنيه على حقيقته، وأصدقني عنه، وعجل ولا تحبّس! قلت: نعم يا سيدي!

فمضيتُ، وقد دُفعت إلى أغلظِّ مما كنتُ فيه؛ لعلمي بأن إبراهيم لو كان من حَجَرٍ لأثر فيه هذا القول وتغيّر، وظهر منه ما يُكره، وخِفْتُ أن يأتي بما يُسَفِّك به دمه، فمضيتُ حتى دخلتُ الحجرة، فجلست إلى إبراهيم، وقلت: ما أمرني به، وأنا مبادرٌ خوفًا من خادم يلحقني، أو رسول، فلا يمكنني معه تحسين الأمر، وما يظهر لي منه؛ فقلتُ لإبراهيم: كيف رأيتَ يا سيدي هذا اليوم؟ أما أعجبتُ حسنه؟ وما كان من تعبئة أمير المؤمنين؟ قال: بلى والله إنه أعجبني! فالحمد لله الذي بلّغنيه وأزانيه، وأطنب في الدعاء للمعتصم.

فلما أمسك قلت: يا سيدي؛ أذكرك، في أيامك، وقد ركبتَ فعبّيتُ شبيهاً بهذه التعبية، وقسّمت الطريق مثل هذه القسمة؛ فوقع لأمر المؤمنين الموضع الذي وقع لك واجتزتَ به، فنزل إليك وسلّم، فرددتُ عليه كرده عليه في هذا الموضع.

فوالله ما قلتُ له ذلك حتى أربدّ لونه، وجفّ ريقه، واعتقل لسانه، وبقي لا يتكلم بحَرْف، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم! فالحمد لله الذي رأيتُه لأمر المؤمنين، فعل الله به وفعل.

فتغثمت^(١) ذلك وقمت، وأنا ألتفت، ونهضت حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هيه يا حمدون! فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أتيت إبراهيم، وقلت له: ما أمرتني به، فأظهر سرورًا ودعاء، وقال: كيت وكيت. فقال: والله قال: بحياتي! قلت: وحياتك يا أمير المؤمنين! قال: فكيف رأيت وجهه! فلم أدر ما أقول، فقلت: يا أمير المؤمنين، بالله لما تركتني من وجه عمك الذي لا يتبين فيه فرح ولا حزن. فاستضحك، ثم أمسك، ودعا بالطعام فأكلنا، ثم رقد.

فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائر الندماء، فشرب وبر إبراهيم وألقاه.

رُسل الروم عند الناصر^(٢)

رحل الناصر^(٣) لدين الله من قصر الزهراء^(٤) إلى قصر قزطبة^(٥) لدخول وفود الروم عليه، وقعد لهم في بهو المجلس الزاهر قعودًا حسنًا نبيلًا، وقعد عن يمينه ولي العهد من يمينه، وقعد عن يساره مُنذر بن سعيد؛ وحضر الوزراء على مراتبهم يمينًا وشمالًا، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي وغيرهم، وقد بسط صحن الدار أجمع بعناق البسط، وكرائم الدرناك^(٦)، وظللت أبواب الدار وحناياها بغالي الديباج ورفيع الستور.

فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية العظمى؛ وهو في رَق^(٧) مصبوغ بلون سماوي، مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مُدرجة^(٨) مصبوغة أيضًا مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضًا، فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على وجه منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الملك وصورة ولده.

(١) تغنمته: انتهز غنمه، وعده غنيمته. (٢) فتح الطيب: ١٧٢١.

(٣) هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الأندلس وأول من تلقب بالخلافة منهم؛ وكانت أيامه أيام جهاد، وكان عادلاً محسناً محباً للعلم، شغوفاً بالعمارة، توفي سنة ٣٥٠ هـ.

(٤) هي المدينة التي بناها الناصر.

(٥) قرطبة: حاضرة الخلافة بالأندلس، وكانت أخت بغداد عزاً وعلواً وحضارة وفيها المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الأموي سنة ٧٩٢ م، وهو الآن الكنيسة الكنتراية.

(٦) الدرناك: الطنافس. (٧) الرق: ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق.

(٨) أدرجت الكتاب: طويته.

وكان الكتابُ بداخل دُزج^(١) فضة منقوش، عليه غطاءٌ ذهب، فيه صورة الملك من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جَعبة ملبّسة بالدباج.

ولما احتفل الناصرُ لدين الله هذا الاحتفال أحبَّ أن يقوم الخطباءُ والشعراء بين يديه ليذكروا جلالته مُلْكُه، وعظيم سلطانه، ويصفوا ما تهيأ من توطيد الخلافة في دولته.

وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ووليَّ عهده بإعداد من يقومُ بذلك من الخطباء؛ فأمرَ الحكمُ الفقيه محمد بن عبد البر الكِنساني بالتأهب لذلك، وإعداد خطبةٍ بليغةٍ يقومُ بها بين يدي الخليفة، وكان يدَّعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره. وحضر المجلس السلطاني، فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هولُ المقام وأبهة الخلافة، فلم يهتدِ إلى لفظة، بل عُشي عليه، وسقط إلى الأرض.

ف قيل لأبي علي القالي^(٢) - وهو حينئذٍ ضيفُ الخليفة الوافدُ عليه من العراق، وأميرُ الكلام، وبخُر اللغة: قم فازع هذا الوهي، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم انقطع القولُ بالقالي، فوقف ساكتًا مفكرًا في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه. فلما رأى ذلك مُنذِر^(٣) بن سعيد قام، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب، وناذى من الإحسان في ذلك المقام كلَّ مجيب، يسُّحُه سحًا، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي فقال^(٤):

أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكلِّ حادثةٍ مقامًا، ولكل مقام مقالًا، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قمتُ في مقام كريم بين يدي ملكٍ عظيم، فاصغوا إليَّ معشر الملا بأسماعكم، وألقوا إليَّ بأفئدتكم، إن من الحق أن يُقال

(١) أصل الدرج: السفط الصغير تضع فيه المرأة متاعها وطيها.

(٢) هو إسماعيل بن القاسم صاحب الأمالي، رحل إلى المغرب، ودخل الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر واستوطن قرطبة، توفي سنة ٣٥٦ هـ.

(٣) كان إمامًا فقيهاً خطيباً شاعرًا فصيحاً، ولي القضاء بقرطبة أيام عبد الرحمن، وتوفي بقرطبة سنة ٣٣٥ هـ.

(٤) الخطبة بتمامها في نفع الطيب: ١ - ١٧٢ طبع المطبعة الأزهرية. ومعجم الأدباء: ١ - ١٧٦.

للمُحِقِّ صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل - تعالى في سمائه وتقَدَّس بصفاته وأسمائه - أمرَ كَلِيمَه موسى أن يُذَكِّرَ قَوْمَه بأيام الله عزَّ وجلَّ عندهم، وفيه وفي رسولِ الله أسوَةٌ حَسَنَةٌ، وإني أذكركم بأيام الله عندهم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لُمْتُ شعثكم، وأمَّنتُ سِزْبكم، ورفعت قُوَّتكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلِّين فنصركم...

واستمرَّ كذلك بكلام عجيب بهرَ العقولَ جزالةً، وملاً الأسماع جلالَةً؛ فخرج النَّاسُ يتحدثون عن حسن مقامه وثباتِ جنانه، وبلاغةِ لسانه؛ وكان الناصرُ أشدَّهم تعجباً منه؛ فأقبل على ابنه الحكم؛ فسأله عنه؛ فقال له: هذا منذر بن سعيد البلوطي! فقال: والله لقد أحسن ما شاء، ولئن أخرني الله بعدُ لأرفعنَّ من ذِكْرِهِ، فضغ يدك يا حكمُ عليه، واستخلصه وذكُرني بشأنه؛ فما للصنيعة مذهبُ عنه. ثم ولَّاه الصلاةَ والخطابةَ في المسجد الجامع بالزَّهراء.

لَيْلَةٌ بِمَالِقَةَ^(١)

قال أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد الثُّجَيْبِيُّ: كنتُ بمدينة مَالِقَةَ^(٢) من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة، فاعتلت بها مدةً انقطعتُ فيها عن التصرف، ولزمتُ المنزل، وكان يمرضُني^(٣) حينئذٍ رفيقان كانا معي، يَلْمَانُ من شَعَثِي، وَيَرْفُقَانُ بي.

وكنْتُ إذا جنَّي الليل اشتدَّ سهري، وخَفَقَتْ حولي أوتارُ العيدان والطنابير والمعازف من كلِّ ناحية، واختلطت الأصواتُ بالغناء؛ فكان ذلك شديدًا عليّ، وزائدًا في قلبي وتألّمي؛ فكانت نفسي تُعافُ تلك الضروبَ طبعًا، وتكره تلك الأصواتَ جِلَّةً، وأودُّ لو أجدُ مَسْكِنًا لا أسمعُ فيه شيئًا من ذلك، ويتعذَّرُ عليّ وجودُهُ لغلبةِ ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم.

وإني لساهرٌ ليلَةً بعد إعفَاءَةٍ في أول ليلتي، وقد سكنتُ تلك الألفاظُ المكروهة، وهذأت تلك الضروبُ المضطربة، وإذا ضربتُ خفي معتدِّل حسن لا

(١) شرح المختار من شعر بشار ١٤.

(٢) مدينة بالأندلس كانت تغزًا حصينًا على بحر الروم، أسسها الفينيقيون، وكان لها شهرة أيام الرومان والقرطاجيين، وكان بها بنو حمود من ملوك الطوائف.

(٣) مرضه: قام عليه في مرضه.

أسمع غيره، فكأن نفسي أنست به، وسكنت إليه، ولم تنفّر منه نفاها من غيره، ولم أسمع معه صوتاً، وجعل الضرب يرتفع شيئاً فشيئاً، ونفسي تتبّع، وسَمْعِي يُضْغِي إِلَيْهِ، إلى أن بلغ في الارتفاع إلى ما لا غاية وراءه، فارتحت له، ونسيت الألم، وتداخلني سرورٌ وطربٌ، وحُيِّلَ إِلَيَّ أن أرضَ المنزل ارتفعت بي، وأن حيطانه تَمُورٌ^(١) حولي، وأنا في كل ذلك لا أسمع صوتاً.

فقلتُ في نفسي: أمّا هذا الضربُ فلا زيادةَ عليه؛ فليت شعري كيف صوتُ الضارب! وأين يقع من ضربه؟ ولم ألبث أن اندفعتُ جاريةً تغني في هذا الشعر بصوتِ أُنْدَى من التّوّار، غَبَ القِطَارُ^(٢)، وأحلى من البارد العذّب، على كبد الهائم الصّبِّ؛ فلم أملك نفسي أن قُمتُ ورفيقيّ نائمان، ففتحتُ الباب؛ وتبعثُ الصّوتُ، وكان قريباً مني؛ فاطلعت من وسط منزلي على دار فسيحة، وفي وسط الدار بستانٌ كبير، وفي وسط البستان شَرْبٌ^(٣) نحو من عشرين رجلاً، قد اصطفوا وبين أيديهم شراب وفاكهة، وجوارٍ قيامٌ بعيّدان وطنابير وآلات لهو، ومزامير لا يحركنها، وجاريةٌ جالسةٌ ناحية، وعودها في جحرها، وكلُّ يرمقها ببصره، ويوعياها سمعه، وهي تغني وتضربُ، وأنا قائمٌ بحيث أراهم ولا يرونني، وكلما غنت بيتاً حفظته؛ إلى أن غنت عدة أبيات وقطعت؛ فعدتُ إلى موضعي، يشهدُ الله وكأنما أنشطتُ من عقال، وكان لم يكن بي ألم، وقد وَعَيْتُ الأبيات وهي:

ما بال أنجم هذا الليلِ حائرةً
أضلتِ القصد، أم لَيْسَتْ على فلك؟
عادت سواريه وفقاً لا حراك بها
كأنما جئتُ صرعى بمُعْتَرِكِ^(٤)
هل من بشيرٍ بنور الصباح، تُنْقِذُنِي
بُشْرَاهُ من طولٍ وجِدٍ غيرِ مَتْرَكِ
فقد أجدّ التّواءَ الليلِ لي شجناً
وأضجعتني تَبَارِيحِي على الحَسَكِ^(٥)
خُذْ يا شَمُولُ كُؤُوسَ الرّاحِ مُتْرَعَةً
فسقنيها ولا تسأل عن الدَّرَكِ^(٦)
وهج بالحنك الطنبُور: إن له
على سُجُونِ المعنى سَطَوَةَ المَلِكِ

(١) تمور: تتحرك وتذهب وتجيء.

(٢) القطار: جمع قطر، وهو المطر.

(٣) جمع شارب.

(٤) السورى: جمع سار.

(٥) تباريح الشوق: توهجه، والتباريح: الشدائد. الحسك: نبات ورقه كورق الرجل وأدق، وعند ورقة شوك صلب ذو ثلاث شعب.

(٦) شمول: أسم غلام صقلي من صقالبة المنصور.

ثم انصرفت في صباح تلك الليلة، فلقيتُ صديقًا لي من أهل العلم قرطبيًا سَكَنَ مَالِقَةَ، فأخبرته الخبر، وأنشدته الشعرَ، ووصفتُ له الدارَ، فاغْرَوْرَقَتْ عيناه وقال: الدارُ للوزير فلان، والجاريةُ فلانة البغدادية، إحدى المخسِنات من جواري المنصور بن أبي عامر؛ وصارت إلى هذا الوزير بعد موت المنصور، وتَمَزَّقِ مُلْكِهِ.

الشمعة والسراج^(١)

وفد على عمر بن عبد العزيز بريد^(٢) من بعض الآفاق، فانهى إلى باب عمر ليلاً؛ ففرغ الباب، فخرج إليه البواب، فقال: أعلمُ أمير المؤمنين أن بالبواب رسولا من فلان عامِلُه؛ فدخل فأعلم عُمر - وقد كان أراد أن ينام - فقعده، وقال: ائذن له!

فدخل الرسولُ فدعا عمرُ بشمعة غليظة فأججت نارا، وأجلس الرسول، وجلس عمر، فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرة العامل؟ وكيف الأسعار؟ وكيف أبناء المهاجرين والأنصار، وأبناء السبيل والفقراء؟ وهل أعطى كل ذي حق حقه؟ وهل له شاك؟ وهل ظلم أحدا؟

فأنبأه بجميع ما علم من أمر تلك المملكة، يسأله فيخفي^(٣) السؤال، حتى إذا فرغ عمر من مسأله قال له: يا أمير المؤمنين، كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل بيتك ومن تُغني بشأنه؟ فنفع عمر الشمعة فأطفأها بتفخيتها، وقال: يا غلام، عليّ بسراج، فأتى بفتيلة لا تكاد تضيء، فقال: سل عما أحببت، فسأله عن حاله، فأخبره عن حال ولده وأهل بيته.

فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها، وقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك فعلت أمرا ما رأيتك فعلت مثله! قال: وما هو؟ قال: إطفأوك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك. فقال: يا عبد الله، إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم، فكانت تلك الشمعة تقد بين يدي فيما يصلحهم، وهي لهم. فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين!

(٢) رسول.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٦١.

(٣) أحفى سؤاله: رده.

حَدِيثَ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَعَ ابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ احْتَضَرَ (١)

كان عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَى أَبِيهِ، فَمَرَضَ فَاشْتَدَّ مَرَضُهُ، فَأَخْبَرَ أَبُوهُ بِذَلِكَ، فَأَتَاهُ فَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: يَا بُنَيَّ! كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: أَجِدُنِي صَالِحًا - وَكْتَمَهُ مَا بِهِ كِرَاهَةً أَنْ يُعْخِمَهُ - قَالَ: يَا بُنَيَّ، اصْدُقْنِي عَنِ نَفْسِكَ، فَإِنَّ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيَّ فَيْكَ لِمَوْضِعِ الْقَضَاءِ. قَالَ: أَجِدُنِي يَا أَبَتِ أَمُوتَ! فَوَلَّى عَمْرٌ إِلَى قَبْلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي صَلَاتِهِ إِذْ مَاتَ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَتَاهُ مُزَاحِمٌ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ تُوُفِّيَ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَخَرَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ.

فلما دُفِنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ مُزَاحِمٌ - وَكَانَ قَدْ عَاهَدَ إِلَيْهِ إِذَا رَأَى مِنْهُ أَمْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ أَنْ يَخْبِرَهُ بِذَلِكَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، رَأَيْتُ مِنْكَ عَجَبًا، أَتَيْتَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَسَأَلْتَهُ عَنِ حَالِهِ فَكْتَمَكَ مَا بِهِ فَقُلْتَ لَهُ: يَا بُنَيَّ، اصْدُقْنِي عَنِ نَفْسِكَ، فَإِنَّ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيَّ فَيْكَ لِمَوْضِعِ الْقَضَاءِ؛ فَأَخْبِرْكَ أَنَّهُ يَمُوتُ. فَلَمَّا مَاتَ خَرَرَتْ مَغْشِيًا عَلَيْكَ. قَالَ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا مُزَاحِمُ! فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ قَدْ دَخَلَ إِلَى مَنْزِلِي؛ فَأَخَذَ بَضْعَةَ مِنِّي، فِرَاعَنِي ذَلِكَ فَأَصَابَنِي مَا قَدْ رَأَيْتَ!

المنصور وأهله (٢)

قال أحمد بن أسماعيل: كان أبي ومشايخُ أهلي يجلسون مع أبي جعفر المنصور، وكان أحدهما يجلسون دون ذلك، وكان يتفقَدُ من أمورنا ما كان يتفقده من أمور ولده، حتى يستفري^(٣) أحدنا، ويسأله ما بلغ من القرآن، وكُنَّا نَصِلُ الْغَدَاةَ^(٤) وَالْعِشْيَ^(٥) فنجلس في مجلسه، حتى يخرج إلينا.

وإِنَّا صِرْنَا فِي مَجْلِسِهِ ذَاتَ يَوْمٍ كَعَادَتِنَا، فَجَلَسْنَا نَنْتَظِرُ خُرُوجَهُ، وَأَفَاضَ أَبِي وَعَمُومَتِي فِي اسْتِبْطَائِهِ وَاسْتِثْنَائِهِ عَلَيْهِمْ، فَأَطْنَبُوا فِي ذَلِكَ، وَكَانَ الْمَوْكَلُ بِالْبَابِ - سَلِيمُ الْأَسْوَدِ - يَرْفَعُ السِّتْرَ إِذَا جَاءَ، فَحَانَتْ مِنْ سَلِيمٍ عَفْلَةٌ، وَجَاءَ أَبُو جَعْفَرٍ وَهُوَ يَتَسَمَّعُ عَلَيْهِمْ، فَفَهَمَ مَا هُمْ فِيهِ، وَوَثَبَ سَلِيمٌ لِيَرْفَعَ السِّتْرَ، فَأَمْسَكَ بِيَدِهِ وَمَنَعَهُ مِنْ رَفْعِهِ حَتَّى اسْتَوْعَبَ سَمْعَهُ جَمِيعَ مَا كَانُوا فِيهِ.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٦١. (٢) غرر الخصائص: ١٦٧.

(٣) استفري: تتبع.

(٤) الغداة: ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس.

(٥) العشي من صلاة المغرب إلى العتمة.

فلما انقضى كلامهم أمر برَفْعِ الستر ودخل، فقاموا له كَنَحْوِ ما كانوا يفعلون، فقال: ما هذا؟ إنما ينبغي أن تفعلوا هذا بحضرة العامة، لتَشُدُّوا بذلك سُلْطَانِكُمْ، فأما مجالسُ الخَلْوَةِ فنحنُ فيها إخوة.

ثم أمرهم بالجلوس، وأقبلَ عليهم، وقال: يا عمومتي، ويا إخوتي، قد سمعتُ ما كنتم فيه، وقولكم: استأثر علينا، ولعمري لقد كان ذلك، وما استشاري عليك إلا لَكُمْ، وإشفاقاً من ذهاب سلطانكم، وزوال أموالكم، وإنما أبكي لكم رِقَّةً عليكم، فكأنني بالرجل منكم ومن أبنائكم، أو من أبناء أبنائكم بين يدي الرجل من ولدي أو ولد ولدي، ينتسب له فلا يعرفه، بل لعله يبلغ علي بن عبد الله بن العباس، فذهبوا ليتكلموا، فقال: أقسمت عليكم لما سكتكم، أفيضوا بنا في غير هذا الحديث.

قال أحمد: وضرب الدهرُ ضرباً^(١)، ومات المنصور، وولي المهدي مات، وولي الهادي ثم مات، وولي الرشيد، وخرج إلى الرقة، وناثنا جفوة، ولزمني دين فخرجتُ إليه، فكان أول ما لقيتُ موكباً عظيماً، فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: هذا ولياً العهد: الأمين والمأمون.

فترجلتُ وسلمتُ عليهما، فقالا: مَنْ أنت؟ قلت: أحمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وبكيتُ، فانتهى الخبرُ من ساعته إلى الرشيد، فلم أصلُ إلى منزلي حتى لقيني رسوله يدعوني.

فلما دخلتُ عليه، قال لي: ممّ بكيتُ؟ قلت: يا أمير المؤمنين، كان من القصة كيت وكيت، وسُئلتُ إليه خبر المنصور، فبكيتُ إذ كنتُ المبتلى بذلك دون من حضره، فقال لي: هما ابنا أخيك، وهي عورةٌ فاشترها، ولن تُسألَ عن نسبك بعد اليوم، ما أقدمك؟ قلت: دينٌ لزمني. قال: وكم هو؟ قلت: عشرون ألف دينار. فقال: يا غلامُ، احملها إليه الساعة، واجعل معها خمسة آلاف دينار لحفظه الحديث عن المنصور. هل من حاجة لك غير ذلك؟ قلت: أودع أمير المؤمنين، وانصرفت.

(١) ضرب الدهر ضربانه ومن ضربانه: مر، وذهب بعضه.

هَذَا بُغِيَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (١)

أهدر أمير المؤمنين المنصور دمَ رجل، كان يسعى بفسادِ دَوْلته مع الخوارج، من أهل الكوفة. وجعل لمن دلّ عليه، أو جاء به مائة ألف درهم. ثم إنَّ الرجلَ ظهرَ في بغداد، فبينما هو يمشي مُتخفياً في بعض نواحيها، إذ بَصُرَ به رجلٌ من أهل الكوفة، فعرفه؛ فأخذ بمجامع ثيابه، وقال: هذا بُغِيَةُ أمير المؤمنين.

فبينما الرجلُ على هذه الحال إذ سَمِعَ وَقَعَ حوافر الخيل، فالتفت فإذا مغن بن زائدة (٢)، فاستغاث به؛ وقال: أجزني أجازك الله! فالتفت مغنٌ إلى الرجل المتعلق به، وقال: ما شأنك وهذا؟ فقال: إنه بُغِيَةُ أمير المؤمنين الذي أهدَرَ دمه وجعل لمن دلّ عليه مائة ألف درهم. فقال: ذعُ. وقال لغلامه: انزل عن دابتك، واحمل الرجلَ عليها.

فصاح الرجلُ المتعلقُ به وصرخ واستجار بالناس، وقال: أَيَحَالُ بيني وبين بُغِيَةَ أمير المؤمنين؟ فقال له مغن: اذهب فقل لأمير المؤمنين، وأخبره أنه عندي.

فانطلق الرجلُ إلى المنصور وأخبره، فأمر المنصور بإحضار مغن في الساعة؛ فلما وصل أمرُ المنصور إلى مغن دعا جميع أهل بيته ومواليه وأولاده وأقاربه وحاشيته، وجميع من يلوذُ به؛ وقال لهم: أقسم عليكم ألا يصلَ إلى هذا الرجل مكروه أبداً؛ وفيكم عين تطرف.

ثم أنه سار إلى المنصور؛ فدخل وسلّم عليه، فلم يردّ عليه المنصورُ السلام، ثم قال له: يا مغن؛ أنتجراً عليّ؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين! فقال المنصور: ونعم أيضاً! وقد اشتدّ غضبه. فقال مغن: يا أمير المؤمنين؛ كم من مرة تقدّم في دولتكم بلائي، وحسُنُ غنائي (٣)؟ وكم من مرة خاطرتُ بدمي؟ أفما رأيتموني أهلاً لأن يُوهب لي رجلٌ واحد استجارَ بي بين الناس، يوهمه أني عبدٌ من عبيد أمير المؤمنين، وكذلك أنا! فمرّ بما شئت، وهأنذا بين يديك!

(١) ذيل ثمرات الأوراق للحموي: ١٦٧، غرر الخصائص: ١٧.

(٢) كان مغن بن زائدة جواداً شجاعاً، جزيل العطاء، كثير المعروف ممدحاً مقصوداً، وكان في أيام بني أمية متنقلاً في الولايات ومتقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، فلما كانت أيام المنصور اتصل به بعد أحداث، وصار من خواصه، وتوفي سنة ١٥٨ هـ.

(٣) الغناء: النفع.

فأطرق المنصورُ ساعة، ثم رفع رأسه، وقد سَكَنَ ما به من الغضبِ، وقال له: قد أجزناه لك يا مَعْن. فقال له مَعْن: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يجمع بين الأَجْرَيْن فأمر له بصلة أخياه وأغناه.

فقال المنصورُ: قد أمرنا له بخمسين ألف درهم. فقال مَعْن: يا أمير المؤمنين؛ إن صلاتِ الخلفاء على قَدْرِ جِنَاياتِ الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم، فأجزل له صلته. قال: قد أمرنا له بمائة ألف درهم. فقال له مَعْن: عَجِّلها يا أمير المؤمنين، فإن خيرَ البرِّ عاجله، فأمر بتعجيلها؛ فحملها وانصرف؛ وأتى منزله؛ وقال للرجل: يا رجل؛ خذْ صلتك والحق بأهلك؛ وإياك ومخالفة الخلفاء في أمورهم بعد هذه.

مَعْن بن زائدة والأسود^(١)

قال مَعْن بن زائدة: لما هربت^(٢) من المنصور خرجت من باب حرب، بعد أن أقمت في الشمس أيامًا، وخففت لحيتي وعارضتي، ولبستُ جُبَّةً صوفٍ غليظة، وركبتُ جَمَلًا، وخرجت عليه لأمضي إلى البادية، فتبعني أسود متقلد سيفًا، حتى إذا غبت عن الحرس، قبض على خطام^(٣) الجمل فأناخه، وقبض عليّ، فقلت: ما شأنك؟ فقال: أنت بُغيَةُ أمير المؤمنين! فقلت له: ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين؟ فقال: مَعْن بن زائدة. فقلت: يا هذا، اتق الله! وأين أنا من مَعْن؟ فقال: دَع هذا عنك، فأنا والله أعرف بك. فقلت له: فإن كانت القصة كما تقول، فهذا جوهرٌ حملته معي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي، فخذه ولا تسفك دمي.

فقال: هاذه، فأخرجته إليه، فنظر إليه ساعة؛ وقال: صدقت في قيمته، ولستُ قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقك؛ فقلت: قل، فقال: إن الناس وصفوك بالجوهر، فأخبرني: هل وهبت قط مالك كله؟ قلت: لا، قال: فنصفه؟ قلت: لا، قال: فثلثه؟ قلت: لا؛ حتى بلغ العشر، فاستحييت، وقلت:

(١) نهاية الأرب: ٣ - ١١، عصر المأمون ٢ - ١٩٧.

(٢) كان سبب غضب المنصور أن معنا كان منقطعًا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة في عهد بني أمية، فلما كان عهد المنصور وجرى القتال بين المنصور ويزيد انضم مَعْن إلى يزيد وأبلى بلاءً حسنًا حتى قتل يزيد، فهرب مَعْن وطلبه المنصور ثم عفا عنه بعد ذلك.

(٣) خطام الجمل: كل جبل يعلق في حلق البعير ثم يعقد على أنفه.

أظنّ أني قد فعلتُ هذا! فقال: ما ذاك بعظيم! أنا والله راجل^(١) ورزقي من أبي جعفر عشرون درهماً، وهذا الجوهْرُ قيمته ألف دينار، وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك، ولجودك المأثور بين الناس! ولتعلم أنّ في الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحقّر بعد هذا كلّ شيء تفعله، ولا تتوقف عن مكرمة، ثم رمى بالعدل إليّ، وخلي خطامَ الجمل وانصرف.

فقلت: يا هذا! قد فضّختني، ولسفك دمي أهون عليّ مما فعلت، فخذ ما دفعته إليك، فإنني عنه في غنى؛ فضحك، ثم قال: أردت أن تكذبني في مقامي هذا! فوالله لا آخذه، ولا آخذ لمعروف ثمناً أبداً، ومضى.

فوالله لقد طلبته بعد أن أمّنت، وبذلت لمن يجيء به ما شاء، فما عرفت له خبراً، وكان الأرض ابتلعتة.

أموي عند الرشيد^(٢)

رُفِعَ إلى هارون الرشيد أن رجلاً بدمشق من بقايا بني أمية عظيم المال، كبير الجاه، مطاع في البلد، له جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل، يوحملون السلاح، ويغزون الروم، وأنه سمح جواد، وأنه لا يؤمن منه، فعظم ذلك على الرشيد.

فقال لخادمه منارة: اخرج الساعة وابدأ بالرجل فقيده وجثني به، واجعله في محمل تقعد أنت في شقه وهو في الآخر، وتفقّد دازه، واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً بحرف.

قال منارة: فأتيْتُ بيتَ الرجل، ودخلتُ بغير إذنه، فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معي عني، فلما صرتُ في صحنِ الدار نزلتُ، ودخلتُ مجلساً رأيت فيه قوماً جلوساً، فظننتُ أن الرجل فيهم، فقاموا ورخبوا بي، فقلت: أفيكم فلان؟ قالوا: نحن أولاده وهو في الحمام، فقلت: استعجلوه، فمضى بعضهم يستعجله، وأنا أتفقّد الدارَ والأحوالَ والحاشية؛ فوجدتها ماجت موجاً كبيراً. فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال مكثه، واستربت به، واشتدّ خوفي وقلقي من أن يتوارى، إلى أن رأيت شخصاً بزّي الحمام يمشي في صحن

(٢) ذيل ثمرات الأوراق: ١٨١.

(١) الراجل: سد الفارس.

الدار، وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان، وهم أولاده وغلماؤه، فعلمت أنه الرجل.

فجاء وسلم وسألني عن أمير المؤمنين، واستقامة أمر حضرته، فأخبرته بما وجب وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة، فقال: تقدّم يا منارة وكل معنا. فقلت: ما لي إلى ذلك من سبيل، فلم يعاودني وأكل هو ومن معه، ثم جاءوا بمائدة حسنة، فقال: يا منارة؛ ساعدنا على الأكل، فامتنع عنه، فما عاودني.

فلما فرغ من أكله قام إلى الصلاة فصلى وأكثر من الدعاء والابتهاال، ثم قال لي: ما أقدمك يا منارة؟ فأخرجت كتاب أمير المؤمنين فدفعته إليه ففضّه وقراه، ثم أمر أولاده بالانصراف، وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين، ولست أقيم بعد نظري فيه ساعة واحدة، هات قيودك يا منارة، فدعوت بها وقيدته وحملته.

وسرت بالرجل، وليس معه أحد، حتى صرنا بظاهر دمشق، فابتدأ يحدثني بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن في العوطة، فقال لي: أترى هذا؟ قلت: نعم، قال: إنه لي، وفيه من غرائب الأشجار كيت وكيت، ثم انتهى إلى آخر، فقال: مثل ذلك، ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى، فقال: مثل ذلك.

فاشتدّ غيظي منه وقلت: ألسنت تعلم أن أمير المؤمنين أمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك ووليك، وأخرجك فريداً مقيداً لا تدري إلى ما يصير إليه أمرك؛ ولا كيف يكون! وأنت فارغ القلب من هذا حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد أن جئتك؟

فقال لي محيياً: إنا لله وإنا إليه راجعون! أخطأت فراستي فيك. لقد ظننت أنك رجل كامل العقل، وأنت ما حللت من الخلفاء هذا المحلّ إلا لما عرفوك بذلك، فإذا بكلامك يشبه كلام العوام، والله المستعان!

أمّا قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه، فإني على ثقة من الله عزّ وجلّ الذي بيده ناصية أمير المؤمنين، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله عزّ وجلّ؛ ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه. وبعد، إذا عرف أمير المؤمنين أمري، وعرف سلامتي، وصلاح ناحيتي سرحني مكرماً؛ فإن الحساد والأعداء رموني عنده بما ليس فيّ، وتقولوا عليّ الأقاويل،

فلا يستحل دمي؛ وسيردني مكرماً، ويقىمني ببلاده معظماً مبعجلاً؛ وإن كان قد سبق في علم الله عز وجل أنه يبدر إليّ منه بادرة سوء، وقد حضر أجلي، وكان سقك دمي على يده، فإني أحسن الظن بالله الذي خلق رزق، وأحيا وأمات، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة! وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا فإذا عرفت مبلغ فهمك فإني لا أكلّمك بكلمة واحدة حتى يفرق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى!

قال منارة: ثم أعرض عني فما سمعت منه لفظة غير التسييح أو طلب ماء أو حاجة حتى شارفنا الكوفة.

ودخلت على الرشيد وقبلك الأرض بين يديه، ووقفت، فقال: هات ما عندك يا منارة، فسقت الحديث من أوله إلى آخره، فلما جئت على آخره قال: صدق والله! ما هذا الرجل إلا محسود النعمة مكذوب عليه، ولعمري لقد أزعجناه وأديناه ورؤعنا أهله، فبادر بتزع قيوده واثنتي به؛ ففعلت وأدخلته على الرشيد.

فما هو إلا إن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول في وجه الرشيد، فدنا الأموي وسلم بالخلافة ووقف؛ فرد عليه الرشيد رداً جميلاً، وأمره بالجلوس فجلس، فأقبل عليه الرشيد وسأله عن حاله، ثم قال له: بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك، ونسمع كلامك ونحسب إليك؛ فاذا ذكر حاجتك؛ فأجاب الأموي جواباً جميلاً، وشكر ودعا. ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ أن تردني إلى بلدي وأهلي وولدي، قال: نفعل ذلك، ولكن سل ما تحتاج إليه في مصالح جاهك ومعاشك، فإن مثلك لا يخلو أن يحتاج شيئاً من هذا، فقال: يا أمير المؤمنين؛ عمالك مُنصفون، وقد استغنيت بعذلهم عن مسألتي، فأموري مستقيمة، وكذلك أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: انصرف محفوظاً إلى بلدك، واكتب إلينا بأمر إن عرض لك؛ فودعه الأموي وانصرف.

قال منارة: فلما ولي خارجاً قال الرشيد: يا منارة؛ احمله من وقتك وسز به راجعاً كما جئت به، حتى إذا وصلت إلى مجلسه الذي أخذته منه فدعه وانصرف!

المأمون يَغْفُو عَن الحَسِينِ بنِ الضَّحَاكِ (١)

قال محمد بن أبي الأزهر:

كنتُ بين يدي المأمون واقفاً، فأدخَلَ عليه ابنُ البوابِ الحاجبُ رقعةً فيها أبيات، وقال: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذن لي في إنشادها! فَظَنُّها له فقال: هات، فأنشده:

أجزني فإني قد ظممتُ إلى الوعدِ متى تُنجز الوعدَ المؤكَّدَ بالعهدِ
أعيذك من خُلفِ الملوكِ وقد بدَا تقطُعُ أنفاسي عليك من الوجِدِ
أبيخلُ فرُذ الحُسنِ عني بنائلِ قليل، وقد أفرذته بهوى فردِ
إلى أن بلغ إلى قوله:

رأى الله عبدَ الله خيرَ عباده فملكه، والله أعلم بالعبدِ
ألا إنما المأمونُ للناسِ عِصمةٌ مميّزةٌ بين الضلالةِ والرُشدِ

فقال المأمون: أحسنت يا عبد الله. فقال: يا أمير المؤمنين؛ بل أحسن قائلها! قال: ومن هو! قال: عبدك الحسين بن الضحاك (٢)! فغضب، ثم قال: لا حيّا الله من ذكرت ولا بيّاه ولا قرّ به، ولا أنعم به عينا! أليس هو القائل:

أعيني جوداً وإكياً لي محمداً ولا تذخرا دمعاً عليه وأسعدا
فلا تمّت الأشياء بعد محمد ولا زال شملُ الملكِ فيه مُبدداً
ولا فرح المأمون بالملكِ بعده ولا زال في الدنيا طريداً مُشردا

هذا بذاك، ولا شيء له عندنا! فقال له ابنُ البواب: فأين فضلُ أمير المؤمنين وسعةُ حلمه، وعادته في العفو!

فأمره بإحضاره، فلما حضر سلم فردّ عليه ردّاً جافياً؛ ثم أقبل عليه، فقال: أخبرني عنك؛ هل عرفت يوم قُتِل أخِي محمد - رحمه الله - هاشميّة قُتِلت أو

(١) الأغاني: ٧ - ١٦٥، الفرج بعد الشدة: ١ - ٦٢.

(٢) هو مولى باهلة، ولد بالبصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بني العباس وكان خليعاً فاسداً، ولكنه كان حسن التصرف في النظم، ولشعره قبول وروث. مات سنة ٢٥٠ هـ.

هُتَكَتْ! قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ:

وَسِزْبُ ظِبَاءٍ مِنْ ذُوَابِةِ هَاشِمٍ هَتَفَنْ بِدَعْوَى خَيْرِ حَيٍّ وَمَيِّتٍ
أَرْدُ يَدًا مَنِيَّ إِذَا مَا ذَكَرْتُهُ عَلَى كَبِدِ حَرَى وَقَلْبِ مُفْتَتِّ
فَلَا بَاتَ لَيْلُ الشَّامِتِينَ بِغَبْطَةٍ وَلَا بَلَغَتْ أَمَالُهُمْ مَا تَمَنَّتْ

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعةً غلبتني، وروعةً فاجأتني، ونعمةً فقدتها بعد أن غمرتني، وإحساناً شكرته فأنطقني، وسيّدً فقدته فأفلقني، فإن عاقبت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك.

فدمعت عينا المأمون وقال: قد عفوت عنك، وأمرت بردَ أرزاقك، وإعطائك ما فات منها، وجعلت عقوبةً ذنبك امتناعي من استخدامك!

شَبَّ عَمْرُو عَنِ الطُّوقِ (١)

كان جَدِيمَةَ (٢) الأبرش ملكُ الحيرة قد جمع غلماناً من أبناء الملوك يخدمونه؛ منهم عديُّ بن نصر بن ربيعة اللخمي، وكان له حظٌ من الجمال؛ فقالت له رَقَاشُ أخت جَدِيمَةَ: إِذَا سَقَيْتِ الْمَلِكَ فَسَكْرٍ فَاخْطُبِي إِلَيْهِ؛ فَسَقَى عَدِيُّ جَدِيمَةَ لَيْلَةً، وَالطَّفَّ لَه فِي الْخِدْمَةِ، وَلَمَا أَسْرَعَتِ الْخَمْرُ فِيهِ، قَالَ لَهُ: سَلْنِي مَا أَحْبَبْتِ، فَقَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ تَزَوِّجِي رَقَاشَ أَخْتِكَ. قَالَ: مَا بِهَا عَنْكَ رَغْبَةً، قَدْ فَعَلْتُ!

فدخل بها، وأصبح في ثياب جُدِّ وطيب. فلما رآه جَدِيمَةُ قال: يا عدي؛ ما هذا الذي أرى؟ قال: زَوَّجْتِي أَخْتِكَ رَقَاشَ الْبَارِحَةَ، قَالَ: مَا فَعَلْتُ! ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي التَّرَابِ، وَجَعَلَ يَضْرِبُ بِهَا وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى رَقَاشَ فَقَالَ:

حَدَّثِينِي وَأَنْتِ غَيْرُ كَذُوبٍ أَبْحُرُ زَنْبِيَتِ أُمِّ بَهْجِينِ
أَمْ بِعَبْدٍ وَأَنْتِ أَهْلٌ لِعَبْدٍ أَمْ بِدُونٍ وَأَنْتِ أَهْلٌ لِدُونِ

(١) الأمثال: ٢ - ٧٥، القاموس المحيط - مادة طوق، بلوغ الأرب: ٢ - ١٧٧، المسعودي: ١ - ٧٥.

(٢) جديمة الأبرش ثالث ملوك الدولة التنوخية في العراق، عاش في الجاهلية عمراً طويلاً، وكان يقال له الوضاح والأبرش لبرص فيه، وهو الذي جاء إلى الزباء فقتلته بثأر أبيها.

فأجابته رقاش :

أنت زوّجتني وما كنتُ أدري وأتاني النساء للترزيبين

ذاك من شُربك المُدامة^(١) صِرْفًا وتماديك في الصُّبا والمُجون^(٢)

فأطرق جَذيمة، فلما رآه عديّ قد فعل ذلك خافه على نفسه فهرب منه،
ولِحِقَ بقومه وبلاده، فمات هناك.

ثم ولدت رَقاش غلامًا، فسماه جَذيمة عمرًا وتبناه، وأحبّه حبًّا شديدًا - وكان
جَذيمة لا يولّد له.

فلما بلغ الغلامُ ثمانين سنين كان يخرج في عدةٍ من خدم الملك يجتنون له
الكَمأة، فكانوا إذا وجدوا كمأةً خيارًا أكلوها وراحوا بالباقي إلى الملك. وكان
عمرو لا يأكلُ مما يَجني، ويأتي به جَذيمة فيضعه بين يديه، ويقول:

هذا جَنائي وخيارُه فيه إذ كلُّ جانٍ يذُءُ إلى فيه

ثم إنه خرج يومًا وعليه ثيابٌ وحلّي، فاستطير وفُقِدَ زمانًا، وضرِبَ في
الآفاق فلم يوجد، وأتى على ذلك ما شاء الله.

ثم وجد مالك وعَقيلٌ ابنا فارح، وهما رجلان كانا متوجهين إلى الملك
بهدايا وتُحف، فبينما هما بوايٍ في السُماوة انتهى إليهما عمرو بنُ عديّ، وقد
عَفَتْ^(٣) أظفارهُ وشعره، فقالا له: مَنْ أنت؟ قال: ابنُ التُّوخيةِ؛ فَلَهَيَا عنه، وقالا
لجاريةٍ معهما: أطعمينا فأطعمتهما؛ فأشار عمرو إلى الجارية أن أطعميني فأطعمته،
ثم سقتهما، فقال عمرو: اسقيني. فقالت الجارية: لا تُطعم^(٤) العبدَ الكُراعَ فيَطمع
في الذراع^(٥).

ثم إنهما حملاه إلى جَذيمة فعرفه، ونظر إلى فتى ما شاء من فتى! فضمّه
وقبله وقال لهما: حَكْمْتُكما. فسألاه منادته، فلم يزالا نَدِيمَيْه حتى فرَّق الموت

(١) المدامة: الخمر. وصرَف: غير ممزوج. (٢) المجون: الهزل.

(٣) عفا الشعر وغيره: كثر.

(٤) ذُبت مثلًا.

(٥) الكراع في البقر والغنم كالوظيف في الفرس والبعير وهو مستدق الساق. والذراع أفضل من الكراع لأنه في اليد، والكراع في الرجل.

بينهم؛ وبعث عمرًا إلى أمه، فأدخلته الحَمَاح، وألبسته ثيابه، وطوّقته طَوْقًا كان له من ذهب، فلما رآه جذيمة قال: كَبَرَ عمرو عن الطوق^(١)!

تَأْدِيبُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِعَمَالِهِ^(٢)

كان عمرُ بن الخطّاب جالسًا في المسجد فمرَّ به رجل فقال: ويلٌ لك يا عمر من النار! فقال: قزبوه إليّ. فدنا منه، فقال: لِمَ قلتَ ما قلت؟ قال: تستعملُ عُمَّالَكَ وتشرط عليهم، ثم لا تنظر: هل وَقَفُوا لك بِشَرْطٍ أم لا؟ قال: وما ذاك؟ قال: عاملك على مصر اشترطت عليه فترك ما أمرته به، وارتكب ما نهيت عنه؛ ثم شرح له كثيرًا من أمره.

فأرسل عمر رجلين من الأنصار، فقال لهما: انتهيا إليه فأسألا عنه، فإن كان كَذِب عليه فأعلماني، وإن رأيتما ما يسوءكما فلا تُمَلِّكاه من أمره شيئًا، حتى تأتيَا به.

فذهبا فسألا عنه، فوجداه قد صدق؛ فجاءا إلى بابه، فاستأذنا عليه، فقال صاحبه: إنه ليس عليه اليوم إذن. قالوا: لِيُخْرِجَنَّ إلينا أو لنَحْرِقَنَّ عليه بابه، وجاء أحدهما بِشُعْلَةٍ من نار.

فدخل الأذنُ فأخبره؛ فخرج إليهما، فقالا: إنا رسولا عمر إليك لتأتيه، قال: إن لي حاجة، تمهلاني إلى أن أتزوّد. قالوا: إنه عَزَم علينا ألا نُمهلك.

فاحتملاه وأتيا به عُمَرَ، فلما أتاه سلّم عليه فلم يعرفه، وقال له: مَنْ أنت؟ وكان رجلًا أسمر، فلما أصاب من رَيْف^(٣) مصر ابيضّ وسمن - فقال: أنا عاملك على مصر، أنا فلان. قال: وَيَنَحْ! ركبت ما نهيت عنه، وتركت ما أمرت به، والله لأعاقبنك عقوبةً أُبلغ إليك فيها.

أتوني بكساء من صوف وعصا وثلاثمائة شاة من عَنَم الصدقة؛ ثم قال له: ألبس هذه الدَّرَاعَةَ^(٤)؛ فقد رأيتُ أباك، وهذه خير من دُرَاعَتِهِ، وخُذْ هذه العصا فهي خير من عصا أبيك، واذهب بهذه الشِّيَاه فازعها في مكان كذا - وذلك في يوم

(١) ذهبت مثلًا، يضرب للابس ما هو دونه. (٢) ابن أبي الحديد: ٣ - ٩٨.
(٣) الريف هنا: أرض فيها زرع وخصب. (٤) الدراعة: جبة مشقوقة من المقدم.

صائف^(١) - ولا تمنع السَّابِلَةَ^(٢) من ألبانها شيئاً إلا آل عمر، فإنني لا أعلم أحداً من آل عمر أصاب من ألبان غنم الصدقة ولحومها شيئاً.

فلما ذهب رده، وقال: أهتمت ما قلت؟ فضرب بنفسه الأرض، وقال: يا أمير المؤمنين؛ لا أستطيع هذا، فإن شئت فاضرب عنقي. قال: فإن ردذتُك فأبي رجل تكون؟ قال: والله لا يبلغك بعدما إلا ما تحب. فردّه فكان نعم الرجل!

تَنْصَرَّتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ^(٣)

رُوِيَ أَنَّ جَبَلَةَ^(٤) بن الأيهم بن أبي شَمِرِ العَسَّانِي لما أراد أن يُسلم، كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يُعلِّمه بذلك ويستأذنه في القدوم عليه، فسُرَّ بذلك عمر والمسلمون، فكتب إليه: أن أقدم ولك ما لنا وعليك ما علينا.

فخرج جَبَلَةُ في خمسمائة فارس من عَكَّ وجَفْنَةَ؛ فلما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوَشِي المنسوج بالذهب والفضة، ولبس يومئذٍ جَبَلَةُ تاجه وفيه قرطٌ مارية - وهي جدته - ودخل المدينة فلم يبق بها أحدٌ إلا خرج ينظر إليه حتى النساء والصبيان؛ فلما انتهى إلى عمر رحب به وأدنى مجلسه! ثم أراد الحج، فخرج معه جَبَلَةُ.

فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره رجلٌ من بني فزارة فحله، فالتفت إليه جَبَلَةُ مُغضباً، فلطمه فهشم أنفه، فاستعدى عليه الفزاري عمر بن الخطاب؛ فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جَبَلَةُ إلى أن لطمت أخاك هذا الفزاري فهشمت أنفه! فقال: إنه وطئ إزاري فحله؛ ولولا حُرْمَةُ البيت لضربت الذي فيه عيناه^(٥). فقال له عمر: أما أنت فقد أقررت؛ فإما أن ترضيه، وإلا أقدته منك. قال: أتقيده مني وأنا ملك وهو سَوْقَةٌ!!

(١) يوم صائف: شديد الحر.

(٢) السابِلَة: أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حوائجهم.

(٣) الخزانة: ٤ - ٢٩٨، الأغاني: ١٤ - ٤، العقد: ٢ - ٥٦، طبعة لجنة التأليف.

(٤) جَبَلَةُ بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام، عاش زمنًا في العصر الجاهلي، ولما ظهر الإسلام أسلم في أيام عمر، ثم ارتدَّ وعاد إلى الشام ومنها إلى القسطنطينية حيث أقام عند هرقل إلى أن توفي سنة ٢٠ هـ.

(٥) يريد رأسه.

قال عمر: يا جَبَلَة! إنه قد جمعك وإياه الإسلام، فما تَفَضُّله بشيء إلا بالتقوى والعافية، قال جبلة: والله لقد رجوتُ أن أكونَ في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية. قال عمر: دَغَ عنك هذا، فإنك إن لم تُرَضِ الرجل أقدته منك، قال جبلة: إذن أتَنْصِر. قال: إن تنصرت ضربتُ عنقك. واجتمع قومُ جبلة وبنو فزرة فكَادَت تكون فِتنة. فقال جبلة: أُرْخِني إلى غدٍ يا أمير المؤمنين. قال: ذلك لك.

ولما كان جُنح الليل خرج جبلةٌ وأصحابه من مكة، وسار حتى دخل القسطنطينية على هرقل فتنصر، وأقام عنده؛ وأعظَمَ هرقلُ قدومَ جبلة، وسُرَّ بذلك، وأقطعهُ الأموال والأرضين والرِّباع^(١)، وجعله من محدثيه وسُماره.

فلما بعث عمر بن الخطاب رسولاً^(٢) إلى هرقل يدعوهُ إلى الإسلام، وأجابه إلى المصالحة على غير الإسلام، أراد أن يكتبَ جوابَ عمر، وقال للرسول: أَلْقَيْتَ ابْنَ عمك هذا الذي ببلدنا - يعني جبلة - الذي أتانا راغبًا في ديننا؟ قال: ما لِقَيْتُهُ، قال: أَلَقَهُ، ثم اتتني أعطك جواب كتابك.

وذهب الرسول إلى باب جبلة، فإذا عليه من القَهَّارمة والحجَّاب والبَهْجَة وكثرة الجمع مثلُ ما على باب هرقل. قال الرسول: فلم أزل أتلطَّف في الإذن حتى أُذِن لي، فدخلت عليه، فرأيت رجلاً أَصْهَبَ^(٣) اللحية ذا سِبَال^(٤)، وكان عهدي به أسمر أسود اللحية والرأس، فنظرت إليه فأنكرته، فإذا هو قد أتني بِسُحَالَةٍ^(٥) الذهب، فذرها في لحيته حتى عاد أصهب، وهو قاعد على سرير من قوارير^(٦)، قوائمه أربعة أسود من ذهب.

فلما عرفني رفعتني معه في السرير، ورخب بي، ولامني على تَزْكِي النزول عنده، ثم جعل يسألني عن المسلمين، فذكرتُ خيراً وقلت: قد أضعفوا^(٧) أضعافاً على ما تعرف؛ فقال: كيف تَرَكْتِ عَمْرَ بن الخطاب؟ قلت: بخير، فرأيت الغمَّ قد

(٢) هو جثامة بن مساحق الكناني.

(١) الرباع جمع ربع: الدار.

(٣) الصهبة: حمرة يعلوها سواد.

(٤) السبال: جمع سيلة وهي ما على الشارب من الشعر.

(٥) السحالة: ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما إذا بردا.

(٦) القوارير: شجر تعمل منه الرحال والموائد والقوارير من الزجاج أيضاً.

(٧) أضعف الشيء: زيد على أصله فيجعل مثلين أو أكثر.

تبيين فيه، لما ذكرتُ له من سَلَامَةِ عمر. ثم انحدرتُ عن السرير، فقال: لِمَ تَأبَى الكرامة التي أكرمناك بها؟ قلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا. قال: نعم، ﷺ، ولكن نَقَّ قلبك من الدُّنْسِ ولا تبالِ علامِ قعدت. فلما سمعته يقول: ﷺ طَمِعْتُ فيه، فقلت له: ويحك! يا جبلة، ألا تُسَلِّمُ وقد عرفتَ الإسلامَ وَفَضَّلَهُ. قال: أَبْعَدُ ما كان مني؟ قلت: نعم: قد فعل رجلٌ من فزارة أكثرَ مما فعلت: ارتدَّ عن الإسلام، وضرب وجوهَ المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام، وقُبِلَ ذلك منه، وخَلَفْتَهُ بالمدينة مسلماً. قال: دَزَنِي مِنْ هَذَا، إن كنتَ تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته، ويؤيني الإمرة بعده رجعتُ إلى الإسلام. قال: ضمنت لك التزويج، ولم أضمن لك الإمرة. قال: لا.

فأومأ إلى خادم بين يديه، فذهب مسرعاً، فإذا خَدَمٌ قد جاؤوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فوضعت ونُصبت موائد الذهب وصِحَاف الفضة، وقال لي: كُلْ فقبضت يدي، وقلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن الأكل في آنية الذهب والفخار، فقال: نعم، ﷺ، ولكن نَقَّ قلبك وكُلْ فيما أحببت. وأكل في الذهب والفضة، وأكلت في الخليج^(١).

فلما رُفِعَ الطعام جيء بطَسَّاس^(٢) الفضة وأباريق الذهب، وأومأ إلى خادم بين يديه، فمرَّ مسرعاً، فسمعت حِسًّا، فالتفتُ، فإذا خَدَمٌ معهن الكراسي مرصعة بالجواهر، فوضعت عشرة عن يمين، وعشرة عن يساره، ثم سمعت حِسًّا، فإذا عشر جوار قد أقبلن مَطْمُومات^(٣) الشعر متكسرات في الحَلِي، عليهن ثياب الدِّياج، فلم أرَ وجوهاً قط أحسنَ منهن، فأقعدهن على الكراسي عن يمينه، ثم سمعت حِسًّا فإذا عشر جوارٍ أخرى فأجلسهن على الكراسي عن يساره، ثم سمعت حِسًّا، فإذا جارية كأنها الشمس حسناً وعلى رأسها تاجٌ، وعلى ذلك التاج طائر لم أرَ أحسنَ منه، وفي يدها اليمنى جَمَامَةٌ^(٤) فيها مسك وعُثْبِر، وفي يدها اليسرى جَمَامَةٌ فيها ماء ورد، فأومأت إلى الطائر، فوقع في جَمَامَةِ ماء الورد فاضطرب فيه، ثم أومأت إليه فطار حتى نزل على صليب في تاج جبلة، فلم يزل يُرْفرف حتى

(١) الخليج: الجفنة.

(٢) الطسَّاس: جمع الطس، وهو الطست.

(٣) طمت شعرها: عقصته وهو مطموم، والعقص: أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها، ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها.

(٤) إناء من فضة.

نفض ما في ريشة عليه؛ وضحك جبلةً من شدة السرور، حتى بدت أنيابه، ثم التفت إلى الجواري التي عن يمينه، فقال: بالله أطربنني. فاندفعن يتغنين يخفنن بعيدانهن وَيَقْلُن^(١):

لله دُرٌّ عِصَابَةٌ نَادَمْتُهُمْ	يَوْمًا بِجَلَقٍ ^(٢) فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ	بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السُّلْسِلِ ^(٣)
أَوْلَادُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ	قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ ^(٤)	لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
بِيضُ الْوَجْهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ	شَمُّ الْأَنْوْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

فضحك حتى بدت نواجذُه، ثم قال: أتدري من قائل هذا؟ قلت: لا، قال: قائله حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ، ثم التفت إلى الجواري اللاتي عن يساره، فقال: بالله أبكيننا. فاندفعن يتغنين، وهن يخفنن بعيدانهن.

فبكى حتى جعلت الدموع تسيل على خديه، ثم قال: أتدري من قائل هذا الذي تغنين به؟ قلت: لا أدري، قال: حسان بن ثابت، ثم أنشأ يقول:

تَنْصَرَتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارٍ لَطْمَةٍ	وَمَا كَانَ: فِيهَا - لَوْ صَبِرْتُ لَهَا صَبْرُ
تَكْتَفِنِي مِنْهَا لَجَاجٌ وَنُخْوَةٌ	وَبِعْتُ لَهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوَزِ
فِيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلْدِنِي وَلَيْتَنِي	رَجَعْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي قَالَ لِي عَمَزُ
وَيَا لَيْتَنِي أَرْعَى الْمَخَاضَ ^(٥) بِقَفْرَةٍ	وَكُنْتُ أَسِيرًا فِي رِبِيعَةٍ أَوْ مُضْرُ
وَيَا لَيْتَ لِي بِالشَّامِ أَدْنَى مَعِيشَةٍ	أَجَالِسُ قَوْمِي ذَاهِبِ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ

ثم سألتني عن حسان: أحي هو؟ قلت: نعم، تركته حيا. فأمر لي بكسوة ومال، وثوق موقرة بُرا، ثم قال لي: إن وجدته حيا فادفع إليه الهدية، وأقرئه سلامي، وإن وجدته ميتا فادفعها إلى أهله، وانحر الجمال على قبره.

(١) الشعر لحسان بن ثابت.

(٢) جلق: دمشق.

(٣) البريص: نهر بدمشق. ويردى: نهرى بدمشق أيضا. وتصفيق الشراب: مزجه، الرحيق: الخمر. سلسل: لين.

(٤) تهر كلابهم: هرب الكلب: صوته دون النباح.

(٥) المخاض، نوق مخاض: حوامل.

فلما قدمتُ على عمر وأخبرتهُ خبر جَبَلَة، وما دعوته إليه من الإسلام، والشُرْط الذي شَرطه، وأني ضَمَنت له التزويج، ولم أضمن له الإمرة قال: هَلَّا ضَمَنت له الإمرة؟ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحكمه عز وجل! ثم ذكرتُ له الهدية التي أهداها إلى حسان بن ثابت. فبعث إليه، وقد كُفَّ بصره فأُتِيَ به، وقائدٌ يقوده. فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين؛ إني لأجد رياح آل جَفَنَة عندك. قال: نعم؛ هذا رجل أقبل من عند جبلة، قال: هات يا ابن أخي؛ إنه كريم من كرام مدحتهم في الجاهلية، فحلف أن لا يلقى أحدا يعرفني إلا أهدى إليّ معه شيئا؛ فدفعتُ إليه الهدية: المال، والثياب، وأخبرته بما كان أمر به في الإبل إن وُجد ميتا. فقال: وددت أني كنتُ ميتا فنجرتُ على قبري؛ وانصرف يقول:

إن ابن جَفَنَة من بقية مَعشَر لم يَغْذُهم أبائهم باللوم
لم يَنْسني بالشام إذ هو ربُّها مَلِكًا ولا مُتَّصِرًا بالروم
يُعْطِي الجَزِيلَ ولا يراه عنده إلا كبعض عَطِيَّة المذموم

فقال له رجل كان في مجلس عمر: أتذكرُ ملوكًا كَفَرَة أبادهم الله وأفناهم؟ قال: ممن الرجل؟ قال: مُزَنِي. قال: والله لولا سوابقُ قومك مع رسول الله ﷺ لطَوَّقْتَكَ طَوَّقَ الحمامة.

قال: ثم جهّزني عُمر إلى قيصر، وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به، فلما قَدِست القسطنطينية وجدتُ الناس منصرفين من جنازته، فعلمت أن الشقاء غَلَب عليه في أم الكتاب.

بَصِيرَة العَبَّاس (١)

كان بين العباس (٢) بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب مُباعدة، فلقي ابن عباس عليًا، فقال: إن كان لك في النظر إلى عمك حاجةٌ فأْتِه، وما أراك تلتقا بعدها لها. فقال عليّ: تَقَدَّمْني واستأذِنْ. فتقدم ابنُ عباس واستأذِن لِعَلِيّ، فأذِن له ودخل، فاعتنق كلُّ واحد منهما صاحبه، وأقبل عليّ على يد العباس ورجله

(١) ابن أبي الحديد: ١ - ١٣١.

(٢) كان من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، كان شديد الرأي، واسع العقل، أسلم قبل الهجرة وكنم إسلامه، ثم هاجر إلى المدينة وشهد موقعة حنين وفتح مكة، توفي سنة ٣٢ هـ.

يقبلهما، ويقول: يا عمّ؛ ازضّ عني - رضي الله عنك - قال: قد رضيت عنك. ثم قال: يا ابن أخي؛ قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل، ورأيت في عاقبتها ما كرهت، وهأنذا أشيرُ عليك برأيٍ رابع، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك مما كان قبله. قال: وما ذلك يا عمّ؟ قال: أشرتُ عليك في مرض رسول الله ﷺ أن تسأله فإن كان الأمرُ فينا أعطانا، وإن كان في غيرنا أوصى بنا، فقلت: أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد، فمضت تلك!

فلما قبض رسولُ الله ﷺ أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة فدعوناك إلى أن نُبايعك، وقلتُ: ابسط يديك أبايعك ويبايعك هذا الشيخ، فإننا إن بايعناك لم يختلف عليك أحدٌ من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك قرشي، وإذا بايعتكَ قريش لم يختلف عليك أحدٌ من العرب. فقلتُ: لنا بجهاز رسول الله ﷺ شغلٌ، وهذا الأمر لا يُخشى عليه، فلم نلبث أن سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة^(١)، فقلت: يا عم ما هذا؟ قلتُ: ما دعوناك إليه! فأبيت وقلتُ: سبحان الله! أو يكون هذا؟ قلتُ: نعم، قلتُ: أفلا يردّ! قلتُ لك: وهل ردّ مثل هذا قط.

ثم أشرتُ عليك حين طعن عمر، فقلتُ: لا تُدخل نفسك في الشورى؛ فإنك إن اعتزلتهم قدّموك، وإن ساويتهم تقدّموك، فدخلت معهم، فكان ما رأيت.

ثم أنا الآن أشيرُ عليك برأيٍ رابع، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك مما كان قبله: إني أرى أنّ هذا الرجل - يعني عثمان - قد أخذ في أمور الله؛ وكأني بالعرب قد سارت إليه حتى يُنحرَ في بيته كما يُنحرَ الجمل، والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة لزمك الناسُ به، فإذا كان ذلك لم تنل من الأمر شيئاً إلا من بعد شرٍّ لا خير معه.

قال ابنُ عباس: فلما كان يوم الجمل عرضتُ لعليّ، وقد قُتل طلحة؛ وقد أكثر أهلُ الكوفة في سبّه وغمصه^(٢). فقال عليّ: أما والله لئن قالوا ذلك لقد

(١) السقيفة: هي المكان المظلل، واسمها الصفة، وسقيفة بني ساعدة هي التي بويج فيها لأبي بكر بعد حوار طويل بين المهاجرين والأنصار.

(٢) غمصه: احتقره، وعابه، وتهاون بحقه.

كان كما قال :

فتى كان يُدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويُبِعده الفقر
ثم قال: لكان عمي ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق، والله ما نلتُ من
هذا الأمر شيئاً إلا بعد شرٍّ لا خيرَ معه!

أثرُ المغرُوف^(١)

وفد أهلُ الكوفة على معاوية في دمشق حين خطب لابنه يزيد بالعهد بعده،
وفي أهل الكوفة هانيء بن عروة المرادي^(٢)، وكان سيِّداً في قومه، فقال يوماً في
مسجد دمشق، والناسُ حوله: العجبُ لمعاوية يريد أن يُقسِرنا^(٣) على بيعة يزيد،
وحالُه حالُه، وما ذاك والله بكائن.

وكان يجلس في القوم غلامٌ من قريش، فتحمّل^(٤) الكلمة إلى معاوية، فقال
معاوية: أنت سمعت هائناً يقولها؟ قال: نعم! قال: فأخرج فأتِ حَلَقَتَهُ، فإذا خَفَّ
الناسُ عنه، فقل له: أيها الشيخ، قد وصلتُ كلمتُك إلى معاوية، ولست في زمن
أبي بكر وعمر، ولا أحبُّ أن تتكلم بهذا الكلام، فإنهم بنو أمية، وقد عرفتُ
جُرأتَهُم وإفدَامَهُم، ولم يدعني إلى هذا القول لك إلا النصيحة والإشفاق عليك.
ثم انظر ما يقول، فأتيني به.

فأقبل الفتى إلى مجلس هانيء، فلما خَفَّ مَنْ عنده دنا منه، فقص عليه
الكلام، وأخرجه مُخرَجَ النصيحة به، فقال هانيء: والله يا ابن أخي ما بلغتُ
نصيحتُك كلَّ ما أسمع، وإن الكلام لكلامُ معاوية أعرفه. فقال الفتى: وما أنا
ومعاوية؟ والله ما يعرفني. قال: فما عليك! إذا لقيته فقل له: يقول لك هانيء:
والله ما إلى ذلك من سبيل، انهض يا ابن أخي راشداً.

فقام الفتى فدخل على معاوية، فأعلمه، فقال: نستعين بالله عليه.

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد: ارفعوا حوائجكم، وهانيء فيهم، فعرض عليه
كتابه فيه ذكرُ حوائجه. فقال: يا هانيء؛ ما أراك صنعت شيئاً؛ زد. فقام هانيء

(١) ابن أبي الحديد: ٤ - ٣٢٧.

(٢) هانيء بن عروة المرادي: أحد سادات قريش وأشرافهم، قتله عبد الله بن زياد سنة ٦٠ هـ.

(٣) يكرها عليها.

(٤) تحمل: بمعنى حمل.

فلم يدع حاجة عرضت له إلا ذكرها. ثم عرض الكتاب عليه، فقال: أراك قصرت فيما طلبت. زد، فقام هانيء، فلم يدع حاجة لقومه، ولا لأهل مصره إلا ذكرها، ثم عرض عليه الكتاب، فقال: ما صنعت شيئاً، زد! فقال: يا أمير المؤمنين؛ حاجة بقيت! قال: ما هي؟ قال: أن أتولى أخذ البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالعراق! قال: افعل، فما زلت لمثل ذلك أهلاً.

فلما قدم هانيء العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمعونة من المغيرة بن شعبه وهو والي العراق يومئذ.

لَا أُحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ (١)

أتي الحجاج بقوم ممن خرجوا عليه، فأمر بهم فضربت أعناقهم، وأقيمت صلاة المغرب وقد بقي من القوم واحد، فقال لِقُتَيْبَةَ بنِ مسلم: انصرف به معك حتى تغدو به علي.

قال قُتَيْبَةُ: فخرجتُ والرجلُ معي، فلما كنتُ ببعض الطريق قال لي: هل لك في خير؟ قلت: وما ذاك؟ قال: إني والله ما خرجتُ على المسلمين، ولا استحللت قتالهم؛ ولكن ابثليتُ بما ترى، وعندني ودائع وأموال، فهل لك أن تُخَلِّيَ سبيلي، وتأذن لي حتى آتي أهلي، وأزدد على كل ذي حق حقه، وأوصي؛ ولك علي أن أرجع حتى أضع يدي في يدك؟ فعجبتُ له، وتضاحكتُ لقوله، ومضيتُ هنيئة، ثم أعاد علي القول، وقال: إني أعاهدك الله، لك علي أن أعود إليك. فما ملكتُ نفسي حتى قلت له: اذهب!

فلما توارى شخصه أسقط في يدي، فقلت: ماذا صنعتُ بنفسي؟ وأتيتُ أهلي مهموماً مغموماً؛ فسألوني عن شأني فأخبرتهم، فقالوا: لقد اجترأت على الحجاج.

فبتنا بأطول ليلة، فلما كان عند أذان الفجر إذا الباب يُطرق، فخرجتُ فإذا أنا بالرجل، فقلت: أرجعت؟ قال: سبحان الله! جعلتُ لك عهداً الله علي، فأخوتك ولا أرجع! فقلت: أما والله إن استطعتُ لأنفَعُكَ. وانطلقتُ به حتى أجلسته على باب الحجاج، ودخلت!

(١) غرر الخصائص: ٢٠.

فلما رأيته قال: يا قُتيبة؛ أين أسيرك؟ قلت: أصلح الله الأمير - بالباب، وقد أتفق لي معه قصةٌ عجيبة، قال: ما هي؟ فحدثته الحديث، فأذن له فدخل، ثم قال: يا قُتيبة، أتحب أن أهبه لك؟ قلت: نعم! هو لك! فانصرف به معك.

فلما خرجتُ به قلت له: خذ أيَّ طريقٍ شئتَ، فرفع طرْفه إلى السماء وقال: لك الحمدُ يا رب، وما كَلمني بكلمة، ولا قال لي أحسنت ولا أسأت! فقلت في نفسي: مجنون والله! فلما كان بعد ثلاثة أيام جاءني، وقال لي: جزاك الله خيرًا، أما والله ما ذهبَ عني ما صنعت، ولكن كرهتُ أن أُشركَ مع حمد الله حمدَ أحد!

لا أسألُكم عليه أجرًا^(١)

قال عثمان بن عطاء الخرساني: انطلقت مع أبي تُريد هشام بن عبد الملك، فلما قَرُننا إذا بشيخٍ على حمارٍ أسود عليه قميص دَنَس، وجُبة دَنَسَة، وقلنسوة لاطئة^(٢) دَنَسَة، وركاباه من خشب؛ فضحكت منه، وقلت لأبي: مَنْ هذا الأعرابي! قال: اسكت! فهذا سيدُ فقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح^(٣).

فلما قرب منا نزل أبي عن بَعْلته، ونزل هو عن حماره، فاعتنقا وتساءلا، ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب هشام؛ فما استقرَّ بهما الجلوس حتى أذن لهما.

فلما خرج أبي قلتُ له: حدِّثني ما كان منكما. قال: لما قيل لهشام: إن عطاء بن أبي رباح بالباب أذن له؛ فوالله ما دخلتُ إلا بسببه.

فلما رآه هشام قال: مرحبًا مرحبًا! ههنا، ههنا، ولا زال يقولُ له: ههنا ههنا، حتى أجلسه معه على سريره، ومسَّ بركبته ركبته - وعنده أشرافُ الناس يتحدثون فسكتوا. فقال له: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين؛ أهل الحرمين أهلُ الله وجيرانُ رسوله تُقسَّم عليهم أرزاقهم وأعطياتهم. قال: يا غلام اكتب لأهل مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لِسنة.

(٢) لاطئة: لازقة.

(١) غرر الخصائص: ١١٧.

(٣) تابعي من أجلاء الفقهاء، ولد باليمن ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها، ومحدثهم، وتوفي فيها سنة

ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد! قال: نعم، يا أمير المؤمنين، أهلُ الحجاز وأهلُ نجد هم أصلُ العرب، وقادةُ الإسلام، تردُّ فيهم فضولُ صدقاتهم. قال: نعم! يا غلام اكتب بأن تُردَّ فيهم فضولُ صدقاتهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين؛ أهلُ الثغور يَرُدُّون من ورائكم، ويقاتلون عدوكم، تُجْرِي لهم أرزاقًا تدرّها عليهم؛ فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور. قال: يا غلام؛ اكتب بحمل أرزاقهم إليهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين؛ أهل ذمتكم لا يُكَلَّفون ما لا يطيقون؛ فإن ما تُجْبونه منهم معونة لكم على عدوكم. قال: نعم، يا غلام؛ اكتب لأهل الذمة بالأا يكلفوا ما لا يطيقون! هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، اتَّقِ الله في نفسك؛ فإنك خُلِقْتَ وحدك، وتموت وحدك، وتُخْشَر وحدك، وتحاسِبُ وحدك، ولا يشبه ما معك ممن ترى أحدًا!

فأكبَّ هشام يَنْكُت^(١) في الأرض، وهو يبكي؛ فقام عطاء.

فلما كنا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه؛ فقال: إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا. فقال: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أُجِرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فوالله ما شرب عنده قطرة ماء.

خَلِيفَةَ بَيْنَ يَدَيِّ قَاضٍ^(٢)

قال العُتْبِيُّ: إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد بن طلحة، وصاحب حَرَسِ هِشَامِ^(٣)، حتى قعدا بين يديه؛ فقال الحرسي^(٤): إن أمير المؤمنين جَرَّاني في خصومة بينه وبين إبراهيم!

فقال القاضي: شاهديك على الجراية^(٥)!

قال: أتراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل! وليس بيني وبينه إلا هذه السُّتْرَةُ^(٦)!

(١) النكت: قرعك الأرض بعود أو بإصبع، وهو فعل المفكر المهموم.

(٢) العقد: ٤ - ٤٤٧، (طبعة لجنة التأليف).

(٣) هشام بن عبد الملك من ملوك الدولة الأموية، ولد في دمشق وبويع له فيها وتوفي سنة ١٣٥.

(٤) الحرسي: واحد حرس السلطان. (٥) الجراية: الوكالة.

(٦) السترة: ما يستر به.

قال: لا، ولكنه لا يثبت الحق لك، ولا عليك، إلا بيّنة.
 فقام الحرسى فدخل إلى هشام فأخبره؛ فلم نلبث أن فَعَقَعَت الأبواب،
 وخرج الحرسى، فقال: هذا أمير المؤمنين!
 فقام القاضي فأشار إليه هشام فقعده، وبسط له مُصَلَى، فقعده عليه هو
 وإبراهيم، وكنا حيث نسمع بعض كلامهما، ويخفى علينا بعضه!
 فتكلما، وأحضرا البيّنة، فقضى القاضي على هشام؛ فتكلم إبراهيم بكلمة
 فيها بعض الخُزُق^(١)؛ فقال: الحمد لله الذي أبان للناس ظُلمك!
 فقال هشام: لقد هممتُ أن أضرب عنقك ضربةً ينتثر منها لَحْمُكَ عن
 عَظْمِكَ. قال: أما والله لئن فعلتَ لفعلته بشيخ كبير السن، قريب القرابة، واجب
 الحق!
 فقال هشام: استرها عليّ يا إبراهيم! قال: لا ستر الله عليّ ذنبي يوم القيامة
 إن سترتها!

قال: فإني مُعْطِيكَ عليها مائة ألف! قال إبراهيم: فسترتها عليه طولَ حياته.

العهد لعمر بن عبد العزيز^(٢)

كان لسليمان بن عبد الملك ابنٌ يقال له أيوب بن سليمان، فعقد له ولاية
 العهد من بعده؛ ثم إن أيوب توفي قبل سليمان، ولم يبق لسليمان إلا ولدٌ صغير.
 فلما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف، فحضره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن
 خنوة، فقال لرجاء: اعرض عليّ ولدي في القُمص والأردية، فعرضهم عليه، فإذا
 هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القُمص والأردية، يسحبونها سحبًا. فنظر إليهم
 وقال: يا رجاء؛

إِنْ بَنِي صَبِيَّةٌ صِغَارٌ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ كِبَارٌ

فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾^(٣) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥].

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٢٩.

(١) الخرق: الحق.

(٣) تزكى: تطهر من الشرك والمعاصي.

ثم قال: يا رجاء، اعرض عليّ بنّي في السيوف، فقلّدوهم السيوف، ثم عرضهم عليه، فإذا هم صغار لا يحملونها، يجرونها جرّاً؛ فنظر إليهم وقال:

إِن بَنِي صَبِيَّةٍ صَنِيفِيُونَ أَقْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُونَ^(١)

فقال له عمر بن عبد العزيز: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥].

فلما لم يرَ في ولده ما يريدُ حَدَّثَ نفسه بولايةِ عمر بن عبد العزيز^(٢)؛ لِمَا كان يعرف من حاله؛ فشاور رجاءَ فيمن يعقد له، فأشار عليه بعمر، وسدّد له رأيه فيه، فوافق ذلك سليمان، وقال: لأعقدنّ عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب.

فلما اشتدّ به وجعُه عهدَ عهدًا لم يُطْلِعْ عليه أحدًا إلا رجاءَ بن حَيوَةَ الكنديّ، استخلف فيه عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر.

فدخل سعيدُ بن خالد مع عُمر بن عبد العزيز وبعضِ أهل بيته يعودون سليمان؛ فرأوا به الموت، فمشى عمر وسعيد بن خالد ورجاء بن حَيوَةَ، ثم تخلف عمر كأنه يعالج نعلَيْه، حتى أدركه رجاء، فقال له: يا رجاء، إني أرى أمير المؤمنين في الموت، ولا أحسبه إلا سيَعهد، وأنا أناشدك الله إن ذكرني بشيء من ذلك إلا صدّذته عني، وإن لم يذكرني ألاّ تذكرني له في شيء من ذلك. فقال رجاء لعمر: لقد ذهب ظنُّك مذهبًا ما كنتُ أحسبك تذهب، أتظنُّ بني عبد الملك يدخلونك في أمورهم! وقد كان سليمان فرغ من ذلك ولكنه أراد إخفاءه عن عمر!

فلما احتضِر^(٣) سليمان، واشتدّ ما به أمر بالبيعة لمن كان في كتابه ممن عهد إليه، فبايع الناس ولا يعلمون من في كتابه.

ثم قضى الله على سليمان بالموت، فلما مات كتم موته رجاء بن حَيوَةَ، ثم خرج إلى الناس فقال: إن أمير المؤمنين يأمرُكم بتجديد البيعة لمن كان عهدًا إليه،

(١) يقال: أضاف الرجل، إذا ولد له على كبر سنه وولده صيفيون. وأربع الرجل: إذا ولد له في فناء سنه، وولده ربعيون.

(٢) هو الخليفة الصالح العادل، ولد بالمدينة ونشأ بها، وبويع له بالخلافة سنة ٩٩ هـ وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة توفي سنة ١٠١ هـ.

(٣) احتضِر: حضره الموت.

وقد أصبح بحمد الله صالحًا. فقالوا: أوصِلنا إلى أمير المؤمنين لننظرَ إليه، ونُتَقَدَّ أمره؛ فدخل وأمر به فأَسند بالوسائد وأقام عنده خادمًا، وأمر بالناس فأدخلوا عليه، فيقفون عند الباب فيسألون من بعيد، وهم يَرَوْنَ شخصه، فيردُّ الخادم عنه ردَّ المريض وهم ينظرون إليه.

ثم قال: يأمرُكم أميرُ المؤمنين أن تُبَايعوا لمن عهد إليه، وتسمعوا له وتطيعوا، فخرجوا إلى المسجد والناسُ مجتمعون: وجوهُ بني مَرْوَانَ وبني أمية، وأشرفُ الناس، فبايعوا، حتى إذا رضى رَجَاءُ من ذلك نظر فإذا هو لا يرى عمر؛ فخرج يلتمسه في المسجد حتى رآه قاصيًا، فوقف عليه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته! فمُ إلى المنبر، فقال: أنشدك الله يا رَجَاءُ، فقال رجاء: أنشدك الله أن يضطربَ بالناس حَبْلٌ، فقد لقي سليمانُ رَبَّهُ، وقضى الله عليه بالموت.

فقام عمر حتى جلس على المنبر، فنعى للناس سليمان، وفتح الكتاب، فإذا فيه استخلاف عمر ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر.

فلما قرأ ذَكَرَ عمر جثًا هشام بن عبد الملك على ركبتيه وقال: هاهُ^(١)! فسَلَّ رجلٌ من أهل الشام سِنْفَه، وقال: تقول لأمرٍ قد قَضَاهُ أمير المؤمنين هاهُ؟ فلما قرأ: «ثم يزيد بن عبد الملك من بعد عمر» قال هشام: سمعنا وأطعنا. فسمع الناس وأطاعوا، وقاموا فبايعوا لِعُمَرَ.

عُمَرُ بن عبد العَزِيزِ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْحَقِّ^(٢)

لما دُفِنَ سليمان، وقام عمر بن عبد العزيز قَرَّبَتْ إليه المراكب، فقال: ما هذه؟ فقالوا: مراكب لم تُزَكَّب قط يركبها الخليفة أول ما يلي. فتركها وخرج يلتمسُ بَعْلَتَه، وقال: يا مُزَاحِمُ؛ ضُمَّ هذه إلى بيتِ مالِ المسلمين.

ونُصِبَتْ له سُرادِقَاتُ وَحُجَرٌ لم يجلس فيها أحد قط، كانت تُضرب للخليفة أول ما يلي، فقال: ما هذه؟ فقالوا: سُرادِقَاتُ وَحُجَرٌ لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفة أول ما يلي. قال: يا مُزَاحِمُ، ضُمَّ هذه إلى أموال المسلمين.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٣٥.

(١) هاهُ: وعيد.

ثم ركب بَعْلته، وانصرف إلى الفُرْش والوَطاء^(١) الذي لم يجلس عليه أحد قط والذي يفرش للخليفة أول ما يكون، فجعل يَدْفَعُ ذلك برجله حتى يُفْضِي إلى الحَصِير. ثم قال: يا مزاحم، ضَمَّ هذا لِأَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ.

وبات عِيَالُ سُلَيْمَانَ يُفْرِغُونَ الْأَدْهَانَ وَالطَّيْبَ، مِنْ هَذِهِ الْقَارُورَةِ إِلَى تِلْكَ الْقَارُورَةِ، وَيَلْبَسُونَ مَا لَمْ يُلْبَسْ مِنَ الثِّيَابِ حَتَّى تَتَكَسَّرَ - وَكَانَ الْخَلِيفَةُ إِذَا مَاتَ فَمَا لَبَسَ مِنَ الثِّيَابِ، أَوْ مَسَّ مِنَ الطَّيْبِ كَانَ لَوْلَدِهِ، وَمَا لَمْ يُلْبَسْ مِنَ الثِّيَابِ وَمَا لَمْ يُمَسَّ مِنَ الطَّيْبِ فَهُوَ لِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ.

فلما أصبح عمر قال له أهلُ سليمان: هذا لك وهذا لنا. قال: وما هذا؟ وما هذا؟ قالوا: هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومسَّ من الطيب وهو لولده، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده، وهو لك.

قال عمر: ما هذا لي، ولا لسليمان، ولا لكم، ولكن يا مزاحم؛ ضَمَّ هَذَا كُلَّهُ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ.

فَتَأَمَّرَ الْوُزَرَءَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَقَالُوا: أَمَا الْمَرَائِبُ وَالسَّرَادِقَاتُ وَالْحُجَرُ وَالشُّوَارُ^(٢) وَالوَطاء فليس فيه رَجَاءٌ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْهُ فِيهِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ، وَبَقِيَتْ خَصْلَةٌ وَهِيَ الْجَوَارِي، نَعْرِضُهُنَّ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَا تَرِيدُونَ فِيهِنَّ؛ فَإِنْ كَانَ وَإِلَّا فَلَا طَمَعَ لَكُمْ عِنْدَهُ. فَأَتَى بِالْجَوَارِي فَعَرَضْنَ عَلَيْهِ كَأَمْثَالِ الدُّمَى؛ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِنَّ جَعَلَ يَسْأَلُهُنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً: مَنْ أَنْتِ؟ وَلِمَنْ كُنْتِ؟ وَمَنْ بَعَثَ بِكِ؟ فَتَخَبَّرَهُ الْجَارِيَةُ بِأَصْلِهَا، وَلِمَنْ كَانَتْ، وَكَيْفَ أَخَذَتْ، فَيَأْمُرُ بِرَدِّهِنَّ إِلَى أَهْلِهِنَّ وَيُحْمَلْنَ إِلَى بِلَادِهِنَّ، حَتَّى فَرَّغَ مِنْهُنَّ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ أَيْسَوْا مِنْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ سَيَحْمَلُ النَّاسَ عَلَى الْحَقِّ.

واحتجب عَن النَّاسِ ثَلَاثًا، لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَوَجُوهُ بَنِي مَرْوَانَ وَبَنِي أُمِيَّةَ، وَأَشْرَافُ الْجُنُودِ وَالْعَرَبِ، وَالْقَوَادِ بِيَابِهِ، يَنْظُرُونَ مَا يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ بِهِ. فَجَلَسَ لِلنَّاسِ بَعْدَ ثَلَاثِ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ فَعَرَفُوهَا؛ فَرَدَّ الْمِظَالِمَ، وَأَحْيَا الْكُتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَسَارَ بِالْعَدْلِ، وَرَفَضَ الدُّنْيَا، وَزَهَدَ فِيهَا، وَتَجَرَّدَ لِإِحْيَاءِ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قُبِضَ^(٣).

(٢) الشوار: اللباس والزينة ومتاع البيت.

(١) الوطاء: ضد الغطاء.

(٣) مات.

لَا تَلُومُوا إِلَّا أَنْفُسَكُمْ^(١)

اجتمعت بنو أمية، فكلّموا رجلاً أن يكلم عمر بن عبد العزيز في صلة أرحامهم والعطف عليهم، وكان قد أمر لهم بعشرة آلاف دينار فلم تنفع منهم. فدخل عليه الرجل، فكلّمه وأعلمه بمقاتلتهم، فقال: أجل! والله لقد قسمتها فيهم، وقد ندمتُ عليها ألا أكون منعتهم إياها، وقسمتها فكانت تكفي أربعة آلاف بيت من المسلمين.

فخرج إليهم الرجل وأعلمهم بمقاتته، وقال: لا تلوّموا إلا أنفسكم يا معشر بني أمية؛ عمدتم إلى صاحبكم فزوجتموه بنت ابن عمر^(٢)، فجاءتكم بعمر ملفوفاً في ثيابه، فلا تلوّموا إلا أنفسكم.

ذَكَرْتَنِي الطَّغْنُ وَكُنْتُ نَاسِيًا^(٣)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ردّ المظالم والقطائع. وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنيسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار، فدارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم، فلم يبق إلا قبضها، فتوفّي سليمان قبل أن يقبضها.

وكان عنبة صديقاً لعمر بن عبد العزيز؛ فغدا يريدُ كلامَ عمر فيما أمر له به سليمان؛ فوجد بني أمية حضوراً بباب عمر، يريدون الإذن عليه ليكلّموه في أمورهم، فلما رأوا عنبة قالوا: ننظر ما يصنع به قبل أن نكلّمه، وقالوا له: أغلّم أمير المؤمنين مكاننا، وأعلمنا ما يصنع بك في أمورك.

فدخل عنبة على عمر، فقال له: يا أمير المؤمنين؛ إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار، حتى انتهت إلى ديوان الختم، ولم يبق إلا قبضها، فتوفّي على ذلك، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنعة عندي، وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان.

قال له عمر: كم ذلك؟ قال: عشرون ألف دينار. قال عمر: عشرون ألف دينار تُعني أربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها إلى رجل واحداً والله ما لي إلى ذلك من سبيل.

(٢) عمر بن الخطاب.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٥٠.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز: ٥٨.

قال عَنبَسَة: فرميتُ بالكتاب الذي فيه الصَّكُّ. فقال لي عمر: لا عليك أن يكونَ معك، فلعله أن يأتيك مَنْ هو أجزأ على هذا المال مني فيأمرَ لك بها.

قال عَنبَسَة: فأخذته تبرُّكاً برأيه. وقلت له: يا أمير المؤمنين؛ فما بال جبَل الورس؟ - وكان جبَل الورس قطعةً لعمر بن عبد العزيز - فقال عمر: ذكَّرتني الطَّعَنَ وكنت ناسياً! يا غلام: هاتِ ذلك القَفَصَ، فأُتِيَ بقفص من جريد فيه قِطَاع بني عبد العزيز، فقال: يا غلام؛ اقرأ عليّ، فكلما قرأ قطعة قال: شَقَّها، حتى لم يبقَ في القفص شيءٌ إلا شَقَّه.

قال عَنبَسَة: فخرجتُ إلي بني أمية، وهم قوقفٌ بالباب، فأعلمتهم ما كان من ذلك، فقالوا: ليس بعد هذا شيء، ارجع إليه فاسأله أن يأذنَ لنا أن نلحق بالبلدان.

فرجعتُ إليه فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن قومك بالباب يسألونك أن تُجري عليهم ما كان من قبلك يُجري عليهم، فقال عمر: والله ما هذا المال لي، وما إلى ذلك من سبيل. قلت: يا أمير المؤمنين؛ فيسألونك أن تأذنَ لهم يضربون في البلدان.

قال: ما شاءوا، ذلك لهم، وقد أذنت لهم. قلت: وأنا أيضاً؟ قال: وأنت أيضاً قد أذنتُ لك، ولكني أرى لك أن تقيمَ فإنك رجلٌ كثير التَّقْد، وأنا أبيعُ تركةَ سليمان، فعلكَ أن تشتريَ منها ما يكون لك في ربحه عَوْضٌ مما فاتك.

فأقمتُ تبرُّكاً برأيه، فابتعت من تركةِ سليمان بمائة ألف، فخرجتُ بها إلى العراق فبعْتُها بمائتي ألف وحبست الصَّكَّ.

فلما تُوفِّي عمر وولي يزيد بن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان فأنفذ لي ما كان فيه.

الْوَلَدُ سِرُّ أَبِيهِ (١)

كان يبيدُ عُمَرُ بن عبد العزيز قبل الخلافة ضَيَعَتَهُ المعروفة بالسَّهْلَة، وكانت باليمامة. وكانت بها غَلَّةٌ عظيمة كثيرة، عَيْشُهُ وعَيْشُ أهله منها.

(١) ابن أبي الحديد: ٤ - ١٤٧.

فلما وَلِيَ الخِلافة قال لِمُزاحم مولاہ: إني عزمْتُ أن أَرُدَّ السَّهْلَةَ إلى بيتِ مال المسلمين. فقال مُزاحم: أتدري كم وَلَدُكَ؟ إنهم كذا وكذا!

فَدَرَفَتْ عيناه، فجعل يمسح الدَّمْعَةَ بإصبعه الوسطى، ويقول: أَكِلْهُم إلى الله، أَكِلْهُم إلى الله.

فمضى مُزاحم، فدخل على عبد الملك ابنه، فقال له: ألا تَعْلَمُ ما قد عزم عليه أبوك، إنه يريدُ أن يَرُدَّ السَّهْلَةَ. قال: فما قلتَ له؟ قال: ذكرتُ له ولده؛ فجعل يَسْتَدْمِع ويمسح الدَّمْعَةَ بإصبعه الوسطى، ويقول: أَكِلْهُم إلى الله.

فقال عبد الملك: بشسَ وزيرُ الدين أنت! ثم وَتَبَ وانطلق إلى أبيه، فقال للأذن: استأذن لي عليه. فقال: إنه قد وضع رأسه الساعةَ للقائلة^(١). فقال: استأذن لي عليه. فقال: أما ترحمونَه؟ ليس له من الليل والنهار إلا هذه الساعة. قال: استأذن لي عليه، لا أم لك!

فسمع عمر كلامهما، فقال: ائذن لعبد الملك، فدخل فقال: عَلَامَ عزمْتَ؟ قال: أَرَدْتُ السَّهْلَةَ! قال: فلا تَوَخَّرْ ذلك. قم الآن، فجعل عمر يرفعُ يديه، ويقول: الحمد لله الذي جعل لي من ذرَّيتي من يُعِينني على أمر ديني. نعم، يا بني؛ أصلي الظهر، ثم أصدد المنبر، فأرِدْ! السَّهْلَةَ علانية على رؤوس الناس.

قال: ومَن لك أن تعيشَ إلى الظهر، ثم مَن لك أن تَسَلَّمَ نَيْتُكَ إلى الظهر إن عشت!

فقام عمر، فصعد المنبر وخطب الناس، وردَّ السَّهْلَةَ.

أوارث أنت بني أمية^(٢)

قال أحمد بن موسى: ما رأيت رجلاً أثبتَ جنانًا من رجل رُفِعَ فيه عند المنصور^(٣)، وقالوا: إنَّ عنده ودائع وأموالاً وسلاحًا لبني أمية. فأمر المنصور حاجبه الربيع بإحضاره، فأخضِرَ بين يديه.

(١) القائلة: نصف النهار، والنوم في الظهيرة. (٢) المختار من نوادر الأخبار.

(٣) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد، ثاني خلفاء بني العباس وأعظمهم شدة وبأسًا ويقظة وثباتًا توفي سنة ١٥٨ هـ.

فقال له المنصور: قد رُفِعَ إلينا أن عندك ودائع وأموالاً وسلاحاً لبني أمية، فأخْرِجْ لنا ما عندك، واحمل جميع ذلك إلى بيت المال. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين؛ أنت وارثُ بني أمية؟ قال: لا. قال: فوصيُّ أنت؟ قال: لا. قال: فلمَ تسأل عن ذلك؛ فأطرقَ المنصور ساعة وقال: إن بني أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين، وأنا أخذها فأردها إلى بيت المال للمسلمين. قال الرجل: يحتاج أمير المؤمنين إلى إقامة بينة يقبلها الحاكم على أن المال الذي لبني أمية هو الذي في يدي، وأنه هو الذي اغتصبوه من الناس؛ وأمير المؤمنين يعلم أن بني أمية كانت معهم أموالاً لأنفسهم غيرُ الأموال التي اغتصبوها على ما يزعمُ أمير المؤمنين.

فسكت المنصورُ ساعة ثم قال: يا ربيع؛ صدق الرجل ما يجب لنا عليه شيء، ثم قال للرجل: ألك حاجة؟ قال: نعم. قال: ما هي؟ قال: أن تجمعَ بيني وبين مَنْ سعى بي إليك؛ فوالله يا أمير المؤمنين ما لبني أمية عندي ودائع ولا مالٌ ولا سلاح؛ ولما حضرتُ بين يدي أمير المؤمنين، وعلمتُ ما هو عليه من العدل والإنصاف، واتباع الحق، واجتناب الباطل، أيقنتُ أن هذا الكلام الذي صدر مني هو أنجحُ وأصلحُ لما سألتني عنه وأقربُ إلى الخلاص.

فقال المنصور للربيع: اجمع بينه وبين الرجل الذي اتهمه. ولما جيء بالرجل عرفه، وقال: هذا غلامي أخذ لي خمسمائة دينار وهرب، ولي عليه كتاب بها، ثم استنطق المنصور الغلام، فأقر أنه غلامه وأنه أخذ المال الذي ذكره مولاه، وأبى^(١) به، وسعى بمولاه ليجري عليه أمرُ الله، ويسلم هو من الوقوع في يده. فقال: يا أمير المؤمنين؛ فقد وهبتها له لأجلك؛ وأدفع له خمسمائة دينار أخرى لحضوره مجلس أمير المؤمنين.

فاستحسن المنصور فعله، وكان في كل وقت يقول: يا ربيع؛ ما رأيت مَنْ حاجني مثله.

(١) أبى العبد: استخفى وذهب.

حَدَّثَ عِيسَى بْنُ مُوسَى (١)

لما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحجَّ بالناس، قال لعيسى بن موسى (٢):
 أنت تعلم أن الخلافةَ صائرةٌ إليك، وأريد أن أسلمَ لك عمي وعمَّك عبدَ الله بن
 علي؛ فخذُه واقْتله: وإياك أن تجبنَ في أمره.

ثم مضى المنصورُ إلى الحج، وكتب إليه من الطريق يستحثُّه على ذلك،
 فكتب إليه: قد أنفذتُ أمرَ أمير المؤمنين! فلم يشكَّ أبو جعفر أنه قتله.

ودعا عيسى بنَ موسى كاتبَه يونس؛ فقال له: إن المنصورَ دفع إليَّ عمه،
 وأمرني بقتله. فقال له: إنه يريد أن يقتلكَ به؛ فقد أمرك بذلك سرًّا، ويدعي
 عليك به علانية. والرأيُّ أن تستره في منزلك، ولا تُطلعَ عليه أحدًا؛ فإن طلبه
 منك علانية، دفعته إليه، ولا تدفعه إليه سرًّا أبدًا! ففعل ذلك.

وقدم المنصور؛ فمدَّ على عمومته مَنْ يحركهم أن يسألوه أن يهبَ لهم
 أخاهم عبد الله؛ ففعلوا ذلك، واستشفعوا له. فقال: نعم، عليَّ بعيسى بن موسى،
 فأتاه.

فقال: يا عيسى؛ كنتُ قد دفعتُ إليك عمي وعمَّك عبد الله قبل خروجي
 إلى الحج، وأمرتك أن يكونَ في منزلك مكرَّمًا! قال: قد فعلتُ ذلك. قال:
 قد كلَّمني فيه عمومته؛ فرأيتُ الصفحَ عنه، فأنتي به.

قال: يا أمير المؤمنين؛ ألم تأمرني بقتله قال: لا، بل أمرتك بحبسه عندك.
 ثم قال المنصور لعمومته: إن هذا قد أقرَّ لكم بقتل أخيكم، وادعى أنني
 أمرته بذلك! وقد كذب! قالوا: دعه لنا نقتله. قال: شأنكم.

فأخرجوه إلى صَخْن الدار، واجتمع الناس، واشتهر الأمر؛ فقام أحدُهم،
 وشهَّر (٣) سيفه، وتقدم إلى عيسى ليضربَه؛ فقال عيسى: لا تعجلوا؛ فإن عمي
 حي، ردوني إلى أمير المؤمنين، فردَّوه إليه، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنما أردتُ

(١) المستطرف: ١ - ٦٥.

(٢) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد ونشأ بالحميمة من أرض
 الشام، وكان من فحول أهله وشجعانهم وذوي النجدة والبأس فيهم.

(٣) شهر سيفه: انتضاه فرغه.

بقتله قتلي، هذا عمك حي، إن أمرتني بدفعه إليهم دفعته. قال: اتتنا به، فأتى به، فجعله في بيت، فسقط عليه، فمات.

وركب المنصور بعد موته، وفي خدمته ابن لعمه، وكان يحادثه، فقال له: هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين قتلوا؟ قال: لا أعرف إلا ما تقول العامة يا أمير المؤمنين: إن علياً قتل عثمان، وكذبوا والله، وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير، وسقط البيت على عم أمير المؤمنين.

فضحك المنصور، وقال: إذا سقط البيت على عمي، فما ذنبي؟ قلت: ما قلت لك ذنب يا أمير المؤمنين!

يَقَطَّةُ الْمَنْصُورِ (١)

قال عُقْبَةُ الْأَزْدِيُّ: دخلت مع الجند على المنصور، فارتابني (٢)، فلما خرج الجند أذناني، وقال لي: من أنت؟ فقلت: رجل من الأزد، وأنا من جند أمير المؤمنين، قدمت الآن مع عمرو بن حفص.

فقال: إني لأرى لك هيبه، وفيك نجابة، وإني أريدك لأمر، وأنا به مغني، فإن كفتينيه رفعتك. فقلت: إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين في. فقال: أخف نفسك، واحضر في يوم كذا.

فغيب عنه إلى ذلك اليوم وحضرت، فلم يترك عنده أحدًا، ثم قال لي: اعلم أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتيال، ولهم شيعة بخمرسان بقرية كذا، ي كاتبونهم ويرسلون إليهم الصدقات أموالهم والأطاف (٣) بلادهم، فخذ معك عينا (٤) من عندي، والأطافا وكتبا، واذهب حتى تأتي عبد الله بن الحسن، فأقدم عليه متخشعا، واذكر له أن الكتب على ألسنة أهل تلك القرية، والأطاف من عندهم إليه. فإذا رآك فإنه سيردك ويقول: لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوده، واكشف باطن أمره.

فأخذت كتبه والعين والأطاف، وتوجهت إلى جهة الحجاز، حتى قدمت على عبد الله بن الحسن، فلقيته بالكتب، فأنكرها ونهرني، وقال: ما أعرف هؤلاء

(١) المستطرف: ٢ - ٩٤.

(٢) ارتبت فلانا: اتهمته.

(٤) العين: المال، وما ضرب من الدنانير.

(٣) اللطفة: الهدية.

القوم. فلم أنصرف، وعاودته القول، وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم، وأن معي أطافاً وعيّنًا.

فأنس بي، وأخذ الكُتُب، وما كان معي، فتركته ذلك اليوم، ثم سألتُه الجواب، فقال: أما كتاب فلا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم، فأقرتهم السلام، وأخبرهم أن ابني: محمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا.

فخرجت من عنده؛ وسرت حتى قدمت على المنصور، فأخبرته بذلك، فقال لي: إني أريد الحج، فإذا صرتُ بمكان كذا وكذا، وتلقاني بنو الحسن، وفيهم عبد الله، فإني أعظمه وأكرمه، وأرفعه وأخضر الطعام، فإذا فرغ من أكله، ونظرتُ إليه، فامثل بين يدي، وقف قدامه، فإنه سيصرف وجهه عنك، فدُر حتى تقف من ورائه، واغمز ظهره بإبهامك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرف عنه، وإياك أن يراك وهو يأكل.

ثم خرج المنصور يريد الحج، حتى إذا قارب البلاد، تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد الله إلى جانبه، فحادثه ثم طلب الطعام للغداء، فأكلوا منه، فلما فرغوا أمر برفعه فرفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن، وقال: يا أبا محمد، قد علمت أن مما أعطيتني من العهود والمواثيق أنك لا تريدني بسوء، ولا تكيد لي سلطانًا.

قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين.

ثم لحظني المنصور بعينه فقممتُ حتى وقفتُ بين يدي عبد الله بن الحسن، فأعرض عني، فدزت من خلفه، وغمزت ظهره بإبهامي، فرفع رأسه، وملأ عينيه مني، ثم وثب حتى جثا بين يدي المنصور، وقال: أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله! فقال المنصور: لا أقالني الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه، وجعل يتطلب ولديه محمدًا وإبراهيم، ويستعلم أخبارهما.

المنصور في ساحة القضاء^(١)

قال نَمِير المدني: قَدِم علينا أمير المؤمنين المنصورُ المدينة، ومحمد بن عمران الطلحي يتولى القضاء بها وأنا كاتبه، فحضر جماعة من الجمالة^(٢)،

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٠. (٢) الجمالة أصحاب الجمال.

واستعدّوه على أمير المؤمنين المنصور في شيء ذكرّوه، فأمرني أن أكتب إلى المنصور بالحضور معهم أو إنصافهم. فقلت له: أعفني من ذلك فإنه يعرف خطي. فقال: اكتب. فكتبته وختمت. فقال: والله ما يمضي به غيرك، فمضيت به إلى الربيع حاجبه، وجعلت أعتذر إليه، فقال: لا بأس عليك! ودخل بالكتاب على المنصور.

ثم خرج الربيع، فقال للناس - وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف وغيرهم: إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: إني دُعيت إلى مجلس الحكم، فلا أحد منكم يقوم إذا خرجت، ولا تبدؤني بالسلام.

ثم خرج وبين يديه المسيّب^(١) والربيع وأنا خلفه، وهو في إزار ورداء، فسلم على الناس، فما قام إليه أحد، ثم مضى حتى بدأ بقبر النبي ﷺ، فسلم عليه، ثم التفت، فلما رآه ابن عمران القاضي أطلق رداءه عن عاتقه، ثم احتبى به، ودعا بالخصوم وهم الجمالة، ثم دعا بالمنصور، فادعى عليه القوم، وقضى لهم عليه، ثم انصرف.

فلما دخل المنصور الدار قال للربيع: اذهب، فإذا قام القاضي من مجلسه فادعه. فلما دعاه ودخل على المنصور سلم عليه، فردّ عليه السلام. وقال له: جزاك الله عن دينك وعن نبيك وعن حسيك، وعن خليفتك، أحسن الجزاء، قد أمرت لك بعشرة آلاف، صلة لك فاقبضها.

فكانت عامّة أموال محمد بن عمران من تلك الصلة.

نَبِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبِي^(٢)

كان المنصور معجباً بمحادثة محمد بن جعفر، ولعظم قدره يفرع الناس إليه في الشفاعات، فثقل ذلك على المنصور، فحجبه مدّة، ثم لم يضبر عنه، فأمر الربيع حاجبه أن يكلمه في ذلك، فكلّمه وقال: أعف أمير المؤمنين، ولا تثقل عليه في الشفاعات، فقبل ذلك منه.

(١) هو المسيب بن زهير، كان على شرط المنصور والمهدي ببغداد وولاه المهدي خراسان، ولم تطل فيها مدته، وتوفي ببغداد سنة ١٧٥ هـ.

(٢) المجاني: ٣ - ١٩٥.

فلما توجه إلى الباب اعترضه قومٌ من قريش، معهم رِقَاعٌ^(١)، فسألوه إيصالها إلى المنصور، فقصَّ عليهم القصة، فأبوا إلا أن يأخذها، فقال: ائذفوها في كُتْمِي.

ثم دخل عليه، وهو مشرفٌ على مدينة السَّلام، وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله، فقال له: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك فيما آتاك، وهنَّاك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك! فما بنتِ العربُ في دولة الإسلام، ولا العَجْمُ في سالفِ الأيام أخصنَ ولا أحسنَ من مدينتك، ولكن كرهتها في عيني خَصْلَةً! قال: وما هي؟ قال: ليس لي ضَيْعَةٌ، فتبسَّم، وقال: قد حسَّتها في عينك بثلاث ضياعٍ قد أفضتُكها! فقال: لله دُرُك يا أمير المؤمنين! إنك شريف الموارِد، كريم المصادِر؛ جعل الله تعالى باقيَ عمرِكَ أكثرَ من ماضيه، ثم أقام معه يومه ذلك.

فلما نهض ليقومَ بدتِ الرِّقَاعُ من كُتْمِهِ، فجعل يردها ويقول: ارجِعنِ خائباتِ خاسراتِ.

فضحك المنصور، وقال: بحقِّي عليك إلا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرِّقَاعِ؛ فأعلمه، فقال: ما أتيتَ يا ابن مُعَلِّم الخير إلا كريماً، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية:

لسنا وإن أحسابنا كُرمت يوماً على الأحساب نتكل
نبنينا كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا
ثم تصفح الرقاع، وقضى حوائج أصحابها جميعاً.

هَمْدَانِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ^(٢)

بينما كان المنصورُ جالساً في مجلسه المبيني على أعالي باب^(٣) خُرَّاسان، من مدينته التي بناها، وأضافها إلى اسمه، مُشْرِفاً على دِجْلَةَ جاءه سَهْمٌ

(١) الرقاع: جمع رقعة: ما يكتب فيها. (٢) المسعودي: ٢ - ٢٣٢.

(٣) كان قد بنى على كل باب من أبواب المدينة في الأعلى من طاقه المعقود مجلساً يشرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه، وكانت أربعة أبواب: فأولها باب خراسان أو باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان، ثم باب الشام، وهو تلقاء الشام، ثم باب الكوفة، وهو تلقاء الكوفة، ثم باب البصرة وهو تلقاء البصرة.

عائز^(١) سقط بين يديه، فدعّر منه دُعْرًا شديدًا، ثم أخذه فجعل يقلّبه؛ فإذا مكتوب عليه بين الرّيشتين:

وَتَحَسَبُ أَنْ مَالِكَ مِنْ نَفَادٍ
وَتُسْأَلُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْعِبَادِ
أَتَطْمَعُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى التَّنَادِي^(٢)
سَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِكَ وَالْخَطَايَا
ثُمَّ قَرَأَ عِنْدَ الرِّيشَةِ الْأُولَى:

وَلَمْ تَخَفْ سَوْءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَخْدُثُ الْكَدْرُ
أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ
وَسَالَمْتَكِ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا
ثُمَّ قَرَأَ عِنْدَ الرِّيشَةِ الْآخَرَى:

فَاضْبِرْ فَلَيْسَ لَهَا صَبْرٌ عَلَى حَالِ
إِلَى السَّمَاءِ وَيَوْمًا تَخْفُضُ الْعَالِي
هِيَ الْمَقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعْيُنِهَا
يَوْمًا تُرِيكَ خَسِيسَ الْقَوْمِ تَرْفَعُهُ
وَإِذَا عَلَى جَانِبِ السَّهْمِ مَكْتُوبٌ: «هَمْدَانُ مِنْهَا رَجُلٌ مَظْلُومٌ فِي حَبْسِكَ!»

فبعث من فوره بعدة من خاصته، ففتشوا الحُبوس^(٣)؛ فوجدوا شيئًا في بنية من الحيس، مؤنقًا بالحديد، متوجّها نحو القبلة، يردّد قوله تعالى: ﴿وَسِعَلُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُتَقَلِّبِ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشُعْرَاءُ: الآية ٢٢٧]؛ فسأله عن بلده، فقال: هَمْدَانُ.

فَحَمِلَ وَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْ الْمَنْصُورِ فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَبْنَاءِ مَدِينَةِ هَمْدَانَ، وَمِنْ أَرْبَابِ نَعْمِهَا، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنْ وَالَيْكَ عَلَيْنَا دَخَلَ بِلْدَانًا، وَلِي ضَيْعَةٌ تَسَاوِي أَلْفَ أَلْفٍ، فَأَرَادَ أَخْذَهَا مِنِّي، فَامْتَنَعْتُ، فَكَبَّلَنِي بِالْحَدِيدِ، وَحَمَلَنِي وَكَتَبَ إِلَيْكَ: إِنِّي عَاصٍ؛ فَطَرِخْتُ فِي هَذَا الْمَكَانِ.

فقال: مُنذُ كم؟ قال: منذ أربعة أعوام. فَأَمَرَ بِقَكَ الْحَدِيدِ عَنْهُ، وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ، وَأَنْزَلَهُ أَحْسَنَ مَنْزَلٍ.

ثُمَّ رَدَّ إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ؛ قَدْ رَدَدْنَا عَلَيْكَ ضَيْعَتَكَ بِخَرَايِجِهَا مَا عَشْتُ وَعِشْنَا، وَأَمَّا مَدِينَتُكَ هَمْدَانُ، فَقَدْ وَلَيْنَاكَ عَلَيْهَا، وَأَمَّا الْوَالِي فَقَدْ حَكَمْنَاكَ فِيهِ،

(١) السهم العائر: الذي لا يدري من رماه.

(٢) يوم التنادي: يوم القيامة.

(٣) الحبوس: جمع حبس.

وجعلنا أمره إليك؛ فجزاه خيراً ودعا له بالبقاء، وقال: يا أمير المؤمنين؛ أما الضيعة فقد قبلتها، وأما الولاية فلا أصلح لها، وأما واليك فقد عفوْتُ عنه.

فأمر له المنصورُ بمالٍ جزيل، وبرزَ واسع، وحمله إلى بلده مكرماً، بعد أن صرفَ الوالي وعاقبه على ما جنى من انحرافه عن سُنَّةِ العدلِ والحق، وسألَ الشيخَ مكاتبته في أخبار بلده، وإعلامه بما يكون من وُلّاته، ثم أنشأَ الحضور يقول:

من يصحب الدهرَ لا يأمن تَصْرُفَهُ يوماً، وللدهرِ إخلاءٌ وإمرار
لكل شيءٍ، وإن دامت سلامته إذا انتهى فله لا بدَّ إقصار

أميرٌ في مَجْلِسِ الْقَضَاءِ^(١)

أتت امرأةٌ يوماً شريك^(٢) بن عبد الله قاضي الكوفة، وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي! قال: مَنْ ظلمك؟ قالت: الأمير موسى بن عيسى عمُّ أمير المؤمنين؛ كان لي بُسْتَانٌ على شاطئ الفرات، فيه نخْلٌ ورِثْتُهُ عن أبي، وقاسمتُ إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطاً، وجعلتُ فيه رجلاً فارسياً يحفظُ النُخْلَ ويقوم به، فاشتري الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي، وسأوَمَنِي ورعَّبَنِي، فلم أبغِه؛ فلما كانت هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام، فاقتلعوا الحائط؛ فأصبحتُ لا أعرف من نُخْلِي شيئاً، واختلط بنُخْلِ إخوتي.

فقال: يا غلام! أحضر طِيئَةً^(٣)، فأحضرها فختمها، وقال: امضِ بها إلى بابهِ حتى يحضرَ معك؛ فأخذها الحاجب، ودخل على موسى، فقال: قد أعدى^(٤) القاضي عليك، وهذا خْتَمُهُ؛ فقال: ادعُ لي صاحب الشرطة فدعا به، فقال: امضِ إلى شريك، وقل: يا سبحان الله! ما رأيتُ أعجَبَ من أمرِك! امرأةٌ ادّعت دَعْوَى لم تصحِ أعديتها عليّ! قال صاحبُ الشرطة: إن رأى الأميرُ أن يُعفيني من ذلك! فقال: امضِ، وَتِلْكَ! فخرج، وقال لغلمانه: اذهبوا واحملوا لي

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٢.

(٢) هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي، عالم فقيه، اشتهر بقوة ذكائه، وسرعة بديهته، ولي قضاء الكوفة سنة ١٥٣ هـ، وكان مثلاً للعدل والنزاهة في قضاائه، توفي سنة ١٧٧ هـ.

(٤) أعدى عليه: أعان.

(٣) الطينة: القطعة من الطين.

إلى حَبْس القاضي بِسَاطًا وفَرَاشًا، وما تدعُو الحاجة إليه، ثم مضى إلى شريك، فلما وقف بين يديه أدى إليه ما قاله موسى؛ فقال لـغلام المجلس: خذ بيده فضَّعه في الحبس. فقال صاحب الشرطة: والله قد علمتُ أنك تحبسني، فقدمتُ ما أحتاج إليه في الحبس.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر؛ فوجَّه الحاجب إليه، وقال له: رسولٌ أدى رسالةً أيُّ شيء عليه! فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه في الحَبْس، فحَبْس.

فلما صلَّى الأمير العصر بعث إلى إسحق بن الصباح الأشعني وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شريك، وقال لهم: أبلِّغوه السلام، وأعلموه أنه استخفَّ بي. وأني لستُ كالعامَّة؛ فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلِّغوه الرسالة، فلما انقضى كلامهم، قال لهم: ما لي أراكم جتتموني في جمع من الناس، فكلمتوني؟ مَنْ ههنا من فتيان الحي؟ فأجابه جماعة من الفتيان فقال: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلا فتنَةٌ وجزاؤكم الحبس. قالوا له: أجاد أنت؟ قال: نعم، حتى لا تعودوا لرسالة ظالم. فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى في الليلة إلى باب السجن، وفتح الباب، وأخرجهم كلهم، فلما كان من الغد، وجلس شريك للقضاء جاءه السجَّان، فأخبره، فدعا بالقمطر^(١) فختمه، ووجَّه به إلى منزله، وقال لـغلامه: الحَقْ بِثَقْلِي^(٢) إلى بغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإغزازَ إذ تقلدناه لهم، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد، وبلغ الخبرُ إلى موسى بن عيسى، فركب في موكبه، فلحقه، وجعل يناشده الله، ويقول: يا أبا عبد الله؛ تثبت، انظر إخواني، أتحبسهم! قال: نعم، لأنهم مشوا لك في أمرٍ لم يَجْز لهم المشي فيه، ولستُ ببارح أو يُردوا جميعًا، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي، فاستعفيته مما قلدني.

فأمر موسى بردهم جميعًا إلى الحَبْس، وهو واقفٌ مكانه حتى جاء السجَّان، فقال: قد رَجَعُوا جميعًا إلى الحبس، فقال لأعوانه: خذوا بِلِجَامِ دابته بين يدي إلى مجلس الحكم، فمروا به بين يديه حتى أُدخِلَ المسجد وجلس في مجلس القضاء،

(١) القمطر: وعاء الكتب.

(٢) الثقل: المتاع.

فجاءت المرأة المتظلّمة؛ فقال: هذا خَضْمُكَ قد حضر، فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه: قبل كلِّ أمرٍ أنا قد حضرت، أولئك يخرجون من الحبس، فقال شريك: أما الآن فنعم! أخرجوهم من الحبس، فقال: ما تقول فيما تدّعيه هذه المرأة؟ قال: صدقت، قال: تردُّ ما أخذت منها، وتنبي حائطها سريعاً كما كان. قال: أفعل ذلك، قال لها: أبقي لك عليه دعوى؟ قالت: لا، وبارك الله عليك، وجزاك خيراً. قال: قومي، فقامت من مجلسه.

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه في مجلسه؛ وقال: السلام عليك أيها الأمير، أتأمر بشيء؟ فقال: بأي شيء أمر؟ وضحك، فقال له شريك: أيها الأمير، ذاك الفعل حقُّ الشرع، وهذا القول الآن حقُّ الأدب؛ فقام الأمير وانصرف إلى مجلسه.

قاضي يطلب إقالته من القضاء^(١)

نقل أن عاقبة بن يزيد القاضي كان يلي القضاء ببغداد للمهدي؛ فجاء في بعض الأيام وقت الظهر للمهدي، وهو خال، فاستأذَنَ عليه، فلما دخل استأذنه فيمن يُسَلِّمُ إليه القمطر^(٢) الذي فيه قضايا مجلس الحكم، واستعفاه من القضاء، وطلب منه أن يُقيِّله من ولايته.

فظن المهدي أن بعض الأولياء قد عارضه في حكمه، فقال له في ذلك: إنه إن كان قد عارضك أحد تُنكر عليه. فقال القاضي: لم يكن شيء من ذلك. قال: فما سبب استعفائك من القضاء؟ قال: يا أمير المؤمنين؛ تقدّم لي خَضْمَان منذ شهر في قضية مُشكِّلة، وكلٌّ يدعي بينة وشهوداً، ويُذلي بحُجج تحتاج إلى تأمل وتلبّث، فرددت الخصوم رجاء أن يضطّليحوا وأن يظهر الفصل بينهما، فسمع أحدهما أنني أحبُّ الرُطْب، فعمد - في وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب - فجمع رُطْباً لا يتهيأ الآن جمعٌ مثله لأمير المؤمنين، وما رأيت أحسن منه، ورشاً بوّابي بدراهم على أن يُدخِلَ الطَّبَقَ عليّ.

فلما أدخله عليّ أنكرت ذلك، وطردت بوّابي، وأمرت بردّ الطبق، فردّ عليه.

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٠. (٢) ما تصان فيه الكتب.

فلما كان اليوم تقدّم الخصمان إليّ فما تساويا في عيني ولا قلبي؛ فهذا يا أمير المؤمنين ولم^(١) أقبل، فكيف يكون حالي لو قبّلت، ولا آمن أن تقع عليّ حيلة في ديني، وقد فسد الناس؛ فأقْلني يا أمير المؤمنين، أقالك الله، وأعفني، عفا الله عنك.

أبو دُلّامة وابن أبي ليلى القاضِي^(٢)

شهد أبو دُلّامة لجارية له عند ابن أبي ليلى^(٣). القاضي على أتانٍ نازعها فيها رجل، فلما فرغ من الشهادة، قال لابن أبي ليلى: اسمع ما قلتُ قبل أن آتيك، ثم أقضِ بما شئت. قال: هات، فأنشده:

إِنَّ النَّاسَ غَطَّوْنِي تَغَطَّيْتُ عَنْهُمْ وَإِنْ بَحَثُوا عَنِّي ففِيهِمْ مَبَاحِثُ
وَإِنْ حَفَرُوا بِثَرِي حَفَرْتُ بِثَارَهُمْ لِيُعْلَمَ يَوْمًا كَيْفَ تَلِكِ النَّبَائِثُ^(٤)

فأقبل القاضي على المرأة وقال: أتبيعيّني الأتان؟ قالت: نعم. قال: بكم. قالت: بمائة درهم! قال: ادفعوها إليها، ففعلوا.

وأقبل على الرجل، فقال: قد وهبْتُها لك. وقال لأبي دُلّامة: قد أمضيت شهادتك، ولم أبحث عنك، وابتعتُ ممن شهدت له، ووهبت ملكي لمن رأيتُ. أرضيت؟ قال: نعم، وانصرف.

صاحب شرطة المهدي مع الهادي^(٥)

قال عبد الله بن مالك: كنت أتولّى الشرطة للخليفة المهدي، وكان يبعث إليّ في نُدماء ولده الهادي أن أضربهم وأحبسهم، صيانةً للهادي عنهم، فيبعث إليّ الهادي يسألني الرّفق بهم، والتخفيف في أمرهم، فلا ألثفتُ إلى ذلك، وأمضي لما يأمرُ به المهدي. فلما ولي الهادي الخلافة أيقنتُ بالتلف، فبعث إليّ يومًا، فحضرت ودخلتُ عليه متكفّنًا متَحَنّطًا، وإذا هو جالسٌ على كرسي والتطعُ والسيفُ بين يديه، فسَلمتُ عليه، فقال: لا سَلّم الله عليك، تذكر يومًا بعثتُ إليك في أمر

(١) معاهد التنصيص: ١ - ٢١١، الأغاني: ١٠ - ٢٣٨.

(٢) جملة حالية، والمعنى: فهذا ما حصل عندي، مع أنني لم أقبل منه الهدية.

(٣) ابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمن قاضي الكوفة.

(٤) النبائث: ما يستخرج من تراب البئر إذا حفرت.

(٥) العقد الفريد للملك السعيد: ١٢٤، عصر المأمون: ١ - ١٠٧.

الحرّاني لَمَّا أمر أمير المؤمنين بضربه، فلم تُجِبنِي؟ وفي فلان وفلان - وجعل يعدُّ ندماءه .

قلتُ: نعم، يا أمير المؤمنين؛ أفَتَأذُنُ لي أن أتكلّم؟ قال: نعم. قلت: أنشدتُك الله! أيسرُك أنك وليتني ما ولّاني أبوك وأمرتني بأمر؛ فبعث إليّ بعضُ ولدك بأمرٍ يخالفُ أمرك فاتّبعْتُ أمره، وعصيتُ أمرك؟ قال: لا. قلت: فكذلك أنا لك، وكذلك كنتُ لأبيك .

فاستدّنانِي فقبِلْتُ يده، فأمر بخلع أبيضت عليّ، وخرجتُ من عنده، وصرْتُ إلى منزلي مفكراً في أمره وأمرِي، وقلت في نفسي: قد يحدثُ القومُ بالأمر الذي عصيته فيه، وهم ندماءؤه ووزراؤه وكتابه، فكأنني بهم قد أزالوه عن رأيه فيّ وحملوه في أمرِي على ما كنتُ أتخوفه .

قال: فإني لجالس وبين يدي حُبْرٌ مشطُورٌ بكامخ^(١)، وأنا أسخّنه وأطعمُهُ الصُّبْنِيَّة، وإذا ضجّةٌ عظيمة، حتى توهمتُ أن الدنيا قد اقتلعتُ وزُلزلت من شدة وقع حوافر الخيل والدواب، وكثرة الضوضاء، فقلت: هاه! والله قد جاء الأمر، وإذا البابُ قد فُتِح، وإذا الخدمُ قد دخلوا، وأميرُ المؤمنين الهادي في وسطهم .

فلما رأيتُه وثبتُ من مجلسي مبادراً، فقبِلْتُ يده ورجله. فقال لي: يا عبد الله؛ إني فكرتُ في أمرك بعد انصرافك، فقلت: يسبق إلى قلبك أني إذا جلستُ وحولي أعداؤك الذين أسأت إليهم أزالوا ما حَسَنَ من رأيي فيك، فأقلقك ذلك وأوحشك، ومنعك القرار، فصرْتُ إلى منزلك لأوانسك، وأعلمك أن الوحشة قد زالت عن قلبي، فهات فأطعمني مما كنتُ تأكل، وافعل فيه ما كنتُ تفعل، حتى تعلم أن الوحشة قد زالت، وقد تحرّمتُ^(٢) بطعامك، وأنستُ بمنزلك، ليزول خوفُك ووحشتك .

فأذَنتُ منه ذلك الرُّقاق والسُّكْرُجَة^(٣) التي فيها الكَمَخ، فأكل؛ ثم قال: هاتوا ما أحضرتموه لعبد الله من مجلسي. فأدخَلتُ بغالَ كثيرة موقرة^(٤) دراهم

(١) الكامخ: نوع من الأدم.

(٢) تحرم منه بحرمة: تمنع وتحمى.

(٣) إناء صغير يؤكل فيه الشيخ القليل من الأدم، وهي فارسية، وأكثر ما يوضع فيه الكوامخ ونحوها.

(٤) أوقر دباته: حملها.

وأطعمة، وقال: هذه لك فاستعِنْ بها، وهذه البغال أيضًا، وقد ولّتك ما كان أبي قد ولاك. ثم انصرف، وصِرْتُ بعد ذلك أَعَد من صَنَائِعِهِ.

لَا أَفْلَحَ قَاضٍ لَا يُقِيمُ الْحَقَّ^(١)

كان عبيد بن ظبيان^(٢) قاضي الرشيد بالرِّقَّة - وكان الرشيد إذ ذاك بها - فجاء رجلٌ إلى القاضي، فاستعداه^(٣) على عيسى بن جعفر، فكتب إليه القاضي ابن ظبيان: «أما بعد، أبقى الله الأمير وحفظه وأتمَّ نعمته، فقد أتاني رجل فذكر أنه فلان ابن فلان، وأن له على الأمير - أبقاه الله تعالى - خمسمائة ألف درهم، فإن رأى الأمير أن يحضر مجلس الحكم، أو يوكل وكيلًا يناظر خَصْمَهُ، أو يرضيه فعله.

ودفع الكتاب إلى رجل، فأتى بابَ ابن جعفر، فدفع الكتاب إلى خادمه. فأوصله إليه، فقال له: قل له: كل هذا الكتاب.

فرجع الرجل إلى القاضي؛ فأخبره، فكتب إليه: «أبقاك الله وأمتع^(٤) بك، حضر رجل يقال له فلان ابن فلان، وذكر أنّ له عليك حقًا، فيز معي إلى مجلس الحكم أو وكيلك إن شاء الله تعالى».

ووجّه الكتاب مع عَوْنين^(٥) من أعوانه، فحضرا باب عيسى بن جعفر، ودفعوا الكتاب إليه فغضب، ورمى به. فانطلقا، فأخبراه فكتب إليه: «حفظك الله وأمتع بك، لا بدّ أن تصير أنت أو وكيلك إلى مجلس الحكم، فإن أبيت أنهيئت أمرك إلى أمير المؤمنين - إن شاء الله».

ثم وجّه الكتاب مع رجلين من أصحابه، فقعدا على باب عيسى بن جعفر حتى طلع؛ فقاما إليه، ودفعا إليه كتابَ القاضي، فلم يقرأه، ورمى به، فعادَا فأبلغاه ذلك، فحتم قِمَطْرُهُ^(٦)، وأغلق بابَهُ، وقعد في بيته.

فبلغ الخبرُ إلى الرشيد فدعاه، وسأله عن أمره، فأخبره الخبر، فقال: يا أمير المؤمنين، أعفني من هذه الولاية، فوالله لا أفْلَحَ قَاضٍ لَا يُقِيمُ الْحَقَّ عَلَى الْقَوِيِّ

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٤، (٢) قاضي الرقة.

(٣) استعدادت القاضي على الظالم: طلبت منه النصرة.

(٤) أبقاك الله استمتع بك. (٥) العون: الظهير.

(٦) القمطر: ما يصاب فيه الكتب.

والضعيف، فقال له الرشيد: مَنْ يَمْتَعُكُ من إقامة الحق؟ فقال: عيسى بن جعفر، فقال الرشيد لإبراهيم بن عثمان: سز إلى دار عيسى بن جعفر، واخْتِمْ أبوابه كلها، لا يخرج منها أحدًا، ولا يدخل إليها أحد، حتى يخرج إلى الرجل من حقه، أو يسير معه إلى مجلس الحكم.

فأرسل إبراهيم إلى دار ابن جعفر بخمسمائة فارس، وأغلق الأبواب كلها، فتوهم عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأي في قتله، ولم يعرف الخبر، فجعل يكلم الأعوان من خلف الباب. وارتفع الصراخ في منزله، وضج النساء.

ثم قال لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم: ادع لي أبا إسحاق لأكلمه. فاعلموه، فجاء حتى وقف على الباب، فقال له عيسى: وَيْحَكَ! ما حالنا؟ فأخبره خبر القاضي ابن ظبيان، فأمر بإحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته فأحضرت، وأمر أن تُدْفَع إلى الرجل. فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره. فقال: إذا قبض الرجل ماله، فافتح أبوابه، وعرفه أن ما رأيته من سيرتك مع القاضي؛ فإياك ومعارضته.

العَادِر مَخْذُول^(١)

قال عمرو بن حفص مولى الأمين: دخلت على محمد الأمين في جوف الليل، وكنت من خاصته، أصِلُ إليه حيث لا يصل إليه أحد من مواليه وحشمه، فوجدته والشمع بين يديه، وهو يُفَكِّرُ، فسلمت عليه فلم يرد علي، فعلمت أنه في تدبير بعض أموره، فلم أزل واقفاً على رأسه، حتى مضى أكثر الليل. ثم رفع رأسه إلي فقال: أخضر لي خزيمة بن خازم^(٢)، فمضيت إليه فأحضرت، فلم يزل في مناظرته حتى انقضى الليل؛ فسمعت خزيمة وهو يقول: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تكون أول الخلفاء نكث عهده، ونقض ميثاقه، واستخف بيمينه، ورد رأي الخليفة قبله. فقال: اسكت؛ الله أبوك! فعبد الله بن خازم^(٣) كان أفضل منك رأياً وأكمل نظراً حيث يجتمع فخلان في هجمة^(٤).

(١) عصر المأمون: ١ - ٢٠٤.

(٢) وإل من أكابر القواد في عصر الرشيد والأمين والمأمون، توفي سنة ٢٠٣ هـ.

(٣) عبد الله بن خازم: كان من أشجع الناس، له فتوح وعزوات، وولي إمرة خراسان لبني أمية، توفي سنة ٢٢ هـ.

(٤) الهجمة من الإبل: ما بين السبعين إلى المائة.

ثم جمع وُجُوهَ القواد، فكان يعرضُ عليهم واحدًا واحدًا ما اعتمزه فَيَأْبُوهُ، وربما ساعده قوم، حتى بلغ إلى خزيمة بن خازم، فشاوره في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين؛ لم ينصحك مَنْ كَذَبَكَ، ولم يغشك من صدَّقَكَ، لا تجرِّي القواد على الخَلْعِ فيخلعوك، ولا تَحْمِلْهم على نَكْثِ العهد فينكثوا عهدك ويبيعتك؛ إن الغادر مخذول والناكث مفلول.

رَجُلٌ يُقَاضِي المَأْمُون^(١)

دخل رجلٌ على المأمون^(٢)، وفي يده رقعةٌ فيها مَظْلِمَةٌ^(٣) من أمير المؤمنين، فقال: أمظلمةٌ مني! فقال الرجل: فأخاطبُ يا أمير المؤمنين سواك!

قال: وما هي ظلامتك؟ قال: إن سعيدًا وكيلك اشتري مني جواهر بثلاثين ألف دينار. قال: فإذا اشتري سعيدٌ منك الجواهر تشكو الظلّامة مني! قال: نعم، إذ كانت الوكّالةُ قد صحّت منك. قال: لعل سعيدًا قد اشتري منك الجواهر، وحمل إليك المال، أو اشتراه لنفسه؛ وعليه فلا يلزمني لك حقٌّ، ولا أعرفُ لك ظلّامة. فقال له: إن في وصيةِ عمر بن الخطاب لِقَضَاتِكُمْ: «البينةُ على مَنْ ادّعى، واليمينُ على مَنْ أنكر».

قال المأمون: إنك قد عدِمْتَ البينة؛ فما يجبُ لك إلا حَلْفَةٌ، ولئن حَلَفْتُها لأنا صادقٌ؛ إذ كنتُ لا أعرفُ لك حقًا يلزمني. قال: إذن أدعوك إلى القاضي الذي نصبته لرعيّتك. قال: نعم! يا غلام، عليّ يحيى بن أكثم^(٤)، فإذا هو قد مثل بين يديّ، فقال له المأمون: اقضِ بيننا، قال: في حُكْمٍ وقضيةٍ؟ قال: نعم، قال: إنك لم تجعل ذلك مجلسَ قضاء. قال: قد فعلت.

قال: فإني أبدأ بالعامّةِ أو لا ليصلحَ المجلسُ للقضاء. قال: افعل.

(١) عصر المأمون: ٣٤٦ هـ.

(٢) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد من أعظم خلفاء بني العباس وعلماهم وحكمائهم، كان كريم الخلق عظيم الحلم محبًا للعلم مؤثرًا للحكمة، توفي سنة ٢١٨ هـ.

(٣) المظلمة: ما تطلبه عند الظالم، وكذلك الظلّامة.

(٤) يحيى بن أكثم: قاض رفيع القدر، عالي الشهرة، من نبلاء الفقهاء، يتصل نسبه بأكثم بن صيفي حكيم العرب، ولده المأمون قضاى البصرة وهو شاب، ثم قلده القضاء ببغداد. توفي سنة ٢٤٢ هـ.

ففتح الباب وقعد في ناحية، وأذن للعمامة، ثم دُعِيَ بالرجل المتظلم، فقال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول: عليك أن تدعوا بخضمي أمير المؤمنين المأمون. فنادى المنادي؛ فإذا المأمون قد خرج، ومعه غلام يحمل مِصْلَى، حتى وقف على يحيى وهو جالس؛ فقال له: اجلس؛ فطرح المِصْلَى ليقعد عليها؛ فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين؛ لا تأخذ علي خضمك شرف المجلس، فطرح له مِصْلَى ثم نظر في دَعْوَى الرجل، وطالب المأمون باليمين فحلف، ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه، فقام على رجليه؛ فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إني كنت في حق الله عز وجل حتى أخذته منك، وليس الآن من حقي أن أتصدّر^(١) عليك.

ثم أمر المأمون أن يُحصَر ما ادعى الرجل من المال، وقال له: خذه إليك، والله ما كنت أحلف على فجرة^(٢)؛ ثم أسمح لك بالمال فأفيسد ديني ودنياي، والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية، لعلها ترى أنني تناولتُك من وجه القُدرة، وإنما لتعلم الآن أنني ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال.

لا يخلو أحد من شجن^(٣)(٤)

دخل طاهر بن الحسين^(٥) على المأمون ذات يوم في حاجة، وكان المأمون - فيما قيل - في مجلس شراب، فأمر برطلين من النبيذ، ثم بكى المأمون، وأغرورقت عيناه، فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين؛ لِمَ تبكي لا أبكي الله عينك! فوالله، لقد دانت لك البلاد، وأذعن^(٦) لك العباد، وصرت إلى المحبة في كل أمرك. فقال: أبكي لأمرٍ ذكره ذلٌّ، وسثره حزن، ولن يخلو أحد من شجن، فتكلّم بحاجة إن كانت لك.

فما زال طاهر بعد ذلك يتخذ الوسائل إلى معرفة السبب، حتى وفق بالمال إلى إغراء ساقى المأمون أن يتعرف كنه ذلك السبب.

(١) أتصدّر: أتقدم.

(٢) حلف على فجرة: إذا ركب أمراً قبيحاً من يمين كاذبة أو كذب.

(٣) الشجن: الهم والحزن.

(٤) عصر المأمون: ١ - ٢٧٠.

(٥) كان طاهر بن الحسين قائداً من قواد المأمون، وهو الذي تولّى قتل الأمين ونصب رأسه سنة

١٩٨ هـ.

(٦) أي خضعوا لك.

فلما تغدّى المأمون ذات يوم قال لساقيه: يا حسين؛ اسقني، قال: لا والله لا أسقيك أو تقول: لم بكيّت حين دخل عليك طاهر؟ قال: يا حسين؛ وكيف عُنيّت بهذا حتى سألتني عنه؟ قال: لِعَمِّي بذلك. قال: هو أمرٌ إن خرج من رأسك قَتَلْتُكَ، قال: يا سيدي؛ ومتى أخرجتُ لك سيرا! قال: إني ذكرت محمداً أخي، وما ناله من الذلة، فحقتني العبرة فاسترحت إلى الإفاضة؛ وأن يفوت طاهراً مني ما يكره.

فأخبر حسين الساقى طاهراً بذلك فركب طاهراً إلى أحمد بن أبي خالد - وهو وزير المأمون - فقال له: إن الثناء مني ليس برخيص، وإن المعروف عندي ليس بضائع، فغيبني عن عين المأمون. فقال: سأفعل؛ فبكر عليّ غداً.

وركب ابنُ أبي خالد إلى المأمون، فلما دخل عليه قال له: ما نمتُ الليلة، فقال له: ولمَ ويحك! قال: لأنك وليت غسانَ خراسان، وهو ومن معه أكلة رأس^(١)، فأخاف أن يخرج عليك خارجة من الترك فيضطلمه^(٢).

قال: لقد فكرتُ فيما فكرتَ فيه. فَمَنْ ترى؟ قال: طاهر بن الحسين. قال: ويلك يا أحمد! قال: أنا الضامن له. قال له: فأنتِذه^(٣).

فدعا بطاهر من ساعته، وجعله حاكماً على خراسان.

كَيْفَ يَعْتَذِرُ إِنْسَانٌ مِنْ كَلَامٍ تَكَلَّمَ بِهِ^(٤)

حدّث أحمد بن أبي خالد الأحول أنه سمع المأمون يوماً - وعنده علي بن هشام، وأخواه - ذكر عمرو بن مسعدة^(٥)، وقال: أيحسبُ عمرو أنني لا أعرف أخباره، وما يُجيبني إليه، وما يعاملُ به الناس! بلى والله، ونهض وانصرفنا.

فقصدتُ عمرواً من ساعتى، فخبّرته بما جرى، وأنسييتُ أن أستحلّه من حكايته عني، فراح عمرو إلى المأمون، فظنّ المأمون أنه لم يحضُر إلا لأمرٍ مهمّ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة، فأذن له.

(١) يريد أن عددهم قليل، يشبههم رأس واحد. (٢) اضطلمه: استأصله.

(٣) المراد: أرسله، ونفذ رأيك.

(٤) عصر المأمون: ١ - ٣٤٢.

(٥) وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء توفي سنة ٢١٧ هـ.

فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين؛ أنا عائدٌ بالله من سُخْطِهِ، ثم عائدٌ بك من سُخْطِكَ يا أمير المؤمنين، أنا أقلُّ من أن يشكُونِي أميرُ المؤمنين إلى أحد، أو يُسِرَّ عَلَيَّ ضِغْنًا يبعثه بعضُ الكلام على إظهار ما يظهر منه.

فقال: وما ذاك؟ فخبّره عمرو بما بلغه، ولكنه لم يُسمِّ له مُخبِّره. فقال المأمون: لم يكن الأمرُ كما بلغك، وإنما كانت جملةً من تفصيلٍ كنتُ على أن أخبرك به، وإنما أخرج مني ما خرج معني تَجَارِيئًا، وليس عندي إلا ما تحبُّ، فليُفْرِخ رَوْعُكَ^(١)، وليُحْسِن ظَنُّكَ. فأعدت الكلام، فما زال يسكُن مني، ويطيب من نفسي، حتى ذهب بعض ما كان في قلبي، ثم بدأ فضمني إلى نفسه، وقبّلت يده، فأهوى ليعانقني؛ فشكرته، وتبينت في وجهه الحياء والخجل مما تآدى إلي.

قال أحمد: فلما غدوت على المأمون، قال لي: يا أحمد؛ أما لمجلسي حُرْمَةٌ! فقلت: يا أمير المؤمنين؛ وهل الحُرْم إلا لما فصل عن مجلسك! قال: ما أراكم تَرْضَوْنَ بهذه المعاملة فيما بينكم! قلت: وأية معاملة يا أمير المؤمنين؟ هذا كلام لا أعرفه؛ قال: بلى، أما سمعت ما كُتِّب فيه أمس من ذكر عمرو!

ذهب بعض من حضر من بني هاشم فخبّره به، فراح إلي عمرو مُظهِرًا منه ما وجب عليه أن يُظهِره، فدفعته منه ما أمكن دفعه، وجعلتُ أعتذرُ إليه منه بعددٍ قد تبين في الخجل منه، وكيف يكونُ اعتذارُ إنسان من كلام قد تكلم به! ألا يتبين في عينيه وشفتيه ووجهه! ولقد أعطيته ما كان يقنع مني بأقل منه، وما حداني عليه^(٢) إلا ما دخلني من الخساسة، وما كان قد نطق به اللسان من غير روية ولا احتمال مكروه به.

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أنا أخبرتُ عمراً به، لا أحد من ولد هاشم؛ فقال: أنت! قلت: أنا، فقال: ما حملك على ما فعلت؟ فقلت: الشكرُ لك

(١) ليفرخ روعك: ليذهب رعبك وفزعك، فإن الأمر ليس على ما تحاذر. قال الأزهري: كل من لقيته من اللغويين يقول: أفرخ روعه - بفتح الراء من روعه - إلا ما أخبرني به المنذري أنه كان يقال: إنما هو أفرخ روعه - بضم الراء.

(٢) ما حداني: ما بعثني وحملتني.

والنصحُ والمحبة لأن تتَمَّ نعمتُك على أوليائك وخدمك؛ أنا أعلمُ أن أميرَ المؤمنين يُحبُّ أن يصلحَ له الأعداءُ والبُعداءُ، فكيف الأولياءُ والأقرباءُ! ولا سيما مثل عمرو في دُنُوهِ من الخدمة وموقعه من العمل، ومكانه من رأي أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه!

سمعتُ أمير المؤمنين أنكرَ منه شيئاً فخبرته به ليُصلحَ، ويقومَ من نفسه أودها لسيده ومولاه، ويتلافى ما فرطَ منه، ولا يفسده مثله؟ وإنما يكون ما فعلتُ عيباً، لو أشغْتُ سراً فيه قدح^(١) في السلطان، أو نقضُ تدبيرٍ قد استتب، فأما مثلُ هذا فما حسبته يبلغ أن يكون ذنباً علي.

فنظر إليّ ملياً، ثم قال: كيف قلتُ؟ فأعدتُ عليه: ثم قال: أعذ، فأعدتُ، فقال: أحسنتُ والله يا أحمد، لما خبرتني به أحبُّ إليّ من ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف.

وعقد خنصره وبنصره والوسطى، ثم قال: أما ألف ألف فلتنفيك عني سوء الظنِّ - وأطلَّ وُسْطَاه - وأما ألف ألف فليصدقك إيتاي عن نفسك - وأطلق البنصر - وأما ألف ألف فليحسن جوابك - وأطلق الخنصر - وأمر لي بمال.

عَرَسُ يَدِي وَإِلْفُ أَدْبِي^(٢)

قال رجل من إخوة المأمون للمأمون: يا أمير المؤمنين، إنَّ عبدَ الله بن طاهر^(٣) يميل إلى ولد أبي طالب، وكذا كان أبوه قبله؛ فدفع المأمون ذلك وأنكره، ثم عاد بمثل هذا القول.

فدسَّ المأمون إلى عبد الله بن طاهر رجلاً. ثم قال له: امض في هيئة القراء والتساك إلى مصر، فاذعُ جماعةً من كبارها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، واذكر مناقبه وعلمه وفضائله، ثم صر بعد ذلك إلى بعض بطانة عبد الله بن طاهر، ثم أثبت فادعه ورغبه في استجابته له، وابتحث عن دفين نبيته بحثاً شافياً، وأثبني بما تسمعُ منه.

(٢) عصر المأمون: ١ - ٣٣٧.

(١) قدح: عيب.

(٣) عبد الله بن طاهر: من أشهر الولاة في العصر العباسي، ولأه المأمون خراسان، كان عالي الهممة

شهماً نبيلاً توفي سنة ٢٣٠ هـ.

ف فعل الرجلُ ما قال له وأمره به، حتى إذا دعا جماعةً من الرؤساء والأعلام قعد يوماً بباب عبد الله بن طاهر، ودفع رُقعةً إلى الحاجب ليوصلها إليه، فأذن له، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه ما بينه وبين الأرض غيره، وقد مدّ رجله وخُفاه فيهما، فقال له: قد فهمتُ ما في رُقعتك من جملة كلامك، فهاتِ ما عندك.

قال: ولي أمانك وذمة الله معك؟ قال: لك ذلك.

فأظهر له ما أراد، ودعاه إلى القاسم فأخبره بفضائله وعلمه وزُهد، فقال له عبد الله: أئنصفتني؟ قال: نعم، هل يجب شكر الله على العبادة؟ قال: نعم، قال: فهل يجب شكرُ بعضهم لبعض عند الإحسان والممة والتفضل؟ قال: نعم.

قال: فتجيء إليّ وأنا في هذه الحال التي ترى؛ لي خاتم في المشرق وفي المغرب، وفيما بينهما أمري مُطاع وقولي مقبول، ثم ما التفتُ يميني ولا شمالي وورائي وقدامي إلا رأيتُ نعمةً لرجل أنعمها عليّ، ومئةً طوق بها رقبتني، ويداً لائحةً بيضاء ابتدأني بها تفضلاً وكرماً، فتدعوني إلى الكُفر بهذه النعمة وهذا الإحسان! وتقول: اغدير بمن كان أولاً لهذا وآخرًا! واسع في سفك دمه! تراك لو دعوتني إلى الجنة عياناً من حيث أعلم، أكان الله يُحبُّ أن اغدير به وأكفر بإحسانه ومئته، وأنكث بيّعه!

فسكت الرجل، فقال له عبد الملك: أما إنه قد بلغني أمرُك، وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك، فارحل عن هذا البلد؛ فإن السلطانَ الأعظم إن بلغه أمرُك - وما آمن ذلك عليك - كنتَ الجاني على نفسك ونفس غيرك.

فلما يش الرجل مما عنده جاء إلى المأمون فأخبره الخبر، فاستبشر وقال: ذلك غرسٌ يدي وإلفٌ أدبي.

غَسَّانُ بْنُ عَبَّادٍ وَعَلِيُّ بْنُ عَيْسَى (١)

كان بين غسان بن عباد وعلي بن عيسى عداوةً عظيمة، وكان علي بن عيسى ضامناً (٢) أعمال الخراج والضياح ببلده؛ فبقيت عليه بقية مبلغها أربعون ألف دينار،

(٢) ضمن الشيء: كفله.

(١) ثمرات الأوراق: ٢ - ٣٠.

فَالْحُ الْمَأْمُون عَلَيْهِ بَطْلِبَهَا، إِلَى أَنْ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ صَالِحِ الْحَاجِبِ: أَمِهْلُهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ فَإِنْ أَحْضَرَ الْمَالَ وَإِلَّا فَاضْرِبْهُ بِالسِّيَاطِ حَتَّى يُؤَدِّيَ الْمَالَ أَوْ يَتَلَفَّ.

فَانصَرَفَ عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى مِنْ دَارِ الْمَأْمُونِ آيَسًا مِنْ نَفْسِهِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي وَجْهَهَا يَتَّبِعُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَاتِبُهُ: لَوْ عَرَّجْتَ عَلَيَّ غَسَّانَ بْنَ عَبَادٍ وَعَرَفْتَهُ خَبْرَكَ لَرَجَوْتُ أَنْ يَعْينَكَ عَلَى أَمْرِكَ، فَقَالَ لَهُ: عَلَيَّ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْعِدَاوَةِ! قَالَ: نَعَمْ، فَإِنَّ الرَّجَلَ أَرْيَحِيَّ كَرِيمًا.

فَدَخَلَ عَلِيُّ غَسَّانَ، فَقَامَ إِلَيْهِ وَتَلَقَّاهُ بِالْجَمِيلِ، وَأَوْفَاهُ حَقَّهُ مِنَ الْخِدْمَةِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: الْحَالُ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَمَا عَلِمْتَ، وَلَكِنْ دَخَوْلُكَ إِلَيَّ دَارِي لَهُ حَرَمَةٌ تَوْجِبُ بَلُوغَ مَا رَجَوْتَهُ مِنِّي، فَإِنْ كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَادْكُرْهَا.

فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ؛ فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ يَكْفِيكَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَمْ يَزِدْ عَلَيَّ ذَلِكَ شَيْئًا.

فَنَهَضَ عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى، وَخَرَجَ آيَسًا نَادِمًا عَلَيَّ قَصْدِ غَسَّانَ، وَقَالَ لِكَاتِبِهِ: مَا أَقْدَتْنِي بِالْدُخُولِ عَلَيَّ غَسَّانَ غَيْرَ تَعْجِيلِ الشَّمَاتَةِ وَالْهَوَانِ.

فَلَمْ يَصِلْ عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى إِلَى دَارِهِ حَتَّى حَضَرَ إِلَيْهِ كَاتِبُ غَسَّانَ وَمَعَهُ الْبِغَالُ عَلَيْهَا الْمَالَ، فَتَقَدَّمَ وَسَلَّمَهُ.

وَبَكَرَ إِلَى دَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَوَجَدَ غَسَّانَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا، وَدَخَلَ عَلِيُّ الْمَأْمُونِ وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِنَّ لِعَلِيَّ بْنَ عَيْسَى بِحَضْرَتِكَ حَرَمَةً وَخِدْمَةً وَسَالَفَ أَصْلٍ، وَلَقَدْ لَحِقَهُ مِنَ الْخُسْرَانِ فِي ضَمَانِهِ مَا تَعَارَفَهُ النَّاسُ؛ وَقَدْ تَوَعَّدْتَهُ بِضَرْبِ السِّيَاطِ بِمَا أَطَارَ عَقْلُهُ وَأَذْهَبَ لُبُّهُ؛ فَإِنْ رَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَجِيزَنِي عَلَيَّ حُسْنِ كَرَمِهِ بِبَعْضِ مَا عَلَيْهِ؛ فَهِيَ صَنِيعَةٌ يَجِدُّهَا عَلِيُّ تَحْرُسُ مَا تَقَدَّمَهَا مِنْ إِحْسَانِهِ؛ وَلَمْ يَزَلْ يَتَلَطَّفُ إِلَيَّ أَنْ حَطَّ عَنْهُ النِّصْفُ، وَاقْتَصَرَ عَلَيَّ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارًا.

فَقَالَ غَسَّانُ: عَلِيُّ أَنْ يَجِدَّدَ عَلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الضَّمَانَ، وَيَشْرَفَهُ بِخَلْعَةٍ تَقْوِي نَفْسَهُ، وَتُرْهِفَ عَزْمَهُ، وَيَعْرِفُ بِهَا مَكَانَ الرِّضَا عَنْهُ. فَأَجَابَهُ الْمَأْمُونُ إِلَى ذَلِكَ.

قَالَ: فَيَأْذَنُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَحْمَلَ الدَّوَاءَ إِلَى حَضْرَتِهِ لِيُوقِعَ بِمَا رَأَى مِنْ هَذَا الْإِنْعَامِ! قَالَ: أَفْعَلْ، فَحَمَلَ الدَّوَاءَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَوَقَعَ بِذَلِكَ. وَخَرَجَ عَلِيُّ ابْنَ عَيْسَى بِالْخَلْعَةِ، وَالتَّوَقُّعُ بِيَدِهِ.

فلما حضر عليّ بن عيسى إلى داره حمل من المال عشرين ألف دينار، وأرسلها إلى غسان، وشكر له جميلَ فعله معه. فقال غسان لكتابه: والله ما شفعتُ عند أمير المؤمنين إلا لتؤفّر عليه ويتنفّع بها؛ فامضِ بها إليه، فلما ردّها كاتبه إلى عليّ بن عيسى علم قدر ما فعل معه غسان، فلم يزل يعرفها له إلى آخر العمر.

فَطْنَةٌ (١)

كان المعتضد^(٢) يوماً جالساً في بيت يبنى له، وهو يشاهد الصُّنَّاع، فرأى في جملتهم عبداً أسوداً مُنْكَرَ الخَلْقِ، شديدَ المَرَحِ، يصعد على السلالمِ مِرْقَاتَيْنِ^(٣) مِرْقَاتَيْنِ، ويحمل ضعف ما يحمل غيره. فأنكر أمره، وأحضره، وسأله عن سبب ذلك، فَلَجَلَجَ^(٤). فقال لوزيره: قد خَمَنْتُ^(٥) في هذا تخميناً ما أحسبه باطلاً، إما أن يكونَ معه دنائيرٌ قد ظَفِرَ بها من غَيْرِ وجهها، أو يكون لِيصاً يتسّرّ بالعمل. ثم قال: عليّ بالأسود، فأحضره وضربه، وحلف إن لم يصدقه ليضربنَّ عنقه. فقال الأسود: ولي الأمان يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، إلا ما كان من حدّ؛ فظنّ أنه قد أمّنه.

فقال: كنتُ أعمل في أتون الأجر منذ سنين، فأنا منذ شهور جالس إذ مرّ بي رجل في وسطه كيس، فتبعته وهو لا يعرف مكاني، فحلّ الهِمْيَانِ^(٦)، وأخرج منه ديناراً، فتأملته فإذا كلُّه دنائير، فكتفتُهُ، وسدّذتُ فاه، وأخذتُ الهِمْيَانِ، وحملته على كتفي، وطرحته في الثَّنور، وطينتُ عليه. فلما كان بعد أيام أخرجتُ عظامه وطرحتها في دجلة، والدنائير معي تقوي قلبي.

فأرسل المعتضد من أحضر الدنائير، وإذا على الكيس: «لفلان ابن فلان» فنادى في المدينة، فحضرت امرأته، وقالت: هذا زوجي، وقد ترك طفلاً صغيراً، خرج في وقت كذا ومعه كيس فيه ألف دينار، فغاب إلى الآن، فسلم الدنائير إليها، وضرب عتق الأسود، وأمر أن يوضع في الأتون.

(١) نهاية الأرب: ٣ - ١٥٠.

(٢) بويق المعتضد للخلافة سنة ٢٧٧ وتوفي سنة ٢٨٠ هـ.

(٣) السلالم: جمع سلم، والمرقاة: الدرجة. (٤) اللجلجة: التردد.

(٥) التخمين: القول بالحدس والظن. (٦) الهميان: وعاء للدرهم.

لا يَتَّبِعِ الْهَوَىٰ (١)

قال عبد الرحيم بن القاضي اسماعيل بن إسحاق: كان في حجر أبي يتيم فيبلغ، وله أم، وأختها في دار الخليفة المعتضد بالله، فقالت أم اليتيم لأختها: كَلِّمِي أمير المؤمنين حتى يرفعَ إسماعيلُ القاضي الحجرَ عن وُلدي. فكَلِّمته، فدعا المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيره، وقال له: قُلْ لإسماعيل القاضي يَفُكُ الحجرَ عن فلان. فقال القاضي: حتى أسألَ عنه، وقام فسألَ عنه، فلم يُخَبِرْ عنه، برُشد، فتركه.

ومضت على ذلك أيام، فرجعت والدة الصبي إلى أختها، وسألتها أن تعاود أمير المؤمنين، وكان المعتضد لا يُعاوِدُ لخشوته، فعاودته فقال: أَلَسْتُ قد أمرت! فقالت: لم يُرْفَعِ عنه الحجرُ بعد، فدعا وزيره عبيد الله ثانيًا، وقال: أمرتُك أن تأمر إسماعيل القاضي بأن يَرْفَعَ الحجرَ عن فلان! فقال: قد كنت قلت له ذلك، فقال: حتى أسألَ عنه. فقال: قل له يرفع الحجر عنه. فدعا الوزير ثانيًا، وقال له: أمير المؤمنين يأمرُك أن ترفعَ الحجرَ عن فلان.

فأطرق القاضي ساعةً، ثم استعدى دَوَاةَ ورقة، وكتب شيئًا وختمه، فاستعظم الوزير أن يَخْتَمَ عنه كتابًا، ولم يقل له شيئًا لمحلّ إسماعيل من الورع والعلم ثم دفع ذلك للوزير، وقال له: توصل هذا إلى أمير المؤمنين فإنه جوابه.

فأخذه الوزير ودخل على المعتضد، وقال: رَعِمَ أن هذا جوابُ أمير المؤمنين! ففتح المعتضد الكتاب، وقرأه وألقاه، وقال: لا تعاوِذه في هذا. فأخذ عبيد الله الوزير الكتاب، وإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، فَاخُذْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

هشام بن عبد الرحمن الداخل وأحد صنائعه (٢)

كان هشام (٣) بن عبد الرحمن الداخل قاعدًا لراحته في عُلْيَةِ (٤) على النهر في

(١) العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٨. (٢) نفع الطيب: ١ - ١٥٧.

(٣) ولد هشام سنة ١٣٩ هـ وتوفي سنة ١٨٠ هـ، وكان من أشرف الناس نفسًا، وأكرمهم طبعًا، وأكملهم مروءة، لم يعرف عنه هفوة في حديثه، ولا زلة في أيام صباه، وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز.

(٤) العلية: بالضم والكسر: الغرفة.

حياة والده، فنظر إلى رجل كنانتي من قدماء صنائعه من أهل جَيَّان^(١)، قد أقبل يوضِعُ^(٢) السير في الهاجرة؛ فأنكر ذلك، وقدّر شراً وقع به من قِبَل أخيه سليمان - وكان واليًّا على جَيَّان - فأمر بإدخاله عليه، فقال: مَهِيمٌ^(٣) يا كنانتي! فلا أمر ما قدمت! وما أحسبك إلا مزعجاً لشيء دَهَمَكَ.

فقال: نعم يا سيدي، قَتَلَ رجلٌ من قومي رجلاً خطأ، فقصدني أخوك بالاعتداء؛ إذ عرف مكاني منك.

فمدَّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قِلَادَةً كانت في نحرها، وقال له: دونك هذا العقد يا كنانتي، وشراؤه عليّ ثلاث آلاف دينار، فلا تُخَدَعَنَّ عنه، وبِغْه وأدِّ عن نفسك وعن قومك، ولا تُمَكِّنِ الرجل من اهتضامك^(٤).

فقال: يا سيدي؛ لم آتِكَ مُسْتَجِدِيًّا، ولا لضيق المال عما حُمِلْتَهُ، ولكني قُصِدْتُ بظلم ضَرَّاحٍ أحببت أن يظهر عليّ عِزُّ نصرِك؛ وأثَرُ دَبْكَ وامتعاضك فَأَتَمَّاجِدٌ^(٥) بذلك عند مَنْ يحسدني على الانتماء إليك.

فقال هشام: فما وجهُ ذلك؟ فقال: أن تكتبَ إلى أخيك في الإمساك عني والقيام بدمَّتِكَ لي. فقال: أَمْسِكِ العِقْدَ، وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقت أنكره، فانزعج، وقال: ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلا أمر مُقْلِقٍ، ائذنوا له.

فلما دخل سلَّم عليه: ومثَّل قائمًا بين يديه، فقال له: اجلس يا هشام، فقال: أصلح الله سيدي الأمير! وكيف جلوسي بهمٍ وذُلُّ مَزْعَجٍ! وحقٌّ لمن قام مقامي ألا يجلس إلا مطمئنًا، ولن يُفْعِدَنِي إلا طيبٌ نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلا رجعتُ على عَقْبِي. فقال له: حَاشَ لكَ من انقلابك خَائِبًا، فاقعد مُجَابًا مَشْفَعًا؛ فجلس، فقال له أبوه: فما الحدُّ المُقْلِقُ؟ فأعلمه؛ فأمر بحَمْلِ الدية عنه، وعن عشيرته من بيت المال؛ فَسَّرَ هشام وأطنب في الشكر، وكتب الأمير إلى ولده سليمان في ترك التعرُّض لهذا الكنانتي.

(١) جيان: بلد بالأندلس.

(٢) أوضع: أسرع.

(٣) مهيم: كلمة استفهام: أي ما حالك وما شأنك أو ما وراءك؟

(٤) هضم فلانًا واهتضمه: ظلمه وغصبه. (٥) تماجد: تفاخر، وأظهر المجد.

ولما دخل الكنانيّ لوداع هشام قال له: يا سيدي، قد تجاوزت بك حد الأمانة، وبلغت غاية النصر، وقد أغنى الله عن العقد المبدول، فتعيده إلى صاحبته؛ فأبى ذلك وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا.

قَاضٍ لَا يَقْبَلُ شَهَادَةَ خَلِيفَةٍ (١)

وَكَلَّ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلُ عِنْدَ ابْنِ بَشِيرِ الْقَاضِي وَكَيْلًا يُخَاصِمُ عَنْهُ لَشَيْءٍ اضْطُرَّ إِلَيْهِ، وَكَانَتْ بِيَدِهِ وَثِيقَةٌ فِيهَا شَهَادَاتُ شُهُودٍ قَد مَاتُوا، وَلَمْ يَكُن فِيهَا مِنَ الْأَحْيَاءِ إِلَّا الْأَمِيرُ الْحَكَمُ وَشَاهِدٌ آخَرٌ، فَشَهِدَ لَسَعِيدٍ ذَلِكَ الشَّاهِدُ وَضُرِبَتْ عَلَى وَكَيْلِهِ الْأَجَالُ فِي شَاهِدِ ثَانٍ، وَجَدَّ بِهِ الْخِصَامُ، فَدَخَلَ سَعِيدٌ بِالْكِتَابِ عَلَى الْحَكَمِ، وَأَرَاهُ شَهَادَتَهُ فِي الْوَثِيقَةِ - وَقَدْ كَانَ كَتَبَهَا قَبْلَ الْخِلَافَةِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ - وَعَرَفَهُ حَاجَتَهُ إِلَى أَدَائِهَا عِنْدَ قَاضِيهِ خَوْفًا مِنْ بَطْلَانِ حَقِّهِ.

وَكَانَ الْحَكَمُ يَعِظُ سَعِيدًا عَمَّهُ وَيَلْتَزِمُ مَبْرَّتَهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمُّ؛ إِنَّا لَسْنَا مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَاتِ، وَقَدْ التَّبَسْنَا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَا لَا تَجْهَلُهُ، وَتَخْشَى أَنْ تَوْقِفْنَا مَعَ الْقَاضِي مَوْقِفَ مَخْزَاةٍ كُنَّا نَقْدِيهِ بِمَلِكِنَا، فَصِرَ فِي خِصَامِكَ حَيْثُ صَيَّرَكَ الْحَقُّ إِلَيْهِ، وَعَلَيْهِ رُدُّ مَا انْتَقَصَكَ.

فَأَبَى عَلَيْهِ وَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ قَاضِيكَ فِي شَهَادَتِكَ، وَأَنْتَ وَلِيَّتُهُ، وَهُوَ حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِكَ! وَقَدْ لَزِمَكَ أَنْ تَشْهَدَ لِي بِمَا عَلِمْتَهُ، وَلَا تَكْتُمَنِي مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْكَ.

فَقَالَ: بَلَى؛ إِنْ ذَلِكَ مِنْ حَقِّكَ كَمَا تَقُولُ، وَلَكِنْكَ تُدْخِلُ عَلَيْنَا بِهِ دَاخِلَةً، فَإِنْ أَعْفَيْتَنَا مِنْهُ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا، وَإِنْ اضْطَرَرْتَنَا لَمْ يَمَكَّنَّا عَقُوقَكَ.

فَعَزَمَ عَلَيْهِ عَزَمَ مَنْ لَمْ يَشْكُ أَنْ قَدْ ظَفَرَ بِحَاجَتِهِ، فَأَرْسَلَ الْحَكَمُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى فُقَيْهَيْنِ مِنْ فُقَهَاءِ زَمَانِهِ، وَخَطَّ شَهَادَتَهُ بِيَدِهِ فِي قِرْطَاسٍ، وَخَتَمَ عَلَيْهَا بِخَاتَمِهِ، وَدَفَعَهَا إِلَى الْفُقَيْهَيْنِ، وَقَالَ لِهَمَا: هَذِهِ شَهَادَتِي بِخَطِّي، فَأَدِّيَاهَا إِلَى الْقَاضِي.

فَأَتِيَاهُ بِهَا إِلَى مَجْلِسِهِ وَقَتَّ قُعودِهِ لِلَسْمَاعِ مِنَ الشُّهُودِ، فَأَدِّيَاهَا إِلَيْهِ؛ فَقَالَ لِهَمَا: قَدْ سَمِعْتُ مِنْكُمَا، فَقَوْمًا رَاشِدَيْنِ فِي حِفْظِ اللَّهِ!

(١) نفع الطيب ١: ٣٩١.

وجاء وكيل سعيد، وتقدم إليه مُدلاً واثقاً، وقال له أيتها القاضي: قد شهد عندك الأمير - أصلحه الله تعالى - فما تقول؟ فأخذ كتاب الشهادة ونظر فيه، ثم قال للوكيل: هذه شهادة لا تُقبلُ عندي، فجئني بشاهد عدل.

فدهش الوكيل، ومضى إلى سعيد فأعلمه، فركب من قوره إلى الحكم، وقال: ذهب سلطاننا، وأزيل بهاؤنا؛ أو يجترىء هذا القاضي على ردّ شهادتك، والله - سبحانه - قد استخلفك على عباده، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك! هذا ما يجب أن تحمله عليه. وجعل يُغريه بالقاضي ويحرّضه على الإيقاع به.

فقال له الحكم: وهل شككتُ أنا في هذا يا عمّ! القاضي رجل صالح، لا تأخذه في الله لومةً لائم، فعل ما يجبُ عليه ويلزمه؛ وسدّ دونه باباً كان يصعب عليه الدخول منه، فأحسن الله جزاءه.

فغضب سعيد وقال: هذا حسبي منك! فقال له: نعم قد قضيتُ الذي كان لك عليّ، ولسْتُ - والله - أعارضُ القاضي فيما احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قبض يدٍ مثله.

الباب السادس

- قصص الفصحاء والبلغاء
- قصص الخطب والخطباء
- قصص الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة
- قصص الشعر والشعراء وسرقاتهم
- قصص الكتابة والكتاب

قصص الفصحاء والبغاء

في البيان والبلاغة

قال في المستطرف^(١): أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرَّحْمَنُ: الآيات ١ - ٤] وقال ﷺ: «إن من البيان لسحرا». قال ابن المعتز: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حده فقد قال الجاحظ: البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى.

وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ لَأْمَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطَّلَاق: الآية ٢]. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ﴾ [القَلَم: الآية ٣٩]. أي وثيقة كأنها قد بلغت النهاية. وقال اليوناني: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال الهندي: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقال الكندي: يجب للبلوغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني. وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ فقال: أقلهم لفظاً، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة. ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول: «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم». وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة. وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المرسل، والهدية على عقل المهدي، والكتاب على عقل الكاتب. وقال أبو عبد الله وزير المهدي: البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة. وقال البحترى: خير الكلام

(١) المستطرف: ص ٤٨.

ما قل وجل ودل ولم يمل. وقالوا: البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلا ببصائر البيان.

وقال الشاعر:

لك البلاغة ميدانٌ نشأت به وكلنا بقصور عنك نعترف
مَهْدٌ لي العذر نظم بعثت به من عنده الدرّ لا يُهدي له الصّدْفُ

وقال الثعالبي: البليغ مَنْ يحول الكلام على حسب الأمالي، ويخيط الألفاظ على قدر المعاني. والكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكرًا. وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه في حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل، ولهذه الأصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق إلى أقوم طريق.

في الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه: اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من قولهم أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة. وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونها استعمال الشيين المترادفين على معنى واحدة في تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ، ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح.

وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني.

وقد اختلف الناس في الفصاحة، فمنهم مَنْ قال: إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم مَنْ قال: إنها لا تخص الألفاظ وحدها واحتج مَنْ خصّ الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قائلًا يقول: هذا معنى فصيح، فدلّ على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني، وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح، وذلك غير مألوف في كلام الناس، والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه

صحيحًا حسنًا. ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة، والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنتَ كنتَ كتمتَ الحبَّ كنتَ كما كنا وكنتَ ولكن ذاك لم يكن
وكقول بعضهم أيضًا:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه
ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف
وكقول الآخر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبرُ
قيل: إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلًا في النطق به. وقيل: من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار. وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلععه ملكها على الخفي من أمره والمستور.

قال الشاعر:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم
وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلامًا فصيحًا فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك. أي فصاحتك.

وعرضت على المتوكل جارية شاعرة، فقال أبو العيناء^(١) يستجيزها أحمد الله كثيرًا. فقالت: حيث أنشأك ضريزًا. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترها. وقال فيلسوف: كما أن الأنية تمتحن بأطيانها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقه.

(١) أبو العيناء: هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي بالولاء، أديب فصيح من ظرفاء العالم، ومن أسرع الناس جوابًا، كان ذكيًا جدًا وحسن الشعر ومليح الكتابة والترسل كف بصره وهو في الأربعين، توفي بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ.

وقال المبرد قلت للمجنون أجزني هذا البيت:

أرى اليوم يوماً قد تكائف غيمه وإبراقه فالיום لا شك ماطر

فقال:

وقد حجبت فيه السحابُ شمسه كما حجبت وردَ الخدود المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل: حدّثني، فقال: يا أمير المؤمنين افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضاً. وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال: يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت يعني كلاماً وصواباً، قال: يا بني، ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك. وقال الشعبي: كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول: أجزها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك، فيقول: والله لحديثك أحب إليّ منها. وقال ابن عيينة: الصمت منام العلم، والنطق يقظته، ولا منام إلا بتيقظ ولا يقظة إلا بمنام. قال ابن المبارك:

وهذا اللسان بريدُ الفؤاد يدلّ الرجالَ على عقله

ومرّ رجل بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ومعه ثوب، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أتبيعه؟ فقال: لا، رحمك الله، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقومت ألسنتكم، هلا قلت لا ورحمك الله.

ومنه: ما حُكي أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء، فقال: لا، وأيد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها. وكان الصاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ. ويقال: اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم، وقال بعضهم شعراً:

سحبان يقصر عن بحور بيانه عجزاً ويغرق منه تحت عباب

وكذاك قسّ ناطقٌ بعكاظه يعيا لديه بحجةٍ وجواب

قيل: إنه حجّ مع ابن المنكدر شابان، فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا: قد أبرقنا، وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يفطن، فرأيا قبة فيها امرأة، فقالا: بارقة وكانت قيحة، فقال ابن المنكدر: بل صاعقة.

وكان أصحاب أبي علي الثقفى إذا رأوا امرأة جميلة يقولون: حجة، فعرضت لهم قبيحة، فقالوا: داحضة^(١).

وكتب إبراهيم بن المهدي: إياك والتتبع لو حشي الكلام طمعًا في نيل البلاغة، فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل مع تجنبك الألفاظ السفلى.

ويقال: القول على حسب همة القائل يقع والسيف بقدر عضد الضارب يقطع.

وقال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر حتى مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم، ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة.

وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها، ما أغلقت بابًا فأرادت فتحه إلا فتحت، ولا فتحت بابًا فأرادت إغلاقه إلا أغلقته.

ذكاء وفصاحة أسير

حكى أن رجلاً كان أسيرًا في بني بكر بن وائل وعزموه على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لا ترسله إلا بحضرتنا لثلاثين نذرهم وتحذرهم، فجاؤوا بعبد أسود، فقال له: أتعقل ما أقوله لك، قال: نعم إني لعاقل، فأشار بيده إلى الليل، فقال: ما هذا؟ قال: الليل. قال: ما أراك إلا عاقلاً، ثم ملاً كفيه من الرمل وقال: كم هذا؟ قال: لا أدري وإنه لكثير، فقال: أيما أكثر النجوم أم النيران؟ قال: كل كثير، فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم يكرموا فلاناً يعني أسيرًا كان في أيديهم من بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا وشكت النساء، وأمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطلوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب بأمانة ما أكلت معكم حيسًا، واسألوا عن خبري أخي الحرث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملاً أصهب، ثم دعوا بأخيه الحرث فقضوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم، أما قوله: قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلأموا

(١) داحضة: باطلة.

ولبسوا السلاح وأما قوله: شكت النساء أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله: أعرروا ناقتي الحمراء أي ارتحلوا عن الدهناء، واركبوا الجمل الأصهب، أي الجبل. وأما قوله: أكلت معكم حيسًا، أي أن أخلاطًا من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط، فامثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا.

الزم الفرقدين

أسرت طيء غلامًا من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشتروا عليه، فقال أبوه: والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء ما عندي غير ما بذلته ثم انصرف، وقال: لقد أعطيته كلامًا إن كان فيه خير فهمه، فكأنه قال له الزم الفرقدين يعني في هرويك على جبل طيء، ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجى.

فصاحة علية بنت المهدي

وكانت علية بنت المهدي تهوى غلامًا خادمًا اسمه طل، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها، فاطلع الرشيد يومًا عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة، فإن لم يصبها وإبل، فالذي نهى عنه أمير المؤمنين ومن ذلك قولهم: تركت فلانًا يأمر وينهي وهو على شرف الموت، أي يأمر بالوصية وينهى عن النوح، ويقال: ما رأيت فلانًا، أي ما ضربته في رثته، ولا كلمته أي ما جرحته، فإن الكلوم الجراح، وما رأيت ربيعًا، فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافرًا ولا فاسقًا، فالكافر السحاب والفاسق الذي تجرد من ثيابه، وما رأيت فلانًا راکعًا ولا ساجدًا ولا مصليًا، فالراکع العائر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلي الذي يجيء بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجًا، فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة الدراعة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورًا. فالبقرة العيال الكثيرة. يقال: جاء فلان يسوق بقره، أي عياله، والثور القطعة الكبيرة من الأقط.

معاوية والأحنف بن قيس

حُكِيَ أن معاوية رضي الله تعالى عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام، فقام

خطيبًا، وكان آخر كلامه أن لعن عليًا رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك عليًا رضي الله تعالى عنه، فلقد لقي ربّه، وأفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته، فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعًا أو كرهًا، فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك وإن تجبرني على ذلك، فوالله لا تجري شفتاي به أبدًا، فقال: قم فاصعد، قال: أما والله لأنصفنك في القول، والفعل، قال: وما أنت قائل إن أنصفتني، قال: أصعد المنبر، فأحمد الله وأثنى عليه، وأصلي على نبيّه محمّد ﷺ ثم أقول: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليًا، ألا وإن معاوية وعليًا اقتتلا فاختلفا، فادعى كل واحد منهما أنه مبغي عليه وعلى فتنه، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعنا كثيرًا أمنوا رحمكم الله. يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرقًا ولو كان فيه ذهاب روحي. فقال معاوية: إذا نعتك يا أبا بحر.

الكلام إلى نية المتكلم

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن عليًا قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر قال: أفعل، فصعد المنبر، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه ﷺ: أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب، فالعنوه فعليه لعنة الله، ثم نزل، فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت منهما بينه، فقال: والله لا زدت حرقًا ولا نقصت حرقًا، والكلام إلى نية المتكلم.

فصاحة امرأة

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت، فقال لها: من تكونين أيتها المرأة. فقال: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم. فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من

أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة، فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك، أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: الآية ٤٤] وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصُهُ ترقَّبَ زوالاً إذا قيل، تمَّ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَنِيظُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: الآية ١٥]، فتعجبوا من ذلك.

حُسن التخلُّص

حُكِي أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى، فقال له: أطال الله بقاءك، وأقر عينك، وجعل يومي قبل يومك، والله إنه ليسرني ما يسرك، فأحسن إليه، وأجازه على دعائه، وأمر له بصلة، وكان ذلك دعاء عليه لأن معنى قوله: أطال الله بقاءك، حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية، وأما قوله: وأقر عينك، فمعناه سكن الله حركتها أي أعمأها، وأما قوله: وجعل يومي قبل يومك، أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة قبل يومك الذي تدخل فيه النار، وأما قوله: إنه ليسرني ما يسرك، فإن العافية تسره كما تسر الآخر.

حماد الراوية والقرآن

وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن، فكلفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف، فصحف في نيف وعشرين موضعاً من جملتها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يُونَا وَنَعَ الشَّجِرِ وَمِمَّا يَرِثُونَ﴾ [التحل: الآية ٦٨] بالغين المعجمة والسين المهملة، وقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْغَارًا لِتُزْهِيمَهُ لَآيِبُو إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ﴾ [التوبة: الآية ١١٤] بالباء الموحدة ليكون لهم عدواً وحزناً بالباء الموحدة. وقوله: ﴿وَمَا يَجْمَدُ بِفَأَيْنِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: الآية ٣٢] بالجيم والباء الموحدة. وقوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَنتَنَا وَرِيَاءٍ﴾ [مريم: الآية ٧٤] بالزاي وترك الهمزة. وقوله: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنَ أَشَاءُ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] بالسين المهملة. وقوله: ﴿صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنَ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبَغَةً﴾ [البقرة: الآية ١٣٨] بالنون والعين المهملة. وقوله: ﴿سَلَّمَ

عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِي ﴿ [الْقَصَص: الآية ٥٥] بإسقاط التاء. وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ [ص: الآية ٢] بالغيين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغرة، وهذا لا يقع إلا من الأذكياء.

المأمون يمتحن واليآ له

حُكِيَ أن المأمون وليّ عاملاً على بلاد، وكان يعرف منه الجور في حكمه، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحنه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه، فأكرم نزله وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة، فكتب كتاباً فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين: أما بعد، فقد قدمنا على فلان، فوجدناه أخذاً بالعزم، عاملاً بالحزم، قد عدل بين رعيته، وساوى في أفضيته، أغنى القاصد، وأرضى الوارد، وأنزلهم منه منازل الأولاد، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام. فكان معنى قوله: أخذاً بالعزم، أي إذا عزم على ظلم أو جور، فعله في الحال، وقوله: قد عدل بين رعيته وساوى في أفضيته، أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير، وقوله: عمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئاً من الدنيا، ومعنى قوله: يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم. فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته، وولى عليهم غيره.

كتاب القاضي الفاضل

حُكِيَ أن القاضي الفاضل كان صديق خصيص به، وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر صلاح الدين، وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الملك أمر، فغضب عليه، وهمّ بقتله، فتسحب إلى بلاد التتر، وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه، فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل: اكتب إليه كتاباً عرفه فيه أنني أرضى عليه، وأستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر، فإذا حضر قتلته، وأسترحت منه، فتحير الفاضل بين الاثنين، صديقه يعز عليه، والملك لا يمكنه مخالفته، فكتب

إليه كتابًا واستعطفه غاية الاستعطاف، ووعده بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب، فشدد «إن» ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه، فقرأه في غاية الكمال وما فهم إن، وكان قصد الفاضل أن الملاء يأترون بك ليقتلوك، فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً، فلما أراد أن ينهي الكتاب، ويكتب إن شاء الله تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفًا وأراد بذلك إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة، ثم أوقف الملك على الجواب بخطه، ففرح بذلك.

إخلاص زوجة

حكِي أن بعض الملوك طلع يومًا إلى أعلى قصره يتفرج، فلاحته منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤن أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه، فقال لها: لمن هذه؟ فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فنزل الملك وقد خامره حبها، وشغف بها، فاستدعى بفيروز، وقال له: يا فيروز، قال: لبيك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلد الفلانية، وائتني بالجواب، فأخذ فيروز الكتاب، وتوجه إلى منزله، فوضع الكتاب تحت رأسه، وجّهز أمره، وبات ليلته، فلما أصبح ودع أهله وسار طالبًا لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعًا وتوجه متخفيًا إلى دار فيروز، فقرع الباب قرعًا خفيًا، فقالت امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له، فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا، فقال: زائر. فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وما أظن فيها خيرًا، فقال لها: ويحك إنني الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتني فقالت: بل عرفتك يا مولاي، ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

وذاك لكثرة الوراد فيه

رفعت يدي ونفسي تشتهيهِ

سأترك ماءكم من غير ورد^(١)

إذا سقط الذباب على طعام

(١) ورد: أي من غير أن أتذوقه وأشربه.

وتجنب الأسود وروذ ماءٍ إذا كان الكلاب وَتَغْنَنُ^(١) فيه
ويرتجع الكريم خميص بطن^(٢) ولا يرضى مساهمة السفية
وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شَفَّهُ الغرامُ بنا وصاحبِ الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائلٌ أبدًا قد أكلَ الليثُ فضلةَ الذيبِ

ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه، قال: فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها، فنسي نعله في الدار، هذا ما كان من الملك. وأما ما كان من فيروز، فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب، فلم يجده معه في رأسه، فتذكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره، فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك في الدار، فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفارة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلامًا، وأخذ الكتاب، وسار إلى حاجة الملك، فقضاها، ثم عاد إليه، فأنعم عليه بمائة دينار، فمضى فيروز إلى السوق، واشترى ما يليق بالنساء، وهياً هدية حسنة وأتى إلى زوجته، فسلم عليها، وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهرني لأهلك ذلك، قالت: حبًا وكرامة، ثم قامت من ساعتها، وتوجهت إلى بيت أبيها، ففرحوا بها، وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهر، فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها، فأتى إليه أخوها، وقال له يا فيروز: إما أن تخبرنا بسبب غضبك، وإما أن تحاكمنا إلى الملك، فقال: إن شتمت الحكم، فافعلوا، فما تركت لها عليَّ حقًا، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسًا إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيد الله مولانا قاضي القضاة إني أجرت هذا الغلام بستانًا سالم الحيطان بيثر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة، فأكل ثمره، وهدم حيطانه، وأخرب بثره، فالتفت القاضي إلى فيروز، وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان، فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان؟ قال: نعم، ولكن أريد منه السبب لرده. قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه، وإنما جئت يومًا من الأيام، فوجدت فيه أثر

(٢) خميص بطن: جائعًا.

(١) ولغن: شربن.

الأسد، فخفت أن يغتالني، فحرمت دخول البستان إكرامًا للأسد، قال: وكان الملك متكئًا فاستوى جالسًا، وقال: يا فيروز ارجع إلى بستانك آمنًا مطمئنًا، فوالله أن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرًا، ولا التمس منه ورقًا، ولا ثمرًا ولا شيئًا، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، ووالله ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازًا من حيطانه على شجره، قال: فرجع فيروز إلى داره، ورد زوجته، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم.

من ماء

رُوي في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائرًا بأصحابه يقصد بدرًا، فلقبهم رجل من العرب فقال: ممن القوم؟ فقال له النبي ﷺ: «من ماء» أخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء من ماء يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء، فسار النبي ﷺ بأصحابه لوجهته، وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله، فإن الله عز وجل قال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ يَمَّ خُلُقٍ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [الطارق: الآيتان ٥، ٦].

لو كان الأمر بالكبر

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره وقال: يا صبي تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبيًا، فلست بأصغر من هدهد سليمان ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: أحطت بما لم تحط به، ثم قال: ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى.

غلام يعظ عمر بن عبد العزيز

لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى صبي صغير السن، وقد أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم من هو أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك، فقال الصبي: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت، فتكلم، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد تحمد الله الذي من علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة، فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنا جورك بعدلك، فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر

رضي الله عنه: عظني يا غلام. فقال: يا أمير المؤمنين إن أناساً غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه، فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢١]. فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة، فأشدهم عمر رضي الله تعالى عنه:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا وليس أخو علم كمن هو جاهلُ
فإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل^(١)

درواس بن حبيب وهشام بن عبد الملك

حُكِيَ أن البادية قحطت في أيام هشام، فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقًا فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرًا وطبًا، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه، وقال له: أنشره الله درك، فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجل القوم.

المرء بأصغريه

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره، فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي، فوفد عليه وكان صغير الجثة، اقتحمته عينه ويتنقصه، فقال:

(١) المحافل: جمع محفل وهو الجماعة من الناس.

مهلاً أيها الملك إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم، وإنما المرء بأصغريه قلبه
ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان، ثم أنشأ يقول:

يا أيها الملك المرجو نائله إنني لمن معشر شمم الذرى^(١) زهر
فلا تغرتك الأجسام إن لنا أحلام عادٍ وإن كنا إلى قصر
فكم طويل إذا أبصرت جثته تقول هذا غداة الروح^(٢) ذو ظفر
فإن ألم به أمر فأفظعه رأيته خاذلاً بالأهل والزمر^(٣)

فقال: صدقت، فهل لك علم بالأمور، قال: إني لأنقض منها المفتول،
وأبرم منها المحلول، وأجيلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول، وليس
للدهر بصاحب من لا ينظر في العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته
وعقله، ثم أمر له بألف ناقة وقال له: يا سعد إن أقمت واسيناك، وإن رحلت
وصلناك، فقال: قرب الملك أحب إلي من الدنيا وما فيها، فأنعم عليه وأذناه،
وجعله من أخص ندمائه.

أسئلة هرقل وأجوبة ابن عباس

حُكي أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه
يسأله عن الشيء ولا شيء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن
غرس الجنة، وعن صلاة كل شيء، وعن أربعة فيهم الروح، ولم يركضوا في
أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن
قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة
واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن
قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له،
وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذي
في القمر.

فقيل لمعاوية لست هناك ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه،
فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل.

(١) شم الذرى: كرام الأصل، هم من أهل المجد ومن ذروته، والزهر: البياض في الفعال
والنسب.

(٢) الروح: الجماعات.

(٣) الزمر: الخوف.

فكتب إليه، فأجابته، أما الشيء فالماء، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠]. وأما لا شيء فإنها الدنيا تبيد وتفتنى، وأما دين لا يقبل الله غيره، فلا إله إلا الله، وأما مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأما صلاة كل شيء، فسبحان الله وبحمده، وأما الأربعة الذين فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأدم وحواء وناقصة صالح وكبش وإسماعيل، وأما الرجل الذي لا أب له فالمسيح، وأما الرجل الذي لا أم له، فأدم عليه السلام، وأما القبر الذي جرى بصاحبه، فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر. وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر حين انفلق لبني إسرائيل. وأما الظاعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفت عنكم ولا ألقيتها عليكم، فأخذوا التوراة معذرين، فرده الله تعالى إلى موضعه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا أَلْبَلَّ فَوْقَهُمْ كَانَهُمْ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧١]. وأما الشجرة التي تنبت من غير ماء، فشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذي يتنفس بلا روح، فالصبح. قال الله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾ [التكوير: الآية ١٨]. وأما اليوم، فعمل، وأمس فمثل، وغد فأجل، وبعد غد فأمل. وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد، فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذي في القمر، فقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَن حَمَلَ حِمْلًا مِّنَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: الآية ١٢]. ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل. ودعا بعض البلغاء لصديق له، فقال: تمم الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

أستلة الحجاج وأجوبة الغضبان بن القبعثري

حُكِيَ أَنَّ الْحِجَّاجَ سَأَلَ يَوْمًا الْغَضْبَانَ بْنَ الْقَبْعَثْرِيِّ عَنْ مَسَائِلَ يَمْتَحِنُ فِيهَا مِنْ جَمَلَتِهَا أَنْ قَالَ لَهُ: مَنْ أَكْرَمَ النَّاسِ؟ قَالَ: أَفْقَهُهُمْ فِي الدِّينِ وَأَصْدَقَهُمْ لِلْيَمِينِ، وَأَبْدَلَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَكْرَمَهُمْ لِلْمُهَانِينَ، وَأَطْعَمَهُمْ لِلْمَسَاكِينِ.

قال: فمن ألام الناس؟ قال: المعطي على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان.

قال: فمن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة.

قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركهم للحيف.

قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف.

قال: فمن أثقل الناس؟ قال: المتفنن في الملام، الضنين بالسلام، المهذار في الكلام، المققب على الطعام.

قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحسانًا وأقومهم ميزانًا، وأدومهم غفرانًا، وأوسعهم ميدانًا.

قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسب هو أم غير حسيب؟ قال: أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداورته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل يجهله، فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدرأها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة.

فقال الحجاج: لله أبوك، فما العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هذرًا، ولا ينظر شزرًا، ولا يضمّر غدرا، ولا يطلب عذرا، والجاهل هو المهذر في كلامه، المنان بطعامه، الضنين بسلامه المتناول على إمامه، الفاحش على غلامه.

قال: لله أبوك، فما الحازم الكيس؟ قال: المقبل على شأنه، التارك لما لا يعنيه، قال: العاجز؟ قال: المعجب بأرائه الملتفت إلى ورائه.

قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح الله الأمير إني بشأنهن خبير إن شاء الله تعالى. إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت،

ولهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة، فمن دارهن انتفع بهن وقرت عينه، ومن شاورهن كدرن عيشه، وتكدرت عليه حياته، وتنغصت لذاته، فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة.

فقال له الحجاج: يا غضبان إني موجّهك إلى ابن الأشعث وافد، فما أنت قائل له؟ قال: أصلح الله الأمير أقول ما يريه ويؤذيه ويضنيه، فقال: إني أظنك لا تقول له ما قلت وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، قال: كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لساني، وأجره في ميداني.

قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان، فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينًا عليه أي جاسوسًا، وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له: إن الحجاج قد همّ بخلعك وعزلك، فخذ حذرک، وتغذّ به قبل أن يتعشى بك، فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنوية، وخلع فاخرة، فأخذها وانصرف راجعًا، فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر القيظ وهي رملة شديدة الرضاء، فضرب قبه فيها، وحط عن رواحله فبينما هو كذلك إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدًا نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزاة وقت الظهيرة، وقد ظمى ظمًا شديدًا، فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال الغضبان: هذه سنة وردّها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابي؟

قال: أصابتنى الرضاء وشدة الحر والظمى، فيممت قبتيك أرجو بركتها، قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أيتها تعني؟ قال: قبة الأمير ابن الأشعث. قال: تلك لا يوصل إليها. قال: إن هذه أمتع منها، فقال الأعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ، فقال: وما تعطي؟ قال: أكره أن يكون لي اسمان. قال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض. قال: فأين تريد؟ قال: أمشي في مناكبها، فقال الأعرابي وهو يرفع رجلًا ويضع أخرى من شدة الحر: أتقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفأر. فقال: أفتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة، فقال: يا هذا ائذن لي أن أدخل قبتيك. قال: خلفك أوسع لك. فقال: قد أحرقني حر الشمس، قال: ما لي عليها من سلطان، فقال: الرضاء أحرقت قدمي، قال: بل عليها تبرد، فقال: إني لا أريد طعامك، ولا شرابك، قال: لا تتعرض لما لا تصل إليه، ولو تلفت روحك، فقال الأعرابي: سبحان الله. قال:

نعم من قبل أن تطلع أضراسك، فقال الأعرابي: ما عندك غير هذا؟ قال: بلى. هراوة أضرب بها رأسك.

فاستغاث الأعرابي يا جار بني كعب. قال الغضبان: بشس الشيخ أنت، فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث، فقال الأعرابي: ما رأيت رجلاً أفسى منك أتيتك مستغيثاً فحجبتني وطردتني، خلا أدخلتني قبلك وطارحتني القريض؟ قال: ما لي بمحادثتك من حاجة، فقال الأعرابي: بالله ما اسمك، ومن أنت؟ فقال: الغضبان بن القبعثري. فقال: اسمان منكران خلقا من غضب. قال: قف متوكئاً على باب قبتي برجلك هذه العوجاء، فقال: قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء، قال الغضبان: لو كنت حاكماً لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة، فقال الأعرابي: إني لأظنك حرورياً. قال: اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير ويريده، فقال: إني لأظن عنصرك فاسداً. قال: ما أقدرنى على إصلاحه، فقال الأعرابي: لا أرضاك الله ولا حياتك ثم ولّى، وهو يقول:

لا بارك الله في قوم تسودهم إني أظنك والرحمن شيطانا
أتيت قبته أرجو ضيافته فأظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

فلما قديم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابي قال له الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش، بها ضعاف هؤلاء إن كثروا جاعوا، وإن قَلّوا ضاعوا.

فقال له الحجاج: ألسنت صاحب الكلمة التي بلغتني أنك قلت لابن الأشعث تغذ بالحجاج قبل أن يتعشى بك، فوالله لأحبسك عن الوساد، ولأنزلنك عن الجياد، ولأشهرنك في البلاد.

قال: الأمان أيها الأمير، فوالله ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له، فقال له: ألم أقل لك كأنى بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، اذهبوا به إلى السجن، فذهبوا به، فقيّد وسجن، فمكث ما شاء الله.

ثم إن الحجاج ابنتى الخضراء بواسطة فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه وبناءها؟ فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة، نضرة

بهجة، قليل عيبها كثير خيرها، قال: لِمَ لم تخبروني بنصح؟ قالوا: لا يصفها لك إلا الغضبان، فبعث إلى الغضبان، فأحضره، وقال له: كيف ترى قبتي هذه وبنائها؟ قال: أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك، ولا يسكنها وارثك، ولا تبقى لك، وما أنت لها بياق، فقال الحجاج: قد صدق الغضبان رده إلى السجن، فلما حملوه قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، فقال: أنزلوه، فلما أنزلوه قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٢٩] فقال: اضربوا به الأرض، فلما ضربوا به الأرض قال: ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاكُمْ وَمِنَّا نُعِيدُكُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: الآية ٥٥] فقال: جروه، فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِبُهَا وَمُرْسَهُا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: الآية ٤١] فقال الحجاج: ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاء وخبثًا، ثم عفا عنه، وأنعم عليه، وخلقى سبيله.

محمد بن عبد الملك والمأمون

حدّث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون، وقد كانت ضياعهم أخذت، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن له في الكلام، فقال: تكلم. فقال: الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين، ونستمع الله لحياطة ديننا ودياننا، ورعاية أدياننا وأقسانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا تعفو آثاره، ولا ينهدم مناره، ولا ينبت جبله، ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده، والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين. هذا المقام مقام العائد بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكلب الدهر، وذهاب النعمة، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم آبائنا الطيبين، ونوافل أسلافنا الطاهرين الراشدين، وقد قمت مقامي هذا متوسلاً إليك بأبائك الطيبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدي ناصر المسلمين، والمنصور منكل الظالمين، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفاً إليك بالطاعة التي أفرع عليها غصني واحتنكت بها سني، ورئس بها جناحي، متعوّذاً من شماتة الأعداء وحلول البلاء، ومقارفة

الشدّة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، وعرفه، وقد أثبت الله الحق في نصابه، وأقرّه في داره، وأربابه، يا أمير المؤمنين إن الدهر ذو اغتيال، وقد يقبل حالاً بعد حال فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار، والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدرًا بعد صفو، ومرًا بعد حلو، وهبنا نعم آبائك اللاتي غدتنا صغارًا وكبارًا وشبابًا وأشياخًا وأمشاجًا في الأصلاب، ونطفًا في الأرحام، وقدمنا في القرابة حيث قدمنا الله منك في الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، ووجوهنا قد عنث لطاعتك، فأقلنا عشرتنا يا أمير المؤمنين، إن الله قد سهّل بك الوعور وجلا بك الديجور وملأ من خوفك القلوب والصدور، بك يرع الفاسق ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عندك بالعمو والإحسان فإن كل راعٍ مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها، يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر. وقد قال الله جلّ ثناؤه، وتعالّت قدرته: ﴿وَلِعَفْوًا وَلِيَصْفَحُوا أَلَّا يُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: الآية ٢٢] أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافي ومنعه الكافي ثم أنشد يقول:

أمير المؤمنين أتاك ركبٌ	لهم قُربى وليس لهم تلالد ^(١)
هم الصدر المقدم من قريش	وأنت الرأس تتبعك العباد
لقد طابت بك الدنيا ولذت	وأرجو أن يطيب بك المعاد
فكيف تنالكم لحظات عين	وكيف يقلّ سؤددك البلاد

قال: فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه وقرب منزلته وأناده، ودفع إليه من المال ما أغناه.

حروف المعجم في بدن الإنسان

حكِي أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته، فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله عليّ ما يتمناه، فقام إليه سويد بن غفلة، فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: هات. فقال: نعم يا أمير

(١) التلالد: المال والموروث.

المؤمنين. أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غيب فم قفا كف لسان منخر نغوغ هامة، وجه يد، وهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين.

فقام بعض أصحاب عبد الملك، وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين، فضحك عبد الملك وقال لسويد: أسمعت ما قال؟ قال: أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثاً، فقال: هات ولك ما تتمناه، فابتدأ يقول: أنف أسنان أذن، بطن بنصر بزة، ترقوة تمره تينة، ثغر ثنايا ثدي، جمجمة جنب جبهة، حلق حنك حاجب، خد خنصر خاصرة، دبر دماغ درادير، ذقن ذكر ذراع رقبة رأس ركبة، زند زردمة زب، فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه، ساق سره، سبابه، شفة شفر شارب، صدر صدع صلعة، ضلع ضفيرة ضرس، طحال طرة طرف، ظهر ظفر ظلم، عين عنق عاتق، غيب غلصمة غنة، فم فك فؤاد، قلب قفا قدم، كف كتف كعب، لسان لحية لوح، منخر مرفق منكب، نغوغ ناب نن، هامة هيئة هيف، وجه وجنة ورك، يمين يسار يافوخ. ثم نهض مسرعاً، فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تزيدنا عليها شيئاً أعطوه ما يتمناه، ثم أجازته وأنعم عليه، وبالغ في الإحسان إليه.

الحجاج يدخل العراق

حكى عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده، وقال: أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولح عذبتها، وعظم خطبها، وظهر ضرامها، وعسر إخماد نيرانها فهل من م مهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع، وقلب ذكي، وأنف حمي، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها، ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد، وتأمين العباد.

فسكت القوم، ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق. قال: ومن أنت لله أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزير الهشام، أنا الحجاج بن يوسف. قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك، فلست هناك.

ثم قال: ما لي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة، فلم يجبه أحد، فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق، ومطفىء نار النفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة، آفة الكفر والريبة، قال: إليك عني، وذاك، فلست هناك.

ثم قال: من للعراق؟ فسكت القوم، وقام الحجاج وقال: أنا للعراق، فقال: إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما آيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والافتقار والبسط، والازورار والإدناء، والإبعاد والجفاء، والبر والتأهب، والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعته، ومن نازعني قصمته، ومن خالفني نزعته، ومن دنا مني أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتي وعلامتي، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني، فإن كنت للأعناق قطاعاً، وللأموال جماعاً، وللأرواح نزاعاً، ولك في الأشياء نفاعاً، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل.

فقال عبد الملك: أنت لها، فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال، فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هيء له من الجند شهوته وأزمهم طاعته، وحذرهم مخالفته، ثم دعا الخازن، فأمره بمثل ذلك، فخرج الحجاج قاصداً نحو العراق.

قال عبد الملك بن عمير: فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت فقال: هذا الحجاج قدم أميراً على العراق، فتناولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء مثلثاً بها، ثم صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غصّ المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال: وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: اكفف حتى نسمع ما يقول، فأبى ابن صابئ وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها، فوالله لو دام هذا أميراً كما هو ما كان بشيء،

والحجاج ساكت ينظر يمينًا وشمالًا، فلما رأى المسجد قد غصّ بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئًا، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم، فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير، فكشف عن لثامه، ونهض قائمًا فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رؤوسًا أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وإني لأرى الدماء تفرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودًا، وأصلبها مكسرًا، فرماكم بي لأنكم طالما أترتم الفتنة، واضطجعتم في مرقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلًا في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياي وهذه الزرافات والجماعات، وقيل وقال وكان ويكون، يا أهل العراق: إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوثقوا واستقيموا، واعملوا ولا تميلوا، وتابعوا، وبايعوا، واجتمعوا، واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم، وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلًا يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه، يا غلام: اقرأ كتاب أمير المؤمنين.

فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم، فلم يرد أحد شيئًا، فقال الحجاج: اكف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئًا عليه؟ هذا أدبكم الذي تأدبتم به، أما والله لأؤدبنكم أدبًا غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام، فقرأ حتى بلغ قوله: سلام عليكم فلم يبدا أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته، ووضع للناس عطاياهم، فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش، فقال: أيها الأمير إني على الضعف كما ترى، ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار، أفتقبله بديلاً مني؟ فقال: نقبله أيها الشيخ، فلما ولي قال له قائل: أتدري من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا

ابن صابئ الذي يقول:

هممت ولم أفعلن وكدث وليتني تركت على عثمان تبكي حلالته^(١)

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول، فوطىء في بطنه، فكسر ضلعين من أضلعه، فقال الحجاج: ردوه فلما ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمر المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار؟ إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحًا للمسلمين. يا سيف اضرب عنقه، فضرب عنقه.

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب

من حكايات الحجاج ما حُكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم، وأعطى الأموال، بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فشق عليه، وكتب إليه، أما بعد، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء، وتبذير في العطاء، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية، وفي العمد بالقود، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأيي، فإنما هو مال الله تعالى، ونحن أمناؤه، فإن كنت أردت الناس لي فما أغناني عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك عني أمران: لين وشدة، فلا يؤمنك إلا الطاعة، ولا يوحشك إلا المعصية، وإذا أعطاك الله عز وجل الظفر، فلا تقتلن جانحًا، ولا أسيرًا، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أمورًا كرهتها	وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه
فإن ترَ منِّي غفلةً قرشيةً	فيا ربما قد غصّ بالماء شاربة
وأن ترَ منِّي وثبةً أمويةً	فهذا وهذا كلّ ذا أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادثُ جمّة	فإنك تجزي بالذي أنت كاسبه
فلا تعدّ ما يأتيك مني وإن تعد	يقمن به يومًا عليك نوادبه
فلا تمنعنّ الناس حقًا علمته	ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك أن تعطي الحقوق فإنما	التوافل شيء لا يثيبك واهبه ^(٢)

(١) حلالته: جمع حليلة، وهي الزوجة.

(٢) التوافل: جمع نافلة، وهي ما تفعله مما لا يجب عليك فعله. يثيبك: يجزيك.

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد، فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرائي وتبذيري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلي العصاة إسرأفاً وإعطائي المطيعين تبديراً، فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمداً فأقاديهم ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي
وما لامرئ بعد الخليفة جنة^(١)
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصح
وأعطى المواسي في البلاء عطية
فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي
وأمرى إليك اليوم ما قلت قلته
ومهما أردت اليوم مني أردته
وقف بي على حد الرضا لا أجوزه
وإلا فدعني والأمور فلئنني
إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي
وما لامرئ بعد الخليفة جنة^(١)
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصح
وأعطى المواسي في البلاء عطية
فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي
وأمرى إليك اليوم ما قلت قلته
ومهما أردت اليوم مني أردته
وقف بي على حد الرضا لا أجوزه
وإلا فدعني والأمور فلئنني

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتي ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى، فمن يلومني على محبته، يا غلام اكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عيناً بما هناك.

وفي مروج الذهب للمسعودي أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام، ولدته مشوّهاً لا دبر له، فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدي وأعيابهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصور له في صورة الحرث بن كلدة حكيم العرب، فسألهم عن ذلك، فأخبره مخبر من أهله، فقال لهم: اذبحوا له تيساً وألقوه من دمه، وأولغوه فيه، ثم أطلوا به وجهه، ففعلوا ذلك، فقبل الثدي، فلأجل ذلك كان لا يصبر على سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا

(٢) أجوزه: أي أتجاوزه، والدر: اللين.

(١) جنة: درع.

يقدر غيره عليها، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحرث بن كلدة، فدخل عليها يوماً في السحر، فوجدها تخلل أسنانها فطلقها، فسأته لم فعل؟ فقال لها: إن كنت باكرت الغداء فأنت شرهة، وإن كان بقايا طعام بفيك، فأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شظايا السواك، فقال: قضي الأمر، فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج. وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات وله ثلاث وخمسون سنة، وكان من عنف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل على ما لا يبلغه وصف، أحصي من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد، وقيل للشعبي: أكان الحجاج مؤمناً؟ قال: نعم بالطاغوت، وقال: لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم.

عالمة بالأنساب

حكى عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء من الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قاعدة النهدي، كأنها القمر ليلة تمامه، ويدها قريبة قد ملأتها وحملتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر، فانحلت وكأوها^(١) فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدرك فاهاً قد غلبني فوها لا طاقة لي بفتيها، قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها، فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من بني كلاب، قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لثام يقرون الضيف، ويضربون بالسيف، ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال: أو عندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم. قال لها: أنا من مضر الحمراء، قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً، وأعظمها حساباً، وخيرها

(١) الوكاء: رباط القربة والوعاء والكييس.

أما وأبا، وممن تهابه مضر كلها قالت: أظنك من كنانة، قال: أنا من كنانة، قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً^(١) وأطولها في المكرمات يداً، ممن تهابه كنانة وتخافه، فقالت: إذن أنت من قريش، قال: أنا من قريش، قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً، ممن تهابه قريش كلها وتخشاها، قالت: أنت والله من بني هاشم، قال: أنا من بني هاشم، قالت: من أي هاشم، قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه، فعند ذلك قبّلت الأرض، وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طرباً عظيماً وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاحقته العساكر، فنزل هناك، وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه، فزوجه بها وأخذها وعاد مسروراً، وهي والدة ولده العباس.

هند بنت النعمان والحجاج

وحكي أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها، فوصف للحجاج حسنها، فأنفذ إليها يخطبها، وبذل لها مالاً جزيلاً، وتزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصدق مائتي ألف درهم ودخل بها، ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرأة وتقول:

وما هندٌ إلا مهرةٌ عربية سليلة أفراس تحللها بغلٌ
فإن ولدت فحلاً فلله دزها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغلُ

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه، وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين، ولا تزد عليهما، فدخل عبد الله بن طاهر عليها، فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله، فقالت: اعلم يا ابن طاهر: أنا والله كنا فما حمدنا، وبنا فما ندمننا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف.

(١) المحتد: الأصل.

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتابًا تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين، أن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها، وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا إحداهن بالتراب، فاعسلي الإناء يحل الاستعمال، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه، يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت: ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشيًا حافيًا بحليته التي كان فيها أولًا، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكًا شديدًا، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت، وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند، فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواربها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا داية اكشفي لي سحف المحمل، فكشفته، فوقع وجهها في وجه الحجاج، فضحكت عليه، فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة
تركتك فيها كالقباة المفترج
فأجابته هند تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت
بما فقدناه من مالٍ ومن نشب^(١)
فالمال مكتسبٌ والعز مرتجعٌ
إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار على الأرض، ونادت: يا جمال إنه قد سقط منا درهم، فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض، فلم يجد إلا دينارًا، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعوضنا الله دينارًا، فخرجل الحجاج وسكت، ولم يرد جوابًا، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان، فتزوج بها.

(١) نشب: المال من خيل وإبل وغيره.

فطنة وفصاحة جارية

حُكِي أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب، فعبر يوماً تحت جوسق بيستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لا يستطيع أحد وصفها، فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار لبه، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء. وكتب إليها رقعة عرض إليها بالزيارة في جوسقها، فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبراً، وجعلت فيه زر ذهب، وربطت ذلك على منديل، وقالت للعجوز: هذا جواب رقعتك، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه، وتحيّر في أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباهم متحيّراً في ذلك قالت له: يا أبت أنا علمت معناه قال: وما هو الله درك؟ قالت:

أهدت لك العنبرَ في جوفه زُر من التبر خفي اللحم
فالزر والعنبر معناهما زُر هكذا مختفياً في الظلام

قال: فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها.

أخذت بثأرها

حُكِي أن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة، فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل، فقال: لأي شيء يا بني تميم ما تكتنون؟ فقالت: ولم لا نكتني وكسرت الفعل، فضحك عليها، وقال: أفعل إن شاء الله، فخجلت من قوله وتغيّر وجهها، وأرادت أن توقعة كما أوقعها، فقالت له: هل تحسن شيئاً من العروض؟ قال: نعم. قالت: قطع لي:

حوّلوا عنا كنيستكم يا بني حمالة الحطب

فقطعه، فوقف على عن ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه، وأضحكت أصحابه، فقال: ويحك لم تبرحي حتى أخذت ثأرك.

كثير عزة والعجوز

وقيل: بينما كثير عزة مار بالطريق يوماً إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي، فقال لها: تنحي عن الطريق، فقالت له: ويحك ومن تكون؟ قال:

أنا كُثَيِّرُ عَزَّةَ^(١). قالت: قَبِّحْكَ اللهُ، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق، قال: ولم؟ قالت: ألسنت القاتل:

وما روضة بالحسن طيبة الثرى يمجج الندى جشجائها وعرارها^(٢)
بأطيب من أردانٍ عَزَّةٌ موهناً إذا أوقدت بالمجمر اللدن نارها^(٣)

ويحك يا هذا! لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها، لم لا قلت مثل سيدك امرئ القيس:

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب
فقطعته ولم يرد جواباً.

الحجاج والخارجية

قيل: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج، فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج. قال: ومن هو صاحبي؟ قالت: فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا: أرجه وأخاه. وأتى بأخرى من الخوارج، فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه، فقيل لها: الأمير يكلمك، وأنت لا تنظرين إليه، فقالت: إني لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

امرأة أصابت ورجل أخطأ

حكى ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقه أزواج النبي ﷺ خمسمائة درهم، وأن فاطمة رضي الله عنها كان صداقها على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم، فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها، فصعد المنبر وحمد الله

(١) كُثَيِّرُ عَزَّةَ بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر شاعر مقيم مشهور، من أهل المدينة، وكان مفرط القصر دميماً في نفسه شمم وترفع، أخباره مع عزة بنت جميل الضمرية كثيرة، وكان عفيفاً في حبه لها، توفي بالمدينة وله ديوان شعر مطبوع.

(٢) جشجائها وعرارها: الجشجات نبات وكذلك العرار.

(٣) أردان: أصل الكم أو طرفه الواسع.

تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس لا تزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم، فمن زاد ألقبت زيادته في بيت مال المسلمين، فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة في يدها طول، فقالت له: كيف يحل لك هذا، والله تعالى يقول: ﴿وَأَتَيْتُكُمْ إِحْدَثَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: الآية ٢٠] فقال عمر رضي الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ.

شكوى امرأة

وقيل: جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، فقال لها: نِعَم الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعبًا، فقال: يا أمير المؤمنين: إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباحته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما، فقال كعب: عليّ بزوجه، فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك، قال: أفي أمر طعام أم شراب؟ قال: بل في أمر مباحتك إياها عن فراشك، فأشدت المرأة تقول:

يا أيها القاضي الحكيم أنشده ألهي خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقده فلسْتُ في أمر النساء أحمده
فأنشأ الزوج يقول:

زهدي في فرشها وفي الحلل أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخويف يجل
فقال له القاضي:

إن لها عليك حقًا لم يزل في أربع نصيبها لمن عقل
فعاطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثني وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة، فقال عمر رضي الله عنه: لا أدري من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمتك بينهما اذهب فقد وليتك البصرة.

حكاية المتكلمة بالقرآن

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: خرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيته عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بسواد على

الطريق، فتميزت ذلك، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقالت: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّي رَجِيْبًا﴾ (٥٨) [يس: الآية ٥٨]، قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللهُ فَكَلَّا هَادِيَ لُمًّا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٦]، فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها: أين تريدان؟ قالت: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اِلَى الْمَسْجِدِ الْاَقْصَا﴾ [الإسراء: الآية ١]، فعلمت أنها قد قضت حجها، وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها: أنت منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: ﴿ثَلَاثَ لَيْالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٠]، فقلت: ما أرى معك طعامًا تأكلين؟ قالت: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: الآية ٧٩] فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ قالت: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: الآية ٤٣]؛ المائدة: الآية ٦]، فقلت لها: إن معي طعامًا، فهل لك في الأكل، قالت: ﴿ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ آلِيلٍ﴾ [البقرة: الآية ١٨٧]، فقلت: ليس هذا شهر رمضان. قالت: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ سَاكِرٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨]، فقلت: قد أبيع لنا الإفطار في السفر. قالت: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٤]، فقلت: لِمَ لا تكلميني مثل ما أكلمك؟ قالت: ﴿مَا يَلْفُظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْ رَبِّي عَيْنٌ﴾ (٧) [ق: الآية ١٨]، فقلت: فمن أي الناس أنت؟ قالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عِنْدَ مَسْئُولٍ﴾ (٣٦) [الإسراء: الآية ٣٦] فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل، قالت: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: الآية ٩٢] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة، قالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ حَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللهُ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧] قال: فأنخت ناقتي، قالت: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِّنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [الثور: الآية ٣٠] فغضضت بصري عنها وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: الآية ٣٠] فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمٰنَ﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩] فعقلت الناقة وقلت لها: اركبي فلما ركبت قالت: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مَقْرِيْنِ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُخْلِوْنَ (١٤) [الزخرف: الآيتان ١٣، ١٤] قال: فأخذت بزمام الناقة، وجعلت أسعى وأصبح فقالت: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَسِيكِ وَأَغْضُضْ مِّنْ صَوْتِكَ﴾ [القمان: الآية ١٩] فجعلت أمشي رويدًا رويدًا وأترنم بالشعر، فقالت: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْسَرُّ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: الآية ٢٠]

فقلت لها: لقد أوتيت خيراً كثيراً، قالت: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩] فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْوَأَ إِذَا بَدَّ لَكُمْ فَسْئَلُهُمْ﴾ [المائدة: الآية ١٠١] فسكت، ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقلت: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: الآية ٤٦] فعلمت أن لها أولاداً فقلت: وما شأنهم في الحج؟ قالت: ﴿وَعَلَّمَنِي وَيَأْتِجُمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [التحل: الآية ١٦] فعلمت أنه أدلاء الركب، فقصدت بها القباب والعمارات فقلت: هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٥] ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٦٤] ﴿يَتَّخِذُ الْكِتَابَ وَقُورًا﴾ [مريم: الآية ١٢] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأعمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ [الكهف: الآية ١٩] فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي فقالت: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا آسَأَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾ [الحاقة: الآية ٢٤] فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها، فقالوا: هذه أمانا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تنزل فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاء، فقلت: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: الآية ٤] والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

عوائد العرب في الخطابة

قال الألويسي في «بلوغ الأرب»:

كان للعرب اعتناء بالخطيب في الجاهلية، أكثر من اعتنائهم بها في إسلامهم، وكانت لهم فيها عوائد غريبة، وشؤون عجيبة. فمن عوائدهم فيها أنهم كانوا يتخيرون لها أجزل المعاني وينتخبون لها أحسن الألفاظ تحصيلًا لغرضهم ونيلًا لمقصدهم فإن الألفاظ الرائقة والمعاني الجزلة أوقع في النفوس، وأشد تأثيرًا في القلوب، ولذلك قيل: إن في البيان لسحرا ومن عوائدهم فيها أن الخطيب منهم إذا خطب في تفاخر وتنافر وتشاجر، رفع يده ووضعها، وأدى كثيرا من مقصده بحركات يده؛ فذاك أعون له على غرضه وأرهب للسامعين له، وأوجب لتيقظهم، وهو التشدر المذكور في قول لبيد:

غُلِبَ تَشَدُّرٌ بِالذُّحُولِ كَأَنَّهَا جُنُوبُ الْبَدِيِّ رَوَاسِيًا أَقْدَامُهَا

التشدر رفع اليد ووضعها كما سبق والذحول هي الأحقاد يقول: هم رجال غلاظ الأعناق كالأسود. أي خلقوا خلقة الأسود يهدد بعضهم بعضًا بسبب الأحقاد.

ومن عوائدهم فيها أخذ المخصرة بأيديهم. وهي ما يتوكأ عليها كالعصا ونحوه أو ما يأخذ الملك يشير به إذا خاطب، والخطيب إذا خطب، فلا يخطبون إلا بالمخاصر. وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسي، ويشيرون بالعصا والقنا. ومنهم من كان يأخذ المخصرة في خطب السلم، والقسي في الخطب عند الخطوب والحروب.

واستشهد الجاحظ في كتاب البيان بكثير من شعرهم.

واستحسن العرب في الخطيب أن يكون جهير الصوت، ولذلك مدحوا سعة الفم، وذموا صغره، حتى قيل لأعرابي: ما الجمال؟ قال: طول القامة، وضخم الهامة، ورحبُ الشدق، وبعُدُ الصوت. وقال الشاعر في عمرو بن سعيد الأشدق:

تَشَادِقُ حَتَّى مَالٍ بِالْقَوْلِ شِدْقُهُ وَكَلُّ خَطِيبٍ لَا أَبَالِكَ أَشْدَقُ
وَأَشْدُ أَبُو عَيْدَةَ:

وَصُلِّعُ الرَّؤُوسِ عِظَامُ الْبُطُونِ رِحَابُ الشُّدَاقِ طَوَالُ الْقَصْرِ^(١)
وقال العجير السلولي في شدة الصوت:

لدى كل موثوق به عند مثلها له قدم في الناطقين خطيرُ
جهيرٌ وممتدُ العنان مُنَاقِلُ يصيرُ بعورات الكلام خبيرُ
فظلٌ رداءُ العَصْبِ ملقى كأنه سَلَى فَرَسٍ تَحْتَ الرِّجَالِ عَقِيرُ^(٢)
ولو أن الصخور الصَّم يسمعن صَلَقْنَا لَرُخْنَ وَفِي أَعْرَاضِهِنَّ قُطُورُ^(٣)
وقال مهلهل:

ولولا الريحُ أَسْمِعُ أَهْلَ نَجْدِ صَلِيلَ الْبَيْضِ تُفْرَعُ بِالذِّكُورِ^(٤)
وكان شبيب يصيح في جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوي أحد على أحد.
وقال الشاعر فيه:

أَنْ صَاحَ يَوْمًا حَسِبْتَ الصَّخَرَ مَنْحَدْرًا وَالرِّيحَ عَاصِفَةً وَالْمَوْجَ يَلْتَطِمُ
والشعر كثير في ذلك. والمقصود أن جهازة الصوت مما يُمدحُ به الخطيب وتكون من محاسنه.

ومن عوائدهم في الخطاب أن يكون الخطيب على زي مخصوص في العمامة واللباس تنويرها بشأنه وأذخَلَ في تحصيل الغرض والمقصود. وقد أطنب

(١) القَصْر: الأعناق.

(٢) العصب: بُزْد يصيغ ثم ينسج. والسَلَى: الجلدة التي يكون فيها الولد من الناس والمواشي.

(٣) الصلوق: شدة الصوت، والقطور: الشقوق.

(٤) الذكور: السيوف التي عملت من حديد غير أنيث. وقيل: أول كذب سُمع في الشعر هذا البيت.

الجاحظ القول في البيان والتبيين على خطب العرب، وبيان عوائدهم فيها، وما أورده من الشعر شاهدًا على دعواه مما يُغني عن ذكره في هذا المقام.

قال الألويسي:

وخطباء العرب في الجاهلية كثيرون كثرة شعرائهم. غير أن البعض منهم كان يغلب عليه قول الشعر فيعد من الشعراء. ويتنظم في سلوكهم، وآخرين يغلب عليهم منثور الكلام وفصيح البيان. فبعد من رجال الخطابة شأن كل من غلب عليه معرفة فن من الفنون. فمن نظم الشعر لا يعجزه إنشاء الخطاب، وكذلك خطباء كثيرون يعدون من مقلّي الشعراء.

انتهى كلام الألويسي^(١).

خطبة قُسن بن ساعدة الإيادي

خطب قُسن بن ساعدة الإيادي بسوق عُكاظ، فقال:

أيها الناس: اسمعوا وعُوا. مَنْ عاش مات، وَمَنْ مات فَات، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ. ليلٌ داخٍ، ونهارٌ ساجدٌ وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، ونجومٌ تزهرُ، وبحارٌ تزخرُ، وجبالٌ مُرساةٌ، وأرضٌ مُدحاةٌ، وأنهارٌ مُجرأةٌ. إن في السماءِ لخبراً، وإن في الأرضِ لعبيراً. ما بالُ الناسِ يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ يُقسم قُسنُ باللهِ قسماً لا إثمَ فيه: إن لله ديناٌ هو أرضى له، وأفضلُ من دينكم الذي أنتم عليه. إنكم لتأتون من الأمر منكرًا.

ويروى أن قُسا أنشأ بعد ذلك يقول:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيتُ مواردًا للموت ليس لها مصادِرُ
ورأيتُ قومي نحوها يسعى الأكابرُ والأصاغِرُ
لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقيين غابِرُ
أيقنتُ أني لا محالةً حيث صار القومُ صائرُ^(٢)

(٢) جمهرة خطب العرب: ٣٨/١ - ٣٩.

(١) بلوغ الأرب: ١٥٢/٣ - ١٥٥.

خطبة عبد المطلب بين يدي سيف بن ذي يزن

لما ظفر سيف بالحبشة، وذلك بعد مَوْلد النبي ﷺ بستتين، أته وفود العرب وأشرفها تُهنتُهُ وتمدحه فاتاه وفد قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمّية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد، في ناس من وجوه قريش، فأتوه وهو في قصرٍ يقال له عُمدان، فأخبره الآذن بمكانهم، فأذن لهم، فدخلوا عليه وهو على شرابه، وعن يمينه ويساره الملوك والمقاول، وبين يديه الشعراء يمدحونه.

فدنا عبد المطلب فاستأذنه بالكلام، فقال له سيف بن ذي يزن: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذناً لك. فقال عبد المطلب:

إنَّ الله قد أحلك، أيها الملك محللاً ربيعاً، صعباً منيعاً، شامخاً باذخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته، وعزّت جرثومته، في أكرم موطن، وأطيب معدن. فأنت - أبيت اللعن - ملكُ العرب، وربيعها الذي به تُخصب. وأنت أيها الملك رأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومقلها الذي إليه يلجأ العباد. فسلفك خير سلف، وأنت خير خلف، فلن يخمل من أنت سلفه، ولن يهلك من أنت خلفه. نحن أهل حرم، الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أنهجك لكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهته لا وفد المرزثة.

قال سيف: وأيهم أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن أختنا؟ قال: نعم. فأدناه حتى أجلسه إلى جنبه، ثم أقبل على القوم وعليه وقال: مرحباً وأهلاً، وناقاةً ورحلاً، ومستناخاً سهلاً، وملكاً ربخلاً^(١)، يُعطي عطاءً جزلاً. قد سمع الملكُ مقالتكُم، وعرف قرابتكُم، وقبل وسيلتكم، فأهلُ الشرف والنباهة أنتم، ولكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا طعتم.

قال الراوي: ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأجريت عليهم الأنزال. فأقاموا ببابه شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم في الانصراف. ثم انتبه إليهم انتباهة، فدعا بعبد المطلب من بينهم فخلا به وأوفى مجلسه وقال: يا عبد المطلب، إني مفوض إليك من سرِّ علمي أمراً لو يكون غيرك لم أبح به إليه، ولكني رأيتك موضعه فأطلعتك عليه. فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن

(١) ربخلاً: عظيم الشأن.

الله بالغ أمره. إني أجد في الكتاب المكنون، والعلم المخزون، الذي ادخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبرًا عظيمًا، وخطرًا جسيمًا فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة للناس كافة - ولرهطك عامة، ولنفسك خاصة.

قال عبد المطلب: مثلك أيها الملك من برٍّ وسرٍّ وبشرٍّ، ما هو؟ فدالك أهل الوبر، زمرًا بعد زمر.

قال ابن ذي يزن: إذا ولد مولود بتهامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة، إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أيها الملك، لقد أبتُ بخير ما آب بمثله وافد، ولولا هبة الملك وإكرامه، وإعظامه لسألته أن يزيدني في البشارة ما ازداد به سرورًا.

فقال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جدُّه وعمه. قد وجدناه مرارًا، والله باعته جهازًا، وجاهل له منّا أنصارًا، يُعزُّ بهم أوليائه، ويُذلُّ بهم أعداءه، يضرب بهم الناس عن عُرض^(١)، ويستبيح بهم كرائم الأرض ويُخمد النيران، ويدحر الشيطان، ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمن. قوله فضل، وحكمه عدل؛ يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويُبطله.

فقال عبد المطلب: أيها الملك، عزَّ جدُّك^(٢)، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك فهل الملك مخبري بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح؟

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الطُّب، والعلامات والنُّصَب، إنك يا عبد المطلب، لجدُّه من غير كذب.

فخرَّ عبد المطلب ساجدًا، فقال له: ارفع رأسك، أثلج الله صدرك، وعلا أمرك فهل أحسست شيئًا مما ذكرته لك؟ قال عبد المطلب: أيها الملك كان لي ابن وكننت به معجبًا - وعليه رقيقًا، زوَّجته كريمة من كرائم قومي، اسمها أمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سمَّيته محمدًا، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه. قال: الأمر كما قلت، فاحفظ ابنتك، واحذر عليه من اليهود، فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلًا. وأطو ما ذكرتُ لك عن الرهط الذين معك، فإنني لست آمنُ

(٢) الجَدُّ: المكانة والمنزلة عند الناس.

(١) عن عُرض: عن قوة.

أن تدخلهم النَّفَاسَة^(١) من أن تكون لكم الرياسة، فيبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم. ولولا أنني أعلم أن الموت مُجتاحي قبل مبعثه، لسرتُ بخيلي وورجلي حتى أصير بيثرب. فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب دار هجرته وبيت نُصرتِه. ولولا أنني أتوقَّى عليه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنتُ على حدائث سنَّه أمره، وأوطأت أقدام العرب عَقِبَه. ولكني صارفٌ إليك ذلك عن غير تفصير مني بمن معك.

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد، وعشر إماء سود، وخمسة أرتال فضة، وحلتين من حُلل اليمن، وكَرش^(٢) مملوءة عنبراً، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فأنبئني بما يكون من أمره.

فما حال الحول حتى مات ابن ذي يزن، فكان عبد المطلب بن هاشم يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجلٌ منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاذ، ولكن يغبطني بما يبقى لي ذكره وفخره لعقبِي. فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين^(٣).

ومن خطبة لكعب بن لؤي وهو الجد السابع للنبي ﷺ

«اسمعوا وُعوا، وتعلموا تعلموا، وتفهموا تفهموا. ليل ساج، ونهارٌ ضاج، والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالأخريين. كل ذلك إلى بلاء، فصلوا أرحامكم، وأصلحوا أحوالكم.

فهل رأيتم هالكاً رجح، أو ميتاً نُشِر؟ الدار أمامكم، والظنُّ خلاف ما تقولون. زينوا حرمكم وعظّموه، وتمسكوا به لا تفارقوه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبيٌّ كريم، ثم قال:

سواء علينا حُلُوها وميرها	نهارٌ وليلٌ واختلافِ حوادثِ
وبالتَّعم الضافي علينا ستورُها	يثويان بالأحداثِ حتى تأوَّبا
لها عُقدٌ ما يستحيلُ ميرها	صروفٌ وأنباءٌ تقلَّبَ أهلها
فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها	على غفلةٍ يأتي النبيُّ محمدٌ

(١) النَّفَاسَة: الحَسَد. ونَفَسَ بهذا الشيء على فلان: حسده عليه ولم يره أهلاً له.

(٢) الكَرش: وعاء الطيب.

(٣) العقد الفريد: ١/٢٨٩ - ٢٩٣.

نعيم بن ثعلبة الكناني

كان يخطب العرب في الموسم، وينقادون لأوامره ويمثلونها وينتهون عما نهى. وهو أول من نسا الشهور. قال أبو بكر الأنباري:

كانوا إذا صدروا من «مِنَى» قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة من بني كنانة فقال: أنا الذي لا أعاب، ولا يرذ لي قضاء؛ فيقولون: أنسنا شهرًا، أي أخز عتًا حرمة المحرم فاجعلها في صفر. وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يمكنهم الإغارة فيها لأن معاشهم كان من الإغارة فيحل لهم المحرم ويحرم عليهم صفرًا، فإذا كان في السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل صفرًا. فقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا اللَّيْلُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: الآية ٣٧].

قال الشاعر:

وكننا الناسئين على معدٍ شهرههم الحرام إلى الحليل

وقال آخر:

ألسنا الناسئين على معدٍ شهور الجِلُّ نجعلها حراما؟

وقال آخر:

نسأوا الشهور بها وكانوا أهلها من قبلكم والعزُّ لم يتحوَّل^(١)

خطبة سعد بن عبادَة يوم السقيفة

لما قبض النبي ﷺ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا: نُؤلي هذا الأمر بعد محمد عليه الصلاة والسلام. سعد بن عبادَة، وأخرجوا سعدًا إليهم وهو مريض. فلما اجتمعوا قال لابنه أو لبعض بني عمه: إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي، ولكن تلقُّ من قولي فأسمِغموه، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله؛ فيرفع صوته فيسمع أصحابه. فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب. إن محمدًا عليه الصلاة والسلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن - وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل

(١) بلوغ الأرب: ١٧٥/٣ - ١٧٦.

وما كانوا يقدرّون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ولا أن يعزّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُموا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدّ الناس على عدوّه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البيعدى المقادة صاغراً داخراً^(١)، حتى أتخن^(٢) الله عزّ وجلّ لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ، وبكم قريز عين. استبدّوا بهذا الأمر دون الناس، فإنه لكم دون الناس».

فأجابوه بأجمعهم أن قد وُقِّتَ الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت نوكيك الأمر. وأتى عمر إلى أبي بكر فقال: «أما علمت أن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة - يريدون أن يولّوا هذا الأمر سعد بن عبادة، وأحسنهم مقالةً من يقول: منا أمير ومن قريش أمير».

فمضيا مسرعين نحوهم، فلقياً أبا عبيدة بن الجراح، فتماشوا إليهم ثلاثتهم. فجاؤوهم مجتمعون، فقال عمر: أتيناكم وقد كنت زوّيت^(٣) كلاماً أردت أن أقوم به فيهم، فلما أن دفعت إليهم ذهب لأبتدىء المنطق، فقال لي أبو بكر: رويداً حتى أتكلّم، ثم أنطق بعد بما أحببت فنطق.

فقال عمر: فما شيء، كنت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أو زاد عليه^(٤).

خطبة النبي ﷺ في حجّة الوداع

«الحمد لله بحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير».

أما بعد: أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم؛ فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى

(١) داخراً: ذليلاً.

(٢) أتخنه: أوهته وأخضعه.

(٣) زويت كلاماً: أعددت كلاماً.

(٤) جمهرة خطب العرب: ١٧٣/١ - ١٧٤.

أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد! فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبداً به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب^(١). وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود^(٢)، وشبه العمد ما قُتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يشس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس: إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عِدَّةَ الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متواليات، وواحد فمد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق. لكم عليهن إلا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تکرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن^(٣) وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله. في النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد!

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لأمرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه إلا هل بلغت؟ اللهم أشهد! فلا ترجعنّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد!

(١) كان مسترضعاً في بني ليت فقتله بنو هذيل.

(٢) القود: القصاص. أي من قتل عمداً يُقتل. (٣) العضل: الحبس والتضييق.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد! قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث.

والولد للفراش وللعاهر الحجر^(١)، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل منه صَرْفٌ ولا عدل^(٢). والسلام عليكم ورحمة الله^(٣).

خطبة الحسن بن علي بن أبي طالب بعد وفاة أبيه

خطب الحسن بن علي (ع) بعد وفاة والده فنعاه فقال:

«لقد قتلت ليلة رجلاً في ليلة فيها أنزل القرآن، وفيها رفع عيسى ابن مريم عليه السلام، وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام. والله ما سبقه أحدٌ كان قبله. ولا يدركه أحدٌ يكون بعده. والله إن كان رسول الله ﷺ لبيعته في السرية وجبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره. والله ما ترك صفراء. ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله» ثم خنقته العبر فبكى وبكى الناس معه. ثم قال:

«أيها الناس: من عرفني فقد عرفني. ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله.

أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والذين اقترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: الآية ٢٣] فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت».

(١) العاهر: الزاني. أي لا حق له في النسب ولا حظ له في الولد، وإنما هو لصاحب الفراش أي لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها. وهو كقوله الآخر: له التراب، أي لا شيء له.

(٢) الصرف: التوبة. والعدل: الغدية. وقيل: الصرف القيمة، والعدل المثل.

(٣) جمهرة خطب العرب: ١/١٥٥ - ١٥٨.

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة، قام عبید الله بن العباس بين يديه فدعا الناس إلى بيعته، فاستجابوا وقالوا: ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة! فبايعوه ثم نزل من المنبر^(١).

وخطبته بعد الصلح مع معاوية

روى المدائني، قال: سأل معاوية الحسن بن علي (ع) بعد الصلح أن يخطب الناس فامتنع. فناشده أن يفعل، فوضع له كرسي فجلس عليه ثم قال:

«الحمد لله الذي توخَّذَ في مُلكِهِ، وتفرَّدَ في ربوبيته، يؤتي الملك مَنْ يشاء، وينزعهُ عَمَّنْ يشاء، والحمد لله أكرمَ بنا مؤمنكم، وأخرج من الشُّركِ أولكم، وحقق دماءَ آخِرِكُمْ، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء، أن شكرتم أو كفرتم.

أيها الناس: إن ربَّ عليٍّ كان أعلم بعليٍّ حينَ قبضهُ إليه، ولقد اختصَّهُ بفضلٍ لم تعتدوا مثله، ولم تجدوا مثل سابقته، فهيئات هيهات، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها، جرَّعكم رنقاً^(٢)، وسقاكم علقاً، وأذلَّ رقابكم، وأشرقكم بريقكم، فليستم بمُلمومين على بغيضه. وأيُّم الله لا ترى أمهً محمد خفصاً ما كانت سادتهم وقادتهم بني أمية. ولقد وجَّه الله إليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا، لطاعتكم طواغيتكم، وانضوائكم إلى شياطينكم. فعند الله احتسب ما مضى، وما ينتظر من سوء دعتكم، وحيث حكيمكم؟ ثم قال:

«يا أهل الكوفة لقد فارقتكم بالأمس سهمً من مرامي الله، صائب على أعداء الله، نكالٌ على فجارٍ قريش، لم يزل آخذاً بحناجرها، جاثماً على أنفاسها، ليس بالملومة في أمر الله، ولا بالسروقة لمال الله، ولا بالفروقة^(٣) في حرب أعداء الله، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه، دعاه فأجاب، وقاده فاتبعه، لا تأخذه في الله لومة لائم، فصلوات الله عليه ورحمته».

فقال معاوية: أخطأ عَجِيلٌ أو كاد، وأصاب مُتَنَبِّئٌ أو كاد. ماذا أردتُ من خطبة الحسن؟^(٤)

(١) جمهرة خطب العرب: ٧/٢ - ٨.
(٢) ماء رنق: كدر.
(٣) الفروق والفروقة: الشديدي الفرع.
(٤) جمهرة خطب العرب: ١٣/٢.

ومن أقوال الحسن عليه السلام:

اعلموا أن الحلم زين، والوقار موّدة، والصلة نعمة، والإكثار صلف، والعجلة سفه، والسّفه ضعف، والقلق ورطة، ومجالسة أهل الدنائة شَيْن، ومخالطة أهل الفسوق ريبة^(١).

خطبة الحسين بن علي عليه السلام

خطب الإمام الحسين بن علي (ع) وأصحاب الحرّ الرياحي بالبيضة، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«أيها الناس، وإن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحَلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ، نَاكثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يَغْيِرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ مُدْخَلُهُ».

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غير، وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تمتم علي ببيعتكم تصيبوا رشدكم؛ وأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلکم فيّ أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر. لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم. والمغرور من اغترّ بكم. فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومَنْ نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»^(٢).

ما قاله الإمام الحسين (ع) غداة يوم مقتله

«يا عباد الله، اتقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر؛ فإن الدنيا لو بقيت على أحد أو بقي عليها لكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء، وأولى بالرضا، وأرضى بالقضاء. غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء، فجددُها بال، ونعيمها مضمحل،

(٢) جمهرة خطب العرب: ٤٨/٢.

(١) صبح الأعشى: ٢١٥/١.

وسرورها مكفهر، والمنزل تُلعة والدار قُلعة^(١) فتزودوا فإن خير الزاد التقوى،
واتقوا الله لعلكم تفلحون»^(٢).

خطبة معاوية بن يزيد بن معاوية

كان صبيًا ضعيفًا، ملك أربعين يومًا، وقيل: ثلاثة أشهر. ثم أمر بالصلاة
جامعة، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد؛ فإني قد نظرتُ في أمركم فضعتُ عنه، فابتغيْتُ لكم رجلًا مثل
عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيْتُ لكم
سنة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له مَنْ
أحببتم؛ فما كنْتُ لأتزوِّدها ميتًا، وما استمتعتُ بها حيًّا.

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس، وتغيَّب حتى مات. قيل: دُسَّ إليه
فُسقي السمِّ، وقال بعضهم: طعن. وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل:
إحدى وعشرين سنة^(٣).

خطبة محمد ابن الحنفية

خطب عبد الله بن الزبير فقال من الإمام علي (ع) فبلغ ذلك ابنه محمد بن
الحنفية، فأقبل حتى وُضِعَ له كرسي قرب المنبر فعلاه وقال: «يا معشر قريش،
شاهت الوجوه، أيتقص عليٌّ وأنتم حضور؟ إنَّ عليًّا كان سهمًا صادقًا، أحدُ مرامي
الله على أعدائه، يقتلهم لكفرهم، ويتهونهم^(٤) مآكلهم، فثقل عليهم، فرموه بصِرْفة
الآباطيل^(٥)».

وإنَّا معشرٌ له على نهج من أمره بنو الحسبة^(٦) من الأنصار. فإن تكن لنا
الأيام دولة نشر عظامهم، ونحسر عن أجسادهم، والأبدان يومئذٍ بالية ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا أَيَّ مَثَلٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٢٧].

(١) منزل تلعة: مخوف لأنه يكون في مجرى الماء من أعلى إلى أسفل وهو التلعة. ودار قلعة:
ليس بمستوطن ولا ندرى متى تتحول عنه.

(٢) الجمهرة: ١٩٠/٢؛ والفخري ص ١١٨.

(٣) الجمهرة: ٥١/٢.

(٤) صِرْفة الآباطيل: الآباطيل الخالصة الصِرْفة.

(٥) هوَّع ما أكل: قِيَّأ إياه.

(٦) الحسبة: الاحتساب. أي طلب الأجر من الله على الأعمال الصالحات.

فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال:

«عذرت بني القواطم يتكلمون فما بال بني الحنفية؟».

فقال محمد:

«يا ابن أم رومان^(١)، وما لي لا أتكلم؟ أليست فاطمة بنت محمد ﷺ حليّة أبي وأُمّ إختوتي؟ أليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتي وأم أبي؟ أليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبي؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركتُ في بني أسد عظمًا إلا هسّمته، وإن نالتني فيه المصائب صبرت»^(٢).

وصية عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب لابنه

وصّى عبد الله بن الحسن ابنه محمدًا النفس الزكية (أو إبراهيم) فقال:

«أي بُني، إني مؤدّ حق الله في تأديك، فأدّ إليّ حقّ الله في الاستماع مني.

«أي بني، كُفّ عن الأذى، وأرفض البذاء، واستعِن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك، فإن للقول ساعات يضرُّ فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب. واحذر مشورة الجاهل، وإن كان ناصحًا، كما تحذر مشورة العاقل. إذا كان غاشًا، لأنه يورطك بمشورتهما - فيسبق إليك مكر العاقل - وغرارة الجاهل».

يريدك بمشورته. واعلم يا بني أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائمًا، ووجدت هواك يقظان. فإياك أن تستبدّ برأيك، فإنه حينئذٍ هواك، ولا تفعل فعلاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا تُرديك وأن نتيجته لا تجني عليك»^(٣).

من أخبار أهل الخطابة والبلاغة

إياس بن معاوية

دخل إياس بن معاوية المزني الشام وهو غلام، فتقدم خصمًا له - وكان الخصم شيخًا كبيرًا - إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان. فقال القاضي: أتقدم شيخًا كبيرًا؟ قال: الحق أكبر منه. قال: اسكت. قال: فمن ينطق بحجتي؟

(١) أم رومان بنت عامر، هي زوج أبي بكر رضي الله عنه وأم السيدة عائشة.

(٢) جمهرة خطب العرب: ٩٠/٢. (٣) جمهرة خطب العرب: ٣٩/٣.

قال: لا أظنك تقول حقًا حتى تقوم. قال: لا إله إلا الله، أحقًا هذا أم باطلاً؟ فقام القاضي فدخل على عبد الملك وأخبره الخبر. فقال له: اقض حاجته وأخرجه من الشام، لا يفسد علينا الناس. وكان هذا الغلام أياس بن معاوية، فكيف وقد كبر!

قال الجاحظ: أبو وائلة أياس بن معاوية المزني، وصاحب الزكن: أي المعروف بقوة الفراسة. ولكثرة كلامه قال له عبد الله بن شبرمة: أنا وأنت لا تنفق. أنت لا تشتهي أن تسكت. وأنا لا أشتهي أن أسمع.

وأتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق فاستولى على المجلس. ورأوه أحمر دميمًا. بأذ الهيئة فاستهانوا به. فلما عرفوه اعتذروا له وقالوا: الذنب مقسوم بيننا؛ أتيتنا في زِيٍّ مسكين تُكلمنا كلام الملوك.

وقيل له: ما فيك من عيب غير أنك معجبٌ بقولك. قال: فما أعجبكم قولي؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أحقُّ بأن أعجبَ بما أقول. وبما يكون مني منكم.

عون بن عبد الله

كان عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، من الخطباء، وكان مع ذلك راوية ناسبًا شاعرًا. ولما رجع عن قول المرجئة إلى الشيعة قال:

وأول ما تفارق غير شك	نفارق ما يقول المرجونا
وقالوا: مؤمنٌ من آل جور	وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا: مؤمنٌ دمه حلال	وقد حرمت دماء المؤمنيننا

لزم عون عمر بن عبد العزيز. وكان ذا منزلة منه وفيه يقول جرير:

يا أيها الرجل المرخي عمامته	هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقية	إني لدى الباب كالمشودود في قرن
وقد رآك وفود الخافقين معًا	ومذ وليت أمور الناس لم ترني ^(١)

(١) البيان والتبيين: ١٧٤.

من خطبة البرزخ للإمام علي بن أبي طالب

قال ابن أبي الحديد في تقديم هذه الخطبة:

أقسم بمن تُقسم به الأمم كلها: لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين وإلى الآن أكثر من ألف مرة وما قرأتها إلا أحدثت عندي روعًا وخوفًا وعظّة - فمن تأمل فصولها علم صدق معاوية في قوله فيه: «والله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره» وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس، وتليت عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدي بن الرقاع:

«قلم أصاب من الدواة مدادها»

فلما قيل لهم: لما سجدتم؟ قالوا: إنا نعرف مواضع السجود للشعر، كما نعرفون مواضع السجود في القرآن. وهذه مقتطفات منها:

سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً سلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربت من دمايهم، فأصبحوا في فجوات قبورهم جمادًا لا ينتمون، وضمازًا^(١) لا يوجدون. جيران لا يتأسون، وأحبار لا يتزاورون، بليت بينهم عرى التعارف، وانقطعت منهم أسباب الإخاء، فكُلُّهم وحيد وهم جميع، وبجانب الهجر وهم أخلاء، لا يتعارفون للليل صباحًا، ولا للنهار مساءً، أيّ الجديدين ظعنوا^(٢) فيه كان عليهم سرمدًا. شاهدوا من أخطار دارهم أفظع ممًا خافوا، ورأوا من آياتها أعظم مما قدروا فكلتا الغائيتين مُدَّت لهم إلى مباءة فأتت مبالغ الخوف والرجاء.

فلو مثلتهم بعقلك، أو كُشِفَ عنهم محجوب الغطاء لك، وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاستكَّتْ، واكتحلَّتْ أبصارهم بالتراب فخشفت، وتقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها، وهمدت صدورهم بعد يقظتها».

البرزخ: الحاجز بين شيئين - والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث. فيجوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع هو القبر - لأنه حاجز بين الميت وأهل الدنيا كالحائط المبني بين اثنين - فإنه برزخ بينهما - ويجوز أن يراد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النشور^(٣).

(١) الضمار: الغائب.

(٢) ظعن في المكان: أقام فيه. والجديدان: الليل والنهار.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٣٦/٦.

ومن خطبة له عليه السلام تسمى «البرزخ»

وهي من الخطب العجيبة

الحمد لله الذي علا بحوله، ودنا بطوله، مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عزيمة وأزل^(١). أحمده على عواطف كرمه، وسوايغ نعمه، وأومن به أولاً بادياً، وأستهديه قريباً هادياً، وأستعينه قاهراً قادراً، وأتوكل عليه كافيّاً ناصرّاً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله لإنفاذ أمره، وإنهاء عذره، وتقديم نذره.

وقد نظر البحتري إلى معنى قوله عليه السلام: «علا بحوله، ودنا بطوله».

فقال:

دنوت تواضعاً وعلوت قدراً فشأنك انخفاض وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تُسامى ويدنو النور منها والشعاع

ويقول عليه السلام:

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب الأمثال، ووقت لكم الآجال، وألبسكم الرياش، وأرفع^(٢) لكم المعاش، وأحاط بكم الأخضاء، وأرصد لكم الجزاء، وأترككم بالنعم والسوايغ، والرفد الروافغ، وأنذركم بالحجج البوالغ، فأحصاكم عدداً - ووظف لكم مدداً^(٣).

ومن الخطباء البلغاء عبد الله بن عباس

قالوا: خطبنا بمكة، وعثمان محاصر، خطبةً لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا. وذكره حسان بن ثابت. فقال فيه:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل بملتقطات لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع لذي إربة في القول جدّاً ولا هزلا
سموت إلى العليا بغير مشقة فنلت ذراها لا دنياً ولا غلاً

وكان عبد الله بن عباس، أول من عُرف بالبصرة، يصعد المنبر فيقرأ سورة البقرة وآل عمران ويفسّرهما حرفاً حرفاً. وكان يسمى «البحر» و«حبر قريش».

(١) الأزل: شدة الزمان، وضيق العيش.

(٢) أرفعه: جعله رفيقاً، أي واسعاً مخصباً.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢٤٧/٦.

وقال النبي ﷺ: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» وقال عمر: غائص غواص^(١).

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري وقد علم بقدم جيش الشام إلى المدينة . (قتل سنة ٦٣ هـ) لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلعهم، ووثبوا على من كان في المدينة من بني أمية وحصروهم وأخافوهم، وأخرجوهم ومنهم مروان بن الحكم وكبراء بني أمية وحلفوهم عند منبر الرسول ﷺ لئن لقوا جيش يزيد ليردونهم عنهم إن استطاعوا فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام - فحلفوا على ذلك .

فوجه يزيد جيشًا من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرّي - ونمى إليهم خبر مقدمه عليهم فجمعهم عبد الله بن حنظلة فقال: «تبايعونني على الموت، وإلا فلا حاجة في بيعتكم» فبايعوه على الموت - ثم صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله:

«أيها الناس: إنما خرجتم غضبًا لدينكم، فأبلوا إلى الله بلاءً حسنًا، ليوجب لكم به الجنة ومغفرته، ويحل بكم رضوانه، واستعدّوا بأحسن عُدتكم، وتأهبوا بأكمل أهبتكم، فقد أخبرت بأن القوم نزلوا بزدي خُشبٍ ومعهم مروان بن الحكم، والله إن شاء الله مهلكه بنقضه العهد والميثاق عند منبر رسول الله ﷺ» .

فتصايح الناس، وجعلوا ينالون منه ويسبّونه - فقال لهم: «إن الشتم ليس بشيء ونصدقهم اللقاء، والله ما صدق قط قوم إلا نُصروا»^(٢).

فتنة البصرة

لما قتل محمد بن أبي بكر في مصر وظهر معاوية عليها سنة ٣٨ هـ دعا عبد الله بن عامر الحضرمي فقال له: «سز إلى البصرة فإن جُلَّ أهلها يرون رأينا في عثمان، ويُعظّمون قتله، وقد قُتلوا في الطلب بدمه . فهم موتورون حنقون لما أصابهم، ودّوا لو يجدون من يدعوهم ويجمعهم، وينهض بهم في الطلب بدم

(١) البيان والتبيين: ١٧٥، ومروج الذهب ٢/٢٦.

(٢) الإمامة والسياسة: ١٤٥/١ وجمهرة خطب العرب: ٢/٣٢٧.

عثمان. ودفع إليه كتابًا وأمره إذا قدم أن يقرأه على الناس. فمضى حتى نزل البصرة في بني تميم فسمع بقدمه أهل البصرة، فجاءه كل من يرى رأي عثمان فاجتمع إليه رؤوس أهلها.

خطبة عبد الله بن عامر

فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

«أما بعد أيها الناس، فإن إمامكم، إمام الهدى عثمان بن عفان، قتله علي بن أبي طالب ظلمًا، فطلبتم بدمه، وقاتلتم من قتله، فجزاكم الله من أهل مصر خيرًا وقد أصيب منكم المملأ الأخير، وقد جاءكم الله بأخوان لكم، فساعدوهم وتذكروا ثأركم، لتشفوا صدوركم من عدوكم».

خطبة الضحاك بن عبد الله الهلالي

فقام إليه الضحاك بن عبد الله الهلالي فقال:

«قبح الله ما جئتنا به، وما دعوتنا إليه - جئتنا والله بمثل ما جاء به صاحبك طلحة والزبير. أتينا وقد بايعنا عليًا واجتمعنا له، فكلمتنا واحدة، ونحن على سبيل مستقيم، فدعوانا على الفرقة، وقاما فينا بزخرف القول، حتى ضربنا بعضنا البعض عدوانًا وظلمًا فاقتلنا على ذلك. وأيم الله ما سلمنا من عظيم وبال ذلك، ونحن الآن مجتمعون علي، بيعة هذا العبد الصالح، الذي أقال العثرة، وعفا عن المسيء وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا، أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيفنا من أعمادها، ثم يضرب بعضنا بعضًا، ليكون معاوية أميرًا، وتكون أنت وزيرًا. ونعدل بهذا الأمر عن علي؟ والله ليوم من أيام علي مع رسول الله ﷺ خير من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا ما الدنيا باقية».

خطبة زياد بن أبيه

ثم إن الناس أقبلوا إلى ابن الحضرمي وكثر أتباعه - وكان بالبصرة يومئذ زياد ابن أبيه، استخلفه عبد الله بن عباس وقدم الكوفة على علي عليه السلام يعزبه عن محمد بن أبي بكر - فأفزع ذلك زيادًا وهاله، وخلق قصر الإمارة واستجار بالأزد فأجاروه وأعدوا له منبرًا وسرييرًا وشرطًا. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«يا معشر الأزدي: إنكم كنتم أعدائي، فأصبحتم أوليائي وأولى الناس بي، وإنني لو كنت في بني تميم، وابن الحضرمي فيكم، لم أطمع فيه أبدًا، وأنتم دونه، فلا يطمع ابن الحضرمي فيّ وأنتم دوني، وليس ابن آكلة الأكباد - في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان - بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار، وقد أصبحت فيكم مضمونًا، وأمانة مؤداة، وقد رأينا وقعتكم يوم الجمل، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل، فإنكم لا تُحمدون إلا على النجدة ولا تعذرون على الجبن». وكان معاوية لم يلحق زياد بنسبه بعد.

فقام شيمان الأزدي، ولم يكن شهد يوم الجمل وكان غائبًا - فقال:

«يا معشر الأزدي: ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر، وقد كنتم أمس على علي عليه السلام، فكونوا اليوم له - واعلموا أن إسلامكم^(١) له ذل، وخذلانكم إياه عار، وأنتم حيّ مضمركم الصبر، وعاقبتكم الوفاء. فإن سار القوم بصاحبهم فسيروا بصاحبكم، وإن استمدوا معاوية فاستمدوا عليًا عليه السلام، وإن وادعوكم فوادعوهم».

ثم قال أبو صبره شيمان الأزدي فقال:

«يا زياد، إنني والله لو شهدت قومي يوم الجمل رجوت إلا يقاتلوا عليًا، وقد مضى الأمر بما فيه، وهو يوم بيوم، وأمرٌ بأمر، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسيء، والتوبة مع الحق، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء واستئناف الأمور، ولكنها جماعة دماؤها حرام وجروحها قصاص، ونحن معك تحب ما أحببت»^(٢).

من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي^(٣)

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير صعد المنبر مثلثًا، فحط عنه اللثام

وقال:

«موج ليل التطم، وانجلي بضوء صبحه. يا أهل الحجاز كيف رأيتموني! ألم أكشف الجور، وطخية الباطل بنور الحق؟

(٢) جمهرة خطب العرب: ٤٣٣/١ - ٤٤٠.

(١) إسلامكم له: خذلانكم له.

(٣) جمهرة خطب العرب: ٢٨٧/٢ - ٢٩٢.

والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق، وعظفة رحم، ووصل قرابة، فإياكم أن تزلوا عن سنن أقمناكم عليه؛ فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار، وأقيم من أودكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار». ثم نزل وهو يقول:

أخو الحرب إن عَضَّتِ الحرب عضها وإن شَمَّرت عن ساقها الحرب
وقال وقد ارتجَّت مكة بالبكاء:

ألا إن ابن الزبير كان من أخبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله. ولو كان شيء مانعاً للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده. فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة».

وخطب الحجاج لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعددهم فقال:

«أيها الناس: من أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومن استطال أجله - فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه. إن للشيطان طيقاً، وللسلطان سيفاً؛ فمن سُقمت سريرته صحّت عقوبته، ومن وضعه ذنبه رفعه صلّبه، إني أحذر ثم لا أعذر - وأتوعد ثم لا أعفو. إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم إن الحزم والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني به سيفي، فقائم في يديه، ونجاده في عنقي، وذبابه قلادة لمن عصاني».

والله لا أمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد. فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه».

وأشهر خطب الحجاج خطبته حين ولي العراق سنة ٧٥ هـ.

حدّث عبد الملك بن عمير الليثي قال:

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه، إذ أتى آت، فقال: هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق، فإذا به قد دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، متقلداً سيفاً، متنكباً قوساً، يؤم المنبر. فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق؟ حتى قال عمير بن ضابيء البرجمي: ألا

أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهلّ حتى ننظر. فلما رأى عيون الناس إليه أحسر اللثام عن فيه، ونهض، فقال:

أنا ابن جَلَا وطلّاعُ الشنايا متى أضع العمامة تعرفوني^(١)

يا أهل الكوفة! أما والله إني لأحملُ الشرَّ بحمله، وأحذو بنعله، وأجزيه بمثله. وإني لأرى أبصارًا طامحة، وأعناقًا متطاوله، ورؤوسًا قد أينعت وحنانَ قطائفها، وإني لصاحبها. وكأني أنظر إلى الدماء بين العمام واللحي تترقرق - ثم أنشد:

هذا أو أن الشدّ فاشتدي زيم قد لفها الليلُ بسواقِ حُطمٍ
ليس براعي إبلي ولا غنم ولا بجزارٍ على ظهرِ وضم^(٢)
قد لفها الليلُ بعضبي أزوعَ خراجِ من الدوي
مهاجرٍ ليس بأعرابي^(٣)

قد شمّرت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجذوا
والقوسُ فيها وتَرَّ عرُدُ مثلُ دراعِ البكرِ أو أشدُ
لا بُدّ مما ليس منه بُدّ^(٤)

إني والله يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساويء الأخلاق، ما يُقَعِّع لي بالشنان^(٥)، ولا يُعْمز جانبي كتُعْماز التين، ولقد فُرِزْتُ^(٦) عن ذكاء، وفُتِّشْتُ عن تجربة، وجَرَيْتُ إلى الغاية القصوى. وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نشر كِنانته بين يديه، فعجم عيدانها^(٧)، فوجدني أمرها عودًا وأصلبها

- (١) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي. وهو مثل يُضرب للرجل الشهير المتعالم.
- (٢) الشعر لرويشد بن رميض العنبري. والشدّ: العدو. وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب. والحطم: الراعي الظلوم للماشية. والوضم: خشبة يقطع عليها اللحم.
- (٣) العصلبي: الشديد القوي. والأروع: الذكي والشجاع. الدوي: الفلاة الواسعة التي تسمع لها دويًا في الليل. والمهاجر: الذي خرج من البدو إلى المدن.
- (٤) عرُدُ: شديد. والبكر: الفتى من الإبل. ولا بد من كذا: لا محيد عنه.
- (٥) الشنان: جمع شَن، وهو القربة البالية يحزكونها إذا أرادوا حتّ الإبل على السير لتفزع فتسرع. وهو مثل يُضرب لمن لا يخيفه ما لا حقيقة له.
- (٦) فَرّ الدابة: فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها. وفرّ عن الأمر: بحث عنه.
- (٧) الكنانة: جعبة السهام. وعجم العود: عَضّه ليعرف صلابته.

مكسراً، فرماكم بي، لأنكم طالما أَوْضَعْتُمْ^(١) في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي. أما والله لأَلْحُونَكُمْ^(٢) لَحْوَ العصا، ولأَقْرَعَنَّكُمْ قَرْعَ الْمَرْوَةِ^(٣)، ولأَعْصِبَنَّكُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ^(٤)، ولأَضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرَابِ الْإِبِلِ^(٥). فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة، أتيتها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني والله لا أعدو إلا وَفَيْتَ، ولا أهتم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا قَرَيْتَ^(٦). فإياي وهذه الشُّفَعَاءُ، والزَّرَافَاتُ والجماعات، وقالاً وقيلاً^(٧)، وما تقول؟ وفيم أنتم وذاك؟ أما والله لتستقيمُنَّ على طريق الحق أو لأدعُنَّ لكل رجل منكم شُغْلاً في جسده! وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة^(٨). وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكتُ دمه وأنهبْتُ^(٩) ماله وهدمتُ منزله».

من عَمَرَ دُنياه وأخْرَبَ آخرته

لما ولي سليمان بن عبد الملك، بعد وفاة أخيه الوليد، دخل المسجد وصعد المنبر فحمد الله وأثنى وقال:

«الحمد لله الذي ما شاء منع، وما شاء رفع، وما شاء وضع. أيها الناس إن الدنيا دار غرور ومنزل باطل، تضحك باكياً، وتبكي ضاحكاً، وتخيف آمناً، وتؤمن خائفاً، وتشري فقيراً. وتفقر مشرياً، ميالة غرارة. عباد الله اتخذوا كتاب الله إماماً وارضوا به حكماً، واجعلوه لكم هادياً ودليلاً، فإنه ناسخ ما قبله ولا ينسخه ما

(١) أوضع في سيره: أسرع.

(٢) المرو: حجارة بيض براقَة تُوري النار.

(٣) السلمة: شجر كثير الشوك. تُعصب أغصانها ثم تُخبط بالعصي لسقوط الورق وهشيم العيدان.

(٤) قال الجاحظ في البيان والتبيين: وهي إبل تُضرب عند الهرب وعند الخلاط وعند الماء أشدَّ الضرب.

(٥) أخلق: أقدر. وفريت: قطعت.

(٦) الزرافات: الجماعات من الناس. القال والقييل والقالَة: هي الكلام في الشر. والقول: هو الكلام في الخير.

(٨) هو قائد الجيوش الذي حارب الخوارج والأزارقة وكسر شوكتهم.

(٩) أنهب ماله: جعله نهباً يُغار عليه.

بعده. واعلموا عباد الله أنه يجلو عنكم كيد الشيطان ومطامعه كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس وظلام الليل إذا عسعس.

ثم نزل. وكان سليمان فصيحًا بليغًا يرغب في مجالسة الحكماء والعلماء، فدخل عليه أبو حازم الأعرج فقال له سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وأحزبتم آخرتكم. فأنتم تكرهون الانتقال من العمران إلى الخراب^(١).

خطابة من والاه ومالاه على ذلك

قال خالد بن عبد الله القسري في مكة مقارنًا بين الرسول والخليفة - وقد غالى في ذلك:

«أيها الناس، أيهما أعظم؟ أخليفة الرجل على أهله، أم رسوله إليهم؟ الله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقى ربه فسقاه ملحًا أجاجًا - واستسقاه الخليفة فسقاه عذبًا فرائيًا».

ويعني بهذا بئرا حفرها الوليد بن عبد الملك بالثنتين: ثنية طوى، وثنية الحجون مكان يُنقل ماؤها، فيوضع في حوض من آدم إلى جانب زمزم ليُعرف فضله على زمزم، وأن ماءها أفضل من ماء زمزم.

صعد خالد المنبر في يوم الجمعة - وكان واليًا على مكة - فذكر الحجاج، فحمد طاعته وأثنى عليه.

فلما كان في الجمعة الثانية ورد كتاب سليمان بن عبد الملك، يأمره فيه شتم الحجاج ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه.

فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«إن إبليس كان ملكًا من الملائكة، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى به له فضلًا، وكان الله قد علم مدى غشّه وخُبثه، ما خفي على ملائكته. فلما أراد فضيحتة أمره بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم فلعنوه».

(١) تاريخ دول الإسلام: ٦١/١.

وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلاً، وكان الله قد أطلع الأمير من غشه وخبثه على ما خفي علينا، فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين، فالعنوه! (١).

خطبة الكميت عند هشام بن عبد الملك

كان الكميت بن زيد الأسدي يمدح بني هاشم ويعرض ببني أمية، فطلبه هشام بن عبد الملك، فهرب منه عشرين سنة، لا يستقرُّ به القرار من خوف هشام. وكان مسلمة بن عبد الملك له على هشام حاجةٌ في كل يوم يقضيها له ولا يردهُ فيها. فلما خرج مسلمة يوماً إلى بعض صيده، أقبل اناس يسلمون عليه، وأتاه الكميت بن زيد فيمن أتى، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

قِفْ بالديار وقوفَ زائرٍ وتأن، إنك غير صاغز
حتى انتهى إلى قوله:

يا مسلم بن أبي الوليد لميتٍ إن شئت ناشز
عَلِقْتُ حبالِي من حبالِكَ ذمَّةَ الجار المَجَاوِزِ
فَالآنَ صرْتُ إلى أميَّة والأمور إلى المصايِزِ
والآن كنت به المصيبِ كمهتدٍ بالأمس حائِزِ

فقال مسلمة: سبحان الله من هذا الهندكي الجَلْحَابِ الذي أقبل مني أخريات الناس، فبدأ بالسلام ثم أما بعد. ثم بالشعر؟

وقيل له: هذا الكميت. فأعجب به لفصاحته وبلاغته. فسأله مسلمة عن خبره وما كان فيه طول غيبته، فذكر له سخط أمير المؤمنين عليه، فضمن له مسلمة أمانه.

ولما توجه مسلمة إلى الشام أخذ الكميت معه وأدخله على هشام - وهشام لا يعرفه - فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته - الحمد لله. قال هشام: نعم، الحمد لله، يا هذا!

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ٣٢٣.

قال الكميت: مبتدئي الحمد ومبتدعه، الذي خصَّ بالحمد نفسه، وأمر به ملائكته وجعله فاتحة كتابه، ومنتهى شكره، وكلام أهل جنَّته، أحمدهُ حمدَ مَنْ عَلِمَ يقينًا، وأبصر مستبينًا، وأشهدُ أن محمدًا عبده العربي، ورسول الأمي، أرسله والناس في هَبَوَاتٍ^(١) خيرة، ومُدْلهِمَاتٍ ظلمة، عند استمرار أبهة الظلال، فبَلَّغَ عن الله ما أمر به، ونصح لأُمَّته، وجاهد في سبيله، وعبد ربه - حتى أتاه اليقين ﷺ .

ثم إنني يا أمير المؤمنين، تهتُّ في حَيْرَةٍ، وجِرْتُ في سَكْرَةٍ، اذْلَامٌ^(٢) بي خطرها وأهاب بي داعيها، وأجابني غاويها، فاقطوطيتُ^(٣) إلى الضلالة، وتسكَّغْتُ^(٤) في الظلمة والجهالة، جائزًا عن الحق، قائلًا بغير صدق، فهذا مقامُ العائذ^(٥)، ومنطق التائب، ومبصر الهدى بعد طول العمر. يا أمير المؤمنين. كم من عائرٍ. أفلتم عثرته ومجترم عفوتم عن جرمه.

فقال له هشام - وأيقن أنه الكميت: ويحك! مَنْ سَنَّ لك الغواية وأهاب بك في العماية^(٦)؟ قال: الذي أخرج أبي آدم من الجنة. فَنَسِيَ ولم يجد له عزماً. وأمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارَتْ سحابًا متفرقًا، فلفقت بعضه إلى بعض، حتى التحم فاستحكَمَ هُدُرُ رعدِهِ، وتلاؤُ برقه، فنزل الأرض فَرَوَيْتَ، وأخضلت^(٧)، واخضرت. وأسقيت، فروي ظمأنها، وامتلاً عطشانها فكذلك نُعدُّك يا أمير المؤمنين.

ولما أتمَّ الخطبة رضي عنه هشام وأمر له بجائزة.

كان سبب غضب هشام على الكميت: أن حكيم بن عباس الكلبي كان ولعًا بهجاء مضر والكميت مضري، فكانت شعراء مضر تهجوه ويحجبههم، وكان الكميت يقول: هو والله أشعر منكم. قالوا: فأجب الرجل، قال: إن خالد بن عبد الله القسري - والي العراق وهو يماني - محسنٌ إليّ، فلا أقدر أن أرد عليه، قالوا: فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك عن الهجا - وأنشدوه ذلك فحمي الكميت لعشيرته، فقال: «قصيدته المذهبة». وبلغ ذلك خالدًا فقال: والله

(١) الهبوات: الغبرات، وإذا سطعت في الجو وانتشرت عميت بها المسالك.

(٢) اذْلَامٌ الليل: ادلهم، اسودَّ وأظلم. (٣) اقطوطي: قارب في مشيه إسراعًا.

(٤) تسكَّم: مشى مشيًا متعسفًا لا يدري إلى أين. (٥) العائذ: اللاجئ المستجير.

(٦) العماية: الغواية. (٧) اخضلت: ابتلت.

لأقتلته، ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيّرهن نهاية في الحسن والكمال والأدب، فروأهن الهاشميات - وهي مدائح وقصائد قالها الكميت في مدح بني هاشم، وكان معروفاً بالتشيع لهم مشهوراً بذلك، وتعدّ هذه القصائد من جيّد شعره ومختاره وهي مطبوعة مشهورة.

فدسّ خالد الجوّاري مع نخّاس إلى هشام بن عبد الملك، فاشتراهن جميعاً، فلما أنس بهن استنطقهن - فرأى فصاحة وأدباً، فاستقرأهن القرآن فقرأن، واستنشدن الشعر، فأشدهن قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكُن! من قائل هذا الشعر؟ قلن: الكميت بن زيد الأسدي، قال: وفي أي بلد هو؟ قلن: في العراق ثم في الكوفة، فكتب إلى خالد عامله بالعراق: ابعث إليّ برأس الكميت، فبعث إليه خالد في الليل، فأخذه وأودعه السجن، وعزم لينقذن أمر الخليفة فيه، وأعمل الكميت الحيلة في الفرار.

فبعث إلى زوجته حُبّي، فلما دخلت عليه هي وخدامتها، لبس ثيابها، وتنقّب نقابها وأقامها مكانه، وخرج متنكراً، وظل متوارياً مدة حتى حدث واستجار بهشام. كما مرّ^(١).

أسلوب أكثم بن صيفي

في إرسال الحكمة والوصية والخطابة

كان أكثم بن صيفي من حكماء العرب في الجاهلية وأحد المعمرين. أدرك الإسلام، وقصد المدينة في مئة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق وأسلم من بلغ المدينة من أصحابه. وهو المعني بالآية: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: الآية ١٠٠].

وكان يزيد بن المهلب يسلك طريقة الأكثم بن صيفي في خطبه فمن ذلك ما أوصى به ابنه مخلداً حين استخلفه على جرجان وهو قوله:

يا بُني قد استخلفتك على هذه البلاد، فانظر هذ الحي من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر:

إذا كنت مرتادَ الرجال لنفعهم فَرِشْ واصطنع عند الذين بهم ترمي^(٢)

(١) جمهرة خطب العرب: ٤٢٨/٢ - ٤٣٠.

(٢) رأس الصديق: أطعمه وسقاه وكساه. والاصطناع: المبالغة في إصلاح الشيء.

وانظر هذا الحي من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك، فاقض حقوقهم.
وانظر هذا الحي من تميم فأمطرهم ولا تزده لهم، ولا تُدنهم فيطمعوا، ولا
تقصهم فيقطعوا. وانظر هذا الحي من قيس فإنهم أكفاء قومك في الجاهلية،
ومُناصفهم لمنابر في الإسلام، ورضاهم منك البشر.
يا بني إن لأبيك صنائع فلا تفسدها، فإنه كفى بالمرء نقصاً أن يهدم ما بنى
أبوه. وإياك والدماء فلا بُقْية معها.
وإياك وشم الأعراض فإن الحرَّ لا يرضيه عن عِرضه عَوْض. وإياك وضرب
الأبشار فإنه عار باق ووتر مطلوب...
وأستودعك الله فلا بد للمودع أن يسكت، وللمشيع أن يرجع، وما عف من
المنطق وقل من الخطيئة. أحبُّ إلى أبيك^(١).

بنو الكواء

ومن أصحاب الخطب والأخبار والنسب، والحكم عند أصحاب النفورات:
بنو الكواء وإياهم يعني مسكين الدارمي حين ذكر أهل هذه الطبقة فقال:

ولكنَّ الرَّحَى فوق الثَّقَالِ	كلانا شاعرٌ في حيِّ صدقٍ
ولا تُرِح المِطْيِ من الكلالِ	وحكم دغفلاً وأرحل إليه
بعلمهم بأنساب الرجالِ	تعال إلى بني الكواء يقضوا
يُنَبِّي بالسوافل والعوالي	تعال إلى ابن مذعورٍ شهاب
ولو أضحي بمنحرف الشمالِ ^(٢)	وعند الكيس النمري علم

خطبة داود بن علي، وقد أرتج^(٣) على السفاح

رُوي أنه لما قام أبو العباس السفاح في أول خلافته على المنبر، قام
بوجه كورقة المصحف فاستحيا فلم يتكلم، فنهض داود بن علي حتى صعد
المنبر.

(١) بلوغ الأرب: ١٧٢/٢.

(٢) البيان والتبيين: ١٨٦/١.

(٣) أرتج عليه: استغلق عليه الكلام. ومثله حصير القارئ والخطيب: لم يقدر على الكلام.

فقال المنصور: فقلت في نفسي: شيخنا وكبيرنا ويدعو إلى نفسه، فلا يختلف عليه اثنان، فانتضيت سيفي، وغطيته بثوبي وقلت: إن فعل ناجزته. فلما رقي غتبا استقبل الناس بوجهه دون أبي العباس ثم قال:

«أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله، ولأثر الفاعل أجدي عليكم من تشقيق المقال، وحسبكم بكتاب الله ممثلاً فيكم - وابن عمر رسول الله ﷺ خليفة عليكم، والله - قسماً برأ لا أريد به إلا الله - ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله ﷺ أحق به من علي بن أبي طالب (ع) وأمير المؤمنين هذا فيلظن ظانكم، وليهمسن هامسكم».

قال أبو جعفر: ثم نزل وعمدث سيفي.

وروى السيد المرتضى في أماليه قال:

أراد أبو العباس السفاح يوماً أن يتكلم بأمر من الأمور بعدما أفضت الخلافة إليه وكان فيه حياءً مفرطاً - فارتجج عليه. فقال داود بن علي بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين الذي قلده الله سياسة رعيتيه - عقل من لسانه، عندما يعهد من بيانه - ولكل مرتقي بهز - حتى تنفسه العادات، فأبشروا بنعمة الله في صلاح دينكم - ورغد عيشكم».

وخطب داود بن علي الناس بمكة في أول موسم ملكه بنو العباس فقال:

شكراً شكراً، إنا والله ما خرجنا لنخفر فيكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصرًا. أظن عدو الله أن لن نقدر عليه، أن رُوخي له من خطامه، حتى عشر في فضل زمامه؟ فالآن حيث أخذ القوس باريها، وعادت التبل إلى النزعة، ورجع الملك في نصابه من أهل بيت النبوة والرحمة - والله لقد كنا نتوَجع لكم ونحن في فُرشنا - أمن الأسود الأحمر، لكم ذمة الله، لكم ذمة رسول الله ﷺ لكم ذمة العباس. لا ورب هذه البنية - وأوماً بيده إلى الكعبة - لا نهيج منكم أحدًا^(١).

رَوْحُ بنِ زَنْبَاعٍ وَمَعَاوِيَةَ

ولى معاوية روح بن زنباع، فعتب عليه بجناية، فكتب إليه بالقدوم، فلما قدم أمر بضربه بالسياط، فلما أقيم ليضرب قال:

(١) جمهرة خطب العرب: ١١/٣ - ١٤.

«نشدتك الله يا أمير المؤمنين، أن تهدمَ منِّي ركنًا أنت بنيتَه، أو تضع مني خسيصة أنت رفعتها، أو تُشمت بي عدوًّا أنت وقمته. وأسألك بالله إلا أتى عفوك وحلمك دون إفساد صنائعك».

فقال معاوية: «إذا الله سئى عقد أمرٍ تسرًا خلوا سبيله»^(١).

يكره يوم الجمعة!

قيل أن عبد ربه اليشكري كان عاملاً لعلي بن موسى على المدائن فصعد المنبر يوماً فحمد الله وأثنى عليه - ثم أرتج عليه فسكت ثم قال:

والله أني لأكون في بيتي فتجيء على لساني ألف كلمة، فإذا قمت على أعواد منابرهم هذه جاءني الشيطان فمحاها كلها من صدري. ولقد كنت وما في الأيام يوم أحب إلي من يوم الجمعة، فصرت وما في الأيام يوم أبغض علي من يوم الجمعة، وما ذاك إلا لخطبتكم هذه^(٢).

حسن التخلص

كان عامر الشعبي ممن خرج مع ابن الأشعث، فلما أتى الحجاج بأسرى الجماجم أتى فيهم بالشعبي موثقاً - وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أسرى دبر الجماجم أن يعرضهم على السيف، فمن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا فيخلى سبيله، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه.

قال الشعبي: فلما جئت باب القصر لقيني زيد بن أبي مسلم كاتبه، فقال: إننا لله يا شعبي، لما بين دفتيك من العلم، وليس اليوم بيوم شفاعة!

قلت له: فما المخرج؟ قال: بؤ للأمير بالشرك والنفاق على نفسك وبالحرى أن تنجو. ثم لقيني محمد بن الحجاج، فقال لي مثل مقالة زيد، فلما دخلت على الحجاج قال لي:

وأنت يا شعبي ممن ألب علينا ابن الأشعث؟ أشهد على نفسك بالكفر!

قلت: أصلح الله الأمير نبا بنا المنزل، وأجدب بنا الجناب، واستحلنا الخوف، واكتحلنا السهر، وضاق المسلك، وخبطننا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء

(٢) العقد الفريد: ١٥١/١ و ١٢/٣.

(١) جمهرة الخطيب: ٣٩٤/٢.

ولا فجرة أقوياء. قال: صدقت، والله ما بررتم بخروجكم علينا ولا قويتم، خلوا سبيل الشيخ^(١).

خطبة السفاح بأهل الشام لما قتل مروان بن محمد

لما قتل مروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية - خطب السفاح - فقال: «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس المصير».

نكص بكم يا أهل الشام آل حرب وآل مروان، يتسكعون بكم الظلم، ويتهورون بكم مداحض^(٢) الزلوق، يطئون بكم حرم الله^(٣)، وحرّم رسوله^(٤). ماذا يقول زعماؤكم غداً يقولون: «ربنا هؤلاء أضلونا فأتهم عذاباً ضعفاً من النار». إذن يقول الله عز وجل:

«لكلّ ضعفٌ ولكن لا تعلمون» أما أمير المؤمنين فقد اتنتف^(٥) بكم الثوبة، واغتفر الزلّة، وبسط لكم الإقالة^(٦)، وعاد بفضله على نقصكم، وبحلمه على جهلكم، فليفرخ زوعكم^(٧)، ولتطمئن قلوبكم، وليقطع مصارع أوائلكم، «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا»^(٨).

خطبة داود بن علي، وقد أرتج عليه

خطب داود بن علي بن عبد الله بن العباس عم السفاح، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد وآل محمد - فلما قال: أما بعد، امتنع عليه الكلام، ثم قال:

«أما بعد، فقد يجد المعسر، ويُعسر الموسر، ويُقل الحديد، ويُقطع الكليل، وإنما الكلام بعد الإفحام، كالإشراف بعد الإظلام، وقد يعزبُ البيان، ويُعقمُ

-
- (١) العقد الفريد: ١٥١/١ و ١٢/٣. (٢) مداحض: جمع مدحضة، وهي المنزلة.
 (٣) يشير إلى ما كان من مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير، ورميه الكعبة بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان.
 (٤) يشير إلى وقعة البحرة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المري بالمدينة على عهد يزيد بن معاوية.
 (٥) اتنتف: استأنف وابتداً.
 (٦) أقال عشرته: رفعه من سقوطه.
 (٧) أي ليخرج الفزع من قلبكم. والزوع (بالضم) هو القلب.
 (٨) جمهرة الخطب: ١٢/٣ - ١٣.

الصواب، وإنما اللسان مضغة من الإنسان، يفتر بفتوره إذا تَكَلَّ، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل. ألا وإننا لا ننتطق بَطْرًا، ولا نسكت حَصْرًا، بل نسكت معتبرين، وننتطق مرشدين، ونحن بعد أمراء القول، فينا وشجت أغراقه، وعلينا عطفت أغصانه، ولنا تهذلت ثمرته، فنتخير منه ما احلولى وعذب، ونطرح منه ما املولح وخبث، ومن بعد مقامنا هذا مقام، وبعد أيامنا أيام، يُعرف فيها فضل البيان، وفصل الخطاب والله المستعان» ثم نزل^(١).

خالد بن صفوان وأحوال السفاح

وروى الجاحظ قال:

كان خالد بن صفوان الأهمي من سُمَار أبي العباس السفاح، وأهل المنزلة عنده، ففخر عليه ناس من بني الحارث (بلحارث) وأكثروا القول، فقال أبو العباس: لم لا تتكلم يا خالد؟ فقال: أحوال أمير المؤمنين وعصبته. قال: فأنتم أعمام أمير المؤمنين «عصبته» قال خالد: وما عسى أن أقول لقوم، كانوا بين ناسج بُرد، ودابغ جلد، وسائس قِزْد، وراكب عُزْد^(٢)، دَلَّ عليهم هدهد، وغرقتهم فارة^(٣)، وملكتهم امرأة^(٤).

يشير بذلك إلى حديث الهدهد مع سليمان (ع) - في قوله تعالى:

﴿وَتَقَدَّ الظِّيرَ فَقَالَ مَالِكٌ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢١﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَرَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِي يَفِينٍ ﴿٢٣﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَوْءٍ وَلَمَّا عَرَّشُ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا بِسُجُودٍ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل: الآيات ٢٠ - ٢٤] الآيات. وأما قوله: «أحوال أمير المؤمنين»...

فقد كانت أم السفاح من بني الحارث بن كعب، واسمها ربيعة بنت عبيد الله ابن عبد الله بن عبد الملك بن الديان الحارثي، ولذا كان يقال للسفاح: ابن الحارثية^(٥).

(٢) العُزْد: الحمار.

(١) جمهرة الخطب: ١٢/٣ - ١٣.

(٣) يشير إلى ما يزعمه المؤرخون من أن سيل العرم الذي ضرب اليمن كان سببه قرض الجرذ لسد مارب.

(٥) الجمهرة: ٢٢/٣ - ٢٣.

(٤) هي بلقيس ملكة سبأ.

خطبة للمأمون

خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله وأنتم في مهل، بادروا الأجل ولا يغرنكم الأمل، فكأنني بالموت قد نزل، فشغلت المرء شواغله، وتولت عنه فواصله، وهيث أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالي بجسده البالي، فهو في التراب عفير، وإلى ما قدم فقير. وقال الشعبي: ما سمعت أحدًا يخطب إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطيء ما خلا زيادًا فإنه لا يزداد إكثارًا إلا ازداد إحسانًا.

خطبة لعلي رضي الله عنه

خطب علي رضي الله عنه فقال في خطبته: عباد الله الموت ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم، فالنجا النجا والوفا الوفا، فإن وراءكم طالبًا حثيثًا وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه يومًا يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: الآية ٢]. ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه فيه نار تتسعر حرها شديد وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس الله فيها رحمة، قال: فيكى المسلمون بكاءً شديدًا، ثم قال: إلا وإن وراء ذلك اليوم ﴿وَجَعَلَهُ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَعْدَتٌ لِلسُّقُوتِ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] أدخلنا الله وإياكم دار النعيم، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

خطبة للحجاج

خطب الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضي الله عنه خطب بالبصرة فقال: أيها الناس كل كلام في غير ذكر فهو لغو، وكل صمت في غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم والآخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونجن في أضيغاث أحلام. قيل: اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبينة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبرًا ثم قال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك، فهذا وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة

قال في المستطرف^(١): قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية ٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: الآية ٧١]. ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١١٤]. والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمّة منشورة.

وروي في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وقال شيخنا محيي الدين النووي رحمة الله تعالى عليه في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: الآية ١٠٥]. إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب في معناها أنكم إذا فعلتم ما أرتمتم به لا يضرركم ضلالة من ضل.

(١) المستطرف: ص ٨٨ - ٩١.

ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآية مرتبة في المعنى على قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ﴾ [المائدة: الآية ٩٩].

وقال محمد بن تمام: الموعظة جند من جنود الله تعالى، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر.

ومن كلام علي رضي الله تعالى عنه: لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بلغت في إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالأدب، والبهايم لا تتعظ إلا بالضرب. وأشد الجاحظ:

وليس يزجركم ما توعظون به والبهم يزجرها الراعي فتنزجر

وصية صديق

كتب رجل إلى صديق له: أما بعد، فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك، واستح من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك والسلام. وقيل: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، وقال لقمان: الموعظة تشق على السفية كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك إن أتيتني بعبد آبق^(١) كتبك عندي حميداً، ومن كتبته عندي حميداً لم أعدبه بعدها أبداً، وقال الرشيد لمنصور بن عمار: عظني وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين: هل أحد أحب إليك من نفسك، قال: لا. قال: إن أردت أن لا تسيء إلى من تحب فافعل، وقال النبي ﷺ في بعض خطبه: «أيها الناس الأيام تطوى، والأعمار تفتنى، والأبدان في الثرى تبلى، وأن الليل والنهار يتراكمضان تراكمض البريد^(٢)، ويقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات.

عظة الحسن البصري

لما لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له: لقد كنت أحب أن ألقاك فعظني، فقرأ الحسن البصري: ﴿أَفَرَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣]، ﴿أَفَرَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا﴾

(٢) البريد: الدواب.

(١) آبق: هارب.

يَمْتَعُونَ ﴿١٧﴾ [الشُّعْرَاءُ: الآيات ٢٠٥ - ٢٠٧]. فقال عليك السلام أبا سعيد لقد وعظتني أحسن موعظة.

وصية علي بن أبي طالب

لما ضرب ابن ملجم لعنه الله علياً رضي الله عنه، دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق، فدعا الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وقال: أوصيكم بتقوى الله تعالى، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفاً على شيء فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان. افعلوا الخير وكونوا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ثم دعا محمداً ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى. قال: فإنني أوصيك به، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمراً دونهما، ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيراً، فإنه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه، فأجابه.

ثم قال: يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء، يا بني ما شرّ بعده الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية، يا بني من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته، ومن سلّ سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئته غيره، ومن أعجب برأيه ضلّ، ومن استغنى بعقله زلّ، ومن تكبّر على الناس ذلّ، ومن خالط الأندال احتقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن جالس العلماء وقر، ومن مزح استخفّ به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر خطؤه وقلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار. يا بني الأدب ميزان الرجل، وحسن الخلق خير قرين، يا بني العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى، وواحدة في ترك مجالسة السفهاء، يا بني زينة الفقر الصبر، وزينة الغنى الشكر. يا بني لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيح أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية. يا بني الحرص مفتاح التعب ومطية النصب^(١).

(١) النصب: الشقاء والتعب.

وصية هشام بن عبد الملك

لما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة، نظر إلى أهله ليكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له.

عظة الأوزاعي للمنصور

قال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك^(١) بها ويردع بها المنافقين، فاتاه جبريل عليه السلام. فقال: يا محمد ما هذه الجريدة التي بيدك؟ ائذفها لا تملأ قلوبهم رعباً، فكيف بمن سفك دماء المسلمين، وانتهب أموالهم، يا أمير المؤمنين: إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً من غير تعمد. يا أمير المؤمنين: لو أن ذنوباً من النار صب، ووضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن ثوباً من النار وضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتقمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يتسلسل بها، ويرد فضلها على عاتقه.

عظة زيد بن أسلم لجعفر بن أبي طالب

روى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكان والي المدينة: احذر أن يأتي رجل غداً ليس له في الإسلام نسب، ولا أب ولا جد، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى، وكما كانت امرأة نوح، وامرأة لوط أولى بفرعون، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه.

عظة ابن طاوس للمنصور

روى زياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس وابن طاوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش، وبين يديه أنطاغ قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأوماً إلينا أن

(١) يستاك: من السواك، وهو العود الذي تنظف به الأسنان من بقايا الأطعمة.

اجلسا فجلسنا، فأطرق زمانًا طويلًا ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثني عن أبيك. قال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه، فأدخل عليه الجور في حكمه». فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال: ما لك؟ فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاوس، ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها، قال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قومًا عني. فقال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي. قال: ما لك، فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

عظة كعب الأحبار لعمر بن الخطاب

رُوِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال لكعب الأحبار: يا كعب خوفنا. قال: أوليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ قال: بلى يا كعب، ولكن خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين اعمل، فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيًا، لآذريت عملهم مما ترى، فنكس عمر رضي الله عنه رأسه، وأطرق مليًا، ثم رفع رأسه، وقال: يا كعب خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه، حتى يسيل من حرّها، فنكس عمل عمر ثم أفاق، فقال: يا كعب زدنا، فقال: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول: يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

عظة أبي بكر الطرطوشي للأفضل ابن أمير الجيوش

قال الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه: دخلت على الأفضل ابن أمير الجيوش، وهو أمير على مصر، فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام على نحو ما سلمت ردًا جميلًا، وأكرمني إكرامًا جزيلاً، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محلاً عليًا شامخًا، وأنزلك منزلًا شريفًا باذخًا، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان. قال

الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا عَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سَبَأ: الآية ١٣] د واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَنْ كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير. قال الله تعالى: ﴿قَوْمِكَ لَنَشْعَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٧) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَدَالٍ حَبْكَةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧]، واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليه السلام، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطيور والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩) [ص: الآية ٣٩]، فوالله ما عدها نعمة كما عدتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعالى، ومكرًا به. فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: الآية ٤٠]. فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، وأغث الملهوف، أعانك الله على نصر المظلوم، وجعلك كهفًا للملهوف وأمانًا للخائف. ثم أتممت المجلس بأن قلت قد جبت^(١) البلاد شرقًا وغربًا، فما اخترت مملكة وارتحت إليها، ولذت^(٢) لي الإقامة فيها غير هذه المملكة، ثم أنشدته:

والناس أكيس^(٣) من أن يحمدا ورجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان

عظة الفضيل بن عياض للرشيد

قال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد سنة من السنين، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعًا، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجني إلا عالم، فانظر لي رجلاً أسأله عنه، فقلت: ههنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: جد لما جئنا له، فحادثة ساعة، ثم قال له: أعليك

(٢) لذت: طابت وحليت.

(١) جبت: زرت ورحلت.

(٣) الكيس: الظرافة والعقل.

دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقضِ دينه ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله، فقلت: هل هنا عبد الرزاق بن همام، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: مَنْ هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أيتك، فقال: جد لما جئنا به، فحادثة ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقضِ دينه، ثم انصرفنا.

فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله، فقلت: هل هنا الفضيل بن عياض، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددّها، فقرعت عليه الباب، فقال: مَنْ هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أما تجب عليك طاعته؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد كفي إليه، فقال: أواه من كف ما أليها إن نجت غداً من عذاب الله تعالى؟ فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب نقي، فقال: جد لما جئنا له رحمك الله تعالى، فقال: وفيم جئت حملت على نفسك، وجميع من جميع حملوا عليك، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصاً^(١) من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك. ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليّ. فعذّ الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها على الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فليكن كبير المسلمين عندك أبا، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فبرّ أباك، وارحم أخاك، وتحنن على ولدك. وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واکره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مت، وإني لأقول هذا، وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا.

(١) الشقص: النصيب، والقطعة من الشيء.

فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً حتى غشي عليه، فقلت له: ارفق يا أمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك، وأرفق به أنا، ثم أفاق هارون الرشيد، فقال: زدني. فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكاً إليه سهراً، فكتب له عمر يقول: يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبدان، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له عمر: ما أقدمك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً، ثم قال: زدني.

قال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ جاء إليه، فقال: يا رسول الله أمرني إمارة، فقال له النبي ﷺ: «يا عباس، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها. إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل»، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً، ثم قال: زدني يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيك، فإن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشًا لَمْ يَرْحَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني، والويل إن سألني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي، قال هارون: إنما أعني دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أو إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ٥٣﴾ [الذَّارِيَاتُ: الآيات ٥٦ - ٥٨]. فقال له هارون: هذه ألف دينار، فخذها وأنفقها على عيالك وتقرّب بها على عبادة ربك، فقال: سبحان الله أنا دلتك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا سلمك الله ووفقك، ثم صمت، فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فقال لي هارون: إذا دلتني على رجل فدلتني على مثل هذا، فإن هذا سيد المسلمين اليوم.

في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قال في المستطرف^(١): قيل: ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي، والمكان الخضر الخالي، وقيل: أمسك على النابغة الجعدي أربعين يوماً فلم ينطق بالشعر، ثم إن بني جعدة غزوا، فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام الشعر، فذل له ما استصعب عليه، فقال له قومه: والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسرنا بالظفر بعدونا. وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى زويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟ وقال: الرجال الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاؤوا، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده، وقيل: وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرضت القريض؟ قال: نعم. قال: أرويت الشعر؟ قال: لا. فكتب إلى عبد الله أبا زياد بارك الله لك في ابنك فأروه الشعر، فقد وجدته كاملاً، وإني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ارووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، ويقي مساوئها، وتعلموا الأنساب فرب رحمة مجهولة قد وصفت بعريان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صفين، فما ثبتني إلا قول القائل:

أقول لها إذا جشأت وجاشت
مكانك تُحمدي أو تستريحي^(٢)

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر، كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن فحولهم، ثم تنسك، فكان

(١) المستطرف: ص ٦٨ - ٧٣.

(٢) جشأت وجاشت: أي اضطربت نفسه من حزن أو خوف.

يختم القرآن كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك مالا جزيلا على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء، ف قيل له: في ذلك، فقال: خير مالك ما وقيت به في عرضك، وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة قلت له: ما أرواك يا أبا عبد الله؟ فقال: وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرا، وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل: «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا» ولم ينطق به موزونا، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أشهد أنك رسول الله حقا وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي﴾ [يس: الآية ٦٩].

نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم

بين قيس بن الخطيم وطرفة

فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها^(١):
وما المال والأخلاق إلا معارة فما استطعت من معروفها فتزود
وكيف يخفى ما أخذه مع اشتها قصيصة طرفة بن العبد وهي معلقة على
الكعبة يقول فيها:

لعمرك ما الأيام إلا معارة فما استطعت من معروفها فتزود

بين عبدة بن الطيب وامرئ القيس

ومن ذلك قول عبدة بن الطيب:
فما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما
أخذه من قول امرئ القيس:
فلو أنها نفسي تموت شريتها
ولكنها نفس تساقط أنفسا

(١) هو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي أبو يزيد شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية، أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلها، أدرك الإسلام فقتل قبل أن يدخل فيه، شعره جيد، له ديوان شعر مطبوع.

بين كُثِير والحطيئة

ويقال مَنْ سرق شيئاً واسترقه، فقد استحقه، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن السرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصانٌ عليها عقد در يزينها
أخذه من قول الحطيئة ولم يغير سوى الروي:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصانٌ عليها لؤلؤ وشنوف^(١)

بين جرير وزهر

وجرير على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله:
فلو كان الخلود بفضل قومٍ على قومٍ لكان لنا الخلودُ
من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو:
فلو كان حمدٌ يخلد المرء لم يمت ولكنَّ حمد المرء غير مخلد

بين الشماخ وآخر

وقد قال الشماخ:

وأمرٍ ترجي النفس ليس بنافعٍ وآخر تخشى ضيرهُ لا يضيرها
وهو مأخوذ من قول الآخر:

ترجي النفوس الشيء لا تستطيعه وتخشى من الأشياء ما لا يضيرها

بين أبي تمام والأخطل

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول:

وأحسن من نور تُفتِّحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالبِ
أخذه من قول الأخطل:

رأيت بياضاً في سوادِ كأنه بياض العطايا في سواد المطالبِ

(١) الحصان: المرأة العفيفة. والشنوف: الحلي التي تعلق بالأذان.

من سقطات الشعراء

أبو العتاهية

ما قيل: إن أبا العتاهية كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط، رُوِيَ أنه لقي محمد بن مبادر بمكة، فمازحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذي يقول أبو العتاهية، فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

لقلت كثيرًا ولكني أقول:

ابن عبد الحميد يوم توفى هدّ ركنًا ما كان بالمهدود

ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عفافٍ وجود

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم، فكاد أبو العتاهية يموت غمًا وأسفًا.

بشار بن برد

وكان بشار بن برد يسمّونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق، وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال:

إنما عظم سليمانى حبتي قصبُ السكر لا عظم الحملن

وإذا أدنيت منها بصلًا غلب المسك على ريح البصلن

هذا مع قوله:

إذا قامت لمشيبتها تثنت^(١) كأن عظامها من خيزران

ومع قوله في الفخر:

كأن مثار النقع^(٢) فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

ومع قوله أيضًا:

(٢) مثار النقع: أي الغبار.

(١) تثنت: تمايلت.

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

أبو الطيب المتنبى

وأبو الطيب المتنبى في فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام، وقوته على رقائق المعاني وعلى ما في شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنّه رجلاً

وغير شيء معناه المعدوم، والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش. ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجّه الأسماع قوله:

تقلقت بالهّم الذي قلقل الحشا قلاقل عشٍ كلهن قلاقل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى:

إن كان مثلك كان أو هو كائنٌ فبرئت حينئذٍ من الإسلام

ومن معانيه المسروقة قوله:

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القماش

أخذه من قول أبي تمام:

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

سكينة بنت الحسين والشعراء

قال أبو عبد الله الزبيرى: اجتمع راوية جرير، وراوية كثير، وراوية جميل، وراوية الأحوص، وراوية نصيب، فافتخر كل منهم وقال: صاحبي أشعر، فحكّموا السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله تعالى عنهما بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها، وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذي يقول:

طرتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق! قبّح الله صاحبك وقبح شعره فهلا

قال: فادخلي بسلام. ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذي يقول:

يقرّ بعيني ما يقرّ بعينها وأحسن شيء ما به العين قرّت

وليس شيء أقرّ بعينها من النكاح، أیحب صاحبك أن ینكح! قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذي یقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أراه هوى، وإنما طلب عقله. قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذي یقول:

أهيم بدعدٍ ما حبيت فإن أمت فواحزني من ذا يهيم بها بعدي

فما له همة إلا من يتعشقها بعده. قبحه الله وقبح شعره هلا قال:

أهيم بدعدٍ ما حبيت فإن أمت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذي یقول:

من عاشقين تواعدا وتراسلا ليلاً إذا نجم الشريا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره. هلا قال: تعانقا. فلم تثن على واحد منهم، وأحجم روايتهم عن جوابها رضي الله عنها.

عمر بن عبد العزيز والشعراء

روى ابن الكلبي قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم في الدخول حتى قدم عدي بن أرطاة^(١) عليه وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال:

ياأيها الرجل المزجي مطيته^(٢) هذا زمانك إتي قد خلا زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أتي لدى الباب كالمشدود في قرن^(٣)

لا تنسى حاجتنا لاقيت مغفرة قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

(١) هو عدي بن أرطاة الغزاري أبو وائلة، أمير من أهل دمشق، كان من العقلاء الشجعان، ولأه عمر بن عبد العزيز البصرة سنة ٩٩ هـ. فاستمر إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسط في فتنة أبيه «يزيد» بالعراق سنة ١٠٢ هـ.

(٢) المزجي مطيته: أي السائق والمستحث لها. (٣) القرن: الحبل وما يربط به.

فقال: نعم يا أبا عبد الله، فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك، وألستهم مسمومة، وسهامهم صائبة، فقال عمر رضي الله عنه: ما لي وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ مدح فأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم، قال: صدقت، فَمَنْ بالبَاب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القائل:

ألا ليتني في يوم تدنو منيتي شمت الذي ما بين عينيك والضم
وليت طهوري كان ريقك كله وليت حنوطي من مشاشك والدم^(١)
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي هنالك أو في جنة أو جهنم

فليته عدوّ الله تمنى لقاءها في الدنيا، ثم يعمل عملاً صالحاً، والله لا يدخل عليّ أبداً، فَمَنْ بالبَاب غيره ممن ذكرت؟ قال جميل بن معمر العذري قال: أليس هو القائل:

ألا ليتنا نحيا جميعاً فإن نمث يوافي لدى الموتى ضريحي ضريحها
فما أنا في طون الحياة براغب إذا قيل قد سوي عليها صفيحها^(٢)
أظللّ نهاري لا أراها وتلتقي مع الليل روعي في المنام وروحها

والله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالبَاب غيره ممن ذكرت؟ قال: كثير عزة قال: أليس هو القائل:

رهبان مدين والذين عهدتهم ييكون من حذر الفراق قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة رُكعاً وسجودا

أبعده الله، فوالله لا يدخل عليّ أبداً، فَمَنْ بالبَاب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأحوص الأنصاري قال: أبعده الله، والله لا يدخل عليّ أبداً، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بيني وبين سيّدها يفرّ مئني بها وأتبعه

(٢) الصفيح: القبر.

(١) المشاش العظم اللين.

فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرِهِ مِمَّنْ ذَكَرْتَ؟ قَالَ: هَمَامُ بْنُ غَالِبِ الْفَرَزْدَقِ. قَالَ: أَلَيْسَ هُوَ الْقَاتِلُ يَفْتَخِرُ بِالزَّنَا فِي قَوْلِهِ:

هَمَا دَلْيَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَ بَارِزٌ لَيْئِنُ الرَّيْشِ كَاسِرُهُ
فَلَمَا اسْتَوَتْ رَجْلَايَ فِي الْأَرْضِ قَالَتَا أَحْيِي فَيَرْجِي أُمَّ قَتِيلٍ نَحَازِرِهِ
فَقُلْتُ ارْفَعُوا الْأَجْرَاسَ لَا يَفْطِنُونَا بِنَا وَوَلَّيْتُ فِي أَعْقَابِ لَيْلٍ أَبَادِرِهِ

وَاللَّهِ لَا دَخَلَ عَلَيَّ أَبَدًا، فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرِهِ مِمَّنْ ذَكَرْتَ؟ قَالَ: الْأَخْطَلُ التَّغْلِبِيُّ. قَالَ: أَلَيْسَ هُوَ الْقَاتِلُ:

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ عَمْرِي وَلَسْتُ بِأَكْلٍ لَحْمِ الْأَضْحَاحِي
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ عَيْسًا بِكَوْرًا إِلَى أَطْلَالِ مَكَّةَ بِالنُّجَاحِ
وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعَبْدِ يَدْعُو قَبِيلَ الصُّبْحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَكُنْتُ سَاشْرِبَهَا شَمُولًا وَأَسْجِدُ عِنْدَ مَنْبَلِجِ الصُّبْحِ^(١)

أَبْعَدَهُ اللَّهُ عَنِّي، فَوَاللَّهِ لَا دَخَلَ عَلَيَّ أَبَدًا، وَلَا وَطِئَ لِي بِسَاطِطًا، وَهُوَ كَافِرٌ، فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ مِمَّنْ ذَكَرْتَ؟ قَالَ: جَرِيرٌ. قَالَ: أَلَيْسَ هُوَ الْقَاتِلُ:

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا وَقَتِ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
فَإِنْ كَانَ وَلَا بَدَّ، فَهَذَا، فَأُذِنَ لَهُ قَالَ عَدِي بْنُ أَرْطَاةَ: فَخَرَجْتَ فَقُلْتَ: ادْخُلْ يَا جَرِيرٌ، فَدَخَلَ وَهُوَ يَقُولُ:

إِنَّ الَّذِي بَعَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا جَعَلَ الْخِلَافَةَ فِي الْإِمَامِ الْعَادِلِ
وَسِعَ الْخِلَافَتُكَ عَدْلُهُ وَوَقَارُهُ حَتَّى ارْعَوْا وَأَقَامَ مِيلَ الْمَائِلِ^(٢)
إِنِّي لِأَرْجُو مِنْهُ نَفْعًا عَاجِلًا وَالنَّفْسُ مَوْلَعَةٌ بِحَبِّ الْعَاجِلِ
وَاللَّهِ أَنْزَلَ فِي الْكِتَابِ فَرِيضَةَ لِابْنِ السَّبِيلِ وَلِلْفَقِيرِ الْعَائِلِ

فَلَمَا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: يَا جَرِيرُ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَقُلْ إِلَّا حَقًّا، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

كَمْ بِالْيِمَامَةِ مِنْ شَعَثَاءِ أَرْمَلَةٍ وَمَنْ يَتِيمٍ ضَعِيفِ الصَّوْتِ وَالنَّظَرِ
مَمَّنْ بَعْدَكَ يُكْفِي فَقَدْ وَالِدُهُ كَالْفَرْخِ فِي الْعَشِّ لَمْ يَدْرَجْ وَلَمْ يَطْرُ

(١) مَنْبَلِجِ الصُّبْحِ: أَي ظَهْرُهُ وَطَلُوعُهُ.

(٢) ارْعَوْا: انصرفوا وامتنعوا عن الضلالة. وَأَقَامَ: سَوَّى وَعَدَلَ وَجَلَسَ.

أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
 إنا نرجو إذا ما الغيث أخلفنا
 إن الخلافة جاءت على قدر
 هذي الأرامل قد قضيت حاجتها
 الخير ما دلت حيا لا يفارقنا
 أم قد كفاني ما بلغت من خبري
 من الخليفة ما نرجو من المطر
 كما أتى ربه موسى على قدر
 فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر
 بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: والله يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين دينارًا فعشرة أخذها عبد الله ابني، وعشرة أخذتها أم عبد الله، ثم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحل مال اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوءكم خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإني عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيت رقى الجن لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن واقيا

سقطة الأحنف بن قيس

ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد: قال الأحنف الشريف: من عدت سقطاته، وقلت عثراته، وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكبو، وكان الأحنف بن قيس حليماً سيّداً يضرب به المثل، وقد عدت له سقطة وهو أن عمرو بن الأهم دسّ إليه رجلاً يسفهه فقال: يا أبا بحر ما كان أبوك في قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيدهم، ولم يتخلف عنهم، فرجع إليه ثانيًا، ففطن أنه من قبل عمرو بن الأهم، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوة ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أهتم سلاجًا.

في الكتابة والكتاب

قيل في هذا المجال:

أهدى بعض الكتاب إلى صديق له دفترًا وكتب معه: هديتي هذه، أعزك الله، تزكو على الإنفاق، وتربو على الكد. لا تفسدها العواري، ولا تخلقها كثرة التقلب. وهي أنس في الليل والنهار، والسفر والحضر. تصلح للعالم والآخرة، وتؤنس في الخلوة، وتمنع من الوحدة. محدث مطاوع، ونديم صادق.

قال بعض الحكماء:

الكتب بساتين العلماء. وقال آخر: ذهبت مكارم الأخلاق إلا في الكتب.

قال المنصور العباسي بن المهدي للمأمون: أحسن بنا طلب العلم والأدب؟ قال: والله لأن أموت طالبًا للأدب خير لي من أن أعيش قانعًا بالجهل. قال: فإلى متى يحسن ذلك؟ قال: ما حسنت الحياة لك.

قال علي بن أبي طالب (ع) لكميل بن زياد في العلم والمال:

يا كميل؛ العلم أفضل من المال بسبعة: إن العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الفراعنة. والعلم لا ينقص بالنفقة، والمال ينقص بها. المال يحتاج إلى الحافظ والعلم يحفظه. العلم يدخل الكفن، والمال لا يدخل. المال يحصل للمؤمن والكافر، والعلم لا يحصل إلا للمؤمن خاصة. جميع الناس يحتاجون إلى العلم في أمر دينهم، ولا يحتاجون إلى المال. العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط، والمال يمنعه.

وقال الجاحظ:

الكتاب وعاء مُلئ علمًا، وظرفٌ حُشي طرفًا، وإناءٌ شُحن مزاحًا. إن شئت كان أعيًا من باقل^(١)، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل^(٢)، وإن شئت سرّتك نوادره وشجّتك مواعظه.

مَنْ لك بواعظ مثله، وبناسك فاتك، وناطقٍ أخرس. وَمَنْ لك بشيء يجمع الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين؟

وبعد، فما رأيت بستانًا يُحمل في رُذن، وروضةٌ تُنقلُ في حجر. ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحلام. وَمَنْ لك بمونسٍ لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى. آمِنٌ من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السرّ، واحفظ للوديعة من أرباب الوديعة.

قيل لبعض الحكماء: ما مبلغ سرورك بكتبك؟

فقال: هي إن خلوت لذاتي، وإن اغتممت سلوتي. فإن قلت إن زهر البستان ونور الجنان يجلوان الأبصار ويمتعان بحسنهما الألحاظ، فإن بستان الكتب يجلو العقل ويشحذ الذهن، ويحيي القلب، ويقوي القريحة، ويعين الطبيعة، ويبعث نتائج العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويؤنس الوحشة بنوادره، ويسرّ بغرائبها، ويفيد ولا يستفيد، ويعطي ولا يأخذ.

ومما قاله بعض الأدباء عن الكتاب:

إن وعظ أسمع، وإن ألهى أمتع، وإن أبكى أدمع. يفيدك ولا يستفيد منك، ويزيدك ولا يستزيد. قبر الأسرار، ومخزن الودائع.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٤﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٥﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُن يَعْلَمُ ﴿٦﴾﴾ [العلق: الآيات ٣ - ٥]. وصف نفسه تبارك وتعالى بأن علّم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم. واعتدّ ذلك من نِعَمِهِ العظام، ومن أياديه الجسام.

(١) مثل يُضرب في العي، وهو عجز في المنطق والكلام. وباقل رجل من إيادٍ اشترى ظبيًا بأحد عشر درهمًا، فسئل عن الثمن فأشار بأصابعه ودلع لسانه فشرّد الظبي.

(٢) مثل يضرب في البلاغة. وقد خطب سحبان وائل في صلح بين حيين من العرب لساعات طوال فما أعاد كلمة.

قال أحمد شوقي:

أنا من بدّل بالكُتُبِ الصحابا لم أجد لي وافيًا إلا الكتابا
صاحبٌ إن عَيْنتُهُ أو لم تعِب ليس بالواجدٍ للصاحبِ عابا^(١)
صحبةٌ لم أشكُ منها ريبَةً وودادٌ لم يكلفني عتابا

قال مصعب بن الزبير^(٢): إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يسمعون. فإذا أخذت الأدب فخذ من أفواه الرجال فإنك لا ترى ولا تسمع إلا مختارًا لؤلؤًا.

وقال لقمان لابنه: يا بني، نafs في طلب العلم؛ فإنه ميراثٌ غير مسلوب، وقرين غير مغلوب، ونفيس حظ من الناس وفي الناس مطلوب.

أول من وضع الكتابة

أول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر الكتب، آدم عليه السلام، قبل موته بثلاثمائة سنة: كتبه في الطين ثم طبخه؛ فلما انقضى ما كان أصاب الأرض من الغرق وجد كل قوم كتابهم فكتبوا به، فكان إسماعيل عليه السلام وجد كتاب العرب.

وروى أبو ذر أن النبي ﷺ قال: إن إدريس عليه السلام هو أول من خط بالقلم بعد آدم ﷺ.

وعن ابن عباس أن أول من وضع الكتابة العربية: إسماعيل بن إبراهيم (ع) وكان أول من نطق بها، فوضعت على لفظه ومنطقه.

وعن عمرو بن شبة بأسانيده، أن أول من وضع الخط العربي، أبجدٌ وهوزٌ وحطي وكلمن وسعفص وقرشت. وهم قوم من الجبلية^(٣) الآخرة - وكانوا نزولاً مع عدنان بن أدد، وهم من طسم وجديس.

(١) العاب: العيب.

(٢) والي البصرة من قبل أخيه عبد الله بن الزبير. قتله المختار الثقفي سنة ٧١ هـ.

(٣) الجبلية: الأمة.

وَحُكِّيَ أَنَّهُمْ وَضَعُوا الْكُتُبَ عَلَى أَسْمَائِهِمْ. فَلَمَّا وَجَدُوا حُرُوفًا فِي الْأَلْفَاظِ لَيْسَتْ فِي أَسْمَائِهِمْ أَحَقَّقُوهَا بِهِمْ وَسَمَّوْهَا الرُّوَادِفَ؛ وَهِيَ: التَّاءُ، وَالخَاءُ، وَالذَّالُ، وَالضَّادُ، وَالظَّاءُ، وَالغَيْنُ، عَلَى حَسَبِ مَا يُلْحَنُ فِي حُرُوفِ الْجُمْلِ.

وَعَنهُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ وَضَعَ الْخَطَّ: نَفِيسٌ، وَنَصْرٌ، وَأَيْمَانٌ، وَبَنُو إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ. وَضَعُوهُ مُتَّصِلَ الْحُرُوفِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ حَتَّى فَرَّقَهُ. نَبَّتَ وَهَمِيسٌ وَقِيْدَرٌ.

وقيل: إن «أبجد هوز...» هي أسماء ملوك؛ وهم من ولد المحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم. وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا في ممالك منفصلة. فمنهم المسمى بأبي جاد «أبجد»، وكان ملك مكة وما يليها من الحجاز. وكان هوز وحطي ملكين ببلاد «وَجَّ» وهي أرض الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد. وكان كلمن وسعفص وقرشت ملوكًا بمدين - وقيل: ببلاد مصر. وكان كلمن على ملك مدين. ومن الناس من رأى أنه كان ملكًا على جميع من سمينا مشاعًا متصلًا، وأن عذاب «يوم الظلة»^(١) كان في ملك كلمن.

وحكوا أن ثلاثة نفر من طيء اجتمعوا ببقعة، وهم: مرامر بن مرة، وأسلم ابن سدره، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه قوم من الأنبار.

وقال المسعودي:

قيل: سار عبد ضخم بن أرم بن نوح بولده ومن تبعه فنزلوا الطائف، فهلك هؤلاء من غوائل الدهر، وذكرتهم الشعراء وفيهم يقول الأزدي:

وعبد ضخم إذا نسبتهم أبيض أهل الحي بالنسب
ابتدعوا منطقًا يجمعهم فبين الخط قمة العرب

وذكروا أن هؤلاء أول من كتب بالعربية - ووضع حروف المعجم وهي: أ، ب، ت التسعة والعشرون - وقد قيل غير ذلك.

(١) في التنزيل العزيز: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: الآية ١٨٩]. قيل: هي سحابة أظلمتهم فلجأوا إلى ظلها من شدة الحر فاطبقت عليهم وأهلكتهم.

وسار بعد عبد ضخم بن إرم، جرهم بن قحطان بولده ومن تبعه وطافوا البلاد حتى أتوا مكة فنزلوها. وفي ذلك يقول: مضاض بن عمرو الجرهمي:

هذا سبيلٌ كسبيل يعرب البادئ القول المبين المعرب
يا قوم سيروا عن فعال الأجنب جُرْهُمُ جدي وقحطان أبي

الكتابة في الإسلام

عندما جاء الإسلام لم يكن أحد يكتب بالعربية، غير سبعة عشر، هم: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد/ أخوه، وأبو حذيفة بن عتبة، ويزيد بن أبي سفيان، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، والعلاء بن الحضرمي، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعبد الله بن أبي سرح، وحويطب بن عبد العزّي، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية ولده، وجهيم بن الصلب بن مخزومة.

استفتاح الكتب

لم تزل تستفتح الكتب: باسمك اللهم، حتى أنزلت سورة «هود» وفيها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ يَجْرُنَهَا وَرُسُهَا﴾ [هود: الآية ٤١] فكتب بسم الله.

ثم نزلت سورة الإسراء: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: الآية ١١٠] فكتب بسم الله الرحمن. ونزلت بسورة النمل: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: الآية ٣٠] فاستفتح النبي بها وصارت سنة.

وكان النبي ﷺ يكتب إلى أصحابه وأمرائه جنوده: من محمد رسول الله إلى فلان.

وكذلك كانوا يكتبون إليه، بيدون بأنفسهم فمن كتب إليه وبدأ بنفسه: أبو بكر، والعلاء بن الحضرمي وغيرهما. وكذلك كتب الصحابة والتابعين. ثم لم تزل حتى ولي الوليد بن عبد الملك، فعظم الكتاب وأمر أن لا يكتبه الناس بمثل ما يكتب به بعضهم بعضاً، فجرت به سنة الوليد إلى يومنا هذا، إلا ما كان من

عمر بن عبد العزيز، ويزيد الكامل، فإنهما عملا بسنة الرسول ﷺ ثم رجع الأمر إلى الوليد والقوم عليه إلى اليوم^(١).

كتاب النبي ﷺ

كان حنظلة بن الربيع بن المرقع بن صيفي - ابن أخ أكثم بن صيفي الأسدي - خليفة كل كاتب من كتاب النبي إذا غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب. وكان يضع عنده خاتمة فقال له الزماني وأذكرني بكل شيء أنا فيه. وكان لا يأتي على مال ولا طعام ثلاثة أيام إلا أذكره، فلا يبيت ﷺ وعنده منه شيء.

ومر رسول الله يوماً بامرأة مقتولة يوم الفتح - فتح مكة - فقال لحنظلة: إحق خالدًا وقل له: لا تقتلن ذرية ولا عسيماً^(٢). ومات حنظلة بمدينة الرها، فقالت: فيه امرأة؛ وحكي أنه من قول الجن وهذا محال:

يا عجيب الدهر لمحزونة تبكي على ذي شئبة شاحب
إن تسأليني اليوم ما شقني أخبرك قياً ليس بالكاذب
إن سواد العين أودى به وجدي على حنظلة الكاتب

وكان الحصين بن نمير من بني عبد مناة شهد بيعة الرضوان، ودعا النبي ليكتب صلح الحديبية فأبى سهيل بن عمرو ذلك وقال: لا يكتب إلا رجل منا. فكتب علي بن أبي طالب.

وكان علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان يكتبان الوحي، فإن غابا كتب أبي بن كعب وزيد بن ثابت. فإن لم يشهد واحد منهما، كتب غيرهما. وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه.

وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس، وكانا ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا.

(٢) العسيف: الأجير.

(١) العقد الفريد ٢٣٩/٤ - ٢٤٤.

وكان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياهمهم، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء. وربما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك عن النبي ﷺ.

وكان زيد بن ثابت يكتب في عهد الرسول ﷺ إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي. وقيل إنه تعلم بالفارسية من رسول كسرى، وبالرومية من حاجب النبي ﷺ، وبالحبشية من خادم النبي ﷺ وبالقبطية من خادمه.

وروى زيد بن ثابت قال: كنت أكتب بين يدي الرسول ﷺ يوماً فقام لحاجة، فقال لي: ضع القلم على أذنك فإنه أذكرك للمُتلي وأقضى للحاجة.

أيام أبي بكر رضي الله عنه

كان يكتب لأبي بكر عثمان بن عفان وزيد بن ثابت. وروى أن عبد الله بن الأرقم كتب له، وأن حنظلة بن الربيع كتب له أيضاً. ولما تقلد الخلافة دعا زيد بن ثابت، وقال له: أنت شاب عاقل لا نتهمك على رسول الله ﷺ كنت تكتب الوحي. ففتح القرآن فاجمعه. وفيه يقول حسان بن ثابت:

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت

أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كتب لعمر بن الخطاب: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الأرقم، وعبد الله بن خلف الخزاعي. وكتب له على ديوان الكوفة أبو جبيرة بن الضحاك ثم حبيب بن سعد القيسي.

أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه

كان يكتب لعثمان مروان بن الحكم. وكتب له عبد الملك بن مروان على ديوان المدينة، وأبو حبترة على ديوان الكوفة، وعبد الله بن الأرقم على بيت المال. وكتب له أيضاً أبو غطفان بن عوف، ومولياه أهيب وحُمران.

أيام علي بن أبي طالب عليه السلام

كان يكتب له سعيد بن نمران الهمداني. وكتب له عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن أبي رافع، وسماك بن حرب. وروى أن عبد الله بن حسن كتب له^(١).

(١) العقد الفريد ٤/٢٤٦.

الكتابة قبل التاريخ

أقدم الرموز التصويرية المعروفة هي تلك التي وجدت في «فلنדרز يشرى» على قطع من فخار وأنية على قطع الحجر، مما كُشف عنه في مقابر ما قبل التاريخ في مصر وإسبانيا والشرق الأدنى. وهذه الرموز التي وجدت في حوض البحر المتوسط - تبلغ ما يقرب من ثلاثمائة رمز ومعظمها متشابه في جميع الأرجاء جمع عهدها إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولم تكن هذه الرموز صورًا بل كانت في معظمها علامات تجارية. ولم تكن العلامة حروفًا - لأن العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة أو فكرة بأسرها.

الكتابة الهيروغليفية

ما جاءت سنة ٣٦٠٠ ق.م - وقد يكون قبل ذلك التاريخ - حتى كانت عيلام وسومر ومصر قد طوّرت مجموعة من الصور التي يُعبّرون بها عن أفكارهم، وأطلقوا عليها اسم «الكتابة الهيروغليفية» لأن معظم من قام بها كان من الكهنة. وظهرت مجموعة أخرى من هذه الصور شبيهة بتلك في كريت سنة ٢٥٠٠ ق.م.

وقد استحال هذه الكتابة الهيروغليفية التي تمثل كل صورة منها فكرة - استحالت بخطأ الاستعمال بما تناولها من تنسيق وتنظيم عرفي إلى مقاطع، أو مجموعة من الرموز، يدل كل منها على مقطع. ثم إنها استخدمت العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله، بل على أول ما فيه من أصوات وبهذا أصبحت حروفًا. وربما كان تاريخ الكتابة الهيروغليفية يرتد إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد في مصر.

أحرف الهجاء قبل الميلاد

ظهرت في كريت حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م أن الفينيقيين لم يخلقوا أحرف الهجاء ولكنهم اتخذوا منها سلعة للبيع والشراء. فقد أخذوها فيما نظن من مصر وكريت، وأدخلوها جزءًا جزءًا في صور وصيدا وبييلوس، ثم أصدروها إلى كل مدينة من مدن البحر الأبيض المتوسط. ثم في عصر هومر، أخذ اليونان هذه الأحرف - ويطلقون عليها الاسميين الساميين للحرفين الأولين وهما: ألفا بيتا.

أصول اللغة البشرية

إن اللغات البدائية كانت تنحصر في حدود الحس والجزء. وهي بصفة عامة فقرة من الأسماء الكلية المجردة. وفي أكثر القبائل لا تجد ألفاظًا تدل على الألوان مجردة عن الأشياء الملونة، ولا تجد عندها كلمات لتدل على مجردات مثل: نغمة، جنس، نوع، غريزة، عقل، كمية، أمل، خوف، مادة الخ... فمثل هذه الألفاظ المجردة تتكون وتتزايد فيما يظهر مع تقدم الفكر، لأن بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبب. وهي بعد تكوينها تصبح أدوات تعين على دقة التفكير، ورموزًا تدل على الحضارة^(١).

الكتابة البابلية

كان البابليون يكتبون بالخط المسماري على ألواح من الطين الرطب بقلم ذي طرف شبيه بالمنشور الثلاثي أو الأسفين. فإذا امتلأ اللوح كتابة جففوه أو أحرقوه، فكان بذلك مخطوطًا غريبًا طويل البقاء. وإذا كان المكتوب رسالة نثر على التراب الناعم. ووضعت في مظروف من الطين - وبصمت بخاتم مرسلها الأسطواني. وكانت الألواح الطينية المحفوظة في جرار مصنفة ومرتبة على رفوف تملأ عددًا كبيرًا من المكتبات في هياكل الدولة البابلية وقصورها. وقد ضاعت هذه المكتبات؛ ولكن واحدة من أعظمها، وهي مكتبة بارسبا، قد نسخت وحفظت في مكتبة آشور بانيبال، وكانت ألواحها البالغ عددها ٣٠,٠٠٠ لوح أهم مصدر استقيننا منه معلومات عن الحياة البابلية.

الحروف البابلية

لقد حيرت الكتابة البابلية العلماء فظلوا مئات السنين عاجزين عن حل رموزها. لكن جورج جروتفند أستاذ اللغة اليونانية في جامعة جوتنجن أبلغ المجمع العلمي في تلك المدينة عام ١٨٠٢م أنه ظل عدة سنين يواصل البحث في بعض المخطوطات المسمارية التي فصلت إليه من بلاد فارس القديمة، وأنه استطاع آخر الأمر أن يتعرف على ثمانية من الاثني والأربعين حرفًا المستعملة في هذه النقوش وأنه ميّز ثلاثة من أسماء الملوك المدونة فيها.

(١) سيد قطب؛ النقد الأدبي ص ٨٣ - ٨٤.

وفي عام ١٨٣٥م استطاع - هنري رولنس - أحد موظفي السلك السياسي البريطاني في إيران - على غير علم منه بما توصل إليه جروتفند - أن يقرأ ثلاثة أسماء هي (هشبس - ودارا - وحشيارشاي) في نقش مكتوب بالخط الفارسي القديم وهو خط مسماري مشتق من الكتابة البابلية وأمكنه بفضل هذه الأسماء أن يقرأ الوثيقة كلها في آخر الأمر.

حجر رشيد بابلي

لكن هذه الكتابة وإن كانت مشتقة من الكتابة البابلية لم تكن هي البابلية نفسها. وقد بقي على رولنس أن يعثر على حجر رشيد بابلي كما عثر شمبليون على حجر رشيد مصر، أي على نص واحد باللغتين الفارسية القديمة والبابلية. وهذا ما عثر عليه في مكان يعلو عن سطح الأرض نحو ثلاثمائة قدم. وكان هذا النقش على صخرة يتعذر الوصول إليها عند بهستون في جبال ميديا، حيث أمر دارا الأول الحفارين أن يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات: الفارسية القديمة، والأشورية والبابلية. وظل رولنس يوماً بعد يوم يرقى هذه الصخرة مُعْرِضًا بذلك حياته لأشد الأخطار - وكثيرًا ما كان يشد نفسه بحبل وهو ينسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة حتى لقد كان أحيانًا يطبع النقش كله على عجينة لينة.

وبعد جهد دام اثنتي عشرة سنة كاملة، نجح في ترجمة النصين البابلي والآشوري (١٨٤٧).

اللغة البابلية

اللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكد. وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مرّ الأيام (كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) وربع الألواح التي عثر عليها المنقبون في المكتبة الملكية بنيوى هي معاجم في اللغات السومرية والبابلية والأشورية وكتب في نحوها وصرفها. وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل في القدم هو عهد سرجون ملك أكد. وقد كشفت بعض أعمال الحفر عن حجرة دراسية قديمة وجدت على أرضها ألواح طينية لبنين وبنات كتبت فيها حكم أخلاقية تحث على الفضيلة قبل مولد المسيح بنحو ألفي عام.

كان البابليون، كالفينقيين، ينظرون إلى الكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية. ولذلك لم يضيعوا كثيرًا من طينهم في كتابة الأدب. ونجد في ألواحهم قصصًا منظومة على لسان الحيوان. وهي نوع من أنواع لا حصر لها من القصص الخرافية، ونجد عندهم كثيرًا من كتب التاريخ. ذلك أن المؤرخين الرسميين كانوا يسجلون تواريخ الملوك - وما يصيب كل هيكل من عوادي الدهر. ويقصّ علينا بروسس أشهر المؤرخين البابليين تفاصيل وافية عن خلق العالم وتاريخ الإنسان في عهده الأول. ويقول إن الله اختار أول ملك من ملوك بابل ليتولّى حكمها، وإنه حكمها ستة وثلاثين ألف عام. كما يقدر في دقة الزمن الذي مضى من خلق الأرض إلى أيام الطوفان الأعظم بستمائة وواحد وتسعين ألفًا ومائتين من السنين^(١).

أوغاريت

- مهد الكتابة الهجائية - وصناعة حروف الهجاء

أوغاريت حضارة ومدنية قديمة... ولكن آثارها بقيت طي المجهول حتى سنة ١٩٢٩ فلا المؤرخون ولا علماء الآثار عرفوا أي شيء عن أوغاريت التي ظهرت حضارتها في الألف السابعة وازدهرت في الألف الثانية قبل الميلاد. فحتى سنة ١٩٢٩ ظلت الكتابة الهجائية لغزًا من الألغاز المستعصية... فهي اختراع أوغاريتي كنعاني ولا ريب... نشره الفينيقيون وأخذه عنهم أهل الغرب والشرق.

ولكن الفضل لابتكار الأبجدية إنما يعود إلى الكنعانيين الساميين، الذين استوطنوا أوغاريت واستقرّوا فيها قرونًا عديدة قبل أن يرتحلوا عنها إلى شواطئ لبنان حيث تقوم الآن صيدا وصور وجبيل وغيرها.

والأوغاريتيون هم من الكنعانيين والساميين، وهم سكان المنطقة الأصليين، سكان سوريا ولبنان وفلسطين وما إليها. انتشرت جموعهم في أرجائها، وسادت حضارتهم وذلك في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد - وكانت أوغاريت بالتحديد إحدى المدن الكنعانية.

(١) قصة الحضارة: ٢/٢٣٨.

أقدم أثر للكتابة من أيام السومريين

أول صورة ظهرت فيها الكتابة لم تزد على نقوش ساذجة؛ يصورها كاتب أو ينحتها ناحت على صخر، ثم أصبحت نقشًا بمسماز على أقراص من الطغال (الطين اليابس) وقد وجدت في كلوديا، ووجد على أحدهما قصة الطوفان - ولعلها أقدم أثر مكتوب.

أقدم كتاب

أقدم كتاب انتهى إلينا علمه «كتاب الموتى» الذي دُونَ في عصر بناء الهرم الأكبر، ولا تزال نسخة منه محفوظة في المتحف البريطاني. وفيه دعوات للآلهة وأناشيد وصلوات، ثم وُضف لما تلاقيه أرواح الموتى في العالم الآخر من حساب، وما يلحقها من عقاب وثواب. وهناك الدعوات وهي ما يدافع به الميت عن نفسه.

أوراق البردي

البردي نبات مائي ينمو في مصر. تؤخذ سوقه وتضغظ وتجفف ثم تضع منها الأوراق. وكانت مصر تبعث بهذه الأوراق البردية إلى اليونان وروما وغيرهما من البلدان.

وعلى هذه الأوراق كتبت روائع الأدب اليوناني واللاتيني - حتى أن كتب فرجيل وهوميير - كتبت على ورق البردي. ومن قبل كانت الكتابة على جلود الجواميس والبقر والغنم.

وكانت العرب تكتب في أكتاف الإبل وفي العسب - وهي جريدة النخل - كما كانوا يكتبون في الجلد. وفي هذا كله كتب القرآن الكريم، أول ما نزل على النبي ﷺ، فكانوا يكتبون الآيات في العسب واللخاف وعظام الأكتاف والأضلاع والأدم والجلد.

وقد أرسل النبي محمد ﷺ رسالة إلى المقوقس يدعو للإسلام على جلد حيوان ولا تزال في المتحف الإسلامي في إستنبول.

الورق

استخدم المصريون الورق من سيقان البردي ٤٣٠ ق.م - واستمرت هذه الصناعة حتى سنة ١٢ ق.م حيث قام الصينيون بتجربة جديدة لصناعة الورق باليد، من أشجار الثوب والخرق مع بعض الأدوات.

وحتى عام ٧٥١ م كانت صناعة الورق لا تزال وقفًا على الصينيين حتى أقيم أول مصنع للورق في بغداد عام ٩٧٣ - في عهد هارون الرشيد، ثم امتدت صناعته إلى فارس ومصر وبلاد المغرب ومنها إلى اسبانيا ثم امتدت إلى فرنسا - كما وصلت بعد ذلك إلى صقلية خلال الفتح العربي - ومنها إلى النمسا وإيطاليا وجنوب ألمانيا في القرن الثالث عشر - وإلى أميركا عام ١٦٦٠ م .

وسنة ١٧٩٧ توصل العالم الفرنسي - لويس روبرت - إلى اختراع آلة لصناعة الورق .

وأول مصنع للورق أنشئ في البلاد العربية كان سنة ١٩٠٢ في القاهرة^(١) .

أول ما استخدم المسلمون الورق

كان المسلمون حتى أوائل القرن الثالث للهجرة يكتبون على الرقوق أو البردى . وقد زُوِيَ أن بعض الطروس التي انتُهبت في أثناء الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون مَحِيَتْ الكتابة عنها - وبيعت ثانية لتُستعمل من جديد .

بعد القرن الثالث أخذ الورق الصيني يرد إلى العراق، إلا أن صناعة الورق ما لبثت أن أتقنها أهل البلاد أنفسهم من طريق الأسرى الصينيين الذين أدخلوا إلى البلاد الإسلامية سنة ٧٥١ م .

استعمل العباسيون الأسرى الصينيين، وكان بينهم أحد العلماء، في صنع الورق من القُنب والكتان وألياف الحشيش . ولعل اسم الورق العربي القديم - كاغد - هو لفظ صيني الأصل جاء عن طريق الفارسية . ومن سمرقند تطرقت هذه الصناعة إلى العراق . وكان أول مَنْ أدخلها إلى بغداد الفضل بن يحيى البرمكي الذي كان عامل خراسان سنة ٧٩٤ م .

ثم قام أخوه فاستعمل الورق بدل الرقوق في دواوين الحكومة . وسلكت مدن أخرى سبيل بغداد، فانشأت مصانع الورق على الأصول المنيعَة في سمرقند .

ونشأ معمل في تهامة لصنع الورق من ألياف الحشيش . وكان ورق سمرقند في زمن المقدسي لا يزال أفخر ما يُصنع .

(١) انظر تاريخ العلوم عند العرب لعمر فروخ .

وفي القرن الحادي عشر للميلاد - ظهرت أنواع من الورق الفاخر كانت تُصنع في سوريا، كطرابلس مثلاً. وقد سرت هذه الصناعة في أواخر القرن التاسع من غربي آسيا إلى الدلتا حيث كان يُستعمل الكتابة بالقرايطيس.

وما أتى القرن العاشر حتى حلّ الورق محلّ البردى والرقوق في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي.

المعتصم وبناء المعامل

يقال أن المعتصم بالله الخليفة العباسي - ينسب إليه الفضل في إنشاء معامل الصابون والزجاج في بغداد وسامراء وسواهما - وقد نشط الورق أيضًا وصناعته.

وإن أقدم ما تحدرّ إلينا من المخطوطات العربية المكتوبة على الورق - مخطوطة «غريب الحديث» لأبي القاسم ابن سلام - المتوفى ٨٧٧ م - وقد كتبت في ذي القعدة سنة ٢٥٢ هـ وهي محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني لبحث اللاهوت تأليف - أبي قرّة - وهي أول مخطوطة محفوظة لمؤلف نصراني - ونرى أن صناعة الورق دخلت أخيرًا أوروبا المسيحية عن طريق الأندلس وإيطاليا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر - وفي أوروبا حيث تمّ اختراع الطباعة المتحركة ١٤٥٠ م تمكن الاثنان الورق والطباعة من نشر العلوم والمعارف التي تتمتع بها أوروبا وكذلك أميركا^(١).

الكتابة العربية

الكتابة: خطية وإنشائية

الكتابة الخطية: كان الخط في مبدأ الإسلام هو الخط الأنباري الحميري المسمى بعد انتقاله إلى الحجاز بالحجازي، وهو أصل النسخ. وكان يكتب به النزل اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصة، فلما انتصر النبي ﷺ على قريش يوم بدر، وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتاب، فقبل الفداء من أميهم، وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة، فانتشرت الكتابة بين المسلمين، وحضّ النبي ﷺ على تعلّمها. ومن أشهر كتاب الصحابة: زيد بن

(١) تاريخ العلوم عند العرب؛ عمر فروخ.

ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

ولما فتح المسلمون الممالك، ونزلت جمهرة الكتاب منهم الكوفة، عنوا بتجديد الخط العربي وهندسة أشكاله حتى صار خط أهل الكوفة ممتازًا بشكله على الخط الحجازي، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو (الكوفي)، وبه كانت تكتب المصاحف وحلى القصور والمساجد وسك النقود.

وكان الصحابة وتابعوهم يكتبون بلا إعجام ولا شكل إلا قليلًا اعتمادًا منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة واكتفائهم بالرمز القليل في قراءة اللفظ، فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم وظهر اللحن والتحريف (اتفق المسلمون على تحريف كلم الكتاب الكريم). فوضع أبو الأسود الدؤلي علامات في المصاحف بصيغ مخالفة. فجعل الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة أسفله، والضمة نقطة من الجهة اليسرى، وجعل التنوين نقطتين.

ووضع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بأمر الحجاج نقط الإعجام بنفس المراد الذي يكتب به الكلام، حتى لا يختلط بنقط أبي الأسود. وكان ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان، ثم شاع في الناس بعد.

أما الكتابة الإنشائية: فهي كتابة رسائل ودواوين، وكتابة تدوين وتصنيف.

التدوين والتصنيف

انقضى زمن الخلفاء الراشدين ولم يدون فيه كتاب إلا ما كان من أمر كتابة المصحف - وكان مرجع الناس في أمر دينهم وديانهم كتاب الله وستة رسوله. فإذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة.

ثم لما انتشر الإسلام في زمن بني أمية واختلطت العرب والعجم، ففسدت فيهم ملكة اللسان العربي، وفشا اللحن، وأشفقوا على القرآن من التحريف، دونوا النحو. وكان أول من كتب فيه أبو الأسود الدؤلي. وقد تلقى مبادئه عن الإمام علي، وأخذ عنه فتیان البصرة، وخصوصًا الموالي إذ كانوا أحوج الناس إلى النحو. واشتغل به أهل الكوفة بعد أن فشا في البصرة.

ولم ينقض هذا العصر حتى اشتغل به طبقتان من البصريين وطبقة من الكوفيين. ثم لما حدثت الفتن وتعددت المذاهب والنحل وكثرت الفتاوى والرجوع

فيها إلى الرؤساء ومات أكثر الصحابة، خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم، ويتركوا سنة الرسول، فأذن عمر بن عبد العزيز، لأبي بكر محمد بن عمرو بن حزم في تدوين الحديث. وانقضى هذا العهد ولم يدون فيه من علوم اللغة والدين غير النحو وبعض الحديث - وبعض التفسير. أما العلوم الأخرى فيروى أن خالد بن يزيد بن معاوية تُرجم له بعض كتب اليونان ووضع كتبًا في الطب وأن معاوية استقدم عبيد بن شبرمة من صنعاء فكتب له كتاب «الملوك وأخبار الماضي» - وأن وهب بن منبه الزهري وموسى بن عقبة كتبا في ذلك أيضًا، وأن زياد ابن أبيه وضع لابنه كتابًا في مثالب قبائل العرب، وأن ماسرُجويه متطبّب البصرة تولّى في الدولة المروانية ترجمة كتاب أهرون بن أعين من السريانية إلى العربية وأن يونس الكاتب ابن سليمان ألف كتابًا في الأغاني ونسبتها إلى من غنى بها، ولم يبلغ التصنيف شأوا يذكر.

الكتابة الخطية في العهد العباسي

تنوع في هذا العصر الخط الكوفي إلى أنواع أربت على خمسين نوعًا ومن أشهرها: المحرّر، والمشجّر، والمربع، والمدور، والمتداخل - وبقي مستعملًا في المباني والسكة إلى حدود الألف، ثم نسي جملة.

وقد جددت منه أنواع في عصرنا. أما تاريخ خطنا المستعمل الآن فحدث في آخر الدولة الأموية أن استتبط (قطبة) المحرر من الخط الكوفي والحجازي خطًا هو أساس الخط الذي يكتب الآن به، واخترع القلم الجليل الذي يكتب به على المباني ونحوها وقلم الطومار (الورقة الكبيرة). وهو أصغر أنواع الجليل، وحسن عمله غيره من كتاب صدر الدولة العباسية حتى ظهر إبراهيم الشحري وأخوه يوسف من كتاب أواخر القرن الثاني. فولد إبراهيم من الجليل قلم الثلثين، وولد يوسف من الجليل القلم الرياسي - وهو قلم التوقيع - وعن إبراهيم أخذ الأحوال المحرر واخترع قلم النصف.

هذه هي أشهر الخطوط. وقد تولد منها نحو ٢٠ خطًا يختص كل منها بغرض خاص، واتفقوا على أن طول الألف يعتبر معيارًا لارتفاع بقية الحروف، وأن يكون طول الألف مربعًا مقدار قطة القلم.

وعن الأحوال أخذ مهندس الخط الأعظم، الوزير «أبو علي محمد بن مقله، وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ هـ. وهما اللذان تم على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التي نعرفها الآن، وأما العمل الذي بدأه قطبة فهندسا الحروف وقَدَّرا مقياسها وأبعادها وضبطها ضبطاً محكماً واخترعا له القواعد. وعن الوزير ابن مقله أخذ أبو عبد الله بن أسد القاري المتوفى سنة ٤١٠ هـ، وعنه أخذ أبو الحسن علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ هـ وهو الذي أكمل قواعد الخط واخترع عدة أقلام - وإليه انتهت الغاية.

وكل من جاء من بعده فهو تابع لطريقته، كأمين الدين ياقوت المكي المتوفى سنة ٦١٨ هـ كاتب السلطان ملكشاه السلجوقي. أما الأندلسيون والمغاربية فلم يعبأوا بهذا الاصطلاح وبقوا يكتبون على طريقة الخط الحجازي إلى الآن بنوع من التعديل. واخترع الجليل الشكل المستعمل الآن بأن كتب الضمة واوًا تكتب فوق الحروف، والفتحة ألفًا، والكسر باء، والشدة رأس شين، والسكون رأس خاء، وهمزة القطع رأس عين، ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت إلى الشكل المعروف الآن^(١).

أشهر كُتَّاب الدولة العباسية

هم: أبو سلمة الخلال، ويحيى بن خالد البرمكي، وابناه جعفر والفضل، ثم محمد بن الزيات في زمن المعتصم والواثق، وابن المقفع، وإسماعيل بن صبيح، وعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، والحسن بن وهب، وعلي بن الفرات، وابن مقله، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبو بكر الخوارزمي، والبيديع، والصابي، والعماد الكاتب، والقاضي الفاضل.

ومن أشهر كتاب الأندلس: ابن شهيد، وأبو المطرف بن عميرة، وابن زيدون، ولسان الدين بن الخطيب.

ابن مقله

هو الوزير أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقله إمام الخطاطين، وأحد كبار الكتاب البارعين. أخذ الخط عن الأحوال المحرر صنيعة البرامكة، وتم على

(١) جواهر الآداب ١٦١/٢ - ١٦٢.

يديه ويدي أخيه الحسن نقل الخط من الكوفي إلى الشكل المعروف في زماننا. وكان ابن مقلة يتولى في أول أمره بعض أعمال فارس، يجبي خراجها. وتنقلت به الأحوال إلى أن استوزره الإمام المقتدر بالله العباسي ٢١٦ هـ - ثم كاد له أعداؤه عنده فقبض عليه سنة ٢١٨ هـ ونفاه إلى فارس.

ثم وزر للراضي فوشى به أعداؤه عنده فقبض عليه وعزل. ثم أطمعه نحسه أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة، فقبض عليه ابن رائق وقطع يمينه ثم عاد فقطع لسانه أيضًا - فمات سنة ٢٢٨ هـ ومن قوله في تلك الحوادث:

إذا ما مات بعضك فابك بعضًا فإن البعض من بعض قريب
وقوله:

ما سئمت الحياة لكن توثقت بأيمانهم فبان يميني
بعث ديني لهم بدنياي حتى حرموني دنياهمو بعد ديني
ولقد حطت ما استطعت بجهدى حفظ أرواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيش يا حياتي بان يميني فبيني^(١)

كتابة الرسائل في العصر العباسي الثاني

يمتاز القرن الرابع الهجري بنهضة أدبية مباركة. فقد ظهر فيه كثير من أعلام البيان من بينهم طائفة من الوزراء، وذاع استعمال السجع في الرسائل. وقد وصف - متز - هذه الرسائل في هذه العبارة فقال: «إن رسائل القرن الرابع الهجري هي آية الفن الإسلامي، ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون وهي اللغة. ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن، لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق، وامتلاكهم ناصية البيان في أصعب صورة، وتلاعبهم بذلك لعبًا. وليس من محض الاتفاق أن يكون كثير من وزراء ذلك العهد أساتذة البيان وإعلامه. لذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليفة بأن تُشر كتبًا للناس.

(١) جواهر الأدب: ١٦٢/٢ - ١٦٣.

وكان من أولئك الوزراء: الخصيبي، وابن مقلة، والمهلبى، وابن العميد، والصاحب بن عباد، والإسكافي وزير السامانيين، وإبراهيم بن هلال الصابي الذي تقلد ديوان الإنشاء في بغداد سنة ٣٤٩ هـ.

أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي (٣٢٠ - ٣٨٤ هـ)

يعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الحراني من أشهر رجال الأدب في هذا العصر، وقد ولد ببغداد، ووصفه الثعالبي في هذه العبارة فقال: «أوحد العراق في البلاغة، ومَن به تشنى الخناجر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة».

وقد تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ، في عهد معز الدولة بن بويه ثم في عهد ابنه عز الدولة بختيار. وأثار كراهة عضد الدولة برسائله اللاذعة على لسان بختيار فحقد عليه واعتقله بعد أن استولى على السلطنة بالعراق على أثر قتل بختيار سنة ٣٦٧ هـ ثم أطلقه في سنة ٣٧١ هـ بشفاعة بعض أصدقائه وأمره أن يضع كتابًا في أخبار بني بويه سماه «التاجي». وقد قيل إن عمال السوء سعوا بالصابي عند عضد الدولة وأوغروا صدره وأثاروا سخطه وحركوا ضغنه عليه - على الرغم من أنه أكب على تأليف هذا الكتاب، وأخذ يتأنق في تصنيفه وترصيفه، وينفق من روحه على تقريره وتشنيفه. ورفع إلى عضد الدولة أن صديقًا للصابي دخل عليه يومًا فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبديل والتبييض، فسأله عما يعمل من ذلك فقال: أباطيل أنمقها وأكاذيب ألقها، فأمر عضد الدولة أن يلقي تحت أرجل الفيلة. فأكب نصر بن هارون ومطهر بن عبد الله، وعبد العزيز بن يوسف على الأرض يقبلونها بين يديه ويستنفعون إليه في أمره ويتلطفون في استيهاب دمه إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه وعلى أمواله.

وكان هلال بن الصابي متمسكًا بدينه على الرغم مما بذله الخلفاء والسلاطين والوزراء من جهود لتحويله إلى الإسلام، حتى أن بختيار عرض عليه الوزارة إذا أسلم، وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويساعدهم على صيام شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظًا يدور على طرق لسانه وسن قلبه^(١).

(١) عن تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن.

بديع الزمان الهمداني

كان زعيم هذا النوع من الكتابة - أحمد بن الحسين الهمداني المعروف ببديع الزمان توفي سنة ٣٩٨ وكما وصفه الثعالبي: «معجزة همدان ونادرة الفلك، وبكر عطار^(١)»، وفرد الدهر، وغرة العصر، ومَن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف النفس وصفاء الذهن وقوة النفس. ومَن لم يدرك في ظرف النثر وملحه وغرره ودرر النظم ونكهته، ولم يُر ولم يروَ أن أحدًا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب وبيدائع وغرائب. فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي يسميها، وهي أكثر من خمسين بيتًا، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها، لا يخرم حرفًا ولا يخلُ بمعنى. وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة، ثم يهدّها^(٢) عن ظهر قلبه ويسردها سردًا».

كان يُقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب، فيفرغ منها في الوقت والساعة.

«اتصل ببديع الزمان بالصاحب بن عباد. وأخذ عنه، كما اتصل بأبي بكر الخوارزمي. ومن رقعة له: «يعز عليّ - أيد الله الشيخ - أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي، ويسعد برؤيته رسولي قبل وصولي، ويرد مشرع الأنس به كتابي قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمّة؟»:

وعليّ أن أسعي ولي - س عليّ إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبّلت جداره، وما بي حبّ الحيطان ولكن شغف بالقطان، ولا عشق للجدران ولكن شوق إلى السكان».

وكان ببديع الزمان بخلاف الخوارزمي، سنيا مغالياً في عقائد هذا المذهب، وكان على أثر ذلك أن دبّ الخلاف بينهما، فتقارعا وتساخلا، وكانت الغلبة لبديع الزمان الذي ذاع صيته خاصة بعد موت الخوارزمي.

(١) قال الأزهري: عطار كوكب الكتاب. ومعناه أن الذين يولدون في طلوع عطار يكونون ذوي حظ في الأدب والكتابة والشعر.

(٢) الهدّ: السرعة في القراءة.

ومن قول بديع الزمان في تعزية: «الموت خطبٌ قد عظم حتى هان، وأمرٌ قد خشن حتى لان، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجئت حتى صار الحمام أصغر ذنوبها. فلتنتظر يمناً هل ترى إلا محنة؟ ثم لتعطف يسرة هل ترى إلا حسرة؟»^(١).

أبو الفتح البستي

وهناك رجل آخر من رجال الرسائل المشهورين، هو أبو الفتح علي بن محمد البستي الذي اشتهر بخدمته في الشعر والنثر. وقد أمر سبكتكين أبو السلطان محمود الغزنوي بإحضاره حين فتح مدينة - بست - فدخل في خدمة سبكتكين وأصبح كاتب الرسائل في ديوانه وشاعر بلاطه، ثم خدم ابنه محموداً بعد وفاته، ومات في منفاه ببخارى سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م. وقد حذق الصناعة البديعة التي اشتهرت في زمانه على يد ابن العميد والصاحب وغيرهما. وكانت له طريقة جميلة في التجنيس خاصة.

فمن ألفاظه البديعة قوله: «مَنْ صلح فاسده أرغم حاسده، ومَنْ أطاع غضبه أضرأع أدبه. عادات السادات سادات العادات. من سعادة جدك وقوفك عند حدك. الرشوة رشاء الحاجات. أجهل الناس مَنْ كان للإخوان مُدلاً وعلى السلطان مُدلاً: الفهم شعاع العقل. المنية تضحك من الأمانة. حد العفاء الرضا بالكفاف. ما لخرق الرقيق ترقيق».

وقد ذاعت أشعار البستي في زمانه وحفظها الناس وتناقلوها. وكثير منها كان يروى على ألسنة الرواة في مجالس القاهرة ومقاهيها، من ذلك القصيدة التي مطلعها:

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران
ومنها:

أحسِن إلى الناس تستعبد قلوبهمُ فطالما أستعبد الإنسان إحسان

(١) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن.

اللغة العربية في مالطة

كتب أحمد فارس الشدياق في القرن الماضي بعد أن عاش في مالطة أربع عشرة سنة كتابًا أسماه «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» يحتوي دراسة شيقة حول لماذا اندثرت اللغة العربية من صقلية وسردينيا والأندلس وجنوب فرنسا وبقيت في مالطة... ويسلم بأن اللغة المالطية لغة عربية فاسدة. ويجب بعد ذلك أن أصل لغة تلك البلاد اللاتينية، أما لغة مالطة فكانت الفينيقية.

وعندما دخلها اليونانيون لم يخرجوا منها الفينيقية، وأنها لم تتغير زمن القرطاجيين لأن لغة هؤلاء كانت أيضًا فينيقية. ويضيف: ... والفينيقية كانت أخت العربية. وعندما جاءتهم العربية كانت كأنها نزلت في وطنها، وثبتت فيها ثباتًا لم يزلله خروج المسلمين.

يضاف إلى ذلك أنه حتى في عصر الفرسان شكّل الفرسان طبقة معزولة مميزة عن الشعب المالطي الذي استمرّ يتحدث لغته.

قصص متفرقة

بَنُو أَسَدٍ وَامْرَأُ الْقَيْسِ (١)

قَدِمَ عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرِ الْكِنْدِيِّ بَعْدَ مَقْتَلِ أَبِيهِ رَجَالَاتٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، فِيهِمُ الْمُهَاجِرُ بْنُ خِدَاشٍ، وَعَبِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ، وَقَبِيصَةُ بْنُ نَعِيمٍ؛ وَكَانَ رَجُلًا مَقِيمًا فِي بَنِي أَسَدٍ، ذَا بَصِيرَةٍ بِمَوَاقِعِ الْأُمُورِ وَرِزْدًا وَإِصْدَارًا، يَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُ مَنْ كَانَ مُحِيطًا بِأَكْنَافِ بَلَدِهِ مِنَ الْعَرَبِ.

فَلَمَّا عَلِمَ امْرَأُ الْقَيْسِ بِمَكَانِهِمْ أَمَرَ بِإِنْزَالِهِمْ، وَتَقَدَّمَ فِي إِكْرَامِهِمْ وَالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ، وَاحْتَجَبَ عَنْهُمْ ثَلَاثًا.

فَقَالُوا لِمَنْ بِيَابِهِ مِنْ رَجَالِ كِنْدَةَ: مَا بَالُ الرَّجُلِ لَا يَخْرُجُ إِلَيْنَا؟ فَقِيلَ لَهُمْ: هُوَ فِي شُغْلٍ بِإِخْرَاجِ مَا فِي خَزَائِنِ حُجْرٍ مِنَ الْعُدَّةِ وَالسَّلَاحِ. فَقَالُوا: اللَّهُمَّ غَفْرًا! إِنَّمَا قَدِمْنَا فِي أَمْرٍ نَتَنَاسَى بِهِ ذَكَرَ مَا سَلَفَ، وَنَسْتَدْرِكُ بِهِ مَا فَرَطَ؛ فَلْيَبْلُغْ ذَلِكَ عَنَّا.

(١) الأغاني: ٩ - ١٠٣ (طبعة دار الكتب)، صبح الأعشى: ٣ - ١٢٦.

فخرج إليهم بعد ثلاثٍ في قَبَاءٍ وَخُفٍّ وَعِمَامَةٍ سَوْدَاءٍ - وكانت العرب لا تعتمُ بالسَّوَادِ إِلَّا فِي التَّرَاتِ^(١) - فلما رَأَوْهُ نَهَضُوا لَهُ، وَبَدَّرَ إِلَيْهِ قَبِيصَةَ فَقَالَ:

إِنَّكَ فِي الْمَحَلِّ وَالْقَدْرَ وَالْمَعْرِفَةَ بِتَصْرُفِ الدَّهْرِ، وَمَا تَحْدِثُهُ أَيَّامُهُ، وَتَتَنَقَّلُ بِهِ أَحْوَالُهُ بِحَيْثُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَبْصِيرٍ وَاعْظِي، وَلَا تَذِكْرَةَ مُجَرَّبٍ، وَلَكَ مِنْ سَوْذٍ مَنصِبِكَ، وَشَرَفِ أَغْرَاقِكَ^(٢)، وَكَرَمِ أَصْلِكَ فِي الْعَرَبِ مُحْتَمَلٌ يَحْتَمِلُ مَا حُمِلَ عَلَيْهِ مِنْ إِقَالَةِ الْعَثْرَةِ، وَالرَّجُوعِ عَنِ الْهَفْوَةِ؛ وَلَا تَتَجَاوَزُ الْهَمَمَ إِلَى غَايَةٍ إِلَّا رَجَعْتَ إِلَيْكَ؛ فَوَجَدْتَ عِنْدَكَ مِنْ فَضِيلَةِ الرَّأْيِ، وَبَصِيرَةِ الْفَهْمِ، وَكَرَمِ الصَّفْحِ مَا يُطَوِّلُ رَغَبَاتِهَا، وَيَسْتَعْرِقُ طَلِبَاتِهَا.

وَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَ مِنَ الْخَطْبِ الْجَلِيلِ، الَّذِي عَمَّتْ رِزِيئَتُهُ نِزَارًا وَالْيَمْنَ، وَلَمْ تَخْصُصْ بِهِ كِنْدَةً دُونَنا؛ لِلشَّرَفِ الْبَارِعِ الَّذِي كَانَ لِحُجْرٍ. وَلَوْ كَانَ يُفْدَى هَالِكًا بِالْأَنْفُسِ الْبَاقِيَةِ بَعْدَهُ لَمَا بَخَلَّتْ كِرَائِمُنَا^(٣) عَلَى مِثْلِهِ بِبِذْلِ ذَلِكَ، وَلَفْدِينَاهُ مِنْهُ، وَلَكِنْ مَضَى بِهِ سَبِيلٌ لَا تَرْجِعُ أَوْلَاهُ عَلَى أَخْرَاهُ، وَلَا يَلْحَقُ أَقْصَاهُ أَذْنَاهُ.

فَأَحْمَدُ الْحَالَاتِ فِي ذَلِكَ أَنْ تَعْرِفَ الْوَاجِبَ عَلَيْكَ فِي إِحْدَى خِلَالَ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ اخْتَرْتَ مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَشْرَفَهَا بَيْتًا، وَأَعْلَاهَا فِي بِنَاءِ الْمَكْرُمَاتِ صَوْتًا، فَقُدْنَاهُ إِلَيْكَ بِنِسْعَةٍ^(٤) تَذْهَبُ مَعَ شَفَرَاتِ حُسَامِكَ بِبَاقِيِ قَصْدَتِهِ^(٥)، فَيُقَالُ: رَجُلٌ امْتَحِنَ بِهَلْكَ عَزِيزٍ عَلَيْهِ؛ فَلَمْ تُسْتَلِّ سَخِيمَتَهُ إِلَّا بِتَمَكِّيْنِهِ مِنَ الْإِنْتِقَامِ؛ أَوْ فِدَاءً بِمَا يَرُوحُ^(٦) عَلَى بَنِي أَسَدٍ مِنْ نَعْمَهَا، فَهِيَ أَلُوفٌ تَجَاوَزُ الْحِسْبَةَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِدَاءً تَرْجِعُ بِهِ الْقَضْبُ^(٧) إِلَى أَجْفَانِهَا، لَمْ يَزِدْهُ تَسْلِيْطُ الْإِحْنِ عَلَى الْبِرَاءِ؛ وَإِمَّا أَنْ تَوَادَعْنَا حَتَّى تَضَعَ الْحَوَامِلُ فَتُسَدَّلَ الْأُزْرُ، وَتُعْقَدَ الْخُمُرُ فَوْقَ الرَّيَاةِ.

فَبَكَى امْرَأُ الْقَيْسِ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتِ الْعَرَبُ أَنْ لَا كُفْءَ لِحُجْرٍ فِي دَمٍ، وَأَتَى لَنْ أَعْتَاضَ بِهِ نَاقَةً أَوْ جَمَلًا فَأَكْتَسِبَ بِذَلِكَ سُبَّةَ الْأَبَدِ،

(١) الترات: جمع ترة؛ وهي في الأصل مصدر وتر؛ أي نقص، واستعمل في النار.

(٢) الأعراق: جمع عرق، وهو أصل كل شيء.

(٣) الكرائم: خيار الأموال وقد يراد بها النقوس أو النساء.

(٤) النسعة: السير من الجلد يجعل زمامًا للبعير فيقاد به.

(٥) القصدة: العنق.

(٦) يروح: يرجع.

(٧) القضب: السيوف.

وَقَتَّ الْعَصْدُ؛ وَأَمَّا النَّظْرَةُ فَقَدْ أَوْجَبَتْهَا الْأَجِنَّةُ فِي بَطُونِ أُمَهَاتِهَا، وَإِنِّي لَنْ أَكُونَ لِعَطْبِهَا سَبِيًّا، وَسَتَعْرِفُونَ طَلَائِعَ كِنْدَةَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَحْمَلُ فِي الْقُلُوبِ حَقًّا، وَفَوْقَ الْأَسِنَّةِ عَلَقًا^(١).

إِذَا جَالَتِ الْخَيْلُ فِي مَأْزِقٍ^(٢) تُصَافِحُ فِيهِ الْمَنَايَا التَّفُوسَا
أَتَقِيمُونَ أَمْ تَنْصَرِفُونَ؟ قَالُوا: بَلْ نَنْصَرِفُ بِأَسْوَأِ الْأَخْتِيَارِ؛ لِحَرْبِ وَبَلِيَّةٍ،
وَمَكْرُوهِ وَأَذْيَةٍ! ثُمَّ نَهَضُوا عَنْهُ وَقِيصَةَ يَقُولُ مَتَمَثَّلًا:

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوْخْتَمَ الْمَوْتَ إِنْ غَدَتِ كِتَائِنُنَا فِي مَأْزِقِ الْمَوْتِ تُمَطِّرُ
فَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: لَا وَاللَّهِ، لَا أَسْتَوْخِمُهُ وَلَكِنْ أَسْتَعِذُّ بِهِ؛ فَرَوَيْدًا يَنْكَشِفُ لَكَ
دُجَاهَا عَنْ فُرْسَانَ كِنْدَةَ وَكِتَائِبِ جَمِيرٍ، وَلَقَدْ كَانَ ذَكَرُ غَيْرِ هَذَا أَوْلَى بِي، إِذْ كُنْتُ
نَازِلًا بِرَبْعِي، وَمَتَحَرَّمًا بِدِمَامِي، وَلَكِنَّكَ قَلْتَ فَأَجَبْتُ.
قَالَ قَبِيصَةَ: إِنَّ مَا نَتَوَقَّعُ فَوْقَ قَدْرِ الْمَعَاتِبَةِ الْمَعَاتِبَةِ وَالْإِعْتَابِ^(٣)، قَالَ امْرُؤُ
الْقَيْسِ: هُوَ ذَلِكَ!

نَهَايَةُ الْأَعْشَى^(٤)

وَفَدَّ الْأَعْشَى إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ مَدَحَهُ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوْلَاهَا:
أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدًا وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا
وَمَا ذَاكَ مِنْ عِشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خُلَّةَ مَهْدَدَا
وَفِيهَا يَقُولُ لِنَاقَتِهِ:
فَالِكَيْتُ لَا أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَقًّا حَتَّى تَزُورَ مُحَمَّدَا
نَبِيِّي يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذَكَرُهُ أَغَارَ لِعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا
مَتَى مَا تُنَاجِحِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ تُرَاجِحِي وَتَلْقَى مِنْ فَوَاضِلِهِ يَدَا
فَبَلَغَ خَبْرَهُ قَرِيبًا؛ فَرَصَدُوهُ عَلَى طَرِيقِهِ وَقَالُوا: هَذَا صَنَاجَةُ الْعَرَبِ، مَا مَدَحَ
أَحَدًا قَطُّ إِلَّا رَفَعَ فِي قَدْرِهِ.

(١) العلق: الدم.

(٢) المأزق: المضيق.

(٣) الإعتاب والعتيب: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب.

(٤) الأغاني: ٩ - ١٢٥ (طبعة دار الكتب)، سيرة ابن هشام: ١ - ٢٣١.

فلما ورد عليهم قالوا له: أين أردت يا أبا بصير؟ قال: أردتُ صاحبكم هذا لأُسَلِّم. قالوا: إنه نهاك عن خلال ويحرها عليك، قال: وما هي؟ فقال أبو سفيان بن حرب: الزنا. قال: لقد تركني الزنا وتركته، ثم ماذا؟ قالوا: القمار، قال لعلِّي إن لقيته أن أصيب منه عوضًا من القمار، ثم ماذا؟ قالوا: الرِّيا. قال: ما دنتُ ولا ادنتُ؛ ثم ماذا؟ قالوا: الخمر. قال: أؤه! أُرْجِعْ إلى صُبَابَةٍ قد بقيت في المِهْرَاسِ ^(١) فأشربها.

فقال له أبو سفيان: هل لك في خيرٍ مما همتَ به؟ قال: وما هو؟ قال: نحن وهو الآن في هُدنة، فتأخذ مائة من الإبل، وترجع إلى بلدك سنتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا. فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خَلْفًا، وإن ظهر علينا أتيته. فقال: ما أكره ذلك. فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، هذا الأعشى! والله لئن أتى محمدًا واتبعه ليُضرمَ عليكم نيران العرب بشعره، فاجمعوا له مائة من الإبل، ففعلوا، فأخذها وانطلق إلى بلده. فلما كان بقاع مَنفُوحَةٍ ^(٢) رمى به بعيْرٍ فقتله.

رثاء فوق قَبْرِ ^(٣)

كان عامر بن الطفيل أفرسَ أهلِ زمانه وأسودهم، فلما مات ودُفِنَ مرًّا على قبره حيَّان بنُ سلمى - وقد غاب عند موته - فقال: ما هذه الأنصاب؟ فقالوا: نَصَبناها على قبر عامر، فقال: ضيقتُم على أبي عليّ، وأفضَلتُم منه فضلًا كثيرًا.

ثم وقف على قَبْرِهِ وقال: أنعم ظلامًا أبا عليّ! فوالله لقد كنت تُشْنُ الغارة، وتحمي الجازة، سريعا إلى المولى بوغديك، بطيئا عنه بوعيدك؛ وكنت لا تضلّ حتى يضلّ النجم، ولا تهَابُ حتى يهابَ السيل، ولا تعطش حتى يعطش البعير؛ وكنت والله خيرَ ما تكون حين لا تظنّ نفس بنفس خيرا.

ثم التفت إليهم، فقال: هَلَّا جعلتم قبر أبي عليّ ميلا في ميل!

(١) المهراس: حجر منقور يسع كثيرا من الماء. (٢) منفوحة: قرية مشهورة من نواحي اليمامة.

(٣) مجمع الأمثال: ٢ - ٢٣.

بِمِثْلِ هَذَا فَلَيْثُنَ عَلَى الْمُلُوكِ^(١)

قال حسان بن ثابت: قدمت على عمرو بن الحارث، فاعتاص عليّ الوصول إليه، فقلت للحاجب بعد مدة: إن أذنت لي عليه وإلا هجوت اليمين كلها ثم انقلبت عنكم. فأذن لي، فدخلت عليه فوجدت عنده النابغة وهو جالس عن يمينه، وعلقمة بن عبدة وهو جالس عن يساره، فقال لي: يا ابن الفريضة؛ قد عرفت عيصك^(٢) ونسبك في غسان، فارجع فإني باعث إليك بصلّة سنّية، ولا أحتاج إلى الشعر، فإني أخاف عليك هذين السبعين - النابغة وعلقمة - أن يفضحاك؛ وفضيحتك فضيحتي، وأنت والله لا تحسبن أن تقول:

رِقاق النعالِ طيّب حُجْزَاتِهِمْ يُحَيِّوْنَ بِالرِّيحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ^(٣)

فأبيت وقلت: لا بدّ منه، فقال: ذلك، فقال: إلى عمّيك، فقلت لهما: بحقّ الملك إلا قدّمتماني عليكما! فقالا: قد فعلنا، فقال عمرو بن الحارث: هات يا ابن الفريضة، فأنشأت:

الله دَرَّ عصابة نَادَمَتْهُمْ	يوماً بجَلْقٍ ^(٤) في الزّمان الأوّل
أولاد جفنة عند قبر أبيهم	قبر ابن مارية الكريم المفضّل
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البريص عليهم	بَرَدَى يُصَفِّقُ بالريحق السِّلْسَلِ
يُغَشَّوْنَ حتى ما تهرّ كلابهم	لا يَسْأَلُونَ عن السواد المقبِلِ
بيضُ الوجوه كريمة أحسابهم	شَمُّ الأنوف من الطّراز الأوّلِ
فلبثت أزماناً طويلاً فيهم	ثم ادْرَكَتْ كأنني لم أفعلِ

قال: فلم يزل عمرو بن الحارث يَزْحَلُ عن موضعه سُرُورًا، وهو يقول: هذا وأبيك الشعر؛ لا ما يُعَلِّلَانِي به منذ اليوم! هذه والله البتّارة التي قد بترت المدائح!

(١) الأغاني: ١٤ - ٢٢.

(٢) العيص: الأصل، والفريضة: أمه.
(٣) رقاق النعال: أي أن نعالهم رقيقة لا يخصفونها طباقاً، وذلك كناية عن قلة مشيهم، لأنهم ملوك. بل يركبون الخيل غالباً، وحجزة الأزار والسراويل مجمع شهما على الوسط من الجسم، كناية عن عفتهم، والسباسب: يوم الشعانين، وهو يوم عيد عند النصارى، وكان الممدوح نصرانياً.

(٤) جلق: دمشق.

أحسنْتَ يا ابنَ الفُرَيْعَةِ! هاتِ له يا غلامَ ألفَ دينارٍ مَرْجُوحَةٍ، فأعْطَيْتُ ذلكَ، ثم قالَ: لك عليّ في كلِّ سنةٍ مثْلهَا.

ثم أقبلَ على النابغة فقالَ: ثم يا زيادُ، فهاتِ الثناءَ المسجوعَ، فقام النابغة فقالَ: ألا أنعمَ صباحًا أيها الملكُ المباركُ! السماءَ غطاؤك، والأرضَ وطاؤك، ووالدي فداؤك، والعربَ وفاؤك، والعجمَ حماؤك، والحكماءَ جلساؤك، والمَدَارَةَ^(١) سَمَّارَك، والمَقَاوِلَ إِخْوَانَك والعُقْلَ شِعَارَك، والحلمَ دَنَارَك، والسكينةَ مِهَادَك، والنوقارَ غشاؤك! والبرِّ وسادك، والصدقَ رداؤك، واليَمْنَ حذاؤك، والسخاءَ ظهارتك، والحميةَ بطانتك، والعلاءَ غايتك وأكرمُ الأحياءَ أحياءك، وأشرفُ الأجدادِ-أجدادك، وخيرُ الآباءِ آباؤك، وأفضلُ الأعمامِ أعمامك، وأسرى الأخوالِ أخوالك، وأعفُ النساءِ حلائلك، وأفخرُ الشبَّانِ أبنائك، وأطهرُ الأمهاتِ أمهاتك، وأعلىَ البنيانِ بنيانك، وأعذبُ المياهِ أمواهك، وأفيحُ الداراتِ^(٢) دارتُك، وأنزهُ الحداثقِ حداثقك، وأرفعُ اللباسِ لباسك، قد حالفَ الإضريحُ^(٣) عاتقك، ولاءمُ المسكِ مَسكك^(٤)، وحاوِرُ العنبرِ ترائيك^(٥)، وصاحبُ النعيمِ جَسَدك.

العسجدَ آنيثك، واللُّجَيْنَ صِخافك، والعَضْبَ^(٦) مناديلك، والحُوَازِيَّ^(٧) طعامك، والشهدَ إدامك، والخُرطومَ^(٨) شَرابك، والأشرفَ مناصفك^(٩)، والخيرَ بفنائك، والشربَ بساحةِ أعدائك، والنصرَ منوطَ بلوائك، والخِذلانَ مع ألويةِ حُسَّادك، والبرِّ فعلك. قد طَحَطَحَ^(١٠) عدوك غضبُك، وهزمَ مَقَانِبَهُمْ^(١١) مشهْدك، وسارَ في الناسِ عدلك، وسكنَ قِوَارِعَ الأعداءِ ظَفْرَك.

الذهبَ عطاؤك، والدواةَ رمزك، والأوراقَ لَحظك، والغنىَ إطراقك، وألفَ دينارَ مرجوحةٍ إيماءك.

(١) المدارة: جمع مدره، وهو السيد الشريف، والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة.

(٢) الدارة: المحل يجمع البناء. (٣) الإضريح: الخز.

(٤) المسك: الجلد. (٥) الترائب: عظام الصدر.

(٦) العصب: نوع من البرود. (٧) الحواري: لباب الدقيق.

(٨) الخرطوم: أول ما يجري من العنب قبل أن يداس.

(٩) جمع منصف وهو الخادم. (١٠) طحطح: كسر وفرق وبدد إهلاكًا.

(١١) المقتب من الخيل: ما بين الثلاثين إلى الأربعين.

أيفاخرك المنذر اللخمي! فوالله لَقَفَاكَ خَيْرٌ من وجهه، ولشمالك خير من يمينه ولأخمصك خيرٌ من رأسه، ولخطوك خيرٌ من صوابه، ولصممتك خيرٌ من كلامه، ولأمك خير من أبيه، ولخدمك خير من قومه. فهب لي أسارى قومي، واسترهن بذلك شكري، فإنك من أشرف قحطان، وأنا من سرّوات عدنان.

فرجع عمرو رأسه إلى جارية كانت قائمة على رأسه، وقال: بمثل هذا فليئن على الملوك، ومثل ابن الفريعة فليمدحهم. وأطلق له أسرى قومه.

عُتْبَةُ وَأَعْرَابِي (١)

حجّ عتبة سنة إحدى وأربعين، والناش قريبٌ عهدهم بفتنة، فصلّى بمكة الجمعة، ثم قال: أيها الناس؛ إنا قد ولينا هذا المقام الذي يُضَاعَف فيه للمُخْسِن الأجر، وعلى المسيء فيه الوزر، ونحن على طريق ما قَصَدْنَا؛ فلا تَمُدُّوا الأَعْنَاقَ إلى غيرنا؛ فإنها تنقطع دوننا، وربُّ مَتَمَّنٍ حَتْفُهُ فِي أَمْنِيَّتِهِ؛ فأقبلوا العافية ما قَبَلْنَاهَا فيكم وقَبَلْنَاهَا منكم؛ وإياكم ولَوْأَ فَإِنهَا أَتَعَبَتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، ولن تُرِيحَ مَنْ بَعْدَكُمْ؛ وأنا أسأل الله أن يعين كُلاً على كُلاً.

فصاح به أعرابي: أيها الخليفة! فقال: لستُ به ولم تُبْعِد. فقال: يا أخاه. قال: سمعتُ فقل. قال: تالله إن تحسنوا - وقد أسأنا - خير من أن تسيئوا وقد أحسننا؛ فإن كان الإحسانُ بكم دوننا فما أحقكم باستتمامه، وإن كان منا فما أولاكم بمكافأتنا! رجل من بني عامر بن صغصعة يلقاكم بالعمومية، ويقرب إليكم بالخولة، قد كثره العيال، ووطئه الزمان، وبه فقر، وفيه أجر، وعنده شكر.

فقال عتبة: أستغفرُ الله منكم، وأستعينه عليكم، قد أمرنا لك بغناك، فليت إسرَاعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك!

إِن مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا (٢)

وفد إلى رسول الله ﷺ الزُّبَيْرَانُ بن بدر وعمرو بن الأَهِم؛ فقال الزُّبَيْرَانُ: يا رسولَ الله، أنا سيدُ تميم، والمطاعُ فيهم، والمجأبُ منهم، أخذ لهم بحقهم،

(١) الأُمالي: ١ - ٢٣٦.

(٢) زهر الأَداب: ١ - ٥. مجمع الأمثال: ١ - ٧.

وأمنعهم من الظلم؛ وهذا يعلمُ ذلك - يعني عمراً. فقال عمرو: أجل يا رسول الله! إنه مانع لحوزته، مطاع في عشيرته، شديد العارضة فيهم.

فقال الزبيرقان: أما إنه والله قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي! فقال عمرو: أما والله لئن قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيق العطن زمر المروءة، أحق الأب، لثيم الخال، حديث الغنى!

فراى الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لما اختلف قوله، فقال يا رسول الله: رضيتُ فقلت أحسن ما علمتُ، وعضبتُ فقلت أقبح ما علمتُ، وما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية!

فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً».

عبد الله بن عباس والحطيئة^(١)

بينما ابن عباس جالس في مجلس رسول الله ﷺ بعد ما كُفَّ بصره، وحوله ناس من قريش، إذ أقبل أعرابي يخطر، وعليه مُطرف وجبة وعمامة خز، حتى سلم على القوم، فردوا عليه السلام، فقال: يا ابن عم رسول الله؛ أفيتني، قال: فيم؟ قال: أتخاف عليّ جناحاً إن ظلمني رجل فظلمته، وشتمني فشتمته، وقصّر بي فقصرتُ به؟ فقال: العفو خير، ومن انتصر فلا جناح عليه.

فقال: يا ابن عم رسول الله؛ أرايتُ امرأ أتاني فوعدني وغرني ومثاني، ثم أخلفني واستخف بخرمتي، أيسعني أن أهجوه؟ قال: لا يصلح الهجاء؛ لأنه لا بد لك من أن تهجو غيره من عشيرته، فتظلم من لم يظلمك، وتشتم من لم يشتمك، وتبغي على من لم يبغي عليك، والبغي مرتعه وخيم، وفي العفو ما قدم علمت من الفضل؛ قال: صدقت وبررت.

فلم ينسب أن أقبل عبد الرحمن بن سحان المَحَارِبِي حليف قريش، فلما رأى الأعرابي أجله وأعظمه وألطف في مسأله، وقال: قرب الله دارك يا أبا مليكة، فقال ابن العباس: أجزول؟ قال: جرول! فإذا هو الحطيئة، فقال ابن عباس: لله أنت! أي مزدي^(٢) كذاف، وذائد عن عشيرة، ومثن بعارفة تؤتاها أنت يا

(١) الأغانى: ٢ - ١٩٢.

(٢) المردى: في الأصل حجر يُرمى، ويطلق على الرجل الشجاع فيقال: مردى حروب.

أبا مليكة! والله لو كنت عركت^(١) بجنبك بعض ما كرهت من أمر الزبير كان خيرا لك، ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك، وشتت من لم يشتبك، قال: إني والله بهم يا أبا العباس^(٢) لعالم؛ قال: ما أنت بأعلم بهم من غيرك، قال: بلى والله! يرحمك الله! ثم أنشأ يقول:

أنا ابنُ بخدتهم^(٣) علما وتجربةً فسأل بسعدٍ تجدني أعلم الناس
سعدُ بن زيدٍ كثيرٌ إن عددتهم ورأسُ سعد بن زيد آل شماس
والزبيرقان ذناباهم^(٤) وشرهم ليس الذنابي أبا العباس كالرأس
فقال ابن عباس: أقسمت عليك ألا تقول إلا خيرا، قال: أفعل.

ثم قال ابن عباس: يا أبا مليكة؛ من أشعر الناس؟ قال: أمن الماضين أم من الباقين؟ قال: من الماضين، قال: الذي يقول:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يقزه، ومن لا يتق الشر يشتم
وما بدونه الذي يقول:

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أي الرجال المهذب!

ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جزولا - يعني نفسه - والله يا ابن عم رسول الله لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين، فأما الباقون فلا تشك أني أشعرهم وأضردهم^(٥) سهما إذا رميت!

طريد لسانه^(٦)

لما ولي سعيد بن عثمان بن عفان خراسان أراد أن يستصحب يزيد بن ربيعة بن مفرغ، فأبى عليه، وصحب عبادة بن زياد، فقال له سعيد: أما إذ أبيت أن تصحبي وأثرت عبادة فاحفظ ما أوصيك به: إن عبادا رجل لثيم، فإياك والدالة عليه، وإن دعاك إليها من نفسه، فإنها خدعة منه لك عن نفسك، وأقلل زيارته،

(١) عرك جنبه ما كان من صاحبه: احتمله.

(٢) كنية عبد الله بن العباس.

(٣) البحدة: دخلة الأمر وباطنه، والمراد: أنا العالم بالشيء.

(٤) ذناباهم: ذنبهم.

(٥) أنفذهم.

(٦) تاريخ الطبري: ٦ - ١٧٧، الأغاني: ١٧ - ٥٥ (طبعة الساسي).

فإنه طرف^(١) مَلُولٌ، ولا تُفَاخره، وإن فَاخرَكَ، فإنه لا يَحتمَلُ لَكَ ما كُنتَ أَحتمَلُه.

ثم دعا سعيد بمال فدفعه إلى ابن مفرغ وقال: اسْتَعِينْ به على سفرك؛ فإن صَحَّ لَكَ مَكَائِكَ من عِبَادٍ، وإلا فَمَكَائِكَ عِنْدِي مُمَهَّدٌ فَاتْنِي.

ثم سار سعيد إلى خُرَاسان وتَخَلَّفَ ابن مفرغ عنه، وخرج مع عِبَادِ بن زياد. قال الراوي: فلما بلغ عبيد الله بن زياد صحبة ابن مفرغ أخاه عِبَادًا شَقَّ عليه، ولما عزم عِبَادٌ على السير إلى سِجِسْتان، جاء عبدُ الله يودعه، فدعا ابن مفرغ وقال له: إِنَّكَ سَأَلْتَ عِبَادًا أَنْ تَصحبَه وَأجابَكَ إلى ذلك وقد شَقَّ عَلَيَّ.

فقال له ابن مفرغ: ولم أصلحك الله؟ فقال: لَأَنَّ الشاعِرَ لا يُقْنِعُه من الناس ما يُقْنِعُ بعضهم من بعض؛ لأنه يظنُّ فيجعل الظنَّ يقيِنًا، ولا يعذر في موضع؛ وإن عِبَادًا يقدِّم على أرض حرب فيشتغلُ بحروبه وخِراجِه عنك، فلا تعذِّره أنت وتكسبنا شرًّا وعازًا.

فقال له: لست كما ظنَّ الأمير، وإن لمعروفه عندي لشكرًا كثيرًا، وإن له عندي - إن أغفلَ أمري - عذرًا مُمَهَّدًا.

قال عبيد الله: لا، ولكن تضمن لي إن أبطأ عنك ما تحبُّه ألا تعجَّلَ عليه حتى تكتب إلي! قال: نعم، قال: امضِ على الطائر الميمون.

قال الراوي: فلما قدم عِبَادُ سِجِسْتان، واشتغل بحربه مع التُّركِ وخِراجِه استبطأه ابن مفرغ، ولم يكتب إلى عبيد الله بن زياد يشكوه كما ضمن له، ولكن بسَطَ لسانه، فذمَّه وهجاه؛ وكان عِبَادُ عظيم اللحية كأنها جِوَالِقُ^(٢)، فدخلت الريح فنفستها، فضحك ابن مفرغ وقال لرجل كان إلى جنبه:

ألا ليت اللَّحَى كَانَتْ حَشيشًا فنعلفها خِيولَ المُسلمينا!^(٣)

فسعى به الرجل إلى عِبَادٍ، فغضب من ذلك غضبًا شديدًا وقال: لا يجملُ بي عقوبته في هذه السرعة مع الصحبة لي، وما أَوْخَرُها إلا لأشفي نفسي منه.

(١) الطرف: من لا يثبت على صاحب.

(٢) الجوالق: الوعاء.

(٣) كان قد أصاب الجند مع عباد ضيق في أعلاف دوابهم.

وبلغ الخبرُ ابنَ مفرغٍ فقال: إني لأجدُ ريحَ الموتِ من عبّادٍ؛ ثم دخل عليه فقال: أيها الأمير؛ إني كنت مع سعيد بن عثمان، وقد بلغك رأيُه فيّ، وجميلُ أثره عليّ، وإني اخترتُك عليه فلم أظفر منك بطائل؛ وأريد أن تأذن لي في الرجوع؛ فلا حاجة لي في صحبتك.

فقال له: أمّا اختيارُك إياي فإني اخترتُك كما اخترتني، واستصحبتُك حين سألتني، وقد أعجلتني عن بلوغِ محبّتي فيك؛ وطلبت الآن أن ترجع إلى قومك فتفضّخني فيهم، وأنت على الإذن قادرٌ بعد أن أقضي حقّك. فسكت ابنُ مفرغٍ.

ثم أجرى عبّاد الخيلَ يوماً، فجاء سابقاً، فقال ابن مفرغٍ يهزأ به: سبق عبّاد وصلّت^(١) لحيته. فبلغ ذلك عبّاداً، وبلغه أنه لا يزال يسبّه ويذكره، فطلب عليه العِلل، ودسّ إلى قوم كان لهم عليه دين، فأمرهم أن يقدّموه إليه، ففعلوا فحبسه وأضرب به.

ثم بعث إليه: أن بغني الأراكة^(٢) وبُرّداً، فبعث إليه ابن مفرغٍ مع الرسول: أبيعُ المرءَ نفسه أو ولده! ثم ضرّ به عبّاد حتى باعهما لرجل من أهل خُراسان، فقال ابن مفرغٍ:

شريتَ برّداً ولو ملكت صفقته	لما تطلبتُ في بيع له رَشداً
لولا الدعيّ ولولا ما تعرّض لي	من الحوادث ما فارقتَه أبداً
أمّا الأراكُ فكانت من محارمنا	عيشاً لذيذاً وكانت جنةً رغداً
كانت لنا جنةً كنا نعيشُ بها	نغني بها إن خشينا الأزل والثكدا ^(٣)
يا ليتني قبل ما ناب الزمانُ به	أهلي لقيتُ على عذوانه الأسداً
قد خاننا عيشُ من لم نخش عثرته	من يأمن اليوم أمّن ذا يعيش غداً!
لامتني النفس في بُردٍ فقلت لها:	لا تهلكي إثر بُرد هكذا كمداً
كم من نعيم أصبنا من لذاذته	قلنا له إذ تولّى: ليته خلداً!

(١) المصلّى في الخيل: هو الذي يتلو السابق.

(٢) كانت الأراكة قينة لابن مفرغ، وبرد غلامه، رباهما، وكان شديد الضن بهما.

(٣) الأزل: الضيق والشدة.

ثم قال عبّاد لحاجبه: ما أرى هذا يبالي بالمقام في الحبس، فيبغ فرسه وسلاحه وأثائه، واقسم ثمنها بين غرّمائه. ففعل ذلك وقسم الثمن بينهم، وبقيت عليه بقية حبسه بها.

وعلم ابن مفرغ أنه إن أقام على ذمّ عباد وهجائه، وهو في محبسه، زاد نفسه شراً، فكان يقول للناس - إذا سألوه عن حبسه ما سبّبه - رجل أدبه أميره ليَقوم من أوده، أو يكفّ من غزبه، وهذا لَعْمري خيرٌ من جرّ الأمير ذيله على مُداهنة صاحبه.

فلما بلغ ذلك عبّاداً من قوله رِقّ له، وأخزجه من السجن، فهرب حتى أتى البصرة، ثم خرج منها إلى الشام، وجعل ينتقل في مُدنّها هارباً، ويهجو زياداً وولده، وأشعاره فيهم ترد البصرة وتنتشر وتبلغهم، ثم تعدّى ذلك إلى أبي سفيان فقذفه وسبّ ولده.

ولما تمادى في ذلك جاء عبّاد إلى أخيه عبيد الله بالبصرة، فوجده وافداً على معاوية، فكتب إليه ببعض ما هجا به آل زياد وأبا سفيان.

فلما قرأ عبيد الله الشعر دخل على معاوية، ثم استأذنه في قتل ابن مفرغ، فأبى عليه أن يقتله وقال: أدبه ولا تبلغ به القتل.

ثم جعل ابن مفرغ ينتقل من بلد إلى بلد، فإذا شاع خبره انتقل حتى لفظته الشام؛ فأتى البصرة، ونزل على الأحنف بن قيس فالتجأ واستجار به، فقال له الأحنف: إني لا أجير على ابن سُمَيّة^(١)، إنما يجير الرجل على عشيرته، فأما على سلطانه فلا.

ثم أتى خالد بن عبد الله فاستجار به، فأبى أن يجيره، فأتى عمر بن عبد الله فوعده، وأتى طلحة الطلحات فوعده، ثم أتى المنذر العبدتي فأجاره، وكان عبيد الله بن زياد زوجاً لبنته، وكان من أكرم الناس عليه، فاغترّ بذلك، وأدّل بموضعه منه وطلبه عبيد الله فليل له: قد أجازَه المنذر.

فبعث عبيد الله إلى المنذر فأتاه، فلما دخل عليه بعث بالشُرط، فكبسوا دار المنذر وأتوه بابن مفرغ، فلم يشعر المنذر إلا بابن مفرغ قد أقيم على رأسه. فقام

(١) سمية: أم زياد.

إلى عبيد الله فكلّمه فيه وقال: أذكرك الله أيها الأمير، لا تخفّر جواري فإنني قد أجزّته.

فقال عبيد الله: يا منذر، ليمدحنّ أباك وليمدحنّك، ولقد هجاني وهجا أبي ثم تجيره عليّ! والله لا يكون ذلك أبداً، ولا أغفرها له. فغضب المنذر، فقال له عبيد الله: لعلك تدلّ بكريمتك عندي، إن شئت والله لأبيّتها بتطبيق البتّة.

فخرج المنذر من عنده، وأقبل عبيد الله على ابن مفرغ، وقال له: بشما صحبت به عبّاداً! فقال: بشما صحبتني به عبّاد! اخترته على سعيد بن عثمان، وأنفقت على صحبته كلّ ما أفدته وكلّ ما أملكه، ثم عاملني بكلّ قبيح، وتناولني بكلّ مكروه، من حبس وغرم، وشتم وضرب، فكتب كمن شام برقا خلبا في سحاب جهام، فأراق ماءه طمعا فيه فمات عطشا، وما هربت من أخيك إلا لما خفت أن يجري فيّ ما يندم عليه، وقد صرت الآن في يدك، فسانك فاصنع بي ما أحببت.

فأخذ عبيد الله في تعذيبه، وأمر أن يطاف به، بحالة سيئة، وقرن بهرة وخنزيرة، والصبيان حوله يصيحون به ويلحون عليه، ثم رُدّ إلى السجن، وسقي فيه من ألوان العذاب والتكال. فقال: يذكر ما فعل به وإهمال قريش إيّاه:

كيف نوم الأسير في الأغلال!	دار سلّمى بالخبث ذي الأطلال
فارجعي لي تحيتي وسؤالي!	أين منّي السّلام من بعد نأي
وغزالي، سقى الإله غزالي!	أين منّي نجائبي وجيادي
ومطايا سيرتها لازتحالي!	أين، لا أين جنتي وسلاجي
فبلينا إذ كلّ عيش بال	هدم الدهر عرشنا فتداعى
كلّ دنيا ونعمة لزوال	إذ دعانا زواله فأجبتنا
ت مصير الملوك والأقيال	أم قضينا حاجتنا فإلى المو
وصلاتي أَدعو بها وإبتهالي	لا وصومي لرّينا وزكاتي
ولدى الله كابر الأعمال	ما أتيت الغداة أمرا دنيا
بل بلغت النكال كلّ النكال	أيها المالك المرهب بالقث
يقذف الناس بالدواهي الثقال	فاخش نارا تقذف الوجوه ويوما

قد تعديت في القصاص وأدرك
وكسرت السنّ الصحيحة مني
وقرنتنم مع الخنازير هراً
وأطلتم مع العقوبة سجننا
يغسل الماء ما صنعت، وقولي
لو قبلت الفداء أو رُمت مالي
لو بغيري من معشرٍ لعب الده
كم بكاني من صاحب وخليل
ليت أني كنت الحليف للخم
بدلاً من عصابة من قريش
خذلوني وهم لذلك دعوني
لا تدعني، فذاك أهلي ومالي
حسرتا إذ أظعت أمر غواتي

تَ دُحُولاً^(١) لمعشر أقتال
لا تُذلني فمُنكراً إذ لالي
وَيَمِينِي مغلولةً وشمالي
فكم السجن؟ أو متى إرسالي!
راسخ منك في العظام البوالي
قلت: خذه، فداء نفسي مالي
مر لما ذمّ نصرتي واحتيالي
حافظ الغيب حامدٍ للخصال!
وجذامٍ أو طيئٍ الأجبالي
أسلموني للخصم عند النضال
ليس حامي الذمار بالخذال
إنّ حبلتك من متين الحبال
وعصيت النصيح، ضلّ ضلالي!

ولكن عبيد الله أرسله إلى أخيه عبّاد بسجستان، فكلمت اليمانية فيه بالشام
معاوية؛ فأرسل رسولاً إلى عبّاد أن يحمل إليه ابن مفرغ، فحمل من عنده، وقال
في طريقه:

عَدَسٌ ما لعبّادٍ عليك إمارة
لعمرى لقد نجّاك من هوة الرّدى
سأشكر ما أوليت من حسن نعمة
ونجوت، وهذا تخمّلين طليق^(٢)
إمامٍ وحبلٌ للأنام وثيق
ومثلي بشكر المنعمين حقيق

فلما دخل على معاوية بكى وقال: ركب مني ما لم يركب من مسلم، على
غير حدّ ولا جريرة! قال أولست القاتل:

ألا أبلغ معاوية بن حرب
أفلم تقل:
فأشهد.....

(٢) عدس: اسم زجر البغال.

(١) الذحل: الثار.

في أشعار كثيرة هجوت بها زيادًا! اذهب فقد عفونا عن جُرمك، أما لو
إيانا تعامل لم يكن مما كان شيء؛ انطلق، وفي أي أرض شئت فانزل. فنزل
الموصل.

عبد الله بن الزبير ومقتل أخيه مصعب^(١)

قال شيخ من أهل مكة: لما أتى عبد الله بن الزبير قتلُ مُصعبِ أخيه
أضرب عن ذكْره أيامًا حتى تحدّثت به إماء مكة في الطرق، ثم صعد المنبر،
فجلس عليه مليًا لا يتكلم، فنظرتُ إليه والكَابَةُ على وجهه، وجبيئته يَزْشُخُ
عرقًا، فقلت لآخر إلى جنبي: ما له لا يتكلم؟ أتراه يهاب المنطق! فوالله إنه
لخطيب، فما تراه يهاب! قال: أراه يذكر قتل مصعب سيّد العرب، وهو بَقْطِيع
تذكْره غيرُ ملوم. فقال: «الحمد لله الذي له الخلقُ والأمرُ وملُكُ الدنيا والآخرة،
يُعزُّ مَنْ يشاء ويذلُّ مَنْ يشاء؛ ألا إنه لم يذلّ - والله - مَنْ كان الحقُّ معه وإن
كان مُفردًا ضعيفًا، ولم يعزَّ مَنْ كان الباطل معه، وإن كان في العُدَّة والعَدَدِ
والكثرة».

ثم قال: «إنه قد أتانا خبرٌ من العراق، بلدِ العَدْرِ والشقاق، فساءنا وسرّنا؛
أتانا أن مُصعبًا قُتِل - رحمة الله عليه ومغفرته! فأما الذي أحزننا من ذلك فإنَّ لِفِرَاقِ
الحميم لذةً يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يَزْعَوِي من بعدُ ذو الرأي والدين إلى
جميل الصبر، وأما الذي سرّنا منه، فإننا قد علمنا أن قتلَهُ شهادةٌ له، وأنه عزَّ وجلَّ
جاعل ذلك لنا خيرةً إن شاء الله تعالى».

إنَّ أهل العراق أسلموه وباعوه بأقل ثمن، لقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه وكانوا
خيارَ الصالحين؛ إنا والله ما نموتُ حتف أنوفنا؛ ما نموت إلا قتلاً قَعَصًا^(٢)
بالرماح، وتحت ظلال السيوف، وليس كما يموت بنو مَرْوَانَ؛ والله ما قُتِل منهم
رجلٌ في جاهليّة ولا إسلام قط؛ وإنما الدنيا عارية من المَلِكِ القهّار، الذي لا
يزول سلطانه، ولا يبديد ملكه، فإن تقبل الدنيا عليّ لا آخذها أخذ الأثير البَطْر،
وإن تُدبر عني لا أبكي بكاء المُهْتَر^(٣). ثم نزل!

(٢) قبعصه: قتله مكانه.

(١) الأغاني: ١٧ - ١٦٦.

(٣) المهتر: الذي فقد عقله من الكبر أو المرض أو الحزن.

عمر بن أبي ربيعة وجميل^(١)

اجتمع عمرُ بن أبي ربيعة، وجميل بن عبد الله العُدْرِيّ، فأنشد جميل قصيدته التي يقول فيها:

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى
بئينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون: مهلاً يا جميل، وإتني
لأقسيم مالي عن بئينة من مهل
خيلتي فيما عشتما هل رأيتما
قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي!
أبيت مع الهلاك^(٢) ضيفاً لأهلها
وأهلي قريب موسعون ذوو فضل
أفتق أيها القلب اللجوج عن الجهل
ودع عنك «جُملاً»^(٣) لا سبيل إلى جُملي
فلو تركت عقلي معي ما طلبتها
ولكن طلابيها لِمَا فات من عقلي

حتى أتى على آخرها. ثم قال لعمر: يا أبا الخطاب، هل قلت في هذا الروي شيئاً؟ قال: نعم، قال: فأنشدني، فأنشده:

جرى ناصح بالود بيني وبينها
فقرّني يوم الحصاب إلى قثلي
فلما تواقفنا عرفت الذي بها
فقرّني يوم الحصاب إلى قثلي
فقلن لها: هذا عشاء وأهلنا
قريب الما تسامي مركب البغل!

(١) الأغاني: ١ - ١١٥ (طبعة دار الكتب)، زهر الآداب: ٢ - ٢٤٠.

(٢) الهلاك: الصعاليك الذين يتابون الناس ابتغاء معروفهم.

(٣) جمل: علم على امرأة، وهو يقصد بها بئينة.

فقالت: فما شِئْتُنَّ قَلْنَ لها: انزلى
 قَلَّ الْأَرْضُ خَيْرٌ مِنْ وَقُوفٍ عَلَى رَحْلِ
 نُجُومٍ دَرَارِيٍّ تَكْتَفُنَّ صُورَةَ
 مِنَ الْبَدْرِ، وَافَتْ غَيْرَ هُوجٍ^(١) وَلَا عَجَلٍ
 فَسَلَّمْتُ وَاسْتَأْنَسْتُ خَيْفَةً أَنْ يَرَى
 عَدُوًّا مَقَامِي أَوْ يَرَى كَاشِحًا فِعْلِي
 فَقَالَتْ - وَأَرَخْتُ جَانِبَ السُّتْرِ: إِنَّمَا
 مَعِيَ - فَتَكَلَّمْتُ غَيْرَ ذِي رَقَبَةٍ - أَهْلِي
 فَقُلْتُ لَهَا: مَا بِي لِهِمْ مِنْ تَرْقُبٍ
 وَلَكِنْ سَرِّي لَيْسَ يَحْمَلُهُ مِثْلِي
 فَلَمَّا اقْتَصَرْنَا دُونَهُنَّ حَدِيثُنَا
 وَهَنَّ طَبِيبَاتٌ بِحَاجَةِ ذِي الشُّكْلِ^(٢)
 عَرَفْنَ الَّذِي تَهْوِي فَقَلْنَ ائْذَنِي لَنَا
 نَطْفُ سَاعَةٍ فِي بَزْدٍ لَيْلٍ وَفِي سَهْلٍ
 فَقَالَتْ: فَلَا تَلْبِثْنَ قَلْنَ: تَحْدِثِي
 أَتَيْنَاكَ، وَانْسُبْنَ انْسِيَابَ مَهَا الرَّمْلِ
 فَمَنْ وَقَدْ أَفْهَمْنَ ذَا اللَّبِّ أَتَمَّا
 أَتَيْنَ الَّذِي يَأْتِينِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِي
 فَقَالَ جَمِيلٌ: هِيَ هَاتِ يَا أَبَا الْخَطَّابِ! لَا أَقُولُ وَاللَّهِ مِثْلَ هَذَا سَجِيسِ
 اللَّيَالِي^(٣)، وَاللَّهِ مَا يَخَاطِبُ النِّسَاءَ مَخَاطِبَتِكَ أَحَدٌ، وَقَامَ مَشْمَرًا.
 لِشَعْرِ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ نَوَظُهُ بِالْقَلْبِ^(٤)
 ذَكَرَ شِعْرُ الْحَارِثِ بْنِ خَالِدٍ وَشَعْرُ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ عِنْدَ أَبِي عَتِيقٍ فِي

(١) هوج: جمع هوجاء، وهي المتعجلة في السير كأن بها هوجًا وحمقًا.

(٢) الشكل: دل المرأة وغزلها.

(٣) أي لا أقول مثل هذا أبدًا، وهي كلمة تستعمل للتأييد.

(٤) الأغاني: ١ - ١٠٨ (طبعة دار الكتب)، الأمالي: ٢ - ١٧.

مجلس رجل من ولد خالد بن العاص بن هشام، فقال: صاحبنا - يعني الحارث بن خالد - أشعرهما.

فقال له ابن أبي عتيق: بَعْضَ قولك يا ابن أخي! لشعر عمر بن أبي ربيعة نَوْطَةٌ في القلب، وِعْلُوقٌ بالنفس، وِدْرَكٌ للحاجة ليست لشعر الحارث، وما عُصِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بشعرٍ كَثُرَ مما عُصِيَ بشعر عمر بن أبي ربيعة، فخذ عني ما أصف لك: أشعرُ قريش مَنْ دَقَّ معناه، وَلَطَفَ مَدْخَلُهُ، وَسَهَّلَ مَخْرَجَهُ، وَمَثَّنَ حَشْوَهُ، وتَعَطَّفَتْ حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرَبَ عن حاجته!

فقال المفضل للحارث: أليس صاحبنا الذي يقول:

إتني وما نَحَرُوا عِدَاةَ مِنِّي	عند الجمار يَثُودُهَا العَقْلُ
لو بُدِّلَتْ أعلى مساكنها	سُفْلًا، وأصبح سُفْلُهَا يَغْلُو
فيكاد يعرفها الخبيرُ بها	فيردُه الإقواء والمَخْلُ ^(١)
لعرفتُ مَعْنَاهَا بما احتملت	مني الضَّلُوعُ لأهلها قَبْلُ

فقال له ابن أبي عتيق: يا ابن أخي: استر على نفسك، واكتم على صاحبك، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا؛ أما تطير الحارث عليها حين قلب ربعاها، فجعل عاليه سافله، ما بقي إلا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارة من سجيل^(٢)؛ ابن أبي ربيعة كان أحسن صُحْبَةً للرُّبْع من صاحبك، وأجمل مخاطبة حيث يقول:

سائلا الرِّبع بالبُلِّي ^(٣) وقولاً	هجت شوقاً لي الغداة طويلاً
أين حيّ حَلُوك إذ أنت محفو	ف بهم أهل أراك جميلاً!
قال: ساروا فأمعنوا واستقلوا ^(٤)	وبرغمي لو استطعت سبيلاً
سئمونا وما سئمنا مُقَامًا	وأحبوا دَمائَةً وسُهولاً

فانصرف الرجلُ حَجَلًا مُدْعِنًا.

(١) أقوت الدار: أفقرت وخلت من أهلها، والمحل: الجذب.

(٢) السجيل: الطين المتحجر. (٣) البلى: تل قصير.

(٤) استقلوا: واصلوا السير وجدوا في الارتحال.

ابن المسيّب يفخر بصاحبه^(١)

قال بعض الرواة:

دخلتُ مسجدَ رسولِ الله ﷺ مع نُوْفَلِ بنِ مُسَاحِقٍ؛ وإنّه لمعتمد على يديّ إذ مرزنا بسعيد بن المسيّب في مجلسه، فسلمنا عليه، فردّ سلامنا ثم قال لنوفل: يا أبا سعيد؛ مَنْ أشعر؟ أصحابنا أم صاحبكم؟ يعني عبيد الله بن قيس الرقيّات أو عمر بن أبي ربيعة - فقال نوفل: حين يقولان ماذا؟ فقال: حين يقول صاحبنا:

خليليّ ما بال المطيّ كأنما	نراها على الأدبار بالقوم تنكص
وقد أبعدَ الحادي سُرَاهنَ وانتحي	بهنّ فما يألُو عَجُول مقلص
وقد قُطِعَتْ أعناقهن صِبابَة	فأنفُسنا مما تكلفُ شَخْصُ
يزدُن بنا قُرْبًا فيزداؤ شوقنا	إذ زاد طولُ العهدِ، والبعدُ ينقص

ويقول صاحبكم ما شئت! فقال له نوفل: صاحبكم أشهرُ بالقول في الغزل - أمتع الله بك - وصاحبنا أكثرُ أفانين شعر.

قال: صدقت؛ فلما انقضى ما بينهما من ذِكْرِ الشعر، جعل سعيد يستغفر الله ويعقد بيده، ويُعده بالخمس كلها، حتى وقى مائة.

قال الراوي: فلما فارقتاه قلت لنوفل: أترأه استغفر الله من إنشاده الشعر في مسجد رسول الله ﷺ! قال: كلا! هو كثير الإنشاد والاستشهاد للشعر، ولكنني أحسبه للفخر بصاحبه!

أعشى همدان يهجو ويمدح^(٢)

كان أعشى همدانَ شاعرَ أهل اليمن بالكوفة وفارسهم، وكان مع خالد بن عتاب بن وَرْقاء الرِّياحيّ بالرَّيِّ، فلما قدم خالدٌ من مَغزاه خرج جواريه يتلقينه، وفيهنَّ أمٌ ولِدٌ له كانت رفيعة القدر عنده؛ فجعل الناس يمرُّون عليها إلى أن جازَ بها الأعشى، وهو على فرسه يميل يمينًا ويسارًا من الثُّعاس، فقالت أم ولد خالد لجواريتها: إن امرأة خالد لتفأخرنني بأبيها وعمها وأخيها، وهل يزيدون على أن يكونوا مثل هذا الشيخ المُرتعش!

(١) الأغاني: ٥ - ٩٢ (طبعة دار الكتب). (٢) الأغاني: ٦ - ٤٢.

وسمعتها الأعمشى فقال: مَنْ هذه؟ فقال له بعضُ الناس: هذه جاريةُ خالد، فضحك وقال لها: إليك عني يا لكعَاء؛ ثم أنشأ يقول:

وما يُذْريك ما فرسٌ جَرُورٌ وما يُذْريك ما حَمَلُ السِّلاحِ!
وما يدرِيك ما شَيْخٌ كَبيرٌ عَدَاهُ الدهرُ عن سَنَنِ المِراحِ
فأقسَمُ لو ركبَتِ الوِزْدَ يوماً وليلَتَه إلى وَضَحِ الصِّباحِ
إذن لنظرت.....

فأصبحت الجاريةُ، فدخلت إلى خالد فشكَّت إليه الأعمشى، وقالت: والله ما تُكْرَم، ولقد اجترىء عليك! فقال لها: وما ذاك؟ فأخبرته أنها مرَّت برجل في وجه الصبح، ووصفته له وأنه سبَّها، فقال: ذلك أعمشى هَمْدان، فأبى شيء قال لك؟ فأنشدته الأبيات، فبعث إلى الأعمشى، فلما دخل عليه قال له: ما تقول هذه؟ زعمت أنك هَجَوْتها، فقال: أساءت سمعاً؛ إنما قلت:

مررت بنسوةٍ مُتَعَطَّراتٍ كضوءِ الصُّبحِ أو بَيضِ الأَداحي^(١)
على شقي البغالِ فَصِذَنَ قلبي بحسنِ الدُّلِّ والحدِّقِ المِلاحِ
فقلت: مِنَ الظِّباءِ؟ فقلن: سِرْبٌ بدا لكِ مِنَ ظِباءِ بني رِباحِ

فقلت: لا، والله، ما هكذا قال... وأعدت الأبيات.

فقال له خالد: أما لولا أنها قَدْ وُلِدَتْ مني لو هبَّتها لك، ولكنني أفتدي جنائيتها بمثل ثمنها، فدفعه إليه وقال له: أقسمت عليك يا أبا المصباح أن لا تعيد في هذا المعنى شيئاً بعد ما فرط منك.

أشجع الناس شعراً^(٢)

سأل يوماً عبدُ الملك بن مروان: مَنْ أشجعُ الناس شعراً؟ ف قيل: عمرو بن معدٍ يكرب. فقال: كيف وهو الذي يقول:

فجاشَتِ إليَّ النَّفْسُ أوَّلَ مرَّةٍ فرُدَّت على مَكْرُوهاها فاستقرَّت

(١) الأداحي: جمع أدحية وهي مبيض النعام في الرمل.

(٢) مجمع الأمثال: ٢ - ٢٢.

قالوا: فعمرو بن الإطنابة. فقال: كيف وهو الذي يقول:
 وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تُحمّدي أو تستريحي
 قالوا: فعامر بن الطفيل. قال: كيف وهو الذي يقول:
 أقول لِنَفْسٍ لا يُجَادُ بِمِثْلِهَا: أَقْلِي مِرَاحًا إِنِّي غَيْرُ مَدِيرِ
 قالوا: فمن أشجعهم عند أمير المؤمنين؟ قال: أربعة، عباس بن مرداس
 السُّلَمِيّ، وقيس بن الخطيم الأوسي، وعنتر بن شداد العبسي، ورجل من بني
 مَزِينة.

أما عباس فلقوله:

أشدُّ على الكتيبة لا أبالي أفيها كان حثفي أم سواها

وأما قيس بن الخطيم فلقوله:

وإني لَدَى الحرب العَوَان موكل بتقديم نفس لا أريد بقاءها

وأما عنتر بن شداد فلقوله:

إذ تتقون بي الأسيئة لم أخم^(١) عنها ولكن قد تضايق مقدمي^(٢)

وأما المزني فلقوله:

دعوتُ بني قُحافة فاستجابوا فقلت: ردّوا فقد طاب الورود

الحجاج على قبر ابنه^(٣)

لما هلك أبانُ بنُ الحجاج، وأمه أم أبان بنت النعمان بن بشير، ودفنه
 الحجاج قام على قبره؛ فتمثل بقول زياد الأعجم:

الآن لما كنت أكمل من مشى وافتّر نابك عن شباة القارح

وتكاملت فيك المروءة كلُّها وأعنت ذلك بالفعالِ الصالح!

(١) أخم: أجبين.

(٢) تضايق مقدمي: تضايق الموضع الذي هو قدامي من أن يدنوه أحد.

(٣) ذيل الأمالي: ٧.

فلما انصرف إلى منزله قال: أرسلوا خلف ثابت بن قيس الأنصاري؛ فاتاه فقال: أنشدني مرثيتك في ابنك الحسن، فأنشده:

قد أكذب الله من نعى حسننا ليس لتكذيب موته ثمن
أجول في الدار لا أراك وفي الـ مدار أناس جوارهم غبن
بدلتهم منك ليت أنهم أضحووا بيني وبينهم عدن!

فقال له الحجاج: ازبث ابني أبان. فقال له: لا أجد به ما كنت أجد بحسن، قال: وما كنت تجده؟ قال: ما رأيته قط فشبعت من رؤيته، ولا غاب عني قط إلا اشتقت إليه.

فقال الحجاج: كذلك كنت أجد أبان!

إن صدقتك أغضبتك^(١)

شكا الحجاج يوماً سوء طاعة أهل العراق وسقم مذهبهم، وسخط طريقتهم فقال له جامع المحاربي - وكان شيخاً صالحاً خطيباً لسنًا: أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شنوك^(٢) لنسبك، ولا لبلدك، ولا لذات نفسك، ولكنهم نقموا أفعالك؛ فدغ ما يُعدهم عنك إلى ما يُذنيهم منك، والتمس العافية ممن دونك تُعطيها ممن فوقك، وليكن إيقاعك، بعد وعيدك، ووعيدك^(٣) بعد وعدك.

فقال له الحجاج: والله ما أرى أن أردّ بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف!

فقال جامع: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار!

فقال الحجاج: الخيار يومئذ لله! قال جامع: أجل، ولكن لا تدري لمن يجعله الله!

فغضب الحجاج وقال: يا هناه^(٤)، إنك من محارب!

(١) زهر الآداب: ٤ - ٤٨، البيان والتبيين: ٢ - ٦٨، العقد الفريد: ٢ - ١٥١، عيون الأخبار:

٢ - ٢١٢.

(٢) شنوك: أبغضوك.

(٣) الوعيد في الشعر، والوعد في الخير.

(٤) يا هناه: يا فلان.

فقال جامع:

وللحربِ سُمِينَا وكان محارِبًا إذا ما ألقنَا أمسى من الطَّغْنِ أحمرًا
فقال له الحجاج: والله لقد هممتُ أن أخلَع لسانك، وأضربَ به وجهك.
فقال جامع: إن صدَقْنَاكَ أغضبتناك، وإن كذَبْنَاكَ أغضبتنا الله، وغَضِبَ الأميرُ
أهونَ علينا من غَضِبَ الله.

فقال الحجاج: أجل! وسَكَن واشتغل ببعض الأمر، فخرج جامع، وانسلَّ
من صفوف الناس.

جَمِيلُ أَشْعَرِ النَّاسِ (١)

حدّث أحد الرواة فقال:

دخلَ علينا كثيرٌ يوماً وقد أخذ بطرف رِيظَتِهِ، وألقى طرفها الآخر وهو يقول:
هو والله أشعرُ الناس حيث يقول:

وخبِرْتُمَانِي أَنْ تَيْمَاءَ مَنْزَلٌ ليلِي إذا ما الصَّيْفُ ألقى المَرَايِسِيَا
فهذي شهور الصَّيْفِ عني قد انقضت فما لِلثَّوِي تَرْمِي بليلى المرامِيَا!

ويجرُّ رِيظتَه حتى يبلغ إلينا، ثم يولِي عينا وَيَجْرُها ويقول: هو والله أشعرُ
الناس حيث يقول:

وأنتِ التي إن شئتِ كَدَرْتِ عِيشَتِي وإن شئت بعد الله أنعمتِ بَالِيَا
وأنتِ التي ما مِنْ صديقٍ ولا عِدَا يرى نَضُو ما أبقيتِ أَلَا رَأَى لِيَا

ثم يرجع إلينا ويقول: هو والله أشعر الناس؛ فقلنا: مَنْ تعني يا أبا صخر؟
فقال: وَمَنْ أعني سِوَى جميل! هو والله أشعر حيث يقول هذا.

مَنْ أَشْعَرِ النَّاسِ؟ (٢)

قال عبد الملك بن مسلم: كتب عبدُ الملك بن مروان إلى الحجاج: إنه لم

(١) الأغاني: ٨ - ١٢٥ (طبعة دار الكتب).

(٢) أمالي المرتضى: ٣ - ١٠١، خزنة الأدب: ٢ - ١١٨ (المطبعة السلفية)، الأغاني: ٩: ١٦٢ (طبعة الساسي).

يبقى شيء من لذة الدنيا إلا وقد أصبت منه، ولم يبق لي إلا مُناقلة^(١) الإخوان الأحاديث؛ وقيلك عامر الشعبي، فابعث به إليّ يحدثني.

فدعا الحجاج بالشعبي وجهزه، وبعث به إليه، وأطراه في كتابه.

فخرج الشعبي، حتى إذا كان بباب عبد الملك قال للحاجب: استأذن لي، فقال: ومن أنت؟ قال: عامر الشعبي، قال: حيّك الله! ثم نهض، وأجلسه على كرسيه، فلم يلبث أن خرج إليه فقال: ادخل.

قال الشعبي: فدخلت فإذا عبد الملك جالس على كرسي، وبين يديه رجل أبيض الرأس واللحية على كرسي، فسلمتُ فردّ السلام، ثم أومأ إليّ، فقعدتُ عن يساره، ثم أقبل على الذي بين يديه فقال: ويحك! من أشعر الناس؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين! فأظلم عليّ ما بيني وبين عبد الملك، ولم أضبر أن قلت: ومن هذا يا أمير المؤمنين الذي يزعم أنه أشعر الناس؟ فعجب عبد الملك من عجلتي قبل أن يسألني عن حالي، ثم قال: هذا الأخطل! فقلت: يا أخطل، أشعر منك الذي يقول:

هذا غلام حسن وجهه	مقتبل الخير سريع التمام
للحارث الأكبر والحارث الأصغر	والأعرج خير الأنام
ثم لهند ولهند، فقد	ينجّع في الروضات ماء الغمام
خمسة آباء هم ما هم	هم خير من يشرب صوب المدام

فقال عبد الملك: ردّدها عليّ، فرددتها حتى حفظها؛ فقال الأخطل: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الشعبي، قال: صدق والله، النابغة أشعر مني!

قال الشعبي: ثم أقبل عليّ عبد الملك فقال: كيف أنت يا شعبي؟ قلت: بخير - قال: لا زلت به - ثم ذهب لأصنع معاذيري لما كان من خلافي على الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد الأشعث.

فقال: مه! فإننا لا نحتاج إلى هذا المنطق، ولا تراه منا في قول ولا فعل حتى تُفارقنا، ثم أقبل عليّ فقال: ما تقول في النابغة؟ قلت: يا أمير المؤمنين، قد

(١) المناقلة في المنطق: أن تحدّثه ويحدثك.

فَضَّلَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ عَلَى جَمِيعِ الشُّعْرَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَرَجَ يَوْمًا
وَبِيَابِهِ وَقَدْ غَطَّفَانَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَّفَانَ، أَيُّ شُعْرَائِكُمُ الَّذِي يَقُولُ:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةَ تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبذَبُ
كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمَلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهَا كَوَكْبٌ
لِئَن كُنْتَ قَدْ بُلَّغْتَ عَنِّي خِيَانَةَ لِمَبْلِغِكَ الْوَأَشِيِّ أَغْشُ وَأَكْذِبُ
وَلَسْتَ بِمَسْتَبِقٍ أَحَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعْبِي؛ أَيُّ الرِّجَالِ الْمَهْذَبِ!

قالوا: النابغة؛ قال: فأبكم الذي يقول:

فإنَّكَ كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنكَ واسعُ
خطاطيف^(١) حُجْنٍ فِي جِبَالٍ مَتِينَةٍ تَمُدُّ بِهَا أَيْدِي إِلَيْكَ نَوَازِعُ

قالوا: النابغة؛ قال أيكم الذي يقول:

إلى ابن مُحَرَّرٍ أَعْمَلْتُ نَفْسِي وراحلتي وقد هدتِ العُيُونُ
أَتَيْتُكَ عَارِيًّا خَلَقًا ثِيَابِي عَلَى خَوْفٍ تُظَنُّ بِِي الظُّنُونُ
فَأَلْفَيْتِ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

قالوا: النابغة، قال: هذا أشعر شعرائكم. ثم أقبل عبد الملك على الأخطل
فقال: أتحب أن لك قياصًا^(٢) بشعرك شعر أحد من العرب، أو تحب أنك قلته،
فقال: لا والله، إلا أنني وددت أني كنت قلت أبياتًا قالها رجل منا؛ كان والله
مُغْدِف^(٣) القناع، قليل السماع، قصير الذراع، قال: وما قال؟ فأنشده:

إِنَّا مَحْيُوكُ فَاسَلَّمْ أَيْهَا الطَّلَلُ وَإِنْ بَلَيْتَ وَإِنْ طَالَتْ^(٤) بِكَ الطُّوَلُ
لَيْسَ الْجَدِيدُ بِهِ تَبَقَى بِشَاشَتُهُ إِلَّا قَلِيلًا وَلَا ذُو خَلَّةٍ يَصُلُ
وَالعَيْشُ لَا عَيْشَ إِلَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنٌ، وَلَا حَالٌ إِلَّا سَوْفَ تَتَنَقَّلُ
وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَائِلُونَ لَهُ مَا يَشْتَهِي؛ وَلَا مَ الْمَخْطِئِ الْهَبَلُ
قَدْ يَدْرِكُ الْمَتَاتِي بَعْضُ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الرَّزَلُ

(١) الخطاف: حديدة حجناء تعقل بها البكرة، والحجن: الاعوجاج.

(٢) المقايضة: المبادلة والمعاضة. (٣) أغدق قناعه: أرسله على وجهه.

(٤) يقال: طال طولك أي عمرك.

قال الشعبي: فقلت: قد قال القَطَامِيُّ أفضلَ من هذا، قال: وما قال؟ قلت:
قال:

طرقتُ جنوبَ رحالتنا من مطرقٍ ما كنتُ أحسبُه قريبَ المَعْنَقِي

حتى أتيتُ على آخرها، فقال عبد الملك: ثكلتِ القَطَامِيَّ أمُه! هذا والله
الشعر، ثم قال: يا شعبي، أي شعراء الجاهليَّة كان أشعر من النساء؟ قلت:
الْحَنَسَاء. قال: ولمَ فَضَّلْتَهَا على غيرها؟ قلت: لقَوْلها:

وقائلةٌ والنَّعشُ قد فاتَ خَطْوَهَا لندركه: يا لهفَ نفسي على صَخْرَا
ألا ثكلتُ أمَ الذين غَدُوا به إلى القبر، ماذا يحملون إلى القبر!

فقال عبد الملك: أشعر والله منها ليلي الأَخِيلِيَّة حيث تقول:

مُهْفَهْفُ الكشحِ والسَّرْبَالِ مُنْخَرِقٌ عنه القميصُ لسيرِ اللَّيْلِ مُخْتَقِرٌ
لا يَأْمَنُ النَّاسُ مُمَسَاهَ وَمُضَبَّحَهُ في كلِّ حَيٍّ، وإنَّ يَغْزُوهُ يُنْتَظَرُ

ثم قال: يا شعبي، لعلَّه شقَّ عليك ما سمعته! فقلت: إي والله يا أمير
المؤمنين أشدَّ المَشَقَّة، إنني قد حدَّثتُك فلم أُفدك إلا أبيات التابغة في الغلام.

ثم قال عبد الملك: يا شعبي، إنما أعلمناك هذا، لأنه بلغني أن أهلَ العراق
يتناولون على أهل الشام ويقولون: إن كانوا غلبونا على الدَّولة، فلنَّ يغلبونا على
العلم والرواية، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق. ثم رَدَّدَ عليَّ أبيات ليلي حتى
حفظتها، وأذن لي فانصرفت، فكنتُ أوَّلَ داخلٍ وآخر خارجٍ.

الشعبي عن عبد الملك بن مروان^(١)

قال الشعبي: دخلت على عبد الملك بن مروان في عِلَّتِه التي مات فيها،
فقلت: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ فقال: يا شعبي؛ أصبحت كما قال عمرو بن
قميئة:

كأنِّي وقد جاوزتُ تسعينَ حِجَّةً خلعتُ بها عَنانَ لجامي
رمثني بناتُ الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يُزْمَى وليس بِرَام!
فلو أنني أرمى بنبلٍ رميَّها ولكنني أرمى بغيرِ سِهَامٍ

(١) الأغاني: ١٦ - ١٥٩ (طبعة الساسي)، مهدي الأغاني: ٢ - ٦٢.

وأهلكني تأصلُ يومٍ وليلةٍ
على الرّاحتين تارة وعلى العصا
وتأميلُ عامٍ بعد ذلك وعامٍ
أنوءُ ثلاثًا بَعْدَهُنَّ قِيامي
فقلت: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيد، وقد بلغ سبعين
حجة:

كأنّي وقد جاوزتُ سبعين حجةً
فلما بلغ سبعمائة وسبعين سنة قال:
باتت تشكّي إليّ النفسُ مُجْهِشَةً
فإن تُزادى ثلاثًا تَبْلُغني أملاً
فلما بلغ مائة سنة قال:

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها
فلما بلغ مائة سنة وعشراً قال:

أليس ورائي إن تراخت مَنِيَّتِي
أخبر أخبار القرون التي خَلَّتْ
لزوم العصا تُخَنّي عليها الأصابع
أدبٌ كأنّي كلما قمت راع

فلما بلغ ثلاثين ومائة سنة، وقد حَضَرَتْهُ الوفاة قال:

تمنّى ابْتِنَائِي أن يعيشَ أبوهما
فإن حان يوماً أن يموت أبوكما
وقولا: هو المرء الذي لا صَدِيقَه
إلى الحول ثم اسمُ السّلامِ عليكما
وهل أنا إلا من ربيعةٍ أو مُضَرَ!
فلا تُخْمِشَا وَجْهًا ولا تحلقا الشَّعْرُ
أضاع، ولا خَانَ الخليلَ ولا غَدْرُ
ومن يَبْكُ حَوْلًا كاملاً فقد اغْتَدَّرُ^(١)

قال الشعبي: فبتسم عبد الملك وقال: لقد قويت من نفسي بقولك يا عامر،
ورائي لأجد خفًا وما بي من بأس، وأمر لي بصيلة. وقال لي: اجلس يا شعبي؛
فحدثني ما بينك وبين الليل. فجلست فحدثته حتى أمسيتُ وخرجت من عنده، فما
أصبحت حتى سمعت الواعية في داره^(٢).

(٢) الواعية: الصراخ والصوت.

(١) اعتذر: أتى بعذر.

تَلَطَّفَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحِجَّاجِ^(١)

كان عبد الله بن الحجاج شجاعاً فاتكاً صُعلوكاً من صعاليك العرب، وكان متسرِّعاً إلى الفِتنِ، فكان ممَّن خرج مع عمرو بن سعد على عبد الملك بن مروان.

فلما ظفر به عبد الملك هرب إلى ابن الزبير، فكان معه حتى قُتِلَ، ثم جاء إلى عبد الملك متنكِّراً، واختال حتى دخل عليه، وهو يطعم الناس، وجلس حَجْرَةً^(٢)، فقال له: ما لك يا هذا لا تأكل! قال: لا أستحلُّ أن أكل حتى تأذن لي. قال: إني قد أذنت للناس جميعاً، قال: لم أعلم، أفأكل بأمرك؟ قال: كل. فأكل وعبد الملك ينظر إليه ويَعْجب من فعله.

فلما أكل الناس جلس عبد الملك في مجلسه، وجلس خواصه بين يديه، وتفرَّق الناس، فجاء عبد الله ووقف بين يديه، واستأذنه في الإنشاد فأذن له، فأنشد:

أبلغ أمير المؤمنين فإنني مما لقيت من الحوادث مُوجِع
مُنِعَ القرار فجئت نحوك هارباً جيش يُجْرُ، ومَقْتَبٌ يتلمع^(٣)

فقال عبد الملك: وما خوفك لا أم لك! فقال عبد الله:

إن البلادَ عليّ وهي عريضةٌ وَعِرتْ مذهبها، وسُدَّ المطلاع

فقال عبد الملك: ذلك بما كسبت يداك، وما الله بظلام للعبيد، فقال

عبد الله:

إنّ الذي يعصيك ممَّا بعدها من دينه وحياته متودع
أتى رضاك ولا أعود لمثلها وأطيع أمرك ما أمرت وأسمع

فقال له عبد الملك: هذا لا نقبله منك إلا بعد المعرفة بك وبذنبك، فإذا

عرفت الحوبة^(٤) قبلت التوبة؛ فقال عبد الله:

ولقد وطئت بني سعيدٍ وطأةً وابنَ الزبير فعرشهُ متضعضُ

(١) الأغاني: ١٢ - ٢٥ (طبعة السامي). (٢) حجرة: منفرداً في ناحية.

(٣) المقتب: جماعة الخيل تجتمع للغارة، ويتلمع: يضيء.

(٤) الحوبة: الإثم.

فقال عبد الملك: لله الحمد والمئة على ذلك، فقال عبد الله:

ما زلت تضرب منكبا على منكب
تعلو ويسفل غيركم وما يرفع
لا يستوي خاوي نجوم آفل
والفجر منبلجا إذا ما يطلع
ووضعت أمية واسطين لقومهم
ووضعت وشطهم فنعم الموضع
بيت أبو العاصي بناه برنوة
عالي المشارف عزه ما يدفع

فقال له عبد الملك: إن توريتك عن نفسك لتريني، فأئي الفسقة أنت! وماذا تريد؟ فقال:

حربت^(١) أصيبيتي يد أرسلتها
وإليك بعد معادها ما ترجع
وأرى الذي يرجو ثراث محمد
أقلت نجومهم ونجمك يسطع

فقال عبد الملك: ذلك جزاء أعداء الله، فقال عبد الله:

فارحم أصيبيتي الذين كأنهم
حجلى تدرج بالشرية وقع^(٢)

فقال عبد الملك: لا أنعشهم الله، وأجاج أكبادهم، ولا أبقى وليدا من نسلهم، فإنهم نسل كافر فاجر لا يبالي ما صنع، فقال عبد الله:

مال لهم مما يضمن جمعته
يوم القليب فحيز عنهم أجمع

فقال له عبد الملك: لعلك أخذته من غير حله وأنفقته في غير حقه، وأرصدت به لمشاقة أولياء الله، وأعددت له لمعاونة أعدائه، فنزعه منك إذا استظهرت به على معصية الله، فقال عبد الله:

أذنو لترحمني وتجبُر فاقتي
فأراك تدفعني، فأين المدفع!

فتبسم عبد الملك وقال له: إلى النار! فمن أنت؟ قال: أنا عبد الله بن الحجاج؛ وقد وطئت دارك، وأكلت طعامك، وأنشدتُك، فإن قتلتنني بعد ذلك فأنت وما تراه، وأنت بما عليك في هذا عارف! ثم عاد إلى إنشاده فقال:

ضاقَت ثياب الملبسين وفضلهم عتي،
فألبسني فتوبك أوسع

فنبذ عبد الملك إليه رداء كان على كتفه، وقال: البسه لا لبست! فالتحف به، ثم قال له عبد الملك: أولى لك! والله لقد طاولتك طمعا في أن يقوم بعض

(١) حربته: سلب ماله، وأصيبيه: تصغير صبيه. (٢) الحجلى: حيوان، والشرية: موضع بنجد.

هؤلاء فيقتلك. فأبى الله ذلك، فلا تجاورني في بلد، وانصرف آمنًا، وأقم حيث شئت!

نُصَيْبٌ عِنْدَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ (١)

قال نُصَيْبٌ: قلت الشعر وأنا شاب فأعجبني قولي؛ فجعلت آتي مَشِيخَةً من بني ضَمْرَةَ، ومَشِيخَةً من خُزَاعَةَ، فأنشدهم القصيدة من شعري، أنسبها إلى بعض شعرائهم الماضين فيقولون: أحسن والله! هكذا يكون الكلام! وهكذا يكون الشعر.

فلما سمعت ذلك منهم علمت أنني مُحْسِنٌ؛ فأزمعوا وأزمعت الخروج إلى عبد العزيز بن مروان، وهو يومئذٍ بمصر؛ فقلت لأختي أُمَامَةَ - وكانت عاقلة جَلْدَةً: أي أختي؛ إني قد قلت شعراً، وأنا أريد عبد العزيز بن مروان، وأرجو أن يُعْتَقِكَ اللهُ به وأمكٍ ومن كان مَرْفُوقًا من أهل قَرَابَتِي.

قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون! يا ابن أمِّ، أتجتمع عليك الخصلتان: السوداء، وأن تكون ضُحْكَةً للناس! قلت: فاسمعي. فأنشدتها فسمعت، فقالت: بأبي أنت! أحسنت والله! في هذا رجاءٌ عظيم، فاحرُجْ على بركة الله.

فخرجت على قَعُودٍ لي حتى قدمت المدينة فوجدت بها الفرزدق في مسجد رسول الله ﷺ، فعرجت إليه فقلت: أنشده وأستنشدُه، وأعرض عليه شعري. فأنشدته، فقال لي: ويلك! أهذا شعرك الذي تطلب به الملوك! قلت: نعم. قال: فلست في شيء. إن استطعت أن تكتم هذا على نفسك فافعل! فأنفضختُ (٢) عرقًا!

فصحبني رجل من قريش كان قريبًا من الفرزدق، وقد سمع إنشادي، وسمع ما قال لي الفرزدق؛ فأومأ إلي؛ فقممت إليه، فقال: ويحك! أهذا شعرك الذي أنشدته الفرزدق؟ قلت: نعم. فقال: قد والله أصبت، ولئن كان هذا الفرزدق شاعرًا لقد حسدك، فإننا لنعرف محاسن الشعر؛ فامض لوجهك، ولا يكسرتك.

فسرني قوله، وعلمت أنه قد صدقني فيما قال، فاعتزمت على المضي، فمضيت!

(١) الأغاني: ١ - ٣٢٥ (طبعة دار الكتب). (٢) انفضخت عرقًا: تدفقت عرقًا.

فقدمت مصرَ وبها عبدُ العزيز بنُ مزوان، فحضرتُ بابه مع الناس، فَنُحِيتُ عن مجلس الوجوه، فكننتُ وراءهم، ورأيتُ رجلاً جاء على بغلة، حسنَ الشارة، سهل المدخل، يُؤذَن له إذا جاء. فلما انصرف إلى منزله انصرفت معه أماشي بغلته، فلما رأني قال: ألك حاجة؟ قلت: نعم! أنا رجلٌ من أهل الحجاز، شاعر، وقد مدحتُ الأمير، وخرجتُ إليه راجياً معروفه، وقد ازدريت فطردت من الباب، ونُحيتُ عن الوجوه. قال: فأنيشدني، فأنشدته، فأعجبه شعري، فقال: ويحك! أهذا شعرك؟ فإياك أن تتنحل! فإن الأمير روايةٌ عالم بالشعر، وعنده زواةٌ، فلا تفضخني ونفسك، فقلت: والله ما هو إلا شعري. فقال: ويحك! فقل آياتاً تذكر فيها خوف^(١) مصر وفضلها على غيرها، وأقني بها غداً.

فغدوت عليه من غد فأنشدته قولي:

سَرَى الهمُّ تثنيني إليك طلائعه
بمصر وبالخوف اعترثني روائعه
وبات وسادي ساعدٌ قلّ لحمه
عن العظم حتى كاد تبدؤ أشاجعه^(٢)
قال: وذكرْتُ فيها الغيث فقلت:

وكم دون ذاك العارض البارق الذي
له اشتفتُ من وجه أسيلٍ مدامعه
تمشى به أفناء^(٣) بكر ومذحج
وأفناء عمرو، وهو خضبٌ مرابعه
فكلُّ مسيلٍ من تهامة طيب
دميئ الربا تسقي البحار دوافعه^(٤)
أعني على برق أريك وميضه
تضياء دجناك الظلام لوامعه
إذا اكتحلت عيناً محببٌ بضوئه
تجافت به حتى الصباح مضاجعه

فقال: أنت والله شاعر! اخضرُ بالباب حتى أذكرك للأمير.

قال: فجلستُ على الباب ودخل، فما ظننتُ أنه أمكنه أن يذكرني حتى دعا بي، فدخلت على عبد العزيز، فسلمت، فصعد في بصره وصوب، ثم قال: أنت شاعر، ويحك! قلت: نعم أيها الأمير! قال: فأنشدني فأنشدته فأعجبه شعري.

(١) الحوف: بمصر حوفان؛ الشرقي والغربي وهما متصلان.

(٢) الأشاجع: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف.

(٣) أفناء بكر ومذحج: أخلاط الناس. (٤) الدوافع: مساليل الماء.

وجاء الحاجب فقال: أيها الأمير، هذا أيمن بن خُزيم الأسدي بالباب. قال: ائذنْ له، فدخل فاطمأناً، فقال له الأمير: يا أيمن، كم ترى ثمن هذا العبد؟ فنظر إليّ فقال: والله لنعم الغادي في أثر المخاض^(١)، هذا أيها الأمير؟ أرى ثمنه مائة دينار. فقال: فإن له شعراً وفصاحة! فقال لي أيمن: أتقول الشعر؟ قلت: نعم. قال: قيمته ثلاثون ديناراً. قال: يا أيمن، أرفعه وتخفضه أنت؟ قال: لكونه أحق أيها الأمير، ما لهذا وللشعر؟ مثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعراً؟ فقال: أنشده يا نصيب، فأشدته.

فقال له عبد العزيز: كيف تسمع يا أيمن؟ قال: هو أشعر أهل جلدته. قال: هو والله أشعر منك. قال: أمي أيها الأمير! قال: إي والله منك. قال: والله أيها الأمير إنك لمَئولٌ طرف^(٢). قال: كذبت، والله ما أنا كذلك، ولو كنت كذلك ما صبرت عليك، تنازعتني التحية، وتواكلني الطعام، وتتكىء على وسائدي وفرشي، وبك ما بك! وكان بأيمن بياض.

قال: ائذن لي أن أخرج إلى بشر بالعراق^(٣)، واحملني على البريد. قال: قد أذنت لك، وأمر به فحمل على البريد إلى بشر. فقال فيه يمدحه ويعرض بأخيه عبد العزيز:

ركبتُ من المقطم في جُمادى	إلى بشر بن مزوان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف	رأى حقاً عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين أقم ببشر	عمود الحق إن له عمودا
ودع بشرًا يقومهم ويحدث	لأهل الزيغ إسلامًا جديدًا
كان التاج تاج بني هرقل	جلوة لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدني وجه بشر	إذا الألوان خالفت الخدودا ^(٤)

قال: فأعطاه بشر مائة ألف درهم.

(١) المخاض: الحوامل من النوق، وهو يريد: لنعم هذا العبد يعرى الإبل.

(٢) يقال رجل طرف: إذا كان لا يثبت على عهد.

(٣) بشر بن مروان: أخو عبد العزيز بن مروان.

(٤) في قوله هذا يعرض بكلف كان بوجه عبد العزيز بن مروان.

سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسُمِّيَةَ^(١)

أَقْبَلَ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَتَى مِنْ بَنِي عَبَسَ، وَسَيِّمٌ: فَأَعْجَبَهُ، فَقَالَ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: سُلَيْمَانُ، قَالَ: ابْنُ مَنْ؟ قَالَ: ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ! فَأَعْرَضَ عَنْهُ؛ وَجَعَلَ يُفْرِضُ لِمَنْ دُونَهُ، فَعَلِمَ الْفَتَى أَنَّهُ كَرِهَ مُوَافَقَةَ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ.

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا عَدَمْتَ اسْمَكَ، وَلَا شَقَى اسْمٌ يُوَافِقُ اسْمَكَ، فَارْضَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا سَيْفٌ بِيَدِكَ، إِنْ ضَرَبْتُ بِهِ قَطَعْتَ، وَإِنْ أَمَرْتَنِي أَطَعْتُ؛ وَسَهْمٌ فِي كِنَانَتِكَ أَشْتَدُّ إِنْ أُرْسِلْتُ، وَأَنْفُدُ حَيْثُ وَجَّهْتُ.

فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ وَهُوَ يَخْتَبِرُهُ: مَا قَوْلُكَ يَا فَتَى لَوْ لَقِيتَ عَدُوًّا؟ قَالَ: أَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ! قَالَ سُلَيْمَانُ: أَكُنْتَ مَكْتَفِيًّا بِهَذَا لَوْ لَقِيتَ عَدُوًّا دُونَ ضَرْبٍ شَدِيدٍ؟

قَالَ الْفَتَى: إِنَّمَا سَأَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: مَا أَنْتَ قَائِلٌ؟ فَأَخْبَرْتُكَ، وَلَوْ سَأَلْتَنِي: مَا أَنْتَ فَاعِلٌ؛ لِأَتْبِأَنَّكَ، إِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَضَرَبْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَتَعَفَّفَ، وَلَطَعَنْتُ بِالرَّمْحِ حَتَّى يَتَقَصَّفَ!

فَأَعْجَبَ بِهِ سُلَيْمَانُ وَأَلْحَقَهُ فِي الْعِطَاءِ بِالْأَشْرَافِ، وَتَمَثَّلَ:

إِذَا مَا اتَّقَى اللَّهُ الْفَتَى ثُمَّ لَمْ يَكُنْ عَلَى قَوْمِهِ كَلًّا فَقَدْ كَمَلَ الْفَتَى

عَقِيدَةُ النَّدَى^(٢)

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ سُلَيْمَانَ: شَهِدْتُ مَجْلِسَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَأَتَاهُ سَعِيدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَتَيْتُكَ مُسْتَعْدِيًّا. قَالَ: وَمَنْ بِكَ؟ قَالَ: مُوسَى شَهَوَاتٍ. قَالَ: وَمَالُهُ؟ قَالَ: سَمَّعَ بِي، وَاسْتَطَالَ فِي عِرْضِي.

فَقَالَ: يَا غَلَامُ؛ عَلَيَّ بِمُوسَى، فَأَتَيْتَنِي بِهِ، فَأَتَيْتَنِي بِهِ، فَقَالَ: وَيْلَكَ! أَسَمَعْتَ بِهِ وَاسْتَطَلَّتْ فِي عِرْضِهِ؟ قَالَ: مَا فَعَلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنِّي مَدَحْتُ ابْنَ عَمِّهِ فغَضِبَ هُوَ.

(٢) الأغانى ٣: ٣٥٣ (طبعة دار الكتب).

(١) ابن أبي الحديد: ١ - ٣٢٢.

قال: وكيف ذلك؟ قال: أردت شراءً جاريةً لم يبلغ ثمنها جدتي، فأتيته وهو صديق، فشكوتُ إليه ذلك، فلم أصب عنده شيئاً، فأتيتُ ابنَ عمه سعيدَ بن خالد، فشكوتُ إليه ما شكوتُهُ إلى هذا. فقال: تَعُوذُ إليّ؛ فتركته ثلاثاً ثم أتيته، فَسَهَّلَ مِن إِذْنِي، فلما استقرَّ بي المجلس قال: يا غلام؛ قل لقيمي: هاتِ وديعتي.

فَفَتَحَ أَبَا بَيْنَ بَيْنَيْنِ، وإذا بجارية، فقال لي: أهذه بُعَيْتُكَ؟ قلت: نعم، فذاك أبي وأمي! قال: اجلس. ثم قال: يا غلام؟ قل لقيمتي: هاتي ظبيةً^(١) نَفَقْتِي، فَأَتَيْ بِظَبْيَةٍ، فَنَثَرَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فإذا مائة دينار، فَرُدَّتْ فِي الظَّبْيَةِ. ثم قال: عتيذة طيبى^(٢)، فَأَتَيْ بِهَا؛ ثم قال: مِلْحَفَةٌ^(٣) فراشي، فَأَتَيْ بِهَا؛ فصيرَ ما في الظبية وما في العتيذة في حواشي الملحفة، ثم قال: شأنك بالجارية واستعن بهذا.

فقال له سليمان بن عبد الملك: فذلك حين تقول ماذا؟ قال: قلت:

أبا خالد - أعزني سعيد بن خالد
أخا العُرف، لا أعني ابنَ بنت سعيد
ولكنني أعزني ابنَ عائشة الذي
أبو أبويه خالدُ بن أسيد
عقيدُ^(٤) الندى ما عاش يرضى به الندى
فإن مات لم يرضَ الندى بعقيد
دَعَوُهُ دَعَوُهُ إِنَّكُمْ قَدْ رَقَدْتُمْ
وما هو عن أحسابكم برُقود
قَبَلْتُ أَنَسًا هَكَذَا فِي جُلُودِهِمْ
من الغيظ لم تقتلهمُ بحديد

فقال سليمان: عليّ يا غلام بسعيد بن خالد، فأتي به، فقال: أَحَقُّ ما وصفك به موسى؟ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فأعاد عليه. فقال: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فما طَوَّقَتْكَ هذه الأفعال؟ قال: دَيْنُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ

(١) الظبية هنا: جراب صغير من جلد ظبي.

(٢) العتيذة: الحقة يكون فيها طيب الرجل أو العروس.

(٣) الملحفة: الملاءة. (٤) عقيد الندى: حليف الكرم.

دينار. فقال له: قد أمرت لك بمثلها وبمثلها وبثلث مثلها، فحملت إليه مائة ألف دينار.

قال الحارث: فلقيت سعيد بن خالد بعد ذلك فقلت له: ما فعل المال الذي وصلك به سليمان؟ قال: ما أصبحت والله أمْلِكُ منه إلا خمسين دينارًا. قلت: ما اغتاله! قال: حَلَّةٌ^(١) من صديق، أو فاقَةٌ من ذي رَجِم.

إيجاز في المقال وبلاغة في البيان^(٢)

قال سُفيان القرشي: كنا عند هشام بن عبد الملك، وقد وفد عليه وفد أهل الحجاز - وكان شباب الكتاب إذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم - فحضرت كلامهم.

وكان محمد بن أبي الجهم أعظم القوم قدرًا، وأكبرهم سنًا، وأفضلهم رأيًا وحلمًا؛ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين! إن خطباء قريش قد قالت فيك ما قالت، وأكثرت وأطنبت، والله ما بلغ قائلهم قدرك، ولا أحصى خطيبهم فضلك، وإن أذنت في القول قلت. قال: تكلم، قال: أفأوجز أم أطنب؟ قال: بل أوجز.

قال: تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى، وزينك بالتقوى، وجمع لك خير الآخرة والأولى، إن لي حوائج أفأذكرها؟ قال: هاتها، قال: كبرت سني، ونال الدهر متي، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسري، وينقي فقري فعل! قال: وما الذي ينفي فقرك، ويجبر كسرك! قال: ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار!

فأطرق هشام طويلًا، ثم قال: هيهات يا ابن أبي الجهم! بيت المال لا يحتمل ما ذكرت، فقال: إن الله أترك لمجلسك، فإن تعطينا فحَقًا أديت، وإن تمنعنا فنسأل الذي بيده ما حويت يا أمير المؤمنين. إن الله جعل العطاء محبة، والمنع مَبَغْضَةً؛ والله لأن أحبك أحب إلي من أن أبغضك!

قال: فألف دينار لماذا؟ قال: أقضي بها دينًا فدَحِنِي^(٣) قضاؤه، وقد عَنَانِي حَمَلُهُ، وأضرَّ بي أهله. قال: فلا بأس؛ تُنْقَسُ كُزْبَةٌ، وتؤدي أمانة. وألف دينار

(١) الخلة: الحاجة والفقر.

(٢) العقد الفريد: ٣ - ١٨٦، الأمالي: ١ - ١٤٧، صبح الأعشى: ١ - ٢٦٤.

(٣) فدحني: أنقلني.

لماذا؟ قال: أزوج بها من أذك من ولدي. قال: نعم المسلك سلكت، أغضبت بصراً، وأعفت ولدًا، ورفعت نسلًا. وألف دينار لماذا؟ قال: اشترى بها أرضاً يعيش بها ولدي، وأستعين بفضلها على نواب دهرى، وتكون ذخراً لمن بقى بعدي.

قال: فإننا قد أمرنا لك بما سألت. قال: فالمحمود الله على ذلك، وجزاك الله يا أمير المؤمنين والرحم خيراً! ثم خرج.

فأبعه هشام بصره، وقال: تالله ما رأيت رجلاً أطف في سؤال، ولا أرفق في مقال من هذا، هكذا فليكن القرشي. أما والله إننا لنعرف الحق إذا نزل، ونكره الإسراف والبخل، وما نعطي تبذيراً، ولا نمنع تقتيراً، وما نحن إلا خزان الله في بلاده، وأمنأوه على عباده، فإذا أذن أعطينا، وإذا منع أبيتنا، ولو كان كل قائل يصدق، وكل سائل يستحق، ما جبهنا^(١) قائلاً، ولا ردذنا سائلاً، ونسأل الذي بيده ما استحفظنا أن يجريه على أيدينا، فإنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر^(٢)؛ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً! فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ لقد تكلمت فأبلغت، وما بلغ في كلامه ما قصصت؛ قال: إنه مبتلى، وليس المبتلى كالمعتلى!

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته^(٣)

حج هشام بن عبد الملك في خلافة الوليد أخيه، ومعه رؤساء أهل الشام، فجهد أن يستلم الحجر، فلم يقدر من ازدحام الناس، فئصب له منبر فجلس عليه ينظر إلى الناس، وأقبل علي بن الحسين - وهو أحسن الناس وجهًا، وأنظفهم ثوبًا، وأطيبهم رائحة - فطاف بالبيت، فلما بلغ الحجر الأسود تنحى الناس كلهم، وأخلوا له الحجر ليستلمه هيبة وإجلالاً.

فعاظ ذلك هشامًا، وبلغ منه، فقال رجل لهشام: من هذا أصلح الله الأمير! قال: لا أعرفه - وكان به عارفاً - ولكنه خاف أن يزغب فيه أهل الشام، ويسمعوا منه، فقال الفرزدق - وكان لذلك كله حاضرًا: أنا أعرفه، فسلمي يا شامي. قال:

(١) جبهه: لقيه بما يكره.

(٢) يقدر: يقسم.

(٣) الأغاني: ١٤ - ٧٥ (طبع الساسي)، المعاسن والمساويء: ٣٢١ (طبع لبيزج).

ومن هو؟ قال:

هذا الذي تعرف البطحاء^(١) وطأته
هذا ابن خير عباد الله كلهم
إذا رأته قريش قال قائلها:
يكاد يُمنسكه عرفان^(٢) راحته
فليس قولك: من هذا بضائه
فحبسه هشام فقال في حبسه:

أتحبسني بين المدينة والتي
يقلب رأسا لم يكن رأس سيد
إليها قلوب الناس يهوى منيها!
وعينا له حواء باد عيوبها

فبعث إليه هشام فأخرجه، ووجه إليه علي بن الحسين عشرة آلاف درهم، وقال: اعذر يا أبا فراس، فلو كان عندنا في هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك به، فردّها، وقال: ما قلت ما كان إلا الله، وما كنت لأرزأ^(٤) عليه شيئا، فقال له علي: نحن أهل بيت إذا أنفدنا شيئا ما نرجع فيه.

وَاعِظُ الْمُلُوكِ^(٥)

قال خالد بن صفوان بن الأهم: أوفدني يوسف بن عمر الثقفي إلى هشام بن عبد الملك في وفد أهل العراق فقدمت عليه، وقد خرج بقرابته وحشمه وغاشيته^(٦) وجلسائه، فنزل في أرض قاع صحصح^(٧)، تنائف أفيح^(٨)، في عام قد بكر وسميه، وتتابع وليه^(٩)، وأخذت الأرض فيه زيتتها على اختلاف ألوان نبتتها؛ من

(١) البطحاء: مسيل واسع فيه دقاق الحصى.

(٢) عرفان: منصوب على أنه مفعول له.

(٣) الحطيم: حجر الكعبة أو جدارها، أو ما بين الركن وزمزم والمقام.

(٤) رزاه ماله: أصاب من ماله شيئا.

(٥) الأغاني: ٢ - ١٥٣ (طبعة دار الكتب). معجم الأدباء: ١١ - ٢٧.

(٦) غاشية الرجل: من يتتابه من زواره وأصدقائه.

(٧) القاع الصحصح: الأرض الجرداء المستوية، والتنائف: جمع تنوفة، وهي أرض لا أنيس بها ولا ماء.

(٨) الأفيح: الواسع.

(٩) الوسمي: مطر الربيع الأول، والولي: المطر الذي يلي الوسمي.

نُورِ رَيْبِعِ مُونِقٍ^(١)، فهو في أحسن منظرٍ ومَخْبِرٍ، وأحسن مُسْتَمَطَّرٍ، بصَعِيدٍ^(٢) كأن ترابه قطعُ الكافور. وقد ضُرب له سُرادِقٌ من جَبْرِ^(٣)، كأنَّ يوسُفَ بنَ عَمَرَ صنعه له باليمن، فيه فُسْطَاطٌ فيه أربعة أفرشةٍ من خَزِّ أَحْمَرٍ، مثلُها مَرافِقُها، وعليه دُرَاعَةٌ^(٤) من خَزِّ أَحْمَرٍ مثلُها عَمَامَتُها، وقد أخذ الناس مجالسهم.

فأخرجت رأسي من ناحية السَماطِ^(٥)، فنظر إليَّ شِبْهَ المُسْتَنْطِقِ لي! فقلت: أتمَّ اللهُ عليك يا أمير المؤمنين نِعْمه، وجعل ما قُلِّدك من هذا الأمر رُشْدًا، وعاقبةً ما يُؤوِلُ إليه حَمْدًا؛ وأخْلَصَه لك بالتَّقَى؛ وكَثُرَه لك بالنماء، ولا كَدَرَ عليك منه ما صَفَا، ولا خَالَطَ سرورَه بالرَّدى، فقد أصبحت للمسلمين ثِقَّةً، إليك يَقصدون في أمورهم، ويفزَعون في مظالمهم، وما أجدُ شيئًا - يا أمير المؤمنين - هو أبلغُ في قضاء حَقِّك وتوقيعِ مجلسك، وما منَّ اللهُ عليَّ به من مُجَالَسَتِكَ، من أن أذْكَرَكَ نِعَمَ اللهُ عليك، وأنبَهَكَ لشُكْرها؛ وما أجدُ في ذلك شيئًا هو أبلغُ من حديث من سَلَفَ قَبْلَكَ من الملوك؛ فإن أذن أمير المؤمنين أخبرته به.

فاستوى هشامٌ جالسًا - وكان مُتَكِنًا - ثم قال: هات يا ابن الأهم! فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن مَلِكًا من الملوك قبلك خرج في عامٍ مثل عامك هذا إلى الخورنق والسدير^(٦) في عامٍ قد بَكَرَ وَسَمِيَهُ، وتتابعَ وِلِيُّه، فهو في أحسن منظرٍ، وأحسن مُسْتَمَطَّرٍ، بصعيدٍ كأن ترابه قطع الكافور، وكان قد أُعْطِيَ فِتَاءً^(٧) السنِّ، مع الكثرة والغلبة والقهر، فنظَرَ فأبْعَدَ النظر؛ ثم قال لجلسائه: لِمَن هذا؟ هل رأيتم مثل ما أنا فيه؟ وهل أحدٌ أُعْطِيَ مثل ما أعطيت؟

وكان عنده رجل من بقايا حَمَلَةِ الحُجَّةِ^(٨)، والمضَيَّ على أدبِ الحقِّ ومناهجه - ولم تخلُ الأرض من قائمٍ لله بالحجة في عبادته - فقال: أيها الملك؛ إنك سألت عن أمرٍ، أفتأذُنُ لي في الجواب عنه؟ قال: نعم، قال: رأيت^(٩) هذا الذي أنت فيه شيءٌ لم تَزَلْ فيه، أم شيءٌ صار إليك ميراثًا وهو زائلٌ عنك وصائرٌ

(١) مونق: معجب.

(٢) الصعيد: التراب أو وجه الأرض.

(٣) الحجر: جمع الحجرة، وهي نوع منسوج من اليمن فيه نقط.

(٤) الدراعة: الثوب المشقوق من الأمام.

(٥) السماط: جمع سبط، وهو الصف من الناس وغيرهم.

(٦) الخورنق والسدير: قصران بالحيرة.

(٧) الفتاء: الشباب.

(٨) رأيت: أخبرني.

(٩) الحجة: البرهان.

إلى غيرك، كما صار إليك من لَدُنْ غيرك؟ قال: كذلك هو! قال: فما أراك إلا أعجبت بشيء يسير تكون فيه قليلاً، ويغيبُ عنك طويلاً، وتكون غداً بحسابه مُرتهتاً. قال: ويحك! فأين المَهْرَبُ؟ وأين المَطْلَبُ؟ فقال: إما أن تقيم في مُلْكِكَ فتعملَ بطاعة الله ربك على ما ساءك وسرَّك، وأمضك^(١) وأزمضك^(٢)، وإما أن تضعَ تاجك، وتخلعَ أطمارك^(٣)، وتلبسَ أمساحك^(٤)، وتعبدَ ربك، حتى يأتِكَ أجلك!

قال الملك: فإذا كان السحر فاقرع عليَّ بابي؛ فإني مُختارٌ أحدَ الرأيين، فإن اخترتُ ما أنا فيه كنتَ وزيراً لا يُغصَى، وإن اخترتُ قَلَوَاتِ الأَرْضِ وَقَفَرَ البلادِ كنتَ رفيقاً لا يخالف.

فلما كان السحر قرع عليه بابَه، فإذا هو قد وضع تاجه، وخلع أطمارَه، ولبس أمساحه، وتهيأ للسياحة، فلزما والله الجبل، حتى أتاهما أجلهما، فذلك حيث يقول عدي بن زيد، أخو بني تميم:

رِ أأنتَ المُبرأُ الموقُور!	أيها الشامتُ المعيرُ بالدهن
أم بل أنتَ جاهل مغرور!	أم لديك العهد الوثيق من الأيد
ذا عليه من أن يُضام خفيرا!	مَن رأيتَ المنونَ خلدنَ آمن
وإن، أم أين قبله سابور!	أين كسرى، كسرى الملوك أنوشيز
وم، ولم يبقَ منهم مذكور	وبنو الأصفر الكرام ملوك الر
لله تُجبي إليه والخابور ^(٦)	وأخو الحضِر ^(٥) إذا بناءً وإذ دج
سأ ^(٧) فللطير في ذراه وكور	شاده مزمرًا وجلله كد
ملك عنه، فبابه مهجور	لم يهبه زنبُ المنون فباد أل
رف يوماً وللهدى ^(٨) تفكير	وتذكُر رب الخوزنقِ إذ أش

(١) يقال أمضني: أحرقتي وشق عليّ.

(٢) أزمضك: أوجعك.

(٣) الطمر: الثوب الخلق.

(٤) المسح: الكساء من الشعر الغليظ ويجمع على أمساح على قلة.

(٥) الحضِر: قصر بجبال تكريت بين دجلة والفرات بناه الضيزن بن معاوية، ملك الجزيرة.

(٦) الخابور: نهر بالجزيرة.

(٧) الكلس: ما يدهن به النزول وغيرها.

(٨) يريد بهذه الجملة: أن التفكير طريق الهدى.

سرّه ماله وكثرة ما يمم — ملك والبحر مُعْرِضًا^(١) والسدير
 فازعوى قلبه فقال: وما غب — طةً حيّ إلى الممات يصير!
 ثم بعد الفلاح والملك والإم —^(٢) ورآتهم هناك القبور
 ثم صاروا كأنهم ورق جفّ — فألوت^(٣) به الصبا والدبور
 فبكى هشام حتى اخضلت^(٤) لحيته، وبُلت عمامته، وأمر بنزع أبيته، ونقل
 قرابته وحشمه وغاشيته وجلساته، ولزم قصره.

فأقبلت الموالي والحشم عليّ فقالوا: ما أردت بأمر المؤمنين! أفسدت عليه
 لذته، وتعضت عليه مأذبه. فقلت: إليكم عني، فإني عاهدت الله عز وجل ألا
 أخلّو بملك إلا ذكرته الله عز وجل!

إِنْ خَالِدًا أَدَلَّ فَأَمَل^(٥)

قال خالد بن صفوان: دخلت على هشام بن عبد الملك، وذلك بعد عزله
 خالد بن عبد الله القسريّ، فألفيته جالسًا على كرسيّ في بزكة، ماؤها إلى الكعيبين،
 فدعا لي بكرسيّ فجلست عليه، فقال: يا خالد؛ ربّ خالدٍ جلس مجلسك، كان
 ألوط بقلبي، وأحبّ إليّ!

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن جلمك لا يضيقُ عنه، فلو صفحت عن جُرمه!
 فقال: إن خالدًا أدلّ فأمل، وأوجف فأجحف، ولم يدع لراجع مَرَجعًا، ولا لعودة
 موضعًا، ثم قال: ألا أخبرك عنه يا ابن صفوان؟ قلت: نعم، قال: إنه ما بدّأني
 بسؤال حاجة قطّ مذ قديم العراق حتى أكون أنا الذي أبدؤه بها فقلت: فذاك آخرى
 أن تزجّع إليه، فقال متمثلاً:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذّ إليه بوجهٍ آخر الدهر تقبل

قال خالد: ثم قال لي هشام: حاجتك، فقلت: تزيدني في عطائي عشرة
 دنانير. فأطرق ثم قال: ولم؟ وفيم؟ العبادة أحدثتها فنعينك عليها، أم لبلاء حسن
 أبليته عند أمير المؤمنين، أم لماذا يا ابن صفوان! إذن يكثر السؤال ولا يحتمل

(٢) الإمّة: العمّة.
 (٤) أخضلت: ابتلت.

(١) معرضًا: متسعًا.
 (٣) ألوت: ذهبت.
 (٥) أمالي المرتضى: ٤ - ١٧٢.

ذلك بيتُ المال! فقلت: يا أمير المؤمنين، وفَّقك الله وسدَّدك، أنت والله كما قال أخو خُزاعة:

إذا المال لم يوجب عليك عطاءه قرابةً قُربى أو صديقاً توافقه
منعتَ وبعضُ المنع حَزْمٌ وقوَّةٌ ولم يفتلنك^(١) المالَ إلا حقائقه

فلما قَدِمَ خالد البصرة، قيل له: ما الذي حملك على تزيين الإمساك له؟ فقال: أحببتُ أن يَمْنَعَ غيري فيكثرَ مَنْ يلوئمه!

أبو النجم عند هشام بن عبد الملك^(٢)

ورد أبو النجم^(٣) على هشام بن عبد الملك في الشعراء، فقال لهم هشام: صفوا لي إبلاً فقَطَّروها^(٤) وأزردوها وأضدروها؛ حتى كاني أنظر إليها؛ فأنشدوه، وأنشده أبو النجم:

الحمدُ لله الوهُوبِ المُجْزِلِ

حتى بلغ إلى ذكر الشمس فقال: «وهي على الأفق كعين...» وأراد أن يقول: «الأحول»، ثم ذكر حوالة هشام؛ فلم يتم البيت وأزجج عليه.

فقال هشام: أجز البيت؛ فقال: «كعين الأحول» وأتم القصيدة، فأمر هشام فوجيء^(٥) عنقه، وأخرج من الرُصافة؛ وقال لصاحب شرطته: يا ربيع؛ إيتك وأن أرى هذا! فكلّم وجوه الناس صاحب الشرطة أن يقرّه ففعل.

قال أبو النجم: ولم يكن أحدًا بالرُصافة يُضيف إلا سُلَيْم بن كَيْسان الكلبي وعمرو بن بسطام التغلبي، فكنتُ إتي سُلَيْمًا فأنغدى عنده، وأتي عمراً فأنعشى عنده، وأتي المسجد فأبيت فيه.

قال: فاهتمّ هشام ليلةً، وأمسى لِقَسَ النفس، وأراد محدثًا يحدّثه؛ فقال لخدام له: ابغني محدثًا أعرابيًا شاعرًا يروي الشعر.

(١) اقلت الشيء: أخذته في سرعة، ويتعدى إلى مفعولين.

(٢) الأغانى: ١٠ - ١٥٥ (طبعة دار الكتب)، رغبة الأمل: ٦ - ٢٣٩.

(٣) اسمه الفضل بن قدامة أحد رجال الإسلام الفحول المقدمين، وفي الطبقة الأولى منهم.

(٤) قطر الإبل: قرب بعضها من بعض على نسق.

(٥) وجيء: وجاه باليد وبالسكين إذا ضرب به.

فخرج الخادم إلى المسجد فإذا هو بأبي النجم، فضربه برجله، وقال له: قم
أجب أمير المؤمنين. قال: إني رجل أعرابي غريب. قال: إياك أبغي، فهل تروي
الشعر؟ قال: نعم، وأقوله.

فأقبل به حتى أدخله القصر، وأغلق الباب، فأيقن بالشر، ثم مضى به،
فأدخله على هشام في بيت صغير، والشَّمع بين يديه يَزْهَرُ^(١).

فلما دخل قال له هشام: أبو النجم؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين طريدك!
قال: اجلس، فسأله وقال له: أين كنت تأوي؟ ومن كان يُنزلك؟ فأخبره الخبر.
قال: وكيف اجتمعنا لك؟ قال: كنت أتغذى عند هذا، وأتعشى عند هذا. قال:
وأين كنت تبيت؟ قال: في المسجد حيث وجدني رسولك. قال: وما لك من
الولد والمال؟ قال: أمّا المال فلا مال لي، وأمّا الولد فلي ثلاث بنات وبُنيّ يقال
له: شَيَان.

فقال: هل زوّجت من بناتك أحدًا؟ قال: نعم؛ زوّجت اثنتين، وبقيت
واحدة تَجْمِزُ^(٢) في آياتنا كأنها نعامة.

قال: وما وصيت به الأولى؟ فقال:

أَوْصَيْتُ مِنْ بَرَّةٍ^(٣) قَلْبًا حُرًّا بِالْكَلْبِ خَيْرًا وَالْحَمَامَةَ شَرًّا
لَا تَسْأَمِي ضَرْبًا لَهَا وَجَرًّا حَتَّى تَرَى حُلُومَ الْحَيَاةِ مُرًّا
وَإِنْ كَسَسْتِكِ ذَهَبًا وَذُرًّا وَالْحَيِّ غَمِيهِمْ بَشَرٌ طَرًّا

فضحك هشام، وقال: فما قلت للأخرى؟ قال: قلت:

سُبِّي الْحَمَامَةُ وَابْهَتِي^(٤) عَلَيْهَا وَإِنْ دَنَّتْ فَارْذَلْفِي إِلَيْهَا
وَأَوْجَعِي بِالْفَهْرِ^(٥) رِكْبَتِيهَا وَمِرْفَقَيْهَا وَاضْرِبِي جَنْبَيْهَا
وِظَاهِرِي الثُّذْرَ لَهَا عَلَيْهَا لَا تَخْبِرِي الذَّهْرَ بِهِ ابْتِنَيْهَا

قال: فضحك هشام حتى بدت نواجذُه، وسقط على قفاه. فقال: ويحك!
ما هذه وصية يعقوب ولده! فقال: وما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين. قال: فما

(١) يزهر: يتلألأ.

(٢) كان اسمها برة.

(٣) تجمز: تعدو وتسرع.

(٤) بهت: قذفه بالباطل، وقال عليه ما لم يفعل.

(٥) الفهر: الحجر يملأ الكف.

قلت للثالثة؟ قال: قلت:

أوصيك يا بنتي فإني ذاهبُ أوصيك أن تحمّدك القرائبُ
والجارُ والضيفُ الكريمُ الساعِبُ لا يرجع المسكينُ وهو خائبُ
ولا تني أظفارك السّلاهب^(١) منهنّ في وجه الحماة كاتبُ
والزّوج إن الزّوج بنس الصّاحبُ

قال: فكيف قلت لها هذا ولم تتزوج؟ وأي شيء قلت في تأخير تزويجها!
قال: قلت فيها:

كأن ظلّامة أخت شيبان يتيمةٌ ووالداها حيانُ
الرأس قملٌ كلّه وصيبان^(٢) وليس في الرجلين إلا خيطانُ
فهي التي يُذعّرُ منها الشيطانُ

فقال هشام لحاجبه: ما فعلتِ الدنانيرُ المختومةُ التي أمرتُك بقبضها! قال:
هي عندي، ووزنها خمسمائة! قال: فادفعها إلى أبي النجم؛ ليجعلها في رجلي
ظلّامة مكان الخيطين!

لا يعرف الكلام إلا بنشره^(٣)

قحطت البادية في أيام هشام بن عبد الملك، فقدمت العرب من أحياء
القبائل، فجلس هشام لرؤسائهم فدخلوا عليه، وفيهم ذرّواس بن حبيب وله أربع
عشرة سنة، عليه شملتان وله ذؤابه. فأخجم القومُ وهابوا هشامًا، ووقعت عينُ
هشام على ذرّواس فاستصغره، فقال لحاجبه: ما يشاء أحدٌ أن يصل إليّ إلا وصل
حتى الصبيان!

فعلم درواس أنه يريدّه، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن دخولي لم يُخل بك
شيئًا، ولقد شرّفتني، وإن هؤلاء القوم قدموا لأمر أحجموا دونه، وإن الكلام نُشر،
والسكوت طي، ولا يعرف الكلام إلا بنشره. فقال هشام: فأنشر لا أن لك!!
وأعجبه كلامه.

(١) السلاهب: الطويلة.

(٢) الصيبان: جمع الصّوبة وهي: بسنة القمل؛ جمعه صيبان.

(٣) لباب الآداب: ٣٥٣.

فقال: أصابتنا ثلاث سنين، فَسَنَةٌ أَذَابَتِ الشَّحْمَ. وسنة أكلت اللحم، وسنة نَقَّتْ^(١) العظم، وفي أيديكم فضول أموال؛ إن كانت لله ففرقوها على عباده المستحقين لها، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، ولا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. واعلم يا أمير المؤمنين أن الوالي من الرعية كالروح من الجسد، لا حياة إلا به.

فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً. وأمر أن يقسّم في باديته مائة ألف درهم، وأمر لدرواس بمائة ألف درهم. فقال: يا أمير المؤمنين؛ ارددها إلى أعطية أهل باديتي فإني أكره أن يعجز ما أمر لهم به أمير المؤمنين عن كفايتهم. قال: فما لك من حاجة تذكرها لنفسك؟ قال: ما لي من حاجة دون عامة المسلمين!!

ولما عاد درواس إلى منزله بعث إليه هشام بمائة ألف درهم، ففرقها في تسعة أبطن من العرب، لكل بطن عشرة آلاف، وأخذ هو عشرة آلاف، فقال هشام: إن الصنعة عند درواس لتضعف على سائر الصنائع^(٢).

أَنْجَحْتَ وَفَادَتِكَ وَوَجِبَتْ ضِيَاغَتُكَ^(٣)

وفد سعد بن مرة بن جُبَيْر - وكان شاعراً - على الوليد بن يزيد، فعرض له في يوم من أيام الربيع، وقد خرج إلى متنزه له، فصاح به: يا أمير المؤمنين؛ وَافِدُكَ وَزَائِرُكَ وَمَوْمَلُكَ! فَتَبَادَرَ إِلَيْهِ الْحَرَسُ لِيَصِدَّوهُ عَنْهُ، فَقَالَ: دَعُوهُ، اذُنْ إِلَيَّ. فدنا إليه، فقال: مَنْ أَنْتَ؟ قال: أنا رجلٌ من أهل الحجاز، شاعر، قال: تريد ماذا؟ قال: تسمع مني أربع أبيات، قال: هات؛ فقال:

شِمْنٌ^(٤) الْمَخَايِلَ نَحْوَ أَرْضِكَ بِالْحَيَا^(٥)

وَلَقَيْنَ رِكْبَانًا بَعُزْفِكَ قُفْلًا

(١) النقي: مخ العظام وشحمها، ونقى العظم: استخراج نقيه.

(٢) جمع صنعة، وهي المعروف والإحسان. (٣) الأغاني: ٧ - ٢٤ (طبعة دار الكتب).

(٤) شمت مخايل الشيء: إذا تطلعت نحوه بصرك منتظراً له.

(٥) الحيا: الخصب والمطر.

قال: ثم مَهْ؟ قال:

فعمدَن نحوكَ لم يُنخَن لِحاجةٍ إلا وقوعَ الطير حتى ترحلا

قال: إن هذا السيرَ حيث، ثم ماذا؟ قال:

يعمدَن نحو موطِيءٍ حجراته كرمًا، ولم تعدلِ بذلك مَعْدِلًا

قال: قد وصلت إليه فمه؟ قال:

لاحت لها نيرانُ حَيِّي قَسَطِلٍ فاخترَن نارك في المنازل منزلا

قال: فهل غيرُ هذا؟ قال: لا، قال: أنجحت وفادتُك، ووجبت ضيافتك،

أعطوه أربعة آلاف دينار، فقبضها ورَحَلَ!

شاعر بني هاشم^(١)

لما قال الكُميت بن زيد الأسدي الهاشميات قدم البصرة، فأتى الفرزدق، فقال: يا أبا فراس؛ إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك! قال: ومن أنت؟ فانتسب له. فقال: صدقت، فما حاجتك؟ قال: نُفِثَ عَلَي لساني، فقلتُ شعراً، وأحببتُ أن أعرضَ عليك ما قلت، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته، وإن كان غير ذلك أمرتني بسثره، وسترتَه علي. فقال: يا ابن أخي؛ أحسب شعرك على قدر عقلك، فهات ما قلت راشداً، فأنشده:

طربت - وما شوقاً إلى البيض أطربُ وما لعباً متي، وذو الشيب يلعبُ!

قال: بلى؛ فإنك في أوان اللعب فالعب. فقال:

ولم يُلهنِي دار ولا رسمُ منزلٍ ولم يَتَطَرَّبني بنانٌ مَحْضَبُ

قال: فما يطربك يا ابن أخي؟ فقال:

وما أنا ممن يزجرُ الطيرَ همهُ أصاح غرابٍ أم تعرَّض ثعلبُ

قال: فما أنت؟ ويحك! وإلى من تَسْمُو؟ فقال:

ولا السانحات^(٢) البارحات عشيَّةً أمرَ سليمُ القرنِ أو مرَّ أعصبُ

(١) خزائن الأدب: ٤ - ٢٣٧ (الطبعة الأميرية)، المسعودي: ٢ - ١٩٠.

(٢) السانح: ما ولاك ميامه، والبارح: ما ولاك مياسره، وكان أهل نجد يقيمون بالأول ويتشاءمون بالثاني، وأهل العالية على العكس. والأعصب: الثور المكسور القرن، وكانوا يتشاءمون به.

قال: أمّا هذا فقد أحسنت فيه، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والثّهي وخير بني حواء والخير يُطلب

قال: مَنْ هم! ويحك! قال:

إلى الثّقْرِ البيض^(١) الذين بحبهم إلى الله فيما نابني أتقربُ

قال: أرخني؛ ويحك! مَنْ هؤلاء؟ قال:

بني هاشمِ رَهْطِ^(٢) النبيّ فإنني بهم ولهم أَرْضِي مرارًا وأغضب

قال: لله دُرُّ بني أبيك! أصبّت وأحسنت؛ إذ عدلت عن الزعانف والأوباش؛

إذَنْ لا يَضْرَدُ^(٣) سهمك، ولا يكذب قولك.

ثم مرّ فيها، فقال له: أظهر ثم أظهر؛ فأنت والله أشعر مَنْ مضى، وأشعرُ

مَنْ بقي.

فقدم المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين، فأذن له ليلاً،

وأنشده، فلما بلغ من الميمية قوله:

وقتيل بالطف^(٤) غودِرَ منهم بين غوغاءِ أمةٍ وطغام

بكى أبو جعفر، ثم قال: يا كُمت! لو كان عندنا مالٌ لأعطيناك، ولكن لك

ما قال رسول الله لحسان بن ثابت: لا زلت مؤيداً بروح القدس ما دُبِّيت عنا أهل

البيت!

فخرج من عنده فأتى عبد الله بن الحسن بن علي فأنشده فقال له: إن لي

ضبعةٌ أعطيتُ فيها أربعة آلاف دينار، وهذا كتابها، وقد أشهدتُ لك بذلك شهودًا،

وناوله إياه!

فقال: بأبي أنت وأمي! إني كنتُ أقولُ الشعر في غيركم أريد بذلك الدنيا

والمال، ولكنني - والله - ما قلته فيكم إلا لله، وما كنت لأخذ على شيء جعلته الله

مالاً ولا ثمنًا؛ فألح عبد الله عليه، وأبى من إعفائه.

(١) البيض هنا: المشهورين من الأشراف. (٢) الرهط: القوم والقبيلة.

(٣) صرد السهم: أخطأ.

(٤) الطف: موضع قرب الكوفة، وقتيل الطف هو الحسين عليه السلام.

فأخذ الكميت الكتاب ومضى، فمكث أيامًا، ثم جاء إلى عبد الله فقال: بأبي أنت وأمي؛ يا ابن رسول الله! إن لي حاجة؟ قال: وما هي، وكل حاجة لك مقضية؟ قال: كائنة ما كانت؟ قال: نعم! قال: هذا الكتاب تقبله، وترجع الضيعة. ووضع الكتاب بين يديه، فقبله عبد الله.

ونهض عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، فأخذ ثوبًا، فدفعه إلى أربعة من غلمانها، ثم جعل يدخل دور بني هاشم ويقول: يا بني هاشم، هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صمّت الناس عن فضلكم، وعرض دمه لبني أمية، فأثيّبوه بما قدرتم! فيطرح الرجل في الثوب ما قدر عليه من دراهم ودنانير؛ وأعلم النساء بذلك؛ فكانت المرأة تبعث ما أمكنها، حتى إنها لتخلع الحلي عن جسدها. فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم.

فجاء بها إلى الكميت فقال له: أتيناك بجهد المقلّ، ونحن في دولة عدونا، وقد جمعنا هذا المال، وفيه حلي النساء كما ترى، فاستعين به على دهرك. فقال: بأبي أنت وأمي! قد أكثرتم وأطيستم، وما أردت بمدحي إياكم إلا الله ورسوله، ولم أك لأخذ لذلك ثمنًا من الدنيا، فازدده إلى أهله، فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة فأبى، فقال: إن أبيت أن تقبل فإني رأيت أن تقول شيئًا يغضب منه بعض الناس؛ لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما يجب.

فابتدأ الكميت، وقال قصيدته التي يذكر فيها قومه مناقب من مضر، وريعة وإياد وأنمار، ويكثر فيها من تفضيلهم، ويطنب في وصفهم، وأنهم أفضل من قحطان.

فثارت العصبية في البدو والحضر، وانحرف أهل اليمن إلى الدعوة العباسية، وأعقب ذلك انتقال الدولة عن بني أمية إلى بني هاشم.

إن يُمني يغلب شوْمك^(١)

لما تُوفّي السفاح دخل أبو ذَلّامة على المنصور، والناس عنده يعزّونه فقال:

أمسيت بالأنبارِ يا ابنَ محمّدٍ لم تستطع عن عُقرها تحويلا
ويلي عليك وويل أهلي كلهم ونيلاً وعولاً في الحياة طويلا

(١) الأغاني ١٠ - ٢٤٠ (طبعة دار الكتب)، معاهد التنصيص: ٢ - ٢١٠.

فَلْتَبْكِينَ لَكَ السَّمَاءَ بِعَبْرَةٍ وَلَيَبْكِينَ لَكَ الرَّجَالَ عَوِيلاً
 مات الندى إذ ميتاً يا ابن محمد فجعلته لك في التراب عديلاً
 إني سألت الناس بعدك كلهم فوجدتُ أسمحَ من سألتُ بخيلاً
 الشَّقَوَاتِي أُحْزْتُ بِعَدِكَ لِلَّتِي تَدَعُ الْعَزِيزَ مِنَ الرَّجَالِ ذَلِيلًا؟
 فلاحلفنَ يمينَ حقِّ برّةٍ تالله ما أُعْطِيتُ بِعَدِكَ سُولاً

فأبكى الناسَ قوله؛ فغضب المنصور غضباً شديداً، وقال: لئن سمعتك تشد هذه القصيدة، لأقطعن لسانك، قال: يا أمير المؤمنين؛ إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لي مُكرماً وهو الذي جاء بي من البدو، كما جاء الله بإخوة يوسف إليه، فقل كما قال يوسف لأخوته: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: الآية 92].

فُسِّرِي عَنِ الْمَنْصُورِ، وَقَالَ: قَدْ أَقْلَنَّاكَ يَا أَبَا ذُلَامَةَ، فَسَلْ حَاجَتَكَ! قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ قَدْ كَانَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَمْرَ لِي بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ وَخَمْسِينَ ثَوْبًا، وَهُوَ مَرِيضٌ، وَلَمْ أَقْبِضْهَا؛ فَقَالَ الْمَنْصُورُ: وَمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ؟ قَالَ: هُوَ لَاءُ - وَأَشَارَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِمَّنْ حَضَرَ.

فوثب سليمان بن مُجالد، وأبو الجهم؛ فقالوا: صدق أبو ذلامَةَ، نحن نعلم ذلك. قال المنصور لأبي أيوب الخازن - وهو مغيظ: يا سليمان، ادفعها إليه، وسيّره إلى هذا الطاغية - يعني: عبد الله بن علي، وكان قد خرج بالشام، وأظهر الخلاف - فوثب أبو ذلامَةَ، وقال: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن أخرج معهم، والله إني مشؤوم!

قال المنصور: امض، فإن يُمني يغلبُ شؤمك. فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما أحبُّ أن يُجربَ ذلك مني على مثل هذا العسكر؛ فإني لا أدري أيُّهما يغلب: يُمنك أم شؤمي؟ إلا أنني بنفسِي أوثق وأعرف وأطولُ تجربة.

فقال: دَعْنِي وَهَذَا؛ فَمَا لَكَ مِنَ الْخُرُوجِ بُدٌّ. قَالَ: فَإِنِّي أَضْذُقُ الْآنَ، شَهِدْتُ وَاللَّهِ تِسْعَةَ عَشْرَ عَسْكَرًا، كُلُّهَا هُزِمَتْ، وَكُنْتُ سَبِيهَا، فَإِنْ شِئْتَ الْآنَ - عَلَى بَصِيرَةٍ - أَنْ يَكُونَ عَسْكَرُكَ تَمَامَ الْعَشْرِينَ فَافْعَلْ.

فضحك المنصور، وأمره أن يتخلف مع عيسى بن موسى بالكوفة.

قَتَلَهُمُ الشِّعْرُ (١)

كان أبو العباس جالسًا في مجلسه على سريرته، وبنو هاشم دونه على الكراسي، وبنو أمية على الوسائد، قد تَبَيَّنَتْ لهم - وكانوا في أيام دَوْلَتِهِمْ يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير، ويجلس بنو هاشم على الكراسي - فدخل الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين؛ بالباب رجلٌ حجازيٌّ أسود ركبَ على نجيب، مُتَلَثِّمٌ (٢)، يستأذن ولا يُخَبِّرُ باسمه، ويحلف ألاَّ يَخْسِرَ اللثامَ عن وجهه حتى يراك؛ قال: هذا مولاي سُديف، يدخل؛ فدخل، فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله، حَذَرَ (٣) اللثامَ عن وجهه ثم سلم، ودنا وقبَل يده، ثم انصرف إلى خلفه، فقام مقام مثله، وأنشأ يقول:

أصبح المُلْكُ ثابتَ الأساسِ	بالبَهاليلِ (٤) من بني العباسِ
بالصُّدُورِ المُقَدِّمِينَ قديمًا	والرُّؤُوسِ القِمَاقِمِ (٥) الرُّؤُوسِ (٦)
يا أميرَ المطَّهِّرينَ من الذِّ	مَ ويا رأسَ مُنْتَهَى كُلِّ راسِ
أنتَ مهديُّ هاشمٍ وهُدَاهَا	كم أناسِ رَجُوكَ بعدَ إياسِ
لا تُقِيلَنَّ عبدَ شمسٍ عِشَارًا	واقطَعَنَّ كُلَّ رَقْلَةٍ (٧) وغِراسِ
أنزِلُوهَا بحيثَ أنزلَهَا اللهُ	بدارِ الهوانِ والإنعاسِ
خوفَهُمْ أظهرَ التَّوَدُّدَ منهم	وبهم منكمُ كحزبِ المَوسَى
أقصِهِمْ أيها الخليفةُ وأخسِمِ	عنك بالسيفِ شَأْفَةَ (٨) الأرجاسِ
واذكرنَّ مصرَعَ الحسينِ وزيدِ (٩)	وقتيلِ (١٠) بجانبِ المَهْرَاسِ

(١) الأغاني: ٤ - ٣٤٥ (طبعة دار الكتب)، المحاسن والمساويء: ٤١٠، (ليزج).

(٢) تلمس الرجل: وضع اللثام؛ وهو رد العمامة على الوجه.

(٣) حذر اللثام: حطه من علو إلى سفلى.

(٤) البهاليل: جمع بهلول وهو العزيز الجامع لكل خير.

(٥) القمقام: السيد الكثير الخير، الواسع الفضل.

(٦) الرؤاس: الولاة والحكام.

(٧) الرقلة: النخلة الطويلة التي تفوت اليد. (٨) الأرجاس: جمع رجس؛ وهو القدر.

(٩) هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قتل في أيام هشام بن عبد الملك.

(١٠) المهراس: ماء بأحد، ويعني بالقتيل حمزة بن عبد المطلب، قتله يوم أحد غلام لجبير بن مطعم؛ اسمه وحشي.

والإمام^(١) الذي بحزام أمسى زهنَ قبرٍ في عُزْبَةٍ وتناسي
فلقد ساءني وساء سوائي قبرُهُم من نَمَارِقٍ وكراسي

فتغيّر لون أبي العباس، وأخذه زَمَعٌ^(٢) ورعدة؛ فالتفت بعضُ ولد سليمان بن عبد الملك إلى رجل منهم، وكان إلى جنبه، فقال: قتلنا والله العبد، ثم أقبل أبو العباس عليهم، فقال: أرى قتلاكم من أهلي قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون في الدنيا، خذوهم؛ فأخذتهم الخُرَاسانية وضربوهم فأهمدوا؛ إلا ما كان من عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فإنه استجار بدادود بن علي، وقال له: إن أبي لم يكن كأبائهم، وقد علمت صنيعته إليكم؛ فأجاره واستوهبه من السفاح، وقال له: قد علمت يا أمير المؤمنين صنيع إبيه إلينا. فوهبه له، وقال له: لا تريني وجهه، وليكن بحيث تأمته، وكتب إلى عماله في النواحي بقتل بني أمية.

المنصور أحق بشعر طريف^(٣)

قال أبو بكر الهذلي: سرّت مع أمير المؤمنين المنصور إلى مكة وسائرته يوماً، فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تذهب في الأرض، وعليه جبة خز وعمامة عدنية، وفي يده سوط يكاد يمس الأرض، سرتي الهيئة.

فلما رآه أمرني أن أدعوه، فدعوته فجاء، فسأله عن نسبه وبلاده وبادية قومه وعن ولاة الصدقة، فأحسن الجواب؛ فأعجبه ما رأى منه، فقال: أنشدني. فأنشده شعراً لأوس بن حجر وغيره من الشعراء، وحدثه حتى أتى على شعر لطريف بن تميم العنبري؛ وهو قوله:

إن قناتي لتبغ^(٤) لا يؤيسها^(٥) غمزُ الثِّقَافِ^(٦) ولا دُهنٌ ولا نارُ
متى أجز خائفًا تأمن مسارحهُ^(٧) وإن أخف آمنًا تفلق به الدَّارُ
إن الأمور إذا أوردتها صدّرتْ إن الأمور لها وزد وإصدار

(١) الإمام الذي بحران: هو إبراهيم الإمام، رأس الدولة العباسية؛ قتله مروان بن محمد صبرًا وحبسًا.

(٢) الزمع: شبه الرعدة تأخذ الإنسان. (٣) الطبري: ٩ - ٢٩٨.

(٤) التبغ: شجر من أشجار الجبال؛ تتخذ منه القسي.

(٥) التأيس: التذليل والتأثير؛ أي لا يؤثر فيها شيء.

(٦) الثقاف: ما تقوم به الرماح.

(٧) المسارح جمع مسرح: وهو الموضع الذي تسرح إليه الماشية بالغداة للرعي.

فقال: ويحك! ما كان طريف فيكم حيث قال هذا الشعر؟ قال: كان أثقل العرب على عدوه وطأة، وأدركهم بثار، وأيمنهم نقيية^(١)، وأصلبهم قناة لمن رام هضمه، وأقراهم لضيفه وأحوظهم من وراء جاره؛ اجتمعت العرب بعكاظ فكلهم أقر له بهذه الخلال، غير أن امرأ أراد أن يقصّر به فقال: والله ما أنت ببعيد النجعة^(٢) ولا قاصد الرمية^(٣)؛ فدعاه ذلك إلى أن جعل على نفسه ألا يأكل إلا لحم قنص يقتنصه، ولا ينزع كل عام عن غزوة يبعد فيها أثره.

قال: يا أخت تميم، لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكني أحق بيته منه، أنا الذي وصف، لا هو!

المحبة مفتاح كل خير^(٤)

دعا المنصور بالربيع^(٥) فقال: سلني ما تريد! فقد سكت حتى نطقت، وخفت حتى ثقلت، وأقللت حتى أكثرت!

فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما أرهب بخلقك، ولا أستصغر فضلك، ولا أغتم مالك، وإن يومي بفضلك علي أحسن من أمسي، وغدك في تأملي أحسن من يومي! ولو جاز أن يشرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سبقني لذلك أحد.

قال: صدقت علمي بهذا منك أحلك هذا المحل، فسلني ما شئت!

قال: أسألك أن تقرب عبدك الفضل^(٦)، وتؤثره وتحبّه! قال: يا ربيع؛ إن الحب ليس بمال يوهب، ولا رتبة تبذل، وإنما تؤكده الأسباب! قال: فاجعل له طريقاً إليه بالفضل عليه!

قال: صدقت، وقد وصلته بألف درهم! ولم أصل بها أحدًا غير عمومتي؛ لتعلم ماله عندي؛ فيكون منه ما يستدعي به محبتي.

(١) النقيية: النفس؛ وميمون النقيية: مبارك النفس.

(٢) النجعة: المذهب في طلب الكلا. (٣) قصد الرمية: أصابها.

(٤) زهر الآداب: ٢ - ٢٩٩.

(٥) هو الربيع بن يونس، خدم المنصور، ثم تدرج في المناصب عنده إلى أن استوزره، وكان جليلاً نبيلًا عارفاً بخدمة الخلفاء، مات سنة ١٧٠ هـ.

(٦) هو ابنه الفضل بن الربيع، وقد وزر للرشيد بعد البرامكة؛ ولابنه الأمين.

ثم قال: فكيف سألت له المحبة يا ربيع؟ قال: لأنها مِفْتَاحُ كلِّ خير، ومِغْلَاقُ كلِّ شر؛ تُسْتَرُّ بها عندك عيوبه، وتصير حسناتِ ذنوبه!
قال: صدقت.

المنصور والشعراء^(١)

قال الربيع بن يونس يوماً لأبي جعفر المنصور: يا أمير المؤمنين؛ إن الشعراء ببابك، وهم كثير، وقد طالت أيامهم، ونفدت نفقاتهم، فقال: اخرج إليهم، وسلم عليهم، وقل لهم: مَنْ مَدَحْنَا مِنْكُمْ؛ فلا يصف الأسد؛ وإنما هو كَلْبٌ من الكلاب، ولا الحية؛ وإنما هي دُوَيْبَةُ مُنْتَبَهَةٌ تأكل التراب؛ ولا الجبل؛ فإنه حجر أصم، ولا البحر؛ فإنه عَطْنٌ لَجِبٌ^(٢)؛ فمن ليس في شعره شيء من هذا فليدخل، ومن كان في شعره شيء منه فلينصرف، فأبلغهم؛ فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم^(٣) بن هرمة، فقال: أنا له يا ربيع، فأدخلني عليه.

فأدخله، فلما مَثَلَ بين يديه، قال له: يا ربيع؛ قد علمتُ أنه لا يجيبك غيره، فأنشدته قصيدته التي منها:

له لَحَظَاتٌ عن حِجَافِي^(٤) سَرِيرِهِ إِذَا كَرِهَا^(٥) فِيهَا عُقَابٌ وَنَائِلُ
فَأُمُّ الذِي أَمِنْتُ أَمَنَةَ الرَّدَى وَأُمُّ الذِي خَوَّفَتْ بِالثُّكُلِ ثَاكِلُ

فقال له المنصور: أما لقد رأيتك في هذه الدار قائماً بين يدي عبد الواحد بن سليمان تُنشدُه قولك فيه:

وجدنا غالباً كانت جنأحاً وكان أبوك قادمةً الجنأح

فَقُطِعَ بابن هرمة حتى ما قدر على الاعتذار، فقال له المنصور: أنت رجل شاعر طالب خير، وكلّ ذلك يقول الشاعر، وقد أمر لك أمير المؤمنين بثلاثمائة دينار.

(١) نهاية الأرب: ٣ - ٣٠٦، العقد الفريد: ١ - ١٦٥، ذيل زهر الآداب: ٨٤، الغرر: ١٨٥، الأغاني: ٦ - ١٠٩ (طبعة دار الكتب).

(٢) لجب: ذو لجب، وبحر ذو لجب: إذا سمع اضطراب أواجه.

(٣) هو إبراهيم بن علي بن هرمة المنتسب إلى قريش؛ نشأ بالمدينة، وأخذ عن الرواة والمتقدمين والمتأدبين كثيراً، وقال الشعر وأجاده. وتوفي سنة ١٥٠ هـ.

(٤) الحفافان: الجانبان. (٥) كرها: أرجعها، والنائل: المطاء.

فقام إليه الحسن بن زيد فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن ابن هزيمة رجل منفاق مثلاف لا يبقي شيئاً؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر له بها، يُجرى عليه منها ما يكفيه، ويكفي عياله، ويكتب بذلك فعل.

فقال: افعلوا ذلك به.

المؤمل يمدح المهدي^(١)

وفد المؤمل بن أميل على المهدي بالرّي فامتدحه، فأمر له بعشرين ألف درهم، فأتصل الخبر بالمنصور، فكتب إليه أن يعذله ويقول: إنما كان سيئلك أن تأمر للشاعر بعد أن يقوم ببابك سنة بأربعة آلاف درهم! وكتب إلى كاتب المهدي بإنفاذ الشاعر إليه. فسأل عنه. فقيل له: قد شخّص إلى مدينة السلام.

فكتب إلى المنصور بخبره، فأنفذ المنصور قائداً من قوداه إلى النهروان يتصفّح وجوه الناس رجلاً رجلاً ممّن يمرّ به حتى يظفر بالمؤمل.

وسار القائد حتى انتهى إلى القافلة التي فيها المؤمل، فسأله من أنت؟ قال: أنا المؤمل بن أميل المحاربيّ الشاعر، أحد زوّار الأمير المهدي، فقال: إياك طلبت.

قال المؤمل: فكاد قلبي يتصدع خوفاً من أبي جعفر، وقبض عليّ؛ ثم أتى بي وأسلمني إلى الربيع، فأدخلني إلى أبي جعفر، فسلمت تسليم مُروّع، فردّ السلام، وقال: أتيت غلاماً غرّاً كريماً فخدعته، قال: يا أمير المؤمنين، إنما أتيت ملكاً جواداً كريماً فمدحته فحملته أريجئته عليّ أن وصلني وبرّني؛ فكأن ذلك أعجبه، فقال له: أنشدني ما قلت فيه، فأنشده:

هو المهديّ إلا أنّ فيه	مَشَابِهٌ ^(٢) صورة القمر المنير
تشابهة ذا وذا فهما إذا ما	أنازاً يُشكِلان على البصير
فهذا في الضياء سراجٌ عدلٍ	وهذا في الظلام سراجٌ نور
ولكن فضّل الرحمنُ هذا	على ذا بالمنابرِ والسريرِ

(١) نهاية الأرب: ٣ - ٣٠٧، مهذب الأغاني: ٤ - ١٣٥، أمالي الزجاجي: ٢٦، ذيل زهر الآداب:

٨٤، الغرر: ١٨٥، المحاسن والمساوي: ٢٧٠، معجم الأدباء: ٩ - ٢٠٣.

(٢) مشابهة: جمع شبه على غير قياس.

وبالمُلْكِ العَزِيزِ فذا أَمِيرٌ
وَنَقْصُ الشَّهْرِ يُخْمِدُ ذَا، وَهَذَا
فِيَا ابْنَ خَلِيفَةِ اللَّهِ الْمُصَفَّى
لِئِنَّ قُتَّ الْمَلُوكِ وَقَدْ تَوَافَوْا
لَقَدْ سَبَقَ الْمَلُوكُ أَبُوكَ حَتَّى
وَجِئْتَ وَرَاءَهُ تَجْرِي حَثِيثًا
فَقَالَ النَّاسُ: مَا هَذَا إِلَّا
فَإِنَّ سَبَقَ الْكَبِيرُ فَأَهْلُ سَبَقِ
وَإِنْ بَلَغَ الصَّغِيرُ مَدَى كَبِيرِ
فَقَالَ: أَحْسَنْتَ! وَلَكِنْ هَذَا لَا يَسَاوِي عَشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

أَيْنَ الْمَالُ؟ قَالَ: هَاهُوَ ذَا! قَالَ: يَا رَبِيعُ؛ أَعْطِهِ مِنْهُ أَرْبَعَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَخَذِ
الْبَاقِي.

قال المؤمل: فأخذ مني ستة عشر ألفًا، فأليت على نفسي ألا أدخل العراق
وللمنصور بها ولاية.

فلما صارت الخلافة إلى المهدي رفعت إليه رقعة ذكرت فيها قصتي، فلما
قرأها ضحك حتى استلقى، وقال: هذه مظلمة أنا بها عارف؛ ردوا عليه ماله،
وزيدوا له عشرين ألفًا، فأخذتها وانصرفت.

مَدَائِحُ وَعَطَايَا^(١)

أَهْلِيَّتْ جَارِيَةِ يَمَانِيَةِ إِلَى أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ، فَأَنْشَدْتَهُ شِعْرًا لِمَرْوَانَ بْنِ أَبِي
حَفْصَةَ يَمْدَحُ بِهِ السَّرِيِّ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، وَيَذْكَرُ فِيهِ وَرَاثَةَ الْعَبَّاسِ، فَسَأَلَهَا: لِمَنْ هَذَا
الشَّعْرُ؟ فَأَخْبَرْتَهُ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ مَرْوَانَ، فَوَافَاهُ بِالرَّبْدَةِ حَاجًّا، فَلَقِيَ الرَّبِيعَ بْنَ يُونُسَ
وَالْمَنْصُورَ عَلِيلًا؛ الْعَلَّةُ الَّتِي مَاتَ فِيهَا. فَقَالَ: كُنْ قَرِيبًا حَتَّى نَدْعُو بِكَ، فَلَمْ تَزَلْ
الْعَلَّةُ تَشْتَدُّ بِهِ حَتَّى مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ مَرْوَانَ، فَقَالَ لَهُ الرَّبِيعُ: إِلْحَقْ بِالْمَهْدِيِّ
وَلَا تَتَخَلَّفْ عَنْهُ؛ وَانصَرَفَ مَرْوَانٌ إِلَى الْيَمَامَةِ، فَجَعَلَهَا طَرِيقًا، وَعَلَيْهَا بِشْرُ بْنُ
الْمَنْدَرِ وَالْيَا، فَأَوْفَدَهُ بِشْرُ فِيمَنْ أَوْفَدَهُ، وَأَعْطَى كُلَّ رَجُلٍ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَقَدِمَ مَرْوَانَ

(١) المحاسن والمساوي: ٢٤٠ (طبع ليزج)، الفرج بعد الشدة: ١ - ٧٣.

على المهدي؛ وقد مدحه بأربع قصائد. فأعطاه المهدي ثلاثين ألف درهم، فانصرف إلى اليمامة.

ثم عاد بعد لك، فطلب الوصول بيعقوب بن داود، فأقام نحوًا من سنة، وغضب المهدي على يعقوب بن داود.

قال مروان: بينا أنا واقف على باب المهدي إذ خرج خالد بن يزيد بن منصور فقال: يا ابن أبي حفصة؛ ذكرك أمير المؤمنين أنفًا؛ وهو يراك أشعر الناس، غير أنه يقول: لا حاجة لنا فيما قبلك؛ فانصرف عن بابنا.

فانصرفت مغمومًا؛ ثم تذكرت رجلاً أتحدث عنده، وأتس لديه؛ فأتيت يزيد بن مزيد، فشكوت إليه ما قال لي خالد بن يزيد. فقال: أدلك على رجل صدوق، له رقة، لعله ينفعك! قلت: ومن هو؟ قال: الحسن الحاجب، فغدوت إلى الحسن، فشكوت إليه ما حكاه خالد من رأي أمير المؤمنين؛ فقال: بل ذلك من يعقوب بن داود. فقلت: بأبي أنت وأمي! أنت ترجو أن يكون ذلك مفتاحًا لما أنا فيه! قال: ذاك كما أقول لك، فانصرفت؛ وقلت:

أتاني من المهدي قولٌ كأنما
به احتز أنفي مُذْمِنُ الضُّغْنِ جادُعُ
وقلتُ - وقد خِفْتُ أتي لا شَوَى لها^(١)
بِلا حَدَثٍ: إنِّي إلى الله راجعُ
ومالي إلى المهدي لو كنتُ مُذنبًا
سوى جِلْمِهِ الصَّافِي من الناسِ شافعُ
ولا هو - عند السُّخْطِ منه ولا الرِّضا -
بَعَيْرِ الذي يَرْضَى به الله صانعُ
عليه من التقوى رداءً يَكُنُّهُ
وللحق نورٌ بينَ عينيهِ ساطعُ
يُغْضُ له طَرْفُ العيونِ وطَرْفُهُ
على غيرِهِ مِنْ خَشِيَةِ الله خاشعُ

(١) لا شوى لها: لا يبره لها.

هل الباب مُفَضُّ بي إليك ابنَ هاشم
فَعُذِرِي إن أفضى بيَ البابُ ناصعُ
أتيتُ امرأً أَظْلَقْتَهُ مِن وَثاقِهِ
وقد أَتَشِبَّتْ في أَخْدَعِيهِ الجوامعُ^(١)
وَجَلَى ضَبَابِ العُدمِ عنهُ وراثتهُ
وأَنْهَضَهُ مَعْرُوفَكَ الممتتابِعُ
فقلت: وزيرُ ناصحٍ قد تتابعتُ
عليه بإنعامِ الإمامِ الصنائعُ
وما كان لي إلا إليك ذريعةُ
وما مَلِكٌ إلا إليه الذرائعُ
وإن كانَ مطويًّا على العَذرِ كَشْحُهُ
فلم أذِرِ منه ما تُجِنُّ الأضالعُ
وقلت في قصيدة أخرى:

يَلُوحُ كتابٌ بينَ عَيْنَيْهِ كافرُ	سَيُخَشِرُ يعقوب بن داوُدَ خائبًا
من الغِشِّ ما كانت تُجِنُّ الضمائِرُ	بدا منك للمهدي كالصُبحِ ساطعًا
فَجَاب الدُّجَا من ظُلْمَةِ الليلِ سائرُ!	وهل لبياضِ الصُبحِ إن لآحِ صَوءُهُ
تعاطيتُ! لا أفلحت مِمَّا تُحَاذِرُ	أمنزلةً فوق التي كنتِ نِلْتَهَا

ثم أتيت الحسنَ بعد يومين، فقال: ما صنعتَ؟ فأنشدتهما إياه، فقال: اكتبتهما لي. فقلت: قد فعلت. فقال: هاتهما، فتناولهما، وقال: لست واضعهما من يدي حتى أضعهما في يد المهدي، ثم مضى.

وأتيته من الغد، فقال: ما وضعتُهما من يدي حتى وضعتُهما في يد المهدي! فقرأهما فرقًا لك وأمر بإدخالك عليه؛ فاحضر يوم الاثنين.

فحضرت، فخرج علي؛ فقال: قد علم أمير المؤمنين بمكانك، وقد أحب أن يجعل لك يومًا يشرفك فيه ويبلغ بك، قلت: فمتى؟ بأبي أنت وأمي! قال: يوم الخميس.

(١) الجوامع: جمع الجامعة: الغل.

فعدتُ إليه يوم الخميس، فإذا وجوهُ بني العباس يدخلون على المهديّ، فلما تنام المجلس دعاني فدخلتُ فسلمتُ فردّ السلام، وقال: إنما حبسك عن الدخول انقطاعك إلى يعقوب بن داود، فافتحت النشيد بما قلت في يعقوب، فأنشدته، ثم أنشدته:

طرقك^(١) زائرةٌ فحيّ خيالها بيضاء تخلطُ بالجمال دلالها
قادتُ فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا^(٢) فأمالها
فأنصت الناس حتى بلغت إلى قولي:

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها!
أو تجحدون مقالةً عن ربكم جبريلُ بلغها النبيّ فقالها
شهدتُ من الأنفال آخر آية بثرائهم^(٣) فأردتُم إبطالها
فأعجبَ بذلك، وقال: جزاك الله خيرًا! فقلت: اشهدوا، هذا والله الشرف،
أمير المؤمنين يجزيني خيرًا، ثم أنشدته:

أعادك من ذكرِ الأجابة عائدُ

حتى صرت إلى قولي:

أيادي بني العباس بيضٌ سوابغ فهم يعدلون السمك من قبة الهدى
سواعِدُ عزّ المسلمين، وإنما ينوءُ بصولاتِ الأكف السواعِدُ
يزينُ بني ساقِي الحجيج^(٤) خليفةً يكون غيرًا نومه من جداره
كانَ أميرَ المؤمنين محمدًا على آتِه من خالف الحقّ منهم
على كلِّ قوم باديات عوائد كما يعدلُ البيتَ الحرام القواعدُ
ينوءُ بصولاتِ الأكف السواعِدُ على وجهه نورٌ من الحقّ شاهدُ
على قبة الإسلام والخلق راقِدُ لرأفتهِ بالناسِ للناسِ والدُ
سفتهُ يد الموتِ الحتوف الرّواصدُ

(١) طرق القوم: أتاهم ليلاً.

(٢) استفاد: انقاد، والصبأ: الشوق.
(٣) التراث: ما يتركه الميت لورثته، ويعني بآخر آية من سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْزَاقِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].

(٤) يشير إلى سقاية الحاج، وهي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يليها العباس بن عبد المطلب، جد الخلفاء العباسيين.

فأشار إليّ، فأمسكتُ. فقال: يا بني العباس، هذا شاعركم المنقطع إليكم، المعادى فيكم، فأعطوه ما يسره. فقلت: ينبغي إذ سمعوا كلام أمير المؤمنين، وعرفوا رأيه أن يصلوني من أموالهم، فقال: أنا فأرض عليهم لك مالاً، ففرض على موسى ابنه خمسة آلاف درهم، وعلى هارون خمسة آلاف، ثم فرض على القوم على قدرِ حالاتهم، حتى فرض عليهم سبعة وثلاثين ألف درهم، والربيع يكتب كل ما فرض على كل رجل منهم.

فقال واحد ممن حضر: يا أمير المؤمنين؛ إنما نحن من أهلك، فأذخنا فيما أذخنتهم فيه؛ فجعل عليه ألفاً، وعلى الربيع ألفين؛ فتمت أربعين ألفاً.

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ مَنْ لي بهذا المال؟ قال: هذا - وأشار إلى الربيع.

ثم قال: إن أمير المؤمنين يعطيك من صلب ماله. فأمر لي بثلاثين ألف درهم في ثلاث بَدَرٍ^(١) فجيء بهن؛ فطرحن قريباً، فدعوتُ وشكرتُ، فقال: يا ابن أبي حفصة؛ ستجيتك صلاتي وبرّي، ويأتيك مني ما يؤدّيك إلى الغنى.

قلت: يا أمير المؤمنين؛ قد رأيتُ من قبُولك وبشرِك وسرورك مما سمعت مني ما سأزادُ به شعراً، وستسمعُ ويبلغك، وقلت: يا أمير المؤمنين؛ لا يبلغ ما أعطيتني لشاعرٍ بعدي، قال: أجل! قلت: وأذني في زيارتك؛ قال: نعم.

قلت: يا أمير المؤمنين، لي عدوٌ فيك، وفي أهل بيتك، فإن رأى أمير المؤمنين ألا يجعلَ لأحدٍ عليّ سلطانَ دونه! قال: لا سلطانَ عليك دون أمير المؤمنين، فقلت: اكتب إليّ بذلك كتاباً، فأمر بالكتاب بذلك! فانصرفت.

فلما صرتُ خَلَفَ السُّرِّ خرج إليّ خادمٌ بمنديل فيه أربعة أثواب وشي وثوب خَزْ^(٢) وجُبّة وقميص. فقال: ألبسوه وأعيدوه إليّ؛ فلبست الخَزَّ والوشِي على الثياب التي كانت عليّ، وألقيتُ القميصَ على أحدِ مَنْكِبِي والجبّة على المَنْكِب الآخر. فقال لي: يا ابن أبي حفصة؛ أتدخلُ على أمير المؤمنين هكذا، وقد مثّلت بنفسك! فقلت: والله لو كانت كرامةُ أمير المؤمنين أحدًا ما خلعت منها شيئاً أطيق حملَه.

(٢) الخز: الحرير.

(١) البدر: كيس فيه عشرة آلاف.

ثم دخلت فلما رأني تبسم، ثم قال: مُطْرَف^(١)، فأبطؤوا به، فقال: المُطْرَف - وأنا قائم -، ثم قال الثالثة: المُطْرَف. فلما أبطؤوا انصرفت، وقعدت خلف السُّتر، فلم ألبث أن رُفِعَ السُّتْرُ، وخرج أمير المؤمنين على دابةٍ فقمْتُ إليه فلما رأني قال: المُطْرَف، فما برح حتى أتني به؛ فَتَشِرَ عليّ بين يديه، وأمر لي بعشرة من خدم الروم، وجائزة سنوية، وبِرِذْوَن^(٢) بسرجه ولجامه.

فَصَاحَةُ نُصَيْب^(٣)

وجّه المهدي نُصَيْبًا الشاعرَ مولاه إلى اليمن في شراء إبلٍ مَهْرِيَّةٍ، ووجه معه رجلاً من الشَّيعَةِ، وكتب معه إلى عامل اليمن بعشرين ألف دينار، فمدَّ يده في الدنانيرِ ينفقها في الأكل والشرب، وشراء الجوارى والتزويج، فكتب الشَّيعِيّ بخبره إلى المهدي، فكتب في حَمَلِهِ موثقًا في الحديد، فلما دخل على المهدي أنشده شعراً، قال:

تَأْوِبِنِي ثِقْلٌ مِنَ الْهَمِّ مُوجِعٌ
فَأَرَقُّ عَيْنِي؛ وَالْخَلِيُّونَ هُجِعُ
هَموم توالى لو أطاف يسيئها
بَسَلَمَى لظَلَّتْ ضُمُّهُ تَتَّصَدَعُ
وعادتُ بلادُ الله ظلماءَ جُنْدِسا
فَخِلْتُ دُجَا ظلمائها لا تَقْشَعُ
إليك أمير المؤمنين ولم أجد
سواك مُجِيرًا منك يُذْنِي وَيَمْنَعُ
تَلَمَّسْتُ: هل من شافع لي؟ فلم أجد
سوى رحمةٍ أعطاكها الله تَشْفَعُ
لئن جِلَّتْ الأجرامُ مني وأقْظَعَتْ
لَعَفْوُكَ عن جرمي أجلُّ وأوسعُ

(٢) البرذون: الدابة.

(١) المطرف: ثوب في طرفه علمان.

(٣) الأغاني: ٢٠ - ٢٦ (طبعة الساسي).

لئن لم تَسْغِنِي يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ
فَمَا عَجَزْتُ عَنِّي وَسَائِلُ أَرْبَعُ
طَبِغْتَ عَلَيْهَا صِبْغَةً ثُمَّ لَمْ تَزَلْ
عَلَى صَالِحِ الْأَخْلَاقِ وَالِدِينِ تُطْبَعُ
تَغَابِيكَ عَنِ ذِي الذَّنْبِ تَرْجُو صِلَاخَهُ
وَأَنْتِ تَرَى مَا كَانَ يَأْتِي وَيَضْنَعُ
وَعَفْوُكَ عَمَّنْ لَوْ تَكُونُ جَزِيَّتَهُ
لَطَارَتْ بِهِ فِي الْجَوِّ نَكْبَاءُ زَعَزَعُ
وَأَنْكَ لَا تَنْفِكَ تَنْعَشُ عَائِرًا
وَلَمْ تَعْتَرِضْهُ حِينَ يَكْبُو وَيَخْمَعُ^(١)
وَحَلَمَكَ عَنِ ذِي الْجَهْلِ مِنْ بَعْدِ مَا جَرَى
بِهِ عَنَقُ^(٢) مِنْ طَائِشِ الْجَهْلِ أَشْنَعُ
وَإِنِّي لَوْلَاكَ الَّذِي إِنْ جَفَوْتَهُ
أَتَى مَسْتَكِينًا رَاهِبًا يَتَضَرَّعُ
وَإِنِّي لَمَوْلَاكَ الضَّعِيفِ فَأَغْفِنِي
فَإِنِّي لِعَفْوٍ مِنْكَ أَهْلٌ وَمَوْضِعُ

ثم تشفع له الهادي وأعتقه، وأمضى المهدي ذلك له، وأمر بحديده ففك عنه، وخلع عليه عدة من الخلع، ووصله بألفي دينار، وأمر له بجارية يقال لها جعفره، جميلة فائقة، فقال له سالم قيم الرقيق: لا أدفعها إليك أو تعطيني ألف درهم، فعاد إلى المهدي وأنشده:

ما زلت تبذلُ لي الأموالَ مجتهدًا حتى لأصبحثُ ذَا أهلٍ وذا مالٍ
رَوَّجْتَنِي يَا ابْنَ خَيْرِ النَّاسِ جَارِيَةً ما كان أمثالها يُهْدَى لأمثالي
رَوَّجْتَنِي بَضَّةً بِيضَاءَ نَاعِمَةٍ كأنها دُرَّةٌ فِي كَفِّ لَالٍ^(٣)
حتى توهمتُ أن الله عَجَّلَهَا يا ابْنَ الْخَلَائِفِ - لي من خير أعمالِي

(٢) العنق في الأصل: نوع من السير.

(١) الخمع: الظلع.

(٣) اللال: بائع اللؤلؤ.

فَسألني^(١) سالم أَلفًا فقلت له: أنى لِي الألف؛ يا قُبْحَت من سأل!
هيهات أَلفك إلا أن أجيء بها من فضلِ مولى لطيف المنِّ مفضل
فأمر له المهدي بألف دينار، ولسالم بألف درهم.

أَتته الخِلافة^(٢)

جلس المهديُّ للشعراء يومًا فأذن لهم، وفيهم بشار وأشجع؛ وكان أشجعُ
يأخذُ عن بشار ويُعظِّمه، وكان في القوم غيرَ هذين أبو العتاهية، قال أشجع: فلما
سمع بشارُ كلامَ أبي العتاهية قال: يا أبا سليم؛ أهذا ذلك الكوفيُّ الملقَّب؟ قلت:
نعم! قال: لا جزى الله خيرًا من جمَعنا معه. ثم قال له الهدي: أنشد، فقال:
ويحك! أوِستشُد أيضًا قَبْلنا! فقلتُ: قد ترى، فأنشد:

أدلاً فأحمِلَ إذلالها!	ألا ما لسيدتي مالها
جنيثُ سقى الله أطلالها	وإلا ففيم تجئث وما
م قد أسكنَ الحسنُ سربالها	ألا إن جاريةً للإما
تُجاذِبُ في المشي أكفأها	مشث بين حورٍ قصار الخطا
وأتعبَ باللوم عذالها	وقد أتعبَ الله نفسي بها

قال أشجع: فقال لي بشار: ويحك يا أبا سليم! ما أذري من أي أمرينه
أعجب: أمن ضعف شِغره، أم من تشبيهه بجارية الخليفة، وهو يسمع ذلك بأذنه!
حتى أتى على قوله:

إليه تجرُّ أذيالها	أتتهُ الخِلافةُ منقادةً
ولم يكُ يصلحُ إلا لها	فلم تكُ تصلحُ إلا له
لزُلزِلت الأرضُ زلزأها	ولو رامها أحد غيرُه
لما قَبِلَ الله أعمالها	ولو لم تُطغِه بنات ^(٣) القلوب
إليه لِيُبغِضُ من قالها	وإنَّ الخليفةَ من بُغِضُ «لا»

قال أشجع: فقال لي بشار، وقد اهتزَّ طربًا: ويحك يا أبا سليم! أترى
الخليفةَ لم يطر عن فراشه طربًا لما يأتي به هذا الكوفي.

(٢) الأغاني: ٤ - ٣٣ (طبعة دار الكتب).

(١) سألني: سألني.

(٣) يريد البنات.

صَرِيحُ الْغَوَائِي (١)

خرج مُسْلِمُ بن الوليد ذات يوم، فلقي يزيد بن منصور الحِميريّ بباب الرّشيد، فسلم فردّ عليه السلام، ورَحِبَ به، وسأله عن شأنه فخبّره، وسأله أن يقرّبه من الخليفة، وأن يحتال حتى يُعَدَّ في مُمَارِحِيهِ، ومَنْ يجري عليه أَرْزاقه! فقال له الحميريّ: سأأتى لوصولك إلى أمير المؤمنين.

فدخل الحميريّ، فأصاب أمير المؤمنين لِقَسَ النفس (٢)، قد اشتمل عليه الفكرُ في سرعة تقضي أمور الدنيا، وأنه لا يُتَشَبَّثُ منها بشيء إلا كان كالظلمة الزائل، والسراب الخادع! فقال له جعفر بن يحيى: يا أمير المؤمنين؛ أفتظنّ أنّ هذا الفكر يحبسُ عليك الأيام، ويمنعك مما لا يستمتع به؛ إنما هذا الذي أنت فيه عارض عرض لك، وقد كان ملك من الملوك حكيمًا يقول: اللهم مفسدة للنفس، ومضلة للفهم، ومشدّهة للقلب، ومن أعظم الخطأ التشاغلُ بما لا يمكن دفعه.

وقال له سليمان بن أبي جعفر: يا أمير المؤمنين؛ قد قال لقمان الحكيم: مَنْ يملك يستأثر، ومَنْ لا يَسْتَشِيرُ يندم، والهمُّ نصف الهرم، والفقْرُ الموت الأكبر.

فكان الرشيد نشيط، واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدم إليه الحميريّ، وقال: يا أمير المؤمنين؛ خلفت بالباب أنفا رجلاً من أخوالك الأنصار، متقدماً في شعره وأدبه وظرفه؛ أنشدني قصيدة يذكر فيها أنسه ولهوه ولعبه ومحدثته إخوانه، ويذكر مجالس اتصلت له بأبلغ قولٍ وأحسن وصف وأقرب رصف، يبعثُ والله على الصبابة والفرح، ويباعد عن الهمّ والتّرح، وكأنه قد وفق - بيمن أمير المؤمنين، وسعادة جدّه - لأن يكون مُبرئًا من هذه الشكوى، زائدًا في سرور أمير المؤمنين، مستدعيًا له صِلَةً رَجَمَهُ، والتشرف بخدمته.

فاستفزّه السرور والقلق إلى دخوله، واستماع قصيدته، وجعل يتابع الرسل بعضهم في أثر بعض، حتى دخل، وكان حُلُوَ الشمال، فوصل إليه في وقتٍ قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشرّته، ولم يكن في عداد مَنْ اضطرب سئًا،

(١) المحاسن والمساويء: ٢٥٣ (طبع لبيزج). (٢) يقال: لقيت نفسه من الشيء: انصرفت.

وكان - ناهيك من رجل! معه فهمٌ وتجربة وتمييز ومعرفة، فأمهّل حتى سكن، ثم أذن له في الجلوس، فانبرى مسلم ينشد قصيدته التي يقول فيها:

أديراً عليّ الكأس لا تشرباً قبلي
فما جزعي أنني أموتُ صبابةً
أحبُّ التي صدتُ وقالت ليزبها:
بلى رُبما وكُلتُ عيني بنظرة
ولا تطلّبنا من عند قاتلتي دخلي^(١)
ولكن على من لا يحلُّ لها قتلي
دعيه؛ الثرياً منه أقرب من وضيي!
إليها تزيد القلب خبلاً على خبل
فلم يدر ما بي، واسترحتُ من العذل
تمشّت به مشي المقيّد في الوخل
ولا هي عادت بعد عّل ولا نهل
لأضضي همًا أو أصيب فتى مثلي
وتغدو صريح الكأس والأغين الثجل!
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا

فجعل الرشيد يتناول لها، ويستحسن ما حكاه من وصف شرابٍ ولهو وغزلٍ وسهولة ألفاظ؛ فأمر له بمال، وأمر أن يتخذ له مجلس يتحوّل إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته، فسماه يومئذ - بأخر بيت من شعره: صريع الغواني!

الرشيد وابن منذر^(٢)

قال ابن منذر: حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة، وحج معه الفضل بن الربيع، فهياتُ فيه قولاً أجذتُ تنميقة، وتوقفتُ فيه، فدخلتُ إليه في يوم التزوية، وإذا هو يسأل عني ويطلبني؛ فبدرني الفضل بن الربيع قبل أن أتكلم فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا شاعر البرامكة ومادحهم - وكان البشر ظهر لي في وجهه لما دخلتُ - فتنكر وعبس في وجهي، فقال الفضل: مره يا أمير المؤمنين أن يُنشدك قوله فيهم:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك

فقال: أنشدني، فأبيت، فتوعدني وأكرهني فأنشدته:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك فياطيب أخبارٍ ويا حسنَ منظرٍ!

(٢) الأغاني: ١٧ - ٢٥ (طبعة الساسي).

(١) الذحل: الثار.

إذا وردوا بطحَاء مكة أشرقت
فثظلم بغداد ويجلو لنا الدجى
فما صلحت إلا لوجود أكفهم
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعبه
ترى الناس إجلالاً له وكأنهم
بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
بمكة - ما حجوا - ثلاثة أقمري
وأرجلهم إلا لأعواد منبر
وحسبك من راع له ومدبر
غرائيق^(١) ماء تحت بازٍ مصرصر^(٢)

ثم أتبعْتُ ذلك بأن قلت: كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام مدحتهم، وكانوا في طاعتك، لم يلحقهم سَخَطُكَ، ولم تخلُلْ بهم نِقْمَتُكَ، ولم أكن في ذلك مبتدعاً، ولا خلا أحدٌ من نظرائي من مدحهم، وكانوا قومًا قد أظلني فضلهم، وأغواني رفدُهم، فأثيت بما أولوا.

فقال: يا غلام؛ الظم وجهه، فلطمت والله حتى سِدِزْتُ^(٣) وأظلم ما كان بيني وبين أهل المجلس. ثم قال: اسحبوه على وجهه، والله لأحرمتك، ولا تركتُ أحدًا يعطيك شيئاً في هذا العام! فسُجِبْتُ حتى أخرجت.

وانصرفت وأنا أسوأ الناس حالاً في نفسي وحالي، وما جرى عليّ؛ لا والله ما عندي ما يكفي عيالي لعيدهم، فإذا بشاب قد وقف عليّ؛ ثم قال: أعزّز عليّ والله يا كبيرنا بما جرى عليك، ودفع إليّ صرة، وقال: تَبَلَّغْ بما في هذه! فظنتها دراهم، فإذا هي ثلاثمائة دينار؛ فقلت: مَنْ أنت؟ جعلني الله فداك! قال: أنا أخوك أبو نواس، فاستعن بهذه الدنانير واغذّرني، فقبلتها وقلت: وَصَلَك اللهُ يا أخي، وأحسن جزاءك!

رَبِيعَةَ الرَّقِيِّ يَمْدَحُ فَلَا يُثَابُ^(٤)

امتدح ربيعة الرقي العباس بن محمد بن علي؛ بقصيدة لم يُسبق إليها، يقول

فيها:

لو قيل للعباس: يا ابن محمد؛ قل: «لا» وأنت مُخَلَّدٌ ما قالها
ما إن أعدت من المكارم جِصْلَةً إلا وجدتك عمها أو خالها

(١) الغرائيق: جمع غرنوق؛ وهو طائر أبيض من سيور الماء.

(٢) المصرصر: من يرجع الصوت. (٣) سدر بصره: أظلم ولم يبصر.

(٤) الأغاني: ١٥ - ٣٨ (طبعة الساسي)، نهاية الأرب: ٣ - ٢١٥، معجم الأدباء: ١١ - ١٣٤.

وإذا الملوک تسایرت فی بِلْدَةٍ كانوا کواکبها وکنت هلالها
إن المکارم لم تزل معقولة حتى حَلَّت براحتیک عقالها

فبعث إليه العباس بدينارين، وكان يقدر فيه ألفين، فلما نظر إلى الدينارين
كاد أن يُجنَّ غضبًا، وقال للرسول: خذ الدينارين فهما لك على أن ترد إلي الرقعة
من حيث لا يدري العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة وأمر من كتب في
ظهرها.

مدحتك مذحة السيف المحلى لتجري في الكرام كما جريت
فهبها مذحة ذهب ضياعا كذبت عليك فيها وافتريت
ثم دفعها إلى الرسول، وقال: ضغها في الموضع الذي أخذتها منه،
ففعل.

فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها، فلما قرأ الأبيات، غضب، وقام
من قوره، فركب إلى الرشيد - وكان أثيراً^(١) عنده يبجله ويقدمه، وكان قد هم أن
يخطب إليه ابنته - فرأى الرشيد الكراهة في وجهه، فقال: ما شأنك؟ قال: هجاني
ربيعة الرقي.

فأحضره الرشيد، وقال له: أتهدجو عمي وأثر خلق الله عندي! لقد هممت أن
أضرب عنقك! فقال: يا أمير المؤمنين؛ والله لقد امتدحته بقصيدة ما قال أحد مثلها
من الشعراء في أحد من الخلفاء، ولقد بالغت في الشناء، وأكثرت من الوصف؛
فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضارها فعل.

فلا سمع الرشيد ذلك سکن غضبه، وأحب أن ينظر في القصيدة، فأمر
العباس بإحضارها، فتلكأ عليه، فقال له الرشيد: سألتك بحق أمير المؤمنين إلا
أمرت بإحضارها. فأحضرت، فإذا فيها القصيدة بعينها؛ فاستحسنها واستجادها،
وأعجب بها، وقال: والله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها، ولقد
صدق ربيعة فبر.

ثم قال للعباس: كم أثبتت عليها؟ فسكت العباس، وتغير لونه، وغض بريقه،
فقال ربيعة: أثناني عليها بدينارين يا أمير المؤمنين! فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من

(١) أثيراً: مكرماً.

الموجدة^(١) عليه، فقال: بحياتي يا رقي كم أثابك؟ فقال: وحياتك يا أمير المؤمنين ما أثابني إلا بدينارين.

فغضب الرشيد غضباً شديداً، ونظر في وجه العباس، وقال: سوء لك! آية حال قعدت بك عن إثابته؟ أقله مال؟ فوالله لقد مؤلتك جهدي^(٢)، أم انقطاع المادة عنك؟ فوالله ما انقطعت، أم أصلك؟ فهو الأصل الذي لا يُدانيه شيء، أم نفسك؟ لا ذنب لي! بل نفسك والله فعلت بك ذلك حتى فضحت أجدادك وفضحتني وفضحت نفسك، فنكس العباس رأسه، ولم ينطق.

فقال الرشيد: يا غلام؛ أعط ربيعة ثلاثين ألف درهم وخلعة، واحمله على بغلة.

ثم قال له: بحياتي لا تذكره في شيء من شعرك تغريضاً ولا تصريحاً، وقتر الرشيد عما كان قد عم به من أن يتزوج إليه، وأظهر له بعد ذلك جفاءً واطراحاً.

شاعر بين يدي الرشيد^(٣)

قال أحمد بن سعيد الباهلي: كنت عند الرشيد، فدخل عليه أشجع السلمي ومَنصور النمري، فأنشده أشجع:

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ	قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ
قَصْرٌ سُقُوفِ الْمُزْنِ دُونَ سُقُوفِهِ	قَصْرٌ سُقُوفِ الْمُزْنِ دُونَ سُقُوفِهِ
فِيهِ اجْتَلَى الدُّنْيَا الْخَلِيفَةُ وَالتَّقَاتُ	فِيهِ اجْتَلَى الدُّنْيَا الْخَلِيفَةُ وَالتَّقَاتُ
نَشَرَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضَ كُسُوتَهَا الَّتِي	نَشَرَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضَ كُسُوتَهَا الَّتِي
أَذْبَتَكَ مِنْ ظِلِّ النَّبِيِّ وَصِيَّةً	أَذْبَتَكَ مِنْ ظِلِّ النَّبِيِّ وَصِيَّةً
بَرَقَتْ سَمَاوُكَ فِي الْعَدُوِّ وَأَمْطَرَتْ	بَرَقَتْ سَمَاوُكَ فِي الْعَدُوِّ وَأَمْطَرَتْ
وَإِذَا سَيُوفُكَ صَافَحَتْ هَامَ الْعَدَا	وَإِذَا سَيُوفُكَ صَافَحَتْ هَامَ الْعَدَا
تَشْنَى عَلَى أَيَّامِكَ الْأَيَّامُ	تَشْنَى عَلَى أَيَّامِكَ الْأَيَّامُ

(٢) مؤله: أعطاه مالا كثيراً، والجهد: الطاقة.

(١) الموجدة: الغضب.

(٣) أمالي المرتضى: ٤ - ١٧٨، الأغاني: ١٢ - ١٩، ١٧ - ٣٢ (طبعة الساسي).

(٤) الرحمة: المطر الضعيف الدائم، والجمع رهم (كعنب)، وأرهمت السماء: أتت بالرهم.

(٥) وشجت: علقت.

ولما بلغ قوله:

وعلى عدوك يا ابن عم محمد
فإذا تنبه رُغته وإذا غفا
رصدانِ ضوءِ الصُّبحِ والإِظلامِ
سلت عليه سيوفك الأحلامِ

فاستحسن ذلك الرشيد؛ وأومات إلى أشجع أن يقطع الشعر؛ إذ علمت أنه لا يأتي بمثلها فلم يفعل. ولما أنشده ما بعدهما فتر الرشيد وضرب بمخضرة^(١) كانت بيده الأرض، واستنشد منصوراً النمري، فمرّ والله في قصيدة قلما تقول العرب مثلها، ومطلعها:

ما تنقضي حسرة مني ولا جزع
بان الشباب وفاتتني بلدته
إذا ذكرت شباباً ليس يُرتجع
صروف دهر وأيام لها خدع

ولما بلغ إلى قوله:

ما كنت أوفي شبابي كنه غرته
قال الرشيد: أحسن والله! لا يتهنى أحدٌ يعيش حتى يخطر في رداء الشباب.
ولما بلغ إلى قوله:

أي امرئ بات من هارون في سخط
إن المكارم والمعروف أودية
فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إذا رفعت امرأ فالله رافع
أحلك الله منها حيث تُنتجع
نفسى فداؤك والأبطال مغلّم
ومن وصغت من الأقوام متضع
يوم الوغى والمنايا بينهم قرع

رمى الرشيد بالخوان بين يديه، وصاح وقال: هذا والله أطيب من كل طعام؛ وأعطاه سبعة آلاف دينار.

قال أحمد بن سعيد: فلما خرجنا قلت لأسجع: غمزتك أن تقطع فلم تفعل، ويملك! ولم تأت بشيء، فهلا مت بعد البيتين أو خرست، فكنت تكون أشعر الناس!

(١) المخضرة: ما يتوكأ عليه: كالعصا ونحوها، وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب والخطيب إذا خطب.

بِبَابِكَ أَنْزَلْتُ حَاجَتِي^(١)

قصد أعرابيٌّ مالكَ بن طُوقِ التغلبي صاحب الرِّحْبَةِ، وكان رثَ الهَيْئَةِ، زَرِيَّ الحال، فَمَنع من الدخول عليه مدة، إلى أن خرج مالك ذات يوم يريد التزهة حول مدينته؛ فاعترض له الأعرابيُّ، فردّه رجأله ازدراءً به، فلم يَنْثِن؛ بل اقترب منه حتى أخذ بعنان فرسه، ثم قال: أيها الأمير؛ أنا عائد بك من شر حَرَسِكَ! فَتَهْتَهُمْ^(٢) عنه، وقال له: ما حاجتُك؟ قال: أن تُصْغِيَّ إلى كلامي بسمعك، وتُنظِرَ إليَّ بِطَرْفِكَ، وَتُقِيلَ عليَّ بوجهك، ثم أنشد:

وبابك دون الناس أنزلت حاجتي	وأقبلت أسعى نحوه وأطوف
ويمنعني الحجاب والليل مُسْبِل	وأنت بعيد والرجال صُفوف
يطوفون حولي عابسين كأنهم	ذئابٌ جِياعٌ بينهنّ خروف
فكيف وقد أبصرت وجهك مقبلاً	تردّ امرأ وافاك وهو لهيف
وما لي في الدنيا سواك وما لمن	تركت ورائي مَرَبَع ^(٣) ومصيف
فجئتُك أبغى الخير منك فراعني	ببابك من صرّب العبيد صنوف
فلا تجعلن لي نحو بابك عودة	فقلبي من صنّع القساة مخوف

فضحك مالك، ثم قال لحراسه: مَنْ يعطيه درهماً بدرهمين؟ فما أتمّ كلمته حتى نُثِرَت الدراهم على الأعرابي من كل جانب حتى تحيّر، واختلط لديه الحابلُ بالنابل؛ لكثرة ما أعطي.

فعند ذلك التفت إليه مالك، وقال له: هل بقيت لك حاجة يا أخا العرب؟ قال: أمّا إليك فلا. فقال: وإلى من؟ قال: إلى الله أن يبقيك للعرب؛ فإنهم لن يزالوا بخير ما بقيت لهم!

النكث في البيع خَيْرٌ مِنْ خِيَانَةِ الشَّرِيكِ^(٤)

جلس مالك بن طُوقِ في قصره، في شُبَّاكٍ مظل على رَحْبَتِهِ، ومعه جلساؤه؛ فأقبل أعرابيٌّ تَحْبُ^(٥) به ناقته. فقال: إياي أَرَادَ، ونحوي قصد، ولعل منه أدباً يُتَفَع به. ثم أمر بإدخاله.

(٢) نهتهم: زجرهم وكفهم.

(٣) المربع: منزل القوم في الربيع خاصة.

(٤) ذيل زهر الآداب: ٢٨٢.

(١) غرر الخصائص: ١٦٨.

(٢) المربع: منزل القوم في الربيع خاصة.

(٥) الخيب: نوع من السير.

فلما مَثَلَ بين يديه قال: ما أقدمك يا أعرابي؟ قال: سَيْبُ^(١) الأمير، ورجاء نائله؛ قال: هل قَدِمْتَ أمام رَغْبَتِكَ وسيلة؟ قال: نعم! أربعة أبيات قَلَّتْهَا بَطْهَرُ البرية، فلما رأيت ما بباب الأمير من الهَيْبَةِ والجلال استحقَرْتُهَا واستَضَعَرْتُهَا. قال: فهل ذلك أن تُشِيدَنَا أبياتَكَ على أن تجيزك عليها ألفَ درهم؛ فإن كنت ممن أحسن رَبحنا، وإلا فقد نَلَّتْ مُرادك، وربحت! قال: رضيتُ، وأنشده:

وما زلت أخشى الدهر حتى تَعَلَّقْتُ يداي بمن لا يَتَّقِي الدهر صاحِبُهُ
فلما رأني الدهرُ تحت جناحه رأى مرتقى صعباً مَنيعاً مطالبُهُ
رأني بحيث النجم في رأس باذخ^(٢) تُظِلُّ الورى أكنافُهُ وجوانِبُهُ
فتى كسماء الغيث والناس حوله إذا فُحِطُوا^(٣) جادت عليهم سحائبُهُ

فقال: والله ظَفَرْنَا يا أعرابي، وورُفْنَا الفَلج^(٤) عليك، والله ما قيمتُها إلا عشرة آلاف درهم. قال: فإن لي صاحباً شاركته فيها، وما أراه يرضى بيّعي. قال: أتراك حَدَّثْتُكَ نفسك بالكُثْبِ^(٥)؟ قال: نعم! وجدت الكُثْبَ في البيع خيراً من خيانة الشريك، فأمر له بعشرة آلاف دينار.

بَاتَتْ تَعَيَّرَنِي الإِقْتَارَ وَالْعَدَمَا^(٦)

قال الأضمعي: لقيت أعرابياً بالبادية فاسترشدته إلى مكان، فأزشدني وأنشدني:

ليس العمى طول السؤال وإنما
تمام العمى طول السكوت على الجهل
فكُنْ سائلاً عمّاً عنّاك فإنما
خلقت أخوا عَقْلَ لتسأل بالعقل

ثم رجعتُ إلى البَصرة فمكثت بها حيناً؛ ثم قدمتُ البادية، فإذا بالأعرابي جالس بين ظَهْرَانِي قوم، وهو يقضي بينهم، فما رأيتُ قضيةَ أخطأت قضيةَ الصالحين من أفضيته، ثم جلستُ إليه وقلت: يرحمك الله، أما من رشوة! أما من

(١) السيب: العطاء والمعروف.
(٢) باذخ: عال.
(٣) فحطوا: أصابهم القحط، وهو الجذب.
(٤) الفلج: الفوز والظفر.
(٥) يتقض العهد.
(٦) أمالي المرتضى: ٢ - ١٤٠.

هدية! أما من صِلَّة! فقال: إذا جاء هذا ذهب التوفيق. فشكوتُ إليه ما ألقى من عَذْل حليَّة لي إياي في طلب المعيشة، فقال: لستَ فيها بأوحد، وإني لشريكُك، ولقد قلت في ذلك شِغْرًا، قلت: أنشدني، فأنشدني:

باتت تُعَيِّرني الإقتار والعدَمَا	لَمَّا رَأَتْ لأخيها المال والحدَمَا
عُفْتُ لرأيك ما الأرزاق من جَلْدِ	ولا من العجزِ بل مَقْسومة قسَمَا
يا أمةَ الله إني لم أدعُ طلبَا	للرزق - قد تعلمين - الشُّرْق والشَّامَا
لو كان من جَلْدِ ذا المَالِ أو أدبِ	لكنتُ أكثرَ من نَمْلِ القُرَى نَعَمَا
أرضى من العيش ما لم تحوجي مَعَهُ	أن تفتحي لسؤال الأَغْنِيَاءِ فَمَا
واستشعري الصبر على الله خالقَنَا	يومًا سيكشفُ عَنَّا الضُّر والعدَمَا
لا تُحوجيني إلى ما لو بذلتُ له	نَفْسِي لأغقبك التهامَ والندمَا
بالله سَرَّك أن الله حَوَّلني	مَا كَانَ حَوَّلَه الأعراب والعجَمَا
ما سَرَّني أنني حَوَّلْتُ ذاك وَلَا	ألا أقولُ لِيَاغِي حاجةَ نَعَمَا
وأنني لم أفدُ عَقْلًا ولا أدبًا	ولا إرثَ والدي مَجْدًا ولا كَرَمًا
فَعُسرة المرءِ أخرى في معاشِك مِن	أمرٍ يجرُّ عليكِ الهَمَّ والألَمَا

قال: فوالله ما أنشدتها زوجي حتى حَلَفْتُ ألا تَعُدُّني أبدًا.

سَكَنْت عَيْنِي وَالله الحُمَى (١)

قال الأصمعي: نزلت ليلة في وادي بني العنبر؛ وهو إذ ذاك غانٍ (٢) بأهله، فإذا فتية يريدون البصرة، فأحببت صحبتهم، وأقمت ليلتي تلك، وإني لو صب (٣) محموم، أخاف ألا أستمسك على راجلتي، فلما أقاموا ليرحلوا أيقظوني، فلما رأوا حالي حملوني، وركب أحدهم ورائي يُمسكني، فلما أمعنوا السير تنادوا: ألا فتى يخذو بنا أو ينشدنا؟ فإذا منشد في سواد الليل يُنشد بصوتٍ نِد حزين:

لعمرك إني يوم بانوا فلم أمتُ	خَفَاتَا (٤) على آتاهم لصبور
غداة المنقى (٥) إذ رميتُ بنظرة	ونحنُ على مثنٍ الطريق نسيرُ

(١) أمالي المرتضى: ٢ - ١٤٢.

(٢) غان: أهل.

(٣) الوصب: المرض.

(٤) يقال: مات خفاتًا؛ أي فجأة.

(٥) المنقى: طريق للعرب إلى الشام؛ كان في الجاهلية يسكنه أهل تهامة.

فقلت لقلبي حين خف به الهوى
فهذا ولما تمض للبين ليلة
وأصبح أعلام الأحبة دونها
وأصبحت نجدتي الهوى منهم الثوى
عسى الله بعد النأي أن يسعف الثوى
وكاد من الوجد المبر^(١) يطير:
فكيف إذا مررت عليك شهوذا!
من الأرض غول^(٢) نازح ومسير
أزيد اشتياقا أن يحن بعير
ويجمع شمل بعدها وسرور

قال: فسكنت والله عتي الحمى ما أحس بها؛ وقلت لرفيقي: انزل يرحمك الله إلى راحلتك فإني متماسك، وجزاك الله عن الصحبة خيرا!

عجوز تُنشد الأصمعي شعرا^(٣)

قال الأصمعي: إني لفي سوق، وقد نزلت على رجل من بني كلاب، كان متزوفا بالبصرة؛ إذ أقبلت عجوز على ناقة لها، حسنة البرة، فيها باقي جمال، فاناخت وعقلت ناقتها، وأقبلت تتوكأ على منحجن^(٤) لها، فجلست قريبا منا، وقالت: هل من مُنشد؟ فقلت للكلابي: أيحضرك شيء؟ قال: لا، فأنشدتها شعرا لبشر بن عبد الرحمن الأنصاري:

وقصيرة الأيام^(٥) ودَّ جليسها
لو باع^(٦) مجلسها بفقد حميم
من مُخذيات^(٧) أخي الهوى غصص الجوى
بدلال غانية ومثقلة ريم
صفراء من بقر الجواء^(٨) كأنما
خفر الحياء بها رداغ سقيم^(٩)

(١) المبر: الشديد.

(٢) الغول: بعد الشقة.

(٣) أمالي المرتضى: ٢: ١٣٨.

(٤) المنحجن: العضا المعوجة.

(٥) يريد: أن أيام جلسها تقصر، إذ أن أيام السرور موصوفة بالقصر.

(٦) باع: اشترى، وهو من الأضداد.

(٧) باع: اشترى، وهو من الأضداد.

(٨) الجواء: موضع.

(٩) الرداغ: الوجد في الجسد، وكأنه أراد أنها منقبضة منكسرة من الحياء كما يتغير لون السقيم.

قال: فجئت على ركبتيها، وأقبلت تحرش^(١) الأرض بمنجنها وأنشأت تقول:

قفي يا أميم القلبِ نقرأ تحيةً
فلو قلت: طأ في النار أعلم أنه
لقدمت رحلي نحوها فوطئتها
سلي البانة العلياء بالأجرع الذي
وهل قمت في أطلالهن عشيةً
ليهنتك إمساكي بكفي على الحسى
ونشك الهوى ثم افعلي ما بدا لك
هوى لك أو مذن لنا من نوالك
هدى منك لي أو ضلّة من ضلالك
به البان هل حيتت أطلال دارك؟
مقام أخي البأساء واخترت ذلك؟
ورقراق عيني خشية من زياالك^(٢)

قال الأصمعي: فأظلمت عليّ والله الدنيا بحلاوة منطقتها، وفصاحة لهجتها، فدنوت منها وقلت: أنشدتك الله لما زدني من هذا! فأريت الضحك في عينها وأنشدت:

ومستخفيات ليس يُخفين زُزُننا
يسخُنن أذيال الصبابة والشُكُل^(٣)
جمغن الهوى حتى إذا ما ملكنه
نزعن وقد أكثرن فينا من القتل
مريضات رجع الطرف خرس عن الخنا
بخثل ذوي الألباب بالجد والهزل
يعنّفني العُدال فيهن، والهوى
يحذرني من أن أطيع ذوي العذل
الأصمعي وبعض الأعراب^(٤)

قال بعض الرواة: كنا مع أبي نصر راوية الأصمعي، في رياض من المذاكرة، نتجني ثمارها، ونجتلي أنوارها، إلى أن أفضنا في ذكر أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، فقال: رحم الله الأصمعي! إنه لمعدن حكّم، وبحر علم، غير أنه لم نر قط مثل أعرابي وقف بنا فسلم، فقال: أيكم الأصمعي؟

(١) تحرش الأرض: تخدشها.
(٢) الزيال: المفارقة.
(٣) الشكل (بالفتح والكسر): دل المرأة وغزلها. (٤) زهر الآداب: ٢ - ١٠٠.

فقال: أنا ذاك! فقال: أتأذنون بالجلوس؟ فأذنا له، وعجبنا من حُسن أدبه، مع جفاء أدب الأعراب!

قال: يا أضمعي؛ أنت الذي يزعم هؤلاء النفر أنك أثقُبهم معرفة بالشعر والعربية، وحكايات الأعراب! قال الأضمعي: منهم مَنْ هو أعلم مني، ومَنْ هو دوني!

قال: أفلا تنشدني من بعض شعر أهل الحضرة حتى أقيسه على شعر أصحابنا! فأشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك:

أمسلم أنت البحر إن جاء وارداً	وليت إذا ما الحرب طار عقابها ^(١)
وأنت كسيف الهندواني ^(٢) إن غدت	حوادث من حرب يعب عباها
وما خلقت أكرومة ^(٣) من امرئ له	ولا غاية إلا إليك مأبها
كانك دياناً عليها موكل	بها، وعلى كفيك يجري حسابها
إليك رحلنا العيس ^(٤) إذ لم نجد لها	أخا ثقة يزجي لديه ثوابها

فتبسّم الأعرابي، وهز رأسه؛ فظننا أن ذلك لاستحسانه الشعر، ثم قال: يا أضمعي! هذا شعر مهلهل، خلق النسيج، خطؤه أكثر من صوابه، يغطي عيوبه حسن الروي ورواية المنشد! يشبهون الملك إذا امتدح بالأسد، والأسد أمخر شتيم^(٥) المنظر، وربما طرده شزيمة من إماننا، وتلاعب به صبياننا! ويشبهونه بالبحر، والبحر صعب على مَنْ ركب، مرٌّ على مَنْ شربه! وبالسيف، وربما خان في الحقيقة، ونا عن الضريبة! ألا أنشدتني كما قال صبي من حينا!

قال الأضمعي: وماذا قال صاحبكم؟ فأشده:

الموت يكره أن يلقى منيته	في كره عند لف الخيل بالخيل
وراحم الشمس أبقي الشمس كاسفة	أو راحم الصم الجأها إلى الميل
أمضى من النجم إن نابتة نائبة	وعند أعدائه أجرى من السيل

(١) طار عقابها: كناية عن اشتداد الحرب.

(٢) الهندواني: منسوب إلى رجال الهند.

(٣) الأكرومة: فعل الكرم.

(٤) العيس: الإبل يخالط بياضها شقرة.

(٥) شتيم: كربه.

لا يستريح إلى الدنيا وزينتها ولا تراه إليها صاحب الذئيل
بقصر المجدد عنه في مكارمه كما يقصر عن أفعاله قولي!

قال أبو نصر: فأبهتتنا والله ما سمعنا من قوله.

ثم قال الأعرابي: ألا تنشدني شعراً ترتاح إليه النفس، ويسكن إليه القلب؟
فنشده لابن الرقاع العاملي:

وناعمة تجلو بعود أراكِ مؤشرة^(١) ينبي المعانق طيبها
أراك إلى نجد تحن وإنما متى كل نفس حيث كان حبيبها

فتبسم الأعرابي، وقال: يا أصمعي؛ ما هذا بدون الأول، ولا فوقه؛ ألا
أنشدتني كما قلت؟ قال الأصمعي: وما قلت جعلت فداك! فأنشده:

تعلقتها بكرًا وعلفت حبها فقلبي عن كل الوري فارغ بكر
إذا احتجبت لم يكفك البدر ضوءها وتكفيك ضوء البدر إن حجب البدر
وما الصبر عنها - إن صبرت - وجدته جميلاً، وهل في مثلها يحسن الصبر!
ولو أن جلد الذر^(٢) لامس جلدنا لكان ليمس الذر في جلدنا أثر

فقال لنا الأصمعي: اكتبوا ما سمعتم، ولو بأطراف المدى في رفاق الأبياد.
وأقام عندنا شهرًا؛ فجمع له الأصمعي خمسمائة دينار! وكان يتعاهدنا في الحين
بعد الحين، حتى مات الأصمعي وتفرق أصحابنا!

شِعْرٌ مُرْتَجَلٌ^(٣)

جلس جعفر بن يحيى بالصالحية، يشرب على مُسْتَشْرِفٍ له فجاءه أعرابي
من بني هلال، فاشتكى واستماح^(٤) بكلام فصيح، ولفظ مثله يعطف المسؤول.

فقال له جعفر: أقول الشعر يا هلالتي؟ فقال: كنت أقوله وأنا حدث أتملح
به، ثم تركته لما صرت شيخاً، قال: فأنشدنا لشاعركم حميد بن ثور، فأنشده
قوله:

لَمِنَ الدِّيارِ بِجانِبِ الخَمْسِ كَمَحَطِّ ذِي الحَاجاتِ والنَّفْسِ

(٢) الذر: صغار النمل.

(٤) استماح: طلب العطاء.

(١) تأشير الأسنان: تحزيرها.

(٣) الأغاني ١٧ - ٢ (طبعة الساسي).

حتى أتى على آخرها - وكان أشجع السلمي حاضراً المجلس - فاندفع يُنشد مديحاً في جعفر، قاله لوقته على الوزن والقافية:

ذهبت مكارم جعفرٍ وفعاله في الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس
فإذا تراءته الملوك تراجعوا جهر الكلام بمنطق همس
ساد البرامك جعفرٌ وهم الألى بعد الخلائف سادة الأنس

فقال له جعفر: صف موضعنا، فقال:

قُصُور الصالحية كالعداوى لِبِسْنَنٍ ثيابَهُنَّ لِيَوْمِ عَزْسِ
مُطَلَّاتٌ عَلَى بَطْنِ كَسْتُهُ أيادي الماء وشيئا نسج عَزْسِ
إِذَا مَا الطَّلُّ أَثَّرَ فِي ثَرَاهُ تَنَفَّسَ نَوْرُهُ مِنْ غَيْرِ نَفْسِ
فَتَعَبَّقَهُ^(١) السَّمَاءُ بِصَبْغِ وَزْسِ وَتَضَبَّحَهُ بِأَكْوَسِ عَيْنِ شَمْسِ

فقال جعفر للأعرابي: كيف ترى صاحبنا يا هلالى؟ فقال: أرى خاطرَه طوع لسانه، وبيان الناس تحت بيانه، وقد جعلت له ما تصلني به؛ فقال: بل نصلك يا أعرابي ونرضيه، وأمر للأعرابي بمائة دينار؛ ولأشجع بمائتين.

هُونَت عَلَى الْعَزْلِ^(٢)

ولى الرشيد جعفر بن يحيى خراسان، فدخل عليه الناس يهنتونه، ثم دخل عليه الشعراء، فقام أشجع السلمي آخرهم، واستأذن في الإنشاد، فأذن له فأنشد:

أَتَصْبِرُ لِلْبَيْنِ أَمْ تَجْزَعُ فَإِنَّ الدِيَارَ غَدًا بَلَقَعُ
غَدًا يَتَفَرَّقُ أَهْلُ الْهَوَى وَيَكْثُرُ بِأَكِّ وَمُسْتَرْجِعُ
وَتَفْنَى الطَّلُولُ وَيَبْقَى الْهَوَى وَيَضْنَعُ ذُو الشُّوقِ مَا يَضْنَعُ
حتى انتهى إلى قوله:

وَدَوَّبَتِ^(٣) بَيْنَ أَقْطَارِهَا مَقَاطِيعُ أَرْضِينَ لَا تُقَطِّعُ

(١) الغبوق: شراب العشي، والصبح: شراب الصباح.

(٢) الأغاني: ١٧ - ٧ (طبعة الساسي). (٣) الدوية: الفلاة.

تجاوزتها فوق رِيَعَانَةٍ^(١) من الريح في سيرها أَسْرَعُ
إلى جعفرٍ نزعَتْ رغبةً وأي فتى نحوَه تنزِعُ!
فما دونه لامرِيءٍ مطمَعُ ولا لامرِيءٍ غيرِه مَقْتَعُ
ولا يرفعُ الناسُ مَنْ حطَه ولا يضعون الذي يرفعُ
يريد الملوكُ مَدَى جعفرِ ولا يصنَعون كما يصنَعُ
تلوذُ الملوكُ بأبوابِه إذا نالها الحدُّ الأفظعُ
بديهته مثلُ تدبيره متى رُمته فهو مستجمعُ
وكم قائلٌ إذ رأى ثروتِي، وما في فضول الغنى أضنعُ
عَدا في ظلال نَدَى جعفرِ يجرُّ ثيابَ الغنى أشجعُ
فقل لخراسانَ: تحيا فَقَدُ أتاها ابنُ يحيى الفتى الأزوعُ^(٢)

فأقبل عليه جعفرٌ ضاحكًا، واستحسن شعره، وجعل يخاطبه مُخاطبة الأخ
أخاه، ثم أمر له بألف دينار.

قال الراوي: ثم بدا للرَّشيد في ذلك التدبير، فعزل جعفرًا عن خراسان بعد
أن أعطاه العهد والكتاب. وعقد له العقد، وأمر ونهى، فوجم لذلك جعفر، فدخل
عليه أشجع وقال:

أمنستُ خراسانَ تُعزِّي بما أخطأها من جعفر المرتجى
كان الرشيدُ المعتلى أمرُه ولي عليه المُشْرِقُ الأبلجا
ثم أراه رأيَه أنه أمسى إليه منهم أحوجا
فكم به الرخمن من كُزْبَةٍ في مدة تُفصر قد فرجا

فضحك جعفر وقال: لقد هونت على العزل، وقمت لأمير المؤمنين
بالعذر؛ فسألني ما شئت، فقال: قد كفاني جودك ذلة السؤال، فأمر له بألف
دينار أخرى.

(١) الريعانة: الناقة الكثيرة اللبن.

(٢) الأزوع: من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته.

أَرَى الْأَيَّامَ لَا تُدْنِي الَّذِي ارْتَجَى (١)

قال محمد بن أمية: كنت جالساً بين يدي إبراهيم بن المهدي، فدخل إليه أبو العتاهية، وقد تَنَسَّكَ وَلَبَسَ الصَّوْفَ، وترك قولَ الشعر إلا في الزهد. فرفعه إبراهيم، وسُرَّ به، وأقبل عليه بوجهه.

فقال له أبو العتاهية: أيها الأمير؛ بلغني خبرُ قَتَى في ناحيتك ومن مواليك يُعرف بابن أمية، يقول الشعر، وأنشدتُ له شعراً فأعجبني، فما فعل! فضحك إبراهيم، ثم قال: لعلهُ أقربُ الحاضرين مجلساً منك.

فالتفت إليّ فقال: أنت هو قَدَيْتُكَ؟ فقلت له: أنا محمد بن أمية جُعِلْتُ فداءك! وأما الشعر فإنما أنا شاب أعَبْتُ بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبثُ الشاب. فقال لي: قَدَيْتِكَ؛ ذاك والله زمانُ الشعر وإتائه، وما قيل فيه فهو غُرُزُهُ وعيونُهُ، وما زال يُنشِطني ويؤنسني حتى رأى أنني قد أنسْتُ به.

ثم قال لإبراهيم بن المهدي: إن رَأَى الأمير - أكرمهُ الله - أن يأمره بإنشادي ما حضر من الشعر! فقال لي إبراهيم: بحياتي يا محمد أنشده، فأنشدته:

رُبَّ وَعْدٍ مِنْكَ لَا أَنْسَاهُ لِي	أَوْجِبَ الشُّكْرَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلِ
أَقْطَعُ الدَّهْرَ بظُنِّ حَسَنٍ	وَأَجَلِي غَمْرَةٌ مَا تَنْجَلِي
كَلِمَا أَمَلْتُ يَوْمًا صَالِحًا	عَرَضَ الْمَكْرُوهَ لِي فِي أَمَلِي
وَأَرَى الْأَيَّامَ لَا تُدْنِي الَّذِي	أَزْتَجِي مِنْكَ وَتُدْنِي أَجَلِي

فبكى أبو العتاهية حتى جرت دموعه على لحيته، وجعل يردد البيت الأخير منها ويتحب، وقام فخرج وهو يردده ويبكي، حتى خرج إلى الباب!

حَدِيثٌ عَنِ دِغْبَلِ (٢)

قال عمرو بن مسعدة: حضرتُ أبا دُلْفٍ عند المأمون - وقد قال له: أيُّ شيء تزوي لأخي خُزاعة؟ فقال: وأي خُزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال: ومن تعرف فيهم شاعراً؟ فقال: أمّا من أنفسهم؛ فأبو الشَّيْصِ ودِغْبَلِ وابن أبي الشَّيْصِ، ودادود ابن أبي رزّين؛ وأمّا من موالِيهم فظاهر وابنه عبد الله.

(١) الأغاني: ١١ - ٣٠ (طبعة الساسي). (٢) الأغاني: ١٨ - ٤٤ (طبعة الساسي).

فقال: وَمَنْ عَسَى فِي هَؤُلَاءِ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ شَعْرِهِ سِوَى دَعْبِلِ! هات؛ أي شيء عندك فيه؟ فقال: وأَيُّ شَيْءٍ أَقُولُ فِي رَجُلٍ لَمْ يَتْرِكْ أَهْلَ بَيْتِهِ حَتَّى هَجَاهُمْ، فَفَرَزْنَ إِحْسَانَهُمْ بِالْإِسَاءَةِ، وَبَذَلَهُمْ بِالْمَنْعِ، وَجَوَدَهُمْ بِالْبَخْلِ، حَتَّى جَعَلَ كُلُّ حَسَنَةٍ مِنْهُمْ بِإِزَاءِ سَيِّئَةٍ! قال: حين يقول ماذا؟ قال: حين يقول في المطلب بن عبد الله بن مالك - وهو أصدق الناس له، وأقربهم منه: وقد وفد إليه في مصر، فأعطاه الجزيل، وولاه؛ ولم يمنعه ذلك أن قال فيه:

أَضْرِبْ نَدَى طَلْحَةَ الطَّلْحَاتِ مُتَبَدِّدًا بِلَوْثِ مُطَلِّبٍ فِينَا وَكُنْ حَكَمًا
تَخْرُجُ خُرَازِمَةٌ مِنْ لَوْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ فَلَا تَحْسَبْ لَهُ لَوْمًا وَلَا كَرَمًا
فقال المأمون: قاتله الله! ما أغوصه وأطفه وأذاه! وجعل يضحك.

ثم دخل عبد الله بن طاهر، فقال له: أَيُّ شَيْءٍ تَحْفَظُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِدَعْبِلِ؟ فقال: أَحْفَظُ آيَاتًا لَهُ فِي أَهْلِ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: هَاتِيهَا، وَيْحَكَ! فَأَنْشَدَهُ عَبْدَ اللَّهِ قَوْلَهُ:

سَفِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَّامِ الصَّبَابَاتِ أَيَّامَ أَزْفَلُ فِي أَثْوَابِ لِدَاتِي
أَيَّامَ غُضْنِي رَطِيبٌ مِنْ لِيَانَتِهِ أَضْبُو إِلَى غَيْرِ جَارَاتٍ وَكَنَاتِي^(١)
دَخَّ عِنْدَكَ ذَكَرَ زَمَانٍ قَاتَ مَطْلِبُهُ وَاقْدَفَ بِرُحْلِكَ عَنْ مَتَنِ الْجَهَالَاتِ
وَاقْصِدْ بِكُلِّ مَدِيحٍ أَنْتَ قَاتِلُهُ نَحْوَ الْهَدَاةِ بَنِي بَيْتِ الْكِرَامَاتِ

فقال المأمون: إنه قد وجد والله مقالاً فقال: ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله في وصف غيرهم.

ثم قال: لقد أحسن في وصف سفر سافرته، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه:

أَلَمْ يَأْنِ^(٢) لِلسَّفَرِ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا إِلَى وَطَنِ قَبْلِ الْمَمَاتِ رَجُوعٌ؟
فَقُلْتُ - وَلَمْ أَمْلِكْ سِوَابِقِ عَبْرَةٍ: نَطَقْنَ بِمَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ ضُلُوعٌ^(٣)
تَبَيَّنَ فَكَمْ دَارَ تَفَرَّقَ شَمْلُهَا وَشَمِلَ^(٤) شَتِيَّتِ عَادَ وَهُوَ جَمِيعٌ

(١) الكنة: امرأة الابن أو الأخ. (٢) يأن: يقرب ويحضر. والسفر: المسافرين.

(٣) العبارة: الدمعة، وما ضمت عليه الضلوع: الحزن والشوق إلى الوطن والأهل.

(٤) الشمل: ما اجتمع من أمر أو ما تفرق منه، والشتيت: المتفرق، والجميع: المجتمع.

كذلك الليالي صرْفُهُنَّ^(١) كما ترى لكل إناس جَذْبَةٌ وربيع^(٢)

ثم قال: ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهجّيراي ومسليتي حتى أعود!

دِغْبِلِ عِنْدَ وَالِيِ مِصْرَ^(٣)

قال دِغْبِلِ بن علي: حججتُ أنا وأخي رَزِين، وأخذنا كتبًا إلى المَطْلِبِ بن عبد الله بن مالك، وهو بمصر يتولّاها.

فصِرْنَا من مكة إلى مصر، فصحبنا رجلٌ يعرف بأحمد بن السراج، فما زال يحدثنا ويؤنسنا طولَ طريقنا، ويتولّى خِدْمَتَنَا، كما يتولّاها الرُفقاء والأتباع، ورأينا حَسَنَ الأدب - وكان شاعرًا ولم نعلم - وَكَتَمْنَا نَفْسَهُ، وقد علم ما قصدنا له؛ فعرضنا عليه أن يقول في المطلب قصيدةً نَحْلُهُ إياها، فقال: إن شئتم، وأرانا بذلك سرورًا وتقبُّلاً له، فعملنا قصيدة، وقلنا له: تُشِيدُهَا المطلب، وإنك تنتفع بها، قال: نعم.

ووردنا مِصْرَ به، فدخلنا إلى المطلب، وأوصلنا إليه كتبًا كانت معنا، وأنشدناه، فسُرَّ بموضعنا ووصفنا له أحمد بن السراج هذا، وذكرنا له أمره، فأذن له، فدخل عليه، ونحن نظنُّ أنه سيُشِيدُهُ القصيدة التي نحلناه إياها، فلما مَثَلَ بين يديه عَدَلَّ عنها وأنشده:

لم آت مُطْلِيًا إِلَّا بِمَطْلِبِ	وهمة بلغت بي غاية الرتب
أفردته برجاءٍ أن تشاركه	في الوسائل أو ألقاه في الكتب
رخلت عيسى إلى البيت الحرام على	ما كان من وَصَبٍ فيها ومن نَصَبِ
ألقي بها وبوجهي كلِّ هاجرة ^(٤)	تكاد تَفْدَحُ بين الجلد والعصب
حتى إذا ما قضت نسكي ثيبت لها	عَظْفَ ^(٥) الزمام فأمت سيد العرب
فأممّتك ^(٦) وقد ذابت مفاصلها	من طول ما تعبٍ لاقت ومن نقبٍ ^(٧)

(٢) جذبة وربيع: حالتا خير وشر.

(٤) الهاجرة: إنما تكون في القيظ نصف النهار.

(٦) يقال: أمه وأمهه يعني قصده.

(١) صرف الليالي: أحداثها.

(٣) الأغاني: ١٨ - ٤٧ (طبعة الساسي).

(٥) عطف الشيء: جانبه.

(٧) نقب البعير: إذا حفى.

فصاح مُطَلَب: لبيك لبيك! ثم قام إليه، فأخذه بيده وأجلسه معه، وقال: يا غلام؛ البدر^(١) فأخضرت، ثم قال: الخلع، فنشرت، ثم قال: الدواب، فقيدت، فأمر له من ذلك بما ملأ عينه وأعيننا وصدورنا، وحسدناه عليه؛ وكان حسدنا له بما اتفق له من القبول وجودة الشعر، وغيظنا بكتمه إيانا نفسه واحتياله علينا أكثر وأعظم، فخرج بما أمر له، وخرجنا صِفْرًا.

قال الراوي: ومكث دعبل أيامًا، ثم ولّاه المطلب أسوان، ولكن دعبلاً كان قد هجاه غيظًا منه فقال:

أَمَطَلَبٌ أَنْتَ مُسْتَعَذِبٌ	حُمَيًّا ^(٢) الْأَفَاعِي وَمُسْتَقْتَلٌ
سَتَاتِيكَ إِمَّا وَرَدَّتْ الْعِرَاقُ	صَحَائِفُ يَأْتُرُهَا دِعْبِلٌ
مُنْمَقَةٌ بَيْنَ أَثْنَانِهَا	مَخَازٍ تُخَطُّ فَلَا تَرَحَّلُ
وَضَعْتَ رَجَالًا فَمَا ضَرَّهُمْ	وَشَرَفَتْ قَوْمًا فَلَمْ يَنْبُلُوا ^(٣)
إِذَا الْحَرْبُ كَثَّتْ أَمِيرًا لَهَا	فَحَظَّهُمْ مِنْكَ أَنْ يُقْتَلُوا
شِعَارُكَ فِي الْحَرْبِ يَوْمَ الْوَعَى	إِذَا انْهَزَمُوا: عَجَلُوا عَجَلُوا!
هَزَائِمُكَ الْغُرُ مَشْهُورَةٌ	يُقَرَّطُسُ ^(٤) فِيهِنَّ مَنْ يَنْضِلُ
فَأَنْتَ إِذَا مَا التَّقُوا آخِرُ	وَأَنْتَ إِذَا انْهَزَمُوا أَوْلُ ^(٥)

ويبلغ المطلب هجاؤه إياه بعد أن ولّاه؛ فعزله عن أسوان، وأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له، وقال: انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه، وامنعه من الخطبة وأنزله عن المنبر، واصعد مكانه؛ فلما أن علا المنبر وتنحج ليخطب ناوله الكتاب، فقال له دعبل: دعني أخطب فإذا نزلت

(١) البدر: جمع بكرة (بفتح الباء) وهي عشرة آلاف.

(٢) الحميا من كل شيء: شدته.

(٣) روى هذا البيت:

وعاديت قوماً فما ضرهم
(٤) قرطس: أصاب القرطاس، أي الغرض.

(٥) قال دعبل: قال لي المطلب: ما تفكرت في قولك قط:

إن كائرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب
إلا كنت أحب إلي، ولا تفكرت والله في قولك لي:

وعاديت قوماً فما ضرهم
إلا كنت أبغض الناس إلي.

قرأته، قال: لا، قد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه. فقرأه، وأنزله عن المنبر معزولاً.

دَعْبِلِ وَعَلِي الرِّضَا^(١)

قال دَعْبِلِ بن علي: دخلتُ على علي بن موسى الرضا - عليه السلام فقال لي: أنشدني شيئاً مما أحدثت، فأشدته:

مدارسُ آياتٍ خلَّتْ من تلاوةٍ ومنزلٍ وحيٍّ مُفْهِرِ العَرَصاتِ
لآلِ رسولِ الله بالخَيْفِ من مئى وبالرُّكنِ والتَّغْرِيفِ والجَمَراتِ
ديارِ عليٍّ والحسينِ وجعفرِ وحمزة والسَّجَادِ ذِي الثَّقِينَاتِ
حتى انتهيتُ إلى قولِي:

بنفسي أنتم من كهولٍ وفتيةٍ لفكُ عُنَاةٍ أو لِحَمَلِ دِيَاتِ
أحبُّ قصي الرِّخْمِ من أجلِ حُبِّكم وأهجرُ فيكم أسرتي وبناتي
وأكنتم حُببيكم مخافةً كاشحٍ عنيدي لأهلِ الحقِّ غيرِ مُؤَاتِ
لقد حَفَّتِ الأيَّامُ حولي بشرِّها وإني لأرجو الأمنَ بعد وفاتي
ألم ترَ أني من ثلاثين حِجَّةً أروحُ وأغدو دائم الحسراتِ
أرى فيئتهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئتهم صَفِراتِ
فأل رسول الله نحفٌ جسومهم وآل زياد حُقْلُ القَصَراتِ^(٢)
إذا وتروا^(٣) مدوا إلى أهلٍ وترهم

فبكي حتى أغمي عليه، وأوماً إليّ خادم كان على رأسه: أن اسكت، فسكت ساعة. ثم قال لي: أعد، فأعدتُ حتى انتهيتُ إلى آخرها، فقال لي: أحسنت، ثلاث مرات، ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه، ولم تكن وقعت لأحدٍ بعد، وأمر لي من في منزله بحلي كثير أخرجته الخادم إليّ.

(١) الأغاني: ١٨ - ٤٢ (طبعة الساسي)، معجم الأدياء ١١، ١٠٨.

(٢) القصرات: جمع قصرة (بالتحريك) وهي أصل العنق، وحفل: ممتلئة، والمعنى أن أعناقهم مملوءة غلظة من طول النعيم.

(٣) الوتر: الثأر، أو الظلم فيه، والمقصود: أنهم إذا اعتدى عليهم لا يستطيعون رد الاعتداء.

فقدِمْتُ العراق، فبعْتُ كلَّ درهمٍ منها بعشرةِ دراهمٍ، اشتراها مِنِّي الشيعةُ، فحصل لي مائة ألفِ درهمٍ، فكان أولُ مالٍ اعتقدته^(١).

قال حذيفة بن محمد: ثم استوهب دِغْبِلُ من الرضا ثوبًا قد لبسه ليجعله في أكفانه، فخلع جُبَّةً كانت عليه، فأعطاها إياها، وبلغ أهلَ قُمَّ خبرُها، فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألفِ درهمٍ فلم يفعل، فخرجوا عليه في طريقه، فأخذوها منه غضبًا، وقالوا له: إن شئتَ أن تأخذ المالَ فافعل، وإلا فأنتَ أعلم، فقال لهم: إني والله لا أعطيكم إياها طوعًا، ولا تنفعكم غضبًا، وأشكوكم إلى الرضا؛ فصالحوه على أن أعطوه ثلاثين ألفِ درهمٍ، وفَرَدَ كُومٌ من بطانتها، فرضي بذلك!

سَجَدُوا لِشِعْرِهِ^(٢)

حدَّث دِغْبِلُ الشاعر: أنه اجتمع هو ومُسلمٌ وأبو الشَّيْصِ وأبو نُوَاسٍ في مجلسٍ، فقال لهم أبو نُوَاسٍ: إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه، ولهذا اليوم ما بعده، فليأتِ كلُّ واحدٍ منكم بأحسنِ ما قال فليُنشِده، فأنشد أبو الشَّيْصِ:

وَقَفَ الهوى بي حيثُ أنتِ فليس لي	متأخَّر عنه ولا متقدِّمٌ
أجد المَلامَةَ في هوائِكَ لذيذة	حبًّا لذكرك فليَلْمَنِي اللُّومُ
وأهنتني فأهنتُ نفسي صاغِرًا	ما مَن يهون عليك ممن يُكرِّمُ!
أشبهت أعدائي فصرتُ أحبُّهم	إذا كان حظِّي منك حظِّي منهم

فجعل أبو نُوَاسٍ يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد يتقضي عجه، ثم أنشد مسلم أبياتًا من شعره الذي يقول فيه:

فأفْسَمْتُ أنسى الداعيات إلى الصبا	وقد فاجأتها العينُ والستر واقع
فغطتُ بأيديها ثمارَ نحورها	كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

قال دِغْبِلُ: فقال لي أبو نُوَاسٍ: هات أبا علي، وكأني بك قد جئتنا بأم القلادة فأنشدته:

أينَ الشبابُ؟ وأيَّةَ سَلْكا؟ أم أين يطلب؟ ضلَّ بَلْ هلكا

(١) اعتقدته: اقتنيته.

(٢) العقد الفريد: ٤ - ٢، مهذب الأغاني: ٧ - ٢٢٤، ديوان مسلم: ٢٠٩ (طبعة أوربا).

لا تَعَجَّبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
يا ليت شعري كيف صَبْرُكَمَا يا صاحِبِي إِذَا دَمِي سَفِكَا!
لا تَطْلُبَا بِظُلَامَتِي^(١) أَحَدًا قَلْبِي وَطَرْفِي فِي دَمِي اشْتَرَكَا
ثم سألنا أبا نواس أن يُنشد، فأنشد:

لا تَبْنِكْ هِنْدًا وَلَا تَطْرِبْ إِلَى دَعْدٍ
واشرب على الورد^(٢) من حمراء كالورد
كأسًا إذا انحدرت في كف شاربيها
أخذت بحمرتها في العين والخذ
فالخمر ياقوتة، والكأس لؤلؤة
في كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من عينها خمرا ومن يدها
خمرا، فما لك من سُكْرَيْنِ مِنْ بُدْ
لي نشوتان وللثدمان واحدة
شيء خصصت به من بينهم وخذني

فقاموا كلهم، فسجدوا! فقال: أفعلتموها أعجمية؟ لا كلمتكم ثلاثا.

إنما الدنيا أبو دُلف^(٣)

قال المأمون يوماً لبعض جلسائه: أقسم على من حَصَرَ مِنِّي يَحْفَظُ قَصِيدَةَ
علي بن جبلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أنشدتها؛ فقال بعضُ الجلساء: قد
أقسم أمير المؤمنين، ولا بد من إبرار قَسَمِهِ، وما أحفظها، ولكنها مكتوبة عندي.
قال: قم فجتني بها. فمضى وأتاه بها، وأنشده:

ذادَ وَزَدَ الْغَيِّ عَنْ صَدْرِهِ وازَعَوَى وَاللَّهُوُ مِنْ وَطْرِهِ
وَأَبَتْ إِلَّا الْبِكَاءَ لَهُ ضَحِكَاتِ الشَّيْبِ فِي شَعْرِهِ
نَدَمِي أَنْ الشَّبَابَ مَضَى لَمْ أَبْلُغْهُ مَدَى أَشْرِهِ

(١) الظلامه: ام احتمله من الظلم، والمراد هنا موته عشقا من أثر النظر بعينه والحب بقلبه.
(٢) الورد: الماء الذي يورد.
(٣) الأغاني: ٨ - ٢٥٩ (طبعة دار الكتب).

حَسَرَتْ عَنِّي بِشَاشْتُهُ وَدَوَى الْمَحْمُودُ مِنْ ثَمَرِهِ
 ودم أهدرت من رَشِي لم يُرِدْ عَقْلًا عَلَى هَدْرِهِ
 دَغْ جَدًا قحطان أو مُضِرِّ في يَمَائِيهِ، وفي مُضِرِّهِ
 وامتدخ من وائلِ رجلاً عُضِرَ الْآفَاقِ فِي عُصْرِهِ
 الْمَنَائِيَا فِي مَقَانِيهِ^(١) والعطايا في ذَرَا حُجْرِهِ
 مَلِكٌ تَنَدَى أَنَامِلُهُ كانبلاجِ النَّوْءِ عَنِ مَطْرِهِ
 مستهلٌّ عن مواهِيهِ كابتسامِ الرَّوْضِ عَنِ زَهْرِهِ
 جَبَلٌ عَزَّتْ مَنَاكِبُهُ أَمِنَتْ عَدْنَانُ فِي نَقْرِهِ
 إنما الدنيا أبو دُلْفِ بين مَبْدَاهُ ومحتَضْرِهِ
 فإذا وَلَى أَبُو دُلْفِ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثْرِهِ
 كلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ بين باديهِ إِلَى حَضْرِهِ
 مستعير منه مَكْرَمَةٌ يكتسيها يَوْمَ مُفْتَحْرِهِ

فغضب المأمون واغتاظ، وقال: لسئ لأبي إن لم أقطع لسانه أو أسفك
 دمه. ثم قال: اطلبوه حيث كان؛ فطلب فلم يقدر عليه. ولما اتَّصَلَ به الخبر
 هَرَبَ إِلَى الْجَزِيرَةِ، فكتب إلى الآفاق في طلبه، فهرب من الجزيرة إلى الشام،
 وظفروا به هناك، وأخذَ وَحِمَلَ إِلَى الْمَأْمُونِ.

ولما وصل إليه سبه، وقال له: أنت القائل للقاسم بن عيسى:

كلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ بين باديهِ إِلَى حَضْرِهِ
 مستعيرٌ منه مَكْرَمَةٌ يكتسيها يَوْمَ مُفْتَحْرِهِ

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه! فقال له: يا أمير المؤمنين؛ أنتم أهل بيت
 لا يُقَاسُ بِكُمْ أَحَدٌ؛ لأن الله جلَّ وعزَّ فضلكم على خلقه، واختاركم لنفسه، وإنما
 عنيت بقولي في القاسم أشكال القاسم وأقرانه، فقال: والله ما استثنيت أحداً،
 ولست استحل دمك لذاك، ولكني أستحلُّه بقولك وكفرك في شعرك، حيث تقول

(١) المقانب: جمع مقنب؛ وهو جماعة الخيل تغير.

القول الذي أشركت فيه :

أنت الذي تُنزل الأيام منزلها وتُنقلُ الدهر من حالٍ إلى حالٍ
وما مددت مَدَى طَرْفٍ إلى أحدٍ إلا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالٍ
كذبت... ما يقدر على ذلك أحدٌ إلا الله عزَّ وجلَّ، الملك الواحد القهار،
ثم أمر بعقابه!

مدحة شاعرٍ وعَظية أمير^(١)

قال علي بن جبلة: زرتُ أبا دُلْفٍ بالجبل^(٢)، فكان يُظهر من إكرامي وبري والتحفي^(٣) بي أمرًا مفرطًا، حتى تأخرت عنه حينًا حياءً؛ فبعث إليّ مَعْقِلَ بن عيسى، فقال: يقول لك الأمير: قد انقطعت عني وأحسبك استقلت برِّي بك، فلا يغضبناك ذلك فسأزيد فيه حتى ترضى. فقلت: والله ما قطعني إلا إفراطه في البر، وكتبته إليه:

هجرتك لم أهجرك من كفرِ نعمةٍ وهل يُزتجى نيلُ الزيادةِ بالكفرِ!
ولكنني لما أتيتك زائرًا فأفرطت في برِّي عجزت عن الشكرِ
فَمِلَانٌ^(٤) لا آتيك إلا مسلماً أزورك في الشهرين يوماً أو الشهرِ
فإن زدتنني برًّا تزايدت جفوةً ولم تلقني طولَ الحياةِ إلى الحشرِ!

فلما قرأها معقل استحسناها، وقال: أحسنت والله! أما إن الأمير لتعجبه هذه المعاني.

فلما أوصلها إلى أبي دُلْفٍ قال: قاتله الله! ما أشعره وأدق معانيه! وأعجبته وأجابني لوقته - وكان حسن البديهة حاضر الجواب:

ألا رب ضيفٍ طارقٍ قد بسطته وأنسته قبل الضيافة بالبشرِ
أتاني يرجيني فما حال دونه ودون القرى والعُرف من نائلي سئري
وجدت له فضلاً عليّ بقضيه إليّ، وبرا زاد فيه على برِّي
فزودته مالا يقل بقاؤه وزودني مدحاً يدوم على الدهرِ

(١) الأغاني: ٧ - ٢٥٦ (طبعة دار الكتب).

(٢) بلاد الجبل: مدن بين أذربيجان والعراق.

(٣) تحفى به: بالغ في إكرامه.

(٤) يريد فمن الآن.

وبعث إليّ بالأبيات مع وصيف له، وبعث إليّ بألف دينار؛ فقلت حينئذ:

إنما الدنيا أبو ذُلف بين مبداه ومحتضره

بين أبي تمام وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ (١)

لما شَخَّصَ أَبُو تَمَامٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ وَهُوَ بِخُرَاسَانَ، أَقْبَلَ الشِّتَاءَ وَهُوَ هُنَاكَ: فَاسْتَقْبَلَ الْبَلَدَ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ وَجِدَ عَلَيْهِ، وَأَبْطَأَ بِجَائِزَتِهِ؛ لِأَنَّهُ نَثَرَ عَلَيْهِ أَلْفَ دِينَارٍ، فَلَمْ يُمْسَسْهَا بِيَدِهِ تَرْفَعًا عَنْهَا، فَقَالَ: يَحْتَقِرُ فَعْلِي، وَيَتَرَفَّعُ عَلَيَّ! فَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ بِالشَّيْءِ بَعْدَ الشَّيْءِ كَالْقَوْتِ. فَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

لَمْ يَبْقَ لِلصَّيْفِ رَسْمٌ وَلَا طَلْلٌ وَلَا قَشِيبٌ فَيُسْتَكْسَى وَلَا سَمْلٌ
عَدْلٌ مِنَ الدَّمْعِ أَنْ يَبْكِيَ المَصِيفَ كَمَا يُبْكِي الشَّبَابُ وَيُكِي اللَّهْوُ وَالغَزْلُ
يَمْتَنِي الزَّمَانَ انْقَضَى مَعْرُوفُهَا وَغَدَتْ يُسْرَاهُ وَهِيَ لَنَا مِنْ بَعْدِهَا بَدَلٌ

فبلغت الأبيات أبا العميثل شاعر آل طاهر، فأتى أبا تمام واعتذر إليه لعبد الله بن طاهر.

ثم دخل إلى عبد الله فقال: أيها الأمير؛ أتتهاون بمثل أبي تمام، وتجفوه! فوالله لو لم يكن له ما له من النباهة في قدره، والإحسان في شعره، والشائع من ذكره، لكان الخوف من شره، والتوقفي لذمه يُوجب عليّ مثلك رعايته ومراقبته، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن، وفراقه السكن الشفيح! وقد قصدك عاقداً بك أملة، مُغَمَّلاً إليك ركابه، متعباً فيك فكره وجسمه، وفي ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى ينصرف راضياً، ولو لم يأت بفائدة، ولا سُمِعَ فيك منه ما سُمِعَ إلا قوله:

يَقُولُ فِي قَوْمِيسٍ (٢) صَحْبِي وَقَدْ أَخَذْتُ

مِنَّا السُّرَى وَخَطَا المَهْرِيَّةَ (٣) القَوْدِ (٤)

أَمَطَّلَعَ الشَّمْسُ تَبْغِي أَنْ تَوْؤَمَ بِنَا؟

فقلت: كلاً! ولكن مطلع الجود

(١) الأغاني: ١٥ - ١٠٢ (طبعة الساسي). (٢) قومس: إقليم في طبرستان.

(٣) الإبل المهريّة: تنسب إلى مهرة: حي في العرب.

(٤) القود: جمع أقود وهو الطويل العنق.

لكفى! فقال له عبد الله: لقد تبيّنت فأحسنت، وعاتبّت فأوجعت، ولك والأبي تمام العنبي^(١) - ادعه يا غلام فدعاه، فناداه يومه، وأمر له بألفي دينار وما يحمله من الظهر، وخلق عليه خلعة تامة من ثيابه، وأمر ببذرقته^(٢) إلى آخر عمله.

لا يعجبك من يضور ثيابه خوفاً الغبار وعرضه مبدول^(٣)

ارتاح محمد بن عبد الله بن طاهر يوماً للمنادمة، وقد حضره ابن طالوت، وكان وزيره وأخص الناس به وأحضرهم لخلواته، فأقبل عليه، وقال: لا بد لنا اليوم من ثالث تطيب لنا به المعاشرة، وتلد بمئادته المؤانسة؛ فمن ترى أن يكون؟ وأعفنا أن يكون شريز الأخلاق، أو دنيس الأعراق، أو ظاهر الإملاق.

قال ابن طالوت: فأعملت الفكر، وقلت: أيها الأمير؛ خطر بيالي رجل ليس علينا من مجالسته مؤونة، وقد برىء من إيرام المجالسين، وخلا من ثقل المؤانسين، خفيف الوطأة إذا أذنيه، سريع الوثبة إذا أمرته.

قال: ومن ذلك؟ قلت: ماني الموشوس. قال: أحسنت والله! فما بأسرع من أن اقتنصه صاحب الشرطة؛ فصار به إلى الأمير، فأخذ، الحمّام، وألبس ثياباً نظافاً، وأدخل عليه، فقال: السلام عليك يا محمد؛ وعليك السلام يا ماني. أما أن لك أن تزور، ومنازعة قلوب منا نحولك؟ فقال: الشوق والحجاب صعب، والبواب قفّ؛ فقال: أطفئت في الاستئذان، فليلطف لك في الإذن؛ لا يسع من ليل أو نهار.

ثم أذن له في الجلوس فجلس، ودعا بالطعام فأكل، ثم غسل يديه، وأخذ مجلسه. وكان محمد قد تشوق إلى السماع من مؤنسة جارية بنت المهدي فأحضرت، فكان أول ما عتت به:

ولست يناس - إذ غفوا فتحملوا -
وقولي، وقد زالت بليل حمولهم
دموعي على الخدين من شدة الوجيد
بواكر تحدى: لا يمكن آخر النصيب

فقال ماني: أحسنت! وبحق الأمير إلا ما زدت فيه:

وقمت أناجي الفكرَ والدمعَ حائرٍ بمقلة موقوف على الصرِّ والجهد^(١)
ولم يُغديني هذا الأميرُ بعذلهِ على ظالمٍ قد لجح في الهجرِ والصَّدِّ
فاندفعت تغنيه، فقال له محمد: أعاشق أنت؟ فاستحيا، وغمزه ابن طالوت
ألا يبوح له بشيء فيسقط من عينيه، وقال: مَبْلُغُ طرب وشوق كان كامناً فظهر؛
وهل بعد الشيب صبوة!

ثم اقترح محمد على مؤنسة هذا الصوت:

حجَّبُوها عن الرِّياحِ لأنِّي قلت: يا ريح بلغيها السلاما
لو رَضُوا بالحجابِ هانَ ولكن منعوها عن الرياحِ الكلاما
فغنته؛ فطرب محمد، ودعا برطل فشرب، فقال ماني: ما على قائل هذا
الشعر لو زاد فيه:

فتنقُستُ، ثم قلت لطيفي: أه إن زُرت طيفها إماما
خُصه بالسلام مني فأخشى يمنعوها لشفوتي أن تناما
لكلِّه أثقب^(٢) لَزِنْدِ الصبابة بين الأحشاء، وأشد تغلغلاً إلى الكبد^(٣) الصادية
من زلال الماء، مع حسن تأليف نظمه، والانتهاه بالمعنى إلى نهاية تمامه؛ فقال
محمد: أحسنت! ثم أمر مؤنسة بإلحاقهما بالبيتين الأولين، والغناء بهما، ففعلت.
ثم غنت بهذين البيتين:

يا خليلي ساعة لا تَريما^(٤) وعلى ذي صبابة فأقيما
ما مَرَزْنَا بدارِ زِينبِ إلا هَتَكَ الدمعُ سرِّنا المكتوما
فاستحسنه محمد، فقال ماني: لولا رهبةُ التَّعدي لأضفت إلى هذين
البيتين بيتين لا يَرِدَانِ على سَمْعِ ذي لب فيصدران إلا عن استحسانٍ لهما،
فقال محمد: يا ماني؛ الرغبة في حسن ما تأت به من الشعر، فهات
ي

(١)

الحمد: المشقة.

ما عندك! فقال:

طبية كالهلال لو تلحظ الصخ
وَإِذَا مَا تَبَسَّمَتْ خِلْتُ إِيْمَا
رَ بَطْرَفٍ لِعَادَرْتُهُ هَشِيْمَا
ضَ بُرُوقٍ أَوْ لَوْلُؤًا مَنْظُومَا
فقال: أحسنت يا ماني! فأجِز^(١) هذا الشعر:

لم تطلب اللذات إلا بمن
غنت بصوت أطلقت عبْرَة
طابَتْ بها اللذات ما نوسه
كانت بسجن الصبر محبوسه
فقال ماني:

وكيف صبر النفس عن عادة
وَجُرْتُ إِنْ شَبِهْتُهَا بَانَة^(٢)
أظلمها إن قلت: طاوسه!
في جنة الفردوس مغروسه
وغير عدل إن عدلنا بها
جوهره في البحر مغموسة
ثم سكت، فقال محمد: ما عدا في وصفه لها، فقال ماني:

جلت عن الوصف فما فكرة
تُلحِقها بالنعته محسوسه

فقال محمد: أحسنت! فقالت مؤنسة: وجب شكرك يا ماني. نساعدك
الدهر، وعطف عليك إلفك، وقارنك سرورك، وفارقك محذورك، والله يُديم لنا
ذلك ببقاء من به اجتمع شملنا، فقال لها ماني - عند قولها: «وعطف عليك إلفك» -
مجيباً:

ليس لي إلف فيعطفني
أنا موصول بنعمة من
فارقَتْ نفسي الأباطيلُ
حَبْلُهُ بِالْمَجْدِ مَوْصُولُ
أنا مغبوط بنعمة من
طَبَعُهُ بِالْمَجْدِ مَأْمُولُ
فأوماً إليه ابن طالوت بالقيام فنهض، وهو يقول:

ملك قلّ النظير له
طاهري في مواكبه
زانه العُرّ البهاليل
عُرْفُه فِي النَّاسِ مَبْذُولُ

(١) الإجازة في الشعر: أن تتم شعر غيرك. (٢) البان: ضرب من الشجر.

فقال محمد: وجب جزاؤك لشُكرك على غير نعمةٍ سبقت، ثم أقبل على ابن طالوت، فقال: ليست خساسة المرء، ولا اتّضاع دهره، ولا تُبَوِّ العين عن الظاهر بمُذهبٍ ما ركب فيه من الأدب، وما أخطأ صالح بن عبد القدوس حين يقول:

لا يعجبنك من يصبون ثيابه خوف الغبارِ وعرضه مبذول
فلربما افتقر الفتى فرأيتَه دَنَسَ الثياب وعرضه مَغْسُول

فلم يزل محمد مُجْرِبًا عليه رزقه حتى توفي!

سَعَايَة (١)

سُعي بأبي الحسن عليّ بن محمد العلويّ إلى المتوكل، وقيل له: إن في منزله سلاحًا وكُتُبًا وغيرها من شيئته، فوجه إليه ليلاً من هجم عليه في منزله عليّ غفلةٍ ممّن في داره، فوجد في بيتٍ وحده، مغلقٍ عليه، وعليه مِذْرَعَةٌ من شعر، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى، وعلى رأسه مِلْحَفَةٌ من الصوف، متوجّها إلى ربه يترنّم بآياتٍ من القرآن في الوَعْدِ والوَعِيدِ.

فأخذ على ما وُجِدَ عليه، وحُمِلَ إلى المتوكل في جوف الليل؛ فَمَثَلُ بين يديه والمتوكلُ يشرب، وفي يده كأسٌ؛ فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل فيه، ولا حاله يُتَعَلَّلُ عليه بها؛ فنأوله المتوكلُ الكأس التي في يده، فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما خامر لَحْمِي ودمي قط! فأعفني منه، فأعفاه، وقال: أنشدني شعراً استَحْسِنْتُهُ، فقال: إني لقليل الرّواية للأشعار؛ فقال: لا بد أن تشدني فأنشده:

باتوا على قُلُلِ الأَجبال تحرّسهم
واستنزّلوا بعد عَزٍّ من معاقلهم
ناداهم صارخٌ من بعد ما قُبِرُوا:
أين الوجوه التي كانت منعمةً
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم:
قد طالما أكلوا دهرًا وما شَبِعُوا
وطالما عَمَرُوا دُورًا لتحصنهم
عُلِبَ الرجال فما أغنتهم القُلُلُ
فأودعوا حُفْرًا، يا بئس ما نزلوا!
أين الأَسْرَةُ والتيجانُ والحُللُ!
من دونها تُضْرَبُ الأَسْتارُ والكِللُ!
تلك الوجوه عليها الدودُ يقتتلُ
فأصبحوا بعد طول الأكل قد أَكَلُوا
ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

وطالما كنزوا الأموال وأدخروا فخلّفوها على الأعداء وأرتحلوا
أضحت منازلهم قفرًا معطلةً وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فأشفقَ مَنْ حضر على عليّ، وظنّوا أن بادرةً تبدر منه إليه، ولكن المتوكل
بكى بكاءً طويلاً، حتى بلت دموعه لحيته وبكى مَنْ حضره، ثم أمر برفع الشراب،
وقال: يا أبا الحسن؛ أعليك دين؟ قال: نعم أربعة آلاف دينار! فأمر بدفعها إليه،
ورده إلى منزله من ساعته مكرّماً.

ابن جَاح ينشد المعتضد بن عباد شعره^(١)

ورد ابن جاح الشاعر على المعتضد بن عباد، فدخل الدار المخصوصة
بالشعراء فسألوه، فقال: إني شاعر! فقالوا: أنشدنا مِنْ شعرك؛ فأنشدهم شعراً
ضحكوا منه وازدروّه.

فقال بعض عقلائهم: دعوه، فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخلَ مع الشعراء
ويندرجَ في سلكهم؛ فلم يُبالوا كلام الرجل.

فبقي معهم، وكان لهم في تلك الدولة يومٌ مخصوص، لا يدخلُ فيه على
الملك غيرهم، فقال بعضُ لبعض: هذه شُئعةٌ بنا أن يكون مثلُ هذا البادي يُقدّم
علينا، ويجترىء على الدخول.

فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس
السلطان، وقدروا أن يقول مثلَ ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك
حسماً لعله إقدام مثله عليهم.

فلما كان اليوم المذكور، وقعد السلطانُ في مجلسه، ونُصِبَ الكرسي لهم،
رغبوا منه أن يكون هذا القادِمُ أولَ متكلم في ذلك اليوم، فأمر بذلك فصعد
الكرسي، وانتظروا أن ينشد مثل ذلك الشعر المضحك، فقال:

قطعتُ يا يومَ النوى أكبادي وحرمت عن عيني لذيد رُقادي
وتركتني أرعى النجوم مُسهّداً والنارُ تُضرمُ في صميم فؤادي
فكأنما ألى الظلام أليّةً لا ينجلي إلا إلى ميعاد

(١) نفع الطيب: ٢ - ٤٦٨.

ولرب خزق^(١) قد قطعت نياطه
 بِشِمْلَةٍ^(٢) حَزَفٍ^(٣) كَأَنَّ ذَمِيلَهَا
 والنجمُ يحدوها وقد ناديتها:
 ملك إذا ما أضرمت نار الوغى
 فترى الجسوم بلا رؤوس تنثني
 يا أيها الملك المؤملُ والذي
 إن القرىض لكاسدٌ في أرضنا
 فجلبت من شعري إليك قوافيًا
 مِنْ شاعِرٍ لم يسطلع أدبًا ولا
 والليل يرفلُ في ثياب حداد
 سَرْحٌ^(٤) الرياح، وكلُّ برق غادي
 يا ناقتي عُوجي على عَبَادِ
 وتلاقت الأجناد بالأجناد
 وترى الرؤوس لَقَى^(٥) بلا أجساد
 قُدَمَا سما شرقًا على الأنداد
 وله هنا سوقٌ بغير كساد
 يَفْتَى الزمان وذكُرُها متمادي
 خَطَّتْ يدها صحيفةً بمداد

فقال له الملك: أنت ابن جاح؟ فقال: نعم! فقال: اجلس، فقد وليتك
 رياسة الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن في الكلام في ذلك لأحدٍ بعده!

لَوْلَا فَصَاحَتُهُمْ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ^(٦)

أمر الحجاج صاحبَ حَرَسِهِ أن يطوف بالليل؛ فمن رآه بعد العشاء سكران
 ضربَ عنقه؛ فطاف ليلةً من الليالي، فوجد ثلاثةً فتیانٍ يتمايلون، وعليهم أمارات
 السكر؛ فأحاطت بهم الغلمان، وقال لهم صاحبُ الحرس: مَنْ أنتم حتى خالفتم
 أمر أمير المؤمنين، وخرجتم في مثل هذا الوقت! فقال أحدهم:

أنا ابنُ مَنْ دانَتِ الرقابُ له ما بين مخزومها وهاشمها
 تأتيه بالرغمِ وهي صاغرةٌ يأخذ من مالها ومن دمها
 فأمسك عنه، وقال: لعله من أقارب أمير المؤمنين! ثم قال للآخر: وأنت
 مَنْ تكون؟ فقال:

أنا ابنُ لمن لا تنزلُ الدهرَ قِدْرُهُ وإن نزلت يوماً فسوف تعود
 ترى الناس أفواجا إلى ضوءِ ناره فمنهم قيامٌ حولها وقعودٌ

(١) الخرق: القفر والأرض الواسعة.
 (٢) الشملة: السريعة.
 (٣) الحرف: الناقة الضامرة.
 (٤) سرح الرياح: إرسالها.
 (٥) اللقى: ما طرح.
 (٦) مجاني الأدب: ٣ - ١٥.

فَأَمْسَكَ عَنْهُ، وَقَالَ: لَعَلَّ ابْنَ أَشْرَفِ الْعَرَبِ. ثُمَّ قَالَ لِلْآخِرِ: وَأَنْتَ مَنْ تَكُونُ؟ فَاتَّشَدَّ عَلَى الْبِدِيهَةِ:

أَنَا ابْنُ لَمَنْ خَاضَ الصَّفُوفَ بِعَزْمِهِ وَقَوْمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى اسْتَقَامَتْ
وَرَكْبَاهُ لَا يَنْتَقِ رِجَالَهُ مِنْهُمَا إِذَا الْخَيْلُ فِي يَوْمِ الْكَرْيَةِ وَابَتْ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ أَيْضًا، وَقَالَ: لَعَلَّ ابْنَ أَشْجَعِ الْعَرَبِ؛ وَاحْتَفِظْ عَلَيْهِمْ.

فلما كان الصباح رَفَعَ أَسْرَهُمْ إِلَيْهِ؛ فَأَحْضَرَهُمْ، وَكَشَفَ عَنْ حَالِهِمْ؛ فإِذَا
الْأُولُ ابْنِ حِجَامٍ، وَالثَّانِي ابْنُ قَوْلٍ، وَالثَّالِثُ ابْنُ حَانَكٍ!

فَتَعَجَّبَ مِنْ فَصاحتِهِمْ، وَقَالَ لِحِلْسَانِهِ: عَلِمُوا أَوْلَادَكُمْ الْأَدَبَ، فَوَاللَّهِ لَوْلَا
فصاحتهم لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ.

الباب السابع

قصص الحِيل والخداع
قصص اليقظة والتبصر في الأمور

قصص الحيل والخداع

قال في المستطرف^(١):

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة ما لم يستبح بها محظور، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل في الفقه فقال: علمكم الله ذلك فإنه قال: ﴿وَعُذَّ بِيَدِكَ ضِمْنًا^(٢) فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ^(٣)﴾ [ص: الآية ٤٤]. وكان ﷺ إذا أراد غزوة، ورى بغيرها، كان يقول: «الحرب خدعة».

عمر بن الخطاب والهرمزان

لما أراد عمر رضي الله عنه قتل الهرمزان استسقى ماء فأتوه بقدر فيه ماء، فأمسكه في يده واضطرب فقال له عمر لا بأس عليك حتى تشربه، فألقى القدر من يده فأمر عمر بقتله: فقال: أولم تؤمني؟ قال: كيف أمنتك. قال: قلت لا بأس عليك حتى تشربه وقولك لا بأس عليك أمان ولم أشربه، فقال عمر: قاتلك الله أخذت مني أماناً ولم أشعر.

وقيل: كان دهاة العرب أربعة، كلهم ولدوا بالطائف: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والسائب بن الأقرع. وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل. وكان يقال: ليس العاقل الذي يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها. وقال الضحاک بن مزاحم النصراني: لو أسلمت، فقال: ما زلت محبباً للإسلام إلا أنه يمنعي منه حبي للخمر، فقال: أسلم

(١) المستطرف: ص ٣٦٢ - ٣٦٧.

(٢) ضِمْنًا: العشب أو نحوه جمعه واختلط بعضه ببعض.

(٣) تحنث: من الحنث وهو عدم الوفاء بالقسم.

واشربها، فلما أسلم قال له: قد أسلمت، فإن شربتها حديناك وإن ارتددت قتلناك، فاختر لنفسك، فاختر الإسلام وحسن إسلامه، فأخذه بالحيلة.

سلسلة صخرة بيت المقدس

وقيل: دليت من السماء سلسلة في أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ومن كان كاذباً لم ينلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة، فارتفعت، وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوهرة، فخبأها في مكانه في عكازة، ثم إن صاحبها طلبها من الذي أودعها عنده فأنكرها فتحاكما عند السلسلة، فقال المدعي: اللهم إن كنت صادقاً فلتدن مني السلسلة، فدنت منه فمسها، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعي وقال: اللهم إن كنت تعلم إنني رددت الجوهرة إليه، فلتدن مني السلسلة، فدنت منه فمسها.

فقال الناس: قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم الخديعة.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: (أن احكم بين الناس بالينة واليمين). فبقي ذلك إلى قيام الساعة.

حيلة المختار بن أبي عبيدة

كان المختار بن أبي عبيدة الثقفي من دهاة ثقيف وثقيف دهاة العرب، قيل: إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد، ثم دعا برجل من خواصه، فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له: إن رأيت الأمر عليكم فارسلها، ثم قال للناس: إني لأجد في محكم الكتاب، وفي اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعب، تأتي في صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة، فأرسلها، فتصايح الناس: الملائكة الملائكة وحملوا، فانتصروا وقتلوا ابن زياد.

حنكة سليمان بن داود عليه السلام

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبي أحدهما فأكله، فاخصما في الصبي الباقي

إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصما إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: اتنوني بسكين أشق الغلام نصفين لكل منكما نصف، فقالت الصغرى أتشقه يا نبي الله؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل ونصيبني فيه للكبرى، فقال: خذيه، فهو ابنك، وقضى به لها.

وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام، وقال: يا نبي الله إن لي جيراناً يسرقون أوزي، فلا أعرف السارق، فنادى الصلاة جامعة، ثم خطبهم وقال في خطبته: وإن أحدكم ليسرق أوز جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح الرجل رأسه، فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم.

زواج المغيرة بن شعبة

خطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان شاباً جميلاً، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب، وعانين جماله علم أنها تؤثره عليه، فأقبل على الفتى وقال: لقد أوتيت جمالاً، فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعدد محاسنه ثم سكت، فقال له المغيرة: كيف حسابك مع أهلك؟ قال: ما يخفى عليّ منه شيء وإنني لأستدرك منه أدق من الخردل. فقال المغيرة: لكنني أضع البدره في بيتي، فينقها أهلي على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها. فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إليّ من هذا الذي يحصي عليّ مثقال الذرة، فتزوجت المغيرة.

حيلة عضد الدولة

بلغ عضد الدولة أن قومًا من الأكراد يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شامخة ولا يقدر عليهم، فاستدعى بعض التجار ودفع إليه بغلاً عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة، ودنانير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء، ففعل التاجر ذلك، وسار أمام القافلة، فنزل القوم، فأخذوا الأمتعة والأموال، وانفرد أحدهم بالبغل، وصعد به الجبل، فوجد به الحلوى، فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه، فاستدعاهم، فأكلوا على مجاعة، فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم.

اللص قوي القلب

أتى لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة، فأقامهما بين يديه، ثم دعى بشرية ماء، فجيء له بكوز، فرماه بين يديه، فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذي ارتاع: اذهب إلى حال سبيلك، وقال للآخر: أنت أخذت المال، وتلذذت به، وتهدهه فأقر، فسئل عن ذلك، فقال: إن اللص قوي القلب، والبريء يجزع ولو تحرك عصفور لفرغ منه.

حيلة القاضي إياس

قصد رجل الحج، فاستودع إنسانًا مالا، فلما عاد طلبه منه، فجحده المستودع، فأخبر بذلك القاضي إياسًا، فقال: أعلم بأنك جئتني قال: لا، قال: فعد إليّ بعد يومين، ثم إن القاضي إياسًا بعث إلى ذلك الرجل، فأحضره، ثم قال له: أعلم أنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإني مسافر سفرًا بعيدًا وأريد أن أودعها عندك لما بلغني من دينك وتحصين منزلك، فقال: حبًا وكرامة.

قال: فاذهب وهيء موضعًا للمال وقومًا يحملونه، فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة. فقال له القاضي إياس: امض إلى صاحبك، وقل له: ادفع إليّ مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس، فلما جاء، وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه، فأخذه وأتى إلى القاضي إياس وأخبره. ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي، فقال له القاضي بعد أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لي ترك السفر امضٍ لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك.

مقتول يأخذ بثأره من قاتله

ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز قال أبرويز للداخل عليه ليقتله: إني لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حقد عليّ. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر، فأخرج الصندوق فإذا فيه حقٌّ فيه حب، وورقة مكتوب فيها: من تناول منه حبة واحدة افتض عشرة أباكرا وكان لشيرويه غرام في الباه، فتناول منه حبة فهلك من ساعته، فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله.

بيعة في عنقي إلى قيام الساعة

لما باع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء، فقال له الرشيد: لِمَ تخلفت؟ فقال: عاقني عاتق، فقال: اقرؤوا عليه كتاب البيعة، فقال: يا أمير المؤمنين هذه البيعة في عنقي إلى قيام الساعة، فلم يفهم الرشيد ما أراد، وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس.

رأيت رجلاً يقبلها

قال المغيرة بن شعبة: لم يخدعني غير غلام من بني الحرث بن كعب، فإني ذكرت امرأة منهم لأنزوجها، فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها، فقلت: ولم؟ قال: رأيت رجلاً يقبلها، فاعرض عنها، فتزوجها الفتى، فلمته، وقلت: ألم تخبرني أنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال: نعم رأيت أباه يقبلها.

لطم سيد بني تميم

أتى رجل إلى الأحنف، فلطمه، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: جُعِل لي جعل على أن ألطم سيد بني تميم، فقال: لست بسيدهم عليك بحارثة بن قدامة، فإنه سيدهم، فمضى إليه، فلطمه، فقطعت يده.

عبد الملك وملك الروم

قال الشعبي: وجهني عبد الملك إلى ملك الروم، فقال لي: من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا، ولكنني رجل من العرب، فكتب إلى عبد الملك رقعة ودفعها إليّ، فلما قرأها عبد الملك قال لي: أتدري ما فيها؟ قلت: لا، قال فيها: «العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره». قال: أتدري ما أراد بهذا؟ قلت: لا، قال: حسدني عليك، فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئاً إلا سألني عنه، وأنا أجيبه، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي. فقال: لله أبوه ما عدا ما في نفسي.

بشر بن مروان وروح بن زنباع

لما ولّى عبد الملك بن مروان أخاه بشرًا الكوفة، وكان شابًا ظريفًا غزلاً، بعث معه روح بن زنباع وكان شيخًا متورعًا، فثقل على بشر مرافقته، فذكر ذلك

لندمائه، فتوصل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلاً في خفية، فكتب على حائط قريب في مجلسه هذه الأبيات:

يا روح من لسنيات وأرملة إذا نعاك لأهل المغرب الناعي
إن ابن مروان قد حانت منيته فاحتل بنفسك يا روح بن زنباع

فتخوف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقى على قفاه من شدة الضحك، قال: ثقلت على بشر وأصحابه، فاحتالوا لك.

حيلة الحجاج بن علاط السلمي

ومن الحيل الطريفة: ما حكي أن النبي ﷺ لما فتح خيبر وأعرس بصفية، وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن علاط السلمي، وكان أول من أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر، فقال يا رسول الله: إن لي بمكة مالا عند صاحبتني أم شيبه ولي مال متفرق عند تجار مكة، فأذن لي يا رسول الله في العود إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامي إليهم، فإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة، فأذن لي لعلي أخلصه.

فأذن له رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحتاج إلى أن أقول، فقال له رسول الله ﷺ: قل، وأنت في حل، قال الحجاج: فخرجت، فلما انتهيت إلى التثنية ثنية البيضاء وجدت بها رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر، فلما أبصروني قالوا: هذا لعمر الله عنده الخبر، أخبرنا يا حجاج، فقد بلغنا أن القاطع يعنون محمداً ﷺ قد سار إلى خيبر، قال: قلت إنه سار إلى خيبر وعندي من الخبر ما يسركم، قال: فأحدقوا حول ناقتي يقولون: إنه يا حجاج؟ قال: فقلت هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وأسر محمد وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم.

قال: فصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم. قال: فقلت أعيونني على جمع مالي من غرماي فإني أريد أن أقدم خيبر، فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فقاموا معي، فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحب.

فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل عليّ حتى وقف إلى جانبي، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: فقلت وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله قال: قلت استأخر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، وأجمعت على الخروج، لقيت العباس، فقلت له: احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى أن يتبعوني، فآتكم عليّ ثلاثة أيام، ثم قل ما شئت. قال: لك عليّ ذلك.

قال: قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم يعني صفية، وقد افتتح خيبر، وغنم ما فيها، وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت: أي والله، ولقد أسلمت، وما جئت إلا مسلماً لآخذ مالي خوفاً من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاثة، فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب.

قال: فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رآه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والذي حلفت به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ليكون معهم. قالوا: تفلت عدو الله أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن. قال: ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك، فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله.

الحرب خدعة

لما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق، وقصدوا المدينة، وتظاهروا وهم في جمع كثير وجم غفير من قريش وغطفان، وقبائل العرب وبني النضير، وبني قريظة من اليهود، ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، واشتد الأمر، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْصِكُمْ مِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظَّوْنَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ هَالِكِ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ وَزَلَّزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب: الآيات ١٠، ١١]. فجاء نعيم بن مسعود بن عامر

الغطفاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله: خذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، فإن البلد بلدكم وبه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم لا تقدرّون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا الحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وأموالهم، وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم، وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتتموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم يكونون بأيديهم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً.

قالوا: أشرت بالرأي، ثم أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب: وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبراء قريش: قد علمتم ودي لكم، وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموه عليّ. قالوا: نعم، قال: اعلموا أن معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه يقولون: إننا قد ندمنا على نقض العهد الذي بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرفهم، فنسلمهم إليك، فتضرب رقابهم، ثم نكون معك على من بقي منهم، فنستأصلهم، فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود بني قريظة يلتمسون منكم رهائن من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم.

فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس بني غطفان إلى بني قريظة يقولون لهم: إننا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر، فاعتدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ فيما بيننا وبينه، فأرسلوا يقولون لهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ولنسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإننا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجال في بلدنا ولا

طاقة لنا به، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدّثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة يقولون: إنا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا وقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذي ذكره نعيم بن مسعود لحق، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إننا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم.

فخذل الله تعالى بينهم، وأرسل عليهم الريح، فتفرقوا وارتحلوا. وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التي عمّ نفعها وحسن وقعها.

إسلام الهرمزان^(١)

محمد بن سعد قال: كان الهرمزان من أهل فارس، فلما انقضى أمر جلولاء خرج يزدجرد من حلوان إلى أصبهان، ثم أتى اصطخر، ووجهه الهرمزان إلى بلدة تستر، فضبطها وتحصّن في القلعة، وحاصره أبو موسى، ثم نزل أهل القلعة على حكم عمر، فبعث أبو موسى بالهرمزان ومعه اثنا عشر أسيراً من العجم عليهم الديباج ومناطق الذهب وأسورة الذهب، فقدم بهم المدينة في زيّهم ذلك، فجعل الناس يعجبون، فأتوا بهم منزل عمر، فلم يصادفوه فجعلوا يطلبونه، فقال الهرمزان بالفارسية: قد ضلّ ملككم، فقيل لهم: هو في المسجد، فدخلوا فوجدوه نائماً متوسداً رداءه، فقال الهرمزان: إن هذا ملككم قالوا: هذا الخليفة. قال: أما له حاجب ولا حارس؟ قالوا: الله حارسه حتى يأتي عليه أجله. فقال الهرمزان: هذا الملك الهني، فقال عمر: الحمد لله الذي أذل هذا وشيعته بالإسلام، فاستسقى الهرمزان، فقال عمر: لا يجمع عليك القتل والعطش، فدعا له بماء، فأمسك بيده، فقال عمر: اشرب لا بأس عليك إنني غير قاتلك حتى تشربه، فرمى بالإناء من يده، فأمر عمر بقتله، فقال: أولم تؤمني؟ قال: وكيف؟ قال: قلت لي لا بأس عليك، فقال الزبير وأبو سعيد: صدق. فقال عمر: قاتله الله أخذ أماناً ولا أشعر، ثم أسلم بعد ذلك الهرمزان.

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٠.

رأيت رجلاً يقبلها^(١)

عن عبد الملك بن عمير قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: ما خدعني قط غير غلام من بني الحرث بن كعب، فإني ذكرت امرأة منهم وعندي شاب من بني الحرث، فقال: أيها الأمير إنه لا خير لك فيها. فقلت: ولم؟ قال: رأيت رجلاً يقبلها، فأقمت أياماً، ثم بلغني أن الفتى تزوج بها، فأرسلت إليه فقلت: ألم تعلمني أنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال: بلى. رأيت أباه يقبلها، فإذا ذكرت الفتى وما صنع غمني ذلك.

سعيد بن عثمان والمهدي^(٢)

عن داود بن الرشيد، قال: قلت للهيثم بن عدي: بأي شيء استحق سعيد بن عثمان أن ولّاه المهدي القضاء، وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة؟ قال: إن خبره في اتصاله بالمهدي ظريف، فإن أحببت شرحته لك. قال: قلت: والله قد أحببت ذلك. قال: اعلم أنه وافى الربيع الحاجب حين أفضت الخلافة إلى المهدي، فقال: استأذن على أمير المؤمنين، فقال له الربيع: من أنت وما حاجتك؟ قال: أنا رجل قد رأيت لأمر المؤمنين رؤيا سالحة، وقد أحببت أن تذكرني له، فقال له الربيع: يا هذا، إن القوم لا يصدقون ما يروونه لأنفسهم، فكيف ما يراه لهم غيرهم، فاحتل بحيلة هي أرد عليك من هذه. فقال له: إن لم تخبره بمكاني سألت من يوصلني إليه، فأخبرته أنني سألتك الإذن عليه، فلم تفعل، فدخل الربيع على المهدي فقال له: يا أمير المؤمنين: إنكم قد أطمعتم الناس في أنفسكم، فقد اختاروا لكم بكل ضرب. قال له: هكذا صنع الملوك فما ذاك؟ قال: رجل بالباب يزعم أنه قد رأى لأمر المؤمنين رؤيا حسنة، وقد أحب أن يقصها عليه، فقال له المهدي: ويحك يا ربيع إنني والله أرى الرؤيا لنفسني، فلا تصح لي فكيف إذا ادعاه من لعله قد افتعلها؟ قال: والله قلت له مثل هذا، فلم يقبل. قال: هات الرجل، فأدخل إليه سعيد بن عبد الرحمن وكان له رؤية وجمال ومروءة ظاهرة ولحية عظيمة ولسان، فقال له المهدي: هات بارك الله عليك. ماذا رأيت؟ قال: رأيت يا أمير المؤمنين آتياً أتاني في منامي، فقال لي: أخبر أمير المؤمنين المهدي أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة، وآية ذلك أنه يرى في ليلته هذه في منامه كأنه

(١) كتاب الأذكى ص ٩٠.

(٢) نفس المصدر ص ٩١.

يقلب يواقيت، ثم يعدها، فيجدها ثلاثين ياقوتة، كأنها قد وهبت له، فقال المهدي: ما أحسن ما رأيت، ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة على ما أخبرتنا به، فإن كان الأمر على ما ذكرته أعطيناك ما تريد، وإن كان الأمر بخلاف ذلك، لعلمنا أن الرؤيا ربما صدقت وربما اختلفت. قال له سعيد: يا أمير المؤمنين، فما أنا أصنع الساعة إذا صرت إلى منزلي وعيالي، فأخبرتهم أنني كنت عند أمير المؤمنين ثم رجعت صفرًا؟ قال له المهدي: فكيف نعمل؟ قال: يعجل لي أمير المؤمنين ما أحب وأحلف له بالطلاق إنني قد صدقت، فأمر له بعشرة آلاف درهم، وأمر أن يؤخذ منه كفيل ليحضره من غد ذلك اليوم، فقبض المال، وقيل: من يكفل بك، فمدّ عينيه إلى خادم فرآه حسن الوجه والزي، فقال: هذا يكفل بي، فقال له المهدي: أتكفل به؟ فاحمر وخجل وقال: نعم. وكفله وانصرف، فلما كان في تلك الليلة رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرقًا حرقًا وأصبح سعيد في الباب واستأذن فأذن له، فلما وقعت عين المهدي عليه قال: أين مصداق ما قلت لنا؟ قال له سعيد: وما رأى أمير المؤمنين شيئًا؟ فضجع في جوابه. فقال سعيد: امرأتي طالق إن لم تكن رأيت شيئًا. قال له المهدي: ويحك ما أجراك على الحلف بالطلاق. قال: لأنني أحلف على صدق. قال له المهدي: فقد والله رأيت ذلك هيبتًا. فقال له سعيد: الله أكبر، فأنجز يا أمير المؤمنين ما وعدتني، قال له: حبا وكرامة ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت ثياب من كل صنف، وثلاثة مراكب من أنفس هواه محلاة، فأخذ ذلك وانصرف، فلحق به الخادم الذي كان كفل به، وقال له: سألتك بالله هل كان لهذه الرؤيا التي ذكرتها من أصل؟ قال له سعيد: لا والله. قال الخادم: كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له. قال: هذه من المخاريق الكبار التي لا ياب لها أمثالكم، وذلك أنني لما ألقيت إليه هذا الكلام خطر ببالي، وحدثت به نفسه، وأسرّ به قلبه، وشغل به فكره، فساعة نام خيل له ما حلّ في قلبه، وما كان شغل به فكره في المنام. قال له الخادم: فقد حلفت بالطلاق. قال: طلقت واحدة، وبقيت معي على ثنتين فأرد في مهر عشرة دراهم، وأتخلص وأتحصل على عشرة آلاف درهم، وثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت من أصناف الثياب، وثلاثة مراكب. قال: فبهت الخادم في وجهه وتعجب من ذلك، فقال له سعيد: قد صدقتك وجعلت صدقي لك مكافأتك على كفالتك بي، فاستر عليّ ذلك، ففعل ذلك، فطلبه المهدي لمنادته، فنادمه وحظي عنده وقلده القضاء على عسكر المهدي، فلم يزل كذلك حتى مات المهدي.

حدّثني مائة حديث (١)

قال ابن أبي ذر: كان الحاج إذا ورد جلس سفيان بن عيينة بباب بني هاشم على موضع عالٍ ليرى الناس، فجاء رجل من أصحاب الحديث، فقعده بين يديه، فقال: يا أبا محمد، حدّثني فحدّثه أحاديث، فقال: زدني فزاده، فقال: زدني فزاده، فدفعه في صدره، فوقع إلى الوادي، فتفأشى ذلك، فاجتمع الحاج وقال: سفيان بن عيينة قتل رجلاً من الحاج، فلما كثر ذلك أشفق سفيان، فنزل إلى الرجل، فترك رأسه في حجره وقال: ما لك؟ أي شيء أصابك؟ فلم يزل يركض رجله ويزيد من قيئه. قال: وكثر الضجيج، سفيان بن عيينة قتل رجلاً، فقال له: قم ويالك أما ترى الناس يقولون؟ فقال له وهو يخفي صوته: لا والله لا أقوم حتى تحدّثني مائة حديث عن الزهري وعمرو بن دينار ففعل فقام.

ردّ فضائل قريش عليها (١)

قال المحسن بن علي التنوخي، عن أبيه قال: حججت في موسم اثنين وأربعين، فرأيت مالا عظيماً وثياباً كثيرة تفرق في المسجد الحرام، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: بخراسان رجل صالح عظيم النعمة والمال يقال له علي الزراد أنفذ عام أول مالا وثياباً إلى ههنا مع ثقة له، وأمره أن يعتبر قريشاً، فمن وجده منها حافظاً للقرآن دفع إليه كذا وكذا ثوباً. قال: فحضر الرجل عام أول، فلم يجد في قريش البتة أحداً يحفظ القرآن إلا رجلاً واحداً من بني هشام، فأعطاه قسطه، وتحدّث الناس بالحديث ورد باقي المال إلى صاحبه، فلما كان في هذه السنة عاد بالمال والثياب، فوجد خلقاً عظيماً من جميع بطون قريش قد حفظوا القرآن، وتسابقوا إلى تلاوته بحضرته، وأخذوا الثياب والدراهم، فقد فئيت وبقيت منهم من لم يأخذ، وهم يطالبونه. قال: فقلت: لقد توصل هذا الرجل إلى رد فضائل قريش عليها بما يشكره الله سبحانه له.

حيلة سائلين (٢)

علي بن المحسن، عن أبيه قال: أخبرني جماعة من شيوخ بغداد أنه كان بها في طرف الجسر سائلان أعميان. أحدهما يتوسل بأمر المؤمنين علي، والآخر

(٢) نفس المصدر ص ٩٤.

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٣.

بمعاوية، ويتعصب لهما الناس، ويجمعان القطع، فإذا انصرفا فيقتسمان القطع، وكانا يحتلان بذلك على الناس.

تزویر (١)

أبو الحسن بن عباس القاضي قال: رأيت صديقاً على بعض زوارق الجسر ببغداد جالساً في يوم شديد الريح، وهو يكتب رقعة، فقلت: ويحك في هذا الموضع وهذا الوقت. قال: أريد أن أزور على رجل مرتعش ويدي لا تساعدني، فتعمدت الجلوس ههنا لتحرك الزورق بالموج في هذه الريح فيجئ خطي مرتعشاً فيشبه خطه.

دية قتيل لم يقتل (٢)

قال المحسن: وحدثني أبو الطيب بن عبد المؤمن قال: خرج بعض خذاق المكيديين من بغداد إلى حمص ومعه امرأته، فلما حصل بها قال: إن هذا بلد حماقة وأريد أن أعمل حيلة فتساعدني، فقالت: شأنك. قال: كوني بموضعك ولا تجتازي بي البيت، فإذا كان كل يوم فخذني لي ثلثي رطل زبيب وثلثي رطل لوز أنياً، فاعجنيه واجعله وقت الهاجرة على آجرة جديدة نظيفة لأعرفها في الميضاة الفلانية، وكانت قريبة من الجامع. ولا تزيدني على هذا شيئاً ولا تمرني بناحيتي، فقالت: أفعل وجاء هو فأخرج جبة صوف كانت معه، فلبسها وسراويل صوف ومئزر، وجعلها على رأسه، ولزم اسطوانة يمر الناس عليها، فصلّى نهاره أجمع وليلته أجمع لا يستريح إلا في الأوقات المحظور فيها الصلاة، فإذا جلس فيها سبّح ولم ينطق بلفظة، فتنبه على مكانه، وروعي مدة، ووضعت العيون عليه، فإذا هو لا يقطع اتصالاً ولا يذوق الطعام، فتحتّر أهل البلد في أمره، وكان لا يخرج من الجامع إلا في وقت الهاجرة في كل يوم دفعة إلى تلك الميضاة فيبصر فيها، ويعد إلى الآجرة وقد عرفها وعليها ذاك المعجون، وقد صار منحللاً وصورته صورة الغائط. فمن يدسّل ويخرج لا يشك أنه غائط، فيأكله فيقيم أوده ويرجع، فإذا كان وقت صلاة العتمة أو في الليل شرب من الماء قدر كفايته، وأهل حمص يظنون أنه لا يطعم الطعام ولا يذوق الماء، فعظم شأنه

(٢) نفس المصدر ص ٩٥.

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٤.

عندهم فقصده وكنموه فلم يجبههم، وأحاطوا به، فلم يلتفت، واجتهدوا في خطابه، فلزم الصمت، فزاد محلة عندهم حتى أنهم كانوا يتمسحون بمكانه، ويأخذون التراب من موضعه، ويحملون إليه المرضى والصبيان، فيمسح بيده عليهم، فلما رأى منزلته، وقد بلغت إلى ذلك، وكان قد مضى على هذا السميت سنة اجتمع مع امرأته في الميضاة وقال: إذا كان يوم الجمعة حين يصلي الناس فتعالى فاعلقتي بي والظمي وجهي وقولي: يا عدو الله يا فاسق قتلت ابني ببغداد وهرب إلى ههنا تتعبد وعبادتك مضروب بها وجهك، ولا تفارقيني واطهوي أنك تريد قتلتي بابتك، فإن الناس سيجمعون إليك، وأمنعهم أنا من أذيتك وأعترف بأني قتلتك وتبت وجئت إلى ههنا للعبادة والتوبة والندم على ما كان مني، فاطلبي قودي بإقرازي، وحملني إلى السلطان، فيعرضون عليك الدية فلا تقبلها حتى يبذلوا لك عشر ديات، أو ما استوى لك بحسب ما تزين من زيادتهم وحوصهم، فإذا تناهت أعطيتهم في افتدائي إلى حد يقع لك أنهم لا يزيدون بعده شيئاً، فاقبلي الفداء منهم، واجمعي المال وخذيه واخرجني من يومك إلى بغداد ولا تقيمي بالبلد، فإني سأهرب وأتبعك.

فلما كان من الغد جاءت المرأة فتعلقت به وفعلت به ما قال، فقتل أهل البلد ليقتلوا وقالوا: يا عدوة الله هذا من الأبدال، هذا قوام العالم، ههنا قطب الوقت، فأوما إليهم أن اصبروا ولا تناولوها بشر فصبروا، وأوجز في صلاته ثم سلم، وتمرغ في الأرض طويلاً ثم قال: أيها الناس! هل سمعتم لي كلمة منذ أقمت عنكم؟ فاستبشروا! بسماع كلامه وارتفعت ضجة عظيمة وقالوا: لا. قال: إنني إنما أقمت عنكم تأبياً مما ذكرته، وقد كنت رجلاً في دفع وخسارة، فقتلت ابن هذه المرأة وتبت، وجئت إلى ههنا للعبادة، وكنت محطاً نفسي بالرجوع لها لتقتلني خوفاً من أن تكون توبتي ما صحت، وما زلت أذكر الله أن يقبل توبتي ويسكنها مني إلى أن أجيب دعوتي باجماعي بها وتمكينها من قودي، فدعوها فتصفتني وأستودعكم الله. قال: فلواته من الضجة والاختلاء، وهو ماز إلى والي البلد ليقتله بابنها. فقال الشيخ: يا قوم، لقد ضللتكم عن مداواة هذه المحنة وحراسة بلادكم بهذا العبد الصالح، فانصرفوا بالمرأة وأسألوا قبول الدية نجمعها من أموالنا فطافوا بها وأسألوها. فقالت: لا أفعل. فقالوا: خذي ديتين، فقالت: شعرة من إهني بألف دية، فما زالوا حتى بلغوا عشر ديات، فقالت: اجمعوا المال، فإذا رأيته وطلب

قلبي بقبوله فعلت، وإلا قتلت القاتل، فجمعوا مائة ألف درهم وقالوا: خذوها. فقالت: لا أريد إلا قتل قاتل ابني في نفسي أثر، فأقبل الناس يرمون ثيابهم وأرديتهم وخواتيمهم والنساء حليهن، فأخذت ذلك وأبرأتها من الدم وانصرفت، وأقام الرجل بعد ذلك في الجامع أيامًا يسيرة حتى علم أنها قد بعدت، ثم هرب في بعض الليالي وطلب فلم يوجد ولا عرف له خبر، حتى انكشف لهم أنه كان حيلة بعد مدة طويلة.

ناقاة بدرهم (١)

قيل: كان بالكوفة امرأة قد ضاق بزوجها المعاش، فقالت له: لو خرجت فضربت في البلاد وطلبت من فضل الله تعالى، فخرج إلى الشام لكسب ثلاثمائة درهم، فاشترى بها ناقاة فارهة وكانت زعرة، فأضجرتة واغتاط منها ومن زوجته حيث أمرته بالخروج، فحلف بالطلاق لبييعها يوم يدخل الكوفة بدرهم، ثم ندم وأخبر زوجته، فعمدت إلى سنور فعلقتها في عنق الناقاة وقالت: أدخلها السوق وناد عليها من يشتري هذا السنور بثلاثمائة درهم والناقاة بدرهم ولا فرق بينهما، ففعل فجاء أعرابي يدور حول الناقاة ويقول: ما أحسنك ما أفرهك لولا هذا السنور الذي في عنقك.

أبو دلامة والمهدي (١)

عن أبي دلامة أنه دخل على المهدي، فأنشده قصيدة فقال له: سلني حاجتك. فقال: يا أمير المؤمنين تهب لي كلبًا، فغضب وقال: أقول لك سلني حاجتك، فتقول: تهب لي كلبًا، فقال: يا أمير المؤمنين الحاجة لي أم لك؟ قال: لا بل لك. قال: فإني أسألك أن تهب لي كلب صيد، فأمر له بكلب، فقال: يا أمير المؤمنين هبني خرجت إلى الصيد أعدو على رجلي، فأمر له بدابة، فقال: يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها، فأمر له بغلام. فقال: يا أمير المؤمنين فهبني قصدت صيدًا وأتيت به المنزل، فمن يطبخه، فأمر له بجارية، فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء أين يبيتون فأمر له بدار، فقال: يا أمير المؤمنين، قد صيرت في عنقي كفاً أي جمعاً من عيال، فمن أين ما يتقوت به

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٦.

هؤلاء؟ قال: فإن أمير المؤمنين قد أقطعك ألف جريب عامراً وألف جريب غامراً، فقال: أما العامر فقد عرفته، فما الغامر؟ قال: الخراب الذي لا شيء فيه.

قال: فأنا أقطع أمير المؤمنين مائة ألف جريب بالدو، ولكنني أسأل أمير المؤمنين من ألفي جريب جريباً واحداً عامراً. قال: من أين؟ قال: من بيت المال، فقال المهدي: حولوا المال وأعطوه جريباً، فقال: يا أمير المؤمنين إذا حولوا منه المال صار غامر، فضحك منه وأرضاه.

خرج الجنى منها^(١)

عن عقبة الأزدي أنه أتى بجارية قد جنت في الليلة التي أراد أهلها أن يدخلوها إلى زوجها، فعزم عليها، فإذا هي قد سقطت، فقال لأهلها: أخلو بي بها، فقال لها: أصدقيني عن نفسك وعلى خلاصك، فقالت: إنه قد كان لي صديق وأنا في بيت أهلي، وأنهم أرادوا أن يدخلوا بي على زوجي ولست ببيكر، فخفت الفضيحة. فهل عندك حيلة في أمري؟ فقال: نعم، ثم خرج إلى أهلها، فقال: إن الجنى قد أجابني إلى الخروج منها، فاختراروا نم أي عضو تحبون أن أخرج من أعضائها، واعلموا أن العضو الذي يخرج منه الجنى لا بد أن يهلك ويفسد، فإن خرج من عينها عميت وإن خرج من أذنها صمّت، وإن خرج من فمها خرس، وإن خرج من يدها شلت، وإن خرج من رجلها عرجت، وإن خرج من فرجها ذهبت عذرتها. فقال أهلها: ما نجد شيئاً أهون من ذهاب عذرتها، فأخرج الشيطان من فرجها، فأوهم أنه قد فعل، ودخلت المرأة على زوجها.

الحائك الطيب^(٢)

قال الشيخ: حكى لنا أبو محمد الخشاب النحوي قال: حاز بعض الحائك على طيب، فرآه يصف لهذا النوع ولهذا التمر هندي، فقال: من لا يحسن مثل هذا؟ فرجع إلى زوجته فقال: اجعلي عمامتي كبيرة، فقالت: ويحك أي شيء قد طرأ لك؟ قال: أريد أن أكون طيباً. قالت: لا تفعل فإنك تقتل الناس فيقتلوك،

(٢) نفس المصدر ص ٩٨.

(١) كتاب الأذكياء ص ٩٧.

قال: لا بد، فخرج أوّل يوم فقعده يصف للناس، فحصل قراريط، فجاء فقال لزوجته: أنا كنت أعمل كل يوم بحجة، فانظري ايش يحصل. فقالت: لا تفعل. قال: لا بد، فلما كان في اليوم الثاني اجتازت جارية، فرأته فقالت لسيدتها، وكانت شديدة المرض، اشتهيت هذا الطبيب الجديد يداويك قالت: ابعني إليه فجاء، وكانت المريضة قد انتهى مرضها ومعها ضعف، فقال: عليّ بدجاجة مطبوخة فجيء بها، فأكلت، فقويت، ثم استقامت، فبلغ هذا إلى السلطان، فجاء به فشكا إليه مرضًا يشتكيه، فاتفق أنه وصف له شيئًا أصلح به، فاجتمع إلى السلطان جماعة يعرفون ذاك الحائك، فقالوا له: هذا رجل حائك لا يدري شيئًا. فقال السلطان: هذا قد صلحت على يديه وصلحت الجارية على يديه، فلا أقبل قولكم. قالوا: فنجر به بمسائل قال: افعلوا، فوضعوا له سمائل وسألوه عنها، فقال: أن أجبتكم عن هذه المسائل لم تعلموا جوابها، لأن الجواب لهذه المسائل لا يعرفه إلا طبيب، ولكن أليس عندكم مارستان؟ قالوا: بلى، قال: أليس فيه مرضى لهم مدة؟ قالوا: بلى، قال: فأنا أدوايهم حتى ينهض الكل في عافية في ساعة واحدة، فهل يكون دليل على علمي أقوى من ذلك؟ قالوا: لا، فجاء إلى باب المارستان وقال: اقعدا ولا يدخل معي أحد، ثم دخل وحده وليس معه إلا قيّم المارستان، فقال للقيّم: إنك والله إن تحدثت بما أعمل صلبتك، وإن سكت أغنيتك قال: ما أنطق. قال: فاحلفه بالطلاق، ثم قال: عندك في هذا المارستان زيت؟ قال: نعم. قال: هاته، فجاء منه بشيء كثير، فصبه في قدر كبير، ثم أوقد تحته، فلما اشتد غليانه صاح بجماعة المرضى، فقال لأحدهم: إنه لا يصلح لمرضك إلا أن تنزل إلى هذا القدر، فتقعد في هذا الزيت فقال المريض: الله الله في أمري، قال: لا بد، قال: أنا قد شفيت، وإنما كان بي قليل من صداع، قال: ايش يقعدك في المارستان وأنت معافى؟ قال: لا شيء. قال: فاخرج وأخبرهم، فخرج وأخبرهم، فخرج يعدو ويقول: شفيت بإقبال هذا الحكيم، ثم جاء إلى آخر، فقال: لا يصلح لممرضك إلا أن تقعد في هذا الزيت، فقال: الله الله أنا في عافية. قال: لا بد، قال: لا تفعل فإنني من أمس أردت أن أخرج. قال: فإن كنت في عافية فاخرج، وأخبر الناس بأنك في عافية، فخرج يعدو ويقول: شفيت ببركة الحكيم وما زال على هذا الوصف حتى أخرج الكل شاكرين له، والله الموفق.

وطأها أمام زوجها^(١)

قيل إن امرأة كان لها عشيق، فحلف عليها إن لم تحتالي حتى أطأك بمحضر من زوجك لم أكلمك، فوعده أن تفعل ذلك، فواعدها يوماً وكان في دارهم نخلة طويلة، فقالت لزوجها: أشتهي اصعد هذه النخلة فأجنتني من رطبها بيدي، فقال: افعلي، فلما صارت في رأس النخلة أشرفت على زوجها وقالت: يا فاعل من هذه المرأة التي معك؟ ويلك أما تستحي تجامعها بحضرتي، وأخذت تشتمه وتصيح وهو يحلف أنه وحده وما معه أحد، فنزلت فجعلت تخاصمه ويحلف بطلاقها أنه ما كان إلا وحده، ثم قال لها: اقعدي حتى أصعد أنا، فلما صار في رأس النخلة استدعت صاحبها، فوطئها فاطلع الزوج، فرأى ذلك فقال لها: جعلت فداك لا يكون في نفسك شيء مما رميتني به، فإن كل من يصعد هذه النخلة يرى مثل ما رأيت.

حيلة الفرزدق^(١)

ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى: أن الفرزدق مرّ بامرأة وعليه ثوب وشيء فتعرض لها، فقالت جاريتها: ما أحسن هذا البرد، فقال: هل لك أن أقبل مولاتك وأهب لها هذا البرد، فقالت الجارية لمولاتها: ماذا يضرك من هذا الأعرابي الذي لا يعرفه الناس، فأذنت له فقبلها وأعطاه البرد، ثم قال للجارية: اسقني ماء، فجاءته الجارية بماء في قدح زجاج ولما وضعته في يده ألقاه من يده، فانكسر، فقعد الفرزدق مكانه إلى أن جاء صاحب الدار فقال: يا أبا فراس ألك حاجة؟ قال: لا، ولكني استسقيت من هذه الدار ماء، فأتيت بقدح من زجاج، فوقع الإناء من يدي فانكسر، فأخذوا بردي رهناً، فدخل الرجل فشتم أهله وقال: ردّوا على الفرزدق برده.

معاوية والنواقيس^(٢)

قال إبراهيم: لما أسنّ معاوية اعتراه أرق وكان إذا هو نام أيقظته النواقيس، فلما أصبح ذات يوم ودخل الناس عليه، قال: يا معشر العرب! هل فيكم من يفعل ما أمره به وأعطيه ثلاث ديات أعجلها له وديتين إذا رجع؟ فقام فتى من غسان

(٢) نفس المصدر ص ١٠٠.

(١) كتاب الأذكىء ص ٩٩.

فقال: أنا يا أمير المؤمنين. قال: تذهب بكتابي إلى ملك الروم، فإذا صرت على بساطه أذنت قال: ثم ماذا؟ قال: فقط. قال: لقد كلفت صغيراً وأعطيت كثيراً، فلما خرج وصار على بساط قيصر أذن، فحارت البطارقة واخترطوا سيوفهم، فسبق إليه ملك الروم، فجنى عليه وجعل يسألهم بحق عيسى ويحقه عليهم حتى كفوا، ثم ذهب إلى سريره حتى صعد به، ثم جعله بين رجليه، فقال: يا معشر البطارقة إن معاوية قد أسن ومن أسن أرق، وقد آذته النواقيس، فأراد أن يقتل هذا على الأذان فيقتل من ببلاده على ضرب النواقيس، وبالله ليرجعن إليه على خلاف ما ظن فكساه وجمله، فلما رجع إلى معاوية قال له: أوقد جئتني سالمًا؟ قال: أما من قبلك فلا.

ويقال: ما ولي المسلمين أحدًا إلا وملك الروم مثله إن حازمًا وإن عاجزًا، وكان الذي ملكه على عهد عمر بن الخطاب هو الذي دَوّن لهم الدواوين ودوّن لهم العدو، وكان الذي على عهد معاوية يشبه معاوية في حزمه وعمله.

(١) الجندي والراهب

قال رجل من الجند: خرجت من بعض بلدان الشام أريد قرية من قراها، فلما صرت في الطريق، وقد سرت عدة فراسخ تعبت وكنت على دابة وعليه خرجي ورحلي، وقد قرب المساء، فإذا بحصن عظيم وفيه راهب في صومعة، فنزل إليّ واستقبلني، وسألني المبيت عنده، وأن يضيفني ففعلت، فلما دخلت الدير لم أجد فيه غيري، فأخذ بدابتي وجعل رحلي في بيت وطرح للدابة الشعير، وجاءني بماء حار، وكان الزمان شديد البرد والثلج يسقط، وأوقد بين يدي نارًا عظيمة، وجاء بطعام طيب فأكلت، ومضت قطعة من الليل فأردت النوم، فسألته عن طريق النوم، ثم سألته عن طريق المستراح فدلتني على طريقه، وكان في غرفة فمشيت، فلما صرت على باب المستراح إذا بارية عظيمة، فلما صارت رجلاي عليها نزلت، فإذا أنا في الصحرة، وإذا البارية كانت مطروحة على غير سقف، وكان الثلج تلك الليلة يسقط سقوطًا عظيمًا، فصحت فما كلمني، فقامت وقد تجرح بدني، إلا أنني سالم، فجئت فاستظلت بطاق عند باب الحصن من الثلج، فإذا حجارة لو جاءتني وتمكنت من دماغي طحتته، فخرجت أعدو وأصبح،

فشتمني فعلمت أن ذلك من جانبه، وطمع في رحلي، فلما خرجت وقع الثلج عليّ وبلّ ثيابي، ونظرت، فإذا أنا تالف بالبرد والثلج، فولد لي الفكر أن طلبت حجراً فيه نحو ثلاثين رطلاً، فوضعتها على عاتقي وأقبلت أعدو في الصحراء شوطاً طويلاً حتى أتعب، فإذا تعبت وحميت وعرقت طرحت الحجر، وجلست استريح، فإذا سكنت وأخذني البرد تناولت الحجر وسعيت كذلك إلى الغداة، فلما كان قبل طلوع الشمس، وأنا خلف الحصن إذ سمعت صوت باب الدير قد فتح، وإذا أنا بالراهب قد خرج وجاء إلى الموضع الذي قد سقطت منه، فلما لم يرني قال: يا قوم ما فعل؟ وأنا أسمع وأظنه المشوم قد رأى بقره قرية، فقام يمشي إليها كيف أعمل؟ قال: وأقبل يمشي، فخالفته أنا إلى الباب ودخلت الحصن، وقد مشى هو من ذاك المكان يطلبني حوالي الحصن، فحصلت أنا خلف باب الحصن، وقد كان في وسطي سكين لم يعلم بها الراهب، فوقفت خلف الباب، فطاف الراهب، فلما لم يقف لي على أثر عاد ودخل وأغلق الباب، فحين خفت أن يراني آثرت إليه ووجأته بالسكين فصرعته وذبحته، وأغلقت باب الحصن، وصعدت إلى الغرفة واصطليت بنار كانت موقودة هناك، وطرحت علي من تلك الثياب، وفتحت خارجي ولبست منه ثياباً، وأخذت كساء الراهب، فنمت فيه، فما أفقت إلا قريب العصر، ثم انتبهت فطفت الحصن حتى وقعت على طعام، فأكلت وسكنت نفسي، ووقعت بمفاتيح بيوت الحصن، وأقبلت أفتح بيتاً بيتاً، وإذا بأموال عظيمة من عين وورق وأمتعة. وثياب وآلات، ورحال قوم وأخراجهم وحمولاتهم، وإذا الراهب من عادته تلك الحال مع كل من يجتازه وحيداً ويتمكن منه فلم أدر كيف أعمل في ثقل المال، فلبست من ثياب الراهب شيئاً ووقفت في صومعته أياماً أترآى لمن يجتاز بي في الموضع من بعيد لثلا يشكوا فيّ أني أنا هو، فإذا قربوا لم أبرز لهم وجهي إلى أن خفي خبري، ثم نزعنت تلك الثياب وأخذت جوالقين مما كان في الدير من تلك الأمتعة وملأتها مالاً، وجعلتهما على الدابة وسقتها إلى أقرب قرية كانت، واكتريت فيها منزلاً ولم أزل أنقل منه الصامت حتى حملته كله، ثم ماخت وكشرت قيمته، حتى لم أدع إلا الأمتعة الثقيلة، واكتريت عدة أحمال وحمير ورجالة، وجئت بهم دفعة واحدة وحملت كل ما قدرت عليه وسرت في قافلة عظيمة لنفسي بغنيمة هائلة، حتى قدمت بلدي، وقد حصل لي عشرة آلاف درهم ودنانير كثيرة مع قيمة الأمتعة، وغصت في الأرض فما عرفت خبري.

انعكست الحيلة على نفسه^(١)

عن علي بن الحسن عن أبيه حدثنا جماعة من أهل جند نيسابور فيهم كتاب وتجار وغير ذلك أنه كان عندهم في سنة نيف وأربعين وثلاثمائة، شاب من كتاب النصارى، وهو ابن أبي الطيب القلانسي، فخرج إلى بعض شأنه في الرستاق، فأخذته الأكراد وعذبوه وطالبوه أن يشتري نفسه منهم، فلم يفعل، وكتب إلى أهله انفذوا لي أربعة دراهم أفيون واعلموا أنني أشربها، فتلحقني سكتة، فلا تشك إلى الأكراد أنني قد مت فيحملوني إليكم، فإذا حصلت عندكم، فادخلوني الحمام واضربوني ليحمي بدني وسوكوني بالأيارج، فإني أفيق.

وكان الفتى متخلقا وقد سمع أنه من شرب أفيونا أسكت، فإذا دخل الحمام وضرب وسوك بالأيارج برىء، فلم يعلم مقدار الشربة من ذلك، فشرب أربعة دراهم فلم يشك الأكراد في موته، فلفوه في شيء وأنفذوه إلى أهله، فلما حصل عندهم أدخلوه الحمام وضربوه وسوكوه، فما تحرك وأقام في الحمام أياما، ورآه أهل الطب، فقالوا: قد تلف. كم شرب أفيونا؟ قالوا: وزن أربعة دراهم. فقالوا لهم: هذا الوشوي في جهنم ما عاش وإنما يجوز أن يفعل هذا بمن شرب أربعة دوايق أفيونا أو وزن درهم أو حواليه، فأما هذا، فقد مات، فلم يقبل أهله ذلك فتركوه في الحمام حتى أراح وتغير فدفنوه، وانعكست الحيلة على نفسه.

بلال بن أبي بردة والحجاج^(١)

قال المحسن: وقد روي قديما أن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان في حبس الحجاج، وكان يعذبه وكان كل من مات من الحبس رفع خبره إلى الحجاج، فيأمر بإخراجه وتسليمه إلى أهله، فقال بلال للسجان: خذ مني عشرة آلاف درهم وأخرج اسمي إلى الحجاج في الموتى، فإذا أمرك بتسليمي إلى أهلي هربت في الأرض، فلم يعرف الحجاج خبري، وإن شئت أن تهرب معي فافعل وعلي غناك أبدا، فأخذ السجان المال ورفع اسمه في الموتى، فقال الحجاج: مثل هذا لا يجوز أن يخرج إلى أهله حتى أراه هاته، فعاد إلى بلال فقال: اعهد. قال: وما الخبر؟ قال: إن الحجاج قال: كيت وكيت، فإن لم أحضرك إليه ميتا قتلني،

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٢.

وعلم أنني أردت الحيلة عليه، ولا بد أن أقتلك خنقًا فبكى بلال وسأله أن لا يفعل، فلم يكن إلى ذلك طريق فأوصى وصلى، فأخذه السجان وخنقه، وأخرجه إلى الحجاج، فلما رآه ميتًا قال: سلّمه إلى أهله فأخذه، وقد اشترى القتل لنفسه بعشرة إلاف درهم ورجعت الحيلة عليه.

(١) المنصور وعيسى بن موسى

ذكر ابن جرير وغيره أن المنصور دفع عبد الله بن علي إلى عيسى بن موسى سرًا بالليل قال: يا عيسى، إن هذا أراد أن يزيل نعمتي ونعمتك، وأنت ولي عهدي بعد المهدي، والخلافة صائرة إليك، فخذ فاضرب عنقه، وإياك أن تخور أو تضعف، ثم كتب إليه: ما فعلت فيما أمرتك به، فكتب إليه: قد أنفذت ما أمرتني به، فلم يشك في أنه قتله، وكان عيسى قد أخبر كاتبه بالحال، فقال: إنما أراد قتلك وقتله لأنه أمرك أن تقتله سرًا ثم يدعيه عليك علانية فيقيدك به، قال: فما الرأي؟ قال: أن تستره في منزلك، فإن طلبه منك علانية أظهرته علانية.

ثم إن المنصور دسّ على عمومته من يحركهم على مسألة عن عبد الله بن عليّ ويطمعهم في أنه سيفعل وكلموه ورافعوه، فقال: عليّ بعيسى بن موسى، فاتاه، فقال: يا عيسى، قد علمت أنني دفعت إليك عبد الله بن عليّ، وقد كلفوني فيه فأتني به، فقال: يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله؟ ثم قال لعمومته: قد أقرّ لكم بقتل ابن أخيكم فادعى أنني أمرته بقتله وكذب، قالوا: فادفعه إلينا نقيده. قال: شأنكم به فخرجوه إلى الرحبة، واجتمع الناس، فشهروا سيوفهم، وتقدم إلى عيسى ليضربه، فقال له عيسى: أقاتلي أنت؟ قال: أي والله قال: ردوني إلى أمير المؤمنين، فردوه، فقال: إنما أردت بقتله أن تقتلني. هذا عمك حي سوي فاتاه به.

(١) الحارثي والطبيب المحتال

قال الحارثي: اجتزت ببغداد في أيام المقتدر، وأنا أحدث مع جماعة من مجان أصحاب الحديث، وإذا بخادم خصي جالس على دكة في الطريق وبين يديه أدوية ومكاحل ومباضع، وعلى رأسه مظلة خرق كما يكون الطبيب، فقلت

(١) كتاب الأذكىء ص ١٠٣.

لأصحابنا: ما هذا؟ فقالوا: خادم طبيب يصف للناس ويعالج ويأخذ الدراهم، وهذا من عجائب بغداد، فقلت: أنا أحب أن أخاطبه لأنظر كيف فهمه، فقال واحد منهم: فهمه لا أدري ولكن نحب أن تعبت به، فتقدم إليه وتغاشى وتماوت وتمارض وقال: يا أستاذ يا أستاذ دفعات؛ فضجر الخادم وقال: قولي لا شفاك الله أيش أصابك أي طاعون ضربك؟ قال: فقال له: يا أستاذ؛ أجد ظلمة في أحشائي ومغصًا في أطراف شعري، وما أكله اليوم يخرج غدًا مثل الجيفة، فصف لي صفة لما أنا فيه، قال: وكان الخادم قد أعدّ الجواب، فقال أما ما تجد من مغص في أطراف شعرك فاحلقي رأسك ولحيتك حتى يذهب مغصك، وأما ظلمة في أحشاك، فعلقي على باب حجرك فنديلاً يضيء مثل الساباط، وأما ما تأكله اليوم يخرج غدًا مثل الجيفة فكلي خراك واربيحي النفقة. قال: فقطع بنا العامة القيام، وضحكوا بنا، وانقلب الطنز الذي أردنا بالخادم، وصار طنزًا بنا، فصار أقصى إرادتنا الهرب، فهربنا.

(١) الباقلاني وملك الروم

الحسين بن عثمان وغيره: أن عضد الدولة بعث القاضي أبا بكر الباقلاني في رسالة إلى ملك الروم، فلما ورد مدينته عرف الملك خبره وبين له محله من العلم، فأفكر الملك في أمره، وعلم أنه لا يفكر له إذا دخل عليه كما جرى رسم الرعية أن يقبل الأرض بين يدي الملك، فنتجت له الفكرة أن يضع سريره الذي يجلس عليه وراء باب لطيف لا يمكن أحد أن يدخل منه، إلا راکعًا ليُدخل القاضي منه على تلك الحال عوضًا من تفكيره بين يديه، فلما وصل القاضي إلى المكان فطن بالقصة، فأدار ظهره وحنى رأسه، ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه، وقد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه، ثم رفع رأسه ونصب وجهه وأدار وجهه حيثنّ إلى الملك، فعلم الملك من فطنته وهابه.

(١) الألقى والكوسج

كان مهيار الشاعر ألقى والمطرز الشاعر كوسجًا، فمرّ بأبي الحسن الجهمي

فقال:

اضرط على الكوسج والألقى وزدّهما إن غضبًا سلحا

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٤.

وأراد أن يتهماه، فقال له المطرّز: فكيف وقع لك أن تذكر عليّ بن أبي عليّ حاجب القادر بالله، والحسن بن أحمد صاحب القادر بعد عليّ بن أبي عليّ، وكان عليّ ألحى والحسن كوسجًا، فانزعج الجمهوري وخاف أن يبلغه ذلك، فيقابل عليه، فكتب إلى مهيار الديلمي يستعطفه:

أبا الحسن اصفح إن مثلي من جنّي ومثلك من أعمى من العدو أو عفا
أئن طوّحت بي هفوة قلت جفوة وحملت سمعي من عتابك ما حفا

أبو بكر الخطاط (١)

أبو بكر الخطاط قال: كان رجل فقيه خطه في غاية الرداءة، فكان الفقهاء يعيبونه بخطه، ويقولون: لا يكون خط أردأ من خطك، فيضجر من عييبهم إياه، فمرّ يوماً بمجلد يباع فيه خط أردأ من خطه، فبالغ في ثمنه، فاشتراه بدينار وقيراط، وجاء به ليحتج عليهم إذا قرأوه فلما حضر معهم أخذوا يذكرون قبح خطه، فقال لهم: قد وجدت أقيح من خطي وبالغت في ثمنه، حتى أتخلص من عييبكم، فأخرجه فتصفحوه، وإذا في آخره اسمه وأنه كتبه في شبابه، فخجل من ذلك.

عمر وشارب الخمر (٢)

ذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه استعمل رجلًا من قريش على عمل، فبلغه أنه قال:

اسقني شربة الدّ عليها واسق بالله مثلها ابن هشام

فأشخصه إليه، وذكر أنه إنما أشخصه من أجل البيت، فضم إليه آخر فلما قدم عليه قال: أأست القائل:

اسقني شربة الدّ عليها واسق بالله مثلها ابن هشام

قال: نعم يا أمير المؤمنين:

لعله عسلًا باردًا بماء سحاب إنني لا أحب شرب المدام

قال: الله الله، قال: ارجع إلى عملك.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٠٦.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٤.

شقائق النعمان (١)

عن عبيد راوية الأعشى قال: خرج النعمان إلى ظهر الحيرة، وكان معشابًا، وكانت العرب تسميه خد العذراء فيه نبت الشيج والقيصوم والخزامي والزعفران وشقائق النعمان والأفحوان فمرّ بالشقائق، فأعجبه فقال: مَنْ نزع من هذا شيئًا فانزعوا كفه، قال: فسُميت شقائق النعمان. قال: فإنه ليسير فيها يومًا فانتهى إلى وهدة في طرف النجف، وإذا شيخ يخصف نعلًا، فوقف عليه وقد سبق أصحابه، فقال: ممن أنت يا شيخ؟ قال: من بكر بن وائل، فقال: يا شيخ مالك ههنا؟ قال: طرد النعمان الرعاة فأخذوا يمينًا وشمالًا، ووجدت وهدة خالية فتتجت الإبل وولدت الغنم وسالت السمّن، فقال: أو ما تخاف النعمان؟ قال: وما أخاف منه، والله لربما لمست بيدي هذه ما بين سرّة أمه وعانتها، كأنه أرنب جاثم. قال: أنت أيها الشيخ؟ قال: نعم. قال: فهاج وجهه غضبًا وطلعت أوائل خيله، فقالوا: حييت أبيت اللعن قال: وحسر عن رأسه فإذا خرزات ملكه فقال النعمان: أيها الشيخ كيف قلت؟ قال: أبيت اللعن لا يهولك ذلك، والله لقد علمت العرب أنه ليس بين لابتيها أكذب مني فضحك ثم مضى.

الرجل المشؤوم (٢)

وعن الأصمعي عن أبيه قال: أتى عبد الملك بن مروان برجل كان مع بعض مَنْ خرج عليه، فقال: اضربوا عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك. قال: وما جزاؤك؟ قال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك وذلك أنني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحة ما ادّعت وكنت لك خيرًا من مائة ألف معك، فضحك وخلي سبيله.

خالد بن صفوان والسفاح (٢)

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال شبيب بن شيبة: دخل خالد بن صفوان التميمي على أبي العباس وليس عنده أحد، فقال: يا أمير المؤمنين إنني والله ما زلت منذ قلّدتك الله خلافته أطلب أن أصير إلى مثل هذا الموقف في هذه الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بأمساك الباب حتى أفرغ فعل. قال: فأمر

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٠٧.

الحاجب بذلك، فقال: يا أمير المؤمنين! إنني فكرت في أمرك وأجلت الفكر فيك، فلم أر أحداً له مثل قدرك اتساعاً في الاستمتاع بالنساء منك، ولا بأضيق فيهن عيشاً، إنك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين، واقتصرت عليها، فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت وإن عرقت عرقت، وحرمت يا أمير المؤمنين نفسك من التلذذ بأطراف الجواري، ومعرفة اختلاف أحوالهم والتلذذ بما يشتهي منهم. إن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة التي تُشتهي لجسمها، والبيضاء التي تحب لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء، ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك، وما يشتهي من نظافتهم، وتخلل خالد بلسانه فأطنب في صفات ضروب الجواري وشوقه إليهن، فلما فرغ قال: ويحك والله ما سلك مسامعي كلام أحسن من هذا، فأعد عليّ كلامك فقد وقع مني موقعاً فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأه، ثم انصرف وبقي أبو العباس مفكراً، فدخلت عليه أم سلمة، وكان قد حلف أن لا يتخذ عليها ووفى، فلما رآته مفكراً قالت: إنني لأذكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث شيء تكرهه وأتاك خبر أرتعت له؟ قال: لا، فلم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة خالد. قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ فقال لها: ينصحني وتشتيمه، فخرجت إلى مواليتها فأمرتهم بضرب خالد، فخرجت من الدار مسروراً بما ألقىت إلى أمير المؤمنين، ولم أشك في الصلة، فبينما أنا واقف أقبلوا يسألون عني فحقت الجائزة، فقلت لهم: ها أناذا، فاستبق إليّ أحدهم بخشبة، فغمزت برذوني ولحقني فضرب كفه، وركضت ففتهم واستخفيت في منزلي أياماً، ووقع في قلبي أنني أتيت من قبل أم سلمة، فما أشعر إلا يقوم قد هجموا عليّ وقالوا: أجب أمير المؤمنين، فسبق إلى قلبي أنه الموت، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. لم أر دم شيخ أضيع من دمي، فركبت إلى دار أمير المؤمنين، فلقيته خالياً، فنظرت في المجلس بينا عليه ستور رقاق، وسمعت حساً خلف الستر، فقال: ويحك وصفت لأمر المؤمنين صفة فأعدها، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن النساء أكثر من واحدة إلا ضرر وتنغص، فقال له أبو العباس: لم يكن هذا للعرب إنما اشتقت اسم الضرتين من الضرر، وإن أحد لم يكن عنده من في الحديث. قال: بلى يا أمير المؤمنين، وأخبرت أن الثلاث من النساء كأنهن في القدر يغلي عليهن، قال: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك ولا مرّ في حديثك. قال: وأخبرت أن الأربع من النساء شر مجموع لصاحبه يشيبه ويهرمه. قال: لا والله

ما سمعت هذا منك. قلت: بلى والله. قال: أفتكذبني؟ قلت: أفتقتلني؟ نعم، والله يا أمير المؤمنين إن أباكار الأمام رجال إلا أنه ليست لهن خصي. قال خالد: فسمعت ضحكًا من خلف الستر، ثم قلت: نعم والله وأخبرت أن عندك ريحانة قريش، وأنت تطمح بعينك إلى النساء والجواري، قال: فقيل من وراء الستر: صدقت والله يا عمّاه بهذا حديثه، ولكنه غير حديثك، ونطق من لسانك، فقال أبو العباس: ما لك قاتلك الله. قال: وانسللت، فبعثت إليّ أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون وتخت وثياب.

نصيب والزوجة الثانية^(١)

رجل من بني نوفل بن عبد مناف قال: لما أصاب نُصيب من المال ما أصاب، وكان عنده أم محجن وكانت سوداء اشتاق إلى البيضاء، فتزوج امرأة سرية بيضاء، فغضبت أم محجن وغارت عليه، فقال لها: والله يا أم محجن ما مثلي يغار عليه. إني شيخ كبير، وما مثلك يغار إنك لعجوز كبيرة، وما أحد أكرم عليّ منك ولا أوجب حقًا، فجوزي هذا الأمر ولا تكدره عليّ. فرضيت وقربت ثم قال لها بعد ذلك: هل لك أن أجمع إليك زوجتي الجديدة، فهو أصلح لذات البين، وألم للشعث وأبعد للشماتة؛ فقالت: نعم افعل وأعطها دينار، وقال لها: إني أكره أن ترى بك خصاصة أن تفضل عليك، فاعلمي لها إذا أصبحت عندك غداً بهذا الدينار، ثم أتى زوجته الجديدة، فقال لها: إني أردت أن أجمعك إلى أم محجن غداً، وهي مكرمتك وأكره أن تفضل عليك أم محجن، فخذني هذا الدينار فأعدي لها به إذا أصبحت عندها غداً لئلا ترى بك خصاصة، ولا تذكرني لها الدينار، ثم أتى صاحبًا له يستنصحه فقال: إني أريد أن أجمع زوجتي الجديدة إلى أم محجن غداً، فأنتي مسلمًا، فإني سأستجسك للغداء، فإذا تغديت فسلمي عن أحبهما إليّ، فإني سأنفر وأعظم ذلك، فإذا آبيت عليك أن لا أخبرك فاحلف عليّ، فلما كان الغد زارت زوجته الجديدة لأم محجن، ومزّ به صديقه، فاستجلسه، فلما تغديا أقبل الرجل عليه، فقال: يا أبا محجن أحب أن تخبرني عن أحب زوجتيك إليك. فقال: سبحان الله! أتسألني عن هذا، وهما يسمعان ما سأل عن مثل هذا أحد. قال: فإني أقسم عليك

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٨.

لتخبرني، فوالله لا عذرتك ولا أقبل إلا ذلك. قال: أما إذا فعلت فأحبهما إليّ صاحبة الدينار والله لا أريد على هذا شيئاً، فأعرضت كل واحدة منهما تضحك ونفسها مسرورة، وهي تظن أنه عناها بذلك القول.

كل زوجة لي وراء هذا الباب طالق ثلاثاً^(١)

القاضي أبو الحسين بن عتبة قال: كانت لي ابنة عم موسرة وتزوجتها، فلم أوترها لشيء من الجمال، ولكنني كنت أستعين بمالها وأتزوج سرّاً، فإذا فطنت بذلك هجرتني وطرحتنني وضيقت عليّ إلى أن أطلّقت من تزوجتها، ثم تعود إليّ، فطال ذلك عليّ، وتزوجت صبية حسناء موافقة لطباعي مساعدة على اختياري، فمكثت معي مدة يسيرة وسعي بها إلى ابنة عمي، فأخذت في المناكدة والتضييق عليّ، فلم يسهل عليّ فراق تلك الصبية فقلت لها: استعيري من كل جارة قطعة من أخر ثيابها، حتى يتكامل لك خلعة تامة الجمال. وتبخري بالعنبر واذهبي إلى ابنة عمي فابكي بين يديها، وأكثر من الدعاء لها والتضرّع إليها إلى أن تضجربها، فإذا سألتك عن حالك، فقول لها: إن ابن عمي قد تزوجني، وفي كل وقت يتزوج عليّ واحدة، وينفق مالي عليها، وأريد أن تسألني القاضي معونتي وإنصافي منه، فإني أقدمه إليه، فإنها سترفعك إليّ ففعلت فلما دخلت عليها واتصل بكاؤها رحمتها، وقالت لها، فالقاضي شر من زوجك، وهكذا يفعل بي وقامت فدخلت عليّ، وأنا في مجلس لي وهي غضبي ويد الصبية في يدها، فقالت: هذه المشؤومة حالها مثل حالي، فاسمع مقالها واعتمد إنصافها، فقلت: ادخلا، فدخلتا جميعاً، فقلت لها: ما شأنك؟ قالت: فذكرت ما وافقتها عليه، فقلت لها: هل اعترف ابن عمك بأنه قد تزوج عليك؟ فقالت: لا، والله. وكيف يعترف بما يعلم إنني لا أقاره عليه. قلت: فشاهدت أنت هذه المرأة وقفت على مكانها وصورتها، فقالت: لا والله. فقلت: يا هذه اتقي الله ولا تقبلي شيئاً سمعته، فإن الحساد كثير والطلاب لإفساد النساء كثير والحيل والتكذيب، فهذه زوجتي قد ذكر لها أنني تزوجت عليها، وكل زوجة لي وراء هذا الباب طالق ثلاثاً، فقامت ابنة عمي فقَبَلت رأسي وقالت: قد علمت أنه مكذوب عليك أيها القاضي، ولم يلزمني حنث لاجتماعهما بحضرتي.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٠٩.

سراقة بن مرداس والمختار^(١)

عن أبي الحسن المدائني أن أحمد بن سميط أسر خمسمائة فأتى بهم المختار، فقتل مائتين وأربعين وحبس بعضاً، ومنّ على بعض، فكان ممن حبس من الأسرى سراقة بن مرداس البارقي، ثم أمر بقتله فقال: لا والله لا تقتلني، حتى أنقض معك داري حجراً حجراً. قال: وما يدريك؟ قال: الأخبار الصادقة التي جاءت بها الكتب الناطقة، فأقبل المختار على عبد الله بن كامل وعلى أبي عمرة، فقال: من يظهر أسرارنا، فأمر بتخليته، فقال سراقة: إنا قد أسرنا قوم لا نراهم. قال: هم هؤلاء وهم شرط الله. قال: لا والله لقد أسرنا قوم عليهم عمائم حمر على خيل بلق تطير بين السماء والأرض. قال: هذه الملائكة، فاعلم الناس ذلك يا سراقة. قال: فصعدت منارة وأعلمت الناس وحلفت لهم، فخلّى سبيلي.

الأصمعي والرشيد^(١)

عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، عن عمه قال: بعث إليّ الرشيد، فدخلت فإذا صببية، فقال: من هذه الصبية؟ فقلت: لا أدري. قال: هذه مواسة بنت أمير المؤمنين، فدعوت لها وله. قال: نعم، فقبّل رأسها، فقلت إن أطعته أدركته الغيرة، فقتلني، وإن أنا عصيته قتلني بمعصية، فوضعت كمي على رأسها وقبّلت كمي، فقال: والله يا أصمعي لو أخطأتها لقتلتك. أعطوه عشرة آلاف درهم.

واصل بن عطاء والخوارج^(٢)

عن ابن البهلول أن أبا حذيفة واصل بن عطاء خرج يريد سفرًا في رهط، فاعترضهم جيش من الخوارج فقال واصل: لا ينطقن أحد ودعوني معهم، فقصدتهم واصل، فلما قربوا بدأ الخوارج ليوقعوا، فقال: كيف تستحلون هذا وما تدرّون من نحن ولا لأي شيء جئنا؟ فقالوا: نعم. فما أنتم؟ قال: قوم من المشركين جئناكم لنسمع كلام الله. قال: فكفّوا عنهم، وبدأ رجل منهم يقرأ عليهم القرآن، فلما أمسك قال واصل: قد سمعنا كلام الله، فأبلغنا مأمنا حتى ننظر فيه،

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١١.

(١) كتاب الأذكياء ص ١١٠.

وكيف ندخل في الدين، فقال: هذا واجب. سيروا، فسرنا والخوارج والله معناه يحمونا فراسخ، حتى قربنا إلى بلد لا سلطان لهم عليه. فانصرفوا.

(١) الحجاج والمصروع

قال أبو إسحاق الجهمي: لما صرف الحجاج قال لغلام له: تعال نتنكر وننظر ما لنا عند الناس، فتنكروا وخرجا، فمرا على المطلب غلام أبي لهب، فقالا: يا هذا! أي شيء على الحجاج؟ قال: على الحجاج لعنة الله. قالوا: فمتى يخرج؟ قال: أخرج الله روحه من بين جنبيه ما يدريني. قال: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا الحجاج بن يوسف. قال المطلب: أتعرفني أنت؟؟ قال: لا. قال: أنا المطلب غلام أبي لهب معروف أصرع في كل شهر ثلاثة أيام أولها اليوم، فتركه ومضى.

(١) الحجاج والبستاني

حكى أبو الحسن بن هلال الصابي أن الحجاج انفراد يوماً من عسكره، فمر ببستاني يسقي ضيعته، فقال: كيف حالكم مع الحجاج؟ فقال: لعنه الله المبيد البر، الحقود عجل الله الانتقام منه، فقال له: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا الحجاج، فرأى أن دمه قد طاح، فرفع عصا كانت معه، فقال: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي وأزبد وأرغى وهاج، وأراد أن يضرب رأسه بالعصى، فضحك منه وانصرف.

(٢) أبحث عن مفسر لرؤيائي

يُحكى أن مزيداً كان يدخل على بعض ولاة المدينة، فأبطأ عليه ذات يوم، ثم جاء، فقال: ما أبطأك عني؟ قال: جارة لي كنت أهواها منذ حين، فظفرت بها ليلتي وتمكنت منها، فغضب الوالي، وقال: والله لآخذنك بإقرار، فلما رأى الجد منه، قال: فاسمع تمام حديثي، قال: وما هو؟ فلما أصبحت خرجت أطلب مفسراً يفسر لي رؤيائي، فلم أقدر عليه إلى الساعة. قال: ذلك في المنام رأيت؟ قال: نعم. فسكن غضبه.

أبو دلف والمأمون^(١)

عن أبي الفضل الربيعي عن أبيه قال: قال المأمون يوماً وهو مغضب لأبي دلف أنت الذي يقول فيك الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلف بين يديه ومُحتضره
فإذا ولَّى أبو دلف ولَّت الدنيا على أثره

فقال: يا أمير المؤمنين، شهادة زور، وقول عزور وملق معتاف وطلب عرف، وأصدق منه ابن أخت لي حيث يقول:

دعيني أجوب الأرض في طلب الغنى فلا الكرخ الدنيا ولا الناس قاسم
فضحك المأمون وسكن غضبه.

عزة وبثينة^(١)

رُوي أن عزة وبثينة اجتمعتا فتحدثتا، فأقبل كثير، فقالت بثينة: أتحبين أن أبين لك أن كثيراً غير صادق في محبتك؟ قالت: نعم. قالت: ادخلي الخباء، فدخلت فدنا كثير فوقف على بثينة، فسلم عليها فقالت له: ما تركت عزة فيك مستمعا لأحد، فقال كثير والله لو أن عزة أمة لوهبتها لك، فقالت: إن كنت صادقاً فقل في هذا شعراً فأشأ يقول:

رَمَتْنِي عَلَى عَمْدٍ بِثِينَةَ بَعْدَمَا تَوَلَّى شَبَابِي وَارْجَحَنَ شَبَابُهَا
بَعِينِينَ نَجْلَاوِينَ لَوْ زَفَّرْتَهُمَا لِنَوْءِ الشَّرِيَا لِاسْتَهْلٍ سَحَابُهَا

فبادرت عزة وكشفت الحجاب، وقالت له: يا فاسق! قد سمعت البيتين، فقال لها: فاسمعي الثالث. قالت: وما هو؟ قال:

ولكنما ترمين نفساً سقيمةً لعزة منها صفوها ولبابها
فاستحسنت عذره.

(١) كتاب الأذكياء ص ١١٢.

أبو العجب والبلبل الميت^(١)

ذكر هلال بن المحسن أن رجلاً كان يقال له أبو العجب لم ير مثله فيما كان يعمل من الشعبذة^(٢). دخل يوماً إلى دار المقتدر بالله، فرأى خادماً من خواصه يبكي على بلبل مات له، فقال له: ما عليك أيها الأستاذ إن أحبيته؟ فقال: ما تريد، فأخذ البلبل الميت، فأدخله كفه وأدخل رأسه، وأخرج بعد ساعة بلبلاً حياً، فماجت الدار وعجب الحاضرون، فاستدعاه علي بن عيسى وقال: والله إن لم تصدقني عن حقيقة الأمر لأضربن عنقك، فقال: إني شاهدت الخادم يبكي على بلبله، فطمعت بما آخذه منه، مضيت في الحال إلى السوق، وابتعت بلبلاً وخبأته في كمي وعدت إلى الخادم، فقلت ما قلته، وأخذت البلبل الميت، وأدخلت رأسه في كمي وأكلته، وأخرجت الحي، فلم يشك أنه بلبله، وهذا رأس الميت.

ابن المعتر المؤدب^(٣)

قال ابن عرابة المؤدب حكى لي محمد بن عمر الضبي أنه حفظ ابن المعتر وهو يؤدبه (والنازعات) وقال له: إذا سألك أمير المؤمنين أبوك في أي شيء أنت؟ فقل له: في السورة التي تلي (عبس) ولا تقل أنا في النازعات. قال: فسأله أبوه في أي شيء أنت؟ قال: في السورة التي تلي عبس، فقال: من علمك هذا؟ قال: مؤدبي. قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم...

حيلة ناجحة^(٣)

قال عبد الواحد بن نصر المخزومي قال: أخبرني من أثق به أنه خرج في طريق الشام مسافراً يمشي وعليه مرقعة، وهو في جماعة نحو الثلاثين رجلاً كلهم على هذه الصفة، فصحبنا في بعض الطريق رجل شيخ حسن الهيئة ومعه حمار فاره يركبه، ومعه بغلام عليهما رجل وقماش ومتاع فاخر، فقلنا له: يا هذا إنك لا تفكر في خروج الأعراب علينا، فإنه لا شيء معنا يؤخذ وأنت لا تصلح لك صحبتنا مع ما معك، فقال: يكفيننا الله، ثم سار ولم يقبل منا، وكان إذا نزل يأكل استدعى أكثرنا فأطعمه وسقاه، وإذا عيى الواحد منا أركبه على أحد بغليه، وكانت

(٢) الشعبذة: أي الأعمال السحرية.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣٢.

(٣) كتاب الأذكياء ص ١٣٧.

جماعة تخدمه وتكرمه وتتدبر برأيه إلى أن بلغنا موضعًا، فخرج علينا نحو ثلاثين فارسًا من الأعراب، فتفرقنا عليهم ومانعناهم، فقال الشيخ: لا تفعلوا، فتركناهم ونزل، فجلس وبين يديه سفرته، وفرشها وجلس يأكل، وأظلتنا الخيل، فلما رأوا الطعام دعاهم إليه، فجلسوا يأكلون، ثم حلّ رحله وأخرج منه حلوى كثيرة وتركها بين يدي الأعراب، فلما أكلوا وشبعوا جمدت أيديهم وخدرت أرجلهم ولم يتحركوا، فقال لنا: أن الحلو مبنج، أعدته لمثل هذا وقد تمكن منهم وتمت الحيلة. ولكن لا يفك البنج إلا أن تصفعوهم، فافعلوا فإنهم لا يقدرّون لكم على ضرر ونسير، ففعلوا فما قدرّوا على الامتناع، فعلمنا صدق قوله، وأخذنا أسلحتهم وركبنا دوابهم وسرنا حواليه في موكب، ورماحهم على أكتافنا، وسلاحهم علينا، فما نجتاز بقوم إلا يظنوننا من أهل البادية فيطلبون النجاة منا، حتى بلغنا ما منا.

أعمى في يده سراج^(١)

قال بعضهم: خرجت في الليل لحاجة، فإذا أعمى على عاتقه جرة، وفي يده سراج، فلم يزل يمشي حتى أتى النهر وملاً جرته وانصرف راجعًا، فقلت: يا هذا، أنت أعمى والليل والنهار عندك سواء، فقال: يا فضولي حملتها معي لأعمى القلب مثلك يستضيء بها، فلا يعثر بي في الظلمة فيقع علي فيكسر جرتي.

الرشيد وإبراهيم الموصلي^(١)

روى أبو الحسن الأصفهاني أن إبراهيم الموصلي دخل على الرشيد وبين يديه جارية كأنها خوط بان، فقال لها الرشيد: غني فغنت:

توهمه قلبي فأصبح خدّه وفيه مكان الوهم من نظري أثر
ومرّ بوهمي خاطراً فجرحته ولم أرَ جسمًا قطّ يَجرحه الفِكرُ

قال إبراهيم: فذهبت والله بعقلي حتى كدت افتضح، فقلت: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه التي يقول فيها الشاعر:

لها قلبي الغدأة وقلبها لي فنحنُ كذاك في جسدين روحُ

(١) كتاب الأذكياء ص ١٣٨.

ثم قال: غني يا إبراهيم فغنييت:

تَشْرَبُ قلبي حبها ومشى بها
ودب هواها في عظامي فشفها
تمشي حميا الكأس في جسم شارب
كما دبّ الملسوع سُمّ العقارب

قال: ففطن بتعريضي، وكانت غلطة مني، فأمرني بالانصراف، ولم يدعني شهرا، ثم دس إليّ خادما ومعه رقعة فيها مكتوب:

قد تخوّفت أن أموت من الوجْدِ
يا كتابي اقرأ السّلام على مَنْ
ولم يدر من هويت بحالي
لا أسمى وقل له يا كتابي
إن كفا إليك قد كتبتني
في شقاء مواصل وعذاب

فأتاني الخادم بالرقعة، فقلت له: ما هذا؟ قال: رقعة من فلانة الجارية التي غنتك بين يدي أمير المؤمنين، فأحسست بالقصة، فشتت الخادم وقمت إليه فضربته ضربا شفيت منه نفسي، وركبت إلى الرشيد من فوري، فأخبرته بالقصة وأعطيته الرقعة، فضحك حتى كاد يستلقي وقال: على عمد فعلت ذلك لأمتحك وأعرف مذهبك وطريقتك، ثم دعا لي الخادم، فخرج فلما رأي قال: قطع الله يدك ورجليك وملك قتلتي، فقلت: القتل بعض حقدك لما وردت به عليّ ولكني أبقيت عليك، وأخبرت أمير المؤمنين ليأتي في عقوبتك ما تستحقه، فأمر لي الرشيد بصلة سنية، والله يعلم أنني ما فعلت ما فعلته عفاً بل خوفاً.

عمر بن الخطاب والهرمزان^(١)

حدّثنا زياد بن جبير رضي الله عنه قال: أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل من المشركين، يقال له الهرمزان، فأسلم، فقال: فإنني مستشيرك في مغازي هذه فأشر عليّ، فقال: نعم يا أمير المؤمنين: الأرض مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له رأس وجناحان وله رجلان، فإن انكسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح وبالرأس، وإن انكسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس، فإن انشج الرأس ذهبت الرجلان والجناحان، فالرأس كسرى والجناح قيصر والآخر فارس، فمُرّ المسلمين، فلينفروا إلى كسرى.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٤٥.

من حيل الإسكندر^(١)

رُوي أن الإسكندر رأى في عسكره سميًا له لا يزال يهزم فقال له: أما أن تغيّر اسمك أو فعلك.

وخرج يومًا في الحرب من صف أصحابه وأمر منادياً فنادى: يا معشر الفرس، قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمانات، فمن كان على الوفاء فليعتزل عن العسكر، وله منا الوفاء بما ضمنناه، فاتهمت الفرس بعضها بعضًا، وكان أول اضطراب حدث فيهم.

وفي رواية إنه لما صادف دارًا أمر منادياً في عسكر دارا: أيها الناس أما نحن فقد فعلنا ما اتفقنا عليه، فكونوا من وراء ما ضمتم فاستشعر دارًا أن عسكره قد عزموا على تسليمه إلى الإسكندر وكان ذلك سبب هزيمته.

ولما شخص عن فارس إلى الهند تلقاه ملكها في جمع عظيم، ومعه ألف فيل عليها السلاح والرجال، وفي خراطيمها السيوف والأغمدة، فلم تقف لها دواب الإسكندر، فهزم وعاد إلى مأمنه، فأمر باتخاذ فيلة من نحاس مجوفة وربط خيله بين تلك التماثيل حتى ألفتها، ثم أمر فملئت نفظًا وكبريتًا وألبسها الدروع وجرت على العجل إلى المعركة، وبين تماثيل منها جماعة من أصحابه، فلما نشبت الحرب أمر بإشعال النار في جوف التماثيل، فلما حميت انكشف أصحابه عنها وغشيتها الفيلة فضربتها بخراطيمها فتشيطت وولت مدبرة راجعة على أصحابها وصارت الدائرة على ملك الهند.

قال: ونزل مرة على مدينة حصينة، فتحصن أهلها منه، فأخبر أن عندهم من الميرة قدر كفايتهم، فدرس تجارًا متنكرين وأمرهم بدخول المدينة، ورحل عنها وأمدهم بمال ومتاع، فباعوا ما معهم وابتاعوا الميرة، فلما أكتزوا كتب أن أحرقوا ما عندكم من الميرة واهربوا ففعلوا، فزحف إلى المدينة فحاصرها أيامًا يسيرة، فأخذها وكان إذا أراد محاصرة بلد شرد من حولها من القرى، فهربوا إليها فيسرعون في أكل الميرة، فتقل فيحاصروهم فيفتحها.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٤٥.

من حَيْلِ كَسْرَى بنِ هَرْمَزٍ (١)

وَحِكْيَى عَنْ كَسْرَى بنِ هَرْمَزٍ أَنَّهُ كَانَ بَعَثَ الْأَصْبَهَيْدَ إِلَى الرُّومِ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ، فَأَعْطَى مِنَ الظَّفَرِ مَا لَمْ يَعْطِهِ أَحَدٌ قَبْلَهُ، وَأَخَذَ الْأَصْبَهَيْدُ خَزَائِنَ الرُّومِ وَوَجَّهَهَا عَلَى هَيْئَتِهَا إِلَى كَسْرَى، فَفَطَنَ كَسْرَى أَنَّ مَالَ الْأَصْبَهَيْدِ مِنَ الظَّفَرِ، وَأَنَّ هَذَا يَغْيِرُهُ عَلَيْهِ، وَيُوجِبُ لَهُ كِبْرًا، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجُلًا لِيَقْتُلَهُ وَكَانَ الْمَبْعُوثُ عَاقِلًا، فَلَمَّا رَأَى الْأَصْبَهَيْدُ وَتَدْبِيرَهُ وَعَقْلَهُ قَالَ: مَا يَصْلُحُ قَتْلَ هَذَا بِغَيْرِ جَرْمٍ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ بِالذِّي جَاءَ لَهُ، فَأَرْسَلَ الْأَصْبَهَيْدَ إِلَى قَيْصَرَ إِنْ أَرِيدَ أَنْ أَلْقَاكَ. قَالَ: إِذَا شِئْتَ فَنَلْتَقِيَا. فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الْخَبِيثَ قَدْ هَمَّ بِقَتْلِي وَوَجَّهَ إِلَيَّ رَجُلًا بِذَلِكَ، وَإِنِّي أَرِيدُ هَلَاكَهُ كَالَّذِي أَرَادَ مِنِّي وَالْبَادِي أَظْلَمُ، فَاجْعَلْ لِي مِنْ نَفْسِكَ مَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ وَأَعْطِيكَ مِنْ بِيوتِ أَمْوَالِهِ مِثْلَ الَّذِي أَصَبْتَ مِنْكَ، وَمِثْلَ الَّذِي أَنْتَ مُنْفِقُهُ فِي مَسِيرِكَ هَذَا، فَأَعْطَاهُ مِنَ الْمَوَائِيقِ مَا أَطْمَأَنَّنَ إِلَيْهِ، وَسَارَ قَيْصَرُ فِي أَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَنَزَلَ بِكَسْرَى، فَعَلِمَ كَسْرَى كَيْفَ جَرَى الْأَمْرُ، فَاحْتَالَ لِفُضِّ جُنُودِ قَيْصَرَ، فَدَعَا قَسًا مُتَنَصِّرًا فِي دِينِهِ، فَقَالَ: إِنِّي كَاتِبٌ مَعَكَ كِتَابًا لَطِيفًا فِي حَرِيرَةٍ لَتَبْلُغَهُ الْأَصْبَهَيْدَ، فَلَا تَطْلَعَنَّ عَلَى ذَلِكَ أَحَدًا وَأَعْطَاهُ أَلْفَ دِينَارٍ، وَقَدْ عَلِمَ كَسْرَى أَنَّ الْقَسَّ يُوَصِّلُ كِتَابَهُ إِلَى قَيْصَرَ لِأَنَّهُ تَحْتَهُ هَلَاكُ الرُّومِ، وَكَانَ فِي الْكِتَابِ: إِلَى الْأَصْبَهَيْدِ، إِنِّي كَتَبْتُ إِلَيْكَ وَقَدْ دَنَا مِنِّي قَيْصَرٌ، فَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْنَا وَأَمَكَّنَ مِنْهُمْ بِتَدْبِيرِكَ لَا عَدَمْتَ صَوَابَ الرَّأْيِ، وَقَدْ فَرَّقْتَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا مَمْهَلَةٌ حَتَّى يَقْرُبَ مِنَ الْمَدَائِنِ، ثُمَّ أَغَافِلُهُ فِي يَوْمٍ كَذَا فَغَرَّهُ عَلَيَّ مِنْ قَتْلِكَ إِيَّايَ، فَإِنِّي أَسْتَأْصِلُهُمْ، فَخَرَجَ الْقَسُّ بِالْكِتَابِ، فَأَوْصَلَهُ إِلَى قَيْصَرَ، فَقَالَ قَيْصَرُ: هَذَا الْحَقُّ وَمَا أَرَادَ إِلَّا هَلَاكَنَا، فَتَوَلَّى مُنْصَرَفًا وَأَتْبَعَهُ كَسْرَى إِيَّاسُ بنُ قَبِيصَةَ الطَّائِي، فَقَتَلَ أَصْحَابَهُ وَنَجَا قَيْصَرُ فِي شَرْدَمَةَ قَلِيلَةً.

جَذِيمَةُ الْأَبْرَشِ وَالزَّبَاءِ (١)

قَالَ هِشَامُ بنُ مُحَمَّدِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ جَذِيمَةُ بنُ مَالِكٍ مَلِكًا عَلَى الْحِيرَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ السَّوَادِ مَلِكٌ سِتِينَ سَنَةً، وَكَانَ بِهِ وَضْخٌ، وَكَانَ شَدِيدَ السُّلْطَانَ يَخَافُهُ الْقَرِيبُ وَيُهَابُهُ الْبَعِيدُ، فَنَهَيْتِ الْعَرَبَ أَنْ يَقُولُوا الْأَبْرَشَ، فَقَالُوا: الْأَبْرَشُ فَغَزَا مَلِيحُ بنُ بَرَاءٍ، وَكَانَ مَلِكًا عَلَى الْحَضْرَمِ وَهُوَ الْحَاجِزُ بَيْنَ الرُّومِ

(١) كتاب الأذكياء ص ١٤٦.

والفرس، وهو الذي ذكره عدي بن زيد في قصيدة منها هذا البيت:

وأخو الحَضْرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَلَةَ تُجْبِي إِلَيْهِ وَالْحَابُورُ

فقتله جذيمة وطرد الزباء إلى الشام، فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان، حسنة البيان، شديدة السلطان، كبيرة الهمة.

قال ابن الكلبي: لم يكن في نساء عصرها أجمل منها، وكان اسمها فارغة، وكان لها شعر إذا مشت سحبتة وراءها، وإذا نشرته جللها، فسميت الزباء. قال الكلبي: وبعث عيسى ابن مريم عليه السلام بعد قتل أبيها، فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها وملكتها، فأزالت جذيمة الأبرش عنها، وابتنت على الفرات مدينتين متقابلتين من شرقي الفرات ومن غربيه، وجعلت بينهما نفقًا تحت الفرات، وكان إذا راهقها الأعداء آوت إليه وتحصنت به، وكانت قد اعتزلت الرجال، فهي عذراء وكان بينها وبين جذيمة بعد الرحب مهادنة، فحدث جذيمة نفسه بخطبتها، فجمع خاصته فشاورهم في ذلك وكان له عبد يقال له قصير بن سعد، وكان عاقلاً لبيباً وكان خازنه وصاحب أمره وعميد دولته، فسكت القوم وتكلم قصير، فقال: أبيت اللعن أيها الملك إن الزباء امرأة قد حرمت الرجال، فهي عذراء لا ترغب في مال ولا جمال ولها عندك ثأر والدم لا ينام، وإنما هي تاركتك رهبة وحذار دولة، الحقد دفين في سويداء القلب له كمون ككمون النار في الحجر إن اقتدحته أورى، وإن تركته توارى، وللملك في بنات الملوك الأكتفاء متسع، ولهن فيه منتفع، وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظم شأنك فما أحد فوقك. فقال جذيمة: يا قصير الرأي ما رأيت والحزم فيما قلت، ولكن النفس تواقفة إلى ما تحب وتهوى، ولكل امرئ قدر لا مفر له منه ولا وزر، فوجه إليها خاطباً، وقال: ائت الزباء فاذكر لها ما يرغبها فيه وتصبو إليه، فجاءتها خطبته، فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له: أنعم بك عينا وبما جئت به وله، وأظهرت له السرور به والرغبة فيه وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كنت أضربت عن هذا الأمر خوفاً أن لا أجد كفوًا، والملك فوق قدري وأنا دون قدره، وقد أجبت إلى ما سأل ورغبت فيما قال، ولولا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرت إليه ونزلت عليه، وأهدت إليه هدية سنوية ساقط العبيد والإماء والكراع والسلاح والأموال والإبل والغنم، وحملت من الثياب والعين والورق، فلما رجع إلى خطيبه أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى

من اللطف، وظن أن ذلك لحصول رغبة، فأعجبه نفسه وسار من فوره فيمن يثق به من خاصته وأهل مملكته، وفيهم قصير خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي، وهو أول ملوك الحيرة من لحم، وكان ملكه عشرين ومائة سنة، وهو الذي اختطفته الجن وهو صبي وردته، وقد شب ونبر، فقالت أمه: ألبسوه الطوق، فقال خاله جذيمة: شب عمرو على الطوق فصارت مثلاً فاستخلفه وسار إلى الزباء، فلما صار ببقة نزل وتصيّد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأي من أصحابه، فسكت القوم وافتتح الكلام قصير بن سعد قال: أيها الملك، كل عزم لا يؤيد بحزم. قال لي: أف ما يكون كونه فلا تثق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعتقد الرأي بالهوى فيفسد، ولا الحزم بالمنى فيبعد، والرأي عندي للملك أن يعتقب أمره بالثبوت ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمور تجري بالمقدور لعزمت على الملك عزمًا بتًا أن لا يفعل، فأقبل جذيمة على الجماعة فقال: ما عندكم أنتم في هذا الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته في ذلك وصوّبوا رأيه وقووا عزمه. فقال جذيمة: الرأي للجماعة والصواب ما رأيتم. فقال قصير: أرى القدر يسابق الحذر ولا يطاع لقصير أمر. فأرسلها مثلاً.

وسار جذيمة، فلما قرب من ديار الزباء نزل وأرسل إليها يعلمها بمجيئه، فرحبت وقربت وأظهرت السرور به والرغبة فيه، وأمرت أن يحمل إليه الإنزال والعلوفات، وقالت لجندها: وخاصة أهل مملكته وعامة أهل دولتها ورعيتهما تلقوا سيدكم وملك دولتكم.

وعاد الرسول إليه بالجواب بما رأى وسمع، فلما أراد جذيمة أن يسير دعا قصيرًا، فقال: أنت على رأيك؟ قال: نعم. قد زادت بصيرتي فيه، أفأنت على عزمك؟ قال: نعم وقد زادت رغبتني فيه. فقال قصير: ليس للأمر بصاحب، من لم ينظر في العواقب وقد يستدرك الأمر قبل فواته، وفي يد الملك بغية هو بها مسلط على استدراك الصواب، فإن وثقت بأنك ذو ملك وعشيرة ومكان، فإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك ومكانك، وألقيتها في يدي من لست آمن عليك مكره وغدره، فإن كنت ولا بد فاعلاً ولهواك تابعاً، فإن القوم إن تلقوك غداً فرحاً وساروا أمامك وجاء قوم وذهب قوم، فالأمر بعده في يدك والرأي فيه إليك، وإن تلقوك رزداً^(١) واحداً وأقاموا لك صفيين حتى إذا توسطتهم انقضوا

(١) رزداً: أي جمعاً واحداً.

عليك من كل جانب، فأحدقوا بك، فقد ملكوك وصرت في قبضتهم، وهذا العصا لا يشق غبارها، وكانت لجذيمة فرس تسبق الطير وتجارى الرياح. يقال العصا، فإذا كان كذلك، فتملك ظهرها فهي ناجية بك إن ملكت ناصيتها، فسمع جذيمة كلامه ولم يرد جوابًا وسار، وكانت الزباء لما رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمة غدًا فتلقوه بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وشماله، فإذا توسط جمعكم، فتعرضوا عليه. من كل جانب حتى تحدقوا به، وإياكم أن يفوتكم، وسار جذيمة وقصير عن يمينه، فلما لقيه القوم رزدقًا واحدًا أقاموا له صفين، فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب انقضاض الأحدل على فريسته فأحدقوا به وعلم أنهم قد ملكوه. وكان قصير يسايره فأقبل عليه، وقال: صدقت يا قصير، فقال قصير: أيها الملك! أبطأت بالجواب، حتى فات الصواب. فأرسله مثلاً. فقال: كيف الرأي الآن؟ قال: هذه العصا فدونكها لعلك تنجو بها، فأنف جذيمة من ذلك وسارت به الجيوش. فلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأسر وأيقن بالقتل جمع نفسه، فصار على ظهر العصا وأعطاها عنانها وزجرها، فذهبت تهوي به هوى الريح، فنظر إليه جذيمة وهي تطاول به، وأشرفت الزباء من قصرها، فقالت: ما أحسنك من عروس تجلى عليّ وتزف إليّ، حتى دخلوا به إلى الزباء، ولم يكن معها في قصرها إلا جوارٍ أبكار أتراب.

وكانت جالسة على سريرها وحولها ألف وصيفة كل واحدة لا تشبه صاحبها في خلق ولا زي، وهي بينهن كأنها قمر قد حفت به النجوم تزهو، فأمرت بالأنطاع^(١) فبسطت، وقالت لوصائفها: خذوا بيد سيدكن وبعل مولاتكن، فأخذن بيده فأجلسنه على الأنطاع بحيث يراها وتراه، وتسمع كلامه ويسمع كلامها، ثم أمرت الجوارى فقطعن رواهشه^(٢)، ووضعت الطشت تحت يده، فجعلت تشخب في الطشت، فقطرت قطرة على النطع، فقالت لجواريتها: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: لا يحزنك دم أراقه أهله، فلما مات قالت: والله ما وفى دمك ولا شفى قتلك، ولكنه غيض من فيض، ثم أمرت به، فدفن.

وكان جذيمة قد استخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عدي، وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر، ويقتني الأثر عن خاله، فخرج ذات

(١) الأنطاع: مفردا نطع. وهو مصنوع من جلد الثور.

(٢) رواهشه: أي شرايينه.

يوم فنظر إلى فارس قد أقبل يهوي به فرسه هوى الريح، فقال: أما الفرس ففرس جذيمة، وأما الراكب فكالهيمه لأمر ما جاءت العصا، فأشرف عليهم قصير، فقالوا: ما وراءك؟ قال: سعى المقدر بالملك إلى حنقه على الرغم من أنفي وأنفه، فأطلب بشارك من الزباء، فقال عمرو: وأي ناز من الزباء، وهي أمتع من عقاب الجو، فقال قصير: قد علمت نصحي كان لخالك وكان الأجل رائده، والله لا أنا عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس أو أدرك به نازًا أو تخترم نفسي فأعذر، ثم أنه عمد إلى أنفه فجذعه، ثم لحق بالزباء على صورة كأنه هارب من عمرو بن عدي، فقيل لها: هذا قصير بن سعد عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك، فأذنت له، فقالت: ما الذي جاءك إلينا يا قصير وبيننا وبينك دم عظيم الخطر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام! لقد أتيت فيما يؤتى مثلك في مثله، ولقد كان دم الملك يطلبه حتى أدركه وقد جئتك مستجيرًا بك من عمرو بن عدي فإنه اتهمني بخاله وبمشورتني عليه بالمسير إليك، فجذع أنفي وأخذ مالي، وحال بيني وبين عيالي وتهددني بالقتل، وإني خشيت على نفسي، فهربت منه إليك، أنا مستجير بك ومستند إلى كهف عرك، فقالت: أهلاً وسهلاً، لك حق الجوار وذمة المستجير وأمرت به فأنزل وأجرت له الإنزال ووصلته وكسته وأخدمته وزادت في إكرامه، وأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه وهو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها، وكانت ممتنعة بقصر مشيد على باب النفق تعتمصم به فلا يقدر أحد عليها، فقال لها قصير يوماً: إن لي بالعراق مالاً كثيراً وذخائر نفيسة مما يصلح للملوك، وإن أذنت لي في الخروج إلى العراق وأعطيني شيئاً أتعلل به في التجارة وأجعله سبباً للوصول إلى ما لي أتيك بما قدرت عليه من ذلك، فأذنت له وأعطته مالاً، فقدم العراق وبلاد كسرى، فأطرفها من طرائفه وزادها مالاً إلى مالها كثيراً وقدم عليها، فأعجبها ذلك وسرها وترتب له عندها منزلة، وعاد إلى العراق ثانية فقدم بأكثر من ذلك ظرفاً من الجواهر والبز والخز والديباج، فازداد مكانه منها وازدادت منزلته عندها ورغبتها فيه، ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفق الذي تحت الفرات والطريق إليه، ثم خرج ثالثة فقدم بأكثر من الأولتين ظرائف ولطائف، فبلغ مكانه منها وموضعه عندها إلى أن كانت تستعين به في مهماتها وملماتها، واسترسلت إليه وعولت في أمورها عليه، وكان قصير رجلاً حسن العقل والوجه حصيفاً لبيباً أدبياً، فقالت له يوماً: أريد أن أغزو البلد الفلاني من أرض الشام، فاخرج إلى العراق فأتني بكذا وكذا من السلاح والكرع والعييد والشياب،

فقال قصير: ولي في بلاد عمرو بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح والكرع والعبيد والثياب وفيها كذا وكذا، وما يعلم عمرو بها، ولو علمها لأخذها واستعان بها على حربك، وكنت أتربص به المنون، وأنا أخرج متنكراً من حيث لا يعلم، فأتيتك بها مع الذي سألت، فأعطته من المال ما أراد. وقالت: يا قصير، الملك يحسن لمثلك وعلى يد مثلك يصلح أمره.

ولقد بلغني أن أمر جذيمة كان إيراده وإصداره إليك وما تقصر يدك عن شيء تناله يدي، ولا يقعد بك حال ينهض بي، فسمع بها رجل من خاصة قومها فقال: أسد خادر، وليث نائر قد تحفز للوثبة. ولما رأى قصير مكانه منها وتمكنه من قلبها قال: الآن طاب المصاع وخرج من عندها، فأتى عمرو بن عدي، فقال: قد أصبت الفرصة من الزباء، فانهض فعجل الوثبة، فقال له عمرو: قل أسمع، ومُرْ أفعل، فأنت طيب هذه القرحة، فقال: الرجال والأموال. قال: حكمتك فيما عندنا مسلط، فعمد إلى ألفي رجل من فتیان قومه وصناديد أهل مملكته، فحملهم على ألف بعير في الغرائر السود، وألبسهم السلاح والسيوف والجحف، وأنزلهم في الغرائر، وجعل رؤوس المسوح من أسفاتها مربوطة من داخل، وكان عمرو فيهم، وساق الخيل والعبيد والكرع والسلاح والإبل محملة، فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير ولما قرب من المدينة حمل الرجال في الغرائر متسلحين بالسيوف والجحف، وقال: إذا توسطت الإبل المدينة، فالإمارة بيننا كذا وكذا فاخترطوا الربط. فلما قربت العير من مدينة الزباء في قصرها، فرأت الإبل تتهادى بأحمالها، فارتابت بها، وقد كان وُشي بقصير إليها وحذرت منه، فقالت للواشي به إليها: إن قصيراً اليوم منا، وهو ريب هذه النعمة وصنيعة هذه الدولة، وإنما يبعثكم على ذلك الحسد ليس فيكم مثله، فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به إليها فقالت:

ما لِلْجَمَالِ مَشِيهَا وَثِيْدًا^(١) أَجْنَدَلًا يَحْمِلُنَ أَوْ حَدِيدًا

أَمْ صَرْفَانًا بَارِدًا شَدِيدًا أَمْ الرِّجَالُ فِي الْمُسُوحِ سُودًا

ثم أقبلت على جواربها، فقالت: أرى الموت الأحمر في الغرائر السود فذهبت مثلاً، حتى إذا توسطت الإبل المدينة وتكاملت ألقوا إليهم

(١) وثيْدًا: على مهل. أي أن الجمال تتمايل في مشيها من ثقل حملتها.

الأمارة^(١) فاخترطوا رؤوس الغرائر، فسقط إلى الأرض ألفا ذراع بألفي باتر^(٢) طالب نأر القتيل غدراً، وخرجت الزباء تمصع^(٣) تريد النفق، فسبقها إليه قصير، فحال بينها وبينه، فلما رأت أن قد أحيط بها ومِلكت، التقت خاتماً في يدها تحت فِصه سم ساعة، وقالت: بيدي لا بيدك يا عمرو، فأدركها عمرو وقصير، فضرباها بالسيف حتى هلكت وملكا مملكتها، واحتويا على نعمتها، وخط قصير على جذيمة قبراً، وكتب على قبره هذه الأبيات يقول:

مَلِكٌ تَمَتَّعَ بِالْعَسَاكِرِ وَالْقَنَا وَالْمَشْرِفِيَّةَ عَزَّهَ مَا يَوْصَفُ
فَسَعَتْ مَنِيَّتَهُ إِلَى أَعْدَائِهِ وَهُوَ الْمَتَوَجُّعُ وَالْحُسَامُ الْمَرْهَفُ

حيلة شمر ذي الجناح^(٤)

قيل إن ملكاً كان يقال له شمر ذو الجناح سار إلى سمرقند، فحاصرها، فلم يظفر منها بشيء، فطاف حولها بالحرس، فأخذ رجلاً من أهلها، فاستمال قلبه وسأله عن المدينة، فقال: أما ملكها فأحمق الناس ليس له هم إلا الشراب والأكل والجماع، ولكن له بنت هي التي تقضي أمر الناس، فبعث منه هدية إليها، وقال: أخبرها إنني لم أجد لالتماس المال، فإن معي من المال أربعة آلاف تابوت ذهباً وفضة، وأنا دافعها إليها وأمضي إلى الصين، فإن كانت لي الأرض كانت امرأتي، وإن هلكت كان المال لها، فلما بلغت رسالته قالت: قد أجبته فليبعث بالمال، فأرسل إليها أربعة آلاف تابوت في كل تابوت فارس، وجعل شمر العلامة بينه وبينهم أن يضرب بالجلجل، فلما صاروا في المدينة ضرب بالجلجل، فخرجوا، فأخذوا الأبواب، ونهض شمر في الناس، فدخل المدينة، فقتل أهلها وحوى ما فيها، ثم سار إلى الصين.

حيلة كسرى^(٤)

قد كان كسرى من الذكاء على غاية، فروينا عنه أنه نم إليه رجل بصديق له فكتب كسرى للنام قد اخترنا نصحك وذمنا صاحبك لسوء اختباره الإخوان.

(١) الأمارة: العلامة، أو الإشارة التي كانت بين قصير وجنوده.

(٢) باتر: أي السيف القاطع.

(٣) تمصع من الشيء؛ أراد الهروب منه.

(٤) كتاب الأذكياء ص ١٥٢.

قال منجمو كسرى: إنك تقتل، فقال: لأقتلن من يقتلني، فأمر بسم فخلط في أدوية، ثم كتب عليه دواء الجماع مجرب من أخذ منه وزن كذا جامع كذا وكذا مرة، فلما قتله ابنه شيرويه وفتش خزائنه مرّ به، فقال في نفسه هذا الدواء الذي كان يقوى به على السراري، فأخذ منه. فقتله وهو ميت.

إن شيرويه لما أراد قتل أبيه بعث إليه من يقتله، فلما دخل عليه قال: إني أدلك على شيء لوجوب حَقك يكون فيه غناك. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني، فذهب الرجل إلى شيرويه، فأخبره الخبر، فأخرج الصندوق وفيه حق فيه حب، وثمّ مكتوب من أخذ منه واحدة افتضّ عشرة أكار، فطمع شيرويه في صحة ذلك، فأخذه وعوض الرجل منه، ثم أخذ منه حبة، فكان هلاكه، وكان كسرى أول ميت أخذ بثأره من حي.

جـيـل متفرقة^(١)

هزم بعض الملوك، فنشر لطالبيه زجاجًا ملوّنًا شبيهاً بالجواهر الأحمر والأخضر، ودنانير صفراء مطليّة بالذهب، فتشاغل طالبوه بلقطها، فنجا.

علم بعض الملوك بعسكر يطلبه، فأخذ شعيرًا فطبخه بالماء مع قصبان الدفلي، ثم جففه ثم جربه في دابة، فلما أكلته نفقت من يومها، فخرج هو وعسكره ناحية ونثر الشعير والميرة، فلما سار القوم إليه ترك ما في معسكره وتختّى، فجاؤوا فأطلقوا دوابهم في الشعير، فهلكت كلها.

حارب قوم ومعهم فيلة، فقهرها عدوهم، فأشار على العدو رجل أن يحملوا خنزيرًا وأن يضربوه، فلما سمعت الفيلة صوته هربت.

جاء رجل معه هر تحت حضنه ومشى بسيفه إلى الفيل، فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه، فأدبر الفيل هاربًا، وتساقت من كان فوقه فكبر المسلمون وكان سبب الهزيمة.

قيل لأسلم بن زراعة: إن انهزمت من أصحاب مرداس بن أدية يغضب عليك الأمير عبيد الله بن زياد، قال: يغضب علي وأنا حي أحب من أن يرضى عني وأنا ميت.

(١) كتاب الأذكىء ص ١٥٣.

خرج أمير ومعه رجل فيه ذكاء، فبينما هم على الغداء قال للأمير: اركب فقد لحقنا العدو. قال: كيف وما يرى أحد؟ قال: اركب عاجلاً، فإن الأمر أسرع مما تحسب، فركب وركب الناس، فلاحت الغبرة وطلع عليهم سرعان الخيل، فعجب الأمير، وقال: كيف علمت؟ قال: أما رأيت الوحش مقبلة علينا، ومن شأن الوحوش الهرب منا، فعلمت أنها لم تدع عاداتها إلا لأمر قد دهمها. والله الموفق.

اللصّ الفقيه^(١)

قال يموت بن المزرع، عن المبرد: حدّثني أحمد بن المعدل البصري قال: كنت جالساً عند عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، فجاءه بعض جلسائه، فقال: أعجوبة. قال: ما هي؟ قال: خرجت إلى حائطي بالغبابة، فلما أن أصحرت وبعدت عن البيوت بيوت المدينة تعرض لي رجل، فقال: اخلع ثيابك. فقلت: وما يدعوني إلى خلع ثيابي؟ قال: أنا أولى بها منك. قلت: ومن أين؟ قال: لأنني أخوك وأنا عريان وأنت مكس. قلت: فالمواساة؟ قال: كلا قد لبستها برهة، وأنا أريد أن ألبسها كما لبستها. قلت: فتعريني وتبدي عورتني. قال: لا بأس بذلك قد روينا عن مالك أنه قال: لا بأس للرجل أن يغتسل عرياناً. قلت: فيلقاني الناس فيرون عورتني؟ قال: لو كان الناس يرونك في هذه الطريق ما عرضت لك فيها، فقلت: أراك ظريفاً، فدعني حتى أمضي إلى حائطي وأنزع هذه الثياب، فأوجه بها إليك. قال: كلا أردت أن توجه إليّ أربعة من عبيدك، فيحملوني إلى السلطان، فيحبسني، ويمزق جلدي، وي طرح في رجليّ القيد، قلت: كلا. أحلف لك إيماناً أني أوفي لك بما وعدتك ولا أسوءك. قال: كلا إنا روينا عن مالك أنه قال: لا تلزم الإيمان التي يحلف بها اللصوص. قلت: فأحلف إنني لا أحتال في إيماني هذه. قال: هذه يمين مركبة على اللصوص. قلت: فدع المناظرة بيننا، فوالله لأوجهن إليك هذه الثياب طيبة بها نفسي، فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: تدري فيم فكرت؟ قلت: لا، قال: تصفحت أمر اللصوص من عهد رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا، فلم أجد لصاً أخذ تسثمه، وأكره أن أبتدع في الإسلام بدعة يكون علي

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٦.

وزرها ووزر من عمل بها بعدي إلى يوم القيامة. اخلع ثيابك. قال: فخلعتها ودفعتها إليه، فأخذها وانصرف.

حيلة لص (١)

علي بن الحسن التنوخي، عن أبيه أن أبا القاسم عبيد الله بن محمد الخفاف حدثه أنه شاهد لصاً قد أخذ، وأشهد عليه أنه كان يفتش الأقفال في الدور اللطاف التي لجيراننا، فإذا دخل حفر في الدار حفرة لطيفة، كأنها بئر النرد، وطرح فيها جوزات، كأن إنساناً يلاعبه، وأخرج منديلاً فيه نحو مائتي جوزة، فتركه إلى جانبها، ثم حار، فكور كل ما في الدار مما يطبق حمله، فإن لم يفتن به أحد خرج من الدار، وحمل ذلك كله، وإن جاء صاحب الدار ترك عليه قماشه، وطلب المفالطة والخروج، وإن كان صاحب الدار جلدًا فوائبه ومانعه وهم بأخذه وصاح اللصوص، واجتمع الجيران أقبل عليه وقال: ما أبردك أنا أقامرك بالجور منك شهرور قد أفقرتني، وأخذت مني كل ما أملكه وأهلكتني لأفضحك بين جيرانك لما قامرتك الآن تصيح فما يشك أحد في قوله وأنت تدعي علي باللصوصية بلعب بارد بيني وبينك دار القمار التي تعارفنا فيها قد صنعت هذا حتى أخرج وأدع عليك قماشك، وكلما قال الرجل: هذا لص. قال الجيران: إنما يريد أن لا يفضح نفسه بالقمار، فقد ادعى عليه اللصوصية ولا يشكون في أنه صادق، وأن صاحب الدار مقامر، فيلعنوه ويحولون بينه وبين اللص حتى ينصرف ويأخذ الجوز ويفتح الباب وينصرف، ويفتضح الرجل بين جيرانه.

الجنيذ واللص (١)

قال محمد بن عمر المتكلم ويلقب جنيد: حدثني رجل من الدقاقين قال: أورد علي رجل غريب سفتجة بأجل، فكان يتردد علي إلى أن حلت السفتجة، ثم قال لي: أدعها عندك آخذها متفرقة، فكان يجيء كل يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نفذت، فصارت بيننا معرفة، وألف الجلوس عندي، وكان يراني أخرج من صندوق لي، فأعطيته منه فقال لي يوماً: إن قفل الرجل صاحبه في سفره وأمينه في حضره وخليفته على حفظ ماله، والذي ينفي الظنة عن أهله وعياله، وإن لم يكن وثيقاً تطرقت الحيل إليه وأرى قفلك هذا وثيقاً، فقل لي: ممن ابتعته لأبتاع مثله

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٧.

لنفسى، فقلت: من فلان الأقفالي. قال فما شعرت يوماً وقد جئت إلى دكاني، فطلبت صندوقى لأخرج منه شيئاً من الدراهم، فحمل إليّ ففتحه، وإذا ليس فيه شيء من الدراهم، وقلت لغلّامى، وكان غير متهم عندي: هل انكسر من الدراب شيء؟ قال: لا. قلت: ففتش هل ترى في الدكان نقباً؟ ففتش، فقال: لا، فقلت: فمن السقف حيلة؟ قال: لا، قلت: فاعلم أن دراهمى قد ذهبت، فقلق الغلام فسكته وأقمت من نومي لا أدري أي شيء أعمل، وتأخر الرجل عني، فاتهمته وتذكرت مسألته لي عن القفل، فقلت للغلام: أخبرني كيف تفتح دكاني وتقفله. قال: أحمل الدراب من المسجد دفعتين ثلاثة، فأقفلها ثم هكذا أفتحها. قلت: فعلى من تخلي الدكان إذا حملت الدراب؟ قال: خالياً. قلت: من ههنا ذهبت، فذهبت إلى الصانع الذي ابتعت منه القفل، فقلت له: جاءك إنسان منذ أيام اشتري منك مثل هذا القفل؟ قال: نعم ورجل من صفته كيت وكيت فأعطاني صفة صاحبي، فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء لما انصرفت أنا وبقي الغلام يحمل الدراب، فدخل هو إلى الدكان فاختبأ فيه ومعه مفتاح القفل الذي اشتراه يقع على قفلي، وأنه أخذ الدراهم وجلس طول الليل خلف الدراب، فلما جاء الغلام ففتح داربين وحملها ليرفعها خرج، وأنه ما فعل ذلك إلا وقد خرج من بغداد، قال: فخرجت ومعى قفلي ومفتاحه، فقلت: ابتدء بطلب الرجل بواسطة، فلما صعدت من السميرية طلبت خائناً أنزله، فصعدت. فإذا بقفل مثل قفلي سواء على بيت، فقلت لقيم الخان: هذا البيت من ينزله؟ قال: رجل قدم من البصرة أمس. قلت: ما صفته فوصف صفة صاحبي، فلم أشك أنه هو وإن الدراهم في بيته، فاكتريت بيتاً إلى جانبه ورصدت حتى انصرف قيم الخان، ففتحت القفل، ودخلت، فوجدت كيسى بعيد، فأخذته وخرجت، وأقفلت الباب ونزلت في الوقت، وانحدرت إلى البصرة، وما أقمت بواسطة إلا ساعتين من النهار، ورجعت إلى منزلي بمالي بعينه.

ردوا عليّ فوطي (١)

قال علي بن الحسن، عن أبيه: حدّثني عبد الله بن محمد الصروي، حدّثني ابن الدنانير النمار، حدّثني غلام لي قال: كنت ناقداً بالأبلة لرجل تاجر، فاقتضيت

(١) كتاب الأذكياء ص ١٦٨.

له من البصرة نحو خمسمائة دينار وورقًا ولففتها في فوطة، وأمسيت عن المسير إلى الأبله، فما زلت أطلب ملاحًا، فلا أجد إن رأيت ملاحًا مجتازًا في خيطية خفيفة فارغة، فسألته أن يحملني، فخفف علي الأجرة وقال: أنا أرجع إلى منزلي بالأبله، فانزل فنزلت، وجعلت الفوطة بين يدي وسرنا، فإذا رجل ضرير على الشط يقرأ أحسن قراءة تكون، فلما رآه الملاح كبر فصاح هو بالملاح، احملني، فقد جنني الليل، وأخاف على نفسي، فستمه الملاح، فقلت له: احمله فدخل إلى الشط فحملة، فرجع إلى قراءته، فخلب عقلي بطبيها، فلما قربنا من الأبله قطع القراءة، وقام ليخرج في بعض المشارع بالأبله، فلم أر الفوطة، فاضطربت وصحت واستغاث الملاح، وقال: الساعة تنقلب الخيطية، وخاطبني خطاب من لا يعلم حالي، فقلت: يا هذا، كانت بين يدي فوطة فيها خمسمائة دينار، فلما سمع الملاح ذلك لطم وبكى وتعزى من ثيابه وقال: لم أدخل الشط ولا لي موضع أخبأ فيه شيئًا فتهمني بسرقة ولي أطفال وأنا ضعيف، فالله الله في أمري، وفعل الضرير مثل ذلك وفتشت السميرية فلم أجد فيها شيئًا، فرحمتها وقلت: هذه محنة لا أدري كيف التخلّص منها، وخرجنا، فعملت على الهرب وأخذ كل واحد منا طريقًا، وبت في بيت ولم أمضِ إلى صاحبي، فلما أصبحت عملت على الرجوع إلى البصرة لأستخفي بها أيامًا، ثم أخرج إلى بلد شاسع، فانحدرت وخرجت في مشرعة بالبصرة، وأنا أمشي وأتعثر وأبكي قلقًا على فراق أهلي وولدي، وذهاب معيشتي وجاهي، فاعترضني رجل، فقال: ما لك؟ فأخبرته. فقال: أنا أرد عليك مالك. فقلت: يا هذا أنا في شغل عن طنزك بي. قال: ما أقول إلا حقًا أمضِ إلى السجن ببني نمير، واشتر معك خبزًا كثيرًا وشواءً جيدًا وحلوا، وسل السجن أن يوصلك إلى رجل محبوس هناك يقال له: أبو بكر النقاش قل له أنا زائر، فإنك لا تمنع، فإن منعت فهب للسجان شيئًا يسيرًا يدخلك إليه، فإذا رأته فسلم عليه ولا تخاطبه حتى تجعل بين يديه ما معك، فإذا أكل وغسل يديه، فإنه يسألك عن حاجتك، فأخبره خبرك، فإنه سيدلك على من أخذ مالك ويرتجعه لك، ففعلت ذلك ووصلت إلى الرجل، فإذا شيخ مكبل بالحديد، فسلمت وطرحته ما معي بين يديه، فدعا رفاقه له، فأكلوا فلما غسل يديه قال: ما أنت وما حاجتك؟ فشرحت له قصتي، فقال: امضِ الساعة إلى بني هلال، فادخل الدرب الفلاني حتى تنتهي إلى آخره، فإنك تشاهد بابًا شعثًا، فافتحه وادخله بلا استئذان، فتجد دهليزًا طويلًا يؤدي إلى بابين، فادخل الأيمن منهما فسيدخلك إلى دار فيها بيت فيه أوتاد

وبواري، وكل وتد إزار ومئزر، فانزع ثيابك وألقها على الودد واتنزر بالمئزر واتشح بالإزار واجلس، فسيجيء قوم يفعلون كما فعلت، ثم يؤتون بطعام فكل معهم، وتعمد موافقتهم في سائر أفعالهم، فإذا أتى بالبيذ فاشرب، وخذ قدحًا كبيرًا واملاه وقم قائمًا وقل: هذا ساري لخالي أبي بكر النقاش، فسيفرحون ويقولون: أهو خالك؟ فقل: نعم، فيسقومون ويشربون لي، فإذا جلسوا فقل لهم: خالي يقرأ عليكم السلام ويقول: يا فتيان بحياتي ردوا على ابن أختي المئزر الذي أخذتموه بالأمس في السفينة بنهر الأبله، فإنهم يردونه عليك، فخرجت من عنده ففعلت ما أمر، فردت الفوطة بعينها وما حل شدها، فلما حصلت لي قلت يا فتيان: هذا الذي فعلتموه معي هو قضاء لحق خالي، ولي أنا حاجة تخصني قالوا: مقضية. قلت: عرفوني كيف أخذتم الفوطة، فامتنعوا ساعة، فأقسمت عليهم بحياة أبي بكر النقاش، فقال لي واحد منهم: أتعرفني؟ فتأملته جدًّا فإذا هو الضرير الذي كان يقرأ، وإنما كان متعميًا، وأومأ ألى آخر فقال: أتعرف هذا؟ فتأملته فإذا هو الملاح، فقلت: كيف فعلتما؟ فقال الملاح: أنا أدور المزارع في أول أوقات المساء، وقد سبقت بهذا المتعمي، فأجلسته حيث رأيت، فإذا رأيت من معه شيء له قدر ناديته، وأرخصت له الأجرة وحملته، فإذا بلغت إلى القاري وصاح بي شتمته حتى لا يشك الراكب في براءة الساحة، فإن حمله الراكب فذاك والآخر رققته عليه حتى يحمله، فإذا حمله وجلس يقرأ ذهل الرجل كما ذهلت، فإذا بلغنا الموضع الفلاني، فإن فيه رجلًا متوقعًا لنا يسبح حتى يلاصق السفينة، وعلى رأسه قوصرة فلا يفتن الراكب به، فيسلب هذا المتعمي الشيء بخفية، فيليه إلى الرجل الذي عليه القوصرة، فيأخذه ويسبح إلى الشط، وإذا أراد الراكب الصعود وافتقد ما معه عملنا كما رأيت، فلا يتهمنا ونفترق، فإذا كان من غد اجتمعنا واقتسمناه، فلما جئت برسالة أستاذنا خالك سلمنا إليك الفوطة قال: فأخذتها ورجعت.

لصّ تائب^(١)

قال لصّ تائب: دخلت مدينة، فجعلت أطلب شيئًا أسرقه، فوقع عيني على صيرفي موسر، فما زلت أحتال حتى سرقت كيسًا له، وانسللت فما جزت

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٠.

غير بعيد إذا أنا بعجوز معها كلب قد وقعت في صدري تبوسني وتلزميني وتقول: يا بني، فديتك والكلب يبصبص ويلوذ بي، ووقف الناس ينظرون إلينا، وجعلت المرأة تقول: بالله انظروا إلى الكلب قد عرفه، فعجب الناس من ذلك وتشككت أنا في نفسي وقلت: لعلها أرضعتني، وأنا لا أعرفها. وقالت: معي إلى البيت أقم عندي اليوم، فلم تفارقني حتى مضيت معها إلى بيتها، وإذا عندها أحداث يشربون وبين أيديهم من جميع الفواكه والرياحين، فرحبوا بي وقربوني، وأجلسوني معهم، ورأيت لهم بزة حسنة، فوضعت عيني عليها، فجعلت أسقيهم وأرفق بنفسي إلى أن ناموا ونام كل من في الدار، فقممت وكورت ما عندهم وذهبت أخرج، فوثب عليّ الكلب وثبة الأسد وصاح، وجعل يتراجع ويفج إلى أن انتبه كل نائم، فخجلت واستحييت، فلما كان النهار فعلوا مثل فعلهم أمس وفعلت أيضًا أنا بهم مثل ذلك، وجعلت أوقع الحيلة في أمر الكلب إلى الليل، فما أمكنتني فيه حيلة، فلما ناموا رمت الذي رمته، فإذا الكلب عارضني بمثل ما عارضني به، فجعلت أحتال ثلاث ليال، فلما أيست طلبت الخلاص منهم بإذنهم، فقلت: أتأذنون لي فإني على وفز فقالوا: الأمر إلى العجوز فاستأذنتها فقالت: هات الذي أخذته من الصيرفي وامض حيث شئت ولا تقوم في هذه المدينة، فإنه لا يتهياً لأحد فيها معي عمل، فأخذت الكيس وأخرجتني ووجدت مناي أن أسلم من يدها، وكان قصراي أن أطلب منها نفقة، فدفعت إليّ وخرجت معي حتى أخرجتني عن المدينة والكلب معها حتى جرت حدود المدينة ووقفت ومضيت والكلب يتبعني حتى بعدت، ثم تراجع ينظر إليّ ويلتفت وأنا أنظر إليه حتى غاب عني.

حمار بسمك^(١)

قال سهل الخلاطي: بلغني أن محتالين سرقا حمارًا ومضى أحدهما لبيعه، فلقيه رجل معه طبق فيه سمك، فقال له: تباع هذا الحمار؟ قال: نعم، قال: امسك هذا الطبق حتى أركبه، وانظر إليه، فدفع إليه الطبق فيه السمك، فركبه ورجع ثم ركبته ودخل زقاقًا ففرّ به. فلم يدر أين ذهب، قال: فرجع المحتال فلقيه رفيقه، فقال: ما فعل الحمار؟ قال: بعناه بما اشتريناه وربحنا هذا الطبق من السمك.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧١.

(١) لَصٌّ يَسْرِقُ لَصًّا

كان ببغداد رجل يطلب التلصص في حديثه، ثم تاب فصار بزأراً. قال: فانصرف ليلة من دكانه وقد غلقه، فجاء لَصٌّ محتال متزي بزّي صاحب الدكان في كفه شمعة صغيرة ومفاتيح، فصاح بالحارس، فأعطاه الشمعة في الظلمة، وقال: إشعلها وجثني بها، فإن لي الليلة بدكاني شغلاً فمضى الحارس يشعل الشمعة وركب اللص على الأقفال، ففتحها ودخل الدكان، وجاء الحارس بالشمعة، فأخذها من يده، فجعلها بين يديه، وفتح سفظ الحساب، وأخرج ما فيه وجعل ينظر الدفاتر ويرى بيده أنه بحسب الحارس يتردد ويظالعه، ولا يشك في أنه صاحب الدكان إلى أن قارب السحر، فاستدعى اللص الحارس، وكلمه من بعيد، وقال: اطلب لي حمالاً، فجاء بحمال، فحمل عليه أربع رزم مثمثة، وقفل الدكان وانصرف معه الحمال وأعطى الحارس درهمين، فلما أصبح الناس جاء صاحب الدكان ليفتح دكانه، فقام إليه الحارس يدعو له ويقول: فعل الله بك وصنع كما أعطيتني البارحة الدرهمين، فأنكر الرجل ما سمعه وفتح دكانه، فوجد سيلان الشمعة وحسابه مطروحاً وفقد الأربع رزم، فاستدعى الحارس، وقال له: من كان حمل الرزم معي من دكاني قال: أما استدعيت مني حمالاً فجئتك به؟ قال: بلى، ولكن كنت ناعساً وأريد الحمال، فجثني به، فمضى الحارس فجاء بالحمال وأغلق الرجل الدكان وأخذ الحمال معه ومضى، فقال له: إلى أين حملت الرزم معي البارحة، فإنني كنت منقّبداً. قال: إلى المشرعة الفلانية، واستدعيت لك فلاناً الملاح، فركبت معه، فقصد الرجل المشرعة، وسأل عن الملاح، فحضر وركب معه، وقال: أين رقيت أخي الذي كان معه الأربع الرزم، قال: إلى المشرعة الفلانية. قال: اطرحني إليها فطرحه، قال: مَنْ حملها معه؟ قال: فلان الحمال، فدعا به، فقال له: امش بين يدي فمشى، فأعطاه شيئاً واستدله برفق إلى الموضع الذي حمل إليه الرزم، فجاء به إلى باب غرفة في موضع بعيد من الشط قريب من الصحراء، فوجد الباب مقفلاً، فاستوقف الحمال وفش القفل ودخل، فوجد الرزم بحالها، وإذا في البيت بركان معلق على حبل، فلف الرزم فيه ودعا بالحمال، فحملها عليه وقصد المشرعة، فحين خرج من الغرفة استقبله اللص، فرآه وما معه، فأبلس فاتبعه إلى الشط، فجاء إلى المشرعة ودعا الملاح ليعبر، فطلب الحمال مَنْ

يحط عنه، فجاء اللص فحطَّ الكساء كأنه مجتاز متطوع، فأدخل الرزم إلى السفينة مع صاحبها، وجعل البركان على كتفه وقال له: يا أخي، استودعك الله قد ارتجعت رزمك، فذع كسائي فضحك. وقال: انزل فلا خوف عليك، فنزل معه واستتابه ووهب له شيئاً وصرفه ولم يسيء إليه.

(١) أكل معهم وسرقهم

عن أبي القاسم التنوخي، عن أبيه: أن رجلاً من بني عقيل مضى ليسرق دابة. قال: فدخلت الحي، فما زلت أتعرف مكان الدابة فاحتلت حتى دخلت البيت، فجلس الرجل وامرأته يأكلان في الظلمة، فأهويت بيدي إلى القصعة وكنت جائعاً، فأنكر الرجل يدي وقبض عليها، فقبضت على يد المرأة بيدي الأخرى، فقالت المرأة: مالك ويدي؟ فظن أنه قابض على يد امرأته فخلى يدي، فخليت يد المرأة، وأكلنا، ثم أنكرت المرأة يدي فقبضت عليها، فقبضت على يد الرجل، فقال لها: ما لك ويدي، فخلت عن يدي، فخليت عن يده، ثم نام وقمت، فأخذت الفرس.

وقد رويت هذه الحكاية على صفة أخرى: فأنبأنا محمد بن أبي طاهر، أنبأنا التنوخي، عن أبيه، حدَّثنا أبو الحسن محمد بن أحمد الكاتب، حدَّثني محمد بن يزعم العقيلي أحد قوادهم ووجههم في الحي، وكان ورد إلى معز الدولة، فأكرمه وأحسن إليه. قال: رأيت رجلاً من بني عقيل وظهره كله مشرطات الحجام، إلا أنها أكبر، فسألته عن ذلك، فقال إني كنت هويت ابنة عم لي، فخطبتها فقالوا: لا تزوجك إلا أن تجعل في الصداق «الشبكة»^(٢) فرس سابقة كانت لبعض بني أبي بكر، فتزوجتها على ذلك وخرجت في أن احتال أن أسل الفرس من صاحبه لأنمكن من الدخول بابنة عمي، فأتيت الحي الذي فيه الفرس وما زلت أداخلهم، فمرة أجيء إلى الخباء الذي فيه الرجل كأني سائل إلى أن عرفت بيت الفرس من الخباء الذي فيه الرجل وأخبئت حتى دخلت من خلفه، وحصلت خلف النضد نحت، وكانوا نقشوه ليغزل، فلما جاء الليل وافى صاحب البيت، وقد زاوت له المرأة عشاء وجلسا يأكلان، وقد استحكمت الظلمة ولا مصبح لهم، وكنت جائعاً فأخرجت يدي وأهويت إلى

(٢) الشبكة: اسم الفرس.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٢.

القصة^(١)، فأكلت معهما وأحس الرجل بيدي فأنكرها، فقبض عليها فقبضت على يد المرأة، فقالت له المرأة: ما لك ويدي؟ فظن أنه قابض على يد امرأته فخلى يدي فخلت يد المرأة، وأكلنا ثم أنكرت المرأة يدي فقبضت عليها فقبضت على يد الرجل، فقال لها: ما لك ويدي؟ فخلت عن يدي فخلت عن يده، وانقضى الطعام واستلقى الرجل نائماً، فلما استثقل وأنا مراصدهم والفرس مقيدة في جانب البيت والمفتاح تحت رأس المرأة، فوافى عبد له أسود فنبذ حصاة، فانتبهت المرأة، فقامت إليه وتركت المفتاح مكانه، وخرجت من الخباء إلى ظاهر البيت، فإذا هو قد علاها، فأخذت أنا المفتاح ففتحت القفل، وكان معي لجام شعر، فأجزته الفرس وركبتها، وخرجت عليها من الخباء، فقامت المرأة من تحت العبد، ودخلت الخباء وصاحت وذعر، الحي فأحسوا بي وركبوا في طلبي وأنا أكد الفرس وخلفي خلق منهم، فأصبحت وليس ورائي إلا فارس واحد برمح، فلحقني وقد طلعت الشمس، وأخذ يطعنني، فهذه آثار طعناته في جسدي لا فرسه يلحقه بي حتى يتمكن من طعنته إياي ولا فرسي ينجيني إلى حيث لا يمسنني الرمح حتى وافينا إلى نهر عظيم، فصحت بالفرس، فوثبه وصاح الفارس بالتي تحته، فقصرت ولم تثب، فلما رأته عاجزاً عن العبور وقفت لأريح الفرس وأستريح، فصاح بي، فأقبلت عليه بوجهي، فقال: يا هذا أنا صاحب الفرس التي تحتك، وهذه ابنتها. وإذا قد ملكتها، فلا تخدعن فيها، فإنها تساوي عشر ديات، وما طلبت عليها شيئاً قط إلا لحقته، ولا طلبني عليها أحداً إلا فته، وإنما سميت الشبكة لأنها لم ترد شيئاً إلا أدركته، فكانت كالشبكة في صيدها، فقلت له: إذ نصحتني، فوالله لأنصحك. كان من صورتي البارحة كيت وكيت، فقصصت عليه قصة امرأته والعبد وحيثي في الفرس، فأطرق ثم رفع رأسه، فقال ما لك لا جزاك الله من طارق خير طلقت زوجتي وأخذت فرسي وقتلت عبيدي.

(٢) سرق وهو في السجن

قال أبو القاسم التنوخي، عن أبيه: حدّثني أبو الحسين عبد الله بن محمد البصري، حدّثني أبي قال: كان بالبصرة رجل من اللصوص يلص بالليل، فاره جداً مقدام. يقال له عباس بن الخياطة قد غلب الأمراء وأشجى أهل البلد، فلم يزالوا

(١) القصة: وعاء يوضع فيه المرق من الطعام. (٢) كتاب الأذكياء ص ١٧٤.

يحتالون عليه إلى أن وقع وكبّل بمائة رطل حديد وحبس، فلما كان بعد سنة من حبسه أو أكثر دخل قوم بالأبلة على رجل تاجر كان عنده جوهر بعشرات ألوف الدنانير، وكان مستيقظًا جلدًا، فجاء إلى البصرة يتظلم وأعانه خلق من التجار وقال للأمير: أنت دست على جوهرى وما خصمى سواك، فورد عليه أمر عظيم وخلا بالبوايين وتوعدهم، فاستظروه فأنظروهم، وطلبوا واجتهدوا، فما عرفوا فاعل ذلك، فعنفهم الرجل فاستجابوا مدة أخرى، فجاء أحد البوايين إلى الحبس، فتخادم لابن الخياطة ولزمه نحو شهر، وتذلل له في الحبس فقال له: قد وجب حَقك عليّ. فما حاجتك؟ قال: جوهر فلان المأخوذ بالأبلة لا بد أن يكون عندك منه خبر، فإن دماءنا مرتهنة به، وحَدثه الحديث، فرفع ذيله، وإذا سقط الجوهر تحته، فسَلَّمه إليه وقال: قد وهبته لك، فاستعظم ذلك وجاء بالسفط إلى الأمير، فسأله عن القصة، فأخبره بها. فقال: عليّ بعباس. فجاؤوا به، فأمر بالإفراج عنه وإزالة قيوده وإدخاله الحمام وخلع عليه وأجلسه في مجلسه مكرمًا واستدعى الطعام، فواكله وبيته عنده، فلما كان من الغد خلا به، وقال: أنا أعلم أنك لو ضريت مائة ألف سوط ما أقررت كيف كانت صورة أخذ الجوهر، وقد عاملتك بالجميل ليجب حقي عليك من طريق الفتوة، وأريد أن تصدقني حديث هذا الجوهر. قال علي: إنني ومن عاونني عليه آمنون، وإنك لا تطالبنا بالذين أخذوه؟ قال: نعم، فاستحلفه. فقال له: إن جماعة اللصوص جاؤوني الحبس، وذكروا حال هذا الجوهر، وإن دار هذا التاجر لا يجوز أن يتطرق عليها نقب ولا تسليق، وعليها باب حديد، والرجل متيقظ وقد راعوه سنة، فما أمكنهم وسألوني، فساعدتهم، فدفعت إلى السجنان مائة دينار وحلفت له بالشطارة والإيمان الغليظة، أنه إن أطلقني عدت إليه من غد، وأنه إن لم يفعل ذلك اغتلته، فقتلته في الحبس، فأطلقني فنزعنا الحديد وتركته وخرجت المغرب، فوصلنا إلى الأبلة العتمة، وخرجنا إلى دار الرجل، فإذا هو في المسجد وبابه مغلق، فقلت لأحدهم: تصدق من الباب، فتصدق، فلما جاؤوا ليفتحوا قلت له: اختفي ففعل ذلك مرات، والجارية تخرج، فإذا لم تر أحدًا عادت إلى أن خرجت من الباب، ومشت خطوات تطلب السائل، فتشاغلت بدفع الصدقة إليه، فدخلت أنا إلى الدار، فإذا في الدهليز بيت فيه حمار، فدخلته. ووقفت تحت الحمار وطرحت الجبل^(١) عليّ وعليه، وجاء الرجل

(١) الجبل: هو ما يوضع على ظهر الحمار للركوب عليه.

فغلق الأبواب وفتش ونام على سرير عال والجوهر تحته، فلما انتصف الليل قمت إلى شاة في الدار، فعركت أذنها فصاحت، فقال: ويملك أقول لك أفتقيها. قالت: قد فعلت. قال: كذبت، وقام بنفسه لي طرح لها علفاً، فجلست مكانه على السرير، وفتحت الخزانة، وأخذت السفظ وعدت إلى موضعي وعاد الرجل، فنام. فاجتهدت أن أجد حيلة أن أنقب إلى دار بعض الجيران، فأخرج فما قدرت، لأن جميع الدار مؤزرة بالساج ورمت صعود السطح، فما قدرت، لأن الممارق مقفلة بثلاثة أقفال، فعملت على ذبح الرجل، ثم استقيحت ذلك، وقلت: هذا بين يدي إن لم أجد حيلة غيره، فلما كان السحر عدت إلى موضعي تحت الحمار وانتبه الرجل يريد الخروج، فقال للجارية: افتحي الأقفال من الباب ودعيه مترسًا، ففعلت وقربت من الحمار فرفس، فصاحت فخرجت أنا ففتحت المترس^(١) وخرجت أعدو حتى جئت إلى المشرعة، فنزلت في الخيطية ووقعت الصيحة في دار الرجل، فطالبنني أصحابي أن أعطيهم شيئاً منه، فقلت: لا. هذه قصة عظيمة، وأخاف أن يتنبه عليها، ولكن دعوه عندي فإن مضى على الحديث ثلاثة أشهر وافتكم، فصيروا إليّ أعطيكم النصف، وإن ظهر خفت عليكم وعلى نفسي، وجعلته حقناً لدمائكم، فرضوا بذلك، فأرسل الله هذا البواب بليلة يخدمني، فاستحييت منه وخفت أن يقتل هو أصحابه، وقد كنت وضعت في نفسي الصبر على كل عذاب، فدخلتم عليّ من طريق أخرى لم أستحسن في الفتوة معها إلا الصدق، فقال له الأمير: جزاء هذا الفعل أن أطلقك، ولكن تتوب فتاب، وجعله الأمير من بعض أصحابه وأسنى له الرزق، فاستقامت طريقته.

يستدين سرقة^(٢)

قال أبو الحسين: وحدثني أبي عن طالوت بن عباد الصيرفي قال: كنت ليلة نائماً بالبصرة في فراشي وأحراسي يحرسوني وأبوابي مقفلة، فإذا أنا بابن الخياطة يبنهني من فراشي، فانتبهت فرعاً. فقلت: من أنت؟ فقال: ابن الخياطة، فتلفت. فقال: لا تجزع قد قمرت الساعة خمسمائة دينار أقرضني إياها لأردها عليك،

(١) المترس: أي المزلاج وهو يستعمل في إغلاق الباب بدون القفل.

(٢) كتاب الأذكياء ص ١٧٥.

فأخرجت خمسمائة دينار، فدفعتها إليه، فقال: نم ولا تتبعني لأخرج من حيث جئت، وإلا قتلتك. قال: وأنا والله أسمع صوت حراسي ولا أدري من أين دخل، ولا من أين خرج، وكتمت الحديث خوفاً منه، وزدت في الحرس ومضت ليلال، فإذا أنا به قد أنبهنى على تلك الصورة، فقلت: مرحباً ما تريد؟ قال: جئت بتلك الدنانير تأخذها مني، فقلت: أنت في حل منها، فإن أردت شيئاً آخر فخذ، فقال: لا أريد من نصح التجار أشاركهم في أموالهم، ولو كنت أردت أخذ مالك باللصوصية فعلت، ولكنك رئيس بلدك ولا أريد أذيتك، فإن ذلك يخرج عن الفتوة، ولكن خذها، فإن احتجت إلى شيء بعد هذا أخذت منك، فقلت: أن عودك لا يفزعني، ولكن إذا أردت شيئاً فتعال إليّ نهاراً أو رسولك، فقال: افعل، فأخذت الدنانير منه وانصرف، وكان رسوله يجيئني بعلامة بعد ذلك، فيأخذ ما يريده بعد مدة، فما انكسر لي عنده شيء إلى أن قبض عليه.

قطعة صابون تتحول آجراً^(١)

حكى أبو محمد عبد الله بن علي بن الخشاب النحوي: أن رجلاً اشترى من مخاطي قطعة صابون ومضى إلى النهر لغسل ثيابه، فلما وصل أخرجها، فإذا هي قطعة آجر، فصعب الأمر عليه، وقال: هذا يبيع الناس آجراً وصابوناً، فمضى إليه ليردها، فلما وصل قال: ويحك أتبيع الناس آجراً وصابوناً قال: كيف أبيع آجراً؟ فأخرجها من كمه، فإذا هي قطعة صابون، فاستحى ورجع إلى النهر، فأخرجها فإذا هي آجر، فعاد إليه ووبخه، وأخرجها فإذا هي قطعة صابون مرة أخرى كذلك حتى ضجر، فقال له المخاطي: لا يضيق صدرك، فإن لنا ولدًا قد أخرجناه نعلمه أن يبطأ ويحتال وأنت كلما مضيت فعل هذا، فإذا رأك قد عدت لردها أعادها في كمك وأنت لا تعلم.

ما أنحس هذه الليلة^(١)

دخل لص بيت رجل، فأخذ متاعه وخرج، فصاح الرجل: ما أنحس هذه الليلة؟ فقال اللص: على كل أحد.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٦.

لصّ رحوم (١)

قال أبو الفتح البصري: اجتمع جماعة من اللصوص اجتاز عليهم شيخ صيرفي معه كيسه. فقال أحدهم: ما تقولون فيمن يأخذ كيس هذا؟ قالوا: كيف تفعل؟ قال: انظروا ثم تبعه إلى منزله، فدخل الشيخ، فرمى كيسه على الصفة^(٢) وقال للجارية: أنا حاقن، فألحقيني بماء في الغرفة، وصعد فدخل اللص فأخذ الكيس، وجاء إلى أصحابه، فحدثهم، فقالوا: ما علمت شيئاً. تركته يضرب الجارية ويعذبها وما ذا مليح؟ قال: فكيف تريدون؟ قالوا: تخلص الجارية من الضرب وتأخذ الكيس. قال: نعم، فمضى فطرق الباب، فإذا به يضرب الجارية، فقال: مَنْ قال: غلام جارك في الدكان، فخرج، فقال: ماذا تقول؟ فقال: سيدي يسلم عليك ويقول لك قد تغيرت. ترمي كيسك في الدكان وتمضي، ولولا أننا رأيناك كان قد أخذ، وأخرج الكيس، وقال: أليس هذا هو؟ قال: بلى والله صدق، ثم أخذه، فقال له: بل أعطنيه وادخل فاكتب في رقعة قد تسلمت الكيس، حتى أتخلص أنا ويرجع إليك ومالك، فناوله إياه ودخل ليكتب، فأخذه ومضى.

العجوز واللس (١)

قال أبو جعفر محمد بن الفضل الضميري: كان في بلدنا عجوز سالحة كثيرة الصيام والصلاة، وكان لها ابن صيرفي منهمك على الشرب واللعب، وكان يتشاغل بدكانه أكثر نهاره، ثم يعود إلى منزله، فيخبئ كيسه عند والدته، فدخل إلى الدار لص وهو لا يعلم، فاختمها فيها، وسلم الابن كيسه إلى أمه وخرج وبقيت هي وحدها في الدار، وكان لها في دارها بيت مؤزر بالساج عليه باب من حديد تجعل قماشها فيه والكيس، فخبأت الكيس فيه خلف الباب وجلست فأفطرت بين يديه، فقال اللص: الساعة تقفله وتنام، وأنزل وأقلع الباب وأخذ الكيس، فلما أفطرت قامت تصلي ومدت الصلاة ومضى نصف الليل وتحير اللص، وخاف أن يدركه الصبح، فطاف في الدار فوجد إزاراً جديداً ويخور فاتزر بالإزار، وأوقد البخور وأقبل ينزل على الدرجة، ويصيح بصوت غليظ ليفزع العجوز، وكانت جلدة، ففطنت أنه لص، فقالت: مَنْ هذا؟ بارتعاد وفزع. فقال: أنا جبريل رسول رب

(٢) الصفة: أي المصطبة.

(١) كتاب الأذكياء ص ١٧٧.

العالمين أرسلني إلى ابنك هذا الفاسق لأعظه وأعامله بما يمنعه عن ارتكاب المعاصي، فأظهرت أنها قد غشي عليها من الفزع، وأقبلت تقول: يا جبريل سألتك ألا رفقت به، فإنه وحيدى، فقال اللص: ما أرسلت لقتله. قالت: فبم أرسلت؟ قال: لأخذ كيسه وأولم قلبه بذلك، فإذا تاب رددته عليه، فقالت: يا جبريل، شأنك وما أمرت به، فقال: تنحي عن باب البيت، وفتح هو الباب ودخل ليأخذ الكيس والقماش، واشتغل في تكويره فمشت العجوز قليلاً قليلاً وجذبت الباب وجعلت الحلقة في الرزة، وجاءت بقفل فقفلته، فنظر اللص إلى الموت ورام حيلة، نقب أو منقذ، فلم يجد، فقال: افتحي لأخرج فقط اعط ابنك، فقالت: يا جبريل، أخاف أن أفتح الباب، فتذهب عيني من ملاحظة نورك، فقال: إني أطفئ نوري حتى لا يذهب بعينيك. فقالت: يا جبريل، ما يعوزك أن تخرج من السقف أو تخرق الحائط بريشة من جناحك ولا تكلفني أنا لتغوير بصري، فأحس اللص أنها جلدة، فأخذ يرفق بها ويدارها ويبدل التوبة، فقالت: دع عنك هذا لا سبيل إلى الخروج إلا بالنهار، وقامت فصلت، وهو يسألها حتى طلعت الشمس، وجاء ابنها وعرف خبرها، وحدثه الحديث، فأحضر صاحب الشرطة وفتح الباب وقبض على اللص.

حيلة أبي حنيفة^(١)

قيل إن رجلاً ابتلي بمحبة امرأة، فأتى أبا حنيفة، فأخبره أن ماله قليل، وأنهم إن علموا بذلك لم يزوجه، فقال له أبو حنيفة: أتبعني أحليلك باثني عشر ألف درهم؟ قال: لا. قال: فأخبر القوم أنني أعرفك، فمضى فخطبها، فقالوا: من يعرفك، فقال: أبو حنيفة، فسألوا أبا حنيفة عنه، فقال: ما أعرفه إلا أنه حضر عندي يوماً فساوم في سلعة له باثني عشر ألف درهم، فلم يبع، فقالوا: هذا يدل على أنه ذو مال، فزوجوه، فلما تيقنت المرأة حاله قالت: لا يضيق صدرك وهذا مالي بحكمك، ثم مضت إلى أبي حنيفة في حليها وحللها فقالت: فتوى، فدخلت فأسفرت عن وجهها، فقال: تستري، فقالت: ما يمكن قد وقعت في أمر لا يخلصني منه إلا أنت. أنا بنت هذا البقال الذي على رأس الدرب، وقد بلغت عمراً واحتجت إلى الزوج وهو لا يزوجني، ويقول لمن يخطبني ابنتي عوراء قرعاء

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٣.

شلاء، ثم حسرت عن وجهها ورأسها ويديها. ويقول: ابنتي زمنة وكشفت عن ساقها وأريد أن تدبرني، فقال: ترضين أن تكوني لي زوجة؟ فقبلت قدميه وقالت: من لي بسلامك، فقالت: امضي في دعة الله، فخرجت، فحضر البقال ودفع إليه خمسين ديناراً وقال: زوجني ابنتك، فكتب كتاباً بمائة دينار، فقال البقال: يا سيدي، استر ما ستر الله أنا لي بنت أزوجك. قال: دع هذا عنك رضيت بابنتك القرعاء الشلاء الزمنة، فزوجه على المائة والخمسين ومضى، فحدث زوجته فقالت: والله لا كان إلا يكون هذا إلا على يد أبي حنيفة، فلما كان عشية تلك الليلة أجلسها أبوها في صن وحملها بينه وبين غلامه، فلما رآها أبو حنيفة قال: ما هذا؟ فقال البقال: أشهد على أمها إن كانت لي بنت غيرها، فقال أبو حنيفة: هي طالق ثلاثاً أعد عليّ الكتاب، ثم جاءت تلك المرأة إليه، فقال: ما حملك على ما فعلت؟ فقالت: وأنت ما حملك على أن غررتنا برجل فقير.

حيلة امرأة^(١)

قال أبو الحسن البيني مؤذن المسترشد بالله قال: حدثني بعض التجار المسافرين قال: كنا نجتمع من بلاد شتى في جامع عمرو بن العاص نتحدث، فبينما نحن جلوس يوماً نتحدث، وإذا بامرأة بقرنا في أصل سارية، فقال لها رجل من التجار من البغداديين: ما شأنك؟ فقالت: أنا امرأة وحيدة غاب عني زوجي منذ عشر سنين، ولم أسمع له خبراً، فقصدت القاضي ليزوجني، فامتنع وما ترك لي زوجي نفقة، وأريد رجلاً غريباً يشهد لي هو وأصحابه أن زوجي مات أو طلقني لأتزوج أو يقول أنا زوجها، ويطلقني عند القاضي لأصبر مدة العدة، وأتزوج، فقال لها الرجل: تعطيني ديناراً حتى أصير معك إلى القاضي وأذكر له أنني زوجك، وأطلقك، فبكت وقالت: والله ما أملك غير هذه، وأخرجت أربع ربايعات، فأخذها منها ومضى معها إلى القاضي، وأبطأ علينا، فلما كان من الغد لقيناه، فقلنا: ما أبطأك؟ فقال: دعوني فإني حصلت في أمر ذكره فضيحة. قلنا أخبرنا. قال: حضرت معها إلى القاضي فادعت عليّ الزوجية والغيبة عشر سنين، وسألت أن أخلي سبيلها، فصدقتها على ذلك، فقال لها القاضي: أتبرئينه؟ قالت: لا. والله لي عليه صداق ونفقة عشر سنين، وأنا أحق بذلك، فقال لي القاضي:

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٣.

أديها حقها ولك الخيار في طلاقها أو إمساكها، فورد عليّ ما بلسني، ولم أتجاسر أن أحكي صورتني معها، فلا أصدق، فتقدم القاضي بتسليمي، إلى صاحب الشرطة، فاستقر الأمر على عشرة دنانير أخذتها مني وغرمت للوكلاء وأعوان القاضي الأربع ربايعيات التي أعطتني، ومثلها من عندي، فضحكنا منه، فخرج من مصر، فلم يعرف له خبر.

مستحلة (١)

ونقل من خط الشيخ أبي الوفاء بن عقيل قال: حكى لي بعض الأصدقاء أن امرأة جلست على باب دكان بزار أعزب إلى أن أمست، فلما أراد غلق الدكان تراءت له، فقال لها: ما هذا المساء؟ فقالت: والله ما لي مكان أبيت فيه. فقال لها: تمضين معي إلى البيت؟ فقالت: نعم، فمضى بها إلى بيته، وعرض عليها التزويج، فأجابت فتزوجها، وبقيت عنده أيامًا، وإذا قد جاء في اليوم الرابع رجل ومعه نسوة، فطلبوها، فأدخلهم وأكرمهم، وقال: من أنتم منها؟ فقالوا: أقاربها ابن عم وبنات عم، وقد سررنا بما سمعنا من الوصلة غير أنا نسألك أن تتركها تزورنا لعرس بعض أقاربنا، فدخل إليها. فقالت: لا تجبهم إلى ذلك واحلف بطلاقي إنك لا خرجت من داري شهر ليمضي زمن العرس، فإنه أصلح لي ولك، وإلا أخذوني وأفسدوا قلبي عليك، فإني كنت غضبي وتزوجت إليك بغير مشاورتهم، ولا أدري من قد دلهم إليك، فخرج فحلف كما ذكرت له فخرجوا مأيوسين، وأغلق الباب وخرج إلى الدكان وقد علق قلبه بالمرأة، فخرجت ولم تستصحب من الدار شيئًا، فجاء فلم يجدها، فقال قائل: ترى ما الذي قصدت؟ قال أبو الوفاء لعلها مستحلة به لأجل زوج طلقها ثلاثًا، فليتخوف الإنسان من مثل هذا، وليطلع به على غوامض حيل الناس.

من حيل الكرماء (٢)

أهدى معاوية إلى عبید الله بن العباس حُللاً كثيرة، ومُسكًا وأنيبًا من ذهب وفضة، ووجهها إليه مع حاجبه؛ فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب - وهو يُطيلُ النَّظَرَ فيها - فقال: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم، والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف!

(٢) ثمرات الأوراق للحموي: ١ - ١٢٩.

(١) كتاب الأذكياء ص ٢٠٤.

فضحك غبيد الله وقال: فشانك بها؛ فهي لك! قال: جُعِلْتُ فداك! أنا أخاف أن يبلغ ذلك معاوية؛ فيغضب لذلك. قال: فاختمها بخاتمك، وادفعها إلى الخازن، وهو يحملها إليك ليلاً. فقال الحاجب: والله إن هذه الحيلة في الكرماء أكثر من الكرم؛ ولو ددْتُ أني لا أموت حتى أراك مكانه - يعني معاوية.

فظنَّ عبيد الله أنها مكيِّدة منه؛ فقال: دَع هذا الكلام؛ إنا من قوم نفي بما عَقَدْنَا، ولا نقضُ ما أكَدْنَا!

دَهَاءَ عَمَارِ بْنِ تَمِيمِ اللَّخْمِيِّ (١)

كان الحجاج حسوداً لا تتم له صنيعَةٌ حتى يفسدها، فوجه عمارة بن تميم اللخمي إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؛ فظفر به، وصنع به ما صنع، ورجع إلى الحجاج بالفتح، فلم ير منه ما أحب، وكره مُتَافِرتَه، وكان عاقلاً رقيقاً، فجعل يترقق به ويداريه، ويقول: أنت - أيها الأمير - أشرف العرب، فمن شرفته شرف، ومن وضعته اتضع، ومن ينكر ذلك، مع رفقك ويمنك ومشورتك ورأيك؟ وما كان هذا كله إلا بصنع الله عز وجل وتدبيرك، وليس أحدٌ أحقُّ بشكر صنيعك مني، ومن ابنُ الأشعث؟ وما حَظُّرُه؟

ثم عزم الحجاج على المضي إلى عبد الملك فأخرج عمارة معه، فلم يزل يلطفه بالحجاج في مسيره، ويعظمه، حتى قدموا على عبد الملك.

فلما قامت الخطباء بين يديه، وأثنت على الحجاج، قام عمارة، فقال: يا أمير المؤمنين، سل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي وبلائي! فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، صنع وصنع، ومن بأسه ونجدته وعقله ومكيدته كذا وكذا، هو أيمنُ الناس نقيية، وأعلمهم بتدبير وسياسة، ولم يُبقِ غايةً في الثناء عليه.

فقال عمارة: أرضيت يا أمير المؤمنين! قال: نعم! فرضي الله عنك، حتى قالها ثلاثاً، في كلها يقول: قد رضيت!

فقال عمارة: فلا رضى الله عن الحجاج يا أمير المؤمنين، ولا حفظه ولا عافاه، فهو - والله - السيئُ التدبير، الذي قد أفسد عليك أهلَ العراق، وألب

(١) المحاسن والمساوىء: ١٤٩، طبع لبيزج.

عليك الناس، وما أوتيت إلا من قلة عقله، وضعف رأيه، وقلة بصره بالسياسة. ولك والله أمثالها، إن لم تعزله.

فقال الحجاج: مه يا عمارة! فقال: لا مه ولا كرامة يا أمير المؤمنين! كل مملوك له حرٌّ إن سار تحت راية الحجاج أبدًا! فقال عبد الملك: ما عندنا أوسع لك!

فلما انصرف عمارة إلى منزله بعث إليه الحجاج وقال له: أنا أعلم أنه ما خرج هذا عنك إلا عن معتبة^(١)، ولك عندي العُتبي^(٢)، ولك ولك! فأرسل إليه: ما كنت أظن أن عقلك على هذا! أزعج إليك بعد الذي كان من طعني وقولي عند أمير المؤمنين! لا، ولا كرامة لك.

كَيْفَ رَأَيْتُمْ فِرَاسْتِي فِي الْأَعْرَابِي (٣)

قدم على الحجاج ابن عم له من البادية، فنظر إليه يولّي الناس؛ فقال له: أيها الأمير؛ لم لا تُوليني بعض هذا الحضر؟ فقال الحجاج: هؤلاء يكتبون ويحسبون وأنت لا تحسب ولا تكتب!

فغضب الأعرابي، وقال: بلى، إني لأحسب منهم حسبًا^(٤)، وأكُتّب منهم كُتْبًا! فقال الحجاج: فإن كان كما تزعم فأقسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس، فما زال يقول: ثلاثة دراهم بين أربعة؛ ثلاثة بين أربعة، لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء! كم هم أيها الأمير؟ قال: هم أربعة، قال: نعم! أيها الأمير، قد وقفتُ على الحساب، لكل واحد منهم درهم، وأنا أعطي الرابع منهم درهمًا من عندي! وضرب بيده إلى تكته^(٥)، فاستخرج منها درهمًا، وقال: أيكم الرابع؟ فوالله ما رأيت كاليوم زورًا مثل حساب هؤلاء الحضريين!

فضحك الحجاج ومن معه، وذهب بهم الضحك كل مذهب، ثم قال الحجاج: إن أهل أصبهان أخروا خراجهم ثلاث سنين، كلما أتاهم وال أعجزوه، فلأرمنيهم بهذا، فأخلق به أن يُنجب!

(٢) العتبي: الرضا.

(٤) حسابًا.

(١) المعتبة: العتاب.

(٣) المسعودي: ٢ - ١٦٠.

(٥) التكة: رباط السراويل.

فكتب له عَهْدَه على أصبهان!

فلما خرج استقبله أهل أصبهان واستبشروا به وأقبلوا عليه يقبلون يده ورجله وقالوا: أعرابي بدوي! ما يكون منه!

فلما أكثروا عليه، قال: أما يَشْغَلُكُمْ ما أَخْرَجَنِي له الأمير؟

فلما استقرَّ في داره بأصبهان جمع أهلها، فقال: ما لكم تعصون ربكم وتغضبون أميركم، وتنفصون خراجكم؟ فقال قائلهم: جَوْرٌ مَن كان قبلك، وظلم مَن ظلم! قال: فما الأمر الذي فيه صلاحكم؟ فقالوا: تؤخِّرنا بالخراج ثمانية أشهر، ونجمعه لك! قال: لكم عشرة وتأتوني بعشرة ضمنا.

فأتوه بهم، فلما توثق منهم أمهلمهم؛ وكلما قَرُب الوقت رآهم غير مكثرئين لما نُدِبوا^(١) إليه من الأجل! وطال به ذلك، فجمع الضمَّاء؛ وقال لهم: المال! فقالوا: أصابنا من الآفة نقض ذلك!

فلما رأى ذلك منهم آلى ألا يفطر - وكان في شهر رمضان - حتى يُجمَع ماله أو يضرب أعناقهم!

ثم قدَّم أحدهم وضرب عُقَّقه، وكتب عليه. فلان ابن فلان أذى ما عليه! وجعل رأسه في بَدْرَة^(٢)، وختم عليها! ثم قدَّم الثاني ففعل به مثل ذلك!

فلما رأى القوم الرؤوس تجزَّ، وتجعل في الأكياس بدلًا من البدر، قالوا: أيها الأمير؛ توقف علينا حتى نحضر لك المال؛ ففعل، فأحضره في أسرع وقت! فبلغ ذلك الحجاج فقال: إنا معاشر آل محمد - يعني جدّه - ولدنا نجيب، فكيف رأيتم فراستي^(٣) في الأعرابي؟!

ولم يزل واليًا عليها حتى مات الحجاج!

من بدائه الشعراء^(٤)

أتى سليمان بن عبد الملك بأسارى، وكان الفرزدق حاضرًا، فأمره سليمان بضرب واحدٍ منهم فاستعفاه فأبى، وقد أشير إلى سيفٍ غير صالح للضرب

(١) نذب القوم إلى الأمر ندبًا: دعاهم وحثهم. (٢) البدر: كيس يوضع فيه عشرة آلاف درهم.

(٣) الفراسة: البصر بالشيء والعلم به.

(٤) أدب الدنيا والدين: ٧، بلوغ الأرب: ١ - ٢٠.

ليستعمله فقال الفرزدق: بل أضرب بسيف أبي رَغْوَان^(١) سيف مجاشع - يعني نفسه - وكأنه قال: لا يَسْتَعْمِلُ ذلك السيف إلا ظالم أو ابن ظالم، ثم ضرب بسيفه الأسيّر، وأتفق أن نبا السيف، فضحك سليمان ومَن حوله؛ فقال الفرزدق:

أيعجبُ الناسُ أن أضحكتُ سيدهم خليفة الله يُستسقى به المطرُ
لم ينبُ^(٢) سيفي من رُعب ولا دَهش عن الأسيّر، ولكن آخر القَدَرُ
ولن يقدمَ نفسًا قبل ميّتها جمعُ اليدين ولا الصنّامة^(٣) الذكُرُ
ثم أعمد سيفه وهو يقول:

ما إن يُعاب سيّدٌ إذا صَبَا ولا يُعاب صارمٌ إذا نَبَا
ولا يعاب شاعرٌ إذا كبا

ثم جلس يقول: كآني بآبن المَرَاغَةِ^(٤) قد هجاني، فقال:

بسيفِ أبي رَغْوَانِ سيفِ مُجاشع ضربتَ ولم تضرب بسيفِ ابنِ ظالم
وقام وانصرف.

وحضر جرير، فخبّر الخبر، ولم يُثشد الشعر، فأنشأ يقول:

بسيفِ أبي رَغْوَانِ سيفِ مجاشع ضربتَ ولم تضرب بسيفِ ابنِ ظالم
فأعجب سليمان ما شاهد! ثم قال جرير: يا أمير المؤمنين، كآني بآبن
القَيْنِ^(٥) قد أجابني فقال:

ولا نقتل الأسرى، ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حملُ المغارم
ثم أخبر الفرزدق بالهَجْوِ دون ما عداه، فقال مجيبًا:

كذاك سيوفُ الهند تنبُو ظُباتها^(٦) وتقطعُ أحيانًا منار التمايم

(١) رَغْوَان: لقب مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة، لقب به لفصاحته وجهارته صوته، ويقال:

قالت امرأة سمعته: ما هذا إلا يرغو، فلقب رَغْوَان.

(٢) لم ينب: لم يكل عن الضريبة.

(٣) الصنّامة: السيف لا يشني، والذكر أيس الحديد وأجوده وأشده.

(٤) يريد جرير. (٥) القين: العبد والحداد، وهو يريد الفرزدق.

(٦) الظبابة: جمع ظبة، وهي حد السيف.

ولن نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم أبا عن كليب أو أخا مثل دارم

وشاع حديث الفرزدق بهذا حتى كان زمان المهدي^(١)، فأني بأسرى من الروم، وأمر بقتلهم - وكان عنده شبيب^(٢) بن شيبه - فقال له: اضرب عنق هذا العليج^(٣)، فقال: يا أمير المؤمنين، قد علمت ما ابتلى به الفرزدق فعير به قومه إلى اليوم. فقال: إنما أردت تشريفك وقد أعفيتك. وكان شعر حاضرًا فقال:

جزعت من الرومي وهو مقيد فكيف ولو لا قيته وهو مطلق
دعاك أمير المؤمنين لقتله فكاد شبيب عند ذلك يفرق^(٤)
ففتح شبيبًا عن قراع كتية وأذن شبيبًا من كلام يلقق

قوة حجة^(٥)

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني، فول القضاء أنقذهما.

فجمع بينهما، فقال له إياس: أيها الرجل سل عني وعن القاسم فقيهي البصرة: الحسن البصري، وابن سيرين.

وكان القاسم يأتي الحسن وابن سيرين، وكان إياس لا يأتيهما، فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به؛ فقال: لا تسأل عني ولا عنه؛ فوالله الذي لا إله إلا هو، إن إياس بن معاوية أفتقه مني وأعلم بالقضاء. فإن كنت كاذبًا فما ينبغي أن توليني، وإن كنت صادقًا فينبغي لك أن تقبل قولي!

فقال له إياس: إنك جئت برجل فأوقفته على شفير جهنم، فنجى نفسه منها بيمين كاذبة، يستغفر الله منها، وينجو مما يخاف.

فقال له عدي: أما إذا فهمتها فأنت لها، فاستقضاءه.

(١) انظر صفحة ٢٦٢.

(٢) خطيب البصرة في زمانه، كان في حاشية المهدي حينما كان واليًا للمهد وبقي كذلك حتى ولي الخلافة فكان من سماره المقربين، توفي سنة ١٧٠ هـ.

(٣) العليج: الواحد من كفار العجم. (٤) يفرق: يخاف.

(٥) العقد الفريد: ١ - ١١.

أدبتني فتأذبت (١)

كان أبو سلمة حفص بن سليمان وسليمان بن كثير - وهما سيّدا دعاة الدولة العباسية - يقدان كلّ عام على إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فيأتيانه بهذا يا أهل الدعوة، وكُتِبهم، ولم يكن أحد من آل إبراهيم يعرفهما، ولا يعرف الأمر الذي يأتيان له، فقدِمَا سِنَةً من السنين فرأيا العباس وأبا جعفر، فأعجباهما، وهما إذ ذاك غُلامان، فقال سليمانُ بن كثير لأبي سَلْمَةَ: إني مسرّ إليك مهما من أمر الدين والدنيا، فأخلف لي على كِثمانه، فحلف له أبو سلمة بأيمان رضيها منه، فقال له سليمان: إني أرى عند هذين الصبيين من أمارات الاستقلال بالخلافة، ما لا كِفَاءَ له^(٢)، فقال له أبو سلمة: هما والله أولى بالأمر من صاحبنا - يعني إبراهيم الإمام - فقال سليمان: ما منعني من ذكر هذا إلا التَّسْتُر.

وبينا هما يتفاوضان في هذا الأمر إذ مرَّ أبو العباس وأبو جعفر وهما يضربان كُرَةً، فدعاهما أبو سَلْمَةَ فأتياه، فقال لهما: إني أنشدت صاحبي هذا شعراً أنا مُعْجَبٌ به، فلم يرضه، وقد رضيته بحكمكما فيه. فقالا: أنشده، فأنشدهما:

أمسلمُ إني يا ابنَ كل خليفة ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض^(٣)
شكرتك إن الشكرَ حَبْلٌ من التقى وما كل من أوليته نعمةً يَفْضِي^(٤)
وشئدت^(٥) من ذكرى وما كان خاملاً ولكن بعض الذكر أتبه من بعض^(٦)

فقال أبو جعفر: مَنْ قال هذا؟ فقال: قاله أبو نُخَيْلة، فعصَّ أبو جعفر على إصبعه، ثم قال آمينُ هذا العبدُ أن تَدُول^(٧) لبني هاشم دولة فيولُغوا^(٨) الكلاب دمه؟ فقال له أبو العباس: مَهْ^(٩) يا أخي، فإنه يقال: مَنْ ظَهَرَ غَضْبُهُ ضَعُفَ كَيْدُهُ.

(١) أبناء نجباء الأبناء: ٩٥.

(٣) أمسلم: يريد أمسلمة.

(٤) حبل من التقى: سبب منه وعهد، والعهد: الحبل.

(٥) شئدت: رفعت.

(٦) أتبه: أرفع.

(٧) الدولة: الانتقال من حال إلى حال.

(٨) أولغت الكلب: إذا جعلت له شيئاً يولغ فيه.

(٩) مه: اسم فعل، معناه: اكفف.

ثم أقبل أبو العباس على أبي سلمة، وقال له: هذا شعرٌ أحمق في أحمق! كيف يقول لرجل هو في سلطان غيره، وتابع له: يا جَبَلِ الأرض؟ أليس جَبَلُ الأرض هو مُزْسِيها، ولا يصلح أن يخاطب بهذا من هو تابع لغيره، وأين تفخيمه وتعظيمه من نقص اسمه، إذ يُناديه: «أمسلم» وهو مسلمة؟

ثم إن العباس ولى، فقال له أبو جعفر: هلمَّ يا أخي نلعب، فقال له أبو العباس: هل أولغت^(١) الكلابَ دم أبي نخيلة؟ فقال: لا، ولكنك أدبتني فتأدبت، وذهباً!

فقال أبو سلمة لسليمان بن كثير: بمثل هذا يُطلب الملك، ويُذرك الثأراً!

حَدْرُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَزْمَةَ^(٢)

وجّه المنصورُ رسولاً إلى ابن هزيمة^(٣)، ودفع إليه ألفَ دينارٍ وخِلعة، ووصفه له وقال: امضِ إليه، فإنك تراه جالساً في موضع كذا من المسجد، فانتسب له إلى بني أمية أو موالِيهم، وسله أن يُنشدك قصيدته الحائية التي يقول فيها يمدح عبد الواحد بن سليمان:

وجدنا غالباً كانت جَنَاحًا وكان أبوك قادمة الجَنَاح

فإذا أنشدكها فأخرجه من المسجد واضرب عُنقه وجثني برأسه، وإن أنشدك قصيدته اللامية التي يمدحني فيها فادفع إليه الألفَ الدينار والخِلعة؛ وما أراه يُنشدك غيرها ولا يعترف بالحائية.

فأتاه الرسولُ فوجده كما قال المنصور، فجلس إليه واستنشده قصيدته في عبد الواحد؛ فقال: ما قلتُ هذه القصيدة قط ولا أعرفها، وإنما نَحَلها إِيَّاي من يُعَاديني، ولكن إن شئت أنشدتك أحسنَ منها قال: قد شئتُ فهاتِ، فأنشده:

سرى ثوبه عنك الصبا المُتخايل^(٤)

(١) معناه: هل شفيت غيظك حتى نلعب.

(٢) الأغاني: ٦ - ١١٢.

(٣) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة - شاعر غزل من سكان المدينة رحل إلى دمشق ومدح الوليد الأموي فأجازته.

(٤) سرى عنه الثوب: كشفه.

حتى أتى على آخرها^(١)؛ ثم قال له هات ما أمرك أمير المؤمنين بدفعه إليّ؛ فقال: أي شيء تقول يا هدا؟ وأي شيء دَفَع إليّ؟ فقال: دَعِ ذَا عَنكَ، فوالله ما بعثك إلا أمير المؤمنين ومعك مالٌ وكسوة إليّ، وأمرك أن تسألني عن هذه القصيدة، فإن أنشدتُك إياها ضربتُ عُثْقِي وحملتُ رأسي إليه، وإن أنشدتُك هذه اللاميةَ دفعتُ إليّ ما حملك إياه، فضحك الرسولُ، ثم قال: صدقتُ لعمري! ودفع إليه الألف الدينار والخلعة.

المنصور ودليّة بالمدينة^(٢)

لما حجَّ أبو جعفر المنصور قال للربيع: انبغ لي فتى من أهل المدينة أديباً ظريفاً، عالماً بقديم ديارها، ورُسُوم آثارها؛ فقد بَعُدَ عهدي بديار قومي، وأريدُ الوقوفَ عليها.

فالتَمَسَ له الربيعُ فتى من أعلم الناس بالمدينة، وأعرفهم بظريف الأخبار، وشريف الأشعار؛ فعجب المنصور منه؛ وكان يسايره أحسنَ مُسايرة، ويحاضرُه أزينَ محاضرة، ولا يَبْتَدِئُهُ بخطابٍ إلا على وجه الجواب، فإذا سأله أتى بأوضح دلالة، وأفصح مقالة.

فأعجب به المنصور غاية الإعجاب، وقال للربيع: ادفع إليه عشرة آلاف درهم، وكان الفتى مُمْلِقاً^(٣) مضطراً. فتشاغل الربيع عنه، فاجتاز مع المنصور بدار عاتكة. فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية الذي يقول فيه الأحوص بن محمد:

يا بيتَ عاتكة الذي أتعزَّلُ^(٤) حذرَ العِدا وبه الفؤادُ مُوكَّلُ

قال المنصور: ما هاج منه ما ليس هو طبعه؛ من أن يُخبر بما لم يُستخبر عنه ويوجب بما لم يُسأل عنه؟ ثم أقبل يردُّ أبيات القصيدة في نفسه

(١) منها:

له لحظات عن حفاقي سريه
فأم الذي أمنت آمنة الردى
وإذا كرها فيها عقاب ونائل
وأم الذي خوفت بالشكل نائل

وحفاف الشيء: جانبه.

(٢) الإملاق: الافتقار.

(٣) ذيل زهر الآداب: ٥٨.

(٤) تعزل الشيء وتعزل عنه: تنحى.

إلى أن بلغ إلى:

وأراك تفعل ما تقول، وبعضهم مَذِقُ اللسان يقول ما لا يفعل^(١)
فدعا بالربيع وقال له: هل دفعت للمدني^(٢) ما أمرنا به؟ فقال: أخرتني علة
يا أمير المؤمنين. قال: أضعفها له وعجلها.

فطنة كاتب المنصور^(٣)

قال أبو جعفر المنصور للمهدي يوماً: قد عزمْتُ على أن أوليك الأمرَ وأرذه
إليك، فقد كبرتُ وعجزتُ عن مباشرة الأعمال والنظر فيها، وأحببتُ الراحة
والدعة. فخرج المهدي إلى أبي عبيد الله^(٤) مستبشراً، وعرفه ما عرضه عليه أبو
جعفر، فقال له أبو عبيد الله: اتق الله ولا تظهر لأمر المؤمنين قبولاً لما ذاكرك
به، وإذا عاودك فقل له: لا والله، لا أتعرض لهذا الأمر ما أبقى الله أمير
المؤمنين؛ ولا أنهضُ له، فإنه إنما سبَّرك^(٥) بما عرض عليك.

فلما دخل المهدي على أبي جعفر قال له: يا أبا عبد الله، هل فكرت فيما
قلته لك، أو شاروت أحداً فيه؟ فقال: ما بي من قوة على ذلك، ويُقي الله أمير
المؤمنين، ويمتعننا بحياته. فقال له: سبحان الله! من صدك عنه ومن ناظرت فيه؟
فقال له: شاروت معاوية^(٦). قال: فأني شيء قال لك؟ فعرفه ما قال له، فأطرق
هنيهة ثم قال: عليّ بمعاوية.

فلما دخل عليه قال له: ما هذا الذي ناظرك^(٧) فيه ابن عبد الله^(٨)؟ وكيف
رأيت ألا يقبل؟ قال: أأصدقك وأنا آمن؟ فقال له: هات ولم لا تصدقني؟ فقال
له: إنه والله ما عرضت عليه ما عرضته وأنت تريد أن توليه، وإنما أردت أن تختبر
عقله، وما كنت لتطيب نفساً بترك ما أنت فيه.

(١) رجل مذاق: كذوب.

(٢) النسبة إلى مدينة الرسول: مدني، وإلى مدينة المنصور مديني.

(٣) الوزراء والكتاب: ١٢٨.

(٤) هو أبو عبيد معاوية بن عبيد الله بن يسار من أهل فلسطين. كان كاتب أبي جعفر في الإنفاق
والتصرف في بيت المال وقد ضمه إلى المهدي حين أنفذه إلى الري.

(٥) سبر الجرح: نظر ما غوره. (٦) هو أبو عبيد الله.

(٧) المناظرة: أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه.

(٨) اسم المهدي محمد بن عبد الله.

فقال له: وكيف توهمت ذلك؟ قال: لأنني سمعتك تقول: إنني أستيقظ بالليل فأدعو بالكتب، فأضعها بين يدي، وأدعو بوصيف فأمره أن يَمْرَخَ^(١) ظهري بالدهن، فيفعل ذلك، وأنا مقبلٌ على كتبي وتدبيرِي، والنظرُ في أموري؛ فعلمتُ أنك لا تدعُ شيئاً يكون موقعه منك هذا الموقع وتؤثر به غيرك.

فقال: ما كنتُ أرى أن أحداً يتفقّد ما تفقّده، وقد أصبتَ الرأي وأحسنْتَ.

بارك الله عليك!

الأمين والمأمون بين يدي الرّشيد^(٢)

قال محدث: إن الرّشيد ناظر يحيى بن خالد؛ أي ولديه يعهد إليه، وعلم يحيى بن خالد ميله إلى أمّ جعفر وإيثاره هواها؛ فقال: أمير المؤمنين أعلم بولده، وكان المأمون والأمين حاضرين، فأغرى^(٣) كلَّ واحد منهما بالآخر، فأسرع^(٤) الأمين وحلّم المأمون، ثم أمرهما بالمصارعة، فوثب الأمين، وثبت المأمون جالساً. فقال له الرّشيد: مالك اليوم يا عبد الله! أخفت ابن الهاشميّة؟ أما إنه لا يُد^(٥)، فقال المأمون: هو كما ذكر أمير المؤمنين، ولكنني لم أخفه، ولكن قبض يدي عنه ما قبض لساني حين نال مني. فقال الرّشيد: وما الذي قبض يدك ولسانك عنه؟ قال: قول الأمويّ لبنيه متمثلاً^(٦):

انفوا الضّعائن ^(٧) بينكم وتواصلوا	عند الأبعاد والحضور الشّهيد
فصلاح ذات البين طولٌ بقائكم	وَدَمَارُكُمْ بتقطع وتفرد
إن القداح إذ جُمعن ورامها	بالكسر ذو خنقٍ وبَطْشٍ أيدي
عزت ولم تُكسر وإن هي بددت	فالوهن والتكسير للمتبديد
فلمثل ريب الدهر ألف بينكم	بتعاطفٍ وتراحمٍ وتوددٍ
حتى تلين جلودكم وقلوبكم	لمسود منكم وغير مسود

فرّق الرّشيد رقّةً شديدة، واغرورقت عيناه بالدموع، ثم تشدّد وكفّفها^(٨) وأقبل على الأمين، وقال: يا محمد؛ ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمر هذه

(٢) أبناء نجباء الأبناء: ١١٣.

(٤) أسرع: أي أسمعها قولاً مكروهاً.

(٦) الأبيات أنشدها عبد الملك يوصي بها ولده.

(٨) كفّفها: كفها.

(١) يمرخ: يدهن.

(٣) أغرى بينهم: سلط أحدهم على الآخر.

(٥) أيد: شديد. والأيد: القوة.

(٧) الضّعائن: الأحقاد.

الأمة؟ قال: أكون مهديها يا أمير المؤمنين. فقال الرشيد: إن تفعل فأنت أهل لذلك.

ثم أقبل على المأمون وقال له: يا عبد الله؛ ما أنت صانع إن صرَفَ الله إليك أمرَ هذه الأمة؟ فابتدرت دموعُ المأمون، وفطن الرشيد لما أبكاه، فلم يملك عينيه فأرسلهما، ويكى يحيى؛ فلما قَضُوا من البكاء أَرْبَا^(١) بكى الأمين لبكائهم، فأعاد الرشيدُ المسألة للمأمون. فقال: أعفني يا أمير المؤمنين من ذلك. فقال: عزمتُ عليك لتقولنّ، فقال: إن قدر الله ذلك أجعل الحزن شعارًا^(٢)، والحزم دِنَارًا، وسيرة أمير المؤمنين مَشْعَرًا لا تَسْتَحِلَّ حرَماته، وكتابًا لا تَبْدُل كلماته.

فأشار إليهما بالانصراف، فذهبا، ثم أقبل على يحيى بن خالد فأنشد بيت صخر بن عمرو بن الشريد السلمي أخي الخنساء، وهو قوله:

أهمُّ بأمر الحزم لو أستطيعُهُ وقد حِيلَ بين العيرِ والنَّزوانِ^(٣)

فقال يحيى بن خالد: هياَ الله لأمير المؤمنين من أمره رَشَدًا.

قَمَرًا مَجْدٍ فَرَعًا خِلَافَهُ^(٤)

قال الكسائي^(٥): دخلتُ على الرشيد، فلما قضيتُ حقَّ التسليم والدعاء، وثبتتُ للقيام، فقال: اقعد، فلم أزل عنده حتى خف عامَّةً من كان في مجلسه، ولم يبق إلا خاصَّتُهُ، فقال لي: يا علي؛ ألا تحبُّ أن ترى محمدًا وعبد الله^(٦)! قلت: ما أشوقني إليهما يا أمير المؤمنين، وأسرّني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما.

(١) الأرب: الحاجة.

(٢) الشعار: ما ولي الجسد من الثياب، والدثار: ما فوق ذلك.

(٣) العير: حمار الوحش. النزوان: الوثوب. والبيت مثل، وأول من قاله صخر.

(٤) المسعودي: ٢ - ٢٧١، معجم الأدياء: ١٣ - ١٧٣، المحاسن والمساوي: ٤٤٠.

(٥) اسمه علي بن حمزة وأصله من فارس أشهر نحاة الكوفة وأحد القراء السبعة، استقدمه الخلفاء العباسيون ليعلم أبناءهم، وألف كثيرًا من الكتب في النحو والقراءات والأدب وال نوادر، توفي سنة ١٨٩ هـ.

(٦) محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد.

فأمر بإحضارهما، فلم ألبث أن أقبلت كوكبي أفق، يزينهما هدوء ووقار، وقد غَضًا أبصارهما، وقاربا خطوهما، حتى وقفا على باب المجلس، فسألما على أبيهما بالخلافة؛ ثم قالوا: تتم الله على أمير المؤمنين نعمه، وشفعها بشكره، وجعل ما قلده من هذا الأمر أحمد عاقبة، ولا كدر عليه ما صفا، فقد صرت للمسلمين ثقة؛ إليك يفزعون في أمورهم، ويقصدون في حوائجهم.

فأمرهما بالدنو منه؛ فصير محمدًا عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم التفت إليّ فقال: يا عليّ؛ ما زلتُ ساهرًا مفكرًا في معاني آياتٍ قد خفيت عليّ! قلت: أن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها! فأنشدني:

قَدْ قُلْتُ قَوْلًا لِلْغَرَابِ إِذَا حَجَلْنَ عَلَيْكَ بِالْقُودِ الْمَسَانِيفِ الْأُولِ
تَغْدًا مَا شِئْتَ عَلَى غَيْرِ عَجَلْنَ

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ إن العير^(١) إذا فصلت من خيبر، وعليها التمر، يقع الغراب على آخر العير فيطردها السواق؛ يقول: تقدم إلى أوائل العير؛ فكل على غير عجل. والقود: الطوال الأعناق. والمسانيف: المتقدمة.

ثم أنشدني:

وَإِنِّي وَإِنْ عَشَرْتُ مِنْ خَشِيَةِ الرَّدَى نُهَاقَ حِمَارٍ إِنَّنِي لَجَزُوعٌ^(٢)

قلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ كان الرجل من العرب إذا دخل خيبر أكب على أربع، وعشر تعشير الحمار؛ وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حُمى خيبر.

ثم أنشدني قول الآخر:

أَجَاعِلُ أَنْتَ بِيَقُورًا مُضْرَمَةً ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطْرِ^(٣)

قلت: نعم، كانت العرب إذا أبطأ المطر شدت العُشر^(٤) والسَّلَع، وهما ضربان من النبت في أذنان البقر والهبوا فيه النار، وشردوا البقرة تفاؤلاً بالبرق والمطر.

(١) العير: الإبل التي تحمل الميرة.

(٢) البيت لعروة بن الورد.

(٣) اسم جمع لبقرة، وفي اللسان: «مسلمة» بدل مضرمة، والبيت للورد الطائي.

(٤) شجر لم يقتدح الناس في أجود منه.

ثم أنشدني لرجل آخر .

ويزب ملاح قد رأيت وجوههم
إنات أدانيه، ذكور أوأخره
فقلت: إنه يعني الأضراس .

ثم أنشدني قول الآخر:

فإني إذن كالثور يُضربُ جَنبُه
إذا لم يَعَفْ شربًا وعافت صَواجِبُه
قلت: نعم، كانت العرب إذا أوردت البقر، فشربت الثيران وأبت البقر
ضربت الثيران حتى تشرب البقر، وهو كما قال: «كالثور يُضربُ لما عافت البقر» .
ثم أنشدني:

بِمُنْحَدِرٍ مِنْ رَأْسِ بَرْقَاءَ حَطَّهُ
تَذَكُرُ بَيْنَ حَبِيبِ مُزَايِلِ

قلت: نعم، يعني الدموع . والبرقاء: العين؛ لأن فيها سوادًا وبياضًا .
وحطه: أساله، وحبيب: محبوب، ومزاييل: مفارق .

فوثب الرشيد فجذبني إلى صدره، وقال: لله در أهل الأدب! ثم دعا
بجارية، فقال لها: احملني إلى منزل الكسائي خَمَسَ بِدَرٍ عَلَى أَعْنَاقِ خَمْسَةِ أَعْبَدِ
يلزمون خِدْمَتَه .

ثم قال لي: استشهدهما - يعني ابنيه - فأنشده محمد الأمين:

وَإِنِّي لَعَفْتُ الْفَقْرَ مُشْتَرِكُ الْغَنَى
وَشَكْلِي شَكْلٌ لَا يَقُومُ بِمِثْلِهِ
وَلِي نَيْقَةٌ فِي الْمَجْدِ وَالْبُدْلِ لَمْ يَكُنْ
وَأَجْعَلُ مَالِي دُونَ عِزِّضِي جُنَّةً
وَأُنشِدُنِي عَبْدَ اللَّهِ الْمَأْمُونُ:

بَكَرَتْ تَلُومُكَ مَطْلَعِ الْفَجْرِ
وَلَقَدْ تَلُومٌ بِغَيْرِ مَا تَذْرِي
مَا إِنْ مَلَكَتْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ
إِذْ لَا يُحَكِّمُ طَائِعًا أَمْرِي^(٢)

(١) النيقة اسم من تنوق في الأمر: تجود وتأنق فيه .

(٢) حكم الأمر: أحكمه .

مَلِكُ الْمَلُوكِ عَلِيٌّ مُفْتَدِرٌ يعطي إذا ما شاء من يُسْرِ
 قَلْبٌ مُغْتَبِطٌ بِمَرَزِيَّةٍ ومُفَجَّعٌ بنوائِبِ الدَّهْرِ
 ومُكاشِحٌ لي قد مَدَدتْ له نَحْرًا بِلَا ضَرْعٍ وَلَا غَمْرٍ^(١)
 حتى يقول لنفسه لهفًا في أيِّ مذهبٍ غايَةَ أَجْرِي
 وترى قناتي حين يغمزها غَمَزَ الثُّقَافَ بطيئَةَ الكَسْرِ

ثم أمرني أن أسألهمَا، ففعلت؛ فما سألتهمَا عن شيء إلا أحسنًا الجوابَ فيه والخروج منه، فسُرَّ بذلك الرشيد، حتى تبيّنته فيه، ثم قال: يا عليُّ؛ كيف ترى مذهبهما وجوابهما؟ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ هما كما قال الشاعر:

أرى قمرني مجدٍ وفرعي خلافةٍ يزينهما عزقٌ كريمٌ ومختدٌ
 يسُدَّانَ آفاقَ السماءِ بِشيمَةٍ يؤيِّدُها حزمٌ وعَضْبٌ مُهْنَدٌ
 سَلِيلِي أمير المؤمنين وحائِزِي موارِثَ ما أبقي النبيُّ مُحَمَّدُ

يا أمير المؤمنين، هما فرعٌ زكا أصله، وطاب مغرسه، وتمكنت في الثرى عزوقه، وعذبت مشاربه، أبوهما ملكٌ أغر، نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم، فهما يستضيئان بنوره، وينطقان بلسانه، ويتقلبان في سعادته، فامتع الله أمير المؤمنين بهما، وأنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما! فما رأيت أحدًا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب^(٢) منهما لسانًا، ولا أعذب كلامًا، ولا أحسن ألفاظًا، ولا أشدَّ اقتدارًا على تادية ما حفظا ورويا؛ ودعوتُ لهما دعاء كثيرًا، وأمن الرشيد على دعائي، ثم ضمهما إليه، وجميع يديه عليهما فلم يبسطها حتى رأيتُ الدموع تنحدر على صدره؛ رقةً عليهما وإشفاقًا. ثم أمرهما بالخروج.

فلما خَرَجَا أقبل عليّ، فقال: كأنك بهما - وقد حُمَّ القضاء، ونزلت مقاديرُ السماء، وبلغ الكتابُ أجله، وانتهى الأمرُ إلى وقته المحدود، وحينه المسطور، الذي لا يدفعه دافع، ولا يمنع منه مانع - قد تشئتُ أمرهما، وافتترقت كلمتهما، وظهر تعاديهما، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء، وتكثر القتلى، وتُهتكَ

(١) الضرع: من ضرع: إذا ذل وخضع. والغمر: من لم يجرب الأمور، وبالتحريك: الحقد.

(٢) الذرب: الحديد اللسان.

سُتور النساء، ويتمنى كثيرٌ من الأحياء أنهم في عداد الموتى! قلت: أياكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رأيت، أو لرؤيا؛ أو لشيء تبين لك في أصل مولدهما، أو لأثر وقع لأمر المؤمنين في أمرهما؟ فقال: لا؛ بل أثر صحيح؛ حملته العلماء، عن الأوصياء عن الأنبياء!

قَرَرْنَا عَيْنَ (١)

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي^(٢): كانت أمُّ جعفر بن يحيى تزورُ أُمِّي؛ وكانت لبيبةً من النساء، حازمةً فصيحةً بَرَزَةً^(٣) يُعجبني أن أجدها عند أُمِّي فأستكثرُ من حديثها؛ فقلت لها يوماً: يا أمَّ جعفر؛ إن بعضَ الناس يفضّل جعفرًا على الفضل، وبعضهم يفضّل الفضل على جعفر، فأخبريني. فقالت: ما زلنا نعرفُ الفضلَ للفضل. فقلت: إنَّ أكثرَ الناس على خلاف هذا. فقالت: سأحدثك واقصِ أنت - وكان ذلك الذي أردتُ منها.

قالت: كانا يوماً يلعبان في داري، فدخل أبوهما فدعا بالغذاء وأحضرهما، فطعما معه، ثم أنسهما بحديثه وقال لهما: أتلعبان بالشطرنج؟ فقال جعفر - وكان أجزأهما: نعم! قال: فهل لاعبت أخاك بها! قال جعفر: لا. قال: فالعبا بها بين يدي لأرى لمن الغلب، فقال جعفر: نعم! وكان الفضلُ أبصرَ منه بها، فجيء بالشطرنج، فصُفِّتَ بينهما، وأقبل عليها جعفر، وأعرض عنها الفضل.

فقال له أبوه: ما لك لا تلاعب أخاك؟ فقال: لا أحبُّ ذلك. فقال جعفر: إنه يرى أنه أعلم بها مني فيأنف من مُلاعبتني؛ وأنا ألاعبه مُخاطرةً^(٤).

فقال الفضل: لا أفعل. فقال أبوه: لاعبه وأنا معك. فقال جعفر: رضيتُ، وأبى الفضل واستعفى أباه فأعفاه.

ثم قالت لي: قد حدثتكَ فاقصِ، فقلت: قد قضيتُ بالفضل لجعفر على أخيه. فقالت: لو علمتُ أنك لا تحسن القضاء لما حكمتك، أفلا ترى أن جعفرًا

(١) أنباء نجباء الأبناء: ١٣٠.

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن صاحب صلاة الكوفة.

(٣) البرزة من النساء التي تظهر للناس ويجلس إليها القوم، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة.

(٤) المخاطرة: المراهنة.

قد سقط أربع سقطات تنزه الفضلُ عنهنَّ. فسقط حين اعترفَ على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج، وكان أبوه صاحبِ جدِّ. وسقط في التزام مَلاعبة أخيه، وإظهار الشهوة لغلبه، والتعرض لغضبه. وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحِرْص على مال أخيه. والرابعة قاصِمة الظُّهر حين قال أبوه لأخيه: لاعبه وأنا معك، فقال أخوه: لا، وقال هو: نعم؛ فناصر^(١) صفًا فيه أبوه وأخوه.

فقلت: أحسنت والله، وإنك لأقضى من الشَّغبي^(٢)! ثم قلت لها: عزمت عليك أخبريني؛ هل خفيَ مثل هذا على جعفر وقد فطن له أخوه؟ فقالت: لولا العزْمة^(٣) لما أخبرتك، إن أباهما لما خرج قلتُ للفضل خاليةً به: ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك؟ فقال: أمران: أحدهما لو لاعبته لغلبته فأخجلته، والثاني قول أبي: لاعبه وأنا معك؛ فما يسرني أن يكون أبي معي على أخي. ثم خلوت بجعفر فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمُّ أخوك وتتعرف، وأبوك صاحبُ جدِّ! فقال: إني سمعت أبي يقول: نغم لهُو البال المكدود^(٤)! وقد علم ما نلقاه منكذِّ التعلُّم والتأدُّب، ولم آمن أن يكون بلغه أنا نلعبُ بها وأن يُبادر فينكر، فبادرتُ بالإقرار إشفاقًا على نفسي وعليه؛ وقلت: إن كان توييخُ فديته من المواجهة به.

فقلت له: يا بُني؛ فلم تقول لأعبه مخاطرة؟ كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله! فقال: كلاً، ولكنه يستحسن الدواة التي وهبها لي أميرُ المؤمنين فعرضتها عليه؛ فأبى قبولها، وطمعتُ أن يلاعبنى فأخاطره عليها، وهو يغلبني فتطيبُ نفسه بأخذها.

فقلت لها: يا أمّاه؛ ما كانت هذه الدواة؛ فقالت: إن جعفرًا دخل على أمير المؤمنين فرأى بين يديه دواةً من العقيق الأحمر محلّاةً بالياقوت الأزرق والأصفر، فرآه ينظرُ إليها فوهبها له. فقلت: إيه.

فقلت: ثم قلت لجعفر: هبك اعتذرت بما سمعتُ؛ فما عذرُك من الرضا بمناسبة أبيك حين قال: لاعبه وأنا معك؟ فقلت أنت: نعم، وقال هو: لا.

(١) ناصب الصف: وقف إزاءه وعاداه. (٢) الشغبي: أحد رجال الحديث والقضاء.

(٣) عزم عليه: أنسم، وعزمت عليك: أي أمرتك أمرًا جدًّا، وهي العزيمة.

(٤) كده: أجهده وأتعبه.

فقال: عرفتُ أنه غالبِي، ولو فتر لعُبه لتغالبتُ معه، مع ما له من الشرف والسرور بتحيزُ أبيه إليه.

قال محمد بن عبد الرحمن: فقلت: يخ بخ^(١)! هذه والله السيادة! ثم قلت لها: يا أمّاه، أكان منهما من بلغ الحُلْم؟ فقالت: يا بني، أين يُذهبُ بك؟ أخبرك عن صبيين يلعبان فتقول: أكان منهما من بلغ الحلم! لقد كُنا ننهي الصبيّ إذا بلغ العشر وحضر من يُستحي منه أن يتّسم!

حيلة وال^(٢)

بلغ الرشيد أن موسى بن عيسى^(٣) - وكان أميرًا على مصر من قبله - عازم على خَلعه، فقال: والله لأعزلنّه بأخسّ من على بابي! وقال ليحيى بن خالد^(٤): اطلب لي كاتبًا عفيفًا يصلح لعمل مصر، واكتم خبره، فلا يشعر به موسى حتى يَفجأه، فقال: قد وجدته، قال: من هو؟ قال: عمر بن مهران^(٥).

فكتب له بخطه كتابًا إلى موسى بتسليم العلم إليه، فسار وليس معه غيرُ غلام أسود على بغل استأجره؛ ومعه خُرُجٌ فيه قميص وطيلسان^(٦) وخُف!

فلما وصل إلى مصر نزل خانًا، فأقام فيه ثلاثة أيام يبحث عن أخبار البلد، وعمّن فيه من العمال؛ وأخبر من كانوا بجواره في الخان أنه قد وُلّي مصر؛ واستعمل منهم كاتبًا وحاجبًا وصاحبَ شرطة، وقد آخَر بيت المال؛ وأمر من تبعه ووَثق به أن يدخلَ معه على موسى، فإذا سمعوا حركة في دار الإمارة قبضوا على الديوان.

فلما أبرم أمره بكر إلى دار الإمارة؛ فأذن موسى للناس إذنا عامًا، فدخل في جملتهم ومن اتفق معهم، وموسى جالس في دُسته^(٧)، والقوادُ بين يديه، وكلُّ من

(١) يقال: يخ بخ، إعجابًا بالشيء وإظهارًا للسرور به.

(٢) غرر الخصائص: ٤٤، النجوم الزاهرة: ٢ - ٧٨.

(٣) هو موسى بن عيسى الأمير العباسي، ولي إمرة مصر على الصلاة سنة ٢٧١ هـ، ثم عزله الرشيد وولاه ثانية سنة ١٧٤ هـ وعزل سنة ١٧٦ هـ، وكان عاقلاً جوادًا ممدوحًا.

(٤) يحيى بن خالد: وزير هارون الرشيد.

(٥) كان عمر قائدًا للجيش كاتبًا للخراج كما كان مديرًا لأملاك الدولة.

(٦) الطيلسان: نوع من الأكسية. (٧) الدست: صدر البيت.

فُضِيَتْ حاجته ينصرف. وعمرُ جالس، والحاجبُ ساعة بعد ساعة يسأله عن حاجته، وهو يتعأقلُ، حتى خَفَّ الناس، فتقدَّم، وأخرج كتابَ الرشيد ودفعه لموسى؛ فقبَّله ووضعهُ على رأسه، ثم فَتَحَهُ وَقَرَأَهُ فَانْتَقَعَ^(١) لَوْنَهُ؛ وقال: السمع والطاعة.

ثم قال: أقرىء أبا حفص السلام، وقل له: كُنْ بموضعك حتى نتخذَ لك منزلاً، ونأمر الجند يستقبلونك! أنا عمر بن مهران، وقد أمرني أميرُ المؤمنين أن أقيمك للناس وأُصِيفَ المظلوم منك، وأنا فاعل ما أمرني به أميرُ المؤمنين!

فقال له موسى: أنت عمر بن مهران! قال: نعم! قال: لعن الله فرعون حيث قال: أليس لي ملكُ مصر؟ واضطرب المجلس.

فقبض على الديوان؛ ونزل موسى عن فرشه، وقال: لا إله إلا الله! هكذا تقوم الساعة! ما ظننتُ أن أحداً بلغ من الحيلة والحزم ما بلغت؛ تسلمت مني العمل، وأنت في مجلسي!

ثم نهض عمر إلى الديوان، ونظر فيه، وأمر ونهى، وعزل وولى.

أعطني على قدرِي^(٢)

دخل رجلٌ بدويٌّ عليه شَعَثُ السفر، على داود^(٣) المهلبى - وكان إذا حضرَ الطَّعَامُ يتقدَّمُ بِصَرْفِ البَوَابِينِ، ولا يمنعُ من الوصول إلى طعامه - فلما فرغ من الطعام وثب قائماً وأومى إليه، وقال: مَنْ أَنْتَ يا فتى؟ قال: شاعرُ قَصْدَتِكَ بأبياتٍ من الشعر. قال داود: مهلاً قليلاً، ثم دعا بقوس فأوترها^(٤)، وأومى إليه، وقال له: قل، فإن أنت أحسنتَ خلعتُ وأجزلتُ وإن أخطأتَ رميتك بهذا السهم يقع في أي موضعٍ يقع فيه؛ فتبسَّم البدوي، وقال:

أمننتُ بدادودِ وجُودِ يمينه من الحَدِيثِ المرهوبِ والبؤسِ والفقرِ
وأصبحتُ لا أخشى بدادودِ نَبْوَةً ولا حَدَثَانَا إن شَدَدْتُ به أزرِي

(٢) المختار من نوادر الأخبار - مخطوط.

(١) انتقع لونه: تغير.

(٣) هو داود بن يزيد بن حاتم المهلبى أمير من الشجعان العقلاء، كان والياً على إفريقية، وبقي في إمارتها تسعة أشهر، ثم ولاة الرشيد السند، فانسقت له أمورها، واستمر بها إلى أن توفي سنة ٢٠٥ هـ.

(٤) أوتر قوسه: جعل لها وترًا.

له حكمٌ لُقَمَانٍ وصورةٌ يوسف
فتى تهزُبُ الأموال من جُودِ كَفِّه
مُلْكُ سَلِيمَانَ وصدقُ أَبِي ذَرٍّ
كما يهزُبُ الشيطانُ من لَيْلَةِ القَدْرِ
فَقَوْسُ قَوْسِ الجودِ، والوترُ الندى
وسَهْمُكُ فيهِ الموتُ، فاقتل به فقري

فضحك داود ورمى بسهمه مع القوس من يده، وقال: يا فتى العرب؛ بالله هل كان ذكرُ القوس في الأبيات؟ فقال: لا والله! ففرح بذلك، وقال: يا فتى العرب؛ بالله أيما أحب إليك: أعطيك على قَدْرِكَ أم على قَدْرِي؟ قال: بل على قَدْرِي! قال: كم على قَدْرِكَ؟ قال: مائة ألف درهم، فأمر له بها.

ثم قال: ما منعك أن تقولَ على قدري؟ فقال: أيها الأمير؛ أردتُ أن أقول ذلك، فإذا الأرض لم تُساوِ قَدْرَ الأمير، فطلبتُ على قدري! فقال: لله دُوك! والله إنَّ تُرْكَ لأحسنُ من نظْمِك! وأمر له بمائة ألف ثانية، وأمره ألا يَنْقَطَعَ عنه.

طَاهِرُ بنِ الحَسِينِ وَالمَأْمُونِ^(١)

لما انقبضَ طاهر^(٢) بن الحسين بخراسان عن المأمون، وأخذ جِذْرَهُ أَدَبَ له المأمون وَصِيْفًا^(٣) بأحسن الآداب، وعَلِمَهُ فنونَ العلم، ثم أهداه إليه مع الطاف كثير من طرائف العراق، وقد واطأه على أن يَسْمَهُ، وأعطاه سُمَّ ساعة، ووعدته على ذلك بأموالٍ كثيرة.

فلما انتهى إلى خراسان، وأوصل الهديةَ قَبْلَ طاهر الهدية، وأمر بإنزال الوصيف في دار، وأجرى عليه ما يحتاجُ إليه من التَّوسعة؛ وتركه أشهرًا.

فلما برم الوصيف بمكانه كتب إليه:

يا سيدي؛ إن كنتَ تقبلني فأقبلني، وإلا فردني إلى أمير المؤمنين!

فأرسل إليه، وأمر بإدخاله؛ فلما انتهى إلى باب المجلس الذي كان فيه أمره بالوقوف عند باب المجلس، وقد جلس على لَبْدٍ أبيض وقرع^(٤) رأسه، وبين يديه

(١) العقد الفريد: ١ - ٢٥٩.

(٢) كان طاهر بن الحسين أكبر من اشتهر في عهد المأمون بقيادة الجيوش وضمن النقيبة وبعد الصيت، وهو الذي قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ. ولاء المأمون خراسان، وكان مستقلًا بها، يؤدي الخراج عن عمله بها، وتغير عليه المأمون حينما بلغه أنه امتنع عن الدعاء له على المنبر، وتوفي بمرور سنة ٢٠٧ هـ.

(٣) الوصيف: الخادم والخادمة. (٤) قرع رأسًا: ضربه بالعصا.

مصحف منشور، وسيف مسلول. فقال: لقد قبلنا ما بعث به أمير المؤمنين غيرك؛ فإننا لا نقبلك، وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين، وليس عندي جواب أكثره إلا ما ترى من حالي، فأبلغ أمير المؤمنين السلام؛ وأعلمه بالحال التي رأيتني فيها.

فلما قدم الوصيف على المأمون، وكلمه ما كان من أمره، ووصف له الحال التي رآه فيها شاور وزراءه في ذلك؛ وسألهم عن معناه فلم يعلمه واحد منهم، فقال المأمون: لكنني قد فهمت معناه: أما تقريره رأسه جلوسه على اللبّد الأبيض فهو يخبرنا أنه عبد ذليل. وأما المصحف المنشور فإنه يذكرنا بالعهود التي له علينا، وأما السيف المسلول فإنه يقول: إن نكثت تلك العهود فهذا يحكم بيني وبينك. أغلقوا عنا باب ذكره، ولا تهيجوه في شيء؛ فلم يهجه المأمون حتى مات!

مَلِكٌ لَا تَعْتَصِمُ الطَّيُورُ مِنْهُ (١)

قصد المنصور بن عامر رجل جوهرى من تجار المشرق من مدينة عدن، بجوهر كثير وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنته؛ ودفع إلى التاجر الجوهري صُرتَه - وكانت قطعة يمانية - فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شطّ النهر، فلما توسّطها واليوم قاتظ؛ وعرقه منصب، دعت نفسه إلى التبرّد في النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشطّ، فمرت جدأة فاخطفت الصرة، تحسبها لحمًا، وطارَت في الأفق ذاهبة بها.

فقامت قيامة التاجر؛ وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة، فأسرّ الحزن في نفسه، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها، واستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة، فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصته، فقال له: هلاً أتيت إلينا حين وقوع الأمر فكنا نستظهر على ذلك بالحيلة! فهل هُديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها! قال: مرّ شرقاً على سمّت^(٢) هذا الجبل الذي يلي قصرِك - يعني الرملة.

فدعا المنصور شرطيه الخاص به، فقال: جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة؛ فمضى وجاء بهم سريعاً. فأمرهم بالبحث عن غير حال الإقلال^(٣) منهم سريعاً،

(٢) السمّت: الطريق.

(١) نفح الطيب: ١ - ١٩٢.

(٣) الإقلال: الفقر.

وانتقل عن الإضاعة دون تدرّيج، فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يا مولانا؛ ما نعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعملُ هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السَّبِقَ بأقدامهم؛ عَجْزًا عن شراء دابة، فابتاع اليوم دابةً واكتسى هو وولده كُسوَةً متوسطةً.

فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجرَ بالعدوّ إلى الباب فحضر الرجلُ بين يدي المنصور فاستدّناه، والتاجرُ حاضر. وقال له: سبّب ضاع منا وسقط إليك، ما فعلتَ به؟ قال: ها هو ذا يا مولاي - وضرب بيده إلى حُجْزَةٍ^(١) سراويله، فأخرج الصُرةَ بعينها - فصاح التاجر طربًا، وكاد يطير فرحًا.

فقال له المنصور: صِفْ لي حديثها. فقال: بينا أنا أعمل تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتها، وراقني منظرها، فقلت: إن الطائر اختلسها من قصرِكَ لُقْرُبِ الجوار، فاجتزتُ بها، ودعتني فاقتني إلى أخذ عشرة مئاقيل كانت معها مصرورة، وقلت: أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها.

فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خُذْ صُرَّتَكَ، وانظرها، واصدقني عن عددها. ففعل، وقال: وحَقِّكَ يا مولاي، ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبْتُها له.

فقال له المنصور: نحنُ أولى بذلك منك ولا تُنْغِصَ عليك فرحك، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضًا عن دنانيره، وللرجل بعشرة دنانير ثوابًا له، وقال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسغناه جزاء!

فأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطه. وقال: لأبشّن في الأقطار عِظَمَ ملكك، ولأبيّننَّ أنك تملك الطير، فلا تعتصم منك، ولا تؤذي جارك!

فضحك المنصور، وقال: اقصد في قولك يغفر الله لك! فعجب الناس من تلطّف المنصور في أمره وحيلته في تفريج كُرْبته!

صَبِيٌّ يَهْجُو صَبِيًّا^(٢)

كان أبو بكر بن المنخَل وأبو بكر المَلّاح متآخِثَيْنِ متصافِئَيْنِ، وكان لهما ابنان صَغِيران قد بَرَعَا في الطلب، وحازا قِصَبَ السَّبِقِ في حَلَبَةِ الأدب؛ فتهاجَى الابنان

(١) الحجزة من السراويل: موضع التكة. (٢) نفع الطيب: ٢ - ٣٠١.

بأقذع الهجاء، فركب ابن المنخل في سحر من الأسحار مع ابنه عبد الله، فجعل يعتب عليه على هجاء الملاح، ويقول له: قد قطعت ما بيني وبين صديقي وصفِّي أبي بكر في إقذاعك بابنه!

فقال له ابنه: إنه بدائي والبادي أظلم، وإنما يجب أن يلحى^(١) من بالشر تقدم؛ فعذره أبوه.

فبينما هما كذلك إذ أقبلا على واد تنق فيه الضفادع، فقال أبو بكر لابنه أجز:

تنق ضفادع الوادي

فقال ابنه:

بصوت غير معتاد

فقال الشيخ:

كأن نقيق مقولها

فقال ابنه:

بنو الملاح في الوادي

فلما أحست الضفادع بهما صمته، فقال أبو بكر:

وتضمته مثل صمتهم

فقال ابنه:

إذا اجتمعوا على زاد

فقال الشيخ:

فلا غوث لهمهوف

فقال الابن:

ولا غيث لمرتادا!

(١) يلحى: يلام ويعنف.

رَسُولَان (١)

أقبل المستكفي يوماً على محمد بن محمد بن يحيى الكاتب، فقال له: أتعرفُ خبر الحجاج بن يوسف مع أهل الشام؟ قال: لا يا أمير المؤمنين! قال: ذكروا أن الحجاج كان قد اجتبي (٢) قوماً من أهل العراق وجدّ عندهم من الكفاية ما لم يجد عند مختصيه من الشاميّين؛ فشق ذلك على الشاميّين، وتكلّموا فيه.

فبلغ إليه كلامهم؛ فركب في جماعة من الفريقين، وأوغل بهم في الصحراء، فلاح لهم من يعد قطار (٣) إبل، فدعا برجل من أهل الشام، فقال له: امض فاعرف ما هذه الأشباح؟ واستقص خبرها. فلم يلبث أن جاء وأخبره أنها إبل، فقال: أمحملة هي أم غير محملة؟ قال: لا أدري؛ ولكني أعود وأتعرف ذلك!

وقد كان الحجاج أتبعه برجل آخر من أهل العراق، وأمره بمثل ما كان قد أمر به الشاميّ، فلما رجع العراقيّ، أقبل عليه الحجاج - وأهل الشام يسمعون - فقال: ما هي؟ قال: إبل، قال: وكم عددها؟ قال: ثلاثون. قال: وما تحمل؟ قال: زيتاً. قال: من أين صدرت؟ قال: من موضع كذا. قال: ومن ربها! قال: فلان.

فالتفت إلى أهل الشام فقال:

ألأم على عمرو ولومات أو نأى لقلّ الذي يُغني عناءك يا عمرو

فقال ابن يحيى: قد قال يا أمير المؤمنين بعض أهل الأدب في هذا

المعنى:

شرُّ الرسولين من يحتاج مُرسله منه إلى العود، والأمران سيان

كذاك ما قال أهل العلم في مثل: طريق كل أخيه جهل طريقان

ثم قال المستكفي: ما أحسن ما وصف البحريّ الرسول بالذكاء بقوله:

وكأن الذكاء ينبعث منه في سواد الأمور شغلة نار

(٢) اجتباه: اختاره.

(١) المسعودي: ٢ - ٥٤١.

(٣) القطار: أن تشد الإبل على حق، واحداً حلف واحد.

أعجب السرقات^(١)

قال أبو الهيثم: اجتمع مالك بن^(٢) الرّيب وأبو خزّبة وشيظاظ يوماً، فقالوا: تعالوا نتحدث بأعجب ما عملناه في سرقتنا، فقال أبو خزّبة:

أعجب ما صنعتُ وأعجب ما سرقتُ أني صجبتُ رفقةً، فيها رجلٌ على رَحْلٍ فأعجبني، فقلت لصاحبي: والله لأسرقن رَحْلَهُ، ثم لا رضىتُ أو أخذ عليه جِعَالَةً^(٣).

فرمقته حتى رأيته قد خَفَقَ برأسه، فأخذت بخطام^(٤) جملة فقتلته، وعدلت به عن الطريق، حتى إذا صيّرته في مكان لا يغاث فيه إن استغاث أنخُت البعير وصرعته، فأوثقتُ يديه ورجليه وقدتُ الجملة فغيّيته، ثم رجعتُ إلى الرفقة، وقد فقدوا صاحبهم فهم يسترجعون^(٥)، فقلت: ما لكم؟ فقالوا: صاحبٌ لنا فقدناه؛ فقلت: أنا أعلمُ الناس بأثره؛ فجعلوا لي جعالة، فخرجت بهم أتبع الأثر حتى وقفوا عليه فقالوا: ما لك؟ قال: لا أدري، نَعَسْتُ، فانتبهتُ لخمسين فارساً قد أخذوني؛ فقاتلتهم فغلبوني!

قال أبو خزّبة: فجعلت أضحك من كذبه، وأعطوني جِعَالَتِي، وذهبوا بصاحبهم.

وأعجب ما سرقت: أنه مرّ بي رجلٌ معه ناقةٌ وجملٌ وهو على الناقة، فقلت: لأخذنهما جميعاً، فجعلت أعارضه وقد رأيته قد خَفَقَ برأسه، فدزّرت فأخذتُ الجملة فحللته وسقته، فغيّيته في القَصِيمِ^(٦)، ثم انتبه فالتفت فلم ير

(١) الأغاني: ١٩ - ١٦٣ (طبعة الساسي).

(٢) هو مالك بن الرّيب كان من أجمل العرب وأبينهم، ومر به سعيد بن عثمان بن عفان - لما ولاه معاوية خراسان، ومالك في نفر من أصحابه - فقال له: ويحك يا مالك! ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداء وقطع الطريق؟ قال: أصلح الله الأمير؛ العجز عن مكافأة الإخوان، قال: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل؟ قال: نعم أكف كأحسن ما كف أحد. فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينار، وكان معه حتى قتل بخراسان، ثم مكث مالك بخراسان حتى مات هناك.

(٣) الجعالة: ما يفرض على العمل. (٤) الخطام: الزمام.

(٥) استرجع عند المصيبة: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٦) القصيم: الموضع الذي كانوا يسرقون فيه.

جمله، فنزل وعقل راحلته، ومضى في طلب الجملة، ودُزْتُ؛ فحللت عقال ناقته، وسُقتها!

فقالوا لأبي حردبة: ويحك! فحتم تكون هكذا؟ قال: اسكتوا فكأنكم بي قد بُتُّ، واشتريت فرساً وخرجتُ، فبينما أنا واقفٌ إذ جاءني سهمٌ كأنه قطعة رِشاء^(١) فوقع في نحري فمُتُّ شهيداً.

قال الراوي: فكان كذلك؛ تاب وقدم البصرة، فاشترى فرساً، وغزا الروم فأصابه سهمٌ في نحره؛ فاستشهد!

ثم قالوا لشِظاظ: أخبرنا أنت بأعجب ما أخذت في لصوصيتك ورأيت فيها؟ فقال: نعم، كان فلان (رجلٌ من أهل البصرة) له بنت عم ذاتُ مال كثير، وهو وليها، وكانت له نسوة، فأبت أن تتزوج، فحلف ألا يزوجه من أحدٍ ضِراراً لها، وكان يخطبها رجلٌ غني من أهل البصرة، فأبى أن يزوجه منه، ثم إن ولي الأمر حججٌ، حتى إذا كان بالدو^(٢) مات فدفن بربابية وشيد على قبره، فتزوجت الرجل الذي كان يخطبها.

قال شظاظ: وخرجت رفقةً من البصرة معهم بُرٌ ومتاع، فتبصرتهم وما معهم واتبعتهم حتى نزلوا، فلما ناموا بيئتهم^(٣) وأخذتُ من متاعهم. ثم إن القوم أخذوني وضربوني ضرباً شديداً وجرّدوني، وذلك في ليلة قرّة^(٤)، وسلبوني كل قليل وكثير؛ فتركوني غريباً وتماوت لهم، وارتحل القوم، فقلت: كيف أصنع؟ ثم ذكرت قبر الرجل، فأتيته فنزعت لوحاً ثم احترقت فيه سرباً^(٥)؛ فدخلت فيه؛ ثم سدّدت عليّ باللوح، وقلت: لعليّ الآن أدفأ فأتبعهم.

ومر الرجل الذي تزوج بالمرأة في الرفقة. فمر بالقبر الذي أنا فيه فوقف عليه وقال لرفيقه: والله لأنزلنّ إلى قبر فلان، حتى أنظر هل يحمي الآن فلانة!

قال شظاظ: فعرفتُ صوته فقلعت اللوح، ثم خرجتُ عليه بالسيف من القبر، وقلت: بلى ورب الكعبة لأحميتها، فوقع والله مغشياً عليه لا يتحرك ولا يغفل، فجلستُ على راحلته، وعليها كل أداة وثياب ونقدٍ كان معه، ثم وجهتها

(١) الرشاء: رسن الدلو. (٢) الدو: مكان على مرحلة من البصرة.

(٣) بيت فلان بني فلان: إذا أتاهم ليلاً، فكبسهم وهم فارون.

(٤) ليلة قرّة: باردة. (٥) السرب: بيت في الأرض.

قصد مطلع الشمس هارياً من الناس فنجوثُ بها؛ فكنْتُ بعد ذلك أسمعُه يحدث الناس بالبصرة ويحلفُ لهم أن الميت الذي كان منعه من تزويج المرأة خرج عليه من قبره، والناسُ يعجبون منه؛ فعاقَلهم يكذِّبه، والأحمق منهم يصدقُه، وأنا أعرف القصة فأضحك منهم كالمتعجب!

قالوا: فزدنا. قال: فإن أزيدكم أعجب من هذا وأحمق من هذا: إني لأمشي في الطريق أبتغي شيئاً أسرقُه فلا والله ما وجدتُ شيئاً، وإذا أنا بشجرة ينام من تحتها الركبان في مكان ليس فيه ظلٌ غيرها، وإذا أنا برجلٍ يسير على حمار له.

فقلت له: أسمع! قال: نعم. قلت: إن المقيَل الذي تريد أن تقيله يُخسَفُ بالدواب فيه، فاحذره. فلم يلتفت إلى قولِي، ورمقته حتى إذا نام أقبلتُ على حمارة فاستقته، حتى إذا برزتُ به قطعت طَرَفَ ذنبه وأذنيه، وأخذت الحمار فخبأته وأبصرته حين استيقظ من نومه، فقام يطلب الحمار ويَقْفُو أثره؛ فبينما هو كذلك إذ نظر إلى طَرَفَ ذنبه وأذنيه، فقال: لعمري لقد حُدُرْتُ لو نفعني الحذر؛ واستمر هارياً خوف أن يخسَف به. فأخذت جميع ما بقي من رحله فحملته على الحمار!

حَدِيثُ عَنِ الْغَرِيِّينَ (١)

قال المهدي ذات ليلة - وكان أميراً على الرِّي من قبَل أبيه المنصور: يا شرقي^(٢)، أرخ قلبي بشيء يلهيه! قال: نعم أصلح الله الأمير: ذكروا أنه كان في ملوك^(٣) الحيرة ملك له نديمان: قد نزلا من قلبه منزلة مكينة، وكانا لا يفارقانه في لَهْوِه ومنامه ويقظته، وكان لا يقطعُ أمرًا دونهما، ولا يصدرُ إلا عن رأيهما، فغبر بذلك دهرًا طويلًا.

فبينما هو ذات ليلة في شُرْبِه ولَهْوِه إذ غلب عليه الشراب؛ فأزال عَقْلَه، فدعا بسيفه وانتصاه، وشدَّ عليهما فقتلهما، وغلبته عيناه فنام.

(١) مروج الذهب: ٢ - ٢٥٢، معجم البلدان: ٦ - ٢٨٣.

(٢) هو الشرقي بن القظامي: شاعر كلبي، كان وافر الأدب، عالمًا بالنسب، وكان المنصور قد ضمه إلى المهدي حين خلفه بالري، وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب، ومكارم الأخلاق، ودراسة الأخبار، وقراءة الأشعار.

(٣) ذكروا أنه النعمان بن المنذر.

فلما أصبح سأل عنهما فأخبر بما كان منه؛ فأكبَّ على الأرض؛ عاصبًا لها؛ تأسفًا عليهما، وجزعًا لفراقهما، وامتنع من الطعام والشراب، ثم حلف لا يشرب شرابًا يُزَعج قلبه ما عاش! وواراهما وبنى على قبريهما بناءين، وسماههما الغريين^(١)، وسنَّ ألا يمرَّ بهما أحدٌ من الملِك فَمَن دونه إلا سجد لهما، وكان إذا سنَّ الملِك سنة توارثوها، وأحيوا ذكرها ولم يُميتوها، وجعلوها عليهم حكمًا واجبًا وفرضًا لازمًا، وأوصى بها الآباء أعقابهم.

فغبر الناس بذلك دهرًا طويلًا، لا يمرُّ أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهما؛ فصار ذلك سنة لازمة كالشريعة والفريضة، وحُكِمَ فيمن أبى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يُحكَم له بخصلتين يُجاب إليهما كائنًا ما كان!

فمر يومًا قصار^(٢) معه كارة^(٣) ثياب، وفيها مدقته^(٤)، فقال الموكلون بالغريين للقصار: اسجد! فأبى أن يفعل. فقالوا له: إنك مقتول إن لم تفعل؛ فأبى.

فرفعوه إلى الملك، وأخبروه بقصته، فقال: ما منعك أن تسجد؟ قال: سجدت ولكن كذبوا علي! قال: الباطل قلت: فاحتكم في خصلتين؛ فأنت مجاب إليهما، وإنني قاتلك! قال: لا بد من قتلي بقول هؤلاء؟ قال: لا بد من ذلك، قال: فإني أحتكم أن أضرب رقبة الملك بمدقتي هذه! قال له الملك: يا جاهل؛ لو حكمت على أن أجري على من تُخلف وراءك ما يعينهم كان أصلح لهم!

قال: ما أحكم إلا بضربة لرقبة الملك! فقال الملك لوزرائه: ما ترون فيما حكم به هذا الجاهل؟ قالوا: نرى أن هذه سنة، وأنت أعلم بما في نقض السنن من العار والنار وعظم الإثم، وأيضًا إنك متى نقضت سنة نقضت أخرى، ثم يكون ذلك لمن بعدك كما كان لك، فتبطل السنن!

قال: فارغبوا إلى القصار أن يحكم بما شاء ويعفيني من هذه؛ فإني أجيئه إلى ما شاء، ولو بلغ حكمه شطر ملكي! فرغبوا إليه، فقال: ما أحكم إلا بضربة في عنق الملك!

(١) الغريان: بناءان بالكوفة؛ قيل: سميا بذلك لأن النعمان كان يغريهما بدم من يقتله.

(٢) قصر الثوب: صورته ودقه، وسمى القصار لأنه يدق الثياب بالقصرة، وهي قطعة من الخشب.

(٣) الكارة: ما يحمل على الظهر من الثياب. (٤) المدق: ما يدق به.

فلما رأى الملك ذلك وما عزم عليه القصار، قعد مقعدًا عامًا، وأحضر القصار، فأبدي مدقته، وضرب بها عنق الملك؛ فأوهنه وخرَّ مغشيًا عليه!

فأقام يشكو ما به سنة، فلما أفاق وتكلم، وأكل وشرب سأل عن القصار، فقيل: إنه محبوس؛ فأمر بإحضاره فحضر؛ فقال: لقد بقيت لك خصلة فاخكم بها، فإني قاتلك لا محالة؛ إقامة للسنة! قال القصار: فإذا كان لا بد من قتلي فإني أحكم أن أضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى!

فلما سمع الملك ذلك خرَّ على وجهه من الجزع، وقال: ذهب^(١) والله نفسي إذن. ثم للقصار: ويحك دغ عنك ما لا ينفعك، فإنه لم ينفعك منه ما مضى، واحكم بغيره وأنفذه لك كائنًا ما كان! قال: ما أرى حقي إلا ضربة أخرى!

فقال الملك لوزرائه: ما ترون؟ قالوا: هذا حقه! قال: ويلكم! إن ضرب الجانب الآخر ما شربت الماء البارد أبدًا!؛ لأنني أعلم ما قد نالني.

قالوا: فما عندنا حيلة!

فلما رأى ما قد أشرف عليه قال للقصار: أخبرني. ألم أكن قد سمعتك تقول يوم أتى بك الموكلون بالغريين: إنك قد سجدت، وإنهم كذبوا عليك؟ قال: قد كنت قل ذلك فلم أصدق! قال: فكنت سجدت؟ قال: نعم! فوثب من مجلسه، وقبل رأسه، وقال: أشهد أنك صادق، وأنهم كذبوا عليك، وقد وليتك موضعهم، وجعلت إليك أمرهم.

فضحك المهدي حتى فحص برجليه، وقال: أحسنت! ووصله.

مسلم يَحْتَالُ عَلَى قُرَيْشٍ (٢)

أسلم الحجاج^(٣) بن علاط السلمي، ولم تعلم قريش بإسلامه؛ فاستأذن رسول الله ﷺ يوم خيبر في أن يصير إلى مكة، فيأخذ ما كان له من مال - وكانت له أموال متفرقة هناك، وهو رجل غريب بينهم - فأذن له النبي، فقال: يا رسول الله؛ إني أحتاج أن أقول^(٤). قال: فقل؛ فصار إلى مكة.

(١) ذهب نفسي، أي هلكت.

(٢) وقد على النبي ﷺ وهو بخير، فأسلم. (٤) يريد: أقول على جهة الاحتيال.

فقلت قريش: هذا لعمرُ الله عنده الخير. قال: فقولوا. فقالوا: بلغنا أن القاطع^(١) قد خرج إلى أهل خيبر. فقال الحجاج: نعم! فقتلوا أصحابه قتلاً لم يُسمع بمثله، وأخذوه أسيراً، وقالوا: نرى أن نُكأرم^(٢) به قريشاً؛ فندفعه إليهم؛ فلا تزال لنا هذه اليدُ في رقابهم، وإنما بادرتُ لجمع مالي؛ لعلني أصيبُ به من قَل^(٣) محمد وأصحابه قبل أن يسبقني إليه التجار، ويتصل بينهم الحديث.

فاجتهدوا في أن جمعوا إليه ماله أسرعَ جمع، وسُرُّوا أكثرَ السرور، وقالوا بلا رُغم^(٤)!

وأتاه العباس بن عبد المطلب وهو كالمرأة الواله^(٥)، فقال: وَيْحَكَ يا حجاج! ما تقول؟ فقال: أكاتم عليَّ خبري؟ فقال: إي والله. فقال: فالبث^(٦) علي شيئاً حتى يخفَ موضعي.

ثم سار إليه، فقال له: الخبرُ والله على خلاف ما قلتُ لهم؛ خلقتُ رسول الله ﷺ، وقد فتح خيبر، وخلقته مُغرساً بابنة ملكهم^(٧)، وما جئتُك إلا مسلماً؛ فاطوِ الخبر ثلاثاً، حتى أُعجز^(٨) القوم، ثم أشعهُ، فإنه والله الحق.

فقال العباس: ويحك! أحقُّ ما تقول؟ قال: إي والله. فلما كان بعد ثلاثة تخلَّق^(٩) العباسُ وأخذ عصاه، وخرج يطوف بالبيت؟ فقلت قريش: يا أبا الفضل، هذا والله التجلدُ، فقال: كلا ومن حلفتُم به، لقد فتح رسول الله خيبر، وأعرَسَ بابنة ملكهم! فقالوا: مَنْ أتاك بها الحديث؟ فقال: الذي أتاكم بخلافه، ولقد جاءنا مسلماً.

ثم أتت الأخبار من النواحي بذلك! فقالوا: أفلتتنا الخبيث، أولى له^(١٠)!

-
- (١) يريدون رسول الله ﷺ البار الواصل رحمه، وكانوا يرمونه - سفهاً - بالقاطع، أي القاطع رحمه.
(٢) كارمه: غلبه في الكرم.
(٣) يريد من غنائم ذلك الفل.
(٤) وقالوا بلا رُغم: يريد وفعلوا ذلك بلا كره، العرب تجعل القول عبارة عن الفعل، وتطلقه على غير الكلام.
(٥) الوله: ذهاب العقل والتخير من شدة الوجد، ويقال امرأة واله ورجل واله.
(٦) امكث، وهو يريد اصبر.
(٧) يريد صفية بنت حي بن أخطب.
(٨) أعجز القوم: صيرهم عاجزين.
(٩) الخلوq: الطيب، وتخلق: طلى ثوبه به.
(١٠) أولى له: كلمة تهديد وتوعد.

دهاء عمرو بن العاص (١)

لما نزل عليُّ بنُ أبي طالب الكوفةَ بعد فراغه من أمرِ البصرة كتب إلى معاويةَ كتابًا يدعوهُ إلى البيعة، وأرسلَ جريرَ بن عبد الله البجلي، فقدم عليه به الشام، فقرأه فاغتمَ بما فيه وذهبت أفكاره كلَّ مذهب؛ وطاول جريرًا بالجواب عن الكتاب، حتى كلَّم قومًا من أهلِ الشام في الطلب بدم عثمان بن عفان فأجابوه ووثَّقوا له.

وأحبَّ الزيادة في الاستظهار، فاستعان بأخيه عُتْبَةَ بن أبي سُفْيَانَ؛ فقال: استعن بعمر بن العاص؛ فإنه من قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان بن عفان في حياته، وهو لأمرِك أشدُّ اعتزالًا، إلا أن يُثَمِّنَ له دينه، فسيبيحك، فإنه صاحب دنيا.

فكتب إليه معاوية: أما بعد، فإنه كان من أمر عليٍّ وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مزوان بن الحكم في نفر من أهل البصرة، وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك، فأقبل أذكرك أمورًا لا تعدُّم مَعْبَتَهَا إن شاء الله.

فلما قديم الكتاب على عمرو استشار ابنه: عبد الله بن عمرو، ومحمد بن عمرو؛ فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبد الله: أرى أن رسولَ الله ﷺ قبض وهو عنك راضٍ، والخليفتان بعده، وقُتِل عثمان وأنت غائب عنه؛ فقَرَّ في منزلِك فليست مجعولًا خليفة، ولا تزيدُ على أن تكون حاشيةً لمعاوية، على دنيا أو شكتما أن تهلكا وتفارقاها.

وقال محمد: أرى أنَّك شيخُ قريش وصاحبُ أمرها، وإن تصرَّمت هذا الأمر - وأنت فيه غافل - تصاغر أمرك؛ فالحق بجماعة أهل الشام، وكُن يدًا من أيديها، طالبًا بدم عثمان، فإنه سيقومُ بذلك بنو أمية.

فقال عمرو: أنت يا عبد الله قد أمرتني بما هو خير لي في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، وأنا أنظر.

(١) ابن أبي الحديد: ١ - ١٣٥، رغبة الأمل من كتاب الكامل: ٣ - ٢٠٨.

ثم دعا عمرو غلامه وَزْدَانَ - وكان داهيةً ماردًا - فقال: اِرْحَلْ يا وَزْدَانَ، ثم قال: احطط يا وَزْدَانَ! ثم قال: ارحل يا وَزْدَانَ، احطط يا وَزْدَانَ. فقال له وَزْدَانَ: خلطت أبا عبد الله، أما إنك إن شئت أنبأتك بما في قلبك، قال: هات، ويحك! قال: اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت: عليّ مع الآخرة في غير دنيا، وفي الآخرة عوض عن الدنيا ومعاوية مع الدنيا بغير آخرة، وليس في الدنيا عرض من الآخرة، وأنت واقف بينهما.

قال: قاتلك الله! ما أخطأت ما في قلبي، فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيم في بيتك؛ فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك، قال: الآن لما شهرت العرب سنيري إلى معاوية!

ثم ارتحل حتى قدم على معاوية، وعرف حاجته إليه، فباعده من نفسه، وكايد كل واحد منهما صاحبه.

فقال له معاوية يوم دخل عليه: أبا عبد الله؛ طرقتنا في ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها وزد ولا صدر. قال: وما ذاك؟ قال: منها أن محمد بن أبي حذيفة كسر سجن مصر، فخرج هو وأصحابه، وهو من آفات هذا الدين؛ ومنها أن قيصر زحف بجماعة الروح ليغلب على الشام؛ ومنها أن عليًا نزل الكوفة؛ وتهياً للمسير إلينا.

فقال عمرو: ليس كل ما ذكرت عظيمًا؛ أما ابن أبي حذيفة فما يتعاطمك^(١) من رجل خرج في أشباهه أن تبعك إليه رجلًا يقتله، أو يأتيك به، وإن قاتل لم يضرك؛ وأما قيصر فأهد له الوصائف وآنية الذهب والفضة، وسله الموادة فإنه إليها سريع؛ وأما علي، فلا والله يا معاوية، ما يسوي العربي بينك وبينه في شيء من الأشياء، وإن له في العرب لحظًا، ما هو لأحد من قريش، وإنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه.

قال معاوية: يا أبا عبد الله؛ إنني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصي الله وشق عصا المسلمين، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة، وفرق الجماعة وقطع الرحم.

(١) لا يعظم عليك.

فقال عمرو: والله يا معاوية، ما أنت وعليّ عدلاً بعير، ليس لك هجرته ولا سابقته، ولا صُحْبَتُهُ ولا جهاده، ولا فقههُ، ولا علمه؛ والله إن له مع ذلك لحظاً في الحرب ليس لأحد غيره، ولكني قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاءً جميلاً، فما تجعل لي إن شايئتُك على حربهِ، وأنت تعلم ما فيه من العُمر والخطر؟ قال: حُكْمُكَ فقال: مصر طعمة، فتلكاً معاوية وقال: يا أبا عبد الله؛ إني أكرهُ لك أن تتحدتَ العربُ عنك أنك إنما دخلتَ في هذا الأمر لِعَرْض الدنيا! قال عمرو: دَغْنِي عنك، فقال معاوية: إني شئتُ أن أمتيكَ وأخذعك لفعلت. قال عمرو: لعمرُ الله ما مثلي يُخدع، لأننا أكيسُ من ذلك، فقال معاوية: ادنُ مني أسارك. فدنا منه عمرو ليساره، فعضَّ معاوية أذنه، وقال: هذه خدعة، هل ترى في البيت أحداً غيري وغيرك! ثم تَلَكَّأ عليه وانصرف عمرو.

فلما حضر عتبة بن أبي سفيان قال لمعاوية: أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر؟ فقال معاوية: يا عتبة؛ بت عندنا الليلة. فلما جنَّ الليل على عتبة رفع صوته لسمع معاوية وقال:

أيها المانع سيفاً لم يهز	إنما ملت على خزٍ وقز
أعط عمراً إن عمراً تارك	دينه اليوم لدنيا لم تحز
أعط مصر وزده مثلها	إنما مصر لمن عز فبز
واترك الحرص عليها ضلة	واشيب النار لمقرور يُكز
إن مصر لعلِّي أو لنا	يُغلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع معاوية قول عتبة أرسل إلى عمرو فأعطاه مصر، وكتب له كتاباً

بها.

خدعة لمعاوية^(١)

سمع يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بجمال زينب بنت إسحق زوج عبد الله بن سلام القرشي؛ وكانت من أجمل النساء في وقتها، وأحسنهن أدباً، وأكثرهن مالاً؛ ففتن بها؛ فلما عيل صبره ذكر ذلك لبعض خاصّة أبيه، واسمه رفيق، فذكر ذلك لمعاوية، وقال له: إن يزيد قد ضاق دزعه بها.

(١) نهاية الأرب: ٦ - ١٨٠.

فبعث معاويةً إلى يزيد، فاستفسره عن أمره؛ فبئتُ له شأنه؛ فقال: مهلاً يا يزيد؛ فقال له: عَلَامَ تأمرني بالمَهَلِّ وقد انقطع منها الأمل؟ فقال له معاوية: فأين مُرُوءتك وِحْجَاك وتُفَاك؟ فقال: قَدْ عِيلَ الصبرُ، ولو كان أحدٌ ينتفع فيما يُبْتَلَى به من الهوى بَتُّقَاه، أو يَدْفَعُ ما أَقْصَدَهُ^(١) بِحِجَاهِهِ، لكان أَوْلَى الناس به داود^(٢) حين ابْتُلِيَ به.

فقال: أَكْتُم يا بُنَيَّ أمرَك؛ فَإِنَّ البَوَّاحَ به غيرُ نافعك؛ والله بالِغُ أمره فيك، ولا بُدُّ مما هو كائن.

وأخذ معاويةً في الاحتيال في تبليغ يزيد مَنَاه؛ فكتب إلى زوجها عبد الله بن سلام - وكان قد استعمله على العراق: أن أقبل حين تنظرُ كتابي لأمر فيه حَظُّك إن شاء الله تعالى، فلا تتأخر عنه.

فَأَغْذُ^(٣) السيرَ وَقَدِيمَ؛ فأنزله معاوية منزلاً كان قد هَيَّأ له، وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هُرَيْرَةَ وأبو الدرداء، فقال لهما معاوية: إن الله قد قَسَمَ بين عباده قَسَمًا، ووهبهم نِعْمًا أوجب عليهم فيها شكره، وحتَمَ عليهم حفظها، فحبابي منها عَزَّ وِجَلَّ بأتم الشرف وأفضل الذكر، وأوسع عليَّ الرزق، وجعلني راعي خُلُقِهِ، وأمينه في بلاده، والحاكِمَ في أمر عباده، لِيَبْلُونِي أَأشكر أم أَكْفُر! وأوَّلُ ما ينبغي للمرء أن يتفَقَّدَ وينظرَ من استرعاه الله أمره، ومن لا غنى به عنه.

وقد بلغت لي ابنة أريد زواجها والنظر في اختيار مَنْ يُبَاعِلُهَا^(٤)، ولعل مَنْ يكون بعدي يقتدي فيه بهذبي، ويتبع فيه أثري؛ فإنه قد يلي هذا الملك بعدي من يغلب عليه الشيطان، ويحمله على تعضيل البنات^(٥)؛ فلا يرون لها كفتًا ولا نظيرًا. وقد رضىتُ لها ابن سلام القرشي؛ لدينه وشرفه، وفضله ومرُوءته وأدبه؛ فقالا له: إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها، وطلب مرضاته فيما اختصه لأنت.

(١) أقصده: أقصدت الرجل إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطيء مقاتله.

(٢) يشير إلى داود عليه السلام، حينما تزوج من خطيبة أحد جنوده، ولقد عاتبه الله في ذلك، فاستغفره، فغفر له.

(٣) أغذ السير وفيه: أسرع.

(٤) يباعلها: يتخذها زوجًا وبعلاً.

(٥) تعضيل البنات: حبسهن عن الزواج ظلماً.

فقال لهما معاوية: فاذكُرا له ذلك عني! وقد كُنتُ جعلتُ لها في نفسي سُورَى، غير أنني أرجو ألا تخرج مِن رأيي إن شاء الله.

فخرجنا من عنده، وأتيا عبد الله بن سلام، وذكرَا له القصة.

ثم دخل معاوية على ابنته، وقال لها: إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة، فعرضاً عليك أمر عبد الله بن سلام، وحضّاك على المسارعة إلى اتباع رأيي فيه؛ فقولِي لهما: إنه كفاء كريم، وقريب حميم، غير أن تحته زينب بنت إسحاق، وأخاف أن يعرض لي من العيرة ما يعرض للنساء؛ فأتناول منه ما يسخط الله تعالى فيه، فيعذبنِي عليه، ولستُ بفاعلة حتى يفارقها.

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله، وأعلماه بقول معاوية، ردهما إليه يخطبان له منه، فأتياه؛ فقال: قد علمتما رضائي به، وجرّصي عليه، وكنت قد أعلمتكما الذي جعلتُ لها في نفسها من السورى؛ فاذخُلا عليها، واغرضاً عليها الذي رأيتُ لها.

فدخلتا عليها وأعلماهما، فقالت لهما ما قاله معاوية لها؛ فرجعا إلى ابن سلام، وأعلماه بما قالته.

فلما ظنّ أنه لا يمتنعها منه إلا فراق زينب أشهدهما بطلاقها، وأعادهما إلى ابنة معاوية.

فأتيا معاوية، وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجته؛ رغبةً في الاتصال بابنته؛ فأظهر معاوية كراهة فعله، وفراقه لزينب، وقال: ما استحسنْتُ له طلاق امرأته، ولا أحببته؛ فانصرفا في عافية، ثم عودا إليها، وخُذا رضاها.

فقاما ثم عادا إليه؛ فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها؛ وقال: لم يكن لي أن أكرهها، وقد جعلتُ لها السورى في نفسها.

فدخلتا عليها فأعلماهما بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرّها؛ وذكرنا من فضله وكمال مروءته وكرم مَحْتِدِهِ؛ فقالت لهما: إنه في قریش لرفيعُ القدر، وقد تعرفان أنّ الأناة في الأمور أرفق لما يُخَافُ من المحذور؛ وإنني سائلة عنه حتى أعرف دخلة أمره، وأعلمكما بالذي يُزِينُهُ الله لي، ولا قوة إلا بالله، فقالا: وفقك الله، وخار لك؛ وانصرفا عنها، وأعلمنا عبد الله بقولها، فأنشد:

فإن يك صدرُ هذا اليوم ولّى فإنَّ غدًا لناظره قريبٌ

وتحدّث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب، وخطبته ابنة معاوية، ولأموه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه.

ثم استحثّ عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء؛ فأتياها وقالا لها: اصنعي ما أنتِ صانعة واستخيري الله، فإنه يهدي من استهداه؛ فقالت: أرجو أن يكون الله قد خاز لي، وقد استبرأت^(١) أمره، وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسي.

ولقد اختلف من استشرته فيه، فمنهم الناهي عنه، ومنهم الأمر به، واختلافهم أول ما كرهت.

فلما بلغاه كلامها علم أنه مخدوع، وقال: ليس لأمر الله راد، ولا لما لا بد منه صاذاً؛ فإن المرء وإن كمل جلته، واجتمع له عقله، واستد رأيه، ليس بدافع عن نفسه قدراً برأي ولا كيد، ولعل ما سؤوا به واستجدلوا له لا يدوم لهم سروره، ولا يصرف عنهم محذوره.

وذاع أمره، وفشا في الناس. وقالوا: خدعه معاوية حتى طلق امرأته! وإنما أراها لابنه، وقبحوا فعله.

فتمت مكيدته تلك، لكن المقادير أتت بخلاف تدييره؛ وذلك أنه لما انقضت أقرآء^(٢) زينب، وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد؛ فخرج حتى قدم الكوفة، وبها يومئذ الحسين بن علي رضي الله عنهما؛ فبدأ أبو الدرداء بزيارته، فسلم عليه الحسين، وسأله عن سبب مقدمه؛ فقال:

وجهنني معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينب بنت إسحق؛ فقال له الحسين: لقد كنت أردت نكاحها، وقصدت الإرسال إليها إذا انقضت أقرآؤها، فلم يمنعني من ذلك إلا تخير^(٣) مثلك؛ فقد أتى الله بك؛ فاخطب - رحمك الله - علي وعليه، لتتخير من اختاره الله لها، وهي أمانة في عنقك حتى تؤديها إليها، وأعطيتها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه؛ فقال: أفعل إن شاء الله.

(١) المعنى أنها استقصت جميع أموره حتى عرفته كل المعرفة.

(٢) المراد عدتها.

(٣) التخير: الانتقاء.

فلما دخل عليها أبو الدرداء، قال: أيتها المرأة؛ إن الله خلق الأمور بقدرته، وكونها بعزته، فجعل لكل أمر قدرًا، ولكل قدر سببًا؛ فليس لأحد عن قدر الله محيص، ولا للخروج عن أمره مهرب؛ فكان مما سبق لك، وقدر عليك، الذي كان من فراق عبد الله بن سلام إليك، ولعل ذلك لا يضرّك، ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا؛ وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها، ووليّ عهده والخليفة من بعده: يزيد بن معاوية، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، وسيّد شباب أهل الجنة، وقد بلغك شأنهما وسناؤهما وفضلهما، وقد جئتك خاطبًا عليهما فاختراري أيهما شئت.

فسكتت طويلًا، ثم قالت: يا أبا الدرداء؛ لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشخصتُ فيه الرسل إليك، واتبعتُ فيه رأيك، ولم أقتطعه دونك؛ فأما إذ كنت أنت المرسل؛ فقد فوّضتُ أمري بعد الله إليك وجعلته في يديك؛ فاختَر لي أرضاهما لديك، والله شاهد عليك، فأقض في أمري بالتحري، ولا يصدّنك عن ذلك اتباع هوى، فليس أمرهما عليك خفيًا، ولا أنت عما طوّقتك غيبًا.

فقال أيتها المرأة؛ إنما عليّ إعلامك، وعليك الاختيار لنفسك. قالت: عفا الله عنك! إنما أنا ابنة أخيك، ولا غني لي عنك، فلا تمنعك رهبة أحد عن قول الحق فيما طوّقتك، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك؛ والله خير من روعي وخيف، إنه بنا خير لطيف.

فلما لم يجد بُدًا من القول والإشارة قال: أي بنية؛ إن ابن بنت رسول الله ﷺ أحب إليّ وأرضى عندي، والله أعلم بخيرهما لك.

قالت: قد اخترته وأردته ورضيته.

فتزوَّجها الحسين، وساق لها مهرًا عظيمًا. فبلغ ذلك معاوية، فتعاطمه ولام أبا الدرداء لومًا شديدًا، وقال: من يرسل ذا بَلِّه وعمى يركب خلاف ما يهوى.

ثم اطرح معاوية عبد الله بن سلام، وقطع عنه جميع روافده، لسوء قوله فيه، وتهمته أنه خدعه، ولم يزل يَجْفُوه حتى عِيلَ صبره، وقل ما في يده.

فرجع إلى العراق، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه مالًا عظيمًا، ودُرًا كثيرًا؛ فظن أنها تَجَحِّده؛ لسوء فِعله بها، وطلاقها من غير شيء كان منها.

فلقي حسينًا فسلم عليه، ثم قال: قد علمت ما كان من خبري وخبر زينب، وإنني كنت قد استودعتها مالا، ولم أقبضه - وأثنى عليها - وقال له: دَاكِرْهَا أَمْرِي، واحضضْهَا على ردِّ مالي.

فلما انصرف الحسين إليها، قال لها: قد قَدِمَ عبد الله بنُ سلام، وهو يُحْسِنُ الثناء عليك، ويحمل الشَّرَّ عنك في حسن صحبتك، وما أَنَسَهُ قديمًا من أمانتك؛ فسَرَّنِي ذلك وأعجِبْنِي، وذكر أنه كان قد استودعك مالا، فأدِّي إليه أمانته، ورُدِّي عليه ماله، فإنه لم يقل إلا صدقًا، ولم يطلب إلا حقًا.

فقالت: صدق، استودعني مالا لا أدري ما هو، فافدعه إليه بطابعه، فأثنى عليها حسين خيرًا، وقال: ألا أَدْخِلُهُ إِلَيْكَ حَتَّى تَتَبَرَّئِي إِلَيْهِ مِنْهُ كَمَا دَفَعَهُ إِلَيْكَ؟

ثم لقي عبد الله وقال: ما أنكرت مالك، وإنها زعمت أنه بطابعك فادخل إليها، وتسلم مالك منها.

فقال: أو ما تأمر من يدفعه إلي؟ قال: لا؛ بل تقبضه منها كما دفعته إليها.

ودخل عليها حسين، وقال: هذا عبد الله قد جاء يطلبُ وديعته؛ فأخرجت إليه البدر، فوضعتها بين يديه، وقالت: هذا مالك، فشكر وأثنى.

وخرج حسين عنهما، وفضَّ عبد الله بن سلام خواتم بدرة^(١)، وحشى لها من ذلك، وقال: خُذِي فَهوَ قَلِيلٌ مِنِّي؛ فَاسْتَعْبِرَا جَمِيعًا، حَتَّى عَلَّتْ أَصْوَاتُهُمَا أَسْفًا عَلَى مَا ابْتَلِيَا بِهِ، فَدَخَلَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا، وَقَدَّرَقَّ لَهُمَا، فَقَالَ:

أشهد الله أنني طلقته؛ اللهم إنك تعلم أنني لم أتزوجها رغبة في مالها ولا جمالها، ولكنني أردت إحلالها لبغليها.

فسألها عبد الله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساقه إليها من مهر؛ فأجابته إلى ذلك؛ فلم يقبله الحسين، وقال: الذي أرجوه من الثواب خير لي.

فلما انقضت أقرؤها تزوجها عبد الله، وحرّمها الله يزيد بن معاوية.

(١) البدر: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف.

مِن جَيْلِ الْحَبَّاجِ (١)

دخل عمرُ بن عبد العزيز قبل أن يُستخلف على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن عندي نصيحةً، فإذا خلا لك عقلك، واجتمع فهمك فسلني عنها؛ قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنت أعلم لك ما إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم.

فمكث أيامًا ثم قال: يا غلام؛ مَنْ بالباب؟ فقال له: ناسٌ وفيهم عمرُ بن عبد العزيز، فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص، فقال عمر: إنه ليس بعد الشركِ إثمٌ أعظمُ عند الله من الدم وإن عمالك يقتلون، ويكتبون: إن ذنبَ المقتول كذا وكذا، وأنت المسؤول عنه والمأخوذُ به، فاكتب إليهم: ألا يقتل أحدٌ منهم أحدًا حتى يكتب إليك بذنبه، ثم يُشهد عليه، ثم تأمر بأمرِك على أمرٍ قد وضح لك. قال: بارك الله فيك يا أبا حفص.

فكتب إلى الأمصار فلم يخرج (٢) من ذلك إلا الحجاج، فإنه أمضه (٣)، وشق عليه وأقلقه، وظن أنه لم يكتب به إلى أحدٍ غيره، فبحث عن ذلك فقال: من أين ذهينا؟ ومن أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك، فقال: هيهات! إن كان عمر فلا نقض لأمره.

ثم إن الحجاج أرسل إلى أعرابي حزوري (٤) جافٍ من بكر بن وائل، ثم قال له: ما تقول في معاوية؟ فقال منه. قال له: ما تقول في يزيد؟ فسبه. قال: فما تقول في عبد الملك؟ فظلمه (٥). قال: فما تقول في الوليد؟ فقال: أجورهم حين ولأك، وهو يعلم عداك (٦) وظلمك. فسكت عنه الحجاج، واقرصها (٧) منه.

ثم بعث إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوط لديني وأرعى لما استرعتني، وأحفظ له من أن أقتل أحدًا لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي، فشأنك وإياه.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز: ١٣٩. (٢) حرج: ضاق.

(٣) أمضه: ألمه وأوجعه.

(٤) الحرورية: فرقة من الخوارج؛ ينسبون إلى حروراء، موضع بظاهر الكوفة، كان به أول اجتماعهم.

(٥) ظلمه: نسب إليه الظلم.

(٦) العدا: تجاوز الحد في الظلم.

(٧) اقرصها: انتهبها.

فدخل الحُرُورِيَّ على الوليد، وعنده أشرف أهل الشام وعُمَرُ فيهم، فقال له الوليد: ما تقول في؟ قال: ظالم جائر جبار! قال: ما تقول في عبد الملك؟ قال: جبار عاتٍ، قال: فما تقول في معاوية؟ قال: ظالم.

قال الوليد لابن الريان: اضرب عنقه، فضرب عنقه، ثم قام فدخل منزله، وخرج الناس من عنده، فقال: يا غلام: اردد عليّ عمر، فردّه عليه فقال: يا أبا حفص: ما تقول في هذا؟ أصبنا فيه أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبت بقتله، ولعيرُ ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله عزّ وجل، أو تدركه منيته. فقال: شتَميني وشتَم عبد الملك، وهو حُرُورِيٌّ؛ أفتستحلّ ذلك؟ قال: لعمرى ما أستحلّه؛ لو كنت سجنته - إن بدا لك - أو عفوت عنه كان أرشد! فقام الوليد مغضبًا، فقال ابن الريان لعمر: يغفرُ الله لك يا أبا حفص، لقد رادت أمير المؤمنين حتى ظننتُ أنه سيأمرني بضرب عنقك! فقال عمر: ولو أمرك كنت تفعل؟ قال: إي لعمرى!

خدعة (١)

لما ذهب الرشيد لغزو الروم أخذ يفتح المدن والحصون ويخربها، حتى أتاه على هرقله^(٢)، وهي أوثق حصن وأعزه جانبًا، وأمنعه زكنا، فتحصن أهلها - وكان أبؤها يُطلُّ على وادٍ، ولها خندق يُطيفُ بها - ولما ألح عليهم بالمجانيق والسهم والعرادات^(٣) فُتِح الباب، وإذا برجل من أهلها أكمل الرجال، قد خرج في أكمل السلاح فنادى: قد طالت مَواقعتكم إيانا، فلينبرز إليّ منكم رجلان. ثم لم يزل يزيدُ حتى بلغ عشرين رجلاً، فلم يجبه أحد؛ فدخل وأغلق باب الحصن.

وكان الرشيدُ نائمًا فلم يعلم بخبره إلا بعد انصرافه؛ فغضب ولام خدَمَهُ وغلمانَه على تركهم إنباهه^(٤)، وتأسف لقوته. فقيل له: إن امتناع الناس منه سيؤويه ويطنه، وأخر به أن يخرج في غد، فيطلب مثل ما طلب؛ فطالت على الرشيد ليلته، وأصبح كالمنتظر له، ثم إذا هو بالباب قد فُتِح، وخرج طالبًا للمبارزة، وذلك في يوم شديد الحر، وجعل يدعو بأنه يثبت لعشرين منهم.

(٢) مدينة ببلاد الروم.

(١) الأغاني: ١٧ - ٤٦.

(٣) المنجنيق والعرادة: آلتان من آلات الحروب ترمى بها الحجارة.

(٤) أنبهه: أيقظه من النوم.

فقال الرشيد: مَنْ له؟ فابتدره جملة القواد كهزئمة، ويزيد بن مزيد، وعبد الله بن مالك وغيرهم؛ فعزم على إخراج بعضهم؛ فضجت المطوعة^(١) حتى سمع ضجيجهم، فأذن لعشرين منهم، فاستأذنوا في المشورة، فأذن لهم، فقال قائلهم: يا أمير المؤمنين؛ قوادك مشهورون بالبأس والتجدة وعلو الصيت ومدارسة الحروب، ومتى خرج واحد منهم فقتل هذا العليج^(٢) لم يكبر ذلك. وإن قتله العليج كانت ضيعة على العسكر عجيبة، وتلمة لا تسد. فإن رأى أمير المؤمنين أن يخلينا نختار رجلاً فنخرجه إليه! فإن ظفر علم أهل الحصن أن أمير المؤمنين قد ظفر بأعزهم على يد رجل من العامة ومن أفناء^(٣) الناس، ليس ممن يوهن قتله ولا يؤثر، وإن قتل الرجل فإنما استشهد رجل، ولم يؤثر ذهابه في العسكر، ولم يثلمه، وخرج إليه رجل بعده مثله حتى يمضي إليه ما شاء.

قال الرشيد: لقد استصوبت رأيكم هذا؛ فاختاروا رجلاً منهم يعرف بابن الجزري، وكان معروفاً في الشجر بالبأس والتجدة، فقال الرشيد: أتخرج؟ قال: نعم! وأستعين الله. فقال: أعطوه فرساً وزمحا وسيفاً وتزساً. فقال: يا أمير المؤمنين: أنا بفرسي أوثق، ورمحي بيدي أشد؛ ولكني قد قبلت السيف والتزس.

فلبس سلاحه، واستدناه الرشيد فودعه واستتبعه الدعاء، وخرج معه عشرون رجلاً من المطوعة: فلما انقضى في الوادي، قال لهم العليج وهو يعدهم: إنما كان الشرط عشرين وقد زدتم رجلاً. ولكن لا بأس، فنادوه: ليس يخرج إليك منا إلا رجل واحد. فلما فصل منهم ابن الجزري تأمله الرومي، وقد أشرف أكثر الروم من الحصن، يتأملون صاحبهم والقزن، حتى ظنوا أنه لم يبق في الحصن أحد إلا أشرف. ثم أخذاً في شأنهما فاطعنا^(٤) حتى طال الأمر بينهما، وليس يخذش واحد منهما صاحبه.

ثم تحاجزا بشيء فرج كل منهما برميحه، وأصلت^(٥) سيفه، فتجالدا ملياً، واشتد الحر عليهما وتبلد^(٦) الفرسان، وجعل ابن الجزري يضرب الرومي الضربة التي يرى أنه قد بلغ فيها فيتقيها الرومي، وكان تزسه حديداً، فيسمع لذلك صوت منكر.

(٢) العليج: الرجل من كفار العجم.

(٤) تطاعنا.

(٦) التبلد: ضد التجلد.

(١) المطوعة: الذين يتطوعون بالجهاد.

(٣) لا يعلم من هو.

(٥) أصلت السيف: جرده من غمده.

فلما يئس كلُّ واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابنُ الجزري فدخلت المسلمين كآبةً لم يكتبوا مثلها قط، وعَطَعَطَ الرومُ^(١) اختيالاً وتطاوُلًا، وإنما كانت هزيمته حيلةً منه. فَاتَّبَعَهُ العِلْجُ وتمكَّن منه ابنُ الجزري فرماه بوهق^(٢)، فوقع في عنقه وما أخطأه، وَرَكَضَ فَأَلْقَاهُ عن فرسه، ثم عطف عليه، فما وصل إلى الأرض حيًّا حتى فارقه رأسه. فكَبَّرَ المسلمون أعلى تكبير، وَأَنْخَذَلُ الروم، وبادروا الباب يُغلقونه، وَأَتَّصَلَ الخَيْرُ بالرَّشِيدِ فصاح بالقوَاد: اجعلوا النار في المَجَانِيقِ، وارمُوها فليس عند القوم دَفْع. ففعلوا وجعلوا الكتان والنَّفْطَ على الحجارة وأضرموا فيها النار، ورموا بها السُّور فكانت النار تلتصق به، وتأخذ الحجارة وقد تصدعت فتهافتت. فلما أحاطت بها النيران فتحوا الباب مستأمنين ومستقبلين.

(١) العطمطة: تتابع الأصوات واختلاطها في الحرب وغيرها.

(٢) الوهق بفتح الهاء وإسكانها: الحبل يرمى أنشوطه، فتؤخذ به الدابة.

ما جاء في التيقظ والتبصر في الأمور

قالت الحكماء: مَنْ أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ أيس عدوه من كيد له وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: اليقظة حارس لا ينام وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشي، فمن تدرّع بها أمن من الاختلال والغدر والجور والكيد والمكر. وقيل: إن كسرى أنو شروان كان أشد الناس تطلعًا في خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى في زمانه تفحصًا وبحثًا عن أسرار الصدور، وكان يبث العيون على الرعايا والجواسيس في البلاد ليقف على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان، ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه، وسقطت من القلوب هيئته.

تيقظ وتبصر عمر بن الخطاب

رُوِيَ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ليلة من الليالي يطوف يتفقد أحوال المسلمين فرأى بيتًا من الشعر مضروبًا، فلم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلًا قاعدًا، فدنا منه وقال له: مَنْ الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق. قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا.

فانطلق عمر لرجل لا يعرفه فجاء إلى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بنت فاطمة الزهراء رضي الله عنهما: هل لك في أجر قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد. قالت: إن

شئت، قال: فخذني معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن، وائتني بقدر وشحم وحبوب. فجاءت به، فحمل القدر، ومشت خلفه حتى أتى البيت.

فقال: ادخلي إلى المرأة، ثم قال للرجل: أوقد لي نارًا، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضي الله عنها: بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل، وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب: من ولي شيئًا من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمرهم وكبيره، فإنه عنها مسؤول ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة.

ثم قام عمر رضي الله عنه، وأخذ القدر من على النار وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم، وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رضي الله عنه للرجل: قم إلى بيتك وكُل ما في البرمة، وفي غدٍ أت إلينا، فلما أصبح جاءه، فجهزه بما أغناه به وانصرف.

وكان رضي الله عنه من شدة حرصه على تعرف الأحوال وإقامة قسطاس العدل وإزاحة أسباب الفساد وإصلاح الأمة يعس بنفسه، ويباشر أمور الرعية سرًا في كثير من الليالي، حتى أنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج، وسمع حديثًا، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبدًا أسود قدمه إناء فيه مزر وهو يشرب ومعه جماعة، فهتم بالدخول من الباب، فلم يقدر من تحصين البيت، فتسور على السطح ونزل إليهم من الدرجة، ومعه الدرة، فلما رأوه قاموا، وفتحوا الباب وانهزموا فمسك الأسود، فقال له يا أمير المؤمنين: قد أخطأت وإني تائب، فاقبل توبتي، فقال: أريد أن أضربك على خطيئتك. فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت في واحدة، فأنت قد أخطأت في ثلاث: فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحُجْرَات: الآية ١٢] وأنت تجسس، قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: الآية ١٨٩] وأنت أتيت من السطح، وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَيَّ أَهْلِهَا﴾ [الثور: الآية ٢٧]، وأنت دخلت وما سلّمت، فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود، فاستتوبه، فاستحسن كلامه.

وله رضي الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه.

وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك، وكان زياد ابن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلاً كلمه في حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زياداً لا يعرفه، فقال: أنا فلان ابن فلان فتبسم زياد وقال له: أتتعرّف إليّ، وأنا أعرفُ بك منك بنفسك؟. والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدك وجدتك، وأعرف هذه البردة التي عليك وهي لفلان، وقد أعارك إياها، فبهت الرجل وارتعد، حتى كاد يغشى عليه.

ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم وهو: عبد الملك بن مروان، والحجاج، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق، واقتضى آثار ذلك الفريق إلا المنصور ثاني خلفاء بني العباس ولي الخلافة بعد أخيه السفاح، وهي في غاية الاضطراب فنصب العيون، وأقام المتطلعين، وبث في البلاد والنواحي من يكشف له حقائق الأمور والرعايا، فاستقامت له الأمور، ودانت له الجهات ولقد ابتلي في خلافته بأقوام نازعوه، وأرادوا خلعه، وتمردوا عليه، وتكاثروا، فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له في الخلافة قدم، ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم، لكنه بث العيون فعرف من انطوى على خلافه فعالجه بإتلافه، واطلع على عزائم المعاندين فقط رؤوس عنادهم بأسيافه، وكان بكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه، فذلت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب، وقرر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب.

تيقظ وفطنة المنصور

فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله عنه عقبة الأزدي قال: دخلت مع الجند على المنصور فارتابني، فلما خرج الجند أدناني وقال لي: من أنت؟ فقلت: رجل من الأزدي، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص، فقال: إني لأرى لك هيبة وفيك نجابة، وإني أريدك لأمر وأنا به معني، فإن كفتينيه رفعتك، فقلت: إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين.

فقال: أخف نفسك واحضر في يوم كذا. قال: فغبت عنه إلى ذلك اليوم، وحضرت، فلم يترك عنده أحداً، ثم قال لي: اعلم أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتياله ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم

بصدقات أموالهم وألطف بلادهم، فخذ معك عيّنًا^(١) من عندي، وألطفًا^(٢)، وكتبًا، واذهب حتى تأتي عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، فأقدم عليه متخشعًا، والكتب على السنة أهل تلك القرية والألطف من عندهم إليه، فإذا رآك، فإنه سيردك ويقول: لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوده وقل له: قد سيروني سرًا، وسيروا معي ألطفًا وعيّنًا، وكلما جبهك وأنكر اصبر عليه، وعاوده، واكشف باطن أمره.

قال عقبة: فأخذت كتبه والعين والألطف، وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن، فلقيته بالكتب، فأنكرها ونهرني وقال: ما أعرف هؤلاء القوم قال عقبة: فلم أنصرف، وعاودته القول وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم، وأن معي ألطفًا، وعيّنًا، فأنس بي، وأخذ الكتب وما كان معي.

قال عقبة: فتركته ذلك اليوم، ثم سألته الجواب، فقال: أما كتاب، فلا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم، فاقرئهم السلام واخبرهم أن ابني محمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا.

قال عقبة: فخرجت من عنده، وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك، فقال لي المنصور: إني أريد الحج، فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقاني بنو الحسن وفيهم عبد الله، فإني أعظمه وأكرمه وأرفعه، وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله، ونظرت إليه، فتمثل بين يدي، ووقف قدماه، فإنه سيصرف وجهه عنك، فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرف عنه، وإياك أن يراك وهو يأكل. ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد الله إلى جانبه وحادثه، فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه، فلما فرغوا أمر برفعه، ورفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال: يا أبا محمد قد علمت أن مما أعطيتني من العهود والمواثيق أنك لا تريدني بسوء ولا تكيد لي سلطانًا، قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين.

قال عقبة: فلحظني المنصور بعينه، فقمت حتى وقفت بين يدي عبد الله بن الحسن، فأعرض عني، فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلي، ورفع رأسه وملأ عينيه مني ثم وثب حتى جثى بين يدي المنصور وقال: أفلني يا أمير المؤمنين

(٢) ألطفًا: هدايا وطعام وحسنات.

(١) عيّنًا: جاسوسًا وحارسًا.

أقالك الله. فقال له المنصور: لا أقالني الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمد وإبراهيم ويستعلم أخبارهما.

قال علي الهاشمي صاحب غدائه، دعاني المنصور يوماً فإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويحك اصدقيني، فوالله ما أريد إلا الألفة، ولئن صدقتيني لأصلن رحمه ولأتبعن البر إليه. وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وهي تقول: لا أعرف له مكاناً، فأمر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمي عليها، فقال: كفوا عنها، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شم الطيب وصب الماء البارد على وجهها وأن تسقى السويق، ففعلوا بها ذلك، وعالج المنصور بعضه بيده، فلما أفاقته سألتها عنه، فقالت: لا أعلم، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها: أتعرفين فلانة الحجامة، فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك من بني سليم قال: صدقت. هي والله أمتي ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر، وكسوة شتائها وصيفها من عندي سيرتها، وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أحوالكم وأخباركم.

ثم قال لها: أتعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين هو في بني فلان، قال: صدقت هو والله غلامي دفعت إليه مالا، وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة، وأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء، وحوائح، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: كان محمد بن عبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع، وهو يدخل الليلة، وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب. فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف، وأذعنت له بالحديث وحدثته بكل ما أراد.

فهرس المحتويات

الباب الرابع

٥	أولاً: قصص العقلاء والأذكاء
٦	قصة سليمان بن داود وصاحبي الخرث والغنم
١٠	قصة إياس بن معاوية القاضي
١٠	من عقلاء الروم
١١	فطنة وذكاء رسول الله ﷺ
١٣	فطنة وذكاء إبراهيم عليه السلام
١٤	فطنة وذكاء سليمان عليه السلام
١٥	لقمان الحكيم وشرب النهر
١٦	عبد الله بن عامر الأزدي وسيل العرم
١٧	فطنة وذكاء الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم
١٧	أبو بكر الصديق رضي الله عنه
١٧	عمر بن الخطاب رضي الله عنه
١٨	علي بن أبي طالب رضي الله عنه
١٩	الحسن بن علي رضي الله عنه
١٩	الحسين بن علي رضي الله عنه
١٩	العباس رضي الله عنه
٢٠	عبد الله بن رواحة رضي الله عنه
٢٠	محمد بن مسلمة رضي الله عنه
٢١	سويبط بن حرملة رضي الله عنه
٢٢	معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

٢٢	حذيفة بن اليمان رضي الله عنه
٢٣	المغيرة بن شعبة رضي الله عنه
٢٤	عمرو بن العاص رضي الله عنه
٢٤	خزيمة بن ثابت رضي الله عنه
٢٥	الحجاج بن غلاط رضي الله عنه
٢٦	نعيم بن مسعود رضي الله عنه
٢٧	الأشعث بن قيس
٢٨	وحشي بن حرب
٢٨	فطنة كعب بن سور
٢٨	قضاء شريح
٢٩	فطنة إياس بن معاوية
٢٩	ذكاء قاضي واسط
٣٠	إياس بن معاوية وجاحد الوديعه
٣٠	حفص بن غياث وإنفاذ الحكم
٣١	ابن أبي داود والأفشين
٣١	الأعمش وأبو حصين
٣١	أبو حنيفة واللصوص
٣٢	أبو حنيفة ورجل من الطالبين
٣٢	شربة ماء بخمسة دراهم
٣٣	أبو حنيفة وطالب القضاء
٣٣	المهر الغالي
٣٤	قيمه عشرة آلاف درهم
٣٤	أبو يوسف والرشيد
٣٥	الإمام الشافعي والرشيد
٣٥	أبو العيناء والمتوكل
٣٦	ابن جرير الطبري والأيمان
٣٦	ذو النون والأمانة
٣٧	أولاد نزار والأفعي الجرهمي
٣٨	أحيل من عمرو بن معديكرب

٣٩	رسالة تحذير
٣٩	حوار شعري
٤٠	قسمة ضيف ثقيل
٤١	أين التين؟
٤١	زياد ورجل من الخوارج
٤١	مَن غلب الجاحظ
٤٢	مَن يتمنى أكثر
٤٢	سعيد بن العاص ومولى له
٤٢	الحجاج ورجل
٤٢	عمرو بن العاص ورجل
٤٣	خطبة من بثر جلولاء
٤٣	مَن أخجل الصاحب بن عباد
٤٣	زوال محنة
٤٤	كُل لا واشرب لا
٤٤	هو في الكوز
٤٤	أبو عثمان الخالدي ومخت
٤٥	أنا ابن آدم
٤٥	فطنة أبي بكر الرازي
٤٦	ذكاء طيب
٤٧	الغم هو الدواء
٤٧	القطيعي الطيب
٤٨	الجراد الشافي
٤٩	القاضي حسين والفتاة العلية
٥٠	الرشيد وجبريل بن بختيشوع
٥١	ابن نوح الطيب
٥١	ناكح الحمام
٥٢	جارية تتمطى
٥٣	الطيبات الثلاث
٥٣	نباهة صبي

٥٣	يحتمي بعمر بن الخطاب
٥٤	المأمون ومؤدبه
٥٤	الصبي والحمار
٥٥	ذاك الفعل من أبي
٥٥	المعتصم والفتح بن خاقان
٥٥	صبر امرأة
٥٦	إني وإياك في الجنة
٥٦	عمران بن حطان وأبو الطيب الطبري
٥٦	كثير عزة والعجوز
٥٧	ذو الرمة والجارية السوداء
٥٨	الحجاج وأم البنين بنت عبد العزيز
٥٩	محمد بن عبد الله وجارية شاعرة
٥٩	الرشيد والجارية
٦٠	الرشيد والصبية السائلة
٦٠	ابن الشيطمي والجارية من ولد الحسين
٦١	جميل وبثينة
٦١	موعد غرامي
٦٢	بلاغة جارية
٦٢	اصعد حتى ترى الدنيا
٦٢	هل أقبل الحجر الأسود
٦٢	الخيزران والمهدي
٦٣	المهدي وجاربته الحسناء
٦٣	حيلة ناجحة
٦٤	نكره منك ما تكره متا
٦٤	وافق شن طبقة
٦٤	بانث وهي في الحياة
٦٥	يسترزق من بيوت الجيران
٦٥	الأدرع والغولة
٦٦	يسار الكواعب

٦٧ ثانيا - قصص الحمقى والمغفلين
٦٧ أسماء الأحمق
٦٩ من ضرب المثل بحمقه
٦٩ هبنقة
٧٠ أبو غبشان
٧٠ شيخ مهو
٧٠ عجل بن لجيم
٧١ حمزة بن بيض
٧١ أبو أسيد
٧١ جحا
٧٤ مزبد
٧٤ أزهر الحمار
٧٥ جامع الصيدلاني
٧٥ الجصاص
٨٢ التي نقضت غزلها
٨٢ دغة
٨٢ ربطة
٨٣ حماقة عيسى بن صالح
٨٣ رسالة مستعجلة
٨٣ خطبة للمهلب
٨٤ خطبة الجمعة
٨٤ استقللتها
٨٤ الشاهد يرى ما لا يرى الغائب
٨٥ مقوم الناقة
٨٥ حماقة قباذ
٨٥ حماقة نصر بن مقبل
٨٥ الموت خير للجاهل من الحياة
٨٥ حسة ذكية
٨٦ ثلاثة وهم رجل واحد

٨٦	ضربة
٨٦	زن من الثاني
٨٦	أبو دلامة وعافية
٨٧	المنثي على نفسه
٨٧	الأمير آخر الجمعة
٨٨	صاحب الشرطة ينظر في الدماء
٨٨	حبس صاحب الحق
٨٨	استحلف جاره
٨٨	قاضي تاهرت
٨٩	كاتب أحمق
٨٩	صام الناس يوم الفطر
٨٩	شهادة أحمق
٨٩	تعزية
٩٠	رسالة إلى طيب
٩٠	نسي علقته
٩٠	لم يحدث إلا كل خير
٩٠	لا تردني فأحرد
٩٠	أما أنا فأذهب
٩١	أعرابي أحمق
٩١	الكريم لا يرجع بهيته
٩٢	فانظر ما تعطيني
٩٢	يا أعداء الله
٩٢	القوم لم يرحلوا
٩٢	امرأتي طالق لوجهك تعالى
٩٣	لا شكراً
٩٣	صلاة الشتاء
٩٣	عاتبت غنياً
٩٤	ما أرى المطلوب غيري
٩٤	صلاة أعرابي

٩٤	أعرابي يقوم بالليل
٩٤	استك
٩٥	مَن ختنك
٩٥	أنت في الخرا إلى الحلق
٩٥	من طرائف النحاة
٩٦	مادح سيف الدولة
٩٧	أملك طالق
٩٧	حماقة سيفويه
٩٨	من هذا عجبت
٩٨	اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف
٩٩	مَن أحب أن يشهد خاتمة السورة
٩٩	بلبل عليهم عيشهم
٩٩	قاصر أحمق
٩٩	اقتلوا الشيطان عطشًا
٩٩	لا تسألوا عن أشياء
١٠٠	المزابلي وابن الزكوري
١٠١	يبدل الله سنانهم خشبات
١٠١	تواضع
١٠١	طول اللحية لا يخلف
١٠١	دعاء
١٠٢	دعاء آخر
١٠٢	دعاء آخر
١٠٢	لا أدخل بين الأنبياء
١٠٢	فطنة معلم
١٠٣	أبلغ من العصا
١٠٣	معلم مريض
١٠٣	معلم أبله
١٠٣	أدخل سورة في سورة
١٠٣	جمل يعضُّ أذن نفسه

- ١٠٤ معلّم يشتم الصبيان
- ١٠٤ بينه وبينهم شرط
- ١٠٤ منقذ ذكي
- ١٠٤ مَنْ عَيْرٌ عَيْرٌ
- ١٠٥ أخبرتها بعيوبي كلها
- ١٠٥ الأحنف والشاب
- ١٠٥ أبو الشوارب
- ١٠٥ رواد مسجد حمص
- ١٠٦ يفضلون الكباشي على معبد
- ١٠٦ ما علمت أنك حمار
- ١٠٦ بصير بالبراذين
- ١٠٦ يموت إن شاء الله
- ١٠٧ متى يحرم على الصائم الطعام؟
- ١٠٧ متى يفطر الصائم؟
- ١٠٧ أنا أفطر عن أمي
- ١٠٧ عالم بالأنساب
- ١٠٨ أسوأ الناس حالاً
- ١٠٨ قياس لا يصح
- ١٠٨ إقرار
- ١٠٨ ليس ههنا موضع إن شاء الله
- ١٠٩ من تمد
- ١٠٩ ذكاء مفرط
- ١٠٩ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية ١] تقتل الحمير
- ١٠٩ فتوى
- ١١٠ سمكة لذيدة
- ١١٠ ما شبت
- ١١٠ نزلت في عهد عمر
- ١١٠ أعظم من المصيتين
- ١١٠ كلبان

١١١	ثلث القرآن
١١١	أتعلم السفر
١١١	أرفق به
١١١	أنسى كل يوم
١١١	نصيحة
١١٢	نهرب من شهر رمضان
١١٢	تفصيل
١١٢	فرس طائر
١١٢	دجاجة تعرف الطريق
١١٣	يصح الوقف
١١٣	حيلة
١١٣	مَنْ طَلَّقَ مَنْ؟
١١٤	تذير
١١٥	البصرة في دارك
١١٥	لا تقطعوا اللطم
١١٥	عادة سيئة
١١٥	أمضه وأرمي تفله
١١٥	حب مفرط
١١٦	نية حسنة
١١٦	ما سمعت منهما شيئاً
١١٦	علم
١١٦	اللجام لي
١١٦	تعزية
١١٦	مزين
١١٧	قناعة
١١٧	خرى الأسد في سروالي
١١٧	متاع قائم ومتاع مسترخ
١١٧	أبو رافع لا يكذب في نوم ولا يقظة
١١٨	أهلك أعلم بك!

١١٩	المقادير تصير العي خطييا
١١٩	لئن شكرتم لأزيدنكم
١١٩	يؤم الحساب
١٢١	إن أعطو منها رضوا
١٢٢	ما اختار غير عبد الله بن طاهر
١٢٣	أترى الله يعطيك وينساني
١٢٤	أبو ذؤلف وجعيفران الموسوي
١٢٥	أعجب ما رأيت من المجانين
١٢٧	مجنون أديب
١٢٨	غنى وغفلة
١٢٩	حذاء أبي القاسم
١٣٢	من طرائف الحمقى والمغفلين

الباب الخامس

١٥٣	قصص الملوك والخلفاء والوزراء والحجاب والولاة
١٥٣	في ذكر الوزراء
١٥٥	في ذكر الحجاب
١٥٨	معاوية وسعد بن مالك
١٥٩	في ذكر الولاة
١٦١	الوزير المخلص
١٦٥	قصص القضاة والقصاص
١٦٥	في ذكر القضاة
١٦٩	في ذكر القصاص والمتصوفة
١٧٠	في ذكر العبيد والإماء والخدم
١٧٢	هذا طيب وهذا حقار
١٧٣	عمرو الأعجمي والعبد الأسود
١٧٣	قصص متفرقة
١٧٣	عبد الملك بن مروان وملك الروم
١٧٤	السفاح وعبد الله بن حسين
١٧٤	السفاح ورجل من آل أبي طالب

١٧٥ المنصور وابن هرمة
١٧٥ المنصور والخائنة
١٧٦ مكيدة المنصور
١٧٦ المهدي وشريك بن عبد الله
١٧٧ المهدي ونعل رسول الله ﷺ
١٧٧ المأمون وابن أبي حفصة الشاعر
١٧٨ المعتضد بالله والقاسم بن عبيد الله
١٧٩ المعتضد بالله والغلام الأسود
١٨٠ المعتضد بالله والصيد
١٨١ المعتضد بالله والقمار
١٨٢ يحيى البرمكي والتجارة الراحبة
١٨٣ الفضل بن الربيع وزير الرشيد
١٨٣ أمان أبي الحسن بن الفرات
١٨٤ عطر الرجال
١٨٤ الملك والجاسوس
١٨٤ عضد الدولة والعقد
١٨٥ عضد الدولة والمتصلص
١٨٦ عضد الدولة وقطاع الطريق
١٨٧ عضد الدولة وسارق المال
١٨٧ عضد الدولة والسلامي
١٨٨ جلال الدولة وسارق البطيخ
١٨٨ عمر بن عبد العزيز وأحد ولاته
١٨٩ المنصور ومعن بن زائدة
١٨٩ المأمون وعبد الله بن طاهر
١٨٩ ابن طولون والقياس الصحيح
١٩٠ ابن طولون والحمال
١٩٠ علم الكسائي
١٩١ الوثاقي واللصوص
١٩٢ ابن النسوي والأكل الحلال

- ١٩٣ في قِصُورِ بَنِي أُمَيَّة
- ١٩٤ في دَارِ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ
- ١٩٨ الْمُعْتَصِمِ فِي يَوْمِ الْعِيدِ
- ٢٠١ رُسِلَ الرُّومَ عِنْدَ النَّاصِرِ
- ٢٠٣ لَيْلَةَ بَمَالِقَةَ
- ٢٠٥ الشَّمْعَةَ وَالسَّرَاجَ
- ٢٠٦ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَعَ ابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ احْتَضَرَ
- ٢٠٦ الْمَنْصُورِ وَأَهْلِهِ
- ٢٠٨ هَذَا بُغْيَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
- ٢٠٩ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ وَالْأَسْوَدَ
- ٢١٠ أُمُويَ عِنْدَ الرَّشِيدِ
- ٢١٣ الْمَأْمُونُ يَغْفُو عَنِ الْحَسَنِ بْنِ الضَّحَّاكِ
- ٢١٤ شَبَّ عَمْرُو عَنِ الطُّوقِ
- ٢١٦ تَأْدِيبُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِعَمَالِهِ
- ٢١٧ تَنْصُرَتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارِ لَطْمَةِ
- ٢٢١ بِصِيرَةِ الْعَبَّاسِ
- ٢٢٣ أَثَرُ الْمَغْرُوفِ
- ٢٢٤ لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهُ
- ٢٢٥ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
- ٢٢٦ خَلِيفَةَ بَيْنَ يَدَيْ قَاضٍ
- ٢٢٧ الْعَهْدِ لِعَمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ
- ٢٢٩ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْحَقِّ
- ٢٣١ لَا تَلُومُوا إِلَّا أَنْفُسَكُمْ
- ٢٣١ ذَكَرْتَنِي الطَّغْنُ وَكُنْتُ نَاسِيًا
- ٢٣٢ الْوَلَدُ سِرُّ أَبِيهِ
- ٢٣٣ أَوَارَتْ أَنْتَ بَنِي أُمَيَّة
- ٢٣٥ حَدَّرَ عَيْسَى بْنُ مُوسَى
- ٢٣٦ يَقَطَّةَ الْمَنْصُورِ
- ٢٣٧ الْمَنْصُورِ فِي سَاحَةِ الْقَضَاءِ

٢٣٨ نَبِيي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبِيي
٢٣٩ هَمْدَانِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ
٢٤١ أَمِيرٌ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ
٢٤٣ قَاضٍ يَطْلُبُ إِقَالَتَهُ مِنَ الْقَضَاءِ
٢٤٤ أَبُو دُلَامَةَ وَابْنُ أَبِي لَيْلَى الْقَاضِي
٢٤٤ صَاحِبُ شَرْطَةِ الْمَهْدِيِّ مَعَ الْهَادِي
٢٤٦ لَا أَفْلَحُ قَاضٍ لَا يَقِيمُ الْحَقَّ
٢٤٧ الْعَادِرِ مَخْذُولٍ
٢٤٨ رَجُلٌ يُقَاضِي الْمَأْمُونِ
٢٤٩ لَا يَخْلُو أَحَدٌ مِنْ شَجَنٍ
٢٥٠ كَيْفَ يَعْتَذِرُ إِنْسَانٌ مِنْ كَلَامِ تَكَلَّمَ بِهِ
٢٥٢ غَزَسُ يَدِي وَإِلْفُ أَدْبِي
٢٥٣ عَسَّانُ بْنُ عَبَّادٍ وَعَلِيُّ بْنُ عَيْسَى
٢٥٥ فِطْنَةٌ
٢٥٦ لَا يَتَّبِعُ الْهَوَى
٢٥٦ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّائِلِ وَأَحَدُ صَنَائِعِهِ
٢٥٨ قَاضٍ لَا يَقْبَلُ شَهَادَةَ خَلِيفَةَ

الباب السادس

٢٦٣ قِصَصُ الْفَصَحَاءِ وَالْبُلْغَاءِ
٢٦٣ فِي الْبَيَانِ وَالْبَلَاغَةِ
٢٦٤ فِي الْفِصَاحَةِ
٢٦٧ ذِكَاةٌ وَفِصَاحَةٌ أُسِيرٌ
٢٦٨ الزَّمُّ الْفَرْقَدِيْنَ
٢٦٨ فِصَاحَةُ عَلِيَّةِ بِنْتِ الْمَهْدِيِّ
٢٦٨ مَعَاوِيَةُ وَالْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ
٢٦٩ الْكَلَامُ إِلَى نِيَّةِ الْمُتَكَلِّمِ
٢٦٩ فِصَاحَةُ امْرَأَةٍ
٢٧٠ حُسْنُ التَّخْلِصِ
٢٧٠ حَمَادُ الرَّاوِيَةِ وَالْقُرَّانُ

- ٢٧١ المأمون يمتحن واليآ له
- ٢٧١ كتاب القاضي الفاضل
- ٢٧٢ إخلاص زوجة
- ٢٧٤ من ماء
- ٢٧٤ لو كان الأمر بالكبير
- ٢٧٤ غلام يعظ عمر بن عبد العزيز
- ٢٧٥ درواس بن حبيب وهشام بن عبد الملك
- ٢٧٥ المرء بأصغريه
- ٢٧٦ أسئلة هرقل وأجوبة ابن عباس
- ٢٧٧ أسئلة الحجاج وأجوبة الغضبان بن القبعثري
- ٢٨١ محمد بن عبد الملك والمأمون
- ٢٨٢ حروف المعجم في بدن الإنسان
- ٢٨٣ الحجاج يدخل العراق
- ٢٨٦ الشاهد يرى ما لا يرى الغائب
- ٢٨٨ عالمة بالأنساب
- ٢٨٩ هند بنت النعمان والحجاج
- ٢٩١ فطنة وفصاحة جارية
- ٢٩١ أخذت بثأرها
- ٢٩١ كُثِيرَ عَزَّةَ والعجوز
- ٢٩٢ الحجاج والخارجية
- ٢٩٢ امرأة أصابت ورجل أخطأ
- ٢٩٣ شكوى امرأة
- ٢٩٣ حكاية المتكلمة بالقرآن
- ٢٩٦ عوائد العرب في الخطابة
- ٢٩٨ خطبة قُتْسَ بن ساعدة الإيادي
- ٢٩٩ خطبة عبد المطلب بين يدي سيف بن ذي يزن
- ٣٠١ ومن خطبة لكعب بن لؤي وهو الجد السابع للنبي ﷺ
- ٣٠٢ نعيم بن ثعلبة الكناني
- ٣٠٢ خطبة سعد بن عبادة يوم السقيفة

- ٣٠٣ خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع
- ٣٠٥ خطبة الحسن بن علي بن أبي طالب بعد وفاة أبيه
- ٣٠٦ وخطبته بعد الصلح مع معاوية
- ٣٠٧ خطبة الحسين بن علي عليه السلام
- ٣٠٧ ما قاله الإمام الحسين (ع) غداة يوم مقتله
- ٣٠٨ خطبة معاوية بن يزيد بن معاوية
- ٣٠٨ خطبة محمد ابن الحنفية
- ٣٠٩ وصية عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب لابنه
- ٣٠٩ من أخبار أهل الخطابة والبلاغة
- ٣٠٩ إياس بن معاوية
- ٣١٠ عون بن عبد الله
- ٣١١ من خطبة البرزخ للإمام علي بن أبي طالب
- ٣١٢ ومن خطبة له عليه السلام تسمى «البرزخ» وهي من الخطب العجيبة
- ٣١٢ ومن الخطباء البلغاء عبد الله بن عباس
- ٣١٣ فتنة المدينة ووقعة الحرّة
- ٣١٣ فتنة البصرة
- ٣١٤ خطبة عبد الله بن عامر
- ٣١٤ خطبة الضحاك بن عبد الله الهلالي
- ٣١٤ خطبة زياد بن أبيه
- ٣١٥ من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي
- ٣١٨ من عمّر دنياه وأخرّب آخرته
- ٣١٩ خطابة من والاه ومالاه على ذلك
- ٣٢٠ خطبة الكميث عند هشام بن عبد الملك
- ٣٢٢ أسلوب أكرم بن صَيْفِي في إرسال الحكمة والوصية والخطابة
- ٣٢٣ بنو الكواء
- ٣٢٣ خطبة داود بن علي، وقد أزيح على السفاح
- ٣٢٤ رُوح بن زنياع ومعاوية
- ٣٢٥ يكره يوم الجمعة!
- ٣٢٥ حسن التخلّص

- ٣٢٦ خطبة السفاح بأهل الشام لما قتل مروان بن محمد
- ٣٢٦ خطبة داود بن علي، وقد أرتج عليه
- ٣٢٧ خالد بن صفوان وأحوال السفاح
- ٣٢٨ خطبة للمأمون
- ٣٢٨ خطبة لعلي رضي الله عنه
- ٣٢٨ خطبة للحجاج
- ٣٢٩ في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة
- ٣٣٠ وصية صديق
- ٣٣٠ عظة الحسن البصري
- ٣٣١ وصية علي بن أبي طالب
- ٣٣٢ وصية هشام بن عبد الملك
- ٣٣٢ عظة الأوزاعي للمنصور
- ٣٣٢ عظة زيد بن أسلم لجعفر بن أبي طالب
- ٣٣٢ عظة ابن طاوس للمنصور
- ٣٣٣ عظة كعب الأحبار لعمر بن الخطاب
- ٣٣٣ عظة أبي بكر الطرطوشي للأفضل ابن أمير الجيوش
- ٣٣٤ عظة الفضيل بن عياض للرشيد
- ٣٣٧ في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم
- ٣٣٨ نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم
- ٣٣٨ بين قيس بن الخطيم وطرفة
- ٣٣٨ بين عبدة بن الطيب وامرئ القيس
- ٣٣٩ بين كُثَيِّر والحطيئة
- ٣٣٩ بين جرير وزهر
- ٣٣٩ بين الشماخ وآخر
- ٣٣٩ بين أبي تمام والأخطل
- ٣٤٠ من سقطات الشعراء
- ٣٤٠ أبو العتاهية
- ٣٤٠ بشار بن برد
- ٣٤١ أبو الطيب المتنبّي

٣٤١	سكينة بنت الحسين والشعراء
٣٤٢	عمر بن عبد العزيز والشعراء
٣٤٥	سقطه الأحنف بن قيس
٣٤٦	في الكتابة والكتاب
٣٤٨	أول من وضع الكتابة
٣٥٠	الكتابة في الإسلام
٣٥٠	استفتاح الكتب
٣٥١	كتاب النبي ﷺ
٣٥٢	أيام أبي بكر رضي الله عنه
٣٥٢	أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٣٥٢	أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه
٣٥٢	أيام علي بن أبي طالب عليه السلام
٣٥٣	الكتابة قبل التاريخ
٣٥٣	الكتابة الهيروغليفية
٣٥٣	أحرف الهجاء قبل الميلاد
٣٥٤	أصول اللغة البشرية
٣٥٤	الكتابة البابلية
٣٥٤	الحروف البابلية
٣٥٥	حجر رشيد بابلي
٣٥٥	اللغة البابلية
٣٥٦	أوغاريت - مهد الكتابة الهجائية - وصناعة حروف الهجاء
٣٥٧	أقدم أثر للكتابة من أيام السومريين
٣٥٧	أقدم كتاب
٣٥٧	أوراق البردي
٣٥٧	الورق
٣٥٨	أول ما استخدم المسلمون الورق
٣٥٩	المعتصم وبناء المعامل
٣٥٩	الكتابة العربية
٣٥٩	الكتابة: خطية وإنشائية

- التدوين والتصنيف ٣٦٠
- الكتابة الخطية في العهد العباسي ٣٦١
- أشهر كُتَّاب الدولة العباسية ٣٦٢
- ابن مقلة ٣٦٢
- كتابة الرسائل في العصر العباسي الثاني ٣٦٣
- أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي (٣٢٠ - ٣٨٤ هـ) ٣٦٤
- بديع الزمان الهمذاني ٣٦٥
- أبو الفتح البُستي ٣٦٦
- اللغة العربية في مالطة ٣٦٧
- قصص متفرقة ٣٦٧
- بثو أسد وأمرؤ القيس ٣٦٧
- نَهَايَةُ الأَعْشَى ٣٦٩
- رثاء فَوْقَ قَبْرِ ٣٧٠
- بِمِثْلِ هَذَا فَلْيُثْنِ عَلَى المُلُوكِ ٣٧١
- عُتْبَةُ وَأَعْرَابِيّ ٣٧٣
- إِنْ مِنَ البَيَّانِ لَسِحْرًا ٣٧٣
- عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَالحَطِيطَةِ ٣٧٤
- طَرِيدُ لِسَانِهِ ٣٧٥
- عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ وَمَقْتَلُ أَخِيهِ مَصْعَبٍ ٣٨١
- عَمْرُ بْنُ أَبِي رَيْبَعَةَ وَجَمِيلٍ ٣٨٢
- لِشَعْرِ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ نَوَّطَهُ بِالْقَلْبِ ٣٨٣
- ابن المسيَّب يَفْخَرُ بِصَاحِبِهِ ٣٨٥
- أَعْشَى هَمْدَانَ يَهْجُو وَيَمْدَحُ ٣٨٥
- أَشْجَعُ النَّاسِ شِعْرًا ٣٨٦
- الحَجَّاجُ عَلَى قَبْرِ ابْنِهِ ٣٨٧
- إِنْ صَدَقْتَكَ أَغْضَبْنَاكَ ٣٨٨
- جَمِيلُ أَشْعَرَ النَّاسِ ٣٨٩
- مَنْ أَشْعَرَ النَّاسِ؟ ٣٨٩
- الشَّعْبِيُّ عِنْدَ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ٣٩٢

٣٩٤ تلطف عبد الله بن الحجاج
٣٩٦ نصيب عند عبد العزيز بن مروان
٣٩٩ سليمان بن عبد الملك وسمية
٣٩٩ عقيد السدي
٤٠١ إيجاز في المقال وبلاغة في البيان
٤٠٢ هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
٤٠٣ واعظ الملوك
٤٠٦ إن خالدا أدل فأمل
٤٠٧ أبو النجم عند هشام بن عبد الملك
٤٠٩ لا يعرف الكلام إلا بشره
٤١٠ أنجحت وفادتك ووجبت ضيافتك
٤١١ شاعر بني هاشم
٤١٣ إن يمني يغلب شومك
٤١٥ قتلهم الشعر
٤١٦ المنصور أحق بشعر طريف
٤١٧ المحبة مفتاح كل خير
٤١٨ المنصور والشعراء
٤١٩ المؤمل يمدح المهدي
٤٢٠ مدائح وعطايا
٤٢٥ فصاحة نصيب
٤٢٧ أته الخلافة
٤٢٨ صريع العواني
٤٢٩ الرشيد وابن منذر
٤٣٠ ربيعة الرقي يمدح فلا يثاب
٤٣٢ شاعر بين يدي الرشيد
٤٣٤ يبابك أنزلت حاجتي
٤٣٤ النكث في البيع خير من خيانة الشريك
٤٣٥ باتت تعيرني الإقتار والعدما
٤٣٦ سكنت عيني والله الحمى

- ٤٣٧ عَجُوزٌ تُنْشِدُ الْأَصْمَعِيَّ شِعْرًا
- ٤٣٨ الْأَصْمَعِيَّ وَبَعْضَ الْأَعْرَابِ
- ٤٤٠ شِغْرٌ مُرْتَجَلٌ
- ٤٤١ هَوْنَتْ عَلَى الْعَزَلِ
- ٤٤٣ أَرَى الْأَيَّامَ لَا تُدْنِي الَّذِي ارْتَجَى
- ٤٤٣ حَدِيثٌ عَنِ دِغِيلِ
- ٤٤٥ دِغِيلٌ عِنْدَ وَالِيِ مِصْرَ
- ٤٤٧ دِغِيلٌ وَعَلِيُّ الرِّضَا
- ٤٤٨ سَجَدُوا لِشِغْرِهِ
- ٤٤٩ إِنَّمَا الدَّنِيَا أَبُو دُلْفٍ
- ٤٥١ مِدْحَةٌ شَاعِرٍ وَعَطِيَّةُ أَمِيرٍ
- ٤٥٢ بَيْنَ أَبِي تَمَامٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ
- ٤٥٣ لَا يَعْجِبُكَ مَنْ يَصُونُ ثِيَابَهُ خَوْفَ الْغَبَارِ وَعِزُّهُ مَبْدُولٌ
- ٤٥٦ سِعَايَةٌ
- ٤٥٧ ابْنُ جَاخٍ يَنْشِدُ الْمُعْتَضِدَ بْنَ عَبَادٍ شِعْرَهُ
- ٤٥٨ لَوْلَا فَصَاحَتُهُمْ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ

الباب السابع

- ٤٦٣ قصص الحيل والخداع
- ٤٦٣ عمر بن الخطاب والهرمزان
- ٤٦٤ سلسلة صخرة بيت المقدس
- ٤٦٤ حيلة المختار بن أبي عبيدة
- ٤٦٤ حنكة سليمان بن داود عليه السلام
- ٤٦٥ زواج المغيرة بن شعبة
- ٤٦٥ حيلة عضد الدولة
- ٤٦٦ اللص قوي القلب
- ٤٦٦ حيلة القاضي إياس
- ٤٦٦ مقتول يأخذ بثأره من قاتله
- ٤٦٧ بيعة في عنقي إلى قيام الساعة
- ٤٦٧ رأيت رجلاً يقبلها

٤٦٧	لطم سيد بني تميم
٤٦٧	عبد الملك وملك الروم
٤٦٧	بشر بن مروان وزوح بن زنباع
٤٦٨	حيلة الحجاج بن علاط السلمي
٤٦٩	الحرب خدعة
٤٧١	إسلام الهرمزان
٤٧٢	رأيت رجلاً يقبلها
٤٧٢	سعيد بن عثمان والمهدي
٤٧٤	حدّثني مائة حديث
٤٧٤	ردّ فضائل قريش عليها
٤٧٤	حيلة سائلين
٤٧٥	تزوير
٤٧٥	ديّة قتيل لم يقتل
٤٧٧	ناقة بدرهم
٤٧٧	أبو دلّامة والمهدي
٤٧٨	خرج الجنّي منها
٤٧٨	الحائك الطيب
٤٨٠	وطأها أمام زوجها
٤٨٠	حيلة الفرزدق
٤٨٠	معاوية والنواقيس
٤٨١	الجندي والراهب
٤٨٣	انعكست الحيلة على نفسه
٤٨٣	بلال بن أبي بردة والحجاج
٤٨٤	المنصور وعيسى بن موسى
٤٨٤	الحارثي والطيب المحتال
٤٨٥	الباقلاني وملك الروم
٤٨٥	الألحي والكوسج
٤٨٦	أبو بكر الخطاط
٤٨٦	عمر وشارب الخمر

٤٨٧	شقائق النعمان
٤٨٧	الرجل المشؤوم
٤٨٧	خالد بن صفوان والسفاح
٤٨٩	نصيب والزوجة الثانية
٤٩٠	كل زوجة لي وراء هذا الباب طالق ثلاثاً
٤٩١	سراقة بن مرداس والمختار
٤٩١	الأصمعي والرشيد
٤٩١	واصل بن عطاء والخوارج
٤٩٢	الحجاج والمصروع
٤٩٢	الحجاج والبستاني
٤٩٢	أبحث عن مفسر لرؤياي
٤٩٣	أبو دلف والمأمون
٤٩٣	عزّة وبثينة
٤٩٤	أبو العجب والبلبل الميت
٤٩٤	ابن المعتز المؤدب
٤٩٤	حيلة ناجحة
٤٩٥	أعمى في يده سراج
٤٩٥	الرشيد وإبراهيم الموصلبي
٤٩٦	عمر بن الخطاب والهرمزان
٤٩٧	من حيل الإسكندر
٤٩٨	من حيل كسرى بن هرمز
٤٩٨	جذيمة الأبرش والزباء
٥٠٤	حيلة شمر ذي الجناح
٥٠٤	حيلة كسرى
٥٠٥	حيل متفرقة
٥٠٦	اللصّ الفقيه
٥٠٧	حيلة لصّ
٥٠٧	الجنيد واللصّ
٥٠٨	ردّوا عليّ فوطتي

٥١٠	لصُّ تائب
٥١١	حمار بسمك
٥١٢	لصُّ يسرق لص
٥١٣	أكل معهم وسرقهم
٥١٤	سرق وهو في السجن
٥١٦	يستدين سرقة
٥١٧	قطعة صابون تتحول آجرًا
٥١٧	ما أنحس هذه الليلة
٥١٨	لصُّ رحوم
٥١٨	العجوز واللص
٥١٩	حيلة أبي حنيفة
٥٢٠	حيلة امرأة
٥٢١	مستحلة
٥٢١	من جيل الكرماء
٥٢٢	دهاء عمّار بن تميم اللخمي
٥٢٣	كيف رأيتم فزاستي في الأعرابي
٥٢٤	من بدائه الشعراء
٥٢٦	قوة حجة
٥٢٧	أذبتني فتأذبت
٥٢٨	حذر إبراهيم بن هزّمة
٥٢٩	المنصور ودليّة بالمدينة
٥٣٠	فطنة كاتب المنصور
٥٣١	الأمين والمأمون بين يدَي الرّشيد
٥٣٢	قمرًا منجدٍ فرعًا خلافه
٥٣٦	قرّنا عين
٥٣٨	حيلة وال
٥٣٩	أعطني على قدري
٥٤٠	طاهر بن الحسين والمأمون
٥٤١	ملك لا تتعصم الطيور منه

٥٤٢	صبي يهجو صبياً
٥٤٤	رسولان
٥٤٥	أعجب السرقات
٥٤٧	حديث عن الغريين
٥٤٩	مسلم يحتال على قريش
٥٥١	دهاء عمرو بن العاص
٥٥٣	خدعة لمعاوية
٥٥٩	من حيل الحجاج
٥٦٠	خدعة
٥٦٣	ما جاء في التيقظ والتبصر في الأمور
٥٦٣	تيقظ وتبصر عمر بن الخطاب
٥٦٥	تيقظ وفطنة المنصور